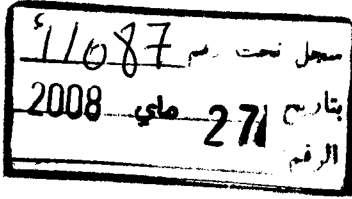
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشعبيّة

وزارة التعليم العالي والبحث العلميّ

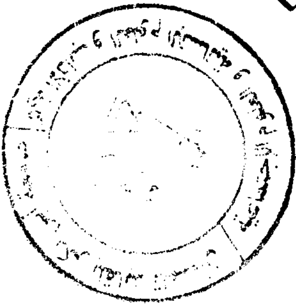
جامعة تلمسان

معهد اللغة العربيّة وآدابها



الشعر الأندلسيّ في عصر الموحّدين

مقاربة لفنونه وخصائصه في الفترة الأولى



رسالة للحصول على شهادة دكتوراه الدولة في الأدب العربيّ

إعداد: محمّد محيي الدين

إشراف: د. محمّد عبّاس

السنة الجامعيّة: 1997 - 1998

إلى روح أبي،

إلى روح أمّي،

دليلَ وفاء، ورمز عرفان لجميل.

محمد

مقـــدّمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الشعر الأندلسيّ فنن ميّاد من دوحة الشعر العربيّ الباسقة. وهـو مـرآة مجلوّة، عكست حياة الأندلسيّين، فتراءى فيه ما طبع تلك الحياة من أحداث مختلفة.

وأيّاً ما كان اختـلاف البـاحثين في تقويـم هـذا الشعر، فقـد توفّـرت في كثـير مـن نصوصـه مقوّمـات الشـعر الخـالد، مـن: إحسـاس متوهّـج، وأفكـار مبتكَـرة، وصور طريفة، ونسج بديع، وإيقاع آسر... وتحقّق في غير مـا نـصّ مـن ذلـك الشـعر ما يتطلّبه النقّاد الجماليّون من إمتاع، وما يريده غيرهم من الأخلاقيّين من إفادة.

وتـاريخ الشـعر الأندلسـيّ حـافل، في جـلّ أعصـره، بـالفنون والأعـلام؛ والفـترة الأولى مـن عصـر الموحّديـن إحـدى مراحـل الازدهـار الـذي عرفتـه الحركـة الشعريـّة في الأندلـس: أظلّـت أعلامـاً مرموقـين، وجـادت القرائـح فيهـا بنصـوص، هي -بحقّ- من أفضل ما أعطت شجرة الإبداع العربيّ.

ففي هذه الفترة عاش شاعر الأندلس في وقته ، أبـو عبـد الله محمّـد بـن غـالب الرُّصافيّ، "وشعره لا نهاية فوقه رونقاً ومائيّة، وحلاوةً وطلاوة، ورقّة ديباجـة، وتمكّـن ألفـاظ، وتـأصّل معنـى"[1]؛ ورائيّتـه في الحنـين إلى وطنـه دُرّة فريـدة في عقـد الأدب الأندلسيّ الثمين. وفي هذه المرحلة وُجد "الوشّاح الأصيل العارف بفنّه"[2]، أبـو بكـر محمّد ابن زُهْر المعروف بـ "الحفيد"؛ وهو صـاحب الموشّـح الـذي سـارت بـه الركبـان، "أيّها الساقي إليك المشتكى". وأظلّ هذا العصر واحداً من أسـاطين الزّجـل، هـو: أبـو عبد الله أحمد بن الحاجّ المشهور بـ "مَدْغَلّيس". ولا يفضُله في مجال إبداعه إلاّ الزجّـال

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، في أخبار غرناطة -تحقيق محمّد عبد الله عنان -القـاهرة -مكتبـة الخـانجي- الطبعة الأولى-1394 هـ. -1974م. -2/506.

(2) إحسـان عبّـاس: تـاريخ الأدب الأندلسيّ: عصـر الطوائـف والمرابطـين -بـيروت -دار الثقافـة- الطبعة الرابعة -1974م. -ص: 242.

الأكبر، أبو بكر محمدابن قزمان.

وقد اخترنا الحركة الشعريّة التي عرفتها الأندلس في هذه الفترة موضوعاً لهذه الرسالة. وشجّعنا على هذا الاختيار -فضلاً عن أهمّيّة الموضوع- أنّنا لم نجد من بين دارسي الأدب الأندلسيّ من خصّ هذه المرحلة ببحث معمّق.

وتمتدّ هذه الفترة من سنة 540هـ.، تاريخ دخول الموحّدين الأندلسَ، إلى سنة 609 هـ.، تاريخ "وقعة العِقاب". وإذا كان اختيارنا هزيمةَ "العقاب" نهاية يقتضي تبريراً مقبولاً، فإنّنا نرى ذلك الحادثَ فاصلاً بين عهدين للسيادة الموحّديّة بالأندلس: عهدِ القوّة، وعهد الضعف.

على أنّنا لم نتقيّد تقيّداً حرفيّاً بذلك التحديد، وإن لم نتجاوزه إلاّ قليلا، وفي حالات نادرة.

وقد اعتمدنا ، في هذه المقاربة، "المنهج التاريخيّ الوصفيّ"، مع محاولة تحليل النص الشعريّ. وإذا كان اهتمامنا منصبّا -في الغالب- على الظواهر الأدبيّة، فلأنّ مقصدنا كان هو جلاءَ صورة مرحلة معيّنة من مسيرة الشعر الأندلسيّ.

وقد أخرجنا هذه الرسالة في تمهيد وبابين وخاتمة ومُلحَق.

فأمّا التمهيد فحاولنا فيه إلقاء الضوء على ما طبع الحياة الأندلسيّة في تلك المرحلة من ظواهر سياسيّة واجتماعيّة وثقافيّة،فتحدّثنا عن دخول الأندلس تحت النفوذ الموحّديّ، وأبرزنا ما بذله الخلفاء الأوائل من جهود لحماية الأندلس وتحقيق الأمن لسكّانها؛ ثمّ أظهرنا ما ميّز الحياة الاجتماعيّة من تعدّد العناصر ونشاط الاقتصاد؛ ثم أبرزنا ما عرفته الحركة العلميّة من ازدهار بفضل ما نالته من تشجيع ورعاية.

وأما الباب الأول فتناولنا فيه بالبحث فنون الشعر، فخصّصنا لكلّ واحد من الفنون البارزة فصلا، وجمعنا ما بقي في فصل خاصّ. وفصّلنا الحديث عن كلّ فنّ متتبّعين ألوانه مبيّنين ما أصاب كلّ لون من تطوّر ، مستشهدين بما يؤكّد ما أصدرنا من أحكام . وقد اقتضت طبيعة الفنّ أو المادّة النصّيّة التي توفّرت لنا أن نركّز، في بعض الفنون، على الألوان،وفي بعضها الآخر على الأعلام: فالشعر الدينيّ

-مثلا- تتبّعنا ألوانه كالزهد والتصوّف والمدائح النبويّة وغيرها، وشعر الغربة والحنين تتبّعنا أعلامه كالرصافيّ البلنسيّ وابن جُبَير وصفوان بن إدريس.

وفي الباب الثاني حاولنا مقاربة الخصائص الفنيّة لذلك الشعر. وقد استهللنا هذا الباب بمدخل وقفنا فيه عند الاتجاهات الفنيّة التي جرى عليها شعراء الأندلس في تلك المرحلة، مبرزين العوامل التي غلّبت "طريقة العرب" على "مذهب المحدثين". وفحصنا في الفصل الأول اللّغة الشعريّة معجماً ونسيجاً مبيّنين ما طبع لغة الشعر القريض، وما اتسمت به لغة الموشّحات والأزجال. وبحثنا في الفصل الثاني "تعامل" الشعراء مع الصورة، فوقفنا عند شغفهم بتوظيفها وسيلةً للتعبير، وبيّنّا المصادر التي كانوا يستقونها منها، وأشرنا إلى تفاوتهم في إتقان بنائها، وذكرنا ما وقع لهم من إبداع فيها مستشهدين ببعض النماذج. وكان الفصل الثالث لبيان خصائص الإيقاع. وقد استعنّا على ذلك بجداول إحصائيّة، وأفردنا لكل من الشعر القريض والموشّحات والأزجال مبحثا خاصّا. وكان الفصل الرابع للحديث عن بنية النص. وفيه ركّزنا على قصيدة المدح لما اتّسم به بناؤها من خطّة خاصّة.

وأما الخاتمة فكانت تلخيصا لبحثنا. وفيها أجملنا ما انتهينا إليه من نتائج، ثم أشرنا إلى ما هدانا إليه البحث من قضايا أخرى ، لها صلة بموضوعنا، ما فتئت في حاجة إلى عناية الباحثين.

وفي الملحَق ترجمنا لأربعة من أعلام الشعر الأندلسيّ الذين أظلّهم ذلك العصر، وهم: الرُّصافيّ البلنسيّ، وابن مُجْبَر، وصفوان بن إدريس، وابن جُبَير؛ وذلك لكون نتاجهم أفضل ممثّل له، ولتوفّر أخبارهم في المصادر.

واعتمدنا في إنجاز هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع. من أهمها: الكتب التي تضمّنت نتاج الشعراء كـ "ديوان الرصافيّ" و"زاد المسافر" و"تحفة القادم"، و"نفح الطيب"، وغيرها، وقد وفّرت لنا مادّةَ الدراسة وحدّدت آفاقها؛ ثم الكتب التي تحدّثت عن أحداث العصر كـ "المعجِب"، و"تاريخ المنّ بالإمامة" وغيرهما، وتمثّلنا،بفضلها،ما طبع تلك المرحلة من أحداث سياسيّة وظواهر اجتماعيّة؛ ثم الكتب

التي تناولت تاريخ الأدب الأندلسيّ، وفي طليعتها ما كتبه الدكتور إحسان عبّاس، واستعنّا بهذا الصنف على وضع نتاج هذه الفترة في مكانه من تاريخ الأدب الأندلسيّ. وكانت عمدتنا في استخلاص السمات الفنّيّة جملة من الكتب النقديّة القديمة والحديثة.

ومن الطبيعيّ أن تواجه الباحثَ صعوبات مختلفة. وأهمّ ما لقيناه من تلك الصعوبات نشير إليه فيما يلي:

1 - جُمعت أشعار كثير من شعراء تلك الفترة، قديماً، في دواوين. إلاّ أن جلّ تلك الدواوين عدا عليه الضياع، ولم يصل إلينا ممّا حوته إلاّ شيء قليل لا يسمح بإصدار أحكام جازمة.

2 - تفرّق ما سلِم من نتاج تلك الفترة من الضياع في مصادر كثيرة: ففضلاً عما تضمّنته المصادر الأدبيّة، حوت كتب التاريخ والجغرافية وكتب التراجم وبرامج الشيوخ وغيرها غير قليل من ذلك النتاج. وليس من السهل جمع كلّ ما خلّف شعراء المرحلة من جميع مصادره.

3 - عاش كثير من الشعراء في عصر المرابطين ثم أدركوا عصر الموحّدين، كما عاش آخرون في الفترة الأولى من هذا العصر ثم امتدّ بهم العمر إلى الفترة الثانية، فكان من الصعب التمييز بين ما قالوه في الفترة التي يتناولها بحثنا، وما قالوه في غيرها. وقد اجتهدنا -ما استطعنا- في فرز شعر هذه الفترة من غيره.

4 - اكتفى كثير من مؤلّفي كتب التراجم والمختارات وغيرهم بأجزاء قصيرة من نصوص قد تكون طويلة. ولا تصلح تلك المختارات إلاّ لإصدار أحكام تقريبيّة.

5 - اختلفت رواية بعض النصوص بين مصدر وآخر. وإذا كان ذلك الاختلاف غير مؤثّر أحياناً، فإنّه قد يحول دون إطلاق حكم صحيح، أحياناً أخرى.

6 - نُسبت نصوص في مصادر إلى شعراء، ونُسبت في أخرى إلى غيرهم؛ ولم نجد -أحياناً- ما يساعد على ترجيح إحدى الروايات على غيرها.

وبعد، فلم نأل جهداً في هذه المحاولة؛ونرجو أن نكون قد سدّدنا وقاربنا، وأن يُسهم هذا البحث في جلاء صورة الشعر الأندلسيّ.

ولا يفوتنا أن نتوجّه بخالص الشكر إلى أستاذنا الفاضل الدكتور محمّد عبّاس الذي تعهّد هذه الرسالة بعنايته الفائقة وتوجيهه السديد، كما لا ننسى أن نتقدّم بالشكر إلى الأستاذين الدكتور عليّ بن محمّد والدكتور سليمان عشراتي على ما أسديا إلينا من نصح، ثم إلى الأصدقاء الذين تفضّلوا علينا بكتبهم، وفي مقدّمتهم الأستاذ بومدين كرّوم.

وبالله التوفيق.

تلمسان، في 04 صفر 1419 هـ. / 30 مايو 1998 م.

محمّد محيي الدين

تمهيد

الأندلس في الفترة الأولى
من عصر الموحّدين

الحياة السياسيّة

الأندلس قبل دخول الموحّدين:

قبل أن تصير الأندلس إلى عبد المؤمن وبنيه، خضعت مدة تناهز نصف قرن لدولة مغربيّة أخرى، هي: دولة المرابطين. فقد استصرخ ملوك دول الطوائف، عندما تكالب عليهم النصارى -ولا سيما بعد سقوط طُلَيطلة- استصرخوا الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين، فهبّ لنجدتهم. وبمساعدتهم انتصر على النصارى في «الزلاّقة» الانتصار الشهير. ثم ما عتّم أن قرّر خلعهم، وإلحاق الأندلس بالمغرب.

ولم تمض إلا مدة يسيرة حتى صارت الأندلس-على الرغم من مقاومة بعض ملوكها، وفي طليعتهم المعتمد ابن عبّاد صاحب إشبيلية- جزءا من دولة المرابطين، يتلقّى حكّامها الملثّمون الأوامر من مَرّاكُش.وبذلك فقدت استقلالها، وفُتحت صفحة جديدة من تاريخها.

وإذا كان الباحثون لا يتّفقون على الباعث الذي حمل ابن تاشفين على خلع ملوك دول الطوائف وإلحاق الأندلس بالمغرب: فهل فعل ذلك رغبة في الحفاظ على جزء من بلاد الإسلام كان مُهدّدا بالسقوط في يد الأعداء، أم حمله على ذلك سبب آخر، فإنّه كان مصيبا إلى حد بعيد. فقد أطال عمله ذلك عمر الأندلس المسلمة مدة ليست بالقصيرة. يقول الشيخ عبد الله كَنّون منوّها بصنيع يوسف بن تاشفين: «إن عمل يوسف جليل، وجليل جدّا... والإسلام والمدنيّة والعلم كلّها مدينة ليوسف ابن تاشفين، وممنونة له بإنقاذ الأندلس، وبقائها في يد العرب مدّة أربعة قرون أخرى» (1).

وقد حظيت الأندلس بعناية خاصّة من لدن الأمير عليّ بن يوسف الذي وَلي عرش المرابطين بعد وفاة أبيه، فجاز إليها غيرما مرة برسم الجهاد. **ولقد**

(1)النبوغ المغربيّ في الأدب العربيّ -بيروت - دار الفكر العربيّ -الطبعة الثانية- 1961 م. -64/1.

كانت له فيها على النصارى مواقع كثيرة لعل أهمها موقعة «أُقْليش»[2].

وحذا حذو عليّ في هذه العناية ابنُه تاشفين،وإن شُغل بمحاولة إيقاف الزحف الموحّديّ الذي كان يأتي على الأخضر و اليابس من دولته.

وإذا كان المرابطون قد استطاعوا، بفضل كثير من مزاياهم القتاليّة [3]، أن يحافظوا على الأندلس- إذا استثنينا بعض الأجزاء الشمالية- فإنّ إدارتهم للبلاد لم تكن مبرّأة من العسف، منزّهة عن القسوة. وإذا تجاوزنا مافعلوه في الظرف الذي أسقطوا فيه دول الطوائف، وجدنا لهم -بعد ذلك- من التصرّفات ماكان سببا في استفزاز أهل الأندلس وإثارتهم في غيرما مدينة. وحسبنا أن نذكر ما وقع في قرطبة من ثورة أهلها على واليهم المرابطيّ وغيره من الملثّمين. وكان ذلك باعثا على أن يترك الأمير عليّ بن يوسف مرّاكش ويجوز إلى الأندلس لإطفاء نار الثورة [4].

وإذا كان الشعر ذا دلالة تاريخيّة، فإنّنا نجد بعض شعراء الأندلس، يومئذ، ينتقد الملثّمين، ويقول فيهم مُقذِع الهجاء[5].

---

(2)ينظر: محمد عبد الهادي شعيرة: المرابطون: تاريخهم السياسي -القاهرة- مكتبة القاهرة الجديدة - الطبعة الأولى- 1961م. -ص: 145 - 146.

(3) يذكر ابن الخطيب أنّ الأندلسيّين «قلّ أن رأوا إيالة أنفع أو أحرأ في قتال العدوّ من لَمْتُونة »(أعمال الأعلام،فيمن بويع قبل الاحتلام،من ملوك الإسلام -ج:2 - تحقيق ليفي بروفنسال- بيروت- دار المكشوف -الطبعة الثانية- 1956 م. -ص: 265).

(4)ينظر: سيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس -بيروت- دار النهضة العربية- د.ط.- 1971م . - 143/1 - 144 .

(5) من ذلك ماقاله أبو بكر يحيى بن سهل اليَكّي هجّاء الأندلس في عصره. انظر: ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب -تحقيق شوقي ضيف- القاهرة -دار المعارف بمصر- الطبعة الثانية - 1964 م.- 267/2 - 268 .

على أنّ ذلك لا يعني القطيعة بين الحاكم والمحكوم: فقد أخلص بعض الأندلسيّين للمرابطين فوثق هؤلاء بهم، واستنصحوهم. وإنّ منهم من حمّلوه أعباء الوزارة، وأشركوه في تدبير شؤون الدولة[6]. يقول الدكتور محمد رضوان الداية متحدّثا عن ولاء ابن خفاجة للمرابطين: «إنّ مدح ابن خفاجة للمرابطين ومودّته فيهم ووصل يده بيدهم كان عن إعجاب حقيقيّ ومودّة وولاء. لقد أنقذوا بلاده،ووحّدوا كلمتها... وثقة منه بحسن صنيع المرابطين... أحبّ الدولة الجديدة وأصفاها وحدَها شعره وولاءه»[7].

ثورات الأندلسيّين على المرابطين:

كان أغلب الأندلسيّين ساخطين على المرابطين، غيرَ راضين عمّا أقدموا عليه من خلع ملوكهم وإسقاط دولهم. ولقد هالهم أن يتحوّل المنجدون المساعدون إلى غزاة فاتحين. ولذلك ظلّت عوامل الثورة كامنة فيهم، وإن أبدوها أحيانا، كما أشرنا. فلما طرقت أسماعَهم أنباءُ ماكانت تُحدثه معاول الموحّدين في البناء المرابطي، أعلنوها ثورة شاملة، فطردت كلّ مدينة من كان فيها من الملثّمين، وبايعت قاضيها أميرا عليها، وعادت الأندلس إلى ماكانت عليه قبل دخول المرابطين.

وعدد الثوّار على المرابطين كثير جدّا، حتى إنّ لسان الدين ابن الخطيب اكتفى، في كتابه «أعمال الأعلام»، بذكر مشاهيرهم.

ومن هؤلاء الثوار: أبو القاسم ابن قسيّ، وأحمد ابن حَمْدين، وأبو الحكم ابن حسّون، وأبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز، وعبد الرحمن ابن رشيق، وأبو عبد الله بن أبي جعفر، وأبو أميّة أحمد ابن عاصم، ويوسف بن عبد الرحمن ابن جُزَيّ، وأبو عبد الله محمد بن سعد الجذاميّ المعروف بابن مَرْدَنِيش

(6) من هؤلاء: أبو العلاء ابن زُهْر الذي استوزره علي بن يوسف.

(7) ابن خفاجة -دمشق- المكتب الإسلامي -الطبعة الأولى- 1972 م . -ص: 40.

-وهو أصلبهم عودا وأطولهم إمارة- وإبراهيم بن أحمد بن مفرج ابن هَمُشْك، وأحمد ابن ملحان [8].

على أنّ هذا التشرذم، سيقضي عليه الموحّدون، في وقت قصير.

دولة الموحّدين:

دولة الموحّدين أو بني عبد المؤمن إحدى الدول الكبرى التي قامت في المغرب. ويرجع الفضل في قيامها إلى الداعية المشهور محمد بن تومرت الذي ينتمي إلى «هرغة» إحدى قبائل«مصمودة» التي كانت مقيمة بجبال الأطلس. وقد قام -بعد أن أخذ مبادئ العلوم بالمغرب- برحلة إلى المشرق، تتلمذ فيها لعدد من العلماء، ذكر المؤرّخون منهم الإمام أبا حامد الغزاليّ. وبعد أن أخذ من العلوم ما أخذ ولّى وجهه شطر بلاده.

وفي طريق عودته بدأ دعوته الهادفة إلى إقامة الشرع ومحاربة البِدَع. وقبل أن يصل إلى المغرب، كان قد كوّن جماعته، ومن أهم أعضائها: عبد المؤمن ابن علي الكُوميّ الذي رأى فيه خلَفا صالحا لتنفيذ فكرته[9].

ولم يلبث المرابطون أن ضاقوا بدعوته بعد أن رماهم بـ «التجسيم»، ونعى عليهم فساد الأخلاق، وانتقد تدخّل المرأة في شؤون الحكم. وقد ناظر فقهاءهم فظهر عليهم.

وعندما كثر أتباعه شرع في قتال المرابطين، فكانت بين الفريقين مواقع

---

(8) انظر: ابن الخطيب:أعمال الأعلام -م.س. -ج:2 -ص: 248 ومابعدها.

(9) انظر: E.Lévi-Provençal:Islam d'Occident -Paris -Maisonneuve -1948 -p: 280.

من أهمّها معركـــة «البُحيرة»[10].

و لم يلبث ابن تومرت أن مات، فاستطاع عبد المؤمن، من بعده، بفضل قوّته وحُنْكته، أن يسقط دولة المرابطين ويقيم على أنقاضها دولة الموحّدين التي ستحكم المغرب الإسلاميّ مدة تتجاوز القرن.

وقد تمكّن عبد المؤمن، بعد إسقاط دولة المرابطين و اتّخاذ مرّاكش عاصمة له، من توسيع رقعة دولته، فشملت الشمال الإفريقيّ ومناطق كثيرة من الأندلس. وعندما توفي،سنـــة 558 هـ.، ترك لابنه يوسف دولة قويّة الأركان متينة الأسس.

ولقد أدار أبو يعقوب يوسف دولته بحكمة، واستطاع أن يصل بها إلى درجة عالية من الازدهار. قال عبد الواحد المرّاكشيّ منوّها بعهد أبي يعقوب: «و لم تزل أيام أبي يعقوب هذا أعيادا وأعراسا ومواسم: كثرةَ خصب، وانتشار أمن، ودرور أرزاق، واتساع معايش؛ لم ير أهل المغرب أيّاما قط مثلها»[11].

ثم خلف أبا يعقوب ابنُه أبو يوسف الملقّب بـ «المنصور». وكان عصره من أزهى عصور الإسلام بالمغرب.

ثم جاء ابنه محمد الناصر. وفي عهده بدأت هزائم المسلمين بالأندلس، كما أخذ الضعف يدبّ في أوصال دولة الموحّدين.

الأندلس في الفترة الأولى من عصر الموحّدين:

أصبحت المناطق الجنوبيّة والغربيّة من بلاد الأندلس تابعة للموحّدين

---

(10) انظر: البيذق: كتاب أخبار المهدي بن تومرت -تحقيق عبد الحميد حاجيات- الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب- الطبعة الثانية -1986 م . -ص:59 ـــ 60 ؛ الزركشي: تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية -تحقيق محمد ماضور -تونس- المكتبة العتيقة -الطبعة الثانية -1966م . -ص:7.

(11) المعجب،في تلخيص أخبار المغرب -تحقيق ر.دوزي -ليدن -إ.ج.بريل -الطبعة الثانية - 1881م. -ص:185.

قبل دخولهم مرّاكش. فقد وفدت على عبد المؤمن جماعات من الأندلسيّين عندما ملأت أسماعهم أخبارُ انتصاراته على فلول المرابطين، مرغّبة إياه في بسط النفوذ على الأندلس.وسواء أكان الدافع ما أحسّ به أولئك الأندلسيّون من خطر على وطنهم الذي بات مُهدّدًا، أم الرغبة في أن يَحظَوْا بمناصب سامية في الدولة الجديدة، فإنّ مبادرتهم فتحت طريق الموحّدين إلى الأندلس.

وقد استجاب عبد المؤمن فأرسل جيشاً استطاع أن يُلحق المناطق المذكورة بما خضع للموحّدين من بلاد المغرب، دونما مقاومة.

وفي سنة 556 هـ. قرّر عبد المؤمن الجواز إلى الأندلس. وعندما عبر إليها أقام بجبل طارق الذي سمّاه «جبل الفتح». وكان له يوم مشهود لقيته فيه وفود الأندلس مبايعة معلنة ولاءها [12].

وبعد أن رتّب الأمور، فيما صار تابعاً له من البلاد، رجع إلى المغرب.

وقد ظلّ ابن مَرْدَنيش، في عهد عبد المؤمن مستقلاًّ بشرق الأندلس. بل إنّه كثيراً ماكان يهدّد الوجود الموحّدي بالمناطق الأخرى. ولعلّ عبد المؤمن كان يرى أنّ القضاء على إمارة ابن مردنيش وإخضاع شرق الأندلس للنفوذ الموحديّ أمر لابدّ منه، ولكنّه أرجأ ذلك إلى أن يطمئنّ على أوضاع المغرب ويستعدّ استعداداً كافياً. ولكنّ الموت عاجله، فظلّ شرق الأندلس على ماكان عليه.

فلما تحمّل أعباءَ الخلافة أبو يعقوب كانت شؤون الأندلس، من حماية مادخل

---

(12) فصّلت عدّة مصادر الحديث عن ذلك اليوم، وأوردت ما أنشده الشعراء عبدَ المؤمن من مدائح. انظر -بصفة خاصة-:ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين -تحقيق عبد الهادي التازيّ -بيروت -دار الأندلس -الطبعة الأولى-1383هـ. -1964م. -س:2 -ص: 149 ومابعدها؛ عبد الواحد المراكشي: المعجب -م.س.-ص:151 ومابعدها.

في طاعة الموحّدين، ومن إخضاع شرق البلاد، و من استعادة ما فقد المسلمون من أجزاء الجزيرة، في طليعة اهتماماته. ويُخيّل إلى المتتبّع لأعماله أنّ عنايته بالأندلس كانت فوق اهتمامه بالمغرب. ويكفي أن نقف قليلاً عند ثلاثة أعمال رئيسيّة له بالأندلس، هي: القضاء على إمارة ابن مَرْدَنيش وبسط نفوذ الموحّدين على شرق الأندلس؛ وحصار «وَبْذة» في محاولة لفتحها ؛ وغزو البرتغال وحصار «شَنْترين» أمنع مدنها.

1- القضاء على ملك ابن مردنيش وإخضاع شرق الأندلس لسيادة الموحّدين:

أشرنا إلى أنّ عبد المؤمن اكتفى بالسيطرة على وسط البلاد وغربها. ولعلّه كان يخطّط لإخضاع الشرق؛ ولعلّه -وقد أحسّ بدنوّ أجله- أوصى خلَفه بالعمل لتحقيق ما كان يخطّط له.

ومهما يكن موقف عبد المؤمن من أمر شرق الأندلس، فإنّ أبا يعقوب رأى أنّ القضاء على إمارة ابن مردنيش من الأولويّات. فقد كان ابن مردنيش مُقلِقاً حقّاً، وكان خطره على السيادة الموحّديّة في ازدياد.

وقد دام الصراع الموحّديّ -المردنيشيّ زهاء ربع قرن، منه تسع سنوات في عهد أبي يعقوب. و لم تُكسَر شوكة ابن مردنيش وتُطْوَ صفحته إلا عندما جاز أبو يعقوب نفسه لمحاربته. وكان اللقاء بين القوّتين في «فحص الجلاب» سنة 567هـ. وقد انجلى ذلك اللقاء الحاسم عن هزيمة ابن مردنيش، فدان شرق الأندلس بالطاعة و الولاء لبني عبد المؤمن.

ولقد كلّفت عمليّة القضاء على ابن مردنيش جهوداً كثيرة وتضحيات جسيمة، كان ينبغي صرفها إلى حماية الثغور، واستعادة ماضاع من أجزاء البلاد.

وعلى الرغم مما قيل في تعليل موقف ابن مردنيش بأنّ حركته كانت نتيجة

لبواعث وطنيّة[13]، فإنّ ما أفاضت فيه كتب التاريخ من حديث عن سيرته يتنافى ومصلحةَ الأندلس العليا[14].

2- حصار «وَبْذة»:

سبب غزو أبي يعقوب لهذه المدينة أنّه رُقي إليه أنّ بها أعيان الدولة القَشْتاليّة ووجوه أجنادها. فكان يقصد -فيما يبدو- استئصال شأفتهم. وقد تواصل حصاره لها -كما يذكر المراكشيّ- أشهراً، مما اضطرّ النصارى إلى أن يعرضوا عليه تسليم المدينة مقابل خروجهم سالمين. ولكنّه رفض طلبهم لأنه كان في موقف قوّة. ثم حدث ما حوّل الموقف إلى صالح الأعداء، فانصرف أبو يعقوب عن المدينة من دون فتحها[15].

ويقرّر محمد عبد الله عنان، في لهجة قاسية، أنّ السبب في فشل الموحّدين في اقتحام المدينة يعود إلى ضعف القيادة كفاءةً، كما يرجع إلى ماكان يسود الجيوش الموحّدية المحاصِرة للمدينة من تفكّك، وماكانت تعانيه من سوء تموين[16].

وأيّا ما كان السبب في ذلك الفشل، فإنّ فتح «وَبْذة» لو وقع، لكان كفيلاً

(13) قال محمد عبد الله عنان: «كان ابن مردنيش يمثّل الفكرة القوميّة الأندلسيّة في أعمق صورها» (عصر المرابطين و الموحّدين في المغرب والأندلس -القاهرة -لجنة التأليف والترجمة والنشر -الطبعة الأولى- 1964م. -30/2).

(14) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام -م.س. -261/2، والإحاطة في أخبار غرناطة -م.س.- 123-124/2 .

(15) روى عبد الواحد المراكشيّ أنّ النصارى «لمّا برّح بهم العطش... أخرجوا أناجيلهم، واجتمع قسّيسوهم ورهبانهم يدعون و يؤمّن باقيهم، فجاء مطر عظيم كأفواه القِرب، ملأ ماكان عندهم من الصهاريج، وشربوا وارتووا، وتقوّوا على المسلمين» (المعجب -م.س. -ص:181).

(16) انظر: عصر المرابطين والموحّدين -م.س. -ص:84/2-85.

بأن يشجّع أبا يعقوب على استعادة مدن أخرى، كانت قد صارت إلى القشتاليين، أولكان، على الأقلّ، واقيا إيّاه تكالبَهم، فتسنح له فرصة التفرّغ لدَحْر البرتغاليّين الذين ظلّت مطامعهم في تزايد.

3- غزوة «شَنْترين»:

كان البرتغاليّون -كما أسلفنا- مايفتؤون يهدّدون غرب الأندلس. ولقد تجاوزت غاراتهم إشبيلية. لذلك قرّر أبو يعقوب وضع حدّ لذلك التكالب، فخطّط لغزوهم في عقر دارهم. ويبدو أن هدفه كان الاستيلاء على «الأشْبُونة». ولكنّه رأى أنّ ذلك لا يتيسّر إلاّ إذا فُتحت«شنترين».

وقد خرج من إشبيلية في جيش كبير حاصر به هذه المدينة بعد أن عاث في نواحيها فساداً. وكان ملك البرتغال،عندما بلغته أخبار الحملة الإسلاميّة، قد جمع قوّاته واعتصم بحصن المدينة. وكانت بشائر انتصار المسلمين لائحة. ولكنّ الأمور لم تلبث أن تطوّرت لصالح الأعداء. وإذا كان المراكشيّ يذكر أنّ المسلمين خافوا هجوم البرد واقترحوا على الخليفة العودة إلى إشبيلية، على أن يرجعوا إلى«شنترين» بعد انقضاء فصل البرد، وأنّ الناس أسرعوا في الانسحاب في غير علم من الخليفة الذي ظلّ مقيماً بخبائه، فهجم عليه الأعداء، بعدما رأوا انسحاب قواته، وتمكّنوا من طعنه طعنة لم تُمهله طويلاً[17]، إذا كان المراكشيّ يروي ذلك سبباً للهزيمة، فإنّنا نجد مصادر أخرى تذكر غير ذلك[18].

ومهما يكن السبب، فإنّ الهزيمة كانت ثقيلة حقّاً. وحسْبها فداحة أن تنجلي عن مصرع الخليفة نفسه.

---

(17) انظر: المعجب -م.س. -ص:185 ومابعدها.

(18) انظر -مثلا -ما يرويه يوسف أشباخ في: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين- ترجمة محمد عبدالله عنان -القاهرة -لجنة التأليف والترجمة والنشر -د.ط. -1360 هـ. -1941م.- ج: 2 -ص73 ومابعدها.

تلك أهمّ أعمال أبي يعقوب يوسف؛ وهي تعكس عنايته البالغة بشؤون الأندلس. على أنّ النتائج التي حقّقها لا توازي الجهود التي بذلها. ولعلّ ذلك ما جعل بعض المؤرّخين الغربيّين يشكّ في كفاءته العسكريّة، ويهوّن من مقدرته الحربيّة[19]. بل ذهب بعضهم إلى وصفه بالاستبداد[20]. وأيّاً ماكانت حقيقة الأمر، فحسْب أبي يعقوب شرفاً أن يكون واحداً من شهداء الأندلس.

فلمّا تولّى مقاليدَ الخلافة ابنُه أبو يوسف يعقوب المنصور اهتم بأمر الأندلس اهتماماً يوازي اهتمام أبيه. ولعلّه ظلّ -منذ أن جلس على كرسيّ الحكم- يحمل الرغبة في الثأر لأبيه، ويتجدّد فيه ذلك الشعور كلّما مضت الأيام.

وفي سنة 591 هـ.وفّقه الله إلى تحقيق انتصار«الأَرك» العظيم[21] على القوات المتّحدة لدول إسبانيا ومن حطب في حبلها من الدول المسيحية. وبذلك محا وصمه هزيمة المسلمين على أبواب «شنترين».

وإذا كان من عوامل هذا النصر الباهر ما أوتيه المنصور من كفاءة وشجاعة، فإنّ من عوامله أيضا ماكان عليه الجيش الإسلاميّ من استعداد ماديّ وتعبئة نفسيّة.

وإذا كان لهذا النصر من نتائج، فإنّ أهمّها: تثبيت السيادة الموحّديّة بالأندلس، ولو إلى حين، وزيادة هيبة دولة الموحّدين، وذيوع صيت المنصور.

وكانت أحداث «الأَرك» شديدة الوقع في نفوس الأعداء،فظلّوا يتحيّنون فرصة الثأر.

---

(19) انظر: روجي لي تورنو: حركة الموحّدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر- ترجمة أمين الطيّبيّ -ليبيا -تونس -الدار العربية للكتاب -د.ط . -1982م. -ص:82.

(20) انظر: يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين -م.س. -ص:76.

(21) انظر تفاصيل قصّة هذه الوقعة في: م.ن. -ص:85 ومابعدها؛ محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحّدين -م.س. -2/197-214.

فلمّا مات المنصور وَلي الخلافةمحمّد الناصر الذي ظـلّ -فيمـا يبـدو- يحلـم بمجـد كمجـد أبيـه. ولكــن قُــدِّر أن ينهـزم المســلمون في عهــده هزيمــة «العِقــاب»[22] التي لم يرفعوا، بعدها، في الأندلس رأساً، وعفّت آثار «الأَرك».

وأيّاً ماقيل في أسبابها: من أنّ الجيش الإسلاميّ لم يكن منظّما، ومن أنّ المكـان الذي دارت فيه رحى الحرب لم يكن مناسباً،وغير ذلك[23]، فإنّها كانت فاتحة لسلسلة من الهزائم المنكَرة التي لم تنته إلا بسقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس.

ويُمكـن المتتبّـعَ لتـاريخ الأندلـس مـن دخـول الموحديـن إلى وقعــة «العِقــاب» أن يلاحظ مايلي:

1- عامل الموحّدون الأندلسيّين في مواقـف كثـيرة، بغـير قليـل مـن القسـوة[24]، ممّا جعل كثيرا منهم لا يطمئنّون إليهـم ولا يُخلصـون لهـم، وإن أعلنـوا -في الظـاهر- الطاعة والولاء.

2- لم يسـترجع الموحّـدون شيـئاً ممـا ضـاع في عهـد ملـوك دول الطوائـف و المرابطين. بل إنّ بعض أجزاء البلاد قد ضاع في عهدالخلفاء الموحّديـن الذيـن أظلّهـم هذا العصر،أنفسِهم.

3 - كان من الواجب أن يكون نصر«الأَرك» بداية لجملة من الغزوات والفتوح.

---

(22) كانت في 15 صفر 609 هـ./16 يوليو 1212م. وكلمة «العِقاب» بكسر حرف العين، لابضمّـه كمـا هـو شـائع، لأنهّـا جمـع لكلمـة «عَقَبـة». ومـن الأدلّة على صحّـة ذلـك مايقابلهـا في الإسـبانية أي: Las Navas de Tolosa . ينظر: حسين مؤنس: رحلة الأندلـس -القـاهرة -الشـركة العربيـة للطباعـة والنشـر- الطبعة الأولى -1963 م. -ص:44.

(23) راجع -مثلا -مايقوله روجي لي تورنو في: حركة الموحدين في المغرب -م.س. -ص:95-98.

(24) انظـر مثـالا علـى تلـك القسـوة في: النـاصري: الاسـتقصا،لأخبـار دول المغـرب الأقصـى - تحقيق ولدي المؤلف: جعفر ومحمد -الدار البيضاء -دار الكتاب -د.ط . -1954م. -125/2.

ولكنّ يعقوب المنصور اكتفى -فيما يبدو-، وإن لم يعش طويلاً بعد تلك الوقعة، بما تحقّق له فيها.

4- لم يحقّق الموحّدون من الانتصارات ما يتناسب وقوّتهم العسكريّة. ولعلّ ذلك عائد إلى سوء تنظيم تلك القوة. وقد يكون في وقعة «العِقاب» أقوى دليل على ذلك[25].

على أنّ الباحث المنصف قد يلتمس للموحّدين جملة من الأعذار، لعلّ أهمها ما يلي:

1- كانت الامبراطورية الموحّدية من الاتّساع بحيث تشغل حكامها عن الاهتمام المطّرد بشؤون الأندلس، والمتابعة المتواصلة لما يجري على ساحتها. وماظنّكم بدولة تمتدّ من حدود ليبيا شرقاً إلى المحيط الأطلسيّ غرباً، ومن أقاصي الصحراء جنوباً إلى وسط شبه جزيرة الأندلس شمالاً؟ ولقد كان هذا الاتّساع نفسه هو الذي حمل الخليفة محمّدا الناصر، في نهاية هذه الفترة، على تفويض النفوذ على جهتها الشرقية إلى الحفصيّين الذين سيستقلّون، من بعد، استقلالاً تامّاً عن سلطة الموحّدين. بل سيحاولون بسط نفوذهم «على حسابهم»[26].

2- قامت في شمال إفريقية عدة ثورات على الموحّدين تجرّدوا للقضاء عليها. وإذا كان النجاح حليفهم في إخماد جلّ تلك الثورات ، فإنّهم كادوا يعجزون عن القضاء على ثورة «بني غانية»، بقايا المرابطين. ولقد استنزفت هذه الثورة من جهود الموحّدين ووقتهم الشيء الكثير[27].

---

(25) انظر: روجي لي تورنو: حركة الموحّدين في المغرب -م.س. -ص:97-98.

(26) انظر: ديوان ابن الأبّار -تحقيق عبد السلام الهرّاس -تونس -الدار التونسية للنشر -د.ط.- 1405هـ.-1985م. -ص:41، 83، 379.

(27) ينظر: محمد العروسيّ المطويّ: السلطنة الحفصيّة: تاريخها السياسيّ ودورها في المغرب الإسلاميّ- بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -د.ط. -1406هـ. -1986م. -ص:15-81.

وفي إطفاء تلك الثورات ما كان يصرفهم عن التفرّغ لأمر الأندلس، في كثير من الأحيان.

3- كان لتصرّفات بعض الأندلسيّين أثر في سقوط بلادهم، جزءاً جزءاً، في يد أعدائهم: فالقضاء على إمارة ابن مَرْدَنيش -مثلاً- كلّف الموحّدين جهودا كان من الواجب صرفها إلى دَحْر عدوّهم.

4- كان النصارى منقسمين إلى خمس دول: أَرَغُون، ولِيون، ونَبَرَة، وقَشْتالة، والبرتغال. ولم تكن العلاقة، بين هذه الدول، حسنة في أغلب الأحيان. ولكنّها كانت كثيرا ما تتّحد على عدوّها المشترك. وحتّى حين افتراقها كانت كل واحدة تجتهد في «استرداد» جزء من الأندلس: فإذا كان ملك أرغون متكالباً على شرق الأندلس وما إليه من جزائر، فإنّ ملك قشتالة كانت سهامه متّجهة نحو وسط البلاد. وقد صمّم ملك البرتغال على إخضاع الغرب. وبينما كانت دول إسبانيا المسيحيّة تحظى بالتأييد المادّيّ و المعنويّ من لدن دول أوربا الأخرى، كانت دولة الموحّدين وحدَها في الميدان.

الحياة الاجتماعية

كان المجتمع الأندلسيّ قبل دخول الموحّدين يتكوّن من عدّة عناصر، صهرتها ظروف البلاد، إلى حدّ ما.

وفي عصر الموحّدين انضاف عنصران جديدان، هما:

1- القبائل المغربيّة التي أسكنها الخلفاء الموحّدون مناطق شتىّ من الأندلس. ذكر أبو بكر الصنهاجيّ المعروف بـ«البَيْذَق» أن أبا يعقوب لما تمّ له فتح الأندلس ترك فيها «من كل قبيل: أسكن العرب وزناتة ببَلَنْسِية،وأسكن صنْهاجة وهسكورة في شاطِبة،وأسكن في لورقة أهل تينمل،وأسكن في المرية وبرشانة كُومِية»[28].

(28) كتاب أخبار المهدي بن تومرت -م.س. -ص:131.

2 - القبائل العربيّة التي كانت مقيمة بالمغرب الأوسط، واستعان بها أبو يعقوب على جهاد النصارى بالأندلس. وكان عددها كبيراً. وقد أُنزلت في قرطبة وإشبيلية وغيرهما[29].

وليس من شكّ في أنّ هؤلاء الطارئين قد أثروا بعاداتهم وتقاليدهم في المجتمع الأندلسيّ، كما تأثّروا هم أيضاً بعادات ذلك المجتمع وتقاليده، على نحو ماوقع للطارئين قبلهم على الأندلس.

ويبدو أنّ الانصهار بين الأندلسيّين والطارئين الجدد ظلّ محدوداً، وأنّ كلاّ منهم -على الرغم من تأثيره في غيره وتأثّره به- كان يحسّ بتميّزه. ويكفي أن نقرأ نصّاً كرسالة الشَّقُنْديّ[30] للتأكّد من هذه الحقيقة.

وفيما يتعلّق بالولاءات الاجتماعية، فإنّ آثار القبيلة -فيما يبدو- لم تمّح بعد، سواء لدى الأندلسيّين أو غيرهم ممّن طرأوا على البلاد.

ففيما يخصّ الأندلسيّين يمكن أن نستشهد على ذلك بشيوع الأنساب إلى القبائل. فقد كتب لسان الدين ابن الخطيب -في القرن الثامن الهجري- متحدّثاً عن أنساب سكّان مملكة غَرْناطة ، وهم- كما هو معلوم- يمثّلون تجمّع الأندلسيّين بعد سقوط الأجزاء الأخرى، فقال: «وأنسابهم... عربيّة: يكثر فيهم القرشيّ، والفِهْري، والأُمويّ... والأَوْسيّ، والخَزْرَجيّ...»[31].وهذه الأنساب شائعة في العصر الذي ندرسه. ويكفي أن نستشهد بنسبة كثير من الشخصيّات المشهورة:

---

(29)ينظر: عزالدين أحمد موسى: النشاط الاقتصاديّ في المغرب الإسلاميّ خلال القرن السادس الهجريّ -بيروت -دار الشرق -الطبعة الأولى -1403 هـ. -1983 م . -ص:97.

(30) انظر: المقّري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب - تحقيق إحسان عبّاس -بيروت -دار صادر -د.ط. -1968م. -186/3.

(31) الإحاطة -م.س. -141/1.

كصفوان بن إدريس التُّجِيبيّ، وأبي الربيع سليمان بن سالم الكلاعيّ، وأبي العباس ابن الصَّقر الأنصاريّ، وغيرهم. ولعلّ ما ساعد على بقاء أثر القبيلة في المجتمع الأندلسيّ إلى هذه الفترة حرصُ القبائل الطارئة على الإقامة بمكان واحد.

على أنّ هذا لا يعني أنّ الولاء للمدينة أو الارتباط بالناحية لم يحلاّ محلّ التعلّق بالقبيلة أو العشيرة، في كثير من الأحيان.ويكفي أن نستشهد هنا بنسبة كثير من الأعلام التي أظلّها هذا العصر، إلى مدنها: كأبي عبد الله محمد بن غالب الرُّصافيّ البَلَنْسيّ الذي نجده يعبّر -فيما خلّف من شعر- عن ولائه لمدينة بلنسية[32] التي كانت ، على عهده، تضمّ أشتاتاً من الناس من أصول مختلفة.

وقد ظلّت للأسرة الأندلسيّة، في هذه الفترة، مكانتها؛ وبقيت للمرأة فيها منزلتها؛ وهي منزلة متميّزة. ولعلّ ماذكره الدكتور إحسان عبّاس عن مكانة المرأة في الأندلس -وهو يتحدّث عن الأسباب التي أثارت رثاء الزوجات في الأندلس- أن يكون منطبقا على هذه الفترة. يقول: «...ومن تلك التفسيرات شعور الأندلسي بقيمة المرأة وتقديره لها...وأسباب ذلك أيضاً التّزلزل الذي أصاب شعور الأندلسيّ المرهَف، وجعله يحسّ، في الفقد، لا معنى الفقد المباشر نفسه، بل حاجته إلى سكن يأوي إليه. وتمثّل المرأة في حياته هذا السكن على نحو عميق»[33].

وقد أُتيح لبعض النساء الأندلسيّات أن يتعلّمن وينبغن في الأدب. ويكفي أن نذكر منهن الشاعرة حفصة بنت الحاجّ الركونيّ.
ولقد أشار ابن الخطيب، في العصر الموالي، إلى تبرّج نساء غرناطة[34].

---

(32) نلاحظ ذلك -بصفة خاصة -في رائيّته المشهورة التي يحنّ فيها إلى بلنسية. انظر: ديوان الرصافي البلنسي -تحقيق إحسان عبّاس -بيروت -دار الشروق -الطبعة الثانية -1403هـ . -1983م. -ص:67.

(33)تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف و المرابطين -م.س. -ص:120.

(34) انظر: الإحاطة -م.س. -ص:144-145.

ولعلّ ذلك كان محدوداً في هذه الفترة. ولقد كان ابن تومرت يفرّق بين النساء و الرجال في الجامع وينهى عن التبرّج[35].

ولقد نشطت الحياة الاقتصادية في الأندلس، لاسيما في عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل: عبدِ المؤمن ويوسف ويعقوب، وذلك بفضل ما أولاه هؤلاء الخلفاء الاقتصادَ من اهتمام[36]. وليس من شكّ في أنّ دخل الأندلسيّ قد ارتفع، وإن كنّا نقع على نصوص أدبيّة يشكو أصحابها غلاءَ الأسعار[37].

الحياة الثقافية

يختلف الباحثون في مدى ما عرفته الثقافة الأندلسيّة في عصر المرابطين من ازدهار وتطوّر: فيذهب بعضهم إلى أنّ الملثّمين لم يولوا الثقافة أيّ تشجيع، وأنّ الثقافة الأندلسيّة التي شهدت ازدهاراً في عهدي بني أمية وملوك دول الطوائف قد نالها تدهور و ضعف في عهد المرابطين[38]؛ ويرى آخرون أنّ الثقافة الأندلسيّة واصلت نشاطها في ذلك العهد، وربما فاقت، في بعض الجوانب،

---

(35) انظر: البيذق: كتاب أخبار المهدي بن تومرت -م.س. -ص:40،44.

(36) فصّل الحديث عن النشاط الاقتصاديّ في عهد الموحّدين، الدكتور عزّالدين أحمد موسى في كتابه: «النشاط الاقتصاديّ في المغرب الإسلاميّ خلال القرن السادس الهجري».

(37) انظر -مثلا -: ابن عبدالملك المراكشيّ: الذيل والتكملة،لكتابي الموصول والصلة - تحقيق إحسان عبّاس -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -1965 م. -277/1/5.

(38) يذهب هذا المذهبَ جلّ المستشرقين ومن حذا حذوهم من الباحثين العرب. ينظر: كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلاميّة -ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكيّ -بيروت -دارالقلم - الطبعة الرابعة -1963م. -ص:322؛ ألفرد بل: الفرق الإسلاميّة في الشمال الإفريقيّ -ترجمة عبدالرحمن بدوي -بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -الطبعة الثانية -1981م. -ص:245-246؛ إميليو غرسية غومس: الشعر الأندلسيّ -ترجمة حسين مؤنس -القاهرة -دار النهضة المصرية -الطبعة الثالثة -1969م .=

ما وصلت إليه في الأعصر السابقة[39]، ونجد فريقاً ثالثاً يذهب، في ذلك، مذهباً وسطاً، فيقرّر أنّ ثقافة الأندلس قد أصابها بعض الركـود في بداية عصر المرابطين، لأسباب مختلفة، ولكنّهـا مـا عتّمـت أن نشِـطت وتـألّقت[40]. بيـد أنّ الإجمـاع منعقـد على أنّ الأندلس قد شهدت في عصر الموحّدين نشاطاً ثقافيّاً يوازي أو يفوق ما عرفته في أعصرها الأولى. يقول عبد الواحد المراكشيّ منوّهـا بما كـان للموحّدين من دور في تنشيط الحركـة الفكريّة: «وقـد جـرت عـادتهم بـالكتب إلى البـلاد، واستجلاب العلماء إلى حضرتهـم مـن أهـل كـل فـنّ»[41]؛ ويقـول يوسـف أشباخ واصفـاً عنايـة الموحّدين بالثقافـة: « أطلقوا حرّيّة العلوم والفنـون. ولمّـا وقفـوا علـى أسـرار الحضـارة العربيّة التي أخذت تنهض من جديد، غدَوا من حماتها، وعُنوا بتشجيع بعض أصنـاف العلوم ونشرها»[42]؛ ويُشيد إميليو غرسية غومس بمـا بلغتـه العلـوم في عهـد الموحّدين بـالأندلس فيقـول: «وفي خـلال ذلـك كلّـه وصلـت العلـوم في الأندلـس الإسـلاميّ إلى ذروتهـا العليـا»[43]؛ ويقـارن محمـد عبـد الله عنـان بـين ماكـانت عليـه الثقافـة

= ص: 56-57؛ محمد عبد الله عنـــــان: عصر المرابطين والموحّدين -م.س. -1/423،439؛ عمـر فرّوخ: تـاريخ الفكـر العربيّ إلى أيّام ابن خلـدون -بـيروت -دار العلـم للملايـين -الطبعـة الثانيـة -1966م.- ص:590؛ جودت الركابيّ: في الأدب الأندلسيّ -القاهرة -دار المعارف -الطبعة الثانية -1970م. -ص:55.

(39) هذا رأي بعض الباحثين المغاربة كالشيخ عبدالله كَنُّون (انظر: النبوغ المغربيّ -م.س. -1/66)، والدكتور عبّاس الجراريّ (انظر: « قضية المعتمد بن عبـاد» -مجلة الثقافة -الجزائـر -وزارة الإعلام والثقافة- السنة الرابعة -ع:22 -رجب -شعبان 1394 هـ. -أوت -سبتمبر1974م-ص:76) .

(40) يرى هذا كلّ من الدكتور إحسان عبّاس (انظر: تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين - م.س. -ص:21)، والدكتور محمد رضوان الداية (انظر: ابن خفاجة -م.س. -ص:20).

(41) المعجب -م.س. -ص: 248-249.

(42) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين -م.س. -ص:2/251.

(43) الشعر الأندلسيّ -م.س. -ص:66.

في الأندلس والمغرب في عهد المرابطين،وما بلغته بفضل الموحّدين، فيقول: «...أمّا الدولة الموحّدية فكان لها شأن آخر: ذلك أنّ عصر الدولة الموحّدية... كان من أحفل عصور التاريخ الأندلسيّ و المغربيّ بالحركات الفكريّة»[44].

ولقد كان هذا الازدهار الثقافيّ نتيجة لعوامل شتّى. من بينها ماكان يتمتّع به الحكّام الموحّدون من رصيد علميّ، وما أولوه جلّ العلوم من تشجيع، وما أحاطوا به أهلها من رعاية وتقدير.

لقد كان كثير من الخلفاء والسادة (الأمراء) الموحّدين ذوي ثقافة واسعة. اقتدوا في ذلك بزعيمهم الروحيّ محمد بن تومرت الذي كان من أعلم أهل المغرب على عهده. فلقد شهد المؤرّخون لعبد المؤمن بعلوّ الكعب في شتّى العلوم الدينيّة والدنيويّة. يقول الناصريّ واصفاً علمه ومشاركته للعلماء: «كان -رحمه الله- فصيحاً، عالما بالأصول والجدل والحديث، مشاركاً في كثير من العلوم الدينيّة والدنيويّة»[45]؛ وكان أبويعقوب على شاكلة أبيه اطلاعاً على علوم كثيرة، بل زاد عليه ، إذ عُني عناية خاصّة بتحصيل الفلسفة. يقول عبد الواحد المراكشيّ مبيّنا سعة ثقافة أبي يعقوب وتمكّنه من جلّ علوم عصره: «كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن، وأسرعهم نفوذَ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للّغة العربيّة... مع إيثار للعلم شديد، وتعطّش إليه مُفرِط. صحّ عندي أنّه كان يحفظ أحد الصحيحين -الشكّ منّي- إما البخاريّ أو مسلم؛ وأغلب ظنّي أنّه البخاريّ، حفظه في حياة أبيه بعد تعلّم القرآن. هذا مع ذكر جُمَل من الفقه. وكان له مشاركة في علم الأدب، واتّساع في حفظ اللغة، وتبحّر في علم النحو،حسبما تقدّم»[46]. ثم يتحدّث المراكشيّ عن اهتمام أبي يعقوب بتحصيل

(44) عصر المرابطين والموحّدين - م.س. - ص:645/2.

(45) الاستقصا - م.س. - 145/2.

(46) المعجب - م.س. - ص:170.

الفلسفة، فيقول: «...ثم طمح به شرف نفسه وعلوّ همّته إلى تعلّم الفلسفة، فجمع كثيرا من أجزائها»[47]. ويذكر المراكشيّ، بعد ذلك، شغف أبي يعقوب بجمع الكتب، وحرصه على إحاطة نفسه بالعلماء، فيقول: «ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء... إلى أن اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك قبله ممّن ملك المغرب»[48]. وكان أبو يوسف مثل أبيه وجدّه عناية بالعلم وتقديراً لأهله.

لذلك فلا عجب أن تنفُق سوق الآداب والعلوم والفنون في هذه الفترة. وفيما يلي بيانٌ لمدى ما نال تلك الآدابَ والعلوم والفنون من تقدّم ورقيّ.

1- الأدب:

كان كثير من الأمراء المرابطين بعيدين عن فهم ما أبدعته قرائح الأدباء الأندلسيّين وتذوّقه[49]، فلم يحظ الأدب، منهم، بالتشجيع الكافي.

بيد أن الأمر، مع الموحدين، مختلف كلّ الاختلاف: فأغلب الخلفاء والأمراء الموحّدين كانوا على صلة وثيقة بالأدب: حفظاً وتمثّلاً، وإنشاء ونقداً. فقد كان محمد ابن تومرت خطيباً مِصْقَعاً، إلى جانب قرضه للشعر والتمثّل به[50]؛ وكان عبد المومن متذوّقاً للشعر، ناقداً له مشاركاً فيه؛ سجّل كثير من المصادر ماكان يعقّب به على ماكان ينشده الشعراء من مدح[51]، وأورد له بعض الكتب أشعاراً جادت بها

---

(47) م.ن.

(48) م.ن. - ص:172.

(49) انظر:إميليو غرسية غومس:الشعر الأندلسيّ - م.س. - ص:55-56.

(50) انظر:الناصريّ :الاستقصا - م.س. - 95/2.

(51) انظر:ابن صاحب الصلاة:تاريخ المنّ بالإمامة - م.س. - 159/2.

قريحته ارتجالاً[52]. وقد آثر أبو يعقوب أن يخاطب عرب بني هلال بالشّعر حاثّاً إيّاهم على الإسهام في الجهاد بالأندلس[53]. فعل ذلك إدراكاً منه لما للشعر من بليغ التأثير في النفوس. وكان للمنصور يوم مشهود مع الشعراء عقب انتصار«الأرك». وقد بلغ من عنايته بالشعر أن كان يقترح على مادحيه أن ينظموا في وزن خاصّ[54]. وكان الأمير أبوالربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن شاعراً، جُمع نتاجه في ديوان... والنتيجة التي نصل إليها هي:أنّ الشعر-بخاصّة- ازدهر في المرحلة الأولى من عصر الموحّدين، وذلك بفضل العناية التي نالها، والتقدير الذي حظي به.

ولقد أظلّت هذه الفترة من عصر الموحّدين كثيرا من شعراء الأندلس. من أبرزهم: الرُّصافي البلنسيّ، وابن جُبير، وصفوان بن إدريس، وابن مُجْبَر، وابن حَرْبون، وأبوجعفرابن سعيد، وابن حَزْمون، وغيرهم. كما عرفت هذه الفترة بعض شواعر الأندلس، وفي طليعتهن حفصة بنت الحاجّ الركونيّ.

وتناول شعراء الأندلس في هذه الفترة أغراضاً شتّى، وعالجوا موضوعات مختلفة، وترك بعضهم دواوين ضخمة.

وفي هذه الفترة نفقت سوق الموشّح. وإذا كان بعض الذين كتبوا عن هذا الفنّ يذهبون إلى أنّه عرف عصره الذهبيّ على عهد المرابطين[55]

---

(52) انظر: كتاب الحلل الموشيّة، في ذكر الأخبار المراكشيّة، لمؤلف أندلسيّ من أهل القرن الثامن الهجري -تحقيق سهيل زكار وعبدالقادر زمامة -الدار البيضاء -دار الرشاد الحديثة -الطبعة الأولى-1399هـ. -1979م. -ص: 156-157.

(53) انظر: ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص: 411-417.

(54) انظر: عبد الواحد المراكشيّ: المعجب -م .س. -ص: 213.

(55) انظر: ابن خلدون: كتاب العِبَر، وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر -بيروت -دار الكتاب اللبنانيّ -د.ط. -1960م. -1139/2.

الذي أظل عدداً من أساطينه، كالأعمى التّطيلي وابن بَقِيّ، فإنّنا لا نبالغ إذا عددنا هذه الفترة امتداداً لذلك العصر. ويكفي أن تُنجب الأندلس في هذه الفترة الوشّاح الكبير أبا بكر ابن زهر المعروف «بالحفيد».

وقد اتّسعت دائرة هذا الفنّ،فطرق الموشّحون جلّ الأغراض الشعريّة. كما أصبح المؤلّفون يحتفون بالموشحات تنظيراً لها وجمعا لمادّتها.

وإلى جانب الموشّح، عرف الزجل نشاطاً كبيراً. وإذا كان المستشرق إميليو غرسية غومس يذهب إلى أنّ عصر المرابطين كان «عصر كبار الزجّالين»[56]، فأحرى بهذا الحكم أن يُطلَق على هذه الفترة من عصر الموحّدين. فقد أدركها إمام زجّالي الأندلس ابن قزمان، وعاش فيها خليفته مَدْغَلّيس.

ولقد تطوّر الزجل في هذه الفترة، فتناول أغراضاً شتى، كما حظي بعناية المؤلفين. ولقد بلغت تلك العناية به جمعَه في دواوين ومحاولة التنظير له ونقد نصوصه.

ولم يتخلّف المنثور عن المنظوم. فقد لقي من العناية ماكان كفيلا بدفع عجلة تطوّره إلى الأمام. فقد نال كتّاب الأندلس حظوة لدى الحكّام الموحّدين. ولم يكن ذلك، فقط، لحاجتهم إليهم في تسيير شؤون الدولة، بما كانوا يحرّرون من رسائل وسواها، وإنما لإعجابهم بما كانوا يُبدعون. ولقد كانت الرسالة الواحدة كفيلة بترقية كاتبها إلى منصب الوزارة[57].

وفضلا عما ناله الكتّاب من تشجيع الحكام، نجد عوامل أخرى كانت سببا في ازدهار النثر في هذه الفترة، لعلّ أهمّها ماكان هناك من رغبة بعضهم في إظهار البراعة والتطاول بالبلاغة.

---

(56) الشعر الأندلسيّ -م.س. -ص: 62.

(57)من الأمثلة على ذلك: رسالة كتبها أبوجعفرابن عطية، حظي بفضلها عند عبدالمؤمن. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -272/1.

ولقد زادت دائرة النثر الأندلسيّ اتساعاً، فعالج الكتّاب عدداً من الفنون، وطرقوا كثيراً من الموضوعات.

ومن كتّاب الأندلس المرموقين في هذه المرحلة: أبو الحسن ابن عيّاش، وأبو الحسين ابن جُبير، وصفوان بن إدريس، وغيرهم.

وفضلا عمّا حظي به النّتاج الأدبيّ الذي خلّفته هذه الفترة من جمع لمادّته وتدوينها، ومن ترجمة لأصحابه، نُلفي، هناوهناك، جملة من الملاحظات النقديّة، لايستغني عنها الباحث في أدب هذه الفترة.

2ـ العلوم الدينية:

نشِطت الثقافة الدينيّة في الأندلس في هذه الفترة نشاطها في العصر السابق(58). وكانت وراء ذلك عدّة عوامل في مقدّمتها: سلوك الحكّام الموحّدين وتشجيعهم لتلك الثقافة بتقريب علماء الدّين وإكرامهم. وإذا تجاوزنا محمد بن تومرت الذي أشاد عدّة مؤرّخين بزهده وتديّنه، والذي خلّف جملة من الكتب الدينيّة مافتئت تستقطب اهتمام الدارسين، وجدنا من خلفائه من كان متضلّعا في علوم الدين متحمّسا لرواجها. ولقد سبق أن أوردنا ما وصف به الناصريّ عبد المؤمن من أنه كان «فقيها،عالما بالأصول والجدل والحديث،مشاركاً في كثير من العلوم الدينيّة»، كما أوردنا ماورواه المراكشيّ عن أبي يعقوب من أنّه «كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن»، ومن أنه كان يحفظ أحد الصحيحين، ومن أنّه كان مشاركاً في الفقه.

---

(58) يعود ذلك النشاط إلى رعاية الأمراء المرابطين لعلماء الدين: فقد كان يوسف بن تاشفين «محبّا للفقهاء مكرما لهم... يُجري عليهم أرزاقهم من بيت المال» (الناصري: الاستقصا -م.س. -60/2). وسار على نهجه ابنه عليّ، بل إنّه «ازداد في إكرام العلماء، والوقوف عند إشارتهم» (ابن الأثير: الكامل في التاريخ -بيروت -دار الفكر العربيّ -الطبعة الثانية -1967م. -237/8).

وقد أنجبت الأندلس في هذا العهد عدداً لايُحصَى من علماء الدّين. وإنّ جولة في المصادر التي ترجمت لأعيان هذه الفترة لتكفي للخروج بانطباع هو: أنّ الثقافة الدينيّة كانت شائعة في كثير من طبقات المجتمع. على أنه من الصعب على المؤرّخ أن يصنّف أولئك العلماء تبعا لأنواع العلوم التي برزوا فيها، إذ كان الواحد منهم جامعا لعدة علوم: فهو فقيه، ومحدّث، ومفسّر، وعالم قراءات... ولعلّ أبرز علماء الدين، في الأندلس في تلك المرحلة ومابعدها، العالم الحافظ أبو الربيع سليمان بن سالم الكَلاعيّ الذي أشاد به القاضي ابن عبد الملك المراكشيّ -غير مبالغ- فذكر أنه كان «بقيّة الأكابر من أهل العلم بصُقْع الأندلس الشرقيّ، حافظاً للحديث، مبرّزا في نقده، تامّ المعرفة بطرقه، ضابطا لأحكام أسانيده، ذاكراً لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم... رحل الناس إليه متنافسين في الأخذ عنه»(59).

ولقد خلّف علماء هذه الفترة العديد من كتب الدين. على أنّ جلّها قد عدا عليه الضياع. ولعلّ أشهر ما خلّفته تلك المرحلة: كتاب «الروض الأنف»لأبي القاسم السُّهَيْلي(60).

على أنّه ينبغي أن نسجّل الملاحظات التالية على هامش ما ذكرناه من رعاية الموحّدين للثقافة الدينيّة، وماكان لتلك الرعاية من نتائج:

أ- إنّ علماء الدّين في هذه الفترة -على مانالوه من حظوة وتقدير، وماوجدوه من إكرام وتشجيع- لم يصلوا إلى ما وصله أمثالهم في العصر السابق. إذ انّ الخليفة الموحّديّ ظلّ محتفظاً بقوّته، مسيطرا على زمام الأمر؛ و لم يكن -أبداً-

(59) الذّيل و التكملة -م.س. -85/4.

(60) انظر: ابن فرحون: الديباج المذهب، في معرفة أعيان المذهب -القاهرة -مطبعة السعادة - الطبعة الأولى -1329هـ. -ص: 150.

آلة طيّعة في أيديهم كما حدث لبعض الأمراء المرابطين[61].

ب-إذا كان الفقهاء المرابطون قد قصّروا اهتمامهم على فروع المذهب المالكيّ، الأمر الذي أدّى إلى جمود ذلك المذهب، فإنّ الأمر قد اختلف في هذه الفترة. وإذا كان الخليفة أبو يعقوب قد عبّر عن ضيقه بتعدد الآراء في بعض المسائل[62]، فإنّ الخليفة أبا يوسف قد أمر بأن تُحرَق كتب الفروع، فنُفّذ أمره، وأُحرقت أعداد منها في المغرب والأندلس[63]. وبفضل ذلك اتّسعت آفاق الدراسة الفقهيّة. وإذا كان بعض الباحثين يذهبون، بناء على ذلك، إلى أن الموحّدين كانوا ظاهرية[64]، فإنّ آخرين لا يرون في ذلك العمل أكثر من الرجوع بالناس إلى الينابيع الأصيلة للدّين، القرآن والسّنة[65].

جـ- إذا كان عدد من علماء الدّين«زاغوا عن عقيدة السلف»في بداية هذه الفترة، ممالأة للحكّام الموحّدين، إلى درجة أن ألّف بعضهم في إثبات إمامة ابن تومرت ومهديّته[66]، فإن العدول عن ذلك يكون قد تمّ منذ أن أخذ الشك

---

(61) انظر: Charles André Julien: Histoire de l'Afrique du Nord -Paris -Payot -2ème édition -1966-2/86

(62) انظر: المراكشيّ: المعجب -م.س. -ص: 203.

(63) انظر: م.ن. -ص:201-202.

(64)من هؤلاء: محمد عبد الله عنان (انظر: عصر المرابطين والموحّدين -م.س. -240/2)، ومحمدالمنوني (انظر: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين -تطوان -معهد مولاي الحسن -1950م. -ص: 50 ومابعدها).

(65) من هؤلاء: عبد الله كنّون: انظر: النبوغ المغربيّ -م.س. -124/1-125.

(66) انظر: عبدالمجيد النجّار: المهديّ بن تومرت -بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -الطبعة الأولى-1403هـ. -1983م-ص: 245، 408-410.

في مهديّة ابن تومرت وعصمته يخامر الخلفاء الموحّدين أنفسهم، ثمّ لا يتحرّجون من إعلان موقفهم من تلك البدعة[67]. ثم كان قرار المأمون بعد هذه الفترة، إذ «أمر بزوال اسم المهديّ من السكّة وغيرها، ومن الخطبة، وأزال اسمه من جميع (رسوم) الموحّدين»[68].

3- الفلسفة:

يكاد المؤرخون يُجمعون على أن التفكير الفلسفيّ في الأندلس كان نادرا بسبب ماكان يُصيب المشتغلين به من مضايقة. وإذا تجاوزنا أقوال المحدَثين حول هذه الظاهرة في الأندلس، وجدنا من أقوال القدماء ما ينهض دليلاً قويّاً على وجودها. فقد ذكر ابن طُفيل أنّ التفكير الفلسفيّ في الأندلس «أعدم من الكبريت الأحمر»[69]؛ وبيّن ابن أبي أُصيبعة ماصرف مالك بن وُهيب عن إظهار الاشتغال بالفلسفة فقال: «وأضرب الرجل ظاهراً عن النظر في هذه العلوم، وعن التكلّم فيها، لما لحقه من المطالبات في دمه بسببها»[70]؛ وتحدّث المقّريّ عمّا كان يصيب الفلاسفة والمنجّمين في الأندلس، فقال: «...فإنّه كلّما قيل: فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامّة اسم زنديق، وقيّدت عليه أنفاسه»[71].

---

(67) قال عبد الواحد المراكشيّ: « أخبرني الشيخ الصالح أبوالعباس أحمد بن إبراهيم بن مُطرّف المريّ، ونحن بحجر الكعبة، قال: قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس، اشهد لي بين يدي الله عزّ وجلّ أنّي لا أقول بالعصمة • يعني عصمة ابن تومرت» (المعجب -م.س. -ص: 212).

(68) الحلَل الموشيّة -م.س. -ص: 164.

(69) حيّ بن يقظان -بيروت -دار المشرق -الطبعة الثانية -1968 م. -ص: 20.

(70) عيون الأنباء، في طبقات الأطبّاء -تحقيق نزار رضا -بيروت -مكتبة الحياة -1965م.- ص: 516.

(71) نفح الطِّيب -م.س. -221/1.

بيد أن هذه الفترة تكاد تكون بِدْعاً من تاريخ الأندلس، في ذلك. هذا،إذا استثنينا مدّة قصيرة، لا تتجاوز سنتين. وهي المدّة التي نُكب فيها ابن رُشد،كما سنرى.

ويعود الفضل في ازدهار الثقافة الفلسفيّة، في هذا العهد، إلى الخليفة أبي يعقوب بصفة خاصّة. ولقد سبق أن أوردنا ماذكره عبد الواحد المراكشيّ من أنّ أبا يعقوب طمَحت نفسه إلى تعلّم الفلسفة فجمع من أجزائها الشيء الكثير. وقد ذكر المراكشيّ ،كذلك،أن أبا يعقوب «أمر بجمع كتبها (أي الفلسفة)، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر با لله الأُموي»[72].

وقد عاصر أبا يعقوب اثنان من أكبر فلاسفة المسلمين في الأندلس وغيرها. هما: ابن طفيل وابن رشد. فأما الأول فقد قرّبه أبويعقوب إليه واستوزره، واعتمد عليه كثيرا في تدبير شؤون دولته. و لم يترك ابن طفيل، في هذا المجال،غير رسالته الشهيرة «حيّ بن يقظان» التي عالج فيها قضيّة التوفيق بين الدين و الفلسفة. تلك القضية التي شغلت كثيرا من فلاسفة الإسلام كإخوان الصّفا وابن رشد وغيرهم.

وأما ابن رشد فقد حظي، كذلك،لدى أبي يعقوب. وهو مدين لزميله ابن طفيل الذي سعى في تقريبه من الخليفة، واجتهد في ربط الصّلة بينهما[73].وتلبية لرغبة أبي يعقوب، اضطلع ابن رشد بتلخيص كتب أرسطوطاليس وتقريب أغراضها[74]، فازدادت منزلته، عنده، علواً.

---

(72) المعجب -م.س. -ص: 170-171.

(73) انظر: م.ن. -ص: 174-175.

(74) ذكر عبدالواحد المراكشيّ مابعث ابن رشد على تلخيص كتب أرسطو وتقريب أغراضها، فقال: «أخبرني تلميذه المتقدّم الذكر (أي أبوبكر بُندُود القرطبيّ) عنه، قال: استدعاني أبوبكر [ابن طفيل] يوما، فقال لي: سمعتُ اليوم أمير المؤمنين يتشكّى من قلق عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين=

فلما ولي الخلافة أبو يوسف ظلّ لابن رشد ماكان يتمتّع به من إكرام، وماكان يناله من تقدير. ثم كانت نكبتُه المشهورة[75]، فأُهين وأُحرقت كتبه. وأصاب أصحابَه ما أصابه، فتفرقوا في البلاد نِشْداناً للنجاة. بيد أنّ معاناة ابن رشد لم تدم طويلاً، إذ لم يلبث أبو يوسف أن قرّبه مرة أُخرى.

ولقد خلّف ابن رشد كتباً فلسفيّة كثيرة[76]، من أشهرها: «مناهج الأدلّة» و«فَصْل المقال» و«تهافت التهافت».

وإذا كان من تعليق على خبر نكبة ابن رشد، وما يُمكن أن تدلّ عليه من اضطهاد الموحّدين للمفكّرين، فإنّنا نرى أنّه لايجوز أن يُحمّل أبو يوسف المسؤوليةَ كاملة في تلك النّكبة، وذلك لما يلي:

أ- إنّ أهل قرطبة هم الذين حملوا أبا يوسف على ما صدر منه في حقّ ابن رشد. دفعهم إلى ذلك حسدهم له على مابلغ من رفيع المنزلة[77]. ولم يزد أبو يوسف على الاستجابة لهم من غير تحقّق.

ب- كان لسلوك ابن رشد ضلع فيما أصابه. ذكر عبدالواحد المراكشيّ أنّ ابن رشد كان -في أحد شروحه- «غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيّلو الكتّاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق»[78].

= عنه، ويذكر غموض أغراضه ويقول: لو وقع لهذه الكتب من يلخّصها ويقرّب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيّداً لقرُب مأخذهاعلى الناس. فإن كان فيك فضل قوّة لذلك فافعل... قال أبو الوليد (أي ابن رشد): فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخّصته من كتب الحكيم أرسطوطاليس» (م.ن. -ص: 175).

(75) انظر: م.ن. -224-225؛ ابن عبدالملك: الذيل والتكملة -م.س -25/6 ومابعدها.

(76) انظر: ابن عبد الملك: م.ن. -ص: 22-23.

(77) انظر: م.ن.-ص:25.

(78) المعجب -م.س. -ص: 224.

جـ- إن ما أصاب ابن رشد لم يكن فريداً في تاريخ الأندلس. وحسْبنا أن نشير إلى ما تعرّض له ابن مسرّة[79]؛ وابن حَزْم[80]؛ وابن الخطيب[81]؛ وغيرهم، وأن نذكر ماقُعل بكتاب أبي حامد الغزاليّ «إحياء علوم الدين»[82].

4- أهم العلوم والفنون الأخرى:

ازدهرت العلوم والفنون الأخرى، وكثر المهتمّون بها. وفيمايلي بيان لمدى ذلك الازدهار:

أ- حظيت علوم اللُغة باهتمام خاصّ. وتعدّد المشتغلون بها عامّة، وبالنحو خاصة. ويكفي أن نذكر من علماء اللّغة، في تلك الفترة، ابن خروف الذي كان -كما ينعته ابن عبد الملك- «نحوياً ماهرا». وقد شرح كتاب سيبويه شرحا سمّاه «تنقيح الألباب، في شرح غوامض الكتاب»، وأهدى منه نسخة إلى الخليفة محمد الناصر، فجازاه بأربعة آلاف درهم[83].

ب- عُني عدد من الأندلسيّين بالتّاريخ. فمنهم من شُغل بتراجم الأعيان، ومنهم من صبّ اهتمامه على تسجيل أحداث الدول.

---

(79) انظر: النباهيّ: تاريخ قضاة الأندلس -بيروت -المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع- د.ط. -د.ت. -ص: 78.

(80) انظر: ابن بسام: الذخيرة،في محاسن أهل الجزيرة -تحقيق إحسان عبّاس -ليبيا -تونس - الدار العربيّة للكتاب -1975م. -96/1/2.

(81) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام،فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام -ج: 3 -تحقيق أحمد مختار العبّادي ومحمد إبراهيم الكتّانيّ -الدار البيضاء -د.ط. -1964م. -مقدمة المحقّقين -ص: ن.

(82) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب،في أخبار الأندلس والمغرب -تحقيق إحسان عبّاس -بيروت- دار الثقافة -1967م. -59/4.

(83) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -320/1/5-321.

فمن الصنف الأول ابن بشكوال الّذي ألّف كتاب «الصلة في تاريخ أئمة الأندلس ومحدّثيها وفقهائها»، واصلاً به كتاب ابن الفرضي «تاريخ علماء الأندلس». ومن هذا الصنف، كذلك، ابن عميرة الضبّي صاحب كتاب «بغية الملتمس،في تاريخ رجال أهل الأندلس».

ومن الصنف الثاني: ابن صاحب الصلاة. وقد ألّف كتابا جليل الأهمّيّة في تاريخ دولة الموحّدين، سمّاه: «تاريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين، بأن جعلهم ا لله أئمة، وجعلهم الوارثين». وقد أُتيح له -بحكم قربه من البلاط- أن يسجّل، في كتابه، جلّ الأحداث الّتي عاصرها، وأن ينقل كثيراً من الوثائق الرسميّة والقصائد التي أُنشدت في شتّى المناسبات. فكان كتابه -بذلك- مصدراً تاريخيّاً وأدبيّاً،لاغنى عنه للباحثين في تاريخ هذه الفترة وأدبها[84].

جـ- عرفت صناعة الطبّ نشاطاً لم تعرفه من قبل، وتألّقت أسماء عدد من الأطبّاء خدموا البلاط الموحّدي، وتركوا مجموعة من المؤلّفات الطبّيّة. منهم: أبومروان بن أبي العلاءابن زُهرْ الذي كان الطبيب الخاصّ للخليفة عبد المؤمن. وله قصص في معالجة مرضاه تدلّ على حذق وذكاء نادرين. ومن مؤلّفاته «التّرياق السّبعيني» -وقد ألّفه لعبد المؤمن-، و«كتاب التّيسير،في المداواة والتّدبير»، و«كتاب الأغذية»، ومقال في علل الكُلى، ورسالة في البرص والبَهَق[85]. ومن أولئك الأطباء أبوبكر ابن زُهر المعروف بالحفيد وهو ابن السابق. وقد خدم بطبّه الخلفاء الموحّدين: عبد المؤمن وأبا يعقوب والمنصور والناصر. وكان «صائب الرّأي،

(84) لم يصل من هذا الكتاب النفيس إلاّ جزؤه الثاني الذي حقّقه ونشره الباحث المغربي الدكتور عبدالهادي التازيّ.

(85) انظر:ابن أبي أُصيبعة: عيون الأنباء - م.س. - ص:520-521.

حسـن المعالجـة، جيّـد التدبـير»[86]. ومـن آثـاره «التِّريـاق الخمسـيني» الـذي ألّفـه للمنصـور[87]. ومـن أشـهر الأطبّـاء كذلـك، أبـو الوليـد ابـن رشـد الـذي لم تصرفـه عنايتـه بالفلسـفة عـن الاهتمـام بصناعـة الطـبّ. ولـه فيهـا مـن المؤلّفـات ما يشهد له بطول الباع[88].

(86) م.ن. –ص: 522.

(87) انظر: م.ن.

(88) انظر: م.ن. –ص: 530–533.

الباب الأوّل

فنون الشعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين

مـدخـل

في مصادر الشعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين

حظي الشعر الأندلسيّ،منذ المراحل الأولى من تاريخه،بعناية خاصّة، فجُمع كثـير منـه في دواوين وغيرها من المصادر. وقد تجاوزت هذه العناية جهود الأفراد مـن شعراء وغـيرهم، إذ كان لبعض حكّام الأندلس فضل على عمليّة جمع ذلك الشّعر وتدوينه.

ومن الأدلّة علـى هـذه العنايـة، قبـل عصـر الموحّدين، مـااضطلع بـه بعـض الشـعراء من جمع لنتاجهم في دواوين. ومن هؤلاء ابن خفاجـة الـذي جمـع شـعره في ديـوان مهّـد لـه بمقدّمة وصف فيها تجربته الفنّيّة، وأبدى بعض آرائه النقديّة[1]؛ ومنهم ابـن الزقّـاق البلنسـيّ، الذي دوّن شعره بنفسه، وعنه أخذه تلاميذه[2].

ومن الأدلّة على ذلـك الاهتمـام أيضـا ماقـام بـه بعـض المولَعين بجمـع شـعر غـيرهم وتدوينه. فقد قام إسماعيل ابن عبّاد بجمع شعر عمّه المعتضـد[3]. وكـان الأمـير شـرف الدولـة ابـن المعتمـد مهتمّـا بجمـع الشّـعر. وقـد يكـون هـو الّـذي جمـع شعر أبيـه[4]. وعُـرف عـن أبي العطّاف بن حيي شغف بجمع أشعار معاصريـه. وقـد طلـب مـن ابـن زيـدون أن يُطلعـه على بعـض شعـره فتأخّر عن تلبية طلبه حتى توسّل إليه بـالمعتمد ابـن عبـاد[5]. وقبـل هـؤلاء

(1) انظر:ديوان ابن خفاجة-تحقيق السـيدمصطفى غـازي-الإسـكندرية-منشـأة المعـارف-د.ط.-1960م-ص:8-9.

(2) انظر:ديوان ابن الزقّاق البلنسيّ-تحقيق عفيفة محمود ديراني-بـيروت-دار الثقافـة-د.ط.-د.ت.-مقدّمـة المحقّقة-ص:58.

(3) انظر:ابن بسّام:الذخيرة-م.س.-29/1/2.

(4) انظر:ديوان المعتمـد ابـن عبّـاد-تحقيـق رضـا حبيـب السويسـيّ-تونـس-الـدار التونسـيّة للنشـر-د.ط.-1975م.-مقدّمة المحقّق-ص:11.

(5) انظر:ديوان ابن زيدون-تحقيق عليّ عبد العظيم-القاهرة-مكتبة الانجلو مصرية-د.ط.-1957م.- مقدّمـة المحقّق-ص:112.

اضطلع الأديب حبيب بن أحمد الشطجيري بجمع شعر يحيى بن حَكَم الغزال[6]؛ وقام محمد ابن إبراهيم القيسيّ بتدوين شعر ابن درّاج القَسْطَلّي[7]؛ واهتمّ الحميدي صاحب«جذوة المقتبس» بجمع شعر أستاذه ابن حزم وترتيبه على حروف المعجَم[8]...

ويمكن أن نُضيف إلى الأدلّة السابقة ماصدر عن الخليفة الأُمويّ الحَكَم المستنصر، إذ أمر بجمع نتاج شعراء الأندلس، فكان مما جمع في تلك«الحملة» ديوان ابن عبد ربّه الذي أربى عدد مجلّداته على العشرين[9].

وقد ظلّ الأمر كذلك في صدر العصر الموحّديّ، إذ تواصل الاهتمام بإبداعات شعراء الأندلس جمعاً وتدويناً.وكثيراً ما يشير مترجمو أولئك الشعراء إلى أنّ شعرهم مدوّن، يتداوله القرّاء.

فقد اضطلع أبوعبد الله محمد بن غالب الرصافيّ البلنسيّ أبرز شعراء هذه الفترة بجمع شعره بنفسه في ديوان،سمعه الناس منه ورووه عنه. قال ابن الأبّار:«وشعره مدوّن بأيدي النّاس، متنافَس فيه؛ وقد حُمل عنه وسُمع منه»[10]. وممّن رووه عنه: أبوعلي كسرى المالَقيّ وأبوالحسين ابن جبير[11].

---

(6) انظر: الحميديّ: جذوة المقتبس،في ذكر ولاة الأندلس-القاهرة-الدار المصريّة للتأليف والترجمة- د.ط.-1966م-ص:357.

(7) ابن الأبّار: التكملة،لكتاب الصلة-تصحيح عزّت العطّار الحسينيّ-القاهرة-مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة-د.ط.-1375هـ.-1956م-ص:557.

(8) انظر: الحميديّ: جذوة المقتبس-م.س.-ص:309.

(9) انظر: م.ن.-ص:101؛ الضبّي: بغية الملتمس،في تاريخ رجال أهل الأندلس-نشر كوديرا- مجريط-روخس-د.ط.-1884م-ص:309.

(10) التكملة-م.س.-ص:520.

(11)انظر: م.ن. وذكر عبد الواحد المراكشيّ أنّه روى شعر الرصافي«عن جماعة ممّن لقيه»(المعجب-م.س.-ص:157).

وقام أبو بحر صفوان بن إدريس التُّجيبيّ بجمع أشعاره ورسائله في كتاب سمّاه «عُجالة المتحفّز وبُداهة المستوفز». قال ابن الأبّار واصفا هذا الكتاب:«...يشتمل على رسائله وأشعاره، وما خوطب به وراجع عنه»[12]؛ وقال ابن الخطيب في ذلك:«وله تواليف أدبيّة منها... كتاب"العُجالة"، سفران يتضمّنان من نظمه ونثره أدباً لا كِفاء له»[13].

ونقل المقّريّ عن ابن سعيد ماذكره عن صفوان بن إدريس من أن«ديوان شعره مشهور بالمغرب»[14]. فهل كان ابن سعيد يقصد كتاب«العُجالة»المذكور، أم كان يقصد ديوانا خاصّاً أفرده صفوان لأشعاره؟ لعلّ ابن سعيد لم يكن يعني إلاّ كتاب«العُجالة». على أن ما ذكره ياقوت من أنّ لصفوان«ديوان شعر»[15] قد يرجّح أن يكون صفوان قد جمع أشعاره-وحدها- في ديوان خاصّ، على غرار كثير من الشعراء.

كما ألّف صفوان بن إدريس كتابه المشهور«زاد المسافر، وغُرّة مُحيّا الأدب السّافر» الذي جمع فيه مختارات من أشعار الأندلسيّين في القرن السادس الهجريّ. قال في مقدّمة هذا الكتاب:« هذه جملة علقتها من أشعار المولّدين ممن أدركته بعمري، أولحقه أهل عصري»[16]. ووصف«زاد المسافر» محقّقهُ منوّهاً به، فقال:«ولا غرابة إذا بلغ "زاد المسافر" من الشهرة مابلغ في الأندلس والمغرب؛ فإنّه حلقه من سلسلة مجموعات ودواوين شعريّة نشرها أدباء الأندلس في مختلِف العصور... فمن هنا تظهر أهَمّيّة"زاد المسافر". فهو يشخّص الأدب الموحّدي»[17].

---

(12) البلفيقيّ: المقتضَب من كتاب تحفة القادم-تحقيق إبراهيم الابياريّ-بيروت-دار الكتاب اللبنانيّ-الطبعة الثانية-1403هـ.-1983م-ص:135.

(13) المقّريُ: نفح الطيب-م.س.-5/62-63.

(14)م.ن:ص:69.

(15)معجم الأدباء-نشر أحمد فريد رفاعيّ-مصر-مطبعة دار المأمون-الطبعة الأخيرة-د.ت-12/10.

(16) زاد المسافر-تحقيق عبد القادر محداد-بيروت-دار الرائد العربيّ-د.ط.-1970م-ص:43.

(17) م.ن.-المقدّمة-ص:5-6.

وقام ابن جُبير صاحب الرّحلة المشهورة بتدوين شعره مرتّباً إيّاه وَفْق فنونه. وصف عمله ذلك القاضي ابن عبدالملك المراكشيّ فقال:«...ونظمه فائق، وقفت منه على مجلّد متوسّط، يكون قدر ديوان أبي تمّام حبيب بن أوْس، جمع أبي بكر الصُّوليّ أو نحو ذلك؛ ومنه جزء سمّاه "نتيجة وجْد الجوانح، في تأبين القرين الصالح" أودعه قطعاً وقصائد في مراثي زوجه... تزيد بيوته على ثلاثمائة، سوى موشّحات خمس جعلها قريباً من آخره؛ ومنه جزء سمّاه "نظم الجُمان، في التشكّي من إخوان الزمان"، يشتمل على أزيد من مائتي بيت في قطع»[18].

وذكر ابن عبدالملك، في موضع آخر، أن أبا عبد ا لله ابن عفيون «جمع شعر ابن جبير في صباه»[19]. وربّما كان عمل ابن عفيون المحاولةَ الأولى لتدوين شعر ابن جبير، وذلك قبل أن يضطلع الشاعر نفسه بجمع شعره وترتيبه حسَب فنونه، على نحو ماذكر ابن عبد الملك.

وجمع أبوالقاسم ابن البرّاق، مثل معاصره ابن جبير، شعره في ديوان سمّاه «نَوْر الكمائم»[20].

وقام أبو الحسن علي ابن حريق بإخراج شعره في مجلّدتين[21].

وجمع أبوبكر ابن قسّوم شعره في ديوان ورتّبه على حروف المعجم، قرأه عليه أبوالحسن الرعيني في النسخة التي بخطّه[22].

ودوّن أبوعبد ا لله محمد بن إدريس المعروف بابن مَرْج الكُحْل شعره. وظلّ

(18) الذيل والتكملة-م.س.-608/2/5.

(19) م.ن.-140/6.

(20) انظر: ابن الأبّار: التكملة-م.س.-ص:557.

(21) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-275/1/5.

(22) انظر: الرعينيّ: برنامج شيوخ الرعينيّ-تحقيق إبراهيم شبّوح-دمشق-وزارة الثقافة-د.ط.-1381هـ-1962م.-ص:93.

يراجعه. وقد قرأه عليه الرعيني بمرسية بعد أن«استقرّ رأيه عليه»[23].

وقد ذكر الضّبّي أنّه رأى شعر أبي بكر يحيى ابن مُجْبَر مجموعاً في سفرين ضخمين[24]. وقد أمر ممدوحه أبو يعقوب-وكان مُعجَباً بشعره[25]- بجمع القصائد التي مدحه بها في ديوان خاصّ[26].

وقد دُوّن شعر أبي العباس بن سيّد الإشبيليّ المعروف باللّصّ[27]. وكذلك شعر أبي بكر ابن المنخّل الشِلْبي[28]. وجمع أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعيّ شعره في سُفَير[29]. وغيرُهم كثير.

والنتيجة التي نستخلصها من العرض السابق أن الشعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين قد جُمع جلّه، وأنّ عملية الجمع قد اضطلع بها، في الأغلب الأعمّ، شعراء تلك المرحلة أنفسهم.

ويمكن أن نلاحظ من تتبّعنا لهذه العمليّة مايلي:

1- اختار بعض الشعراء لدواوينهم أو لأجزائها ما استحسنوه من العناوين الدالّة على المضامين: فصفوان بن إدريس سمّى كتابه«عجالة المتحفّز، وبُداهة المستوفز»؛ وابن البرّاق

(23) م.ن.-ص:209.

(24)انظر: بغية الملتمس-م.س.-ص:494. وذكر المقّري أنّ شعر ابن مجبر كثير، يشتمل على تسعة آلاف وأربعمائة بيت. انظر: نفح الطيب-م.س.-238/3.

(25) ممّا قال المنصور لمّا وقف على قبر ابن حزم:«كلّ العلماء عيال على ابن حزم»، ثم رفع رأسه وقال مخاطباً ابن مجبر:«كما أنّ الشعراء عيال عليك، يا أبا بكر». انظر: المقّري: م.ن.-ص:238.

(26) ينظر: محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحّدين-م.س.-244/2.

(27) انظر: ابن الأبّار: التكملة-م.س.-ص:80.

(28) انظر: م.ن.-ص:496.

(29) انظر: ابن عبد الملك المراكشيّ: الذيل والتكملة-م.س.-87/4.

أطلق على ديوانه «نَوْر الكمائم»؛ وذهب ابن جبير إلى إعطاء كلّ جزء من ديوانه عنواناً خاصاً، فسمى جزءاً منه «نتيجة وَجْد الجوانح، في تأبين القرين الصالح»، وسمّى جزءاً آخر «نظم الجُمان في التشكّي من إخوان الزّمان». وبذلك يكون هؤلاء الشعراء قد سبقوا شعراء عصرنا إلى عنونة إبداعاتهم.

2- كان شعراء الأندلس وغيرهم من جامعي أشعارهم يرتّبون الدواوين -في الغالب- على حروف المعجم[30]. على أنّنا قد وجدنا في هذه الفترة من أعرض عن تلك الطريقة. فابن جبير -مثلا- قد رتّب ديوانه حسَب أغراض شعره فأفرد جزءاً منه للرثاء، وخصّص آخر للشكوى...

3- جمع بعض الشعراء في دواوينهم، بين الشعر القريض والموشّحات، أو بين الشعر والنثر: فابن جبير ضمّ إلى قصائده وقطعه التي رثي فيها زوجه، خمس موشّحات نظمها في الغرض نفسه؛ وصفوان بن إدريس قد جمع كتابه «العُجالة» بين أشعاره ورسائله.

4- قد يشير ماذكره الرُّعيني عن ابن مرج الكحل إلى أنّ عمليّة جمع الشعراء لشعرهم كانت مصحوبة بمراجعته وتنقيحه[31].

(30) يمكن أن نستثني من تلك القاعدة ديوان ابن خفاجة الذي لم يرتّبه أيّ ترتيب، ولكنّه وعد بترتيبه على حروف المعجم. انظر: ديوان ابن خفاجة-م.س.-ص:11.

(31) نستدلّ على ذلك -أيضا- بما أجراه ابن خفاجة، وإن كان من الفترة السابقة، من تعديل على بعض شعره أثناء جمعه في ديوانه، وبما تناوله به من مراجعة حملته أحيانا على إهمال بعضه. قال واصفا العملية: «.. وكان قد باد، أو كاد، لدُثور رقاع مسوّداته، وإخلاق حواشي تعليقاته. واقتضى النظر فيما حاولته أن أتعهّده ثانياً تعهد مؤلَف، واتفقّده عائداً عليه تفقد متأمّل مثقّف، فمنه ما تعهدّته فقيّدته، ومنه مالحظته فلفظته، ومنه ما تصفّحته فأصلحته، إمّا لاستفادة معنى، وإمّا لاستجادة مبنى. وكان قد شاع، كثير منه وذاع: فمن متعلّق بنفس، ومن مُعلّق في طِرْس. وسيختلف وجوده بما عاودناه من مفتقده ومنتقده، فلا يوجد واحدا، لا من طريق صيغته، ولا من جهة عدده».
(م.ن.-ص:8-9).

وإذا كان ما وصفناه من اهتمام بجمع الشعر وتدوينه منصبّا -أساساً- على الشعر القريض، فإنّ الموشّحات والأزجال قد حَظِيت، هي كذلك، بعناية خاصّة،في هذه الفترة، لم تنلها فيما سبق.

فالموشّحات ظلّت-على الرغم من ظهورها في وقت مبكّر من تاريخ الأدب الأندلسيّ (نهاية القرن الثالث الهجريّ)، ومشاركة غيرِ ما أديب كبير فيها(ابن عبد ربه، والرماديّ، وعُبادة بن ماء السماء، وابن اللبّانة، والأعمى التُّطِيليّ، وابن بَقِيّ، وغيرهم)-فنّاً مسموعاً، قبل هذه الفترة، لايحتفي بها المؤلّفون- على إعجاب بعضهم بها[32]-أدنى احتفاء في مؤلّفاتهم[33]، حتى انّ عبد الواحد المراكشيّ قال-وهو يتحدّث عن ابن زُهْر الحفيد، وذلك في بداية القرن السابع الهجريّ- مسجّلا هذه الظاهرة، ومؤكّدا هذه القاعدة:«ولولا أنّ العادة لم تجر بإيراد الموشّحات في الكتب المجلَّدة، المخلَّدة، لأوردتُ له بعض ما بقي على خاطري من ذلك»[34].

على أنّ العادة التي يتحدّث عنها المراكشيّ قد خرقها بعض المؤلّفين قبل القرن السابع، فاحتفوا بتدوين الموشّحات في كتبهم. وقد بدأ ذلك في المرحلة التي خصّصنا

(32)قال ابن بسّام منوّها بتأثيرها:«تشقّ على سماعها مصونات الجيوب، بل القلوب»(الذخيرة- م.س.- 469/1/1).

(33)اعتذر ابن بسّام عن عدم إدخال الموشّحات في كتابه«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » قائلا:«وأوزان هذه الموشّحات خارجة عن غرض هذا الديوان، إذ أكثرها على غير أعاريض العرب»(م.ن.- ص:470).

وإذا كان ابن بسّام اعتذر هذا الاعتذار اللَبِق ، فإنّ معاصره الفتح بن خاقان انتقد أبا القاسم المنيشيّ المعروف بـ«عصا الأعمى» وذلك لاتجاهه إلى التوشيح وتركه للقصيد، فقال:«لكنّه نكَب عن المقطع الجزل، وذهب مذهب الهزل...وليس شرط كتابي بَذاءه، ولا أن يقف حِذاءه»(المقري: نفح الطيب-م.س.-54/7).

(34) المعجب-م.س.-ص:63.

لها هذه الدراسة أو قُبيلها[35].

ففي هذه المرحلة جمع ابن البرّاق موشّحاته-وهي نحو أربعمائة-في ديوان، صدّره بمقالة سمّاها:«الإفصاح والتصريح، عن حقيقة الشعر والتوشيح»[36].

وفي هذه المرحلة كذلك، ضمّ ابن جُبير-كما أسلفنا- خمس موشّحات إلى الجزء الذي أفرده من ديوانه للمراثي التي نظمها في زوجته.

ولعلّ أهمّ حدث في تاريخ تدوين الموشّحات والتنظير لها: ما أقدم عليه ابن سَناء المُلْك-في هذه الفترة ذاتها- من تأليف كتابه الشهير«دار الطِّراز في عمل الموشّحات» الذي حوى بعض موشّحات هذه الفترة[37]. وإن كان هدف ابن سناء الملك هو التنظيرَ لهذا الفنّ لا جمع مادّته. وكان مدفوعاً إلى تحقيق ذلك بإعجاب كبير، وصفه في مقدّمة كتابه[38].

وإذا كان تدوين الموشّحات في هذه الفترة ظلّ قليلاً، فإنّ المؤلّفين سيحتفون بها ابتداء من القرن السابع. ومن المؤلّفات المتأخّرة التي سجّلت موشّحات الفترة الأولى من عصر الموحّدين:«المغرب في حلَى المغرب»[39] لابن سعيد،و«نفح الطِّيب»للمقّري،

---

(35)ربّما كان أبو الحسن ابن سعد الخير(510-571هـ) أول من خرق هذه العادة، إذ ألّف «كتاب مشاهير الموشّحين في الأندلس» ترجم فيه لعشرين وشّاحاً«ذكرهم بحلاهم ومحاسنهم على طريقة الفتح في"المطمح" و"القلائد" وابن بسّام في"الذخيرة" وابن الإمام في"سِمْط الجُمَان"»(ابن عبد الملك: الذيل والتكملة- م.س.-188/1/5).

(36) انظر: م.ن.-468/6.

(37) هي بعض موشّحات ابن زُهْرالحفيد. انظر: ابن سناء الملك، دار الطراز في عمل الموشّحات- تحقيق جودت الركابي-دمشق-دار الفكر-الطبعة الرابعة-1980م.-فهرس الموشّحات.

(38)قال:«وكنت في طليعة العمر وفي رعيل السن قد همت بها عشقا، وشُغفت بها حبا، وصاحبتها سماعا، وعاشرتها حفظاً، وأحطت بها علما، واستخرجت خباياها، واستطلعت خفاياها، وقلّبت ظهورها وبطونها، وعانقت أبكارها وعُونها، وغصت على جواهرها المكنونة، وتخطّيت من أخبارها المعلومة إلى أسرارها المكتومة، ولبثت فيها من عمري سنين، إلى أن عرفت أنّ معرفتها تزكية للعقل، وتعديل للفهم..»(ص:30).

(39)خصّص ابن سعيد لها وللأزجال«أهداب» كتابه المذكور.

و«جيش التوشيح» لابن الخطيب،و«توشيع التوشيح» للصفدي، و«عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة، وغيرها.

وفي هذه الفترة أوقبيلها،بدأ تدوين الأزجال. فقد جمع أبوبكر ابن قزمان إمام زجّالي الأندلس نتاجه الزّجلي في ديوانين: أحدهما صغير، سمّاه:«إصابة الأغراض، في وصف الأعراض»، والآخر كبير[40]. وقد صدّر ديوانه الأول-وهو الذي وصل إلينا-بمقدّمة، تضمّنت جملة من آرائه في هذا الفنّ، وفي نتاج الزّجّالين الذين سبقوه كأخطل بن نمارة ويخلف بن راشد[41].

ولعلّ خليفة ابن قزمان أبا عبد الله أحمد بن الحاجّ المعروف بـ«مَدْغَلّيس» هو الذي جمع أزجاله في ديوانه الذي ذكره بعض الباحثين في فنّ الزجل، وأخذوا عنه[42].وإذا صحّ ذلك، يكون مدغلّيس قد دوّن أزجاله في الفترة التي يهمّنا أمرها.

وستحظى أزجال هذه الفترة وغيرها بعناية المؤلّفين من بعد، فتدخل كتبهم إلى جانب الشعر القريض والموشّحات،كما سيخصّص لها الباحثون كتباً يدرسونها فيها ويُوردون كثيراً من نصوصها. ومن تلك الكتب:«مختار ماللزجّالين المطبوعين» لابن الدبّاغ[43]، و«المغرب في حلى المغرب» لابن سعيد و«نَفْح الطِّيب» للمقّري، و«العاطل الحالي» لصفيّ الدين الحِلّي، و«بلوغ الأمل في فنّ الزجل» لابن حجّة الحَمَويّ.

بيد أن الدواوين والمجموعات الشعريّة التي حوت نتاج هذه الفترة ضاع جلّها أو مازال في حكم الضائع من تراث الأندلس الأدبيّ.

فقد ضاع ديوان الرصافي البلنسيّ الذي صنعه بنفسه،وكان متداوَلاً بين قرّاء الأدب

---

(40)ينظر: إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين-م.س.-ص:254.

(41)انظر: م.ن.-ص:257-259.

(42)انظر: ابن حجة: بلوغ الأمل في فنّ الزجل-تحقيق رضا محسن القريشي-دمشق-وزارة الثقافة والإرشاد القومي-د.ط.-1974م.-ص:102.

الأندلسي. ولكن ابن مباركشاه كان قد اختار منه قطعة ضمن اختياراته من أشعار الأندلسيّين في كتابه «السفينة»، فأخذها الدكتور إحسان عبّاس[44]، وأضاف إليها ما وجد من شعر الرصافيّ في المصادر التي تيسّرت له، وأخرج ديواناً صغير الحجم لايمثّل- في اعتقادنا- إلاّ جزءاً من ديوان الشاعر، الضائع. ولعلّ الرصافيّ أن يكون، بذلك، أعظم شعراء عصره حظاً؛ فليس لأيّ منهم في المصادر المتيسّرة ما يملأ فراغ ديوان. وإذا كنّا نأسف لضياع ماضاع من شعره، فإنّ ذلك الأسف لَيزداد على ماضاع من أشعاره في الحنين إلى وطنه، تلك الأشعار التي أكثر منها وأجاد فيها[45].

وإذا كان هذا هو شأنَ ديوان الرصافيّ، فإنّ ديوان ابن جُبَير قد ذهب و لم يفكّر أحد- فيما نعلم- في إعادة جمعه. على أنّ شيئاً من شعر ابن جبير قد حُفظ في بعض المصادر كـ«زاد المسافر» لصفوان بن إدريس، و«الذيل والتكملة» لابن عبد الملك، و«نفح الطيب» للمقّري، و«الإحاطة» لابن الخطيب، وغيرها. ولقد احتفى ابن عبد الملك احتفاء خاصًّا بشعر ابن جبير، فسجّل في كتابه المذكور عدداً مُعتبَراً من قصائده ومقطوعاته، كثير منها لا نُلفيه في غيره من المصادر.

---

(43) انظر: ابن سعيد: المغرب-م.س.-438/1.

(44) كان أول من فكّر في نشر ديوان الرصافيّ البلنسيّ هو الدكتور صلاح الدين المنجد، ففقد استخرج شعر الرصافي من كتاب «السفينة» ليعدّه للنشر، ولكنّه عندما علم باهتمام الدكتور إحسان عباس بنشر التراث الأندلسيّ، آثره مقدّما إليه ماصوّر ومانسخ. انظر: ديوان الرصافيّ البلنسيّ-م.س.-مقدّمة المحقّق-ص:26.

(45) نوّه غيرُما واحد بإكثار الرصافيّ من النظم في هذا الغرض وإجادته فيه. قال ابن الأبار: «وكان في قصائده كثيراً مايذكر شوقه إلى معاهده، فيأتي بما يُعجب ويُعجز» (البلفيقي: المقتضب-م.س.- ص:109). وقال ابن الخطيب: «وكان -رحمه الله- قد خرج صغيراً من وطنه، فكان أبداً يكثر الحنين إليه، ويقصر أكثر منظومه عليه. ومحاسنه كثيرة فيه» (الإحاطة-م.س.-507/2).

وإذا كان ما اختاره ابن عبد الملك لابن جبير من أشعار يتّفق ونزعته في اختيار النصوص الأدبيّة، فإنّنا لانجد تفسيراً لإغفاله المراثي التي قالها ابن جبير في زوجته، مع أنّه(أي ابن عبد الملك) كان حريصاً على تسجيل المراثي. ولقد نقل في كتابه مراثي كاملة على الرغم من طولها. ولو أنّ ابن عبد الملك نقل بعض الموشّحات التي بكى فيها ابن جبير زوجته، لوفرّ للباحثين في فنّ التوشيح نصوصاً تساعد على البحث في توظيف الموشّح لغرض الرثاء[46] وماإليه.

وكما ضاع ديوان الرصافيّ وديوان ابن جبير، ذهب كتاب صفوان بن إدريس التُجيبي«عُجالة المتحفّز، وبُداهة المستوفز»، وكذا ديوانه، إن كان قد جمع شعره في ديوان. ولم يصل إلينا من شعره الذي كان غزيراً[47] إلا قصائد[48] ومقطّعات، لاتكفي لتكوين ديوان، أوردتها جملة من المصادر كـ«الإحاطة» و«نفح الطِّيب»، و«تحفة القادم» وغيرها. وقد جمع جلّ هذا الشعر الأستاذ عبد القادر محداد في مقدمة«زاد المسافر» وحقّقه تحقيقاً علميّاً. ولعلّ أهمّ ما ضاع من شعر صفوان ما نظمه في تأبين الحسين بن علي مما انفرد به بين معاصريه[49]. فلم نقف له، مما قاله في هذا الغرض، إلا على بعض الأبيات[50].

---

(46) ليس بين أيدي الباحثين في الموشّحات الأندلسيّة-حسبما نعلم- إلاّ نصّ واحد،قيل في هذا الغرض، هو: الموشّح الذي قاله ابن حزمون معاصر ابن جبير في رثاء أبي الحملات قائد الأعنّة ببلنسية الذي قتله النصارى. ويعود الفضل في وصوله إلينا إلى مصدر واحد، هو: كتاب«المغرب» لابن سعيد. ومطلع هذا الموشح هو:

ياعينْ بكّي السراجْ　　الأزهرا　　النيّرا　　اللاّمعْ

وكان نعم الرّتاج　　فكسّرا　　كي تنثَرا　　مدامع

(217/2).

(47)قال المقّريّ متحدّثا عن صفوان:«وشعره الرمل والقَطْر كثرة»(نفح الطيب-م.س.-67/5)

(48)منها رائيّته في الحنين إلى مُرْسِية، التي عارض بها الرصافيّ البلنسيّ في رائيته في الشوق إلى بلنسية ؛ ومنها تائيّته المشهورة في الغزل؛ ومنها همزيّته التي اشتهرت بين أدباء المغرب.

(49) انظر: م.ن. ــ 63/5.

(50)انظر:م.ن.-ص:69-70.

ومازالت دواوين: ابن البراق، وابن حريق، وابن قسّوم، وابن مرج الكحل، وابن مجبر، وابن سيّد اللصّ، وابن المنخّل، وأبي الربيع الكلاعي، ومدغلّيس، وغيرها، في حكم الضائع من تراث الأندلس. وقد عدا ذلك الضياع -فيما يبدو- على مجموع موشّحات ابن البرّاق، و"مختار" ابن الدّباغ من أزجال الأندلسيّين، وغير ذلك من مصادر الشعر الأندلسيّ في هذه الفترة.

وفضلا عما ضاع من دواوين ومجموعات شعريّة، فإنّ نتاجًا آخر قد ذهب، لم يحظ، إطلاقا بالجمع.

ومن الأسباب التي كانت من وراء ذهاب كثير من تراث الأندلس الشّعريّ -عمومًا- مايلي:

1- الأحداث التي عرفتهاالأندلس ابتداءً من القرن السابع الهجريّ. ذلك أنّ النصارى لم يكونوا- في عملية «الاسترداد» المشؤومة- يكتفون باحتلال ما يفتكّونه من أجزاء البلاد، وإنّما كانوا يدمّرون ماوصلت إليه أيديهم من تراث فكريّ. فضاع، في تلك الظروف العصيبة، شيء غير قليل من إبداع شعراء الأندلس، ومنهم شعراء فترتنا.

2- زهد بعض الشعراء في جمع نتاجهم كلّه أو بعضه. فقد تنزّه كثير منهم عن تدوين أشعار الهجاء، فجاءت دواوين كثيرة شبه خالية من هذا اللون[51]. وإن كان الدكتور إحسان عباس قد علّل ندرة الهجاء في دواوين الشعر الأندلسيّ بتورّع الشعراء عن النظم في هذا الغرض، فقال: «ولو قرأنا ديوان ابن درّاج القسطلّيّ وابن زيدون وابن حمْديس وابن خفاجة والأعمى التُّطيليّ والرّصافيّ البلنسيّ وابن الزّقّاق وحازم القرطاجنّيّ وابن الخطيب وآخرين غيرهم، لم نجد في دواوينهم هجاء، أووجدنا قسطا يسيراً منه. وأنا أستبعد أن يكون ذلك ناشئاً عن قصور في الطبيعة أو الملَكة الفنّيّة، وأرى هذه الظاهرة

(51) من الأمثلة على ذلك: ديوان ابن خفاجة، وإن كان من العصر السابق، فقد كاد يخلو من الهجاء مع أن ابن عميرة الضّبّيّ يذكر أنّه كان «خبيث الهجاء» (بغية الملتمس -م.س.- ص: 202).

دلالة على رقابة أخلاقية ذاتيّة كانت ترى في هذا اللون من الأدب شيئاً منافياً للقيم الخلقيّة»[52].

وإذا كان رأي الدكتور إحسان عبّاس صادقاً في عدد من شعراء الأندلس، ومنهم الرصافيّ البلنسيّ أبرز شعراء فترتنا[53]، فإنّه لا يصحّ في آخرين كانوا مكثرين من النظم في هذا اللون حتى ليمكن أن نقرن بعضهم بهجّائي المشرق، من أمثال الحُطيئة وبشّار ودِعْبل وغيرهم، وإن كنّا لا نملك إلاّ قليلامن أهاجيهم[54]. ومن هؤلاء أبو بكر اليكّي وعلي ابن حزمون، أشهر هجائي الأندلس في عصرَي المرابطين والموحّدين.

3- نزعة مؤلّفي كتب المختارات من أشعار الأندلسيّين، وطريقتُهم في اختيار النصوص. فقد كان بعضهم يكتفي بتسجيل ما يُعجبه من النصّ. وقد لايزيد اختياره على أبيات قليلة من القصيدة الطويلة. فجلّ مختارات صفوان بن إدريس في كتابه «زاد المسافر» مقطّعات قد يكون بعضها من قصائد طويلة ضاع كثير منها، و لم يسلم إلاّ ما سجّله صفوان في مجموعته المذكورة.

---

(52)«هل كان الشعر في الأندلس سببًا في انحلال أخلاقها ثم سقوطها، أم كان لها مجرد مرآة وانعكاس؟». مجلة الأصالة-الجزائر-وزارة التعليم الأصليّ والشؤون الدينيّة- ع:27-سبتمبر-أكتوبر-1975م-ص:191.

(53)من أدلتنا على ذلك-فضلاً عن ندرة الهجاء في ديوانه- قوله-وقد جرى بينه وبين السُّهَيْلِيّ العالم الأندلسيّ المشهور، ماجرى:-

عفا الله عنّي فإنّي امرؤٌ ... أتيتُ السلامة من بابِهَا

على أنّ عندي لمن هاجني ... كنائنَ غصّت بنشّابها

ولو كنت أرمي بها مسلمًا ... لكان السهيليّ أَولى بها

(ديوان الرصافيّ البلنسيّ-م.س.-ص:50.)

(54)أشار ابن الأبّار إلى كثرتهم في القرنين السادس والسابع، وذكر عدداً من الأسماء. انظر: البلفيقيّ: المقتضَب-م.س.-ص:206-207.

وماقيل في «زاد المسافر» يصحّ أن يقال في «الحلّة السِّيَراء» و«تحفة القادم» و«المغرب» و«رايات المبرّزين»، وغيرها.

وإذا كان صفوان وابن سعيد وغيرهما ينطلقون في اختياراتهم من موقف أدبيّ، فلا يتحرّجون من تسجيل أشعار الهجاء والمجون وماإليها، حتى انّ الدكتور شوقي ضيف محقّق كتاب «المغرب» حذف ما أورد ابن سعيد من موشّحات ابن حزمون الهجائيّة لما فيها من فُحْش وبَذاء[55]-فإنّ غيرهم لم يكن كذلك: فالقاضي ابن عبدالملك المراكشيّ كان يصدر في اختياراته عن موقف دينيّ ونزعة خلُقيه، فأكثر-بحكم ذلك-من إيراد أشعار الزهد والرثاء ومإاليها في كتابه «الذيل والتكملة». ويكفي أن نُشير إلى احتفائه-كما أسلفنا- بشعر ابن جبير الذي يبدو أنّه حقّق مَثَله الأعلى في الشعر.

وقد أخلى ابن الأبّار كتابه «تحفة القادم» من أشعار الهجاء، وقال: «وتركت، لأجل الهجاء، من لم أَجِدْله سواه، وهم كثير»[56].

وكان يعقوب ابن طلحة-وهو ممّن أدركوا هذه الفترة-يروي ديوان ابن خفاجة مجرِّداً إيّاه من الهجاء[57].

وقد كان لابن بسّام الشنتريني-قبل ابن الأبّار وابن طلحة-مثلُ هذا الموقف. فقد حاول إخلاء كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»- على ضخامته وشموله- من أشعار الهجاء، وصرّح بموقفه المبدئيّ من هذا اللون من الشعر في غير ما موضع

(55)انظر: 216/2 ح:1. ولم يذهب مذهبه الأستاذ عبدالقادر محداد محقّق «زاد المسافر»، فقد أبى أن يحذف شيئاً من مختارات صفوان، وأشار إلى ذلك بقوله: «وشعرهم شعر هحو. فهجا قوم هذا العصر بغير حساب، وتعاطوا الهجو المرّ القادح [الذي] قلّما تعاطاه قوم سواهم. وقد آثرنا أن نُثبته برمّته في هذا الكتاب، على مافيه من التعدّي على الأخلاق» (زاد المسافر-م.س.- المقدّمة- ص:7).

(56) البلفيقيّ: المقتضَب-م.س.-ص:206.

(57)انظر: الرُّعينيّ: برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص:52.

من هذا الكتاب[58].

هذا، ويمكن أن نصنّف مصادر الشعر الأندلسي القريض في الفترة الأولى من عصر الموحّدين على النحو التالي:

1- الدواوين: ليس بين أيدينا من الدواوين الشعريّة التي ذكرنا بعضها إلا ديوان واحد، هو: ديوان الرصافيّ البلنسيّ الذي سبق الحديث عن جمعه، بعد ضياعه، بعناية الدكتور إحسان عباس. وقد رتّبه المحقّق على حروف المعجم، وخرّج نصوصه، وزوّده بعدة فهارس فنّيّة، وطبعه مرتين، مستدركاً في الثانية مافاته في الأولى.

وقد كان الشعر الأندلسيّ في بقيّة العصر الموحّدي أوفر حظّا، إذ سلمت من الضياع جملة من دواوينه، طُبعت كلّها وتيسّرت للباحثين[59].

2- كتب التراجم والمختارات: وهي كثيرة، منها ماخُصّص تقريباً لأشعار ذلك العصر، ككتاب«زاد المسافر» الذي-حوى كما أسلفنا- مختارات من شعر الأندلس في القرن السادس الهجريّ أو كما قال صفوان:«أشعار المولّدين ممن أدركته بعمري، أو لحقه أهل عصري»[60]، وكتاب«تحفة القادم» الذي عارض به ابن الأبّار كتاب صفوان المذكور جامعاً فيه مختارات من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع.

---

(58)قال في ترجمة ابن صَارة الشَّنْتَرِيني:«وقد رأيت له عدّة مقطوعات في الهجاء، تُربي على حصى الدَّهناء؛ وهو فيه صائب السهم، نافذ الحكم؛ طويتُ عليه كشْحا، وأضربت عن ذكره صفحا... وقد قلت في غير موضع من كتابي هذا: إنّي نزّهتُه عن الهجاء، و لم أجعله ميدانا للسفهاء»(2/2/835-846). وقال في ترجمة ولّادة بنت المستكفي:«وكانت-زعموا- تَقرِض أبياتاً من الشعر. وقد قرأت أشياء منه في بعض التعاليق، أضربت عن ذكره، وطويته بأسْره؛ لأنّ أكثره هجاء، وليس له عندي إعادة ولا إبداء، ولا من كتابي في أرض ولا سماء»(1/1/432).

(59)هي دواوين الشعراء: ابن الأبّار البلنسيّ، وحازم القرطاجنّي، وابن سهل الإشبيليّ، ومحيي الدين ابن عربيّ، وأبي الحسن الششتريّ.

(60) ص:43.

ومن هذه الكتب مالم يُوقَف على أشعار ذلك العهد، وإن سجّل منها ماقد لا يستغني عنه الباحث فيها. ومن هذا الصنف«نفح الطيب»للمقّري، و«الذيل والتكملة» **لابن عبد الملك**، و«**المُغرب**»**لابن سعيد**، و«**الاحاطة**»**لابن الخطيب**، و«**الحلة السيراء**» لابن الأبار، و«الديباج المذهب»لابن فرحون، و«برنامج شيوخ الرُّعيني»، وغيرها.

3- كتب التاريخ: اهتمّ بعض مؤرّخي العصر الموحّديّ بتسجيل النصوص الشعريّة التي قيلت في مناسبات خاصّة وظروف متميّزة. فكانت كتبهم، بذلك، مصادر أدبيّة قد لا يُغنى عنها غيرها. وأهم هذه الكتب-في اعتقادنا- ثلاثة، هي:

ا- كتاب«تاريخ المنّ بالإمامة»لابن صاحب الصلاة. وفيه عدد من القصائد والمقطوعات جلّها غير وارد في غيره. ومن ذلك ما أنشده الشعراء عبدَ المؤمن يوم مهرجان جبل الفتح، ومن ذلك أيضا مدائح ابن حربون وغيره في الخليفة أبي يعقوب.وليس من شك في أنّ ما ضاع من هذا الكتاب قد حوى من شعر هذه الفترة شيئاً كثيراً، قد يكون كفيلاً بتعديل مايصدر عن الباحثين من أحكام.

ب- كتاب«المُعجب في تلخيص أخبار المغرب»لعبد الواحد المراكشيّ. وقد حوى من أشعار الأندلسيّين في هذه الفترة مالم يرد في غيره، كسينيّة ابن حَزْمون«حيتك معطرة النفس»التي مدح فيها الخليفة يعقوب المنصور ومجّد انتصاره في وقعة«الأرك». ولم يكتف المراكشيّ بتسجيل أشعار المناسبات، وإنّما أورد نصوصاً أخرى في ثنايا بعض التراجم، كتراجم: ابن طُفيل، وابن حَزْمون، والرصافيّ البلنسيّ.

جـ- كتاب«البيان المغرب»لابن عذاري المراكشيّ. وقد خصّص مؤلّفه قسمه الثالث لتاريخ الموحّدين، وأورد فيه كثيراً من الأشعار التي أُلقيت في المناسبات السياسيّة المختلفة.

4- معاجم البلدان: ليس بين أيدينا منها إلا كتاب واحد، هو«الروض المِعطار، في خبر الأقطار» لابن عبد المنعم الحميري. وفيه نصوص قيلت في هذه الفترة، لم نقف عليها في غيره من المصادر، كبعض أشعار ابن مُجْبَر التي واكب بها أحداث عهد الخليفة يعقوب المنصور، كبائيّته التي وصف فيها ما ألحقه المنصور بمدينة«قفصة» من دمار عندما رفضت الدخول في طاعة الموحّدين.

وأما مصادر موشّحات هذه الفترة فمن أهمّها الكتب التالية: «دار الطِّراز في عمل الموشّحات» لابن سَناء الملك، و«توشيع التوشيح» للصّفدي، و«جيش التوشيح» لابن الخطيب، و«المغرب» لابن سعيد، و«نفح الطِّيب» للمقّري، و«عيون الأنباء» لابن أبي أصيبعة، وغيرها.

ومن أهمّ المصادر التي سجّلت أزجال هذه الفترة: ديوان ابن قُزْمان، و«العاطل الحالي» لصفيّ الدين الحِلّيّ، و«بلوغ الأمل في فن الزجل» لابن حجّة الحَمَويّ، و«المغرب» لابن سعيد، وغيرها.

الفصل الأوّل

الغــــزل

كان الغـزل أحـد الفنـون البـارزة في الشعر الأندلسـيّ قبـل عصـر الموحّدين، و قلّ أن نجد شـاعرًا لم يُسـهم فيـه بمقـدار. ولبعضهـم فيـه مـا يكـاد يُلحقـه بـالغزلين مـن شـعراء المشـرق مـن أمثـال عمـر بـن أبـي ربيعـة وجميـل بـن معمـر والعبـاس ابـن الأحنـف. وإذا كـان بعـض الأندلسـيّين قـد قـال غزلـه في أكـثر مـن واحـدة، كمـا هـو شـأن ابـن السـراج المـالَقي، فـإنّ غـيره قصَـر غزلـه علـى محبوبـة واحـدة، كَما هـو الشـأن عنـد ابـن زيـدون صـاحب وَلاّدة، و ابـن الحـدّاد الـذي جـاء غزلـه في فتـاة نصرانيّـة، اسمهـا« نويـرة». وقـد اتّجـه بعـض ذلـك الغـزل الاتجـاه العـذريّ، فتمـدّح أصحابـه بالعفّـة و افتخـروا بـالتصوّن؛ واتّجـه بعضـه الآخـر الاتجـاه المـاجن، فلم ير أصحابه الحرج في وصف لذّاتهم وتصوير مغامراتهم. وكان ميـل بعـض النـاس إلى الغلمان سببًا في كثرة الغزل الشّاذّ وتطوّره.

ومـن يتتبّـع ديـوان الشـعر الأندلسـيّ في الفـترة الأولى مـن عصـر الموحّديـن يقف على مادّة غزيرة ومتنوّعـة، تـدلّ علـى أنّ شـعر الغـزل ظـلّ يحتـلّ حـيّزا واسـعا مـن نتـاج الشـعراء. ويلاحـظ المتتبّـع لذلـك النتـاج أنّ الغـزل،في هـذه الفـترة، لم ينحصر في اتجاه واحد، وإن طغى بعض الاتجاهات، وأنّـه قـد ظهـرت عليـه بعـض ملامح التطوّر، وأنّ الشاعرة الأندلسيّة قد ساهمت فيه بنصيـب؛ ثـمّ أن نـصّ الغـزل لم يكـن دائمـا خالصـا لـه، مقصـورا عليـه، وإنّمـا جمـع،أحيانـا،بينـه وبـين أغـراض أخرى كوصف الطبيعة أو غيره.

ويمكن المتتبّع لغزل هذه الفترة أن يصنّفه في الاتجاهات والألوان التاليـة :

1- المقدّمات الغزليـة :

ما زال بعض شعراء الأندلس يجرون على طريقة الأوائل، فيستهلّون قصائدهم بالنسيب. وعلى أنّنـا لا نـدري مـا كـان يتطلّبـه ذوق ممدوحـي ذلـك العصـر[1]،

---

(1) في العصر السابق -عصر المرابطين- نجد الشاعر ابن خفاجة يستهلّ إحدى قصائده بـالغزل تلبية لطلب ممدوحه الأمير أبي إسحاق إبراهيم. انظر : ديوان ابن خفاجة-م.س.- ص :106.

فإنّ قلة هذه المقدّمات تدلّ على أنّ هذا التقليد الفنيّ قد تقلّص كثيرا.

وإذا كانت تلك المقدّمات الغزلية قلّما تصف واقعا وتصوّر تجربة، فإنّ بعضها كان حسنا، فاحتفى به المؤلّفون، وربما أغفلوا ما كان بعده من مديح[2].

ومن نماذج هذا الغزل قول أبي عيسى ابن عبد الودود في مقدّمة مدحه لإبراهيم ابن همشك :

ظعنوا فخيّم لاعج الأشواقِ   يوم الفراق قيامة العشّاق

صفرت مزادهم فما اكترثوا لها   ثقة بواكف دمعي المهراق

نصبوا مجنّ الصبر ساعة أشرعوا   نحو القلوب أسنّة الأحداق[3]

وقد غلب على بعض هذا الغزل تقليد الأوائل حتى في المنحى.فقد وجدنا بعض الشعراء يلتفت فيه، إلى أماكن من جزيرة العرب. ومن أمثلة ذلك ما نُلفيه عند الرصافيّ البلنسيّ[4].

2- الاتجاه المتعفّف :

يقف المتصفّح لديوان الغزل في هذه الفترة على نماذج قليلة منه، نحا فيها أصحابها منحى العفّة، جارين بذلك في تيار وُجد قبل هذه الفترة في غزل الأندلس.

ومن هذه النماذج قصيدتان لشاعرين، لعلّ ما وُصفا به من حسن السيرة أن يكون دليلا على صدق ما ادّعياه من تعفّف. وهذان الشاعران هما : أبوبكر ابن طفيل وأبو بحر صفوان بن إدريس.

وعلى أنّنا لا نشكّ في قول صفوان، فإن تمدّحه كثيرا بتصوّنه،

---

(2) من ذلك-مثلا- قصيدة ابن مجبر في مدح المنصور الموّحدي. فإنّ أهمّ ما استشهد به صفوان ابن إدريس، كان من مقدّمتها الغزلية. انظر : صفوان بن إدريس : زاد المسافر- م.س.-ص : 55-56.

(3) م.ن.-ص : 98-99.

(4) انظر : ديوان الرصافي البلنسيّ-م.س.- ص : 58-59.

يجعلنا نفضّل قصيدة ابن طفيل على قصيدته.

أما قصيدة ابن طفيل فقد أثبتها عبد الواحد المراكشيّ في كتابه« المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، ناقلاً إياها عن ابن الشاعر، مما يدلّ كذلك على خلوّها مما يقدح في سلوك أبيه. وفيها يجمع ابن طفيل بين وصف جمال « محبوبته »، وتصوير ما اعتراه حين لقيها، وما كان منه من كبحه لجماح هواه. يقول في وصف جمالها ناحيا منحى أصحاب « الحجازيّات » :

ألّمت و قد نام المشيح و هوّما | و أسرت إلى وادي العقيق من الحمى
و جرّت على ترب المحصّب ذيلها | فما زال ذاك الترب نهبا مقسّما
تناوله أيدي التجار لطيمة | ويحمله الداريّ أيّان يمّما
و لما رات أن لا ظلام يجنّها | و أنّ سُراها فيه لن يتكتّما
نضت عذبات الرّيط عن حرّ وجهها | فأبدت محيّا يُدهش المتوسّما
فكان تجلّيها حجاب جمالها | كشمس الضّحى يعشى بها الطرف كلّما

ثم يفضي إلى وصف اللقاء، فيقول :

و لّما التقينا بعد طول تهاجر | و قد كاد حبل الودّ أن يتصرّما
جلت عن ثناياها و أومض بارق | فلم أدر من شقّ الدجنّة منهما
و ساعدني جفن الغمام على البكا | فلم أدر دمعا أيّنا كان أسجما

ومع أنّه كان يهدف-فيما يبدو- إلى التنوية بعفّته، فقد أظهر هذه المرأة نموذجاً متميّزاً من النساء، وذلك حين جعلها تدعوه إلى كبح جماح شوقه فيستجيب. يقول مصوّراً الموقف :

فقالت و قد رقّ الحديث و أبصرت | قرائن أحوال أذعن المكتّما
نشدتك لا يذهبْ بك الشوق مذهباً | يهوّن صعباً أو يرخّص مأثما
فأمسكتُ لا مستغنيا عن نوالها | و لكن رأيت الصبر أوفى و أكرما[5]

(5) عبد الواحد المراكشيّ :المعجب- م.س.- ص : 172-173.

وعلى أنّنا لا نستطيع الجزم بصدق هذه « القصة » وواقعيّة أحداثها -فقد تكون من قبيل التخيّل أو التقليد- فإنّ القصيدة تدلّ على وجود هذا الاتجاه الغزليّ في هذه الفترة أيضاً، كما قد تدلّ على أنّ الغزل في الشعر الأندلسيّ ظلّ موصولا بالمشرق، لا ليعبّر عن خيال و إنّما لكون ما يُذكَر فيه من أسماء وأوصاف مشرقيّة، ذا إيحاءات خاصّة، لها في نفس الشاعر أحسن الوقع[6].

ولعلّ ابن طفيل أن يكون في ذلك المنحى سالكا مسلك ابن خفاجة الذي كان يحذو في بعض غزله حذو الشريف الرّضيّ ومهيار الدّيلميّ في غزلهما[7]، وذلك في « الالتفات إلى نجد والحجاز، واستيحاء نفحاتهما والحنين إليهما »[8].

وأما قصيدة صفوان بن إدريس فهي أشهر من قصيدة ابن طفيل. وقد رواها ابن الأبّار عن أستاذه الحافظ أبي الربيع سليمان بن سالم الكَلاعي، وأثبتها كاملة في « كتاب تحفة القادم ». وإنّ في رواية الحافظ أبي الرّبيع لها --على ما كان عليه من تديّن و ورع- لدليلا على إعجابه بمنزع صاحبها فيها.

وفي هذه القصيدة نجد صفوان « يتغزّل ويصف ليلة أنس ». ويذهب في وصفه مذهبا بعيدا يُلحق نصّه بالغزل الحسّي المادّي. ثم يصوّر ما دار في اللقاء تصويرا يجعلنا نذهب إلى أن للعفاف عند الأندلسيّين مفهوما آخر[9].

---

(6) لعلّ ذلك أن يكون من البواعث التي حملت الشريف الرضيّ على نظم « حجازيّاته » المشهورة في تاريخ الغزل.

(7) انظر : ديوان ابن خفاجة-م.س.- ص : 14.

(8) محمد رضوان الداية :ابن خفاجة- م.س.-ص : 75.

(9) لعل في قول ابن خفاجة، منوّهاً بعفّته، دليلاً على اتّساع ذلك المفهوم. فهو لا يرى « الرشفة » و « الاعتناقة » مما يطعن في العفاف. يقول :

و لم تك إلاّ رشفة و اعتناقة و يعجبني أنّي أعِفُّ إزارا

(ديوان ابن خفاجة-م.س.- ص : 84).

يقول في وصف « محبوبه »[10]، متتبّعا محاسنه مستقصيا مفاتنه :

ياحُسنه و الحسن بعض صفاتِهِ ... و السحر مقصور على حركاته
بدراً لو انّ البدر قيل له اقترح ... أملا لقال أكون من هالاته
يَعطى ارتياح الغصن غصناً أمْلداً ... حمل الصباح فكان من زهراته
و الخال ينقط في صفيحة خدّه ... ما خطّ حبر الصُّدغ من نوناته
و إذا هلال الأفق قابل وجهه ... أبصرته كالشخص في مرآته

ثمّ يصوّر فتنة عاشقه به فيقول :

عبثت بقلب عميده لحظاتُه ... يا ربّ لا تَعتب على لحظاته
ركب المآثم في انتهاب نفوسنا ... فالله يجعلهنّ من حسناته

ثم ينتهي إلى وصف ليلة أنسه، فيقول :

ما زلت أخطب للزمان وصاله ... حتى دنا و البعد من عاداته
فغفرت ذنب الدهر فيه لليلة ... سترت على ماكان من زلاّته
غفل الزمان فنلت منه ندرة ... يا ليته لو دام في غفلاته
ضاجعته و الليل يُذكي تحته ... نارين من نفَسي و من وجناته
بتنا نشعشع و العفاف نديمنا ... خمرين من غزلي و من كلماته
فضممته ضمّ البخيل لماله ... أحنو عليه من جميع جهاته
أوثقته في ساعديّ لأنّه ... ظبي خشيت عليه من فلتاته
والقلب يدعو أن يُصيِّر ساعداً ... ليفوز بالآمال في ضماته

ويختم صفوان منوّها بتعففه فيقول :

حتى إذا هام الكرى بجفونه ... و امتد في عضديّ طوعَ سناته

(10) الحديث عن المعشوقة بصيغة المذكر لا يسهل -عادة- التمييز بين الغزل الطبيعيّ و الغزل الشاذّ. و لكنّا نرجّح أنّ صفوان كان يتغزل بامرأة.

عــزم الغــرامُ علــيّ في تقبيلــه فرفضـت أيـدي الطـول مـن عَزَماتـه
و أبـــى عفـــافي أن أقبِّل ثغـره و القلـب مطـــويّ علـى جمراتـــه
فـاعجبْ لملتهـب الجـوانح غلّـــة يشكـــو الظّما و المـاء في لهواتـــه[11]

وتبـدو قصيـدة صفـوان بـن إدريـس أكـثر تمثيـلا لذلـك التيـار الـذي عرفـه شـعر الغـزل في الأندلـس، منـذ عهـد مبكّـر، وحتـى قبـل أن يكتـب ابـن حـزم رسـالته المشـهورة « طـوق الحمامـة » حيـث قـوّى الصلـة بـين الحـبّ و الأخـلاق[12] فنـدّد بقبـح المعصيـة ونـوّه بفضـل التعفّـف. بيـد أنّ ذلـك التيـار إذا كـان،في بدايتـه،يمثّـل سـلوكاً واقعيّاً « إذ كـانت علاقـة الشـعر بـالأخلاق قـد أخـذت تتحـدّد... علـى نحـو مـن الإيمـان بالعفـاف عنـد المقـدرة، وأنّـه سمـة ملازمـة للفتـوّة نفسـها، تلـك الفتـوّة النابعـة أيضـا مـن النظـرة الدينيّـة »[13]، إذا كـان ذلـك التيـار كذلـك في البدايـة، فإنّـه لم يُصبـح كذلـك مـن بعـد، إذ « أصبـح الشـاعر ...يتّخـذ مـن التحـدّث عـن العفـاف أو عـن التمكّـن مـن الشـهوات مذهبـاً أدبيّـا، دون أن يعـبّر عـن حقيقـة أخلاقيّـة ماثلة في نفسه »[14].

وإذا كان ابـن فـرج الجيّاني ممّن يمثّلون المرحلة الأولى من تاريخ هذا التيّـار[15]،

(11) البلفيقي :المقتضَب-م.س.-ص : 136-137.

(12) ينظر : إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسـيّ : عصـر الطوائـف و المرابطـين-م.س-ص : 157.

(13) م.ن.

(14) م.ن.-ص : 159.

(15) يقول من مقطوعة غزلية له :

فملّكت النّهى جمحات قلبي لأجري في العفاف على طباعي

(المقّري :نفح الطيب- م.س.- 176/3).

فإنّ أبا جعفر أحمد ابن الأبّار ممن يمثّلونه بعد ذلك[16].

ولسنا ندري ما كان غرض صفوان : أكان يعبّر عن حقيقة ويصوّر تجربة، أم كان يذهب مذهباً أدبيّاً؟ وإن كنا نميل إلى ترجيح ثانيهما، وذلك لما بين حديثه وحديث بعض سابقيه من تشابه يكاد يبلغ التطابق.

وربّما كان من الجائز أن نُلحق بقصيدتي ابن طفيل وصفوان بن إدريس وغيرهما قصائد أخرى لا أثر فيها للتمدّح بالعفاف و الإشادة بالتصوّن، وإنّما فيها تغزّل بنساء من الجزيرة العربيّة على نحو ما نجد في « حجازيّات » الشريف الرضيّ و مهيار الديلميّ ومن ذهب مذهبهما؛ ففي هذه القصائد هيام بنساء لا يعرفهنّ المتغزّلون بهنّ.

ومن أمثلة هذا اللّون ما نظمه أبو الحسن ابن سعد الخير ناحياً فيه منحى « فروسياً » إذ يصوّر ضعفه في مجال الهوى، وقوته في ميدان الوغى، فيقول :

ألا سائل الركبان هل طلّ لَعْلَع كما كان مطلولَ الأصائل سجسجا
و عن حَرجات الحيّ مالي و مالها تجدّد لي شوقا إذا الركب عرّجا
و عن أثلات الجزع هل مال ظلّها و هل تَخذت ريح الصّبا فيه مدرجا
بحيث يشقّ الستر عن ماء مبسم أرى باب صبري عنه أبهم مُرتَجا
ركبت الهوى عُريَ السَّرَاةِ و ربّما ركبت إلى الهيجاء أدهم مُسرجا
...سقَيْتُ العوالي بالنّجيع فنوّرت بَهارا يُرَى عند الطعان بنفسجا[17]

ومما يطبع بعض قصائد هذا اللون من الغزل حنين أصحابها. وقد بدا ذلك

---

(16) يقول في نهاية إحدى مقطوعاته الغزلية :

و أطعت سلطان العفاف تكرّما و المرء مجبول على عاداته

(ابن بسّام :الذخيرة- م.س- 143/1/2).

(17) صفوان بن إدريس : زاد المسافر- م.س.- ص :146.

الحنين في النصّ السابق. وهو ظاهر أيضا في قصيدة لأبي بكر ابن الجنّان الشاطبي، يلتمس فيها من « مُيَمّم » للمشرق أن يعوج بديار الحبيبة، ويحمّله تحيّته ورسالته. وبين ذلك وصفٌ لشوق الشاعر و تصويرٌ لمحاسن تلك المحبوبة التي لا نخالها إلاّ امرأة خيالية. يقول :

عج المطايا برقمتين ... وحيِّ بانات رامتينِ
وسائلِ الربعَ عن رباب ... ومن بلبنان عن لُبَيْن
يا وحشتي للخليط حلّوا ... ما بين نجد و أبْطحين
طوت بهم عرضَ كلّ قَفْر ... بُدن طواهنّ مسّ أيْن
و في قباب الخليط خود ... تدير للسحر مقلتين
تحكي ظُبَا لحظها المواضي ... ويدّعي عطفَها الرّديني
و ما خذولٌ ببطن واد ... مروعة أمّ شادنَين
تكرع في بَرْده و تأوي ... إلى خصيفين مُشرفين
كمثل لمياء يوم تبدو ... إشراف جِيد و لحظَ عين

ثم يقول :

إذا الحُجَيلا وردتماه ... و مِرْتَماً بعد سُرَّتين
و جئتما الحيّ بعد وهن ... فاستدعياها لِبَانتين
و بلّغاها السلام منّي ... رفقاً و قولا لها بلَيْنِ
تركتِ بالغَوْر مستهاماً ... يمسك قلباً براحتين
حليفَ وَجْد أليف سهد ... ينازع الموتَ من هذين [18]

ويستنتج المتتبّع للمعاني الغزليّة في النصّين السابقين، أنّ الشاعرين كانا مقتصدين، وأنهما لم يتجاوزا ما يُبيحه النقّاد الأخلاقيّون في هذا الغرض.

---

(18) م.ن. - ص: 115-116.

3- الاتجـاه المـــاجن :

إذا تتبّعنا نصوص الغزل المتوفّرة في مصادر الشّعر الأندلسيّ في عصر الموحّدين وجدنا أنّ الاتجاه السابق كان ضعيفا، لا يكاد يلفت انتباه الباحث في غزل الفترة الأولى. أمّا الاتجاه الغالب فهو الاتجاه الماجن الذي جرى فيه كثيرمن الشعراء، دونما رادع من دين أو خلُق[19].

وينحصر الغزل الذي جرى أصحابه في هذا الاتجاه في لونين أساسيّين: أولهما غزل طبيعيّ، قاله الرجل في المرأة أو نظمته هي فيه، والآخر غزل شاذّ نظمه الشعراء في الغلمان.

أ-الغزل الطبيعيّ :

تعدّى كثير من شعراء الغزل في هذه الفترة حدود ما يُباح من حديث في هذا الغرض، فتحدّثوا عن مجونهم وتهتّكهم، ووصفوا مغامراتهم على نحو سافر؛ وحوت نصوصهم من التصوير المادّيّ الصريح ما يجعلها امتداداً لأشعار ابن الزقّاق و أبي القاسم المنيشيّ وغيرهما من شعراء هذا اللون في العصر السابق[20].

ومن نماذج هذا الغزل في هذه الفترة ما يقوله ابن مُجْبَر من قصيدة قاصّاً « مغامرة » له، على نحو صريح :

---

(19) و إن كان الدكتور إحسان عبّاس يرى أنّ الشاعر الأندلسيّ كان خاضعا لـ «رقابة أخلاقيّة ذاتية » تحول بينه و بين القول فيما ينافي، من الأدب، القيم الخلُقيّة. انظر : « هل كان الشعر في الأندلس سببا في انحلال أخلاقها ثم سقوطها، أم كان لها مجرّد مرآة و انعكاس؟ » - مجلة الأصالة - م.س.- ص :191.

(20) انظر : الجيلالي سلطاني : اتجاهات الشعر في عصر المرابطين بالمغرب و الأندلس -رسالة ماجستير- جامعة دمشق-1407هـ-1987م.- ص :138 و بعدها.

و زائــرةٍ و الليـــل ملــق رواقـــه و من أين للظلمــاء أن تكتـم القمـر؟
حدرتْ نقابَ الصّون عن صفح خدّها فيا حســن مـا انشقّ الكمام عـن الزهَـر
و راودتهــا عـــن لثمـــه فتمنّعـــت و ما عادة الأغصان أن تمنـع الثمـــر
رَشـأ كلّما أدمـت جفونـيَ خـدّه **أشار إلى قلبي** بعينيـــه فـــانتصر
يطـالبـني قلـبي بتقبيــل ثغــره لقد غاص في بحر الجمال على الدّررا [21]

وقد عمد بعض الشعراء إلى طريقة القصّ والحوار التي كان يسلكها بعض شعراء الغزل الصريح في عصر بني أمية. ومن نماذج ذلك قصيدة لأبي عبد الله ابن الفرّاء، يُجري فيها حوارا بينه وبين « غادة »،فيقول:

و غـادة كالشـمس عنّـت لنـا يعنـو لهـا بـدر الدجـى مذعنـا
قلـت و أومـأت بكفّـي إلـى صدري مشيراً : أنت منّي هنا
قالت : لقد أشمتّ بـي حُسّدي إذ بحـت بالسـرّ لهـم معلنـا
قلت لها : أنتِ التي صيّرتْ أجفانهـا قلـبي حلـف الضنـى
قالت : فلُمْ طرفك فهو الذي جنى على قلبك مـا قـد جنـى
قلت لها : قد كان ما كان من طرفي فكوني مثـل مـن أحسـنا
قالت:وما الإحسان؟قلت:اللقا قـالت : لقـائي قـلّ مـا أمكنـا
قـلت : فمنّيـني بتقبيلـة قـالت : أمنّيـك بطـول العنـا
قلت : فإنّي ميّت عـاجلا قـالت : فمت، ذاك لقلبي المنـى
قلت : حـرام قتـل نفس بلا ذنـب، فقالـت : ذا حلال لنا[22]

ولعلّ أهمّ ما ينبغي للدارس الوقوف عنده من هذا اللون من الغزل، ما عرفته هذه الفترة من مطارحات غزلية.

---

(21) صفوان بن إدريس : زاد المسافر- م.س.- ص :55.
(22) م.ن.-ص : 143.

ولقد عرف الشعر الأندلسي هذه المطارحات قبل هذه الفترة، وذلك مع ابن زيدون وولاّدة، كما عرف شعر الغزل في الأندلس مساهمة المرأة التي بلغت في غزلها مبلغاً لم يصل إليه غزل المرأة المشرقيّة.

بيد أنّ هذه الفترة قد شهدت نموذجاً يكاد يكون فريداً من قصص الحبّ، ومما خلّفته من آثار في شعر الغزل. ويتمثل هذا النّموذج فيما كان بين أبي جعفر أحمد بن عبد الملك ابن سعيد العنسي وحفصة بنت الحاجّ الركونيّ من علاقة خلّدها ما صدر لهما حولها من أشعار.

فأما ابن سعيد فكان كلّ ما فيه يبعث حفصة على الإعجاب به ويحملها على حبّه.

فهو أولا من أرومة عربيّة، يتّصل نسبه بالصحابيّ عمّار بن ياسر. و« بيت بني سعيد العنسيّ، بيت مشهور في الأندلس، بقلعة يحصب...وهو بيت القيادة، والوزارة، والقضاء، والكتابة، والعمل »[23]. وقلعة بني سعيد[24] ذات أمجاد، وصفها الحجاريّ في كتاب « المسهب » الذي ألّفه لصاحبها عبد الملك فقال : « عقاب الأندلس الآخذ بأزرار السماء، عن غرر المجد والسناء؛ وهي رباط جهاد، وحصن أعيان و أمجاد »[25].

وابن سعيد، بعد ذلك، من أبرز شعراء الأندلس وكتّابها في الفترة الأولى من عصر الموحّدين. نوّه به الملاّحي فقال : « كان من جِلّة الطلبة، ونبهائهم؛

---

(23) ابن الخطيب : الإحاطة-م.س.- 222/1.

(24) لأبي جعفر ابن سعيد أبيات في الحنين إليها و الفخر بها، منها قوله :

هي الدارُ لا أرض سواها و إن نأتْ و حجّبها عنّي صروفٌ من الدهرِ

(ابن سعيد : المغرب-م.س.- 160/2).

(25) م.ن.

وله حظ بارع من الأدب، وكتابة مفيدة »[26]. وأشاد به قريبه أبو الحسن ابن سعيد، فقال : « نشأ محبّا في الأدب، حافظا للشعر وذاكرا لنظم الشريف الرضيّ، ومهيار، وابن خفاجة، وابن الزقاق، فرقّت طباعه، وكثر اختراعه وإبداعه »[27]. وسمع أبو الحسن المذكور أباه يقول : «لا أعلم في بني سعيد أشعرَ منه، بل لا أعلم في بلده »[28]. وقد كان واحدا من شعراء الأندلس الذين مدحوا الخليفة عبد المؤمن ابن علي يوم مهرجان جبل الفتح[29].

وابن سعيد، إلى جانب شرف نسبه وموهبته الأدبية، جميل الخلْق كريم الخلُق، أشادت حفصة بعدّة من صفاته الخلْقية والخلُقية كما سنرى فيما سنستشهد به من شعرها.

فإذا أضفنا،إلى ما سبق، ما أصبح له من منزلة سياسيّة بمدينة غرناطة لم نجد عجباً في تولّع حفصة به إلى حدّ التولّه.

على أنّ ابن سعيد لم يُخلَق لغير الأدب واللّهو، وما كان يوما مستعدّاً لحمل أعباء تصريف شؤون الدّولة[30]. ولعلّ عبد المؤمن أن يكون قد أدرك بفراسته

(26) ابن الخطيب : الإحاطة-م.س.- 222/1.

(27) م.ن.- ص :222-223.

(28) المقّريّ : نفح الطيب- م.س.- 179/4.

(29) انظر : ابن الخطيب : الإحاطة-م.س.- 224/1.

(30) عندما ثار أبوه بقلعة بني سعيد على المرابطين استوزره « واستنابه في أموره، فلم يصبر على ذلك و استعفى فلم يُعفه، و قال : أفي مثل هذا الوقت الشديد تركن إلى الراحة؟ ». ثم أعفاه عندما كتب إليه قصيدة مستعفياً. انظر : المقّريَ : نفح الطيب- م.س.-179/4-180.

و عندما « ولي السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن غرناطة طلب كاتباً من أهلها، فوُصف له فضلُ أبي جعفر و حسَبُه و أدبه، فاستكتبه، فطلب أن يُعفيه، فأبى ». ثمّ وصف ابن سعيد رغبته في الانطلاق من قيد « الخدمة »، و ذلك في شعرٍ له. انظر : م.ن.- ص : 180-181.

ما كان ابن سعيد ميسّراً له[31].

وأمّا حفصة فكانت خليقة بأن يهواها ابن سعيد . وصفها ابن الخطيب بأنّها كانت« فريدة الزمان في الحسن، والظرف، والأدب، واللوذعيّة»[32]؛ وأشاد بها المقّري فقال :« الشاعرة الأديبة المشهورة بالجمال والحسب والمال»[33]؛ ونوّه بها ابن دِحْية قائلاً :«حفصة من أشراف غرناطة، رخيمة الشّعر، رقيقة النظم والنثر»[34]؛ وقال فيها أبو القاسم الملاحي :« كانت أديبة، نبيلة، جيّدة البديهة، سريعة الشعر»[35].

وإذا صدقت فيما كانت تقوله في وصف محاسنها وتصوير مفاتنها[36]، كانت -من غير شك- من جميلات عصرها.

ولا غرو في أن تُلهب بذلك كلّه مشاعر أديب مُرهَف الإحساس كابن سعيد، وتجعله يقع في حبال حبّها. قال الملاحي :« ونشأ مع حفصة...، فاشتدّ بها غرامه، وطال حبّه وهيامه؛ وكانت بينهما منادمات، أربت على ما كان بين علوة وأبي عبادة» [37].

على أنّ حفصة -على تلك المزايا- كانت فيها رعونة وجراءة. وإذا كان ذلك ممّا قد يأباه العقلاء عليها ويستهجنونه منها، فإنّ ابن سعيد لم يكن ليضيق به،

---

(31) انظر : ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.- 224/1.

(32) م.ن.-ص : 499.

(33) المقّري:نفح الطيب- م.س- 171/4.

(34) م.ن.-ص : 176.

(35) ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.- 499/1.

(36) انظر : ابن سعيد: المغرب-م.س.- 139/2؛ المقّري: نفح الطيب- م.س- 178/4.

(37) ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.- 223/1. و « أبو عبادة » كنية البحتري؛ و « علوة » فتاة أحبّها و تحدّث كثيراً عن طيفها.

ومن يدري؟ فربّما كان ذلك السلوك مما حبّبها إليه، أو لم يكن -على الأقلّ- يجد فيه من بأس، و إن كان يراه غريباً حقاً. ولقد سجّل ذلك في كلمة يقول فيها : « أقسم ما رأيت ولا سمعت بمثل حفصة. ومن بعض ما أجعله دليلاً على تصديق زعمي، وبرّ قسمي، أنّي كنت يوماً في منزلي مع من يجب أن يُخلَى معه من الأجواد الكرام على راحة سمحت بها غفلات الأيام، فلم نشعر إلاّ بالباب يُضرَب، فخرجت جارية تنظر من الضارب، فوجدت امرأة، فقالت لها : ما تريدين؟ فقالت : ادفعي لسيّدك هذه الرقعة، فجاءت برقعة فيها :

زائر قد أتى بجيد الغزالِ مطلع من تحت جنحه للهلال

... ما ترى في دخوله بعد إذن أو تراه لعارض في انفصال؟

قال: فعلمت أنّها حفصة، و قمت مبادراً للباب، وقابلتها بما يُقابَل به من يشفع له حسنه وآدابه والغرام به، وتفضّله بالزيارة دون طلب في وقت الرغبة في الأنس به» [38].

ولقد نالت حفصة بأدبها ما لم تنله شاعرة في عصرها : يكرّمها الخليفة عبد المؤمن[39]، وتصبح معلمة لنساء البَلاط الموحّدي[40]، وترغب إليها بعض نساء عصرها في أن تكتب لها شيئا بخطّ يدها[41] على نحو ما يقع اليوم من مشاهير الفنّانين و غيرهم.

وقد ظلّت صلة ابن سعيد بحفصة قويّة، وظل حبّهما متصاعداً،

---

(38) المقّري: نفح الطيب- م.س.- 4/178-179. و قال ابن الخطيب نقلاً عن ابن سعيد:« ثم طُلبت فلم توجد». (الإحاطة-م.س.- 1/501).

(39) انظر : المقّري: نفح الطيب- م.س.- 4/171.

(40 انظر : ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.- 1/501.

(41) انظر : م.ن.-ص : 499.

تقوّيه اللقاءات المتكرّرة، وينمّيه الوصال المتجدّد. على أنّ هذه العلاقة لا تهمّنا إلاّ بمقدار ما تُلقيه من ضوء على ما خلّف صاحباها من شعر غزليّ. ذلك الشعر الذي سجّل جلّ حلقات تلك التجربة، من دعوة إلى لقاء، وتلهّف إلى وصال، ووصف لمتعة،وعتاب على تصرّف، واعتذار عن سلوك، وحنين في بعاد،وتفجّع في مأساة.

ومع أنّ النصوص التي توفّرت لنا من ذلك الشعر كثيرة، فإنّه من الصّعب إخضاعها للترتيب الزمنيّ. فليس هناك دائماً ما يؤكّد أنّ هذا النص قد قيل قبل ذلك، وذلك لتكرّر المواقف وتشابهها.

ولعلّ صلة حفصة بابن سعيد قد بدأت يوم أن أرسلت إليه مادحة، مبدية إعجابها، رادّة على « عداته »:

رأستَ فما زال العداة بظلمهم   و علمهم النامي يقولون : ما رأسْ
و هل مُنكَر أن ساد أهلَ زمانه   جموح إلى العليا حرون عن الدّنس؟[42]

ولعلّ ذلك المدح أن يكون قد ملأه إعجاباً بها وحبّاً لها، فدعاها إلى اللقاء، فوعدته ولكنّها سوّفت، إذ « مطلته قدر شهرين» [43] تأذّى فيهما. وربّما كان وراء ذلك المطل تحرّج ما لبث أن زال عندما غدت علاقتهما واقعاً، وأصبحا يجريان في تيارها لا يَلويان على شيء، وصارت حفصة هي الطّالبةَ الرّاغبة.

وبعد هذا المطل يكتب إليها ابن سعيد داعيا إياها إلى الوفاء بوعدها، واصفا لها معاناته، محذّرا من مغبّة ذلك التسويف، فيقول متلهّفاً إلى وصالها :

يا من أجانب ذكر اسـ   ـمه و حسبي علامَهْ
ما إن أرى الوعد يُقضَى   و العمر أخشى انصرامه
اليوم أرجوك لا أن   تكون لي في القيامه

(42) المقّريّ: نفح الطيب- م.س.- 176/4.

(43) م.ن.-ص : 173.

لـو قــد بصــرت بحــالي و الليــل أرخــى ظلامــه
أنــوح وجــداً و شـــوقاً إذ تســـتريح الحمامـــه
حـــبّ أطـــال هـــواه علـى الحبيـــب غرامـــه
لمـــن يتيــــه عليـــه و لا يـــــردّ ســـــلامه
إن لم تنيلـــي أريحـــي فاليـأس يثنـي زمـامـه[44]

ولقد كان جوابها آية في المساجلة. وفيه تنتقد ما ذهب إليه من أنّ اليأس يثني زمام الحبّ مؤكدة أنّ الحبّ،إذا كان حقيقيّا متمكّنا، لا ينال منه شيء.
وفي جوابها تعده-مورّية- بلقاء في جنّة له معروفة «بالكمامة». تقول :

يـا مدّعـي في هـوى الحســ ـــن و الغـــرام الإمامـــهْ
أتـــى قريضـــك لكـــن لم أرض منـــه نظامـــه
أمدّعـــي الحـــبّ يثـــني يـــأس الحبيـــب زمامـــه؟
ضللـــت كـــلّ ضـــلال و لم تُفـــدك الزعامـــه
مـا زلـت تصحب مذكنـــ ـــت في السـباق السـلامه
حتّـى عــثرت و أخجلـــ ـــت بافتضـــاح الســـآمه
بـــالله في كـــلّ وقـــت يبدي السحاب انسـجامه
والزهـــر في كـــلّ حـــين يشـــقّ عنـــه كمامـــه
لـو كنت تعـرف عـذري كففت غـــرب الملامـــه[45]

---

(44) م.ن.

(45) م.ن.-ص:174. وقال المقرّي : «ووجّهت هذه الأبيات مع موصل أبياته، بعدما لعنته وسبّته، و قالت له : لعن الله المرسِل والمرسَل، فما في جميعكما خير، و لا لي برؤيتكما حاجة ! وانصرف بغاية من الخزي. و لما أطلّ على أبي جعفر وهو في قلق لانتظاره، قال له : ما وراءك يا عصام؟ قال : ما يكون وراء من وجّهته إلى فاعلة تاركة؟ اقرإ الأبيات تعلم .فلما قرأ الأبيات قال للرسول : ما أسخف عقلك و أجهلك ! إنّها وعدتني للقبّة التي في جنّتي المعروفة بالكمامة. سر بنا. فبادروا للكمامة » (م.ن.).

وتفي حفصة بوعدها، فتلقاه في «الكمامة»، وتثنيه عن عتابة منشدة :

دعي عدّ الذنوب إذا التقينـا   تعاليْ لا نعدّ ولا تعدّي [46]

وإذا كان من الصعب الجزم بأنّ هذين النصّين يسجّلان أول لقاء لهما، فإنّ أغلب الظنّ أنّهما يسجّلان حلقة من الحلقات الأولى لتلك العلاقة. ذلك أنّ سلوك حفصة كان ما يزال يطبعه التأبّي، ويسمه التحرّز.

ثم تسير تلك العلاقة قُدُماً، فتترك حفصة تأبّيها وتتخلّى عن تحرّزها. وإذا هي ترسل إليه مغرية إياه بما سيُلفيه عندها من نعيم، عارضة مفاتنها في جراءة قلّ نظيرها في شعر المرأة[47]. تقول مستعجلة لقاءه، متعطّشة إلى وصاله :

أزورك أم تزور فإنّ قلبي   إلى ما ملتمُ أبداً يميل

و قد أمّنت أن تظما و تضحى   إذا وافى إليّ بك المقيل

فثغري مورد عذب زلال   و فرع ذؤابتي ظلّ ظليل

فعجّل بالجواب فما جميل   أناتك عن «بُثينة» يا«جميل»[48]

---

(46) م.ن.

(47) لسلمى بنت القراطيسي- و كانت مشهورة بالجمال في بغداد - أبيات تتمدّح فيها بمحاسنها، تقول فيها :

عيون مها الصريم فداء عيني   و أجياد الظباء فداء جيدي

أُزيَّن بالعقود و إنّ نحري   لأزين للعقود من العقود

و لا أشكو من الأوصاب ثقلا   و تشكو قامتي ثقل النّهود

(م.ن.-ص:178)

على أنّها كانت إلى ذلك عفيفة، فأرسل إليها الخليفة المقتفي -بعدما بلغته الأبيات- مالاً « تستعين به على صيانة جمالها، و رونق بهجتها». انظر : م.ن.

(48) ابن سعيد: المغرب-م.س.-166/2.

وإذا كانت حفصة قد خيّرت ابن سعيد، فإن جوابه كان غاية في اللباقة. يجيبها، في تأدّب « فروسيّ »، قائلا :

أحلّكم مادام بي نهضة | عن أن تزوروا إن وجدتُ السبيل
ما الروّض زوّاراً و لكنّما | يروزه هبّ النسيم العليل[49]

ثمّ تلجّ بها عاطفتها ويطوّح بها حبّها، فتُقدم على ما لا يحسن بالمرأة أن تأتيه، فلا تكتفي بمثل دعوتها السابقة، وإنما تطرق بابه مستأذنة عليه، عارضة عليه -كما فعلت- محاسنها :

زائر قد أتى بجيد الغزالِ | مطلع تحت جنحه للهلال
بلحاظ من سحر بابل صيغت | ورضاب يفوق بنت الدّوالي
يفضح الورد ما حوى منه خدٌّ | وكذا الثغر فاضح للآلي
ما ترى في دخوله بعد إذن؟ | أو تراه لعارض في انفصال؟[50]

أو كما في رواية أخرى :

أتراكم بإذنكم مسعفيه | أم لكم شاغل من الأشغال؟[51]

ولكنّ ابن سعيد عندما يخفّ إليها فاتحا بابه لها، لا يجدها؛ فيكتب إليها « راغبا في الوصال والأنس الموصول »[52] :

أيّ شغل عن الحبيب يعوقْ | يا صاحباً قد آن منه الشروق
صل و واصل فأنت أشهى إلينا | من جميع المنى فكم ذا نشوق
بحياة الرضى يطيب صبوح | عرفاً إن جفوتنا أو غبوق

(49) ابن سعيد: المغرب-م.س.- 166/2.

(50) م.ن-ص: 139.

(51) ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.-501/1.

(52) م.ن.

لا و ذلّ الهوى و عزّ التلاقي و اجتماع إليه عزّ الطريق[53]

ولسنا نجد من تبرير لمثل هذا السلوك منها، ولكن نقول مع سوَيد اليَشْكُري:

وكذاك الحبّ، ما أشجعـــه يركب الهول و يعصي من وزغ

وقد سجّل شعرهما أحداث تلك اللقاءات، وصوّر وقائع ذلك الوصال. ولعلّ أفضل ما قالاه في ذلك : ما وصفا به ليلة أنس قضياها في جنة له بـ « حور مؤمل »[54]. فقد باتا هناك « على ما يبيت عليه أهل الظرف والأدب »[55]، و« على ما يبيت عليه الرّوض والنّسيم، من طيب النفحة، و نضارة النعيم »[56]. فلما افترقا كتب إليها، واصفاً ما أصاباه من نعيم، مصوّرا ما كان يكنف ذلك الوصال من طبيعة جميلة. يقول :

رعى الله ليلا لم يرح بمذمّم عشية وارانا بحور مؤمّلِ
و قد خفقت من نحو نجد أريجة إذا نفحت هبّت برياح القرنفل
و غرّد قمْريّ على الدوح و انثنى قضيب من الريحان من فوق جدول
ترى الرّوض مسروراً بما قد بدا له عناق، و ضمّ، و ارتشافُ مقبّل[57]

وقد أجابت حفصة ابن سعيد « على عادتها في مثل ذلك »، ولكنّها لم تذهب مذهبه في حسن الظنّ بما كان يشهد وصالهما، وإنّما كانت « نظرتها إلى الرياض الكاسية و المياه الجارية و الأطيار الصّادحة والنجوم المنوّرة تختلف تماما...

(53) م.ن.
(54) كان يقع في الجنوب الغربي من غرناطة، و هو مشهور برياضه و متنزّهاته. انظر : م.ن.- تعليق المحقّق-ص: 449- ح:6.
(55) م.ن.-ص: 499.
(56) المقّريّ: نفح الطيب-م.س.- 217/3.
(57) م.ن- 177/4.

إنها نظرة المرأة تغار من كل شيء، وتعتبره حائلاً أو راصداً أو واشياً أو حاسداً»[58].

تقول في جوابها :

لعمرك ما سُرّ الرياض بوصلنا و لكنّه أبدي لنا الغلّ و الحسدْ
و لا صفّق النهر ارتياحاً لقربنا و لا غرّد القُمريّ إلا لما وجد
فلا تُحسن الظّن الذي أنت أهله فما هو في كلّ المواطن بالرَّشد
فما خلتُ هذا الأفق أبدي نجومه لأمر سوى كيما تكون لنا رَصَد[59]

ولا غرو في أن تذهب ذلك المذهب. ففي نص آخر منسوب إليها تبوح بما كان يقضّ مضجعها من غيرة قاتلة على حبيبها؛ وهي غيرة تفوق غيرة جلّ النساء. « إنها تغار من كلّ شيء... من المرئيّ وغير المرئيّ، ومن المادّة والمعنى، من الزمان والمكان...» [60]. تقول، في هيام شديد :

أغار عليك من عيني رقيبي ومنك و من زمانك و المكان
و لو أنّي خبأتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني[61]

وقد علّق أحد الباحثين على هذين البيتين بقوله : « هذا لون جديد من غزل المرأة أكثر اندفاعا من طبيعة المرأة المحبّة، ولكن في حفصة جرأة على الغزل ونهم إلى الحبّ يدفع بها إلى الغيرة، ثم ينتقل بها من مرحلة الغيرة إلى مرحلة الأثرة والأنانيّة... إنّ طبيعة المرأة العاشقة تتمثّل في حفصة أكثر مما تتمثّل فيها طبيعة المرأة الشاعرة. بل لعلّنا نقول : إن مظهر العشق والشعر قد اجتمعا وتصارعا وتساجلا في نفس

---

(58) مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسيّ: موضوعاته و فنونه- بيروت - دار العلم للملايين- الطبعة الرابعة -1979م.- ص : 223.

(59) المقّري: نفح الطّيب- م.س.- 4/177-178.

(60) مصطفى الشكعة:الأدب الأندلسيّ- م.س.-ص : 224.

(61) المقّري:نفح الطّيب- م.س.-ص : 174.

حفصة، فانتصر مظهر العاشقين وتصرّفهم على رهافة الشعراء وتفنّنهم»[62].

وطبيعيٌ أن تضطرم نفس حفصة غيرة عندما ترى ابن سعيد قد التفت إلى غيرها من النساء. ولقد سجّل شعرها هذا الموقف، فقد « بلغها أنه (أي ابن سعيد) علق بجارية سوداء أسعت [كذا] له من بعض القصور، فاعتكف معها أياماً وليالي بظاهر غرناطة، في ظلّ ممدود، وطيب هوى مقصور وممدود »، فكتبت إليه تحت وطأة الغيرة، معاتبة ساخرة :

يا أظرف الناس قبل حال — أوقعه نحوه القدر
عشقت سوداء مثل ليل — بدائع الحسن قد ستر
لا يظهر البشر في دجاها — كلاّ، و لا يُبصر الخفر
بالله قل لي و أنت أدرى — بكلّ من هام في الصور
من الذي هام في جنان — لا نُوّار فيه و لا زهر؟ ![63]

وكأنها، في عتابها، تردّد بعض ما قالته « ولاّدة » لائمة صاحبها ابن زيدون على تصرّف منه، عدّته خيانةً لهواهما[64].

وقد كان ابن سعيد كعادته لَبقاً في جوابه، إذ « كتب إليها بأظرف اعتذار » يقول فيه :

(62) مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسيّ- م.س.-ص : 224.

(63) ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.- 500/1.

(64) غنّت لهما -في أحد لقاءاتهما- جارية لولادة اسمها « عتبة » فاستحسن صوتها ابن زيدون فسألها الإعادة، غير مستأذن ولادة التي غضبت من تصرّفه، ثم عاتبته بقولها :

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا — لم تهوَ جاريتي و لم تتخيّرِ
و تركت غصناً مثمراً بجماله — و جنحت للغصن الذي لم يُثمر
و لقد علمت بأنني بدر السّما — لكن دُهيت، لشقوتي، بالمشتري

انظر : ابن بسّام: الذخيرة- م.س.- 431/1/1-432.

لا حكم إلا لآمر نـاه ... لـه من ذنبه معتذر
لـه محيّا بـه حياتي ... أعيذ مداه بالسور
كصحبة العيد في ابتهاج ... و طلعة الشمس و القمر
سعده لم أمل إليه إلا ... اطرافا لـه خبر[؟]
عدمت صبحي فاسودّ عشـ ... ـقي و انعكس الفكر و النظر
إن لم تلح يا نعيم روحي ... فكيف لا تفسد الفكر؟[65]

والمتتبّع لشعر حفصة في ابن سعيد يجده يصوّر شغفا حقيقيّاً، ويعكس هياما لم تقوَ على كتمانه. وإذا كانت، في النّصوص التي مرّت بنا، قد حاولت إغراء صاحبها « بعرض » مفاتنها عليه، في تماجن غير مألوف؛ كما كشفت عن غيرتها وأثَرَتها وأنانيتها، فإنّنا نجدها في نصّ آخر لها تنتقل من « التغزّل بنفسها » إلى«التغزّل بصاحبها»، فتبلغ في ذلك مبلغا لم يبلغه -فيما نعلم- غيرها. بل إنّها لا تكتفي بوصف بعض «مفاتن » صاحبها، وإنما تصف التجربة في تلذّذ عجيب. تقول :

ثنائي على تلك الثنايا لأنّني ... أقول على علم و أنطق عن خُبْر
و أُنصفها لا أكذب الله انّني ... رشفت بها ريقاً أرقّ من الخمر[66]

فقد رسمت « ريشتها تجربتها المعاشة من غير أن يحول الوقار دون التعبير»[67]، وقد«عمدت إلى صيغة الجدّ الساخر في تحرّزها"لاأكذب الله"»[68]، لتؤكّد«واقعيّتها».

وفي أبيات أخرى نجدها تعبّر عن حنينها إلى حبيب « نازح » و تعده بالوفاء. وإذا لم يكن هذا الحبيب إلا ابن سعيد، فإنّنا لا نعرف شيئاً عن نزوحه.

---

(65) ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.- 1/500-501. و يبدو في النصّ تحريف.

(66) المقّري:نفح الطيب- م.س- 4/172-173.

(67) محمد منتصر الريسونيّ:الشعر النسويّ في الأندلس-بيروت-دار مكتبة الحياة-د.ط.-د.ت.- ص :127.

(68) مصطفى الشكعة:الأدب الأندلسيّ- م.س.- ص :228.

ولعلّها أن تكون قد قالت هذه الأبيات بعد وفاته، فتكون جمعت فيها بين غرضي الغزل والرثاء. تقول باعثة سلامها إليه :

سلام يفتّح في زهره الـ ـكمام وينطق وُرْق الغصون
على نازح قد ثوى في الحشا وإن كان تُحرَم منه الجفون
فلا تحسبوا البعدَ يُنسيكمُ فذلك-وا لله- ما لا يكون [69]

وإذا كان ابن سعيد أكثر اتّزاناً من حفصة وأقلّ جرأة، فإنّه لم يكن أقلّ منها تولّعا[70].

ولقد سبق أن أوردنا ما قاله الملاحي مشيراً إلى ذلك التولّع : « اشتدّ بها غرامه، وطال حبّه وهيامه». ومن شعره الذي يصوّر بعض ذلك، قوله بعد زيارة لها :

زارها مَن غدا سقيمَ هواها و براه،شوقاً إليها،النحولُ[71]

ومنه قوله بعد أن أتاه شِعرٌ منها :

قد أتانا منكِ شعر مثلما أطلع الأفق لنا أنجمَهْ
و فم فاه به قد اقسمت شفتي با لله أن تلثمهْ[72]

وهكذا نرى أنّ شعرهما قد سجّل كثيرا من حلقات هذه القصة، وتجلّت من خلاله مشاعر صاحبيها.

غير أنّ ابن سعيد كان يشاركه في هوى حفصة رجل آخر. فقد « تولّع بها السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن ملك غرناطة»[73] الذي كان ابن سعيد وزيراً له.

---

(69) المقري : نفح الطيب- م.س.- 4/175-176.

(70) قال موسى ابن سعيد عن قريبه : « وعَشِق حفصة شاعرة الأندلس، وكانا يتجاوبانِ تجاوب الحمام ». (م.ن.- ص :179).

(71) و (72) ابن سعيد : المغرب -م.س.- 2/166.

(73) المقري : نفح الطيب- م.س.- 4/173.

ولسنا ندري حقيقة مشاعر حفصة نحو الأمير الموحّديّ. فإذا كان ابن سعيد قد قال لها يوماً : « وما هذا الغرام الشديد به، يعني السيّد؟»[74]، أو قال : « ما تحبّين في ذلك...؟»[75]، مما قد يدلّ على ميل حقيقيّ منها إليه، فإنّ من الباحثين من يرى غير ذلك. يقول محمد منتصر الريسونيّ : « أما علاقة حفصة بأمير غرناطة فيبدو لي أنها كانت علاقةَ مجاملة ومداراة، لم تكن تحمل في طيّاتها مودّة ووداداً، وإنّما نفاقاً مغلّفاً بهالة من الوئام، خوفا من سخط الأمير وغضبه ». ثم يستدلّ على ذلك بما يراه من خلوّ شعرها من الحديث الصادق عن هواها له[76]. ويقول الدكتور مصطفى الشكعة : « وكان هناك ملك... يجلس على عرش الحكم ويطمع في عرش ذلك القلب، فلم يُفلح في أحلامه. فلم يكن يملك مؤهّلات تمهر قلب الشاعرة»[77].

والحقيقة أنّنا لا نجد في شعرها ما ينهض دليلا على أنها قد أحبّت الأمير الموحّديّ. إذ ليس بين أيدينا إلا أربعة أبيات وجّهتها إليه، تهنّئه بيوم عيد، تقول فيها :

يا ذا العلا و ابن الخليـ ـفة و الإمام المرتضى
يهنيك عيد قد جرى فيه بما تهوى القضا
و أتاك من تهواه في قيد الإنابة و الرضى
ليعيد من لذّاته ما قد تصرّم و انقضى[78]

ونفهم من البيتين الأخيرين أنّ حفصة لم تكن ذات رغبة في وصل الأمير.

(74) ابن الخطيب : الإحاطة -م.س- 224/1.

(75) ابن سعيد : المغرب -م.س- 164/2.

(76) انظر: الشعر النسويّ في الأندلس -م.س- ص :120.

(77) الأدب الأندلسيّ : موضوعاته و فنونه- م.س- ص :229.

(78) المقّري : نفح الطيب-م.س- 177/4.

ولكنها كانت تصله استجابة لطلبه،وتلبية لرغبته،وتمكينا له من لذّته، غير واجدة لنفسها مندوحة عن ذلك(79).

وإذا كانت حفصة سلكت ذلك السلوك، حفاظا على نفسها، فإنّ ابن سعيد أبى أن ينافسه الأمير الموحّديّ في قلب حفصة، فكانت حدّته في ذلك الظرف سبباً آخر لهلاكه(80). فقد بلغ الأميرَ أنّ ابن سعيد قال لحفصة ذات يوم :« ما تحبّين في ذلك الأسود، وأنا أقدر أن أشتري لك من سوق العبيد عشرة خيراً منه؟ وكان لونه مائلا إلى السّواد. فأسرّها في نفسه إلى أن فرّ عبد الرحمن بن عبد الملك ابن سعيد إلى ملك شرق الأندلس محمد بن مَرْدَنِيش فقتله صبراً بمالقة» (81).

وقد خلّفت المأساة أثرها في نفس حفصة وفي شعرها. ذلك أنّها لمّا نُعي إليها ابن سعيد « لبست الحداد، وجهرت بالحزن فتُوعّدت بالقتل، فقالت في ذلك :

---

(79) يقول محمد منتصر الريسونيّ -في تعليقه على هذه المقطوعة- متحدّثا عن البيت الثالث منها : « قف أمام كلمة (تهواه) بضمير المخاطب و أمام كلمة (قيد) و (الإنابة) و (الرضى) متمهّلا متروّيا مستبطناً ما تنطوي عليها (كذا) من دلالة نفسية تُفصح عن قلق داخليّ، أثاره وحل من جفوة الأمير وما يعقب هذه الجفوة من ضغينة وحقد » (الشعر النسويّ في الأندلس-م.س-ص : 121).

(80) لعل تغيّر الأمير الموحّديّ على ابن سعيد قد بدأ -قبل اشتراكهما في هوى حفصة- منذ أن بلغه قوله مفتخراً بنفسه ضائقاً بخدمته :

فقال لحريص أن يراني مقيّداً بخدمته : لا يُجعل الباز في القفص
و ما كنت إلاّ طوعَ نفسي، فهل أُرى مطيعاً لمن عن شأوِ فخريَ قد نقص؟

(المقّريّ : نفح الطيب-م.س- ص:181).

(81) م.ن.- 181/4، وقد نقل ابن الخطيب عن أبي الحسن ابن سعيد ما رواه الحسين بن دويرة عن نهاية أبي جعفر، إذ قال :«كنت بمالقة لمّا قُبض على أبي جعفر، وتوصّلت إلى الاجتماع به، ريثما استُؤذن السيّد فيه حين حُبس، فدمعت عيني لمّا رأيته مكبولاً؛ قال : أعليّ تبكي بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذّاتها، =

هدّدوني من أجل لبس الحـداد   لحبيـــب أردوه لي بالحـــداد
رحـم الله مـن يجـود بدمـع   أو ينـوح على قتيـل الأعـادي
وسـقته بمثـل جـود يديـه   حيث أضحى من البلاد الغوادي

و لم يُنتفَع بعدُ بها، ثم لحقت به بعد قليل»[82].

تلك هي قصّة حفصة وابن سعيد. وذلـك أهـمّ مـا خلّفته مـن أشعار غزليّة. والمتتبّع لهذه القصة ولتلك الأشعار قد يلاحظ ما يلي :

- قصّة حفصة وابـن سـعيد تلـي قصّـة ولاّدة وابـن زيـدون في الشـهرة، وفيما خلّفتـه مـن أثـر في شعر الغـزل بـالأندلس. وإذا كـان هنـاك مـا يجمـع بينهمـا، فإنّ الموازن المتأنّي يقف على عـدّة مفارقـات. فـإذا كانتـا متّفقتـين في أنّ كـلّ واحـدة منهمـا كـانت بـين شـاعر وشـاعرة، وأنّ كـلّ واحـد مـن الشـاعرين -ابـن زيـدون وابن سعيد- قد ابتُلي بمنافس عنيد، وأنّ تلك المنافسة لم تحسم لصالحه، فإنّ هنـاك مـا يميّز بين القصّتين شخصيّات وأحداثاً وأشعاراً :

فإذا كان ابن زيدون يبدو هو العاشقَ الراغب، فإنّ ابـن سـعيد يظهـر معشـوقاً مرغوباً فيه. وإن كنّا لا ننفي حبّ ولاّدة لابن زيدون، ولا عشق ابـن سـعيد لحفصـة. ففـي شـعرهما وأخبارهمـا مـا يؤكّـد ذلـك. ولعـلّ بعـض تلـك المفارقـة عـائد إلى كلّ من ولاّدة وحفصة : فولاّدة قد تضاربت في سـلوكها الأقـوال بـين مثـن عليـه

= فـأكلت صـدور الدّجـاج، وشـربت في الزجـاج، وركبـت كـل همـلاج، ونمـت في الديبـاج، و تمتّعـت بالسـراري والأزواج، واسـتعملت،مـن الشـمع، السـراج الوهّـاج، وهأنـا في يـد الحجّـاج، منتظـراً محنـة الحـلاّج، قـادم علـى غـافر لا يحُـوج إلى اعتـذار ولا احتجـاج. فقلـت : ألا أبكي على من ينطق بمثـل هـذا؟ ثـم تُفقّـد فقمـت عنـه، فمـا رأيتـه إلاّ مصلوبـاً -رحمـه الله-» (الإحاطة-م.س.- 226/1).

(82) م.ن.-ص : 227. وفي الأبيات أخطاء إملائيّة ظاهرة، صحّحناها.

في سيرته(87)، فإنّنا لا نجد شيئا من ذلك في شعر حفصة.

وإذا كان انفصام العلاقة بين ولاّدة وابن زيدون ترك أثره في شعره الغزليّ وغيره حنيناً وتلهّفاً،وتحسّراً وتألّماً، وعتاباً وتقريعاً، فإنّ استمرار العلاقة بين حفصة وابن سعيد حال دون أن يكون مثل ذلك في شعره.

- فاقت حفصة بجرأتها في معاني الغزل جميع شواعر الأندلس اللائي سبقنها، وذلك إذا استثنينا ولاّدة(88). فإذا كانت الشاعرة الأندلسيّة قبل حفصة قد وصفت حبّها وعبّرت عن شوقها إلى لقاء من تحبّ وأشارت إلى جمالها(89)...، فإنّ حفصة قد بلغت في ذلك شأواً بعيداً. ففي شعرها تمدّح بمحاسنها غير معهود، وبوح بنزواتها

---

(87) من هجائها له قولها -وكانت تلقّبه بـ« المسدّس »- :

ولقّبتَ المسدّس، وهو نعت   تفارقك الحياة، ولا يفارقْ
فلوطيّ ومأبونٌ وزان   وديّوث وقرنان وسارق

(المقّري : نفح الطيب -م.س.- 205/4).

(88) رُوي أنها كتبت على عاتقها الأيمن :

أنا -والله- أصلح للمعالي   وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت على العاتق الأيسر :

وأُمكن عاشقي من صحن خدّي   وأُعطي قبلتي مَن يشتهيها

(ابن بسّام : الذخيرة -م.س.- 429/1/1-430).

(89) من أجرإ الشواعر الأندلسيّات في معاني الغزل -قبل حفصة- أمّ الكرم بنت المعتصم ابن صمادح التي تقول :

ألا ليت شعري هل سبيل لخلوة   يُنزَّه عنها سمع كلّ مراقبِ
ويا عجباً أشتاق خلوة من غدا   ومثواه ما بين الحشا و التّرائب

(ابن سعيد : المغرب -م.س.- 203/2).

غـير مؤلـوف، وإعــلان لرغبــة جامحــة لا ســابق لــه، وتغــزّل بصاحبهــا لا قِبَــل لشعر الغـزل بـــه. وحسْـبنا أن نُعيـد ممــا ســبق الاستشــهاد بــه قولهـا متمدّحــة، مغرية لصاحبها :

فثغري مورد عذب زلال وفرع ذؤابتي ظلّ ظليـلُ

وقولها متغزّلة بثناياه :

وأنصفها لا أكذب الله انّني رشفت بها ريقاً أرقّ من الخمرِ

وربّمـا كـان مـن شـأن هـذا « العـرض السـخي » أن يُرغّـب عنهـا صاحبهـا، ويُصيب حبَّه لها بالفتور، إذ « كل مبذول مملول ».ولعلّ المحبّ يجد سـعادته في معاناتـه مـن أجـل الوصـول إلى قلـب مـن يحـبّ. وربّمـا كـان الوصـال آفـة الحـب الكــبرى. ولذلك قال بعض الشعراء : « لذّاتنا في الشـوق لا في الوصـال» [90]. بـل تجـاوز ذلـك غيره « حين افترض -منذ البداية- أنّ حقيقة الحبّ في أن يكـون الوصـال محـالا»[91]. علـى أنّنـا لا نجـد في شـعر ابـن سـعيد ولا في أخبـاره مـا يـدلّ علـى تــأبّ أو ملــل. ولعلّ حبّه الشديد لحفصة قد حال دون ذلك.

-تبادل ابن سعيد وحفصة كثيراً من الرسائل الشعريّة علـى نحـو مـا وقـع بـين ابن زيدون وولاّدة. وهذا جعل نصّ الغزل يتّصل بفنّ الإخوانيّات، كما جعلـه يخضـع لخصائص الرسائل. وإذا كان بعض تلك الرسائل في مستوى الشعر الجيّد، فإنّ بعضهــا الآخر قد جاء - بسبب الارتجال- ضعيفا، فنّيّاً.

ب- الغـــزل الشــاذّ :

لم يظهـر الغـزل بـالمذكّر في الشـعر الأندلسـيّ إلا ابتـداء مـــن فــترة الإمــارة. وكان ذلك بعد أن عرف شعراء الأندلس الاتجاه المحدَث الذي حمل لواءه، في المشـرق،

---

(90) و (91) إحسان عباس : اتجاهـات الشـعر العربـيّ المعـاصر -الكويـت- المجلس الوطـني للثقافـة والفنون والآداب -1398هـ-1978م.- ص :181.

أبو نواس وأضرابه[92]. و لم يلبث أن صار أحدَ ألوان الغزل في الأندلس، يكاد ينافس الغزل الطبيعيّ حتى في مقدّمات قصائد المديح، من غير أن يجد استنكاراً أو رفضا[93].

ويقف المتتبّع لشعر الغزل في الأندلس في الفترة الأولى من عصر الموحّدين على فيض لا ينضب من هذا اللّون. ويكفي الباحثَ أن يطّلع على مختارات صفوان ابن إدريس في كتابه «زاد المسافر» ليقدّر الحيّز الذي يحتلّه هذا اللّون من غزل تلك الفترة.

على أنّ تلك الغزارة لا تبعث على الاستغراب إذا علمنا أنّ شخصيّات لها منزلتها العلميّة والدينيّة لم تجد حرجاً في المساهمة في هذا اللّون. حسبنا أن نذكر منها الفقيه القرطبي أبا بكر محمد بن عبد الله ابن ميمون[94] معلّم أبناء الخليفة عبد المؤمن.

ويعود الإقبال على هذا اللّون من الغزل وكثرة النظم فيه إلى جملة من الأسباب لعلّ أهمّها مايلي :

-إظهار البراعة الفنيّة :

لم يكن بعض الناظمين في هذا اللّون يعبّرون عن حقيقة ويصوّرون تجربة، وإنّما كانوا ذاهبين في ذلك مذهبا فنيّاً. ولعلّ الرصافيّ البلنسيّ أن يكون قد ذهب ذلك المذهب فيما نظمه من نصوص يتغزّل فيها بمجموعة من الغلمان كانوا يزاولون

---

(92) نقل هذا الاتجاه إلى الأندلس الشاعر عبّاس بن ناصح الذي سافر إلى المشرق حيث التقى أبا نواس وسمع شعره. ينظر : أحمد هيكل : الأدب الأندلسيّ من الفتح إلى سقوط الخلافة -القاهرة- دار المعارف بمصر- الطبعة السادسة -1971م.- ص :132.

(93) انظر : م.ن.- ص :215.

(94) قال ابن عبد الملك في ترجمته : « استُقضي بمنتور من عمل قرطبة، فحُمِدت سيرته... وانتصب لتدريس ما كان ينتحله من فنون العلم، فقلّ من لم يأخذ عنه من طلبة العلم بها (أي مَراكش). وكان بنو عبد المؤمن و أتباعه يتنافسون في القراءة عليه... وكان يحضر مجلس عبد المؤمن مع أكابر من يحضره من العلماء فيشفّ على أكثرهم بما كان عليه من التحقّق بالمعارف » (الذيل و التكملة -م.س.- 320/6).

حرفاً مختلفة في سوق مَالَقَة التي كان يمارس فيها صناعة الرفو، أو في غيرها. وفي نصوصه تلك يربط ربطاً بارعاً بين فنّي الوصف والغزل، حتى كأنّهما هدفاه معاً. ويُستبعَد أن يكون قد مال حقيقة إلى أولئك الغلمان. يقول الدكتور إحسان عبّاس : « وقد كثر طلب الموضوعات الوصفيّة كوصف الدّولاب والحمّام والنهر وغير ذلك في الشعر الأندلسيّ في عصر الرُّصافيّ ومن بعده، حتى أصبح ذلك محكّاً لقدرة الشاعر ومدى إجادته؛ وعلى ضوء هذا نفسه قد نفهم مقطوعات الرّصافيّ في الغلام الحائك والنجّار والحريريّ والصفّار. فهؤلاء هم الذين ألف منظرهم في أثناء تردّده الى السوق ومزاولته لحرفته. وبوصفهم كان يستجيب لتحدّي من يطلبون منه ذلك. ولست أرى هذه الظاهرة دليلا على ميله للغلمان، أو انّها ليست مقصودة لذلك، وإنّما هي معرض لإجادة النقل والتصوير والتعليل، كما انّي لست أقرنها أبدا بعزوفه عن الزواج»[95].

ويؤكّد هذا الرأي ما نجده من أقوال نقديّة ونصوص شعريّة. وهي، وإن صدرت في عصر سابق، قد تتجاوز عصرها. فمن الأقوال النقديّة قول ابن خفاجة في أثناء حديثه عن تجربته الفنّيّة : « يُستجاز في صناعة الشعر، أن يقول القائل فيه : "إنّي فعلت" و"إنّي صنعت"، من غير أن يكون وراء ذلك حقيقة؛ فإنّ الشعر مأخذ وطريقة. وإذا كان القصد فيه التخييل، فليس القصد فيه الصدق. ولا يُعاب فيه الكذب. ولكلّ مقام مقال»[96].

ومن النصوص الشعريّة قصيدة لابن حصن الإشبيليّ يقول في آخرها :

فانثنت في خجل قا ... ئلة عند التثنّي :
أنا حانوت بوجهيـ ... ـن فلط إن شئت وازن.

---

(95) ديوان الرصافي البلنسي -م.س.- المقدمة- ص 24.

(96) ديوان ابن خفاجة -م.س.-ص : 10-11.

لم أنل من كلّ ما فهـ ـت به غير التمنّي
إنّما الشعر فكاهـا ت، وحسبي حسن ظنّي[97]

-الانحراف الخلُقيّ :

يبدو من بعض الأخبار أنّ بعض الأندلسيّين في تلك الفترة كان يميل إلى الغلمان حقّاً، ويكلف بهم كلفاً يدلّ على انحراف وشذوذ. فأبو العباس أحمد الكساد كان « يهوى موسى بن عبد الصمد مليح إشبيلية في ذلك الأوان» [98]؛ ويذكر ابن سعيد أنّ « غلاماً جميلاً كان يهواه جماعة» [99]...

وإذا جاز الاستدلال على هذه الظاهرة بكتابات سابقة لهذه الفترة، فإنّنا نجد ما يدلّ على تمكّن هذا الانحراف الخلُقي من بعضهم. قال الفتح بن خاقان في ترجمة الشاعر ابن وَهْبون : « وكان كلفاً بالغلمان، مكسفا[؟] بين الخوف والأمان؛ فإنّ الانفراد بهم كان عليه محجوراً، وكان من أجلهم ممقوتاً ومفجوراً ؛ فإنّه اشتهر في حبّهم أشدّ اشتهار، واستظهر على كلفه بهم بالشظف والاقتتار» [100].
وروى ابن حزم أنّ أحدهم كان يترك الصلاة في مسجد قريب من سكناه، ويقصد في الليل والنهار إلى مسجد كان به فتى يعشقه؛ « وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر، ويقوم إليه فيوجعه ضرباً، ويلطم خدّيه وعينيه، فيُسَرّ بذلك ويقول : هذا-والله- أقصى أمنيّتي؛ والآن قرّت عيني. وكان على هذا زماناً يماشيه» [101].

(97) ابن بسّام : الذخيرة -م.س.- 163/1/2.
(98)ابن سعيد : المغرب -م.س.- 288/1.
(99) رايات المبرّزين -م.س.- ص :20.
(100) قلائد العقيان -م.س.-ص : 242-243.
(101) طوق الحمامة في الألفة و الأُلاّف -تحقيق حسن كامل الصيرفي- القاهرة -مطبعة حجازي- د.ط. -1950م. -ص :44.

ولهذا تركت هذه الظاهرة الذميمة أثرها في شعر الغزل في الأندلس.

-البحث عن وسيلة جديدة للمتعـة :

قد يكون الميل إلى الغلمـان نتيجـة لابتـذال المرأة، إذ انّ ذلـك الابتـذال يحمـل بعضهـم علـى نِشْـدان وسيلة جديـدة للمتعـة. يقـول الدكتـور صـلاح خـالص : « إذا كان من الممكن أن نتصوّر الحرمان الجنسيّ سبباً رئيسيّاً من أسباب هـذا الاتجاه في الطبقات الفقيرة، فإنّ مثل هذا السبب يفقد أهمّيّته تماماً في الأوسـاط الأرستقراطيّة التي ابتُذلت فيها المرأة، والـتي كـان انتشـار حـبّ الغلمـان فيهـا لا يقـلّ عـن انتشـاره في غيرهـا مـن الطبقـات، إن لم يزد عنهـا. وربّمـا كـان السـبب الرئيـس، فضـلا عن عادة اقتناء الغلمان، هو البحث دائماً عن وسـائل جديـدة للمتعة. فكـان الغلمـان إحدى هذه الوسائل» [102].

وقبـل أن نتنـاول بعـض مـا تضمّنـه هـذا اللـون مـن الغـزل، ونعـرض نمـاذج منـه، نُشير إلى أنّ البـاحث في شأنه يجـد صعوبـة في التّميـيز بينـه وبين اللّون الآخر، وذلـك لأنّ كثيراً مـن الشعراء تحدّثوا عـن المرأة بصيغـة المذكّـر. وقلّمـا توجـد قرينـة تساعد علـى التّميـيز. فكيـف يسـتطيع البـاحث أن يصنّـف هذا النصّ -مثلاً-؟

يقـول ابن حريـق :

أشار إليكَ بتسليمـة — ومـن قبـلُ مرّوما سلّمـا
فهذي بتلك وذا بذا شُكـر — يُحلّـي بـه ذلك العلقمـا [103]

وممّـا نعـرف بـه هـذا اللّـون مـن الغـزل أن يذكـر الشـاعر مـا يميّز الغـلام كـالعذار والشّـارب ونحوهمـا، أو أن يذكـر اسمـه

(102) إشبيلية في القرن الخامس الهجريّ -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -1965م. -ص :102.
(103) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س.- ص: 65 .

أو كنيته[104]. وممّا يساعد على التمييز كذلك ما يرد، تمهيداً للنص، من عبارات يُذكَر فيها أنّ المتغزَّل به غلام[105].

والمتتبّع لما تضمّنته نصوص الغزل الشاذّ في هذه الفترة، ينتهي إلى أنّ الشعراء لم يتركوا معنىً من المعاني ولا وصفاً من الأوصاف التي تداولها الغزل الطبيعيّ (الأنثويّ) : فقد ذكروا العيون والخدود والشفاه وغيرها، وتحدّثوا عن الرقّة والدّلال والغُنج وما إليها، وتكلّموا على الصّدود والهجران ونكث العهود، ووصفوا صبابتهم وتلهّفهم، وسهرهم وتذلّلهم. وقد بلغ بعضهم في تصوير تباريح الهوى شأواً بعيداً.

ويَلفت انتباه الباحث في نصوص هذا اللون تهافتُ شعرائه على معان معيّنة، وكثرة ترديدهم لأوصاف خاصّة : فوجه الغلام بدر، وخدّه وردة، ولحظه سهم، وريقه خمر؛ وهو غصنٌ قامةً، وظبي حسناً ونفاراً، وغير ذلك من المعاني والأوصاف المتداولة، كذلك، في التغزل بالأنثى.

ونكتفي بالنّموذج التالي مثالاً على بعض ما ذكرنا. وهو لأبي بكر ابن المنخّل، يتغزّل فيه بغلام، فيقول واصفاً طرفه وخدّيه وقدّه وجيده ونفاره :

وفاتك الطرف ذي احورار ... خدّاه للورد و البَهار
كالغصن في قدّه ولكن ... كالظّبي في الجيد والنّفار
... فكلّما رمت منه وصلاً ... لجّ في التيه والنّفار[106]

(104) ترد الكنية أحياناً في هذا اللّون من الغزل (انظر -مثلا- : صفوان بن إدريس : زاد المسافر- م.س. -ص :48، 56). ولسنا نجد تعليلاً لذكرها، إلاّ أن يكون ذلك لتعظيم المتغزَّل به، لأنّ الذي يُكنَى- في العادة- هو الرّجل لا الغلام.

(105) انظر أمثلة لتلك العبارات في ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -ص 42، 78، 108، 116.

(106) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 129.

وإلى جانب الصفات والمعاني المشتركة، تناول شعراء هذا اللون ما يميّز الغلمان. وقد تفنّنوا -بصفة خاصة- في وصف العذار حتّى بلغوا،في ذلك،مبلغاً يصحّ فيه قول ابن بسّام -متحدّثاً عن عصر سابق- : « وأما صفات المعذّرين من الغلمان، فقد جرت خيول فرسان هذا الشأن بهذا الميدان، وتفنّنوا في ذلك... » [107]. وتداول الشعراء، هنا كذلك تشبيهات مُعيّنة : فالعذار،عند بعضهم،آس أو طحلب أو غيرهما، وهو،عند غيرهم،أرقم أو نُؤْي أو سواهما، وذلك تبعاً لاختلاف آرائهم فيه.

ذلك أنّ ظهور العذار اعتبره بعضهم « نهاية » الغلام. ولذلك تناولوه بالذّم وأوسعوا المعذّرين هجاء. وممن ذهب هذا المذهب أبو بكر بن مَلِك، وذلك حين يقول -« وقد عذّر محبوبه »- مهوّلاً ذلك التحوّل :

كان غزالاً فعاد تيسَا ... وبذّ من شؤمه طُوَيسَا
وصرتُ لا أرتضي هواه ... من بعد ما كنت فيه قيْسا [108]

ويُبرز ابن خروف المفارقة بين حال الغلام قبل العذار، وحاله لمّا التحى، فيقول :

وكان غريبَ الحسن قبل عذاره ... فلمّا التحى صار «الغريب المصنّفا» [109]

ويُبدع الرصافي البلنسيّ في وصف ما آلت إليه حال الغلام بسبب عذاره، فيقول مستعيراً صورته من المقدمات الطلليّة :

أقوى محلّ من شبابك آهل ... فأقمت أندب منه رسما عافيا
مثل العذار هناك نؤياً دائراً ... واسودّت الخِيلان فيه أثافيا [110]

(107) الذخيرة -م.س.- 144/1/1.

(108) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س.- ص :76. وطويس :رجل يُضرَب به المثل في الشؤم.

(109) ابن سعيد : المغرب -م.س.- 137/1. و «الغريب المصنّف»: كتاب لأبي عبيد القاسم ابن سلام الهروي.

(110) ديوان الرصافيّ البلنسيّ -م.س.- ص :141.

ويردّد ابن الشواش ما تواطأ عليه كثير من شعراء هذا اللّون من تشبيه العِذار بالأفعوان فيقول مهوّلا أثر ظهور العذار :

ورد خدّيك قد ذبلْ بعذار به اشتمل
خاله الحسن أرقما جاء ينويه فاحتمل
بلّغ الحاسد المنى و أرى الشامتَ الأمل[111]

ويُحسن أبو علي النّشّار التعليل مردّدا الصورة السابقة، فيقول :

قالوا : على خدّه عذار، فبِكْره في الهوى عَوَانُ
لا تُنكروه، فليس نُكْراً أن طاف بالروض أفعوان
إن دخّنت نار وجنتيه فالنار من شأنها الدّخان[112]

على أنّ شعراء آخرين لم يهوّلوا أمر ظهور العذار، و لم يروا فيه ما يزهّد في الغلام ويصرف عن حبّه. فأبو بكر ابن المنخّل يرى العذار لجاماً للغلام عن تيهه ونفاره، فيقول :

داريتُه و الزمان يَلوي أطراف ليلي على نهاري
فكلّما رمتُ منه وصالاً لجّ في التّيه و النّفار
حتّى إذا كان بعد حين ألجمه الدهر بالعذار
فجاء سمح العنان سهلاً على مُرادي و باختيار[113]

ولا يرى أبو القاسم ابن البرّاق ظهور عذار الغلام مُسْليا عنه، و إنما يراه -على العكس من ذلك- « من أبين الأعذار »، فيقول مادحاً :

و لقد رجوت مع العذار سلوة فإذا به من أبين الأعذار

(111) البلفيقيّ : المقتضَب -م.س.- ص :141.
(112) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س.- ص :100.
(113) م.ن.- ص :129.

و رأيت بين جبينه و عـذاره   نور الشموس و رونق الأنوار[114]

ويستعين في مدح العذار« بحسن التعليل » فيقول، في مقطوعة أخرى :

قالوا التحى وستسلو عنه، فقلت لهم   لا يحسن الروض ما لم ينبت الزهـرُ
هل التحـى طرفه السـاجي فأهجرَه   أوهل تزحزح عن أجفانه الحَوَر[115]

ويستخدم أبو جعفر ابن عاصم -مثل ابن البرّاق- « حسن التعليل » في مدح العذار، و لكنّه يُغرب في الصورة، فيقول :

و عـارضِ خـدّ تأملتـه   فألفيتـه مـن صنـع نظّـاره
تعشّـقه الطـرف من حسـنه   فأهداه من هذْب أشفـاره[116]

و لم ير أبو محمد ابن حامد أفضل شيء يشبّه بـه وردة مُغلّفـة، من وجنـة غـلام أطلّ عذاره، فقال :

ومحمّرة تختال في ثوب سنـدس   كوجنة محبوب أطلّ عـذاره[117]

وأيّـاً مـا كـان اختـلاف آراء الشـعراء في العـذار، فـإنّ المتتبّـع لمـا قـالوه في ذمّـه، أو في مدحـه، يسـتنتج أنّ الرغبـة في إظهـار البراعـة كـانت البـاعثَ لبعضهـم علـى وصفـه. ولا أدلّ علـى ذلـك مـن « تلاعبهـم » بحُسْن التعليل[118]، ومن تواطئهم من معان وصور مُعيّنة.

وإذا كـان لهـذا اللـون مـن الغـزل شـعراؤه الذيـن لم ينظمـوا في سـواه،

---

(114) م.ن.- ص 151.

(115) البلفيقي : المقتضَب -م.س.- ص 133.

(116) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س.- ص 89 .

(117) المقّري : نفح الطيب -م.س.- 72/5 .

(118) كان « حُسْن التعليل » من المحسّنات البديعية التي أُولع بها شعراء الأندلس في عصر الموحّدين؛ و في مقطوعاتهم الوصفيّة نماذج منه، تدل -حقّاً- على براعة و سعةِ خيال.

فإننا نجد شعراء آخرين لم يقفوا غزلهم عليه، وإنّما نظموا في غيره كما نظموا فيه. من هؤلاء أبو بكر ابن مُجْبَر الذي يقول متغزّلا بامرأة :

وزائــرة و الليــل ملــق رواقــه . ومن أين للظلماء أن تكتم القمر؟
حدرتْ نقاب الصَّوْن عن صفح خدّها فيا حسن ما انشقّ الكمام عن الزهر!
ورارد تــهــــاعن لثمه فتمنّعت وما عادة الأغصان أن تمنع الثمر[119]

ثم يقول متغزّلاً بمن كناه « أبا بكر » :

أيا قاسي القلب ألا عطفة تثني إليها رقّة الخصر
... ملء فؤادي زفرة تلتظي و ملء عيني عبرة تجري
آيات داود إذاً في يدي إن لان لي قلب أبي بكر[120]

وقد بالغ بعض شعراء هذا اللون في المجون والاستهتار وأفحشوا في بعض ما نظموا حتى كادوا يبلغون في ذلك ما بلغه بعض شعراء المشرق كأبي نواس وغيره. ومن الأمثلة على ذلك:قول أبي بكر ابن ملك متغزّلاً بغلام معتكف بالمسجد ! :

وأهيف كالقمر الطالع معتكف في المسجد الجامع
يقول من أبصره راكعاً : كلّ المنى في سجدة الراكع[121]

ومنه أمثلته:قول أبي محمد ابن حامد في غلام صلّى إلى جانبه بالجامع :

صلّى إلى جانبي غزال يجرح باللفظ ثم ياسُو
... و لست أنسى صلاة يوم يحسد في كونها أناس
غازل طرفي غزال إنس في نفلها هل عليّ باس؟

(119) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 55.
(120) م.ن. -ص : 56.
(121) م.ن. -ص : 175.

فلســت أدري وكنت أدري أجــامع ذاك أم كِنــاس؟ [122]

وقريب من هذا التجاوز مـا في قـول ابـن حجّـاج الإشبيلي الملقّـب بالغَيشـوم متلاعباً بمقدّسات دينية :

من مبلغٌ موسـى المليحَ رسـالةً بُعثتْ لـه مـن كـافري عشّـاقِهِ
ما كان خلقٌ راغبـا عن دينــه لو لم تكن توراته من ساقه[123][؟]

وتفنّن شعراء هذا اللون من الغزل في وصـف « غلمـانهم » في حـالات شتى. ولقـد سبقت الإشـارة إلى مقطوعـات الرصـافيّ البلنسـيّ الّـتي نظمهـا في مجموعـة من الغلمان يزاولون حرفاً مختلفة، متغزّلا بهم، مستغلاً في غزله الحالة التي يكون عليهـا الغلام وهو يمارس عمله.ومن تلك المقطوعات قوله في فتى رفّاء :

وبنفســي مــن لا أسمّيــه إلاّ بعـض إلمامَــة وبعـض إشـارَهْ
هـو والظبي في الجمـال سـواء ما استعار منه الغـزال استعاره
أغيـد يُمسـك الحريـر بفيـه مثلما يمسك الغزال العَـراره
مـا بقلبي حوتـه منه ضلوعـي كالرجاء انطـوى وفيـه شـراره
دارُه القلب وهـو يحتـلّ أخرى قدّس الله حيثما حلّ داره[124]

ومن النصـوص الـتي قيلـت في الغـزل بغلمـان يزاولـون أعمـالاً، وقــد ربــط أصحابها، بين الوصف والغزل، ربطاً يشهد على براعتهم، قول ابن حنّون في خـائط :

---

(122) م.ن.– ص :86–87. وقد مهّد المؤلّف لهذا النص بقوله : « وصلّى إلى جنبه بالجامع شُوَيْدِنٌ تستعطف قاسيةَ القلوب أعطافه، ويمرح غصنا من آمال النّساك قطافه، فقال، وقد أصبح طرفه من محاسنه عانيا، ولم يدر أصلّى ثنتين أم ثمانيا: ».

(123) م.ن. – ص 103.

(124) ديوان الرصافيّ البلنسيّ –م.س.– ص 78. وقد نظم الرصافيّ أربع مقطوعـات أخرى : اثنتين في صفّـار (انظـر :م.ن.– ص:42،108)، وواحـدة في نجـار (انظــر: م.ن.–ص35)، وواحــدة في حــائك (انظر: م.ن.–ص116) .

قطعتَ قلبي و لم تحفل بما صنعت — تلك الجفون ولا بالقلب ما صنعا
رَقِّعْ بفضلك ما الهجران مزّقه — لا تتركنَّ فؤادي هكذا قطعا
فقال : دَعْ ذا، وكن منّي على ثقة — لا بدّ عمّا قريب أن نبيت معا
ألستَ تعلم أنّي خائط، ومتى — رأيت من خاط إلاّ بعد أن قطعا؟ !(125)

ومن تلك النصوص قول ابن خروف في خيّاط كذلك :

بني المغيرة لي في حيّكم رَشَأٌ — ظلال سمركم تغنيه عن سمره
يُزهَى به فرس الكرسيّ من بطل — بإبرة هي مثل الهدب من شفره(126)

ومن النّصوص التي استغلّ فيها المتغزّلون بالغلمان الحالاتِ التي يكونون عليها قول أبي إسحاق بن عثمان متغزّلا بغلام في حمّام، متفنّنا في الربط بين الحمام والقلب، وبين حكّ الغلام وصقْل السيف :

وأهْيَف ميّاس ثنى التيهُ عطفَهُ — وأربت على ما في الشمول شمائلُهْ
تجلّى بحمام كقلبي تضرّماً — على أنّ قلبي ليس تخبو مشاعله
أقول لهَيْمان تصدّى لحكّه — وقد قرَّ عينا بالذي هو فاعله :
أجاليَ ذاك الحسنِ خف سطواته — فقد يتّقي حدّ المهنّد صاقله
وحافظ على ما سال منه فإنّه — هو الذهب الإبريز يُحفظ سائله(127)

وممّا برع فيه شعراء هذا اللون من الغزل تحسينهم ما قد يكون بالغلمان الذين يتغزّلون بهم، من عيوب : فلا القَلَح. ولا الرّمد، ولا شجّة الخدّ أو الفم، ولا غير ذلك من العيوب، مما يرغّب عن الغلام ويزهّد فيه. يقول أحمد ابن شكيل رادّا

---

(125) ابن عبد الملك المراكشيّ : كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة -تحقيق محمد بن شريفة -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -د.ت. -1/1/102-103.

(126) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 63-64.

(127) م.ن. -ص : 91. وفيه : « ثنا »، وهو خطأ.

على من لامه على حبّ غلام به قلح :

وقالوا : أتهواه على قَلَح به؟ ! فقلت : هناني دون غيريَ موردُ
متى أبصرت عيناك في الماء عِرْمِضاً إذا كان في كل الأحايين يورد[128]

ويقول ابن سعد الخير في غلام « لبس ثياباً حمراء وبعينيه رمد » مشبّهاً طرفه بالسيف وثيابه بالقِراب، وقد تضرّجا بالدم :

ومهفهفٍ يجري بصفحة خدّه ولماه من ماء الحياة عبابُهْ
ما زال يهتك باللّحاظ قلوبنا حتّى تضرّج طرفه وثيابه
فبدا بحمرة ذا وحمرة هذه كالسيف يدمى حدّه وقرابه[129]

ويصف ابن هشام القرطبي شجّة في خدّ محبوبه، فيرى فيها غير ما يراه غيره : إنّها هلال في صفحة قمر !

سفَرت محاسن وجهه عن شجّة نونيّة حشت الحشا بَلْبَالاَ
عنّت كإحدى حاجبيه تقوّسا بيضاء راقت في العيون جمالا
فتأمّلوها آية بديعيّة قمراً جلا في صفحتيه هلالا[130]

ويُحسّن علي ابن خروف ما أحدثته قوس ضربت غلاماً في فمه، فيرى سنّه المضرّجة مرجانة، وريقه الممتزج بالدم خمراً حمراء، فيقول مخاطباً القوس :

نازعتِ عند الرّمي مُقْلة شادن تصمي القلوب ولا تغبُّ نزالاَ
فقرعت مبسم ثغره حسداً له لما غدا بدراً وكنتِ هلالا
فبدت جمانة سنّه مرجانة وغدا قراح رضابه جِريالا[131]

---

(128) ابن سعيد : المغرب -م.س. -305/1. والقلح : صفرة الأسنان؛ والعرمض : الطحلب.
(129) البلفيقيَ : المقتضَب -م.س. -ص : 105.
(130) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 104.
(131) ابن سعيد : المغرب -م.س. -137/1.

ونختم هذه النماذج بقول ابن البرّاق في غلام على شفته مداد، مُبرزاً المفارقة :

يا عجباً للمداد أضحى ... على فم ضُمّن الزلالا

كالقار أضحى على الحُميّا ... والليل قد لبس الهلالا[132]

ويعقد بعض الشعراء أحياناً المقارنة بين الغلام الذي يتغزّلون به، وبين من يكون معه مضخّمين المفارقة. ومن أمثلة ذلك:قول ابن جُبير « في محبوب له جلس بين ثقيلين » :

لو كنتَ تبصر منذ يوم قد نأى ... تَيْسين ضمّهما وظبياً مجلسُ

لعجبت قبحاً منهما وملاحة ... منه، وقلت:حظيرة أم مَكْنس؟[133]

وقوله موضّحاً المفارقة بصورة أخرى :

لو تبصر ابن سعادة ونديمه ... قد حلّ بينهما الغزال الشاردُ

لرأيت من ثقل عليك وخفّة ... جبلين بينهما نسيم راكد[134]

وقريب من صورتي ابن جُبير ما في قول أبي بكر ابن مَلِك « وقد ركب محبوبه رديف بغلة عليها رجل يلقّب بالدّبّ » :

وبغلةٍ مالها مثال ... يركبها الدّبّ والغزالُ

كأنّ هذا وذا عليها ... سحابة خلفها هلال[135]

ويمتزج الغزل الشّاذّ، في بعض نصوص هذه الفترة، بأغراض أخرى؛ منها وصف مجالس الخمر ووصف الطبيعة. ومن أمثلة ذلك:قصيدة لأبي ذرّ بن مسعود جمع فيها بين هذه الأغراض الثلاثة. وفيها يدعو إلى عقد مجلس للشراب وسط طبيعة

---

(132) ابن سعيد : كتاب رايات المبرّزين، وغايات المميّزين -تحقيق إميليوغرسية غومس - نشر معهد دون خوان بلنسية - مدريد-د.ط. -1942م. -ص : 62.

(133) و (134) صفوان بن إدريس -زاد المسافر -م.س. -ص : 114.

(135) م.ن. -ص : 75.

ربيعية، ويصفها منوّها بها، ثم يخلص إلى التغزل بالغلام الساقي. يقول :

حـــنّ إلـــى كأســـه الخليـــعُ   لّمـــا بـــدا النّـــور والربيـــع
واكتسـت الأرض ثـوبَ حسـن   مـن سـندس وشـيه بديـع
كـــأنّ أزهارهـــا نجـــوم   لهـا بـأفْق الربـى طلـوع
كأنّمـــا النهـــر مشـــرفيّ   يـروق طـوراً وقـد يـروع
كـــأنّ حصبـــاءه جمـــان   والمـاء مـن رقّـة دمـوع
فحُثّهـــا بالدّنـــان حثّـــاً   إن عُـدم الكـاس والقطيـع
يُديرهـــا شـــادن رخيـــم   يصبـو إلى حسـنه الجميـع
إذا أتـــى بـــالصدود ذنبـــاً   فالحسـن في وجهـه شـفيع
و قـل لمـن لام في التصـابـــي: نـاديتَ لـو أنّـني سميـع[136]

ونستنتج مما سبق أنّ الغـزل كـان مجـالاً واسعا مـن مجـالات الشعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين. وإذا كان ما نُظم في هذه الفـترة امتـدادا لما نُظـم في الفـترات السـابقة، في الاتجاهـات والألـوان، فـإنّ شعراء هـذا العصـر قـد بـالغوا في التفنّـنَ. ولا أدلّ علـى ذلـك مـن شـغف كثير منهـم بحسـن التعليـل، حتـى أصبـح عند بعضهم غاية.

(136) م.ن. –ص : 147.

الفصل الثاني

المــــدح

ازدهر شعر المدح في الأندلس قبل عصر الموحّدين ازدهاره في المشرق نتيجة للتشجيع الذي ناله أصحابه. و سار شعراؤه، عموماً، على غرار شعراء المشرق، فقلّدوهم في منهج المدحة وأسلوبها، وردّدوا كثيراً من معانيهم.

على أنّ التكسّبيّ منه عرف بعض الكساد في صدر عصر المرابطين[1]، وذلك لأسباب عدّة، منها: سيطرة الفقهاء، وانشغال الدولة بأمر الجهاد، وجهل المرابطين للّغة العربيّة وبُعدهم عن فهم آدابها وتذوّقها[2]. وقد صرّح بكساد البضاعة عددٌ من الشعراء المتكسّبين بمدحهم، كأبي بكر ابن بَقِيّ والأعمى التُطِيلي.

وإذا كان ابن بقيّ قد شكا ضياعه[3]، وصوّر إحساسه بالغربة وسط قوم لم يقدّروا فنّه، وتمنّى الرحلة إلى المشرق، فإن الأعمى التطيليّ شخّص « المحنة » التي أصابت أمثاله من الشعراء المتكسّبين، فقال مستنجداً، واصفًا الحال، مشيراً إلى ما كان وراء ذلك الكساد من أسباب :

أيا رحمتا للشّعر أقوت ربوعه ... على أنّها للمكرمات مناسك
وللشّعراء اليوم ثُلّتْ عروشُهم ... فلا العزّ مختالٌ ولا الفخر تامكُ

---

(1) وصف ذلك الكسادَ إميليو غرسية غومس، فقال : «واجتهد نفر آخر من الشعراء... في أن يتشبّثوا بأذيال الزمن المولّي ليمدّوا في أجله على غير جدوى. فمضوا يتنقّلون من حلقة لأخرى، محاولين التكسّب بشعرهم واسترجاع أيام الصّلات السنيّة التي ولّت مع أمس الدابر. فلم يُغن ذلك عنهم شيئاً، وانقلبوا بحسرات وخيبة آمال، عبّروا عنها في أبيات مجهَدة، تنمّ عن حزن بالغ عميق» (الشعر الأندلسيّ -م.س.-ص:60-61).

(2) انظر: المقّري: نفح الطيب -م.س.-2/191-192.

(3) من قوله في ذلك :

أكلُّ بني الآداب مثليَ ضائعٌ ... فأجعلَ ظلمي أُسوةً في المظالم؟

(الفتح بن خاقان : قلائد العقيان - م.س.- ص :278).

إذا ابتـدر النـاس الحظـوظ وأشـرقت	مطـالب قـوم وهـي سـود حوالـك
رأيتهـم لـو كـان عنـدك مدفـع	كمـا كسـدت خلف الرئـال الـترائك
فيـا دولـة الضيـم اجملـي أو تجاملـي	فقـد أصحبت تلك العـرى والعرائـك
ويـا « قـام زيـد » أعرضـي أو تعـارضـي	فقد حال من دون المنى «قال مـالك»[4]

وقد حظي شعر المدح في نهاية عصر المرابطين ببعـض التشجيع، فعرف شيئاً من الازدهـار والتطوّر.

وازداد ازدهـاره وبلغ تطوّره مبلغاً عندمـا صارت الأندلس إلى عبـد المـؤمن وأبنائـه. وقـد يكـون مـن المفيـد -قبـل الحديـث عـن أنـواع المدائـح ومضامينهـا- أن نقـف عنـد بعـض الوقـائع لعلّهـا أن تكـون أدلّـة على مـا حظي بـه شعر المـدح من تشجيع في المرحلـة الأولى من عصر الموحّدين.

لقد سبق أن أشرنا إلى ثقافة الموحّدين الأدبيـة، وتذوّقهم لجيّد المـدح ومكافـأة أصحابه. ونودّ أن نعرض هنـا عدداً مـن الشـواهـد تدليلاً وتوضيحـاً.

كـان عبـد المؤمـن يرتـاح إلى المـدح ويحـبّ الثنـاء، ويحرص على أن يُسجّل الشعر ما يأتيه من عظيم الأعمال. روى ابن صاحب الصـلاة أنّ عبـد المؤمـن لمـا فتـح مدينة المهديّة جلس للتّهنئة، فدخل عليـه أبـو محمـد المـالَقيّ شيخ طلبـة الحضَـر فسـأله الخليفـة عمّـا قـال الشـعراء في ذلـك الفتـح، فأخـبره بقصيـدة قالهـا محمـد ابن حَبّـوس، أولهـا :

شُدّتْ إليك على الرّياح سروجُ أين الفـرارُ بـأهلكم يـاجوجُ؟

فاكتفى الخليفة بهـذا البيت، وأمـر لابن حبّـوس بجـائزة[5].

وقـد حـرص عبـد المؤمـن على أن يكـون للشـعر حضـور في اليـوم المشـهود

(4) ديوان الأعمى التطيليّ -تحقيق إحسان عبّاس-بيروت -دار الثقافة -د.ط.1963م.-ص:90-91.

(5) انظر: ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:121-122.

الذي كان له بجبل طارق، وذلك أنه « استدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداء »[6] ولم يكن يفعل ذلك من قبل.

وقد أشار غيرُ ما مصدر إلى طرب عبد المؤمن للشعر الجيّد، واكتفائه، أحياناً، بمطلع القصيدة إذا تحقّقت فيه براعة الاستهلال. فقد بدأ أبو عبد الله التيفاشيّ ينشده قصيدته التي مطلعها:

ما هزّ عطفيه بين البيض والأسَلِ　　　مثلُ الخليفة عبد المؤمن بن علي

فأشار عليه بأن يكتفي بهذا البيت، وأعطاه ألف دينار هديّة[7]، إذ وجد فيه ما يُغني عن سواه.

ويُؤيّد ما ذكرناه من إعجابه بجيّد المديح وما يصاحب ذلك الإعجاب من تجاوب قلّ أن نجده عند الممدوحين: ما ذكره عبد الواحد المراكشيّ متحدّثا عن مهرجان جبل طارق، حيث قال: « وأنشده في ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطليق المرواني :

ما للعدى جنّة أوقى من الهربِ

فقال عبد المؤمن رافعا صوته : إلى أين؟ إلى أين؟ فقال الشاعر :

أين المفرُّ وخيل الله في الطّلبِ؟

وأين يذهب مَن في رأس شاهقةٍ　　　وقد رمته سماءُ الله بالشُّهب؟

حدِّث عن الروم في أقطار أندلسٍ　　　والبحر قد ملأ العبرين بالعرب؟

فلمّا أتمّ القصيدة، قال عبد المؤمن : بمثل هذا تُمدح الخلفاء»[8].

---

(6) عبد الواحد المراكشيّ : المعجب -م.س. -ص:151.

(7) ينظر :محمد المنونيّ: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين -م.س. -ص: 137.

(8) المعجب -م.س. -ص: 153. وذكر ابن صاحب الصلاة أنّ الخليفة قد تهلّل وجهه، وهزّته الأريحيّة، وأجزل العطاء للشاعر. انظر: تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:164.

على أن عبد المؤمن، إذا كان يطرب لبراعة الاستهلال ، وتهزّه جـودة المديـح، لم يكن يتسامح -أبداً- مع مادحيه؛ ولم يكن يجد حرجاً في انتقادهم حين يخونهم التوفيق. فقد مدحه ابن سيّد الإشبيليّ يوم المِهرجان المذكور بقصيدة من جيّد ما أُنشد ذلك اليوم[9]، يقول في بدايتها:

غمّضْ عن الشمس واستقصر مدى زُحَلِ وانظر إلى الجبـل الرّاسي علـى الجبـل

أنّـى استقرّ بـه؛أنّـى اسـتقلّ لـه؛ أنّـى رأى شخصـه العالي فلم يـزُلِ؟

ولكنّ هذه البداية لم تُعجب عبد المؤمن،فانتقدها على مسمع من النـاس[10]. قال ابن صاحب الصلاة: «لمّا أنشد المنشد هذه القصيدة...أنكر أمير المؤمنين هذا البدء في قول الشاعر "غمّض عن الشمس" ،وقال على مسمع الناس : " غمّض ! غمّض !" منكراً لها، لأنّه كان يحبّ الفأل الحسن »[11]. وقال عبد الواحد المراكشيّ : « ...فقـال له عبد المؤمن : لقد ثقّلتنا يا رجل ! فأمر به فأُجلس »[12].

وكان عبد المؤمن يُجزل العطاء لمادحيه. ويكفي أن نذكّر بأنه منح التيفاشيّ ألـف دينـار على بيت واحـد! ولقـد أجـاز كـلّ الذيـن مدحـوه يـوم مهرجـان « جبل الفتح »[13].

وإذا كان ذلك التّشجيع الماديّ كفيلاً بازدهـار المدح، فإنّ ما صدر عن الخليفة من نقد بنّاء كان من شأنه أن يرقى بمضمون المدحة ويهذّب أسلوبها.

وكـان أبنـاء عبـد المؤمـن على غـرار أبيهـم: فهمـاً للقريـض، وتذوّقـاً لجيّـده،

(9) هذا رأي عبد الواحد المراكشيّ. انظر :المعجب -م.س.-ص:154.

(10) انظر :م.ن.

(11) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمـامة -م.س. -ص:159.

(12) عبد الواحد المراكشيّ : المعجب -م.س. -ص:154.

(13) انظر : ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمـامة -م.س. -ص:159، 170.

ومشاركة في نظمه، وتشجيعاً لأصحابه. فقد كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يحبّ المدح ويشجّع أصحابه.قال ابن صاحب الصلاة : « حدّثني من حضر في مجلس الأمير الإمام أبي يعقوب، رضي الله عنه، قال: لمّا أُنشدت هذه القصيدة ...رأينا وجه الأمير قد انشرح محيّاه ... وتهلّل سرورا وبشرا. وتخيّلنا وجهه من نوره بدرا... وأجزل العطاء لقائلها »[14]. وكان أبو يعقوب يقترح على مادحيه أن يستهلّوا قصائدهم « بالحمد لله». وقد أعجب بقصيدة نوّه فيها شاعره ابن حربون بانتصار كان للموحّدين على مخالفيهم بالمغرب ، استهلّها الشاعر بما اقترحه أبو يعقوب[15].

وبلغت عناية هذا الخليفة بالشعر أن يأمر شعراءه بنظم بيتين يُكتبَان على سيف صُنع له، فقال ابن حربون على لسان السيف :

أَنَا إنْ جُرِّدْتُ يَوْمًا كُنْتُ بِالنَّصْرِ قَمِينَا
لِأَمِيرِ المُؤْمِنِين بـ ـنِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَا

فحظي ذلك باستحسان أبي يعقوب وكافأ ابن حربون مكافأة حسنة[16].

وكان الخليفة الثالث أبو يوسف يعقوب المنصور شاعراً[17]. وذكر المقّري ما يدلّ على فهمه للشّعر وتذوّقه ونقده و هو ما برح في شرخ شبابه. فقد روى أن ابن مُجبَر «أنشد يوسف بن عبد المؤمن يهنّئه بفتح :

إنّ خير الفتوح ما جاء عفوا مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا

وكان أبو العبّاس الجراوي حاضراً، فقطع عليه لحسادة وجدها، وقال: ياسيدنا اهتدم بيت وضّاح :

---

(14) م.ن. –ص :338.

(15)انظر : م.ن. –ص:263-267.

(16) انظر : م.ن. –ص:352. وفيه: «...بن أبي المومنينا ».

(17) انظر : محمد المنونيّ: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين –م.س. –ص:160.

خير شـراب مـا كـان عفـوا كأنّـــه خطبــــة ارتجـــالِ

فبدر المنصور، وهو حينئذ وزير أبيه وسنّه قريب العشرين، وقال: إن كان اهتدمه فقد استحقّه، لنقله إيّاه من معنى خسيس إلى معنى شريف. فسُرّ أبوه بجوابه، وعجب الحاضرون»[18].

وسار المنصور سيرة جدّه عبد المؤمن في حرصه على أن تخلّد الأشعار أعماله. وما أمرُه بجمع ما مدحه به شاعره ابن مجبر في ديوان خاصّ -كما أشرنا- إلاّ دليل على ذلك الحرص. وقد فصّل المقّري الحديث عن ذلك اليوم المشهود الذي كان للمنصور مع الشعراء عقب النصر الباهر الذي حقّقه في وقعة « الأرك »، فنقل « أن أمير المؤمنين يعقوب المنصور لما قفل من غزوة الأراكة المشهورة... ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنّئونه، فلم يُمكن لكثرتهم أن ينشد كلّ واحد قصيدته، بل كان يختصّ منها بالإنشاد البيتين أو الثلاثة المختارة، فدخل أحد الشعراء فأنشده:

ما أنت في أمراء النـاس كلّهـم إلاّ كصاحب هذا الدّين في الرّسلِ

أحييت بالسّيف دين الهاشميّ كما أحياه جدّك عبد المؤمن بن علي

فأمر له بألفي دينار، ولم يصل أحدا غيره لكثرة الشعراء، وأخذ بالمثل "منع الجميع أرضى للجميع"... وانتهت رقاع القصائد وغيرها إلى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها »[19].

وإذا كان قد تعذّر عليه أن يجازي كل الذين مدحوه في ذلك اليوم، لكثرتهم، فإنّه كان كريما يُجزل العطاء لمادحيه. ولقد جازى ، في مناسبة أخرى، أحدهم على قصيدة بأربعين ألف دينار[20].

---

(18) المقّري : نفح الطيب -م.س.- 238/3.

(19) م.ن. -172/4.

(20) م.ن. -445/1.

وحاول الخليفة الرابع محمد الناصر أن يكون مثل سلفه احتفاء بالمدح ومكافأة لأصحابه. فعند قفوله من المهديّة ظافرا لقيه الشعراء مهنّئين.وكان من بينهم ابن مرج الكحل الذي ذكر في قصيدته علامة الموحّدين السلطانية:«الحمد لله وحده»، فأعجب بها الخليفة وغيره[21].

وكان السادة الموحّدون (الأمراء) وغيرهم من وزراء وولاة على شاكلة الخلفاء مشاركةً في الشعر، وتقديراً لأصحابه، وتشجيعا لهم بالهدايا. ويكفي أن نذكر من السادة: الأمير عثمان بن عبد المؤمن[22]، ومن الوزراء : بني جامع[23]، ومن الولاة: بني سعيد[24].

ولابدّ من أن نذكر أخيراً -ونحن نتحدّث عن تشجيع المادحين ودوره في رقيّ المدحة وتطوّرها- مساهمة غير الموحّدين في ذلك. فقد كان المناوئون للموحّدين -كابن مَرْدَنيش[25]،وابن هَمُشْك[26]،ووزيره الوقّشيّ[27]، وبني غانية [28]-

---

(21) انظر :م.ن. -4/171-172.

(22) ينظر : محمد المنونيّ: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين -م.س.-ص :138.

(23) انظر :ابن سعيد :المغرب -م.س. -1/137-219.

(24) من مادحيهم : الرصافيّ البلنسيّ.انظر :ديوان الرصافيّ البلنسيّ -م.س. -ص :54.

(25) كان شاعراً.ومن مادحيه أبو محمد المكناسيّ. انظر: صفوان بن إدريس: زاد المسافر- م.س.-ص:76-77.

(26) من مادحيه:ابن عبد الودود. انظر :م.ن. -ص:99.

(27) كان أبو جعفر الوقّشيّ شاعراً، أورد له ابن الأبّار مقطّعات جيّدة في أغراض شتّى. انظر: كتاب الحلّة السّيَراء -تحقيق حسين مؤنس -القاهرة -الشركة العربيّة للطباعة والنشر -الطبعة الأولى- 1963م. ومن مادحيه : الرصافيّ البلنسيّ. انظر : ديوان الرصافيّ البلنسي -م.س. -ص: 58،120.

(28) لزمهم الشاعر ابن فرسان. انظر : البلفيقي :المقتضب -م.س. -ص: 168؛ ابن سعيد : المغرب - م.س. -2/142.

على صلـة بالشعـر. وكـان لهـم مـادحوهم مـن شـعراء الأندلـس، يسـجّلون أعمـالهم وينالون عطاءهم.

وكان من نتائج ذلك الإقبال على المدح أن يخلّف شعراء الأندلس الذين أظلّهم ذلك العصر مادّة غزيرة في هذا الغرض. وحسبنا أن نذكر من الأدلّة على هذه الغـزارة قصائد ابن حربـون الـتي كـادت تمـلأ الجـزء الثـاني مـن كتـاب ابـن صـاحب الصـلاة « تـاريخ المـنّ بالإمامـة »، ورقـاع قصــائد يــوم « الأَرك » الــتي حــالت -لكثرتهــا- بين يعقوب المنصور وبين من كان أمامه، وما خلّف ابن مُجبَر في مدح المنصور ممّا كـان كافيا لملء فراغ ديوان.

بيد أنّ الكثيـر من ذلك الشعر عـدا عليـه الضيـاع فليـس في المصـادر المتيسّـرة من مدائح ابن مجبر في يعقوب المنصور إلاّ شيء قليل، منه قصيدته التي مطلعها:

أتـــراه يـــترك الغـــزلا وعليه شـبّ واكتهلا ؟[29]

وليس بين أيدينا من مدائح الشعراء في المنصور عقب« الأَرك » إلاّ شـيء قليـل أيضا منه قصيدة ابن حزمون التي مطلعها :

حيّتـك معطّـرة النّفَسِ نفحـات الفتـح بأندلس

والتي لم نُلفها في غير كتاب «المعجب»[30]. ولولاه لضاعت كغيرهـا.

ومثل ذلك الضياع عدا على ما مدح به ابن جُبيـر بعض الأمراء الموحّديـن[31]. فليس في المصادر المتوفّرة شيء من ذلك المدح.

وقد سجّل ابن صاحب الصلاة من غير شـكّ فيمـا ضـاع مـن كتابـه مـا نُظـم من قصائد مدح في المناسبات المختلفة، وذلك كدأبه في الجزء الذي وصل إلينـــــــــا.

---

(29) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص:55.

(30) ص :213-215.

(31) انظر: ابن عبد الملك : الذيل والتكملة -م.س. -607/2/5.

فضاعت تلك القصائد بضياع ما ضاع من ذلك الكتاب.

على أنّ ما بين أيدينا من هذه النصوص كاف للوقوف على جملة من خصائص المدح في ذلك العصر.

وقد عرف المدح في هذا العصر -كما هو شأنه في أغلب العصور الأدبيّة- صنفين، وذلك تبعاً للبواعث التي كانت تحمل الشعراء على النظم فيه.

أولهما: مدح صادق،كان نتيجة لحبّ أو إعجاب أو عرفان أو ولاء سياسيّ أو غير ذلك. ومن هذا الصنف بعض ما نُظم في الإشادة بالجهود التي كان يبذلها الحكّام الموحّدون لحماية الأندلس وردّ الخطر عنها. ولعلّ قصيدة ابن حزمون «حيتك معطّرة النفس» التي نظمها في غمرة نشوة انتصار « الأرك » أن تكون نموذجا صالحا للاستشهاد. ففيها امتزاج بين عاطفة الشاعر الوطنيّة وعاطفته الدينيّة، وفيها عرفان بما قدّم المنصور لقطعة من البلاد الإسلامية، هي وطن الشاعر.
يقول ابن حزمون في أولها:

حيّتك معطّرة النّفَسِ — نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفّار ومأتمهم — إنّ الإسلام لفي عرُس
أإمام الحقّ وناصره — طهّرت الأرض من الدّنس
...وصدعت رداء الكفر كما — صدع الدّيجورَ سنا قَبَس[32]

ونعدّ من نماذج هذا الصنف رائيّة أبي عبد الله محمد بن غالب الرُّصافيّ التي أنشدها عبدَ المومن في المهرجان الذي أُقيم بجبل الفتح. ففيها يبدو ولاؤه للدولة الجديدة واستعداده للسّير في ركابها. وقد أدرك حقيقة ذلك الولاء الدكتور إحسان عبّاس فقال معلّقا على القصيدة المذكورة : « إن قصيدة الرُّصافيّ تدلّ على استعداد أصيل للسير في هذا الاتجاه، أعني الانضواء في ظلّ الدولة

(32) عبد الواحد المراكشي : المعجب -م.س. -ص:213.

...وهو بحكم ثقافته ونشأته من "طلبة الحضر" أي موحّديّ الميول والانتماء. وقد استغلّ في قصيدته المعاني الدينيّة ليعبّر عن جذوة متّقدة حائرة في نفسه، فتكلّم عن الهدى وجبل الطور وقصّة موسى وفتاه يُوشع، متمثّلا فيهما صورة المهديّ ابن تومرت وفتاه عبد المؤمن. وانبثّت المعاني الدينيّة في القصيدة كلّها حتى ليخيّل إلينا أنّ الرصافي كان يتلمّس « المنقذ في عبد المؤمن، وأنّه قد يصبح شاعر "الخلافة الموحّدية" وداعية لها بين قومه في الأندلس»[33]. وقد كان الرصافيّ يوم أنشد تلك القصيدة في نحو العشرين من عمره[34]، أي في مرحلة يطبعها، عادة،الإحساس الحادّ والشعور الفيّاض، وقلّما يعرف صاحبها الملَق والمصانَعة. يستهلّها الرصافي هذا الاستهلال الفريد، فيقول :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور	قبست ما شئت من علم ومن نور
من كلّ زهراء لم ترفع ذؤابتها	ليلا لسار ولم تشبب لمقرور
فيضيّة القدح من نور النبوّة أو	نور الهداية تجلو ظلمة الزور
مازال يقضمها التّقوى بموقدها	صوّام هاجرة قوّام ديجور
نورٌ طوى الله زند الكون منه على	سقط إلى زمن المهديّ مذخور[35]

ثم يواصل مدحه مقدّسا لزعيم الدولة الجديدة، ومجلاّ لِـ «ساعده الأيمن». ويطفح النصّ جلّه بتشبّعه بعقيدة الموحّدين وإخلاصه لدولتهم.

وما نجده من صدق الإحساس في النصّين السابقين نلفيه في القصيدة التي نظمها ابن جُبير في أمير المسلمين صلاح الدين الأيّوبيّ مادحا له وناصحاً. وفيها إشادة بما حقّقه صلاح الدين من نصر على الصليبيّن، وتطهير لبلاد الشام منهم. ويبدو من خلالها حبّ المادح للممدوح وإعجابه به، وعرفانه بصنيعه.

(33) ديوان الرصافيّ البلنسيّ -م.س. -المقدّمة -ص:15-16.

(34) م.ن. -ص:87.

(35) م.ن. -ص:87-88.

يقول في جزء منها:

كســـرتَ صليبهـــم عنـــوة ... فللّـــه دَرُّك مـــن كاســـرِ

...فـــأدبر ملكهـــمُ بالشّـــآم ... وولـــيّ كأمســـهم الدّابـــر

...ثأرت لدين الهدى في العـدا ... فـــآثرك الله مـــن ثـــائر

...فتحت المقـدّس من أرضـه ... فعادت إلى وصفهـا الطـاهر[36]

ويُمكن أن نُدخل في هـذا الصّنف ما نُظـم في مـدح الرسـول ﷺ ممـا سنتناولـه في الحديث الذي سنخصّ به الشعر الديني في هذا العصر؛ كمـا يُعَدّ من هـذا الضـرب ما نجده من مدائح الشـعراء بعضهـم لبعـض، كمـدح الرّصـافيّ البلنسيّ لصديقـه ابـن حَزْبـون[37]، ممـا سنراه في الفصل الذي سنعقـده للإخـوانيـات.

وأمَا الصنـف الآخـر مـن مديـح شـعراء الأندلـس في تلـك الفـترة فكـان وليـد بواعث مادّية. ومادته غزيـرة بالقيـاس إلى مـادّة الصنـف الآخـر. ذلـك أنَّ التكسـب ظل طوال تاريخ المـدح أهـمّ البواعـث. وهـو الـذي غـضّ مـن قيمتـه في نظـر النقّـاد وغـيرهم، ووجّـه المدحـة توجيهـا خاصًّـا[38]. وحتـى وجدنـا مـن يتجـرّد للبحـث في ظـاهرة التكسّب وأثرهـا في الشعـر ونقـده[39].

وإذا كـان بعـض الشعـراء في هـذه الفـترة يلمّحـون إلى تكسّـبهم، وذلك من خلال تنويههم بكرم الممدوح وإشادتهم بسماحته، كما هو الشأن -مثلا- في النص التاليّ حيث يمدح أحدهم أبا إسحاق إبراهيم ابن هَمُشْك:

---

(36) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة -م.س. -599/2/5.

(37)انظر : ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -ص:99.

(38) انظر: ابن قُتيبة: الشعر والشعراء -بيروت -دار إحياء العلوم -الطبعة الثالثة -1407 هـ.- 1987م. -ص:31.

(39) للدكتور درويش الجنديّ كتاب عنوانه : « ظاهرة التكسّب وأثرها في الشعر العربيّ ونقده ».

أبـني همشـك إنَّ إبراهيمكـــم مُحيـي العفـاة وقـاتل الإمــلاقِ
أمدير كأس الجود قد ثمل الورى أنّى لهم صحوٌ وأنت الساقي؟[40]

ـ إذا كـــان بعضهم يكتفـي بذلك التلميح، فإنّ غيره لا يتحرّج من التصريح بتكسّبه. يقول ابن مجبر مستجديا، شاكيا فاقته لأبي حفص عمر والي شرق الأندلس:

أمـيرٌ قـد محـا ظلـم اللّيـالي وأغرقَ جودُه نوبَ الدُّهـور
...جناحي قصّ بالأزمات لكـن بوفرك سوف يُصبح ذا وُفور
ولـو قد رشتَه طـار انتهاضـا فما هو بالمهيض ولا الكسير[41]

ولقد بلغ الاستجداء ببعضهم أن يحدّد ما يريد من ممدوحه، كما فعل أبو الحسن ابن خروف حين قال مستجديا كبشا:

يا من حوى كلّ مجد بـجُوده وبجـــدّه
أتـاك نجْـل خــروف فجـد عليـه بجَـدّه[42]

ويبدو من بعض النماذج التي حُفظت لنا أنّ ما تحدّثنا عنه من رعاية الحكام وغيرهم للشاعر الأندلسيّ لم يكن عامًّا ولا متواصلاً. ويكفي أن نذكر نموذجين لشاعرين يُعتبَران من شعراء الدولة، ونقدّر أنهما عاشا موسرين. أولهما لابن مجبر الذي سبقت الإشارة إلى صلته بيعقوب المنصور، وحرص هذا الأخير على جمع مدائحه في ديوان خاصّ، والآخر لابن حربون الذي ملأت مدائحه في بني عبد المؤمن كثيراً من صفحات كتاب «تاريخ المنّ بالإمامة»[43]. فابن مجبر يستهلّ قصيدة مدح بها

(40) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص:99.

(41) م.ن. -ص:53.

(42) م.ن. -ص:62.

(43)انظر: الصفحات التالية :245-250، 253-255، 256-257، 262-263، 264-266، 325-328، 329-333، 333-334، 348-351، 360-367، 384-387.

رشيـد الموحّدين بما يدلّ على قلّة ذات يده، ويعبّر عن شدّة إملاقـه إذ يقـول:

سأستجدي صغيراً من كبير ... وأرغب في حصاة مـن ثبـير
وأقنـع بالقليـل النّزر ممّـن ... يجود وليس يقنع بالكثير[44]

ثم يصف كساد بضاعته وما كان يُمنى به من حرمـان فيقـول:

ورمـت أخادع الكيّال فيمـا ... لديـه فقـال لي نـزراً بـزور
وأنشـده مـن المـرويّ طـورا ... وطـوراً مـن بنيّـات الضمـير
وأذكر للفـرزدق ألـف بيـت ... وأُكثر في الرّواية عـن جريـر
فقـال لي الذميـم:إليـك عـني ... فليس الشـعر يُقبَل في الشـعير
فلا تخبر عن الأمـم المواضـي ... فإنّك قد سقطت علـى الخبـير
أترجو فطر أهل الصوم عندي؟ ... لقد أصبحت ذا رأي فطيرا![45]

وأمـا ابـن حربـون فقـد عبّر عـن «كسـاد بضاعتـه» في قصيـدة خـاطب بهـا الرصافي البلنسيّ، وعاتب فيها الذين كان ينتظر منهم حمايته فلم يفعلوا. يقول فيها:

مـا للزّمـان -ألا حـرٌّ ينهنهــه؟- ... يفـري أديمـي بأنيـابٍ وأظفـارِ؟
نشـدته حـقّ آدابـي فأشـعرني ... بـأنّ ذنـبيَ آدابـي وأشـعاري
تكنّفتنـيَ منهـا كـلّ مُظلمـة ... كمنت فيها كمون الخمر في القار
إنّي -أبا حسن- قد ضعت بينكم ... وقـلّ مـا ضـاع حـرٌّ بـين أحـرار
أتُسلمون لجور الدّهـر جـاركم ... ولم تضع قـطّ فيكـم ذمّـة الجـار!
...إذا المدائح لم يسـفر لها أمـل ... فخلّـني لمنـاديحي وأسـفاري

وإن ذهب، بعد هـذه الشكوى، يُبدي تصبّره صونـا لكرامـة نفسـه، فقـال:

فقـد عزبت عن الدنيا وبهجتهـا ... وقلت للنفـس صـبراً أمّ صبّـار

---

(44) صفوان بن إدريس :زاد المسـافر -م.س. -ص:52.

(45) م.ن.

ما أصعب الفقر لكنّي رضيت به   لمّا رأيت الغنى في جانب العار[46]

وقد راجعه الرصافي بقصيدة أبدى فيها تعاطفه، وأنحى باللاّئمة على الذين أسلموا صاحبه إلى الضياع، فقال:

عجبتُ من معشر تُمطي مآثرَهم   من الثّناء عليها ظهرَ طيّار
ما بالهم رقدوا في لين عيشهم   عن جارهم وهو محسوم بإقتار
ما كان أقدرهم أن يأخذوا لكمُ   على البديه من الأيّام بالثار

ولكنّه لم يلبث أن أشاد بصيانة ماء الوجه، والقناعة بما قدّر الله من رزق، فقال:

صون الفتى وجهَه أبقى لهمّته   والرّزق جارٍ على حدٍّ ومقدار
قنِعت وامتدّ مالي فالسماء يدي   ونجمها درهمي والشمس ديناري[47]

وكأنّ الرصافي كان يودّ أن يسلك صديقه ابن حربون مسلكه في تنزّهه عن الانتجاع بشعره. ذلك أنّ الرصافيّ، وإن مدح بعض معاصريه كعبد المؤمن وابنه عثمان وابن سعيد والوقّشي وغيرهم، ونال عطاياهم، اتّخذ صناعة الرَّفْو مورداً لرزقه، ورفض أن يُجاري بعض معاصريه في التكسّب بشعرهم. وقد عبّر عن مذهبه ذلك في قصيدة راجع بها صديقه أبا الحسن ابن لبّال الشَّريشي، يقول فيها معتزّا بمذهبه وفنّه، وموضّحًا ما صرفه عن ارتضاء الشعر خطّة:

على أنّي لا أرتضي الشعر خطّة   ولو صيّرت خضرا مسارحي الغبرا
كفى ضعةً بالشعر أن لست جالبا   إليّ به نفعاً ولا رافعا ضرّا
يقول أناسٌ: لو رفعت قصيدة   لأدركت حتماً في الزمان بها أمرا
ومن دون هذا غيرة جاهليّة   وإن هي لم تلزم فقد تلزم الحرّا

(46) م.ن. -ص: 131-132.

(47) م.ن. -ص: 132.

ثمّ يقرّر أمرا قد يغيب عن أذهان كثيرة، هو أنّ الشاعر -بحقّ- «يستطيع أن يحرم الأمراء والملوك أكثر ممّا يستطعون هم أن يحرموه، لأن في يده وسائل التخليد»(48)، فيقول:

متى أرسلَت أيدي الملوك هباتها ... ولم يوصلوا جاها ولم يُجزلوا ذُخرا

فقد سرّني أنّي حرمت علاهمُ ... حليٌ محكَمات تُخجل الأنجم الزّهرا(49)

وربّما كان الرصافيّ يرى مَثَله الأعلى في شاعر أندلسيّ آخر، عاش قبله، هو: أبو إسحاق إبراهيم ابن خفاجة(50) الذي رفض أن يتكسّب بشعره، واكتفى بما وهب له الله من رزق. وقد عبّر هو أيضاً عن مذهبه ذلك في مقدّمة ديوانه(51). وإن كنّا نرى أن موقف الرصافي من هذا الأمر أوضح، و« فلسفته» فيه أعمق.

وقد كان الشعراء المتكسّبون في الأندلس نوعين: أحدهما كان يرتبط بأحد البلاطات ارتباطا متواصلا، ويتقاضى راتبا مُعيّنا فضلا عن هدايا المواسم والأعياد؛ وكان الآخر يجوب البلاد طارقا الأبواب، عارضا «بضاعته» على مختلف الممدوحين(52). ويمثل الصنفَ الأول، في هذه الفترة الشاعر ابنُ مجبر، وذلك

(48) ديوان الرصافيّ البلنسيّ -م.س. -مقدمة المحقّق -ص:17.

(49) م.ن. -ص:77.

(50) هو كذلك من أبناء بلنسية التي تعلّق بها الرصافي تعلّقا خاصّاً.

(51) قال متحدّثا عن عودته إلى الشعر بعد انقطاع، رابطا هذه العودة بمجيء الأمير المرابطي أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف: «ولمّا دخل جزيرةَ أندلس -وصل الله حمايتها وكفايتها! -الأمير الأجلّ أبوإسحاق إبراهيم ...تعيّن عليّ أن أفد عليه مهنئا بالولاية مسلّما...فما لبث أن رفع وأسنى، واصطنع فأدنى... فعطفت هنالك على نظم القوافي عناني، وسننتها عند ذلك حلّا على معاطف سلطاني، مصطنعا، لا منتجعا، ومستميلا، لا مستنيلا، اكتفاء بما في يدي من عطايا منّان، وعوارف جواد وهّاب...». (ديوان ابن خفاجة -م.س. -ص:7-8).

(52) انظر: ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -المقدّمة -ص:16.

بعد أن توثّقت صلته ببني عبد المؤمن، كما يبدو ذلك من كثرة ما نظم في المنصور، منتهزا لذلك شتّى المناسبات. وربّما كان ابن خروف ممّن يمثلون الصنف الثاني.

أما مضمون المدائح فقد لا يتيسّر الإلمام به وتحديد ما اعتراه من تطوّر، وذلك بسبب ضياع كثير من النّصوص. فهل ظلّ شعراء الأندلس في هذه الفترة مقلّدين، يرددون ما حفلت به قصائد المدح التي سبقت، أم جدّدوا فطرقوا ما خلت منه مدائح السابقين؟

يرى بعضهم أن الصلة منعدمة بين المدحة والممدوح في الأندلس. فكلّ قصيدة مدح، إذا حُذف منها اسم الممدوح أمكن توجيهها إلى غيره[53]. وهو رأي يبدو صائبا لأنّنا نجد جملة من المعاني تتردّد فيما لا يحصى من القصائد. على أنّ الباحث المستقصي يُلفي اختلافًا بين مضامين كثير من المدائح: فما كان يمدح به الخليفة مثلاً، ليس هو ما كان يوجّه إلى القاضي؛ وما في بعض المدائح من معان سياسيّة أو عقائديّة أو إشارات تاريخيّة، ليس موجوداً في كلّ المدائح.

وهذا ما نلاحظه في نصوص المدح التي وصلت إلينا من هذا العصر. فقد تضمّنت ما تختلف به عن سواها من المعاني السياسيّة والعقائديّة والإشارات التاريخية، مما يربطها بعصرها دون غيره، وبالذين قيلت فيهم دون سواهم.
على أنّها قد حوت، إلى جانب ذلك، كثيرا من المعاني التقليدية، مما يربطها بشعر المدح عموما في الأندلس وغيرها. فقد أشاد مادحو هذا العصر كغيرهم بكرم الممدوح وشجاعته وما إليهما، ونوّهوا بنسبه[54] وما إليه، وتناولوا بالمدح كلاّ

---

(53) انظر: الجيلالي سلطاني: اتجاهات الشعر في عصر المرابطين بالمغرب والأندلس- م.س.- ص:107 .

(54) كان عبد المؤمن وبنوه يدّعون الانتساب إلى قبيلة قيس، فنوّه جلّ مادحيهم بهذه القبيلة، وأشادوا بأمجادها.انظر -مثلا- ما يقوله ابن حربون، في: ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة- م.س. - ص :387.

من الصفات الخُلقيـة والخَلْقيـة، وأفـاضوا في كلّ ذلك إفاضة السابقـين.

وتجنّبا للتكرار والإملال، نتجاوز ما في مدائح العصر من معـان تقليديّـة،لنقـف على ما حوته من غير تلك المعاني،ممّا يربطها بعصرها وبمن قيلت فيهم. ويُمكن تصنيف ذلك على النحو التـالـي[55]:

1 – المعـــاني العقائديّــــة:

نقف في كثير من قصائد المدح في الشعر العربيّ القديم علـى عـدد مـن المعـاني المتّصلـة بعقيـدة الشـاعر ومذهبـه. مـن ذلـك مـا نجـده في قصـائد شـعراء آل البيـت كالكُميت بن زيد الأسدي في العصر الأمـويّ، ودعْبـل بـن علـيّ الخزاعـي في العصـر العباسيّ. وقد حـوى شـعر ابـن هـانئ الأندلسـيّ شـاعر الفـاطميين مـن هـذه المعـاني ما عـرّضه للطعـن في عقيدتـه[56].

وقد كـانت للموحّديـن عقيـدة خاصـة: فهـم يعتقـدون أنّ محمـد بـن تومـرت داعيـة دولتهـم هـو المهـديّ المنتظـر الـذي أشـارت إليـه بعــض الأحــاديث المنســوبة إلى الرسـول ﷺ، وأنـه معصـوم مـن الخطـإ، وأنّ أتباعـه هـم الموحّــدون الحقيقيّــون؛ أما غيرهم كالمرابطين ومـن إليهـم فهـم «مجسّـمون». وقـد اجتهـد الحكّـام الموحّـدون -لاسـيما عبـد المؤمــن- في إقنــاع النــاس بهــذه العقيــدة ، وفي تنشــئة شــباب المغرب والأندلس عليهـا.

وكان من الطبيعيّ أن تبرز آثار هذه العقيدة فيما نظم شعراء العصر من مدائـح في عبد المؤمن وبنيـه، كما برزت آثار العقيدة الشيعية في مدائح ابن هانئ للمعـزّ لديـن الله الفاطمي. وقد وجدنا أثر هذه العقيدة واضحـا في مدائـح بعـض الشـعراء المغاربـة

(55) اقتدينا،في هـذا التصنيـف،بـالدكتور محمـد اليعلاويّ. انظـر: ابـن هــانئ المغربـيّ الأندلسـيّ، شاعر الدّولة الفاطميّة -بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -د.ط. -1405هـ. -1985م. -الفِهـرِس.

(56) انظر: م.ن. -ص:239-269.

كمحمد ابن حَبّوس الفاسيّ وأبي العُباس الجَرّاوي شاعر الخلافة الموحّدية[57].

بيد أنّنا لم نجد المعاني العقائديّة بارزة بروزا يَلفت الانتباه في مدائح الشعراء الأندلسيّين الذين عاصروا ابن حبّوس والجرّاوي، وشاهدوا ما عرفه أول العصر الموحّديّ من الدعوة إلى المبادئ الموحّديّة، والحثّ على الأخذ بها إلى درجة أن ألّف بعضهم رسالة في إثبات المهديّة والعصمة لمحمد بن تومرت[58].

وإذا كنّا لم نجد هذه المعاني بارزة بالقدر الذي كنّا نتوقعه في جلّ المدائح، فإنّه ينبغي أن نستثني من ذلك قصيدة الرصافي الرائية التي أنشدها الخليفةَ عبد المؤمن يوم مهرجان «جبل الفتح». ففيها من هذه المعاني ما يجعلها نموذجا متميّزاً لشعر العقائد والمذاهب.

وقبل أن نقف عند ما جاء في قصيدة الرصافيّ وغيرها من هذه المعاني، نحاول أن نجد سببًا لخفوتها فيما نظمه شعراء الأندلس من مدح في عبد المؤمن وأبنائه.

إذا جاز لنا أن نردّ خفوتها في المدائح التي قيلت في يوسف ويعقوب المنصور ومحمد الناصر إلى ما اعترى الدعوة إلى المبادئ التي قامت عليها دولتهم من فتور حيث أصبح الشك في مهدية ابن تومرت وعصمته مساورا للخلفاء أنفسهم[59]،

---

(57) يبدو أبو العباس الجرّاوي أكثر تشبّعا بهذه العقيدة. ففي كثير من مدائحه يظهر تحمّسه لها. يقول في مدح أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن :

عن أمركم يتصرّف الثّقلانِ ... وبنصركم يتعاقب الملوان
...هذا مقام المصطفى يا فوز من ... حاز النيابة فيه عن حسّان
من يعرف الرحمن حقًا يعترف ... بحقوقه لخليفة الرحمان

(عبد الله كنّون : النبوغ المغربيّ -م.س. -ص:854).

(58) انظر :عبد المجيد النجّار :المهدي بن تومرت -م.س. -ص:408.

(59) نقصد -بصفة خاصّة- الخليفة الثالث أبا يوسف يعقوب المنصور الذي وصل به الأمر- كما أسلفنا- إلى إنكار المهديّة.

فإنّه لا يمكن أن يقال ذلك فيما قيل في عبد المؤمن الذي كانت هـذه العقيـدة متمكّنـة منـه[60]، وكـان يدعـو إليهـا بحمـاس شـديد. فمـا الـذي أخفـت تلـك المعـاني حتـى في القصائد التي أُنشدت يوم مهرجان «جبل الفتح»،حيث كان مـن المتوقّـع أن تكـون حافلة بالتنويه بالمبـادئ الجديدة، والدعوة إليها؟

لا يخرج ذلك، في اعتقادنا، عن أمرين مجتمعين. أحدهما: أن شـعراء الأندلـس لم يتعوّدوا الخوض في ذلك؛ وثانيهما :أنّ جلّهم كان يعتقد -وإن لم يصرّح- أنّ ذلك لا يخرج عن البدعة، وأنّهم -بحكم سنيّتهم- تعفّفوا عن الخوض فيه بَلْـه الدعـوة إليـه. ذلك أنّه لم يكن من السهل إقنـاعهم بمهديّة ابـن تومـرت وعصمتـه.ويُمكـن أن يُفسّـر بعض ما عرفه العصر من حركات مناوئة بالرفض لتلك المبادئ[61]، لا للدولة كنظام.

ونعود الآن إلى قصيدة الرصافيّ التي كادت تنفرد باحتفالها بـالعقيدة الموحّديـة، فنجد الشاعر يستهلّها بالحديث عن دعـوة ابـن تومـرت فيتصوّرهـا نـاراً لهدايـة النـاس وكشف ظلمة الزور. وذلك ما يتّفق ومعنى الحديث المرويّ من أنّ المهديّ سيظهر يوم يؤول أمر الدنيا إلى أسوإ حال. يقول الرصافيّ:

لو جئت نار الهدى من جـانب الطـور ... قبست مـا شـئت مـن علـم ومـن نـور
مـن كـل زهـراء لم ترفـع ذؤابتهـا ... ليـلا لسـار ولم تشـبب لمقـرور
فيضيّة القـدح مـن نـور النبـوة أو ... نـور الهدايـة تجلـو ظلمـة الـزور

وقد ورد المعنـى ذاتـه عنـد الشـاعر المغربـيّ أبـي العبـاس الجرّاوي[62]، وذلـك في قصيدة أُنشدت في اليوم الذي أُنشدت فيه قصيدة الرصافيّ.

(60) انظر: م.ن. -ص:403-405.

(61) انظر: م.ن. -ص:424 وما بعدها.

(62) ينظر: محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي -بيروت -دار الكتـاب اللبنـاني- الطبعة الثانية -1969م. -ص:182.

ويخلع الرصافي على ابن تومرت من صفات القداسة ما يوحي باعتقاده الراسخ يومئذ في مهديته: فهو صوّام الهاجرة قوّام الدُجى، يغذّي نار الهدى بتقواه:

مازال يقضمها التّقوى بموقدها صوّام هاجرة قوّام ديجور

ويُوغل في الحديث عن هذه العقيدة حين يذكر أنّ ذلك النّور ظلّ كامنا بمشيئة الله في زند الكون حتى جاء المهديّ ليظهره:

حتى أضاءت من الإيمان عن قبس قد كان تحت رماد الكفر،مكفور
نور طوى الله زند الكون منه على سقطٍ إلى زمن المهديّ مذخور

وفي مدحه عبدَ المؤمن يذكر ما يُوحي بتقديسه إياه واعتباره وارثَ أسرار المهديّ: فهو «أمير المؤمنين»، وجبل طارق «طود الهدى»، ودار عبد المؤمن به قائمة على أساسين: «قدسٍ وتطهير»:

يا دارُ دارَ أمير المؤمنين بسفـ ـح الطّود،طود الهدى،بوركت في الدّور
ذات العمادين من عزّ ومملكة على الأساسين من قدس وتطهير

ويستعيد «تاريخ المكان»،فيذكر ما يوحي بأنّ العناية الإلهيّة أبت إلاّ أن تصل بين الماضي والحاضر :أو ليس هذا «مجمع البحرين»؟[63] يقول الرصافي مخاطباً دار عبدالمؤمن:

ما كان بانيك بالواني الكرامة عن قصر على مجمع البحرين مقصور
مواطئٌ من نبيّ طال ما وُصلت فيها الخطى بين تسبيح وتكبير

ويواصل الشاعر مدحه فيصف الخليفة بما يوائم الوظيفة الدينيّة -لاالسياسيّة- التي يضطلع بها: فهو ناسك، ورع، مفطور على التقى وصفاء النفس...

---

(63) يُستبعد أن يكون هذا المكان هو«مجمعَ البحرين» المذكور في: القرآن -سورة الكهف- الآية :60.

ويبلغ الرصافي درجة مـن التعظيـم والإجـلال، حين يدّعي صلة عبد المؤمن بعـالم القـدس، شأنه في ذلك شأن الشعـراء المتشيّعـين، فيقـول:

يلقـاك في حـال غيب من سريرته ... بعـالم القـدس مشهور ومحضور

وتنعكس معـاني التقديس حتى على وصف السـفن الـتي أقلّت الخليفـة من المغرب إلى الأندلس: فهي له سـاجدة حـامدة!:

تسنّم الفلك من شطّ المجـاز وقـد ... نودين ياخير أفلاك العلا سيري

...يومي له بسـجود كلّ محركـة ... منهـا ويوليه حمـداً كل تصديـر

والسـجود للأئمـة جـائز في اعتقـاد أتبـاع الدعـوة الفاطميـة[64].
فهل في هذا البيت ما يشـير إلى جوازه عند الموحّـدين؟

لقد وقفنا في المصادر التي تيسّر لنا الاطلاع عليها على مـا يؤكّـد جـواز تقبيـل يد الخلفـاء عندهـم[65]. ولكنّنـا لم نُلف ما يُشير إلى جواز السجود لهم.

وفي وصف الجبل ما قد يُوضّح شيئا من عقيـدة الموحّدين. فهـل كـانوا يـرون -كبعض الشيعة[66]- أنّ الإمام شافع لأتباعـه؟ وهـل هـذه الشـفاعة مـن حقّ المهـديّ وحده، أم لخلفائه نصيب منهـا؟

إنّ هذا الجبل الذي تشرّف بأن تطأه قَدَمـا عبـد المؤمـن خليفـة المهـديّ لقمين بأن يظلّ مطمئنـا ثابتا يوم ترجُف جبال الأرض، متروّحا بهما ريح الشفاعة مـن ثـرى الإمـام المهـديّ. يقول الرصـافيّ:

---

(64) كان الدُعاة الفاطميّون يجتهدون في إقناع الناس بذلك، فيميّزون السجود للأئمة عـن السجـود لله، ويحاولون القياس على سجود إخوة يوسف وأبويـه لـه.ذلـك السـجود الـذي لم يعبـه الله. ينظـر: محمد اليعلاوي: ابن هانئ -م.س. -ص:254.

(65) انظر -مثلا-: ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:121.

أخلق بـه وجبـال الأرض راجفـة أن يطمئنّ غـدا مـن كـلّ محـذور
كفـاه فضـلا أن انتـابت مواطئـه نعلا مليك كريم السعي مشكور
مستنشئا بهمـا ريح الشفـاعة من ثرى إمامٍ بأقصى الغرب مقبور

ويختـم الرصـافي هـذه القصيـدة بمـا كـان يـتراءى لـه في المهـديّ وخليفتـه، فيشبّه المهدي بالنبيّ موسى -عليه السلام-، ويشبّه عبد المؤمن بفتاه يوشع، فيقول:

وإنمـا هـو سـيف الله قلّـده أقـوى الهـداة يـداً في دفـع محـذور
فـإن يكـن بيـد المهـدي قائمـه فموضـع الحـدّ منـه جـدّ مشـهور
والشمس إن ذكرت موسى فما نسيت فتـاه يُوشَـع قمّـاع الجبابـير(67)

وللرصافيّ البلنسيّ غير هذه القصيدة في الموحديـن، ولكنّا لا نجد أثر العقيدة في ذلـك واضحـا وضوحـه في هـذه. فهـل ظـلّ الرصـافي علـى اعتقـاده الـذي أبرزتـه هـذه القصيـدة،أم خـامره بعض الشك حينمـا تقدّم بـه العمـر؟

لا نستبعد أن يكون الأمـر كذلـك. فقصيدتـه هـذه قـد قالهـا -كمـا أسلفنا- وهو في نحو العشرين من عمره، فكانت وعاء لما تلقّـاه مـن تعـاليم موحّديـة ممّـا كـان عبـد المؤمـن يحـرص علـى تلقينـه للناشـئة في أرجـاء مملكتـه(68). أمـا قصـائده الأخـرى فقد قالها بعد أن تجاوز هذه المـرحلة وخبـا تـأثّره بتلك التعـاليم.

---

(66) يقول ابن هـانئ في قصيدة يمدح بها المعز لدين الله الفاطميّ:

هذا الذي تُرجى شفاعته غـدا حقّـا، وتخمـد أن تـراه النـار

(ديوان ابن هـانئ -نشـر كـرم البسـتاني -بيروت -دار بيروت للطباعة والنشر -د.ط.-1400هـ-1980م. -ص:146).

(67) ديوان الرصافيّ البلنسيّ -م.س. -ص:87-97.

(68) قال الدكتور عبد المجيد النجّار : «كان [عبد المؤمن] يركّز تعـاليم المهـدي في الناشـئة خاصّـة، حتى يشبّـوا على الإيمان به والانطباع بآرائه. ومن ذلك أنّه كان يستجلب الصبيـان مـن الآفاق في إرساليّـات تعليميّـة، ويـأمـر بتلقينهـم تعـاليمَ المهدي ومؤلفـاته» (المهديّ بن تومرت -م.س. -ص:404-405).

أما أثر العقيدة الموحّدية في غير رائية الرصافيّ فهو -كما أسلفنا- غير بارز بروزه فيها. ومن القصائد التي نجد فيها بعض ذلك الأثر: قصيدة لأبي الحكم ابن رضى البلنسيّ حيث يبدو إيمانه بمهديّة ابن تومرت. وقد أنشدها الخليفةَ أبا يعقوب، وفيها يقدّس عبد المؤمن وبنيه: فهو حواريّ المهديّ الأسنى وصفوته وسيفه، وبنوه مصابيح الهدى. يقول:

مسامري وخبير القوم مسؤولُ ... حدّث فقولك مسموع ومقبول

...ألست عن سير المهديّ تُخبرنا ... ومن عن الله نبّى عنه جبريل

وعن حواريه الأسنى وصفوته ... وسيفه حين سيف الدّين مفلول

وعن بنيه مصابيح الهدى ظهرت ... في كلّ داجية منهم قناديل(69)

ونجد أثر تلك العقيدة أيضا في بعض الأبيات من قصيدة طويلة(70)، قد يكون قائلها أبا بكر ابن طفيل، يمدح فيها صاحبُها عبدَ المؤمن بمناسبة وصول مصحف عثمان ﷺ إليه(71). وفيها يذكر المهديّ وينوّه بما بسطه من عدل على وجه الأرض، أزال به ما كان يكتفنها من جَوْر:

سلام على المهديّ أمّا قضاؤه ... فحتمٌ وأما أمره فمؤكَّدُ

إمام الورى عمّ البسيطةَ عدلُه ... على حين وجه الأرض بالجَوْر أربد

وهو هنا يردّد مضمون الحديث المرويّ في شأن الإمام المهديّ المنتظَر، كما فعل ذلك الجرّاوي وغيره.

ثم يتحدّث عن خليفة المهديّ فيذكر ما يشير إلى أنّه وارث سرّه، وأنّه مؤيَّد من عند الله: فهو إذا «همّ فالحكم الإلهيّ يُسعده»، و«كتائبُه مشفوعة بملائك».

(69) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمامة - م.س. - ص :422.

(70) المقّري : نفح الطيب - م.س. - 608/1-611.

(71) عن عناية الموحدين بمصحف عثمان، انظر : م.ن. - ص :605-615.

وفي هذا ما يذكّر بما نجده في مدائح ابن هانئ الأندلسيّ التي نظمها في المعز لدين ا الله الفاطمي(72). يقول الشاعر:

ولما مضى والأمر لله وحده | وبُلّغ مأمول وأُنجز موعد
تردّى أمير المؤمنين رداءه | وقام بأمر ا الله والناس هُجَّدُ
...مشيئته ما شاء ا الله، إنّه | إذا همّ فالحكم الإلهيُّ يسعد
كتائبه مشفوعة بملائك | ترادفها في كلّ حال وترفِد

ونختم هذه الشواهد بقول أبي العباس أحمد ابن سيّد الإشبيلي المعروف «باللصّ». وذلك في قصيدة مدح بها عبد المؤمن، حيث يُشيد بالخلافة الموحّدية:

هذي الخلافة لا خلافةَ بعدها | جاءت على الهَدْيِ القويم الأوجبِ(73)

وبقول أبي الوليد إسماعيل بن عمر الشِّلْبيّ المعروف «بالشواش» حيث يمدح عبد المؤمن:

الحقُّ عند إمام حقٍّ مُجتبى | يَهدي الأنام إلى الطريق اللاّحبِ(74)

فاعتبار الخلافة الموحديّة آخرَ خلافة تُقيم العدل وتقضي على ما ملأ الأرض من جَوْر، واعتقاد الإمام مختارا من عند ا الله لهداية البشر: ممّا تتضمنه العقيدة الموحديّة التي كان عبد المؤمن ومن إليه جادّين في إقناع الناس بها، وتنشئة الشّباب عليها.

---

(72) من ذلك ما يقوله من قصيدة مدح بها المعزّ بعد انتصاره على الرّوم حيث يذكر تأييد الملائكة لجنوده:

ولله ممّا لا يرون كتائب | مُسوّمة تحدو بها، وجنودُ
أطاع لها أنّ الملائك خلفها | كما وقفت خلف الصفوف ردود

(ديوان ابن هانئ -م.س. -ص:98).

(73) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:168.

(74) م.ن. -ص:209.

على أننا إذا سلّمنا بصدق بعض الشعراء الذين تناولوا هذه العقيدة في أشعارهم، كالرصافي مثلا، فإننا لا نستبعد أن يكون بعض الذين فعلوا ذلك متزلّفين للحاكم، مدّعين اعتقادَ أمور لم يقتنعوا بها[75].

2- المعـــاني السياســـيّة:

كانت المدائح في جميع عصور الأدب العربيّ وثائق تتبدّى لنا من خلالها المواقف السياسية. ذلك أنّ المادح كان يسير دوما في ركاب الممدوح مخلصا له، أو متزلّفا إليه مصطنعاً الولاء.

ولم يخرج المدح في الأندلس عن هذه القاعدة. ففي العهد الأول من عصر الموحّدين لم يخل أغلب المدائح من المضمون السياسيّ.

ففي جلّ هذه المدائح يبدو ولاء الشاعر الأندلسيّ للحاكم الموحّديّ. وليس من شكّ في أنّ ولاء البعض كان خالصا. إذ رأى في الموحّدين حماة للأندلس من خطر النصارى الذين صمّموا على استرداد البلاد بعد أن أحسّوا بضعف المسلمين فيها، كما رأى فيهم موحّدين للصفّ قاضين على التفرقة، إذ آلت البلاد قبيل دخولهم إلى عهد آخر لملوك الطوائف.

وإذا كانت العاطفة الوطنيّة هي التي بعثت بعضهم على أن يسيروا في ركاب الحاكم الجديد، فإنّ للعاطفة الدينيّة أثرها. إذ رأى بعضهم أنّ دولة ترفع شعار الدين

---

(75) يُمكن أن نستشهد على ذلك بما نجده في شعر الشاعر المغربيّ ميمون الخطّابيّ من طعْن في مهديّة ابن تومرت، وذلك بعد أن أعلن المأمون الموحّديّ إنكاره للمهديّة، وأبطل رسوم أسلافه. ومما قاله ميمون الخطابي منتقدا ابن تومرت:

وحد النبوّةَ حلّة مطويّة ... لا يستطيع الخلق نسج مثالها

فأسرُّ حسوا في ارتغاء يبتغي ... بمحاله نسجا على منوالها

(عبد الله كنّون: النبوغ المغربي -م.س. -ص:912).

وتدافع عن حياض الإسلام[76] خليقة بالانضواء تحت لوائها والاحتطاب في حبلها.

ويتوزّع المضمون السياسيّ لتلك المدائح بين تمجيد الحاكم الموحّدي والإشادة بأعماله، وبين التّحامل على أعدائه وتشنيع فعلهم، سواء أكانوا نصارى أم مسلمين.

يقول أبو الحسين ابن فندلة مُشيدا بما حققّه عبد المؤمن من فتوح شرقا وغربا، مشيرا إلى ما له من فضل على بلاد الأندلس.

لتهن أندلسا [كذا] أن زارها ملك ... أحيا وأنشر فيها ميّت الأمل

...حتّى إذا استوسق الأمر العليّ له ... بالشرق كرّ لنصر الغرب في عجل

...أضحى بكرّته الإسلام في جذل ... والمشركون وأهل الكفر في جدل[77]

وقد تحامل الشاعر الأندلسيّ على كل المناوئين لدولة عبد المؤمن وبنيه، وندّد بأعدائها. وكان من الطبيعيّ أن يتحامل، في بداية الأمر، على المرابطين الذين سقطت دولتهم تحت ضربات الموحّدين. وكان ابن تومرت وأتباعه -كما أسلفنا- يعتبرون أنفسهم هم الموحّدين حقّا. أمّا المرابطون فكانوا يلقّبونهم «بالمجسّمين». وإذا كانت نصوص المدح التي بين أيدينا خالية من ذكر المرابطين فإننا نعتقد أنّ نصوصا أخرى، قد ضاعت، ندّد فيها الشعراء بالمرابطين وتحدّثوا عن «تجسيمهم»

---

(76) لعل ما كان يشعر به ابن جُبير هو شعور كثير من الأندلسيّين. قال مقارنا بين المشرق والمغرب على عهد الموحّدين: «وليتحقّق المحقّق ويعتقد صحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلاّ ببلاد المغرب، لأنهم على جادّة واضحة لا بُنيّات لها. وما سوى ذلك بهذه الجهات الشرقيّة فأهواء وبدَع... كما أنّه لاعدل ولا حقّ ولا دين على وجهه إلاّ عند الموحّدين،أعزّهم الله. فهم آخر أئمة العدل في الزمان؛ وكلّ مَن سواهم من الملوك في هذا الأوان فعلى غير الطريقة» (ابن جبير : رحلة ابن جبير ـ الجزائر ـ موفم للنشر ـ د.ط . ـ د.ت. ـ ص48).

(77) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمامة ـ م.س. ـ 156-158. وفيه : « أحيى» .

وأبدَوا شماتتهم بهم عند وصف هزائمهم[78].

وكانت عدّة قبائل في الجهات الشرقية من بلاد المغرب قد رفضت الدخول في طاعة الموحدين،فحاربها عبد المؤمن حتى هزمها فقال الشاعر الأندلسيّ ابن سيّد الإشبيلي منددا بها، ذاكرا ما أصاب قبيلة «رياح» إحداها من بطش عبد المؤمن:

ومضت على حدّ الحسام أعاربُ   نكثوا عهودا أُبرمت في يَعْزُب
...أولى لهم من بطشة قَيْسيّة   أخذ البريء بها بذنب المذنب
... لم لا، وما ذكرت رياح يومها   إلاّ أراها الطّفلَ مثل الأشيب؟[79]

ثم ذهب يوبّخها على عدم اقتدائها بالقبائل العربية التي «وحّدت» ودخلت في طاعة عبد المؤمن:

هلاّ اقتدوْا بسراة قَيْس إنّها   حازت بمنسمها كريمَ المنصبِ
...وربيعةٍ وكفائها من زغبة   أهل المعالي في الجناب الأقرب[80]

ومثل ذلك الموقف وقفه بعض شعراء الأندلس من الثائرين على الحاكم الموحّديّ: فعندما فتك أبو حفص عمر بن عبد المؤمن بأهل جبل «تاسررت» لمّا ثاروا على السلطة الموحّديّة أنشده الشاعر ابن حربون قصيدة يصف فيها ما حلّ بهم، شامتا، يقول فيها:

---

(78) وقفنا على مطلع قصيدة نظمها أبو محمد عبد الله الجيّاني يهنّئ فيها عبد المؤمن بمناسبة أحد انتصارات الموحّدين على المرابطين، قال فيه :

أضاءت لنا الأيام واتصل النجح   كأنّ وجوه الدهر مسودّة كلحُ

فأجابه عبد المؤمن بقوله :

هو الفتح لا يجلو غرائبَه الشرح   أصاب بني التجسيم من بأسه ترحُ

(الحلَل الموشيّة - م.س.ص:156-157).

(79) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمامة - م.س. - ص :168-169.

(80) م.ن. - ص 169.

لقد ركبوا مركب الجاهلين	والجهل من شر ما يركبُ
...تركتَ ديارهم بَلْقَعا	فتندب من جاءها يندب
...فمزّقتمُ شملهم في البلاد	ففلّهم جمل أجرب[81]

وعندما دمّر يعقوب المنصور مدينة «قفصة» تدميرا فظيعا[82]، بارك ذلك الشاعر الأندلسي من غير ما تحفّظ، فنظم ابن مجبر شاعر المنصور قصيدة يصف فيها الحادث. يقول فيها ذاكرا رفض قفصة للدعوة الموحّديّة ورجْم المنصور لها:

ما غرّ قفصةَ إلاّ أنّها اجترمت	فلم يكن عند أهل الحلم تثريب
ما بالها زار أمر الله حوزتها	فلم يكن عندها أهلٌ وترحيب
توهّمت أنّ أهل البغي تمنعها	وقلّما حمت الشّهدَ اليعاسيب
تلك البغيّ التي خانت فحاق بها	وبالزّناة بها رجمٌ وتعذيب
ترمي المجانيق بالأحجار فضلة من	رمتهمْ منهمُ الجُرْد السراحيب
من كلّ ملمومة صمّاء حائمة	على النفوس فتصعيد وتصويب
يقول مبصرها في الجو صاعدة:	هذا بلاء على الكفار مصبوب[83]

وإذا كنّا لا ندري ما بعث الشاعر على قول هذه القصيدة: أهو الولاء الخالص، أم التزلف والمصانعة؟ فإن تبرير أعمال الممدوح ومحاولة تزيين قبيحها ظاهرة

---

(81) م.ن. - ص 361.

(82) قال ابن عبد المنعم الحِمْيَري: « ثم نزل عليها ... المنصور يعقوب،وذلك سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، فأخذت المحلات بمخنقها، وتمادى الحصار والقتال عليها، ورماها بأحجار المنجنيق حتى حكم عليها فهدم سورها وحرقها بالنار، وقتل الناس المحكومَ عليهم فيها ذبحا، وقطع شجرها وغيّر بهجتها، ونزع الحسن عنها.» (كتاب الروض المعطار،في خبر الأقطار - تحقيق إحسان عبّاس - بيروت - دار القلم - د.ط . - 1975م. - ص 479).

(83) م.ن.

نجد لها أمثلة كثيرة في شعر المدح بالأندلس[84].

3- الإشـــارات التاريخـــيّة:

تضمّن شعر المدح في الأندلس في تلك الفـترة عـددا مـن الإشـارات التاريخيّـة، مما يجعل نصوصه وثائق تعضُد كتابات مؤرّخـي العصر الموحّـدي. ولـو وصلـت إلينـا المدائح كلّها لكانت كافية لتَمثّل جلّ أحداث العصـر. وإن كـان شـعر المـدح لا يُمثّـل بتسجيله للأحداث التي عاصرها إلا الراوية الرسميّة، مما ينفي عنه الحياد الواجب توفّـره في التأريخ للأحداث.

ومن الإشارات التي حوتها نصوص المديح مـا يتعلّـق بـأحداث المغـرب، ومنهـا مـا يتّصل بما كان يجري على ساحة الأندلس. وحتّى تتّضح مواكبة شعر المدح لما وقـع من أحداث،نحاول عرض جملة من تلك الإشـارات مـن عهـد كـلّ واحـد مـن الخلفـاء الموحّدين الذين أظلّهم ذلك العصر.

لقد واكبت أشعار المـدح في الأندلـس بالتسـجيل كثـيرا مـن أحـداث المغـرب والأندلس على عهد الخليفة عبد المؤمن بـن علـيّ. فقـد وصفـت فتوحاته في الجهـات الشرقيّة من بلاد المغرب، فذكرت فتحه مدينة المهديّة بعد حصارها، وسجّلت انتصاره على القبـائل العربيّـة الـتي رفضـت الدخـول في طاعتـه، كمـا وصفـت تلـك الأشـعار جوازه إلى الأندلس وإقامته بجبل طـارق، وأشـارت إلى مـا كـان الموحّـدون يخوضونـه من صراع ضدّ النصارى من جهة، وضدّ ابن مردنيش الذي اسـتقلّ بشـرق الأندلـس، من جهة أخرى...

يتحدّث ابن عيّـاش -في قصيدة مدح بها عبد المؤمـن- عـن فتوحـات الخليفـة للجهـات الشـرقيّة، فيصـف حصـارهلمدينـة المهديّـة الـّتي كـان نصـارى صقليّـة قد احتلّوها، ويذكر عفوه عنهم بعد أن تمكّن منهم، فيقول:

---

(84) انظر - مثـلا - : ابن بسّـام : الذخيـرة - م.س. - 543/1/1.

وحين غادرها طول الحصار لها ... كأنّها مركب أشفى على العطبِ
ألقت إليك بأيدي الذلّ طائعة ... ومكّنتك من المسلوب والسّلب
سار العلوج وفي أعناقهم مِنن ... من عفوِ مقتدر للغزو منتدب
مدّوا الأكفّ للمس النجم من فرح ... وشمّروا لوثوب البحر من طرب[85]

ثم يذكر ابن عيّاش،بعد ذلك، قتال عبد المؤمن لقبيلة «رياح» العربيّة التي أبت الخضوع له، ويصوّر مصرع رئيسها «زياد» فيقول:

صدرت بالعرب العرباء وانقلبت ... عن الحسام «رياح» شرّ منقلب
فكان سيفك نقّاداً له بصر ... نفى الزيوف وأبقى خالص الذهب
وردّ رأس «زياد» ماله جسد ... من مارن بالدم الفوّار مختضب
ألقته عن ظهرها جرداء جامحة ... لو أنّها مسحت من خدّه التّرب[86]

أمّا جواز عبد المؤمن إلى الأندلس فتناولته جلّ القصائد التي أُنشدت يوم المهرجان الذي أقيم بجبل طارق للبيعة وإعلان الطاعة والولاء. وقد مرّ بنا وصف الرصافي البلنسيّ لذلك الجواز متحدّثا عن السفن ودار الخليفة وغيرها.

ومن القصائد التي سجّلت ذلك الحادث رائيّة أبي جعفر أحمدابن سعيد. وفيها يقول:

أطلّ على أهل الجزيرة سعدها ... وصدّقها من ذلك الخبر الخُبرُ
فما «طارق» إلاّ لذلك مطرق ... و«لابن نصير» يكن ذلك النصر
هما مهّداها كي تحلّ بأفقها ... كما حلّ عند التّمّ بالهالة البدر[87]

وقد سجّلت آخر القصائد التي مُدح بها عبد المؤمن انتصار الموحّدين بالأندلس

(85) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:162.
(86) م.ن. -ص 162-163.
(87) مولّف مجهول: الحلل الموشيّة -م.س. -ص:156.

في موقعة «السبيكة» التي كانت سنة 557هـ.،قبل عام من وفاة الخليفة. فقد أشار إلى هذا النصر أبو الوليد إسماعيل بن عمر المعروف «بالشواش» في قصيدة يهنّئ فيها الخليفة على ما تحقّق، يقول فيها:

يوم العروبة أعربت فتكاته ... في الكفر عن فتح مبين راتبِ
وتيقن الأعداء أنّ حِماهم ... من بعد هذا اليوم نهب الناهب[88]

ولعلّ الشاعر لم يكن مبالغا في نقل ذلك الحدث، فقد وصفه ابن صاحب الصلاة -وإن كان مؤرّخا رسميا باديَ التشيع للموحّدين- بأنّه «الفتح الذي أحيا جزيرة الأندلس» [89].

وننتقل الآن إلى عرض بعض ما ورد في المدائح من إشارات إلى ما عرفته بلاد المغرب والأندلس من أحداث في عهد الخليفة الثاني أبي يعقوب يوسف ابن عبد المؤمن. فقد كان شعراء الأندلس كابن حربون وغيره، مواكبين بمدائحهم لكل ما يقع مهما كانت أهميته. وهكذا نجد قصائد المدح تسجّل بيعة أبي يعقوب بعد وفاة أبيه، ثم تذكر، بعد مدة من ذلك، تسميته «بأمير المؤمنين»، وتصف ما أحدثه من رسوم. ولم ينس المادح الأندلسيّ أن يسجّل انتصارات الموحّدين، في ذلك العهد، في المغرب والأندلس. وقد وجدنا في قصائد المدح وصفاً للجهود التي بُذلت للقضاء على تمرّد ابن مردنيش إلى أن كانت نهايته في وقعة «الجلاب».

ففيما يتعلّق ببيعة أبي يعقوب نجد عدّة مدائح تسجّل هذا الحدث، ويشير بعضها إلى ما سبقه. ويبدو أنّ أبا يعقوب بذل جهودا لتتم له تلك البيعة[90].

---

(88) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:209.

(89) م.ن. -ص:208. وفيه: «أحيى».

(90) يقول روجي لي تورنو: «إن أبا يعقوب، عن طريق الدبلوماسيّة الماهرة وكذلك عن طريق القوة الغاشمة، تمكّن من تذليل سائر الصعوبات، واعترف به الجميع آخر الأمر خليفة» (حركة الموحّدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر -م.س. -ص:80).

فقد كان أبوه ولّى العهد قبله أخاه محمداً، ولكنّه خلعه عندما رأى منه ما يوجب خلعه ليولّي مكانه يوسف. وكان على إخوة يوسف أن يبايعوه بعد وفاة أبيهم.

ولكن الذي حدث أن بعضهم قد تلكّأ في بداية الأمر[91]. وهكذا لم تتمّ بيعة أبي يعقوب إلا بعد مدّة من وفاة أبيه. وقد وصفت المدائح هذا الحادث مشيرة إلى ما قرّره عبد المؤمن من نقل ولاية العهد إلى ابنه يوسف وما كان من تلكّؤ بعض إخوته بعد وفاة أبيهم.

يقول أبو الوليد إسماعيل بن عمر المعروف «بالشواش» مشيرا إلى حسن اختيار عبد المؤمن يوسف وليّا لعهده. وفي قوله تلميح إلى عزل أخيه محمد:

شكرا لمولانا الخليفة إنّه بمقامه الأرضى يُحاط الدينُ
ولّى الأمانة أهلها وسما لها بغنائه رحب الذراع أمين
لم يعده الرّأي السّديد، وهديه بجميع أحوال الصّلاح ضمين[92]

ويقول أبو بكر ابن المنخّل الشلبي في نفس المعنى، مخاطبا يوسف:

(91) وصف ابن صاحب الصلاة ذلك التلكّو،فقال من جملة ذلك : «وأما السيّد أبو محمد عبد الله فأقام ببجاية ...يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى،ويرى الرأي ويكرّره...ولم تزل مخاطبة الأمير إليه بالاستلطاف والا ستدعاء،والجواب منه بالعِدة في النّظر بالزّماع إلى ذلك الإخاء،فمطَل نحو سنة ونصف.واعتذر عن الوصول ...» (تاريخ المنّ بالإمامة - م.س. - ص 239). ثمّ قال : « وأما السيد أبو سعيد عثمان فتوجّه إليه، عن الأمير، الحافظ المرحوم أبو عبد الله بن الشيخ المرحوم أبي إبراهيم ومعه الحافظ الأجلّ أبو يحيى بن الشيخ المرحوم أبي حفص والحافظ أبو الربيع سليمان بن داود، فتمارض عند وصولهم واعتلّ، وأطال الالتواء واختلّ، وارتبط لهم ثم انحلّ. فرجعوا من عنده إلى الأمير بمراكش بمواعيد» (م.ن.).

(92) م.ن - ص 242.

صدقــتْ أمــيرَ المؤمنــين فِراســـةٌ   لاحت كضوء الصبح حين ألاحهـا
ولكنّهــا عـــين اليقـــين بأنّهــا   قد أوقدت بك للهدى مصباحها[93]

ولعلّ فيما يقول ابن حربـون تعريضا بـإخوة يوسـف الذيـن تلكّؤوا عـن بيعـة أخيهـم. فهـو يصفهـم بـالعداوة والحسـد، وهـو وصـف يتّفـق ومـا جـاء في بعـض المصادر[94]. يقول ابن حربون:

رأيت العدى قد أخلفتهم ظنونهم   مذ انتجزت للدّين هـذي المواعـدُ
فما زلتـمُ ترقـون حتّـى انتهيتـمْ   إلى مستوى لا يرتقـي فيـه حاسـد
فجـاءك برهـان من الله صـادع   يُقِرّ به من لم يزلْ وهو جـاحد[95]

وكمـا سـجّلت المدائـح خـبر بيعـة أبـي يعقـوب حاكمـا بعـد أبيـه، لم يفتها أن تسجّل حادثا آخـر لـه أهمّيّتـه في رسـوم الدولـة.فقـد تلقّـب أبـو يعقـوب في سـنة 563هـ.، أي بعـد وفـاة أبيـه وتولّيـه هـو الأمـر بنحـو خمـس سـنوات، تلقب «بأمير المؤمنين»[96]. وهو لقب كان حمله أبوه قبله ابتـداء مـن سنة 528هـ[97].

قال ابن حربون ذاكـرا الحـادث:

فأصـدع أمـير المؤمنـين بدعـوة   لم تترك صممـا بسـمع الجلمـدِ

(93) م.ن. –ص:243.

(94) قال ابن صاحب الصلاة متحدّثا عن موقف السيد أبي الحسن عليّ: «...وفي نفسه علّة من ذلك الحسد... يظهر إخاء وفي طيه حقودا [كذا] » (م.ن. - ص 239).

(95) م.ن. –ص:246.

(96) لم يجرؤ الأمـراء المرابطون، قبلهم، على التلقّب بهذا اللقب. واكتفوا بلقب « أمير المسلمين»، حمله يوسف بن تاشفين، ثم ابنه عليّ من بعده.

(97) كان عبد المؤمن يرى نفسه جديرا بهذا اللقب. انظر:م.ن. –ص:338–ح1.
ولقد قال –كما أسلفنا– معلقا على إحدى القصائد التي مُدح بها : «بمثل هذا تمدح الخلفاء!».

يهني الخلافة أن لبست رداءها وقعدت منها اليوم أشرف مقعد

...علقته ميمون النقيبة زاهدا لم يشتغل بدَد ولا هو من ددا![98]

وقد حظيت حفلات البلاط الموحّديّ في عهد أبي يعقوب باهتمام شعراء المدح في الأندلس فسجّلت قصائدهم بعض مظاهر تلك الحفلات، كما وصفت مظاهر استقبال الخليفة بمدن قرطبة وإشبيلية. ففي سنة 566هـ.جاز أبو يعقوب إلى الأندلس، فاستقبله الإشبيليّون استقبالا، وصف حفاوته[99] الشاعر ابن سيّد فقال متحدّثا عنهم:

وقفوا على سُوق لرؤية وجهه وبودّهم أنّ الرؤوس الأسوقُ

رمقوا بأبصار إليه، وعنده أنّ القلوب لها عيون ترمُق

برزوا ليوم بروزه في عارض يعيا اللّسان لوصفه والمنطق[100]

و لم يكن الشاعر الأندلسيّ ليترك ما كانت حكومة أبي يعقوب تخوضه من صراع. فلقد حوت المدائح إشارات إلى ما عرفته فترة حكمه من ذلك للصراع في الأندلس والمغرب.

ففي الأندلس كان عليه -كما أسلفنا- أن يقضي على تمرّد محمد ابن مردنيش الذي استقلّ إلى حين بشرق الأندلس، وغدا متحدّيا للوجود الموحّدي في شبه الجزيرة. فواكب شعر المدح بالتسجيل أحداث ذلك الصراع إلى أن كانت هزيمة ابن مردنيش ومآلُ ملكه إلى أبي يعقوب. يقول أبو الحسن ابن عيّاش مندّدا

---

(98) م.ن. -ص:348.

(99) كان أبو يعقوب متعلّقا بإشبيلية. يبدو ذلك من كثرة إقامته فيها، ومن منشآته العمرانيّة بها.ينظر :حسين مؤنس: رحلة الأندلس -القاهرة- الشركة العربيّة للطباعة والنشر -الطبعة الأولى- 1963م. -ص:136 وما بعدها.

(100) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمامة -م.س.-ص:456. وفيه «يعيى».

بابن مردنيش وأتباعه ذاكرا تحالفه مع النصارى ضدّ الموحّدين:

وأرى الشّقيّ بن الشّقيّ تغـــرّه فئـة أضـلّ ضلالها إسـلامَها
ليس ابن سعد حلف سعد إذ غدا حلف النصارى عاضدا أحكامها

ثمّ يهدّده محذّرا إيّاه سوء المصير إذا لم «يوحّد» ويتُب:

فلسوف يُصبح في الفضاء مجدّلا إن لم تطهّر نفسه آثامها
ويعدّ للتوحيد كفّ ضراعة بعتاب نفس راحضا أجرامها[101]

ويتحدّث ابن سيّد عن «مروق» ابن مردنيش ورفضه الدخول في طاعة الموحّدين، فيقول ساخرا:

جنّ ابن سعد بالنفاق جنونه وطغى إلى أن بات فيه الأَولَقُ
نظمت له جرد العتاق تمائما ليست على أهل الجنون تُعلّق
فقضى حصيرا إذ تيقّن أنّه إمّا قتيل أو أسير مُوثَق
غرّ الشّقيّ بنأيكم عن أرضه جهلا وظنّ بأنّه لا يلحق[102]

وفي الشواهد السابقة وغيرها ما يشير إلى ما عاناه الموحّدون في القضاء على إمارة ابن مردنيش، وإن كان الشعر لا يصوّر الحقيقة إلا بمقدار.

وفي المدائح التي نظمت في ابن مردنيش إشارات إلى ما وصل إليه من عزّ وما بلغته إماراته من قوّة. يقول أبو محمد المكناسيّ على لسان مظلّ صنع لابن مردنيش.

تكلّلني جبين الملك تاجا فتحسد موضعي روم وفرسُ
يفيء عليه ظلّي وهو ظلّ وأثني الشمس عنه وهو شمس[103]

---

(101) م.ن. –ص:460.

(102) م.ن. –ص:454-455.

(103) صفوان بن إدريس: زاد المسافر –م.س.–ص:76.

ويقول من قصيدة منوّها بابن مردنيش :

أحرجتَ ليث الغاب في أشباله ... بالله كيف رأيت في إحراجه؟ (104)

طبّ بأدواء الزمان وأهله ... يُعطي العليل بقدْرِ سوء مزاجه

ولم يكن أبو يعقوب صارفا كل جهوده في الأندلس للقضاء على تمرّد ابن سعد، وإنما كان يواجه تحدّي النصارى في أكثر من موقع. ولقد سبق أن أشرنا إلى ما بذل،في حماية أطراف البلاد، من جهود إلى أن لقي مصرعه على أبواب «شنترين». ولم يفت الشاعرَ الأندلسيّ أن يشير في مدائحه إلى ذلك الصّراع المتواصل الطّويل.

وحسبنا أن نستشهد من تلك الإشارات بما ذكره ابن حربون في قصيدة مدح بها أبا يعقوب حيث وصف تحرير مدينة بطليوس بمساعدة «فرنانده».وكان قد غلب عليها «ابن الرنك» وحاصر الموحّدين بها(105). يقول ابن حربون مشيرا إلى المساعدة التي قدّمها « فرنانده» :

أليس من الآيات أن بتّ وادعا ... وقيصر قد أمسى لأمرك خادما؟

ثم يصف مصرع «ابن الرنك» على يد بني دينه :

وكيف رأى ابن الرنك مركب بغيه ... إذا اعتاض من دُهْم الجياد الأداهمَا

...لقد رام منها سهدة مااستساغها ... ولا لاكها حتّى استحالت علاقما

وبادرها للحين وثبة هاجم ... فصادف وثّابا لمبناه هاجما

ثم يشير، بدعوته أبا يعقوب إلى الجهاد بالأندلس، إلى معاناة بلاده تكالبَ النصارى عليها إلى درجة أن دبّ اليأس إلى نفوس مواطنيه:

---

(104) م.ن.- ص: 77 .

(105) انظر تفصيل أحداث حصار بطليوس وفكّه عنها في: ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة - م.س.-ص:380-383.

وإنّي لأرجو للجزيرة كـــــــــرّة — تُعيـد عليهـا عهدهـا المتقادمـا
ببطشــة غيرا ن الحفيظــة مُغضَـب — إن انتهـك الأعـداء تلـك المحارمـا
ولو أنصف المقـدار منكـم بـزورة — لأحييتـم تلـك العظـام الرمايمـا
...وأنـت أمين الله تجبُر صدعهـا — وإن قـال قـوم إنّـه قـد تقادمـا
وتُحيـي رسوم التـابعين بأرضهـا — فها هي تستدعيك غبرا طواسما(106)

وكان لحركات التمرّد في بلاد المغرب وما واجهها به أبو يعقوب وأعوانه من شدّة وحزم صداه في مدائح شعراء الأندلس، فجاءت فيها عدّة إشارات إلى تلك الوقائع،فكمّلت بذلك عمل المؤرّخ. ولعلّها أن تكون قد حوت ما فاته أو فسّرت بعض الأحداث على نحو آخر. ويكفي أن نورد من تلك الإشارات نموذجا واحدا. ويتعلّق ذلك بتمرّد قبيلة «غمارة» المقيمة بجبل «الكواكب». وقد قضى الموحّدون على ذلك التمرّد،وضُرب رأس زعيمه. فنظم ابن حربون قصيدة مدح أشار فيها إلى ذلك الحدث. منها قوله واصفا ما أصاب المتمرّدين:

ووطئتـمُ جبـل الكواكـب وطـأةً — هُـدّت لصعقتهـا منـاكب يَذْبُـلِ
...بطشت بهـم كفّ الرّدى لمّا أبوا — أن يقبلوا عفو الصّفـوح المِفْضَلِ(107)

ومنهـا قولـه واصفـا نهـاية زعيم ذلك التمرّد :

جـاءوا بـه بـاب الـرّواق يُقـاد في — بُـرْد الهـوان مقـادةَ المسـترذلِ
لله كـفٌّ طوّحتـه بضربـة — رفعته عـن سمة الأخـسّ الأنذل(108)

ولقد سجّل شعر المدح كثيرا من أحداث المغرب والأندلس في فترة الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور. وهي فترة تمثل أوج العصر الموحّديّ، وأحداثها كثيـرة.

---

(106) م.ن. –ص:385-386.

(107) م.ن. –ص:326.

(108) م.ن. –ص:327.

وإذا كانت وقعة « الأَرك» أهمّ حادث وقع على عهد المنصور، كان من الطبيعيّ أن يكون له حيّز في أشعار المدح التي أنشدها الشعراء المنصورَ يوم قُفوله مُظفّرا. يقول ابن حزمون في سينيّته التي أنشدها في الحفل الذي أُقيم في أعقاب ذلك الحدث:

لاقيت جموعهمُ فغدوا | فرسا في قبضة مفترسِ
جاءوك تضيق الأرض بهم | عددا لم يُحصَ ولم يُقَس
...فأناخ الموت كلاكله | بظباك على بشر رجس[109]

ولم تُغفل قصائد المدح كذلك حملة المنصور إلى الجهات الشرقيّة من بلاد المغرب. ففيها إشارات إلى وقائع تلك الحملة التي عاد منها ظافرا، وكانت أشبه بحملة جدّه عبد المؤمن التي أشرنا إليها. وقد سبق أن أوردنا نصّا لابن مُجبَر يصف فيه ما فعله المنصور بمدينة «قفْصة» لمّا رفضت طاعته[110]. ولابن مجبر قصيدة مدح أخرى يشير فيها إلى أحداث وقعة «الحمة» التي كانت للمنصور، سنة 583هـ، على «الموارقة» و«الأغزاز» وفيها يقول:

فسل ما حلّ بالأعداء منه | وكيف استؤصل الدّاء العُقام
لقد برزت إلى هول المنايا | وجوه كان يحجبها اللّثام
وما أغنت قسيّ الغزّ عنها | فليس تدفع القدرَ السهام[111]

---

(109) عبد الواحد المراكشيّ : المعجب -م.س. -ص:213-214.

(110) لإبراهيم الزويليّ، كذلك، قصيدة يمدح فيها المنصور، ويسجّل أحداث ذلك اليوم، يقول فيها:

سائل بقفصة هل كان الشقيّ لها | بَعْلا وكانت له حمالةَ الحطب
تبّت يدا كافر بالله المبها | فكان كالكافر الأشقى أبي لهب
...لما زنت وهي تحت الأمر مُحصَنة | حصبتموها اتباعَ الشرع بالحصب

(م.ن. -ص:198-199).

(111) الحميريّ : كتاب الروض المعطار -م.س. -ص:201.

وفضلا عمّا أشارت إليه المدائح من أحداث الصراع الذي خاضه المنصور ضدّ النصارى في الأندلس وبني غانية وغيرهم في الجهات الشرقيّة من بلاد المغرب، نجد فيها إشارات أخرى إلى مُنجَزات حضاريّة أو رسوم أو غيرها.

ففي إحدى قصائد ابن مجبر نجد وصفا للمقصورة العجيبة التي أبدعها الفنّان المغربيّ للخليفة الموحّدي، وذلك بجامعه المتصل بقصره بمدينة مراكش(112). وهي تعكس -بحق- درجة الرقيّ الحضاريّ الذي وصلت إليه بلاد المغرب والأندلس على عهد الموحّدين، كما قد تدلّ على عناية المنصور بالمُنشآت الحضاريّة اقتداء بأبيه. يقول ابن مجبر واصفا تلك المقصورة.

طورا تكون بمن حوته محيطة فكأنّها سور من الأسوارِ
وتكون حينا عنهمْ مخبوءة فكأنها سر من الأسرار
وكأنّها علمت مقادير الورى فتصرّفت لهم على مقدار
فإذا أحسّت بالإمام يزورها في قومه قامت إلى الزوّار
يبدو فتبدو ثمّ تخفى بعده كتكوّن الهالات للأقمار(113)

ومما يتصل بعادات ملوك الموحدين ورسوم دولتهم:ما نجده في نصّ

(112) وصف المقّري هذه المقصورة فقال: «وكانت مُدبرة على انتصابها إذا استقرّ المنصور ووزراؤه بمُصلاّه، واختفائها إذا انفصلوا عنها». ثم أورد ما ذكره الشريف الغرناطيّ في «شرح مقصورة حازم» حيث قال في وصفها: «وكانت قد وُضعت على حركات هندسيّة تُرفع بها لخروجه، وتخفض لدخوله» (نفح الطيب -م.س. -3/239-240).

وقد مدح المنصورَ كثير من الشعراء بمناسبة فراغه من إحداثها، ولكنّهم لم يهتدوا إلى وصفها عدا ابن مجبر الذي أجاد في وصفها إجادة طرِب المنصور لها. انظر: م.ن. -ص:240.

(113) م.ن. -ص:238.

لابن عيّاش من إشارة إلى احتفائهم بمصحف عثمان وحملهم إيّاه في حروبهم تبرّكا به. بدأ ذلك في عهد عبد المؤمن وتواصل من بعده. فلمّا جاء يعقوب المنصور أمر بتحليته تحلية تليق به. فسجّل ذلك ابن عياش في أبيات يخاطب بها المنصور، يقول فيها مُشيدا بفعله:

ونفّلته من كلّ ملك ذخيرة ... كأنّهم كانوا برسم مكاسبِهْ
فإن ورث الأملاك شرقا ومغربا ... فكم قد أخلّوا -جاهلين- بواجبه
وكيف يفوت النصرُ جيشاً جعلته ... أمام قناه في الوغى وقواضبه
وألبسته الياقوت والدّرّ حلية ... وغيرك قد روّاه من دم صاحبه[114]

ونختم هذه الشواهد من عهد المنصور بما سجّله شعر المديح من إشارة إلى أخذ الخليفة البيعةَ لابنه محمد الملقّب بالناصر وهو ما يزال صغيراً، وذلك سنة 586هـ[115]. يقول ابن حامد مادحا وليّ العهد، مشيرا إلى الواقعة:

نظر الإمام إلى الزمان وأهله ... نظر الغمام السّكب للرّوض الصّدي
فحباهمْ بمحمّد، وبمثلها ... من بيعة يعتزّ دين محمّد
...لاغرو أن صغرت سنوه فعلمه ... ووقاره حكما له بالسؤدد[115]

تلك جملة من الإشارات التاريخيّة،حاولنا انتقاءها ممّا تضمّنه شعر المدح في الأندلس في المرحلة الأولى من عصر الموحّدين. وهي تدلّ على أنّ لذلك الشعر قيمة تاريخية ، وإن اختُلف في تحديد مداها.

ونختم حديثنا عن هذا الغرض بالملاحظات التقويميّة التالية:

1 - ظلّ شاعر المدح -في الأغلب الأعم- محافظا. فلم يستطع أن يجدّد

---

(114) م.ن. -607/1.

(115) انظر: عبد الواحد المراكشي : المعجب -م.س. -ص:225.

(116) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:83.

إلاّ في حدود ضيّقة. ولعلّ المحافظة على شكل قصيدة المدح أن تكون أوضح من الاتّباع في مجال المضمون. ومن أسباب هذه المحافظة سيطرة التّراث[117]. وليس من المبالَغة أن نقول: إن الشاعر الأندلسيّ ظلّ دائما مقدّسا لذلك التراث. ولعلّه كان يرى أن مُنتهى ما يُطلَب منه أن يُجيد محاكاته. ولربّما شجّع الشعراءَ على المحافظة ذوقُ الممدوح. ولقد سبق أن أشرنا إلى ما كان عبد المؤمن «يشترطه» فيما يُنظَم فيه من مدح، كما أشرنا إلى ما كان يُعجب يعقوب المنصور من أوزان الشعر. فلا غرو إذا سارت المدحة في الاتجاه المحافظ،فلم يُجدّد فيها إلاّ بمقدار.

2 - شعر المدح في الأندلس في هذا العصر شعر مناسَبات، في أغلبه الأعمّ. وليس من عيب في أن ينظم الشاعر قصيدة في مناسبة هامّة تهزّه أحداثها وتُثير انفعاله، ولكن العيب في أن ينتهز أتفه المناسبات ليمدح. فلا عيب في أن يُخلّد الشاعر الانتصار الباهر الذي حقّقه يعقوب المنصور في وقعة «الأرك»، وأن يُشيد بصانعه، ولا عيب كذلك في أن يُنوّه الشاعر بذلك الإنجاز الحضاريّ الرائع الّذي تُمثّله مقصورة جامع المنصور، ويمدحَ صاحبها، ولا عتب على الشاعر إذا مدح بمناسبة بيعة أو تلقيب أو ما إليهما. فلم يكن المدح إلا ليُسجّل مثل ذلك. ولعل الشاعر أن يكون مُقصّرا إن هو سكت عن تخليد عظيم المآثر والتنويه بجليل الأعمال. أما أن يمدح ابن حربون -مثلا- وليّ نعمته أبا حفص عمر بن عبد المؤمن بمناسبة اجتماعه بأخيه أبي سعيد[118]، أو أن يمدحه بمناسبة انصرافه من جبل طارق[119]،**أو ما**

---

(117) يقول إميليو غرسية غومس : « إنّ للقديم سلطانا على نفوس العرب خاصّة، ومن ثمّ كان للتراث الشعريّ القديم قيمة كبرى في تاريخ الآداب العربيّة».(الشعرالأندلسيّ -م.س. -ص:22).

(118) انظر: ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:253-255.

(119) انظر: م.ن. -ص:256-257.

إلى ذلك من تافة المناسبات، فلا يدلّ إلا على تسقّط الشاعر لكلّ مناسبة، وتردّي فنّه في مهاوي التملّق والكذب.

3 – يتّسم كثير من مدائح شعراء الأندلس في هذا العصر بالتطويل والمبالغة. فقد وجدنا منها ما يتجاوز الخمسين بيتا[120]، بل إنّ منها ما يفوق السبعين[121]. وإذا كان التقصير في هذا الغرض مذموما فإنّ التطويل ينبغي أن يكون معيبا، لاسيما إذا كان المادح في مناسبة لا يتّسع المجال فيها له وحده. ولقد سبق أن أشرنا إلى أنّ عبد المؤمن كان يكتفي، أحيانا، من القصيدة بمطلعها إذا كان فيه ما يُغني عن سواه، كما أشرنا إلى أنّ مادحي يعقوب المنصور، يوم عودته من وقعة «الأرك»، لم يُسمح للواحد منهم -لكثرتهم- إلاّ بإنشاد بيتين أو ثلاثة يختارها من قصيدته. وإذا كانت أحكام النقّاد القدماء ما تزال لها قيمتها، فإنّنا نجد منهم من كان يستحسن ذلك الاعتدال وينصح به. قال ابن رشيق: «ويجتنب، مع ذلك، التقصير والتجاوز والتطويل؛ فإنّ للملك سآمة وضجرا ربّما عاب من أجلها ما لايُعاب، وحرم من لايريد حرمانه»[122]. ومدح قدامة بن جعفر الإجمال في هذا الغرض فقال: «ثمّ من الشعراء الآن من يُجمل المديح، فيكون ذلك بابا من أبوابه حسنا أيضا، لبلوغه الإرادة مع خلوّه من الإطالة وبعده عن الإكثار»[123]. ولعل ابن رشيق وقدامة

---

(120) انظر -مثلا-: م.ن. -ص:151-159، 160-164، 245-250.

(121) انظر -مثلا-: م.ن. -ص:422-428.

(122) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده -تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد- بيروت- دار الجيل -الطبعة الرابعة -1972م. -128/2.

(123) نقد الشعر -تحقيق كمال مصطفى -مصر -مكتبة الخانجي -بغداد -مكتبة المثنى -د.ط.- 1963م. -ص:84.

وغيرهما أن يكونوا متأثّرين فيما ذهبوا إليه بما أُثر من أقوال في استقباح تطويل المدحة، صدرت عن مادحين وممدوحين. فقد روي أن جريرا قال لأبنائه ناصحاً:

«إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة؛ فإنّه ينسى أوّلها، ولا يُحفظ آخرها»[124].

وانتقد أحدهم إطالة الفرزدق في مديحه، فقال له: «دعني من شعرك الذي ليس يأتي آخره حتّى يُنسى أوّله»[125].

أمّا المبالغة فلا نكاد نجد نصّا خاليا منها. وإذا كنّا اليوم نستثقل المبالغة إطلاقا، فإنّ من النقّاد القدماء من كان يراها مقبولة إذا كانت المدحة مُتوجّهَا بها إلى ملك، ومذمومة إذا كانت في سواه. قال ابن رشيق: «وإذا كان الممدوح ملكا لم يُبال الشاعر كيف قال فيه، ولا كيف أطنب، وذلك محمود، وسواه المذموم؛ وإن كان سوقة فإيّاك والتجاوز به خطّته؛ فإنّه متى تجاوز به خطّته كان كمن نقصه منها»[126].

ولعلّ من مبالغات شعراء هذا العصر ما لم يعجب حتى الملوك أنفسهم.

ولقد سبق أن ذكرنا استقباح عبد المؤمن بداية قصيدة ابن فندله التي يقول فيها:

غمّض عن الشمس واستقصر مدى زحل   وانظر إلى الجبل الرّاسي على الجبلِ
أنّى استقرّ له؟ أنّى استقلّ به؟   أنّى رأى شخصه العالي ولم يزلِ؟

4 - لم يكن المدح في ذلك العصر مقصورا على عبد المؤمن وبنيه، وإنّما كان لغيرهم مادحون: فقد مُدح وزراؤهم بنو جامع، كما مدح مناوئوهم من أمثال ابن مردنيش وابن همشك وبني غانية وغيرهم. ولعلّ الشعراء قد أجادوا

---

(124) و (125) ابن رشيق: العمدة -م.س. -2/128.

(126) م.ن. -ص:128.

في مدحهم[127]؛ ولعلهم كانوا، فيما يقولون ، يصدرون عن بواعث صادقة[128]. غير أنّ ما بين أيدينا من تلك المدائح شيء قليل. ولذلك قلّ استشهادنا به. وربّما كان التشيّع للموحّدين أو الخوف منهم من أسباب ضياع ما ضاع من تلك المدائح.

---

(127) يقول أبو محمد المكناسيّ في قصيدة مدح بها ابن مردنيش،لعلّها من أفضل ما مُدح به:

من ذا يباهي شمسكم بسراجه؟ أم من يضاهي عذبكم بأُجاجه ؟
قل للذي جارى ابن سعد في الوغى: هيهات ! أين خطاك من معراجه؟

(صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:76).

(128) كان أتباع ابن مردنيش يرون فيه زعيما وطنيّا، ويعتبرون الموحّدين محتلّين. وكان الشّعر لسان حال جماعة الشّاعر في كثير من الأحيان.

الفصل الثالث

الرثـــاء

عرّف بعض النقّاد الأقدمين الرثاء، فذهبوا إلى أنّه لا يختلف عن المدح إلا بعبارات تدلّ على أنّ المقول فيه ميت[1]. ولعلّ تعريف بعض النقاد المحدثين لهذا الفنّ أن يكون أقرب إلى بيان حقيقته، وأدنى من تحديد وظيفته. قال الدكتور محمد النويهي: «هو تصوير حزن الشاعر لموت إنسان ،و استثارة نفس الحزن في السامع أو القارئ؛ فالشاعر يقول لنا: إنّه حزين، و يحاول أن يجعلنا نشاركه حزنه»[2].

و طبيعيّ -وهو كذلك- أن يكون في طليعة أغراض الشعر العربيّ. فقد كان واحدا من أبرز أغراض الشعر الأندلسيّ قبل عصر الموحدين: كثر النظم فيه، وتطوّرت مضامينه وأشكاله. وكان رثاء المدن الساقطة والممالك الزائلة، وبكاء الزوجات والجواري من أهمّ أنواعه.

ويعود ما عرفه الرثاء في الأندلس من ازدهار وتطوّر نسبيّ إلى عدّة عوامل، في مقدّمتها ما عرفته البلاد من ظروف خاصّة. وقد لا يكون الباحث بعيدا عن الحقيقة إذا التمس تعليلا لذلك الازدهار وذلك التطوّر، في سيادة دواعي البكاء لدى الأندلسيّين.

وفي الفترة الأولى من عصر الموحّدين يلاحظ الدارس أنّ الرثاء لم ينزل عن مكانته، فقد واصل ازدهاره وتطوّره.

على أنّ النصوص التي وصلت إلينا لا تمثّل إلا جزءا ممّا نظم الشعراء فيه. فكم قصيدة قد ضاعت كلّها[3]، وربّ قصيدة لم يصل سوى مطلعها[4]، وما أكثر القصائد التي لم يسلَم منها إلا مقاطع. على أنّ ما تيسّر لنا الاطلاع عليه من نصوص وأخبار، قد يكون كافيا لمعرفة ما كان عليه هذا اللون من الشعر،

(1) انظر: قدامة بن جعفر: نقد الشعر -م.س. -ص:111-112؛ ابن رشيق: العمدة -م.س.-147/2.

(2) ثقافة الناقد الأدبيّ- بيروت-دار الفكر -الطبعة الثانية -1969م -ص:338.

(3) من ذلك -مثلاً- قصائد ابن جبير وموشّحاته التي رثى فيها زوجته .

(4) كقصيدة الكتنديّ في رثاء الأمير الموحّديّ أبي سعيد .

وللوقوف على ألوانه ومميّزاته.

ويجد المتتبّع لمراثي هذه الفترة أنّها كادت تستغرق جلّ ألوان الرثاء، وإن كانت الشواهد على تلك الأنواع غير متوازية عدداً: فإذا كنّا نجد في نوع ما عدداً غير قليل من النصوص، فإنّنا لا نجد مثل ذلك في نوع آخر . فهل نعزو ذلك التفاوت إلى ضياع النصوص، أم إلى أن الشعراء كانوا يُقبلون على نوع ولا يكادون يقبلون على نوع آخر، لأسباب ذاتيّة أو موضوعيّة ؟ فلماذا نجد-مثلاً- عدداً من النصوص في رثاء النفس أو رثاء العلماء ، ولا نجد ما يوازيه في رثاء الأقارب من آباء وأمهات وأبناء ؟

كذلك يلاحظ الدارس الأدبيّ أنّ الرثاء في الأندلس، في هذه الفترة، عرف ألواناً لا نكاد نجد لها أثراً، قبل ذلك، في مصادر الشعر الأندلسيّ. من ذلك- مثلا- رثاء آل البيت وتأبين الحسين بن علي رضي الله عنه.

كذلك يرى الباحث في شأن هذا الغرض أنّ الشاعر الأندلسيّ بدأ يوظّف الموشّح للتعبير عن حزنه على من فقد. وهذا جانب آخر من جوانب تطوّر هذا الغرض في هذه الفترة، و إن تعلّق بالشكل .

وإذا كان التطوّر الذي عرفه شعر الرثاء في هذه الفترة من تاريخ الأدب الأندلسيّ يبدو ضئيلاً، فليس من المبالغة الجزم بأنّ هذا الغرض من أكثر أغراض الشعر العربيّ جموداً. فلو تتبّعنا نصوص الرثاء في الشعر الأندلسيّ من فترة الولاة إلى نهاية عصر المرابطين لانتهينا إلى أنّ ملامح التطوّر الذي أصاب هذا الغرض لا تكاد تَلفِت انتباه الدارسين و غيرهم. وكان الدكتور إحسان عبّاس مصيباً حين قرّر- وهو يدرس تطوّر هذا الغرض في عصري ملوك الطوائف و المرابطين- أنّ الرثاء «أوضح موضوع تجلّت فيه آثار طريقة العرب»[5]. وكان هذا الجمود حريّا بلَفْت

(5) تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين -ص:117.

انتباه عالم بالأدب الأندلسيّ كابن بسّام الشنتريني، فقال في قصيدة رثاء لابن عبدون: « اقتفى أبو محمد أثر فحول القدماء»[6]. وهو قول يجوز أن يُقال في غير ما واحد من نصوص الرثاء التي نُظمت في الفترة الأولى من عصر الموحّدين.

وحتّى يتيسّر الحديث عن مراثي هذه الفترة نرى أن نُصنّفها على النحو التالي، عارضين نماذج منها مستخلصين مميّزاتها العامّة.

1- رثاء الأقارب:

علاقة الإنسان بأقاربه أقوى ما تكون في المجتمعات البدويّة. والمجتمع الأندلسيّ كان في عصر الموحّدين قد قطع مراحل في التحضّر. على أنّ الظروف الخاصّة التي كان يعيشها ابتداءً من القرن الخامس الهجريّ، كانت كفيلة بأن تُرهِف إحساس الأندلسيّ وتُقوّي علاقته بأقاربه، إذ يرى فيهم سكنه، فيجزع لفقدهم ويتألّم لفراقهم.

وليس من شك في أنّ شعراء الأندلس قد أُصيبوا بموت كثير من أقاربهم فأثّر فقدهم فيهم، فنظموا في بكائهم ما نظموا. غير أنّ ما بين أيدينا من مراثي الأقارب ليس إلا جزءاً قليلا مما نُظم.

ومن الأقارب الذين عثرنا على مراثي فيهم: الأبناء، والإخوان، والزوجات، والأصهار.

أ- رثاء الأبناء:

خلّف شعراء العربيّة في رثاء فلذات أكبادهم روائع، في طليعتها: عينيّة أبي ذؤيب الهذَلي في أبنائه، وداليّة ابن الروميّ في ولده الأوسط. ولم يقصّر شعراء الأندلس عن شعراء المشرق في تصوير مدى فجيعتهم فيمن فقدوا من أبنائهم. ولعلّ أحسن ما وقفنا عليه: ما قاله ابن عبد ربّه في بكاء بعض

(6) الذخيرة -م.س.- 818/2/1.

أولاده[7]، وما نظمه ابن أبي الخصال في رثاء ولده[8].

غير أنّ ما تيسّر لنا جمعه من مراثي الأبناء، في هذه الفترة، شيء قليل. فهل سكت شعراؤها عن تصوير ما كان يعتريهم من حزن حين يفقدون واحداً من أبنائهم، أم أنّ قرائحهم قد شحّت فلم تجُد في موقف هو من أهمّ مواقف العطاء الأدبي؟ إنّ من يقول معبّرا عن شوق ممضّ وحنين فيّاض إلى ولده حين نأى عنه:

و لي ولد مثل فرخ القطاة   صغير تخلّيت قلبي لديه
أَحنّ إليه فيا وحشتي   لذاك الشُّخيص و ذاك الوجيه
تشوّقني و تشوّقته   فيبكي عليّ و أبكي عليه
و قد تعب الشوق ما بيننا   فمنه إليّ و منّي إليه[9]

- يُستبعَد أن يموت ولده فلا تتحرّك شاعريّته لذلك، فيقول ما يصوّر ألمه لفقده، وأساه لبعده، وشوقه إلى لقائه.

ومن نماذج هذا اللون، في هذه الفترة، قول أبي القاسم بن هشام القرطبيّ في رثاء صغير له:

و مما زاد في شجوي و أبكى   صغير السنّ مقتبل الشباب
تعوّض بالحجارة عن حجور   وصار عن الترائب للتراب[10]

وليس بخاف ما يصوّره هذا النصّ من لوعة الأب، وإن لم يسلَم مما أصبح شائعاً في الأدب الأندلسيّ وغيره من تنميق الأسلوب وتوشيته بألوان البديع.

---

(7) ينظر: جبرائيل جبّور: ابن عبد ربه وعقده -بيروت -دار الآفاق الجديدة -الطبعة الثانية -1979م.-ص:189-191.
(8) انظر: ابن عبد الملك:الذيل والتكملة -م.س.-5/1/38-42.
(9) صفوان بن إدريس:زاد المسافر -م.س.-ص:71-72 .
(10) م.ن.-ص:104.

ولعلّ أشد شعراء الفترة بكاء لولده: أبو بكر محمد بن عبد الله ابن مهني.
ولقد وصل إلينا من ذلك الرثاء نصّان يحملان شجواً صادقاً، ويصوّران ثُكْلا قاسيا.
ويبدو أنَ الأوّل قاله وجرحه ما فتئ ينزف، فتحدّث في مستهلّه عن فراق ولده،
وما خلّف ذلك الفراق من لوعة في القلب؛ ثم وصف ما يكابده من شوق،
وما يذرفه من دموع. يقول مخاطباً نفسه:

شطّت بمن تهواه عنك الدارُ | و قضت عليك بحكمها الأقدا ر
برّدْ لهيب الشوق عنك بعَبرة | تنقعْ ضلوعك إنّها لحرار
رحل الحبيب عن الحبيب فدمعه | عند التذكّر واكف مِدرار
في الجفن منه عبرة سيّالة | تسقي الخدود و في حشاه النار
يا حرقة يا فجعة يا لوعة | سكنت فؤادي ما لها مقدار

ثم ينتقل إلى تأبين ابنه ويصوّر ما خلّف من فراغ في حياة أبيه، ويصف
ما كان ينتظر منه في «كبرته» و«زمانته»، ثم ينتهي إلى بيان مدى جزعه لفقده،
فيقول مخاطباً إياه:

يا ظاعناً حطّ الركاب بمعشر | عميت علينا منهم الأخبارُ
لله منك هلال عشر قورنت | بثلاثة لو يكمل الإبدار
أَنست بزورتك القبور و أصبحت | منك الديار كأنّهن قفار
ولقد أردتُك أن تعيش لكبرتي | وزمانتي فأرادك الجبّار
ولقد تراكضنا الحياة لغاية | فسبقت أنت وخانني المضمار
ما إن وجدت على مُصابك ناصرًا | إلا الدموعَ فإنّها أنصار(11)

ولا يختلف ما نجده في هذا النصّ من معان وأفكار عمّا نُلفيه في مراثي السابقين
لأبنائهم. فالتجارب المتماثلة تستدعي تواطؤ الشعراء على نفس الأفكار، ثم يكون

---

(11) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س.- 250/6.

الاختلاف، بعد ذلك في العرض والصياغة.

أما النصّ الثاني لابن مهني في رثاء ولده فهو، وإن دلّ على أنّ حزن الشاعر على ولده ظلّ يساوره، قد صوّر تألّما عميقاً، واستسلاماً لما وقع، وجنوحاً إلى الحكمة. يقول في هذا النصّ متحدّثا عن فقد الأحبّة:

يمرّ الحبيب بقبر الحبيب فلا ذا ينادي و لا ذا يجيب
و كيف يُجيب رهين الثرى رماه الحمام بسهم مصيب
تُنوسي لما نأى عهده و أقفر منه اللوى والكثيب
إذا أُودع الميت في لحده فليس له-ويحه-من حبيب[12]

ب- رثاء الإخوان:

فقد الإخوان فجيعة تقصم الظهر؛ لذلك كان رثاء الإخوان من أعرق ما عرفت قصيدة الرثاء من ألوان. وما مراثي المهلهل، ومتمّم بن نُويرة، والخنساء، ولبيد بن ربيعة، ودُريد بن الصّمة، وغيرهم، إلا شواهد على شدّة ما اعتراهم من جزع، وعلى قوّة إحساسهم بفداحة الخطب. وفي الشعر الأندلسيّ ما يدلّ على أنّ شعراء الأندلس لم يَفتهم أن يصفوا جزعهم لفقد إخوانهم، ويصوّروا عِظَم فجيعتهم فيهم. ويكفي أن نشير إلى ما قاله، في هذا اللون، شاعران عاشا قبيل عصر الموحّدين، هما: أبو عبدالله ابن أبي الخصال[13]، وأبو الحسن عليّ بن عطية البلنسيّ المشهور بابن الزقّاق[14].

بيد أنّنا لم نجد من الأمثلة على هذا اللون، في الفترة الأولى من عصر الموحّدين، ما يوازي تلك المراثي. ونستبعد أن تخلو هذه الفترة من هذا اللون عدا ما عثرنا عليه؛

(12) م.ن.-ص:245/6.

(13) انظر:م.ن.-5/1/48-50.

(14) له في رثاء أخيه قصيدتان، يتحلّى فيهما شجو صادق. انظر:ديوان ابن الزقّاق البلنسي -م .س.- ص:150-156.

فتجربة فَقْـد الإخوان متكرّرة أبدا.

ومما قال شعراء هذه الفترة في رثاء الإخوان قصيدة لأبي القاسم محمد ابن إدريس التّجيبيّ خال الأديب أبي بحر صفوان صاحب«زاد المسافر»، يرثي فيها أخاً له شقيقا. ولكنّ صفوان -كدأبه في الاختيار- لم ينقل منها إلا أربعة أبيات يصوّر فيها الشاعر تأثّره، وينوّه بما كان عليه الفقيد من كرم وشجاعة وفصاحة، فيقول:

بين أخ مودَع ضريحا　　　　و آخر شطّ في البعادِ

يهمّ في المنتدى بنطق　　　　فيرجع الحيّ كالجماد

ثم يقول:

غمائم الجود من يديه　　　　أعمّ نفعاً من الغوادي

يسلّ من صارم و نطق　　　　عضبين في معرك و ناد[15]

وإذا جاز أن نُلحق برثاء الإخوان ما قيل في رثاء الأصهار، فلدينا من نتاج هذه الفترة نص لأبي المتوكّل الهيثم بن أحمد بن جعفر السكونيّ يرثي به أحد أصهاره واصفا جزعه لفقده، يقول فيه:

سْقي بدموعي لا دموع الغمائم　　　　ثرى غُرست فيه ضروبُ المكارمِ

و قد كنت أرجو حرز عيش ابن محرز
لصـــــــرف الليالي و الخطوب الأداهم

تنقّل من ظهر التراب لبطنها　　　　و هل مُستقَرُ الزهر غير الكمائم ؟

لمن أشتكي يا دهر خطبك، إنّه　　　　ألحّ على صبري فذَلّت شكائمي ؟

فسقته عيني مثل جداوه مُزْنةٌ　　　　حكى برقُها في خفقه قلبَ هائم[16]

ج- رثاء الزوجات وغيرهن من القريبات:

يقف المتتبّع لديوان الرثاء في الشعر العربيّ القديم على جملة من القصائد،

(15) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:155-156.

(16) أبو الحسن الرّعَيني: برنامج شيوخ الرعيني -م.س. -ص:193.

نظمها الشعراء في بكاء زوجاتهن؛ من أبرزها قصائد جرير والطغرائـيّ وابـن الزيّات. وهي تدل على أنّ فقد الزوجة لم يكن أمراً هيّناً في المجتمع العربيّ القديم. وقـد فـاق الأندلسيّون شعراء المشرق كمّاً وكيفاً: فلهم في رثاء زوجاتهم روائـع صوّرت شَجْواً صادقاً، وأبرزت مكانة المرأة الأندلسـيّة مـن نفس قرينهـا. ومـا قصـائد أبي إسحاق الإلْبِيريّ والأعمى التُّطِيليّ وابـن حمْديس الصّقلّيّ وابـن الزقّـاق البلنسـيّ، وغـيرهم، إلا جواهر في عقد ثمين من عقود أدب الأندلس.

ولقد لفت شيوع هذه الظاهرة في الشعر الأندلسيّ نظر بعض الباحثين في هذا الشعر، فحاول أن يجد تعليلاً لذلك الشيوع. فـالدكتور إحسـان عبّـاس، الـذي أطلـق على هذا اللون من الرثاء«البكاء على زوال الرقّة والجمال»، لكـون الشـاعر الأندلسـيّ يسترسل في التنويه بجمال فقيدته ويتحسّر لزواله، حاول أن يحدّد الأسباب التي كـانت وراء كثرة مراثي النساء في عصري ملـوك الطوائـف والمرابطـين، فـرأى أنّ للظـروف الخاصّة التي كانت بـلاد الأندلـس تعيشـها نصيبهـا في ذلـك، فقـال:«وإذا قدّرنـا هـذا السبب الذاتيّ في صميم التركيب النفسيّ لصاحبه، لم نعدَم أن نجد هنا لموقف الشـاعر الأندلسيّ تفسيرات اجتماعية، أثـارت هـذا اللّـون مـن الرثـاء على نطاق غـير قليـل. ومن تلك التفسيرات: شـعور الأندلسـيّ بقيمـة المرأة، وتقديره لدورهـا... وأسـباب ذلك أيضا: التزلزل الذي أصـاب شـعور الأندلسـيّ المرهَـف، وجعله يحسّ في الفقـد لا معنى الفقد المباشر نفسه، بل حاجته إلى سَكَن يأوي إليه. وتمثّل المرأة في حياته هـذا السكن على نحو عميق، لأنّها كانت-في الغالب- تشاركه صعوبات الحياة»[17].

وقد تواصلت تلك الظاهرة بعد العصـر الـذي يتحـدّث عنـه الدكتـور إحسـان عبّاس. فمن شواهد الفترة الثانية من عصـر الموحّديـن: قصيـدة ابـن الأبّـار البلنسـيّ[18]؛

---

(17) تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين -م. س- ص:120.

(18) انظر :ديوان ابن الأبّار -م.س. -ص:209.

ومن الأمثلة على ذلك في العصر الغرناطيّ:مرثية ابن الخطيب[19].

وعلى الرغم من أننا لا نملك الشواهد النصّية الكافية، فإنّنا نستطيع أن نقول :إن الفترة الأولى من عصر الموحّدين قد خلّفت لنا أكبر مثال على هذا اللون، ويتمثّل ذلك في صنيع ابن جبير الذي لم يكتف -كما فعل غيره- بنظم قصيدة واحدة في رثاء زوجته، وإنّما نظم عدداً من القصائد والموشّحات في ذلك الغرض، جمعها في جزء من ديوان شعره، سماه -كما أسلفنا-:«نتيجة وجْد الجوانح،في تأبين القرين الصالح»[20].

وإذا كان ابن جبير قد سبق بفعله بعض الشعراء المحدَثين الذين نظموا في رثاء زوجاتهم دواوينَ كاملة، كعزيز أباظة الذي خصّ زوجته التي فقدها بديوانه«أنّات حائرة»، وكعبد الرحمن صدقيّ الذي صوّر فجيعته في زوجته في ديوانه«من وحي المرأة»، إذا كان ابن جبير قد سبق إلى ذلك، فإنّ في فعله ما ينهض دليلا على شيوع الظاهرة في الأندلس. قال الدكتور إحسان عبّاس:«أمّا رثاء المرأة التي يسلبها الموت فلعلّ صورته الكبرى تتجلّى في ديوان من الشعر والموشّح نظمه ابن جبير في رثاء زوجته أمّ المجد. وهذا الشاعر يقع في عصر تال للعصر الذي ندرسه، وإنّما نذكره ليكون شاهداً واضحا على هذه الظاهرة في الأندلس»[21].

وإذا كان لنا من ملاحظة على الوعاء الذي صبّ فيه الشاعر عواطفه تجاه

---

(19) انظر: ديوان الصَيِّب والجهام،والماضي والكَهام -تحقيق محمد الشريف قاهر -الجزائر -الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع -الطبعة الأولى -1971م.-المقدّمة -ص:64.

(20) قال ابن عبد الملك:«ومنه (أي ديوان ابن جبير) جزء سماه:"نتيجة وجد الجوانح،في تأبين القرين الصالح"، أودعه قطعاً وقصائد في مراثي زوجه... بعد وفاتها والتوجّع لها أيام حياتها، تزيد بيوته على ثلاثمائة، سوى موشّحات خمس جعلها قريباً من آخره»(الذيل والتكملة -م.س.-608/2/5).

(21) تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين -م.س. -ص:121-122.

رفيقة دربه[22]، فإنّ ابن جبير لم يلتزم شكلاً واحداً ، وإنّما وظّف كلاًّ من الشكل التقليديّ والموشّح. ولعلّ توظيف الموشّح لغرض الرثاء أن يكون جديداً، لم يُقبل عليه أحد قبل ابن جبير. وبذلك يكون هو الذي فتح باب الموشّحات للرثاء. وقد سار على غراره أحد معاصريه، وهو ابن حَزْمون الذي رثى أبا الحملات قائد الأعنّة ببَلَنْسية الذي قتله النصارى، في موشّح مشهور سبقت الإشارة إليه.

غير أنّ ما نظمه ابن جبير من قصائد وموشّحات في زوجته قد ضاع، أو هو ما فتئ في حكم الضائع من أدب الأندلس. فلم نقف في المصادر المتيسّرة إلا على بيتين قد يكونان من ذلك الجزء الذي خصّصه من ديوانه لرثاء زوجته، وفيهما يقول حانّا إلى قبر تلك الزوجة التي ماتت بمدينة «سبْتَة» من بلاد المغرب:

بسبتةَ لي سَكَنٌ في الثرى   و خِلّ كريم إليهــا أتى
فلو أستطيع ركبت الهوا   فرزت بها الحي و الميّتا[23]

وإذا كان ما فعله ابن جبير يدلّ على اتساع الظاهرة في هذه الفترة، كما قد يدل على تطوّر هذا اللون، فإنّ ذهاب النصوص يحول دون إصدار حكم دقيق.

ومن نماذج هذا اللون التي خلّفتها هذه الفترة:نصّ من أربعة أبيات لأبي عامر ابن الحمارة الغرناطيّ في رثاء زوجته، قد يكون جزءاً من قصيدة طويلة، اجتزأ منها ابن سعيد بهذه الأبيات، كما هو شأنه في اختياراته في«رايات المبرّزين» مصدر هذا النص، وفي غيره من مُؤلّفاته. يقول ابن الحمارة مخاطبا زوجته في هذه الأبيات:

---

(22) عرّف ابن عبد الملك بزوجة ابن جبير واصفاً إياها بالفضل؛ وأورد قولا لابن جبير يصف فيه فجيعته بموتها، منه:«وليلة القبر تُنسي ليلة العرس. فيالها من لوعة وحرقة، ولكلّ احتماع من خليلين فرقة» (الذيل والتكملة -م.س.-606/2/5).

(23) المقّري: نفح الطيب -م.س.-489/2.

أزينبُ إن ظعنت فإنّ ظهرا — أقلّك سوف يركبه المقيـــمُ
بأيّة حده [؟] أسعى لأنثى — سواك و أنت هامدة هشيم ؟
ولمّا أن حللت التُّرْب قلنا: — لقد ضلّت مواقعَها النجـوم
ألايا زهرةً ذبلت سريعاً — أضنّ المُزْن أم ركد النسيم؟[24]

فهـو على الرغـم مـن محاولتـه التعزّي عـن هـذه الزوجـة، لم يلبـث أن أبـدى إحساسه بفجيعته بفقدها، وعـبّر عـن وفائـه لهـا ،ثـم وصـف سـرعة زوالهـا ، متسائلاً عن السبب.

ولعلّ هذا النص أن يكـون مـن أصـدق الأمثلـة علـى مـا ذهـب إليـه الدكتـور إحسان عباس من إطلاقه على هذا اللون من الرثاء«البكاء على زوال الرقة والجمال»: فزوجة ابن الحمارة -عنده- نجم ضلّ موقعة، وهي زهرة أصابهـا الذبـول لبخـل المـزن أو ركود النسيم.

ومثلما فعل ابن الحمارة، نجد أبا القاسـم محمـد بـن إدريـس التجيبي،«في رثائـه إحدى حرماته»، ينوّه بحسنها، ويتحسّر لِقِصَرعمرها، فيقول:

وقل للّحد يعرف من يواري — وهل يُصغي الجماد من الرجامِ
أصابك ياقمـــيرًا إمّحـــاق — وما أبـدرت في أفـق التمـام
وكنت كزهرة نضراء جفّت — بقرب العهد من شقّ الكمـــام
و لم يبسم زمـــان عنك إلّا — و صدّته المنون عن ابتســــام
و لم تفضض ختام الكون إلاّ — و عاد الكون مسدودَ الختـام[25]

ومع ما نلمسه من عواطف الحبّ والوفاء في النصوص السابقة، فإنّنا لا نجد مـا يتجلّى في بعض مراثي النساء التي خلّفها العصر السابق، من عشق وتولّه:فأين ما يقوله

---

(24) ص:93.

(25) صفوان بن إدريس:زاد المسافر -م.س.-ص:156.

ابن الحمارة أو ابن إدريس من قول أبي إسحاق الإلْبِيري في رثاء زوجته معبّرا عن وفاء نادر:

إن كان يدثر جسمه في رمسه فهواي فيه الدهرَ ليس بداثرِ
قطع الزمانَ معي بأكرم عشرة لهفي عليه من أبرّ معاشر
ما كان إلا ندرة لا أرتجي عوضاً بها فرثيته بنوادر
و لوَ انّني أنصفته في ودّه لقضيت يوم قضى و لم أستاخر
و شققت في خلب الفؤاد ضريحه و سقيته أبداً بماء محاجري
أجد الحلاوة في الفؤاد بكونه فيه و أرعاه بعين ضمائري[26]

وأين ذلك أيضاً من قول الأعمى التطيلي باكياً زوجته، متحسّرا لفقد جمالها:

ونُبئّت ذاك الوجه غيره البِلى على قرب عهد بالطلاقة و البِشْر
...وما فعلت تلك المحاسن في الثرى فقد ساء ظنّي بين أدري و لا أدري
...ونُبئّت ذاك الجيد أصبح عاطلاً خذي أدمعي إن كنت غضبي على الدرّ[27]

على أنّ مثل ذلك العشق نُلفيه في أحد نصوص هذه الفترة لو أنّ صاحبه تنزّه عن وصف رغبته واكتفى بوصف حبّه، وهذا النصّ لأبي القاسم ابن طفيل، يرثى فيه جارية له، فيقول متحسّرا لفقدها، متأسّفا لزوال ما حَظِي به من نعيم ومتعة في قربها:

أمسيتُ أندب في الفراش مكانها و كأنّه ما كان منها عامرَا
و كأنّني لم أَجْنِ منها روضة و كأنّني لم أثن غصناً ناضرا
و كأنّني و الليلُ أرخى ستره لم يبد لي منها هلالا زاهرا[28]

وربّما كان ابن طفيل أكثر شعراء الفترة بَوْحًا بما كان بينه وبين فقيدته.

(26) ديوان أبي إسحاق الإلبيريّ الأندلسيّ -تحقيق محمد رضوان الداية -بيروت -موسّسة الرسالة - الطبعة الأولى -1396هـ.-1976م. -ص:77-78.

(27) الأعمى التطيليّ -م.س.-ص:70-72.

(28) ابن سعيد: المغرب -م.س. -2/84.

ولعلّه أن يكون أصدقهم لوعة وأقواهم شجناً، وإن كان يندب نعيماً زائلاً، لا حبيباً مفقوداً. وقد يذكّرنا نصّه بما قاله ابن حمديس الصقليّ في جاريته«جوهرة»التي غرقت في البحر[29]، وبما قاله، قبله، عبد السلام بن رغبان ديك الجنّ في جارية له قتلها[30]؛ فكلٌّ مُلتاع لفقد جاريته، وإن اختلفت ظروف الفقد، وتباينت طبيعة العلاقة بين حب ورغبة.

2- رثاء النفس:

قال ابن الأبّار البلنسيّ في «كتاب تحفة القادم» الذي جمع فيه ما اختاره من الشعر الأندلسيّ في القرنين السادس والسابع: «وللناس فيما يكتبون على القبور كثير مُستجاد»[31]. وهو قول يدلّ على شيوع «ظاهرة» رثاء النفس في عصر الموحّدين.

على أنّ هذا اللون من الرثاء ليس جديداً، فلدينا منه أمثلة كثيرة لشعراء أندلسيّين عاشوا قبل هذا العصر، يكفي أن نذكر منهم: ابن شُهيد[32]، والمعتمد ابن عبّاد[33]، وابن خفاجة[34]، وابن الزقّاق[35]. بل إنّنا لنجد بذور هذا اللون في الشعر العربيّ في المشرق، في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ. وما يائيّة مالك بن الريب في رثاء نفسه إلا واحدة من لبناته الأولى.

---

(29) انظر: ديوان ابن حمديس -تحقيق إحسان عباس -بيروت -دار صادر -د.ط. -1960م- ص:213-517.

(30) انظر: ابن رشيق: العمدة -م.س.- 149/2.

(31) البلفيقي: المقتضب -م.س. -ص:68.

(32) انظر: ديوان ابن شهيد -م.س. -ص:46.

(33) انظر: ديوان المعتمد ابن عباد -م.س. -ص:193.

(34) انظر: ديوان ابن خفاجة -م.س. -ص:363.

(35) انظر: ديوان ابن الزقاق البلنسي -م.س. -ص:205-247.

ويقف المتتبِّع للشعر الأندلسيّ في المرحلة الأولى من العصر الموحّدي على نماذج عديدة من رثاء النفس، كثير منها أُعدّ ليُكتَب على قبور أصحابها. وإذا كان جلّها مقطوعات حتى تتناسب وما أُعدّت من أجله، فإنّ بعضها قصائد طويلة. كذلك لا تتفق كلّ تلك النصوص على مضمون واحد. وقد تكون البواعث المتنوّعة وراء ذلك الاختلاف.

فمن أوائل نصوص هذه الفترة:قصيدة لأبي الحسن سلام بن عبد الله بن سلام الباهلي «كان أمر أن تُكتَب على قبره»[36]، يستوقف، في بدايتها، المارّ به ليعظه وليحدّثه عن عمره الطويل الذي رآه قد مضى سريعًا، دون أن يحقّق فيه ما كان يتمنّى. يقول:

يا ذا الذي مرّ بي اجتيازا سألتك الله قف قليلا

و اسمع لقولي ففيه وعظ يوقظ من نومه الغفولا

عشت ثمانين كاملات ناهيك منها مدى طويلا

عجبت أن أدبرت سراعاً و لم أنل من مُنايَ سولا

بادر خلّي بها ارتحالي كأنّني عابر سبيلا

ثم يمضي إلى وصف حاله: فقد أمسى في قبره منفرداً، رهن ذنوب كثيرة يخاف أن يُؤخَذ بها:

و ها أنا اليوم رهن قبر أصبح من منزلي بديلا

منفرداً لا أرى قريباً ولا حميماً ولاخليلا

رهن ذنوب تقدّمت لي حملت من عبئها ثقيلا

فما اعتذاري إذا دعاني للعرض مُستصغرًا ذليلا

وقال لي: ماعملت فيما علمت يا ظالماً جهولا

(36) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س.-4/54.

يا ويلتا إن عدمتُ رُحْمى	من لم يزل راحماً وَصولا

وفي النهاية يلتمس من المارّ به أن يدعو الله له عساه أن يرحمه، فيقول:

فادع الله لي يا وليّي	فصفحه لم يزل جميلا
و استغفر الله لي عساه	يكون من عثرتي مُقيلا
و قل :عفا الله عن سلام	فكم عصى الله و الرسولا
فربّ داع بظهر غيب	قابل من ربه القَبولا[37]

وإذا كان أبو الحسن سلام الباهليّ مستعظماً ذنوبه، خائفاً من العقاب، قليل الرجاء في عفو الله، فإنّ أبا بكر ابن مُغاور يبدو مطمئنّا متفائلا. يقول في مقطوعة «أمر أن تُكتَب على قبره إذا مات»:

أيها الواقف اعتباراً بقبري	اسمع فيه قول عظم رميم
أوْدعوني بطنَ الضريح وخافوا	من ذنوب كُلُومها بأديمي
فقلت : لا تجزعوا عليّ فإنّي	حَسَن الظنّ بالرؤوف الرحيم
و دعُوني بما اكتسبت رهيناً	غلق الرهن عند مولى كريم[38]

وربّما كانت الرغبة في دعاء المارّين بالقبور أهمّ البواعث على إعداد هذه النصوص. يقول عليّ بن أبي جعفر ابن هَمُشْك من مقطوعة كُتبت على قبره «بشقورة»:

لعمرك ما أردتُ بقاء قبري	و جسمي فيه ليس له بقاءُ
ولكنّي رجوت وقوف بَرّ	على قبري فينفعني الدعاء[39]

ولذلك كثيراً ما نجد أصحاب هذه النصوص يلتمسون من هؤلاء المارّين الدعاء

(37) م.ن.

(38) صفوان بن إدريس- م.س.-ص:81-82.

(39) الحميريّ: كتاب الروض المعطار -م.س.-ص:349.

لهم. نجد ذلك في النصوص التي خلّفتها هذه الفترة، كما مرّ بنا في نص سلام السابق، ونجده أيضا فيما نُظم في هذا الغرض قبل هذه الفترة وبعدها. من ذلك مثلا ما ورد لكل من أبي العلاءابن زهر[40] وابن خفاجة[41] وابن الزقّاق[42] -وقد عاشوا قبل العصر الموحّدي- وما جاء لابن باق[43] -وقد عاش بعد ذلك-.

وإذا كانت الرغبة في دعاء المارّين بالقبر من البواعث الأساسيّة التي تحمل على نظم هذه النصوص، فإنّ البعض يهدف إلى وعظ الناس وتذكيرهم بمصيرهم. ومن ثمّ كان كثير من هذه النصوص جديراً بأن يعدّ من شعر الزهد. فابن سلام، كما مرّ بنا، يستوقف المارّ به ليُسمعه قولاً«فيه وعظ يوقظ من نومه الغفول». وربما كان هدف الوعظ أوضحَ في نصوص نُظمت لتُكتَب على شواهد القبور قبل هذا العصر، كما في المقطوعة التالية، وهي لأحمد بن أيوب اللمائي:

بنيتُ فلم أسكن و حصّنت جاهداً   فلمّا أتى المقدور صيّرته قبري
و لم يك حظّي غير ما أنت مُبصر   بعينيك ما بين الذراع إلى الشبر
فيا زائراً قبري أُوصيك جاهداً   عليك بتقوى الله في السرّ و الجهر
و لا تحسنَنْ بالدهر ظنّاً فإنّما   من الحزم ألاّ يُستنام إلى الدهر[44]

وكما في أبيات لأبي العلاءابن زهر الطبيب الأندلسيّ المشهور، يدعو فيها الواقف على قبره أن يعتبر، فيقول مبرزاً المفارقة بين ما كان عليه وما صار إليه؛ وهي مفارقة عجيبة، تدعو حقّاً إلى الاعتبار:

---

(40) انظر: ابن الأبار: التكملة -م.س. -/335.

(41) انظر: الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني -م.س-ص:70.

(42) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س.-268/1/5.

(43) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -341-340/2.

(44) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س.-74/1/1-75:وفيه:"يستسام".

ترحّـــمْ بفضلك يا واقفاً   و أبصر مكانا دُفعنا إليـــه
تراب الضريح على صفحتي   كأنّيَ لم أمش يوماً عليـــه
أُداوي الأنـــام حذارَ المنون   فها أنا قد صرت رهناً لديه[45]

ونتبيّن من كثرة النماذج التي وجدناها لشعراء الفترة الأولى من عصر الموحّدين ولمن سبقهم أو أتى بعدهم أنّ نظم النصوص لتُكتَب على شواهد القبور كان ظاهرة أندلسيّة، لا نعرف أنّ المشرق عرف مثلها. على أنّ سيادة الظاهرة تجعلنا نتساءل عن البواعث الحقيقيّة التي كانت وراء نظم تلك النصوص. فلعلّ بعض الذين فعلوا ذلك أن يكونوا مقلّدين لغيرهم، مقتدين بسواهم، دون أن تكون لهم بواعث أخرى .

وأطول قصيدة وقفنا عليها في رثاء النّفس هي لأبي بكر ابن زهر الحفيد، مهّد لها ابن عبد الملك المراكشيّ بقوله:«قال وقد بلغ تسعاً وثمانين سنة، يندب نفسه، ويدعو إلى الله في المتاب، والتجاوز عنه يوم المردّ إليه والمآب»[46]. ثم علّق عليها قائلا: «وهذا من الشعر الرائق الذي لا يتعاطى مثلَه إلا المجيدون من الشعراء، المتقدّمون في حَلْبة البلغاء»[47].

والحقّ أنّ هذه القصيدة لا تختلف عن شعر العلماء، عموماً، تعليميّة ونثريّة. ولكنّا لا نستغرب مثل هذا الإطراء من ابن عبد الملك. ولقد سبق أن أشرنا إلى مَثَله الأعلى في الشعر، ومذهبه في اختيار النصوص ونقدها.

يستهل ابن زهر قصيدته مزهّدا في الحياة، محذّرا من الدنيا، داعيا إلى ما يُنجي من صالح الأعمال، فيقول:

عمـــر قصير و دنيا كلّها غررٌ   و العيش في نَكَد و الموت مُنتظَرٌ

---

(45) ابن الأبار: التكملة -م.س. -335/1.

(46) و(47) الذيل والتكملة -م.س.-401/6.

و كلّ نفس لها من حتفها رصد ليس الفرار بمنجيها و لا الحـذَر
و الموت لابـد منه فاستعدّ له و بعده جنّة الفردوس أو سَـقَر
فاختر لنفسك ما تنجو النجاة به و انظر لها قبل أن يفوتك النـظر
دع فانياً و التمس ما لا فنـاء له إن كنت تعلم ما تأتي به و ما تذر

وبعد أن يلوم الناس على ما هم فيه من غفلة، يقول واصفاً حاله:

وما أُبـرّئ نفسـي إذ ألومهـمُ فكلّنـا وازر و سـاءَ مـا نـزر
إنّي لأعظمهـم جُرْمـا و أثقلهـم حمْلا، و مالِيَ من عذر فأعتـذر
...جزتُ الثمانين زادت تسعة كملاً يا ليت شعريَ ماذا بعد أنتظـر
...يا ويلتا من ذنوب جـرّها قَدَر فلم أُطق ردَّ شيء جرّه القدر(48)

تلك أهم النماذج التي وقفنا عليها من رثاء النفس في الفـترة الأولى مـن العصـر الموحّدي.و إذا كانت تمثّل ظاهرة أدبيّة خاصّة، فإنّنا لم نجد من بينها نموذجـًا يرقـى إلى درجة يائيّة مالك بن الريب في تصوير شدّة الجـزع، و تـأبين النفـس، و فيمـا انطـوت عليه من وصف الإحساس الحادّ بالغربة و الحنين .

3- رثاء الشخصيّات السياسيّة و العلميّة و غيرهـا:

رثى شعراء الأندلس ، في هذه الفترة ، عدّة شخصيّات سياسيّة وعلميّة وأدبيّة وغيرها. وإذا كان الشعراء الأندلسيّون قد دفعتهم إلى نظم بعض تلك المراثي بواعـث صادقة، فإنّهم كانوا في بعضها الآخر مجاملين معزّيـن. وكثيرًا مـا كـان الشـاعر يجمـع بين المنثور والمنظوم في تعزيته ،كما فعل أبو بكر ابن طفيل حـين مـات جـاره وصديقـه ابن الصّقر، إذ «كتب إلى ابنيه يعزّيهما به، وبعث مع الكتـاب قصيـدة رثـاه بهـا»(49). ولسهل بن مالك رسالة بليغة خاطب بها بني أبي الوليـد ابن رُشـد «تعزيـة في أبيهـم»

(49) انظر: ابن عبد المالك: الذيل والتكملة -م.س.- 231/1/1.

استفتحها بقصيدة في رثائه[50].

وإذا كانت المراثي التي قيلت في الشخصيّات العلميّة والأدبيّة كثيرة، فإنّ ما قيل في رثاء الخلفاء الموحّدين الذين أظلّهم هذا العصر، وما إليه من رثاء رسميّ، لم يصل إلينا منه شيء يُعتدّ به. ونحن نستعبد أن يكون الشعراء الذين واكبوا بقصائدهم ما كان يجري من أحداث على أرض الأندلس والمغرب، كابن حَرْبون وابن مُجبَر وغيرهما، أن يكونوا قد سكتوا عن رثاء الخلفاء الموحّدين. وما نخالهم إلا قالوا من الرثاء ما جمعوا فيه بين تأبين السابق، وتعزية اللاحق وتهنئته، كما كانت العادة جارية قبل ذلك في المشرق والمغرب. على أنّ خلوّ كتاب ابن صاحب الصلاة «تاريخ المنّ بالإمامة» -وهو الذي سجّل جلّ شعر البلاط- من أيّة مرثية لمُثير للتساؤل. وليس في غير هذا المصدر شيء مما قيل في رثاء الخلفاء الموحّدين[51] عدا مطلع قصيدة قالها أبوبكر يحيى ابن مُجبَر في رثاء الخليفة أبي يعقوب يوسف، وصفها المقّري بالطول والجودة[52]. وذلك المطلع هو:

جلّ الأسى فأسِلْ دمَ الأجفانِ ... ماءُ الشؤون لغير هذا الشانِ[53]

وفي رثاء السادة (الأمراء) الموحّدين يشير بعض المصادر إلى قصيدة كان أهل غرناطة يستحسنونها، قالها أبو بكر محمد بن عبد الرحمن الكُتندي في عثمان ابن عبد المؤمن الذي وَلِيَ غرناطة لأبيه. على أنّه لم يسلَم من هذه القصيدة إلا بيت واحد هو مطلعها:

---

(50) انظر: م.ن. -4/90 ؛ ابن الخطيب -الإحاطة -م.س.-4/282-285.

(51) وقفنا على قصيدة طويلة قيلت في رثاء محمد بن تومرت داعية الدولة الموحّدية.
انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب-م.س.-ص:135-136.

(52) انظر: نفح الطيب-م.س.-4/380.

(53) م.ن.

يذهـب الملك و يبقى الأثـر   هذه الهالـة ، أين القمر؟[54]

وإذا كان المتتبّع للشعر الأندلسيّ في هذه الفترة لا يكاد يجد للرثاء الرسميّ أثراً، فإنّه لا يجد كذلك مما قاله الشعراء في تأبين شهداء الأندلس وتخليد ذكراهم، ما يعكس تضحياتهم في سبيل وطنهم. وكلّ ما عثرنا عليه، من ذلك،بيتان من قصيدة لأبي بكر ابن مُجبَر في أحد الأبطال، يقول فيهما مترحّما منوّها:

قيل لي:أودي سعيد بن عيسى   يرحم الله ابن عيسى سعيدًا

أكلتـه الحرب شيخـًا كبيرًا   و قديما أرضعتـه وليدا[55]

ولا يُمكن أن تُعلّل قلّة هذا اللون بتوقّف حركة الجهاد في هذه الفترة، لأنّ الصراع بين المسلمين وأعدائهم ظلّ محتدما. ولقد استشهد في تلك المواجهات الدامية عدد لا يُحصى. ويكفي أن نقف عند خسائر هزيمة « العِقاب » لندرك مدى ما قدّمه الأندلسيّون دفاعاً عن بلادهم. ولكنّ الشاعر الأندلسيّ كان-فيما يبدو- دون مواكبة تلك التضحيات. فليس في تاريخ الشعر الأندلسيّ كلّه إلاّ عدد قليل من النصوص التي قيلت في رثاء الشهداء والإشادة بتضحياتهم، لعلّ أهمّها ميميّة ابن الأبّار[56] في تأبين شهداء وقعة«أنيشة»[57] بصفة عامّة، وفي رثاء شيخه أبي الربيع سليمان الكَلاعيّ، بصفة خاصّة. وهي نموذج ممتاز، سبق به ابن الأبّار كثيرًا من الشعراء المحدَثين كشوقيّ والجواهريّ ونازك الملائكة وغيرهم، ممّن أبّنوا شهداء الأمّة و خلّدوا ذكراهم.

---

(54) ابن سعيد: المغرب-م.س.-264/2.

(55) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:54.

(56) مطلعها هـو:

ألمّ بأشلاء العلا و المكارم   تَقَدّ بأطراف القنا و الصوارم

(ديوان ابن الأبار -م.س. -ص 275).

(57) تقع « أنيشة » على ثلاثة فراسخ من بلنسية؛ وبها انهزم المسلمون سنة 634 هـ.هزيمة شنعاء، وفقد منهم« عالَمٌ كثير،بين قتيل و أسير ». انظر: النباهي: تاريخ قضاة الأندلس -م.س. -ص:119-120.

على أنّ الشاعر الأندلسيّ في هذه الفترة لم يقصّر في رثاء الشخصيّات العلميّة والأدبيّة. وإذا كان رثاؤه لبعضها دليلَ وفاء لصداقة أو جوار أو تلمذة أو غيرها، فإنّ ما بعثه على رثاء بعض تلك الشخصيّات، هو ما رآه في فقدها من خسارة للأمّة وحرمان للمجتمع من عطا ئها. وتلك نزعة لم تتجلّ كلّ التجلّي في الرثاء إلاّ في العصر الحديث حيث اتجه كثير من فنون الشعر اتجاهاً اجتماعيّا.

وإذا كانت النماذج المتوفّرة لا تسمح بتبيّن منهج واضح في بناء هذا اللون من المراثي، ولا في تحديد مضمون كلّ نوع منه، فإنّه يمكن الدارسَ أن يلاحظ حرص بعض الشعراء على تلوين المرثية بحسَب مزايا المرثيّ وملامحه: فما كان يُؤبَّن به الأديب -مثلاً- غير الذي كان يُقال في رثاء عالم الدين. بل إنّ الرثاء ليتلوّن تبعاً لتخصّصات علماء الدين أنفسهم بين فقيه ومحدّث وغيرهما، وإن كان علماء الأندلس قلّما عرفوا التخصّص: فقد كانت للواحد منهم مشاركة في جلّ علوم عصره ، فضلاً عن مساهمته في منظوم الأدب و منثوره .

فالرصافيّ البلنسيّ نجده يستهلّ قصيدته في رثاء الأديب أبي محمد عبد الله ابن أبي العبّاس الجذامي بما يُشير إلى أن المرثي أديب ، فيقول :

أَبني البلاغة فيم حفلُ النـادي ؟ هبها عكاظَ ، فأين قسّ إياد ؟
أمّا البيان فقد أجرّ لسانَـه فيكم بفتكته الحمامُ العادي[58]

وأبو بكر محمدابن مهني يُبرز في رثائه لأبي عمران الزاهد ما كان يتّصف به الراحل من تقوى، وما كان يأخذ به نفسه من عبادات، فيقول:

رضي الله عن أخ قد تولّى وفقدناه ما أبرّ و أتقى
صائم اليوم قائم الليل خوًا فا إلى ربّه مُطيعا مُحقّا[59]

(58) ديوان الرصافي البلنسي-م.س.-ص:63.

(59) الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص:95.

ويشير ابن طفيل إلى طول بـاع صديقـه ابـن الصّقْـر في علـوم القـرآن وتبحّـره فيها، فيقول:

و عُطّلت المدارس من مُفيض　　　علومَ الوحي ليس له نظير(60)

كذلـك تختلـف هـذه المراثي بـاختلاف العلاقـة الـتي تربـط الشـاعر بـالمرثيّ. فإذا كانت تلك العلاقـة قويّـة ،كالصداقـة أو التلمـذة أو مـا إليهمـا،وجدنـا أثـر الفقـد في النصّ: إحساساً صادقاً وانفعالاً قويّاً؛ وإذا كانت تلك الصلة واهية انعكست فتـوراً وضعفاً، لا يحتاج إدراكهما إلى تأمّل. فلو قرأنا الأبيات التالية مـن قصيـدة أبـي عمـر أحمدابن عات النفزيّ في رثاء الشيخ أبي محمد عبـد ا للهابـن أبـي اليـابس، لتبـدّى لنـا شجو الشاعر والتياعه، وإحساسه بما ترك الراحل من فراغ لا يملأه غيره:

يـــا شيبـــة تقبليـها كفّـــــارة　　　للحوب أذكى من الكافور

... أشكو إليك تعطّشـي و توحّشي　　　لما حللت بربعك المهجـور

... أخليت صدر الدست فاختلّت به　　　إذ ناب قوم ما همْ بصدور(61)

ومثـل هـذا الإحسـاس الصـادق يطالعنـا في رثـاء أبي محمـد البرجي لشـيخه أبي محمد بن عبد ا لله الأنصاريّ. ومن قوله فيه متفجّعا لفقده:

خـليـليّ هُبّـــا ساعـدانـي بعَبْرة　　　و قولا لمن بالريّ : و يحكم هبُّوا

نبكّ العلا و المجد و العلم و التُّـقى　　　فمأتم أحزاني نوائحه الصَّـحْب

... أأسلو و بحر العلم غيضت مياهه　　　و محيي رسوم العلم يحجبه الترب ؟

... فسحقاً لدنيا خادعتنا بمكرها　　　إذا عقدت سلْماً فمقصدها حرب(62)

وإذا كانت النماذج التي وصلت إلينا كثيرة يضيـق المجـال بـإيراد شـواهد منهـا

(60) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -232/1/1.

(61) م.ن. -561/2/1.

(62) م.ن. -416/4-417.

كلها، فلا أقل من الوقوف عند بعضها مما استحسنّاه أو وجدناه مشهورا.

فمن ذلك قصيدة قالها أبو الربيع سليمان بن سالم الكلاعي يؤبّن فيها صديقه الأديب أبا بحر صفوان بن إدريس التُّجيبي، ويتفجّع لموته. ومن قوله فيها:

أما و أبي بحر لقد راع خاطري — مُصاب القوافي و العلا بأبي بحرِ
ليبك عليه المجد ملأى جفونه — و يبك عليه رائقُ النظم و النثر
... أحقّا أبا بحر تجهّزت غاديًا — إلى غاية ناء مداها على السفر
فإن قصّر المقدار عُمْرك إنّ في — نفائس ما خلّدتَ عُمْراً إلى عمر[63]

فقد وصف أبو الربيع فجيعته في صديقه، ونوّه بما نبغ فيه صفوان، إذ هو من المعدودين في شعراء الأندلس وكُتّابها في النصف الثاني من القرن السادس الهجريّ، ثم انتهى أبو الربيع إلى محاولة التعزّي عن صفوان بما خلّف من آثار نفيسة كفيلة بتخليده. ونرى أبا الربيع مُوفّقا في رثاء صديقه بما يُناسبه.

وقد كانت لصفوان- كما يتجلّى من أخباره و إخوانيّاته- صلات قويّة بكثير من الشخصيّات المرموقة في عصره، وكان-فيما يبدو- على خلُق عظيم. لذلك كان لموته، ولمّا يبلغ الأربعين أثره البالغ في نفوس أصدقائه ومحبّيه. فممّن رثوه كذلك أبو الحسن علي ابن حريق. فقد وقف على قبره « فقال مرتجلا »:

أبا بحر سلام الله يترى — عليك و إن تكنّفك الحجابُ
أحوم على كنيّك لست أروى — و أقرع في سميّك لا أجاب
دنت بك شقّة و نأى محلّ — فسيّان انتزاح و اقتراب
فحسْبي أن أرقرق دمع عيني — و يُسعدني السحائب و الصّحاب[64]

على أنّ ابن حريق قد رثى صفوان هنا صديقاً، لا أديبًا كما فعل أبو الربيع الكلاعي.

(63) البلفيقي: المقتضب -م.س. -ص:191.

(64) ابن عبد الملك: الذيل و التكملة-م.س.-276/1/5.

ومن المراثي التي قيلت في العلماء،تلك القصيدة التي أشرنا إليها والتي رثى فيها سهل بن مالك الفيلسوف أبا الوليدابن رشد، وعزّى فيها أبناءه. ويبدو أنّها أعجبت ابن عبد الملك المراكشيّ فأثبتها كاملة، كما أعجبت، قبله، الأديب ابن الجنّان فأخذ منها ثلاثة أبيات وشّح بها رسالة عزّى فيها أبناء سهل بن مالك صاحِبِها في أبيهم[65]. وقد جمع الشاعر في نصّه هذا بين تأبين ابن رشد والتعزّي عنه بالإضافة إلى وصف جزعه لفقده. فمن قوله في الندب ووصف الجزع:

أَخلاّيَ إنّي من دموعي بزاخـــر   بعيد عن الشطين منه غريقُه
و ما كان ظنّي قبل فقد أبيكـــم   بأنّ مُصاباً مثل هذا أُطيقـه
و لم أدر مَن أشقى الثلاثة بعده :   أأبناؤه،أم دهره،أم صديقه ؟

ويقول مؤبّنا:

مضى عَلَم العلم الـذي ببيـانـه   تبيّن خافيه و بان طريقـــــه
... فما كان فينا منه إلامكانـــه   و في العالم العلويّ كان رفيقه

ويقول معزّيا أبناءه، ومتعزيا عنه:

و من شاهد الأحوال بعد مماته   تيقّن أن الموت نحن نذوقـــه
رجوعا إلى الصبر الجميل فحقّه   علينا قضى ألا تُوفّى حقوقـه
أعزّيكم في البعد منـــه فإنّني   أهنيه قرباً من جوار يروقـه[66]

وإذا كان سهل بن مالك قد أشاد بعلم ابن رشد جملة، فإنّه لم يشأ-فيما نعتقد- أن يفصّل الحديث عن تبحّره في الفلسفة وما إليها من علوم ذهنيّة، وذلك لموقفه منها ككثير من فقهاء الأندلس، أو لخوفه أو تحرّجه من الخوض في أمر قد تأرجح بين الحظر والإباحة. ولو أنّ سهل بن مالك فصّل الحديث عن عطاءات

(65) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.-293/4.

(66) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.- 121/4.

ابن رشد في ذلك المجال، و«أبكى» الفلسفة عليه، لكان نصّه نموذجاً لرثاء الفلاسفة.

ومن أجود ما رثى به الشعراء شيوخهم[67]؛ قصيدة أبي محمد عبد الله بن حسن المعروف بالبرجي التي سبقت الإشارة إليها، والتي بكى فيها أستاذه أبا محمد عبد الله ابن الحسن الأنصاريّ المعروف بالقرطبيّ. ويبدو أنّها طويلة، و لم يثبت منها ابن عبد الملك المراكشيّ- على استحسانه إيّاها- إلا عشرين بيتاً، اقتطفها من أجزائها. وعلى أنّنا لا نعرف مدى قوّة الصلة التي كانت تربط الشاعر بأستاذه، فإنّ ما يتجلّى في معظم أجزائها من انفعال حادّ وشعور فيّاض، يدلّ على أنّ تلك الصلة كانت قويّة. ولعلّ ذلك أن يذكّرنا بما نلمسه من الإحساس الجيّاش في رثاء ابن الأبّار لشيخه أبي الربيع سليمان بن سالم الكَلاعي.

وقد جمعت قصيدة البرجي، مثل قصيدة سهل بن مالك، عناصر الرثاء الثلاثة، ولكن على نحو أكثر تفصيلاً واستقصاء. وقد حاول-إلى حدّ ما- أن يتدرّج تدرّجاً منطقيّاً، فبدأ بندب أستاذه والتفجّع عليه، ثم حاول تأبينه مُبرزا ما فُقد بفقده، ثم انتهى إلى ما يُشبه محاولة التعزّي عنه. فمن قوله نادبا متفجّعا:

لئن أوحشتْ تلك المعاهد و الحمى　　فأدمعنا من دون و اكفها الغربْ

وإن ضاق ربع الأنس و الصبر بعدكم　　فإنّ فِناء الحزن بعدكم رَحْب

وقلت و قد ضاقت عليّ مذاهبي　　و قُلِّب فوق الجمر من وَجْده القلب:

إذا لم تَلُحْ شمساً على أُفق الهدى　　فلا انهلّ وسميّ و لا انثنتِ القُضْب[68]

---

(67) من أبرز مراثي الشعراء الأندلسيّين لشيوخهم: همزية ابن وهبون في رثاء أبي الحجاج الأعلم الشنتمري (انظر: ابن بسام :الذخيرة-م.س.-478/1/2)، وميمية ابن الأبّار في رثاء شيخه أبي الربيع سليمان بن سالم الكلاعي (انظر: ديوان ابن الأبّار-م.س.-ص:275)، وكافية ابن الجنّان في رثاء أستاذه سهل بن مالك(انظر: ابن الخطيب:الإحاطة-م.س.-286/4 ؛ابن عبد الملك: م.ن-108/4).

(68) ابن عبد الملك: م.ن.-ص:215-216.

ولقد وجد المجال فسيحاً حين راح يؤبّنه. ذلك أن أستاذه القرطبيّ كان متضلّعا في شتّى معارف عصره. فقد كان مُقرئا، مجـوّدا، محدّثـا، ثقـة، عـدلاً، مكـين الروايـة، رائـق الخـطّ، نبيـل التقييـد والضبـط، نـاقداً، ذاكـراً أسمـاء رجـال الحديـث وطبقـاتهم وتواريخهم، ناظما، ناثراً، معلّما، ذا تآليف في العروض وقراءة نافع وأسانيد الموطـأ[69]، ... يقول البرجي منوّها بمكانة أستاذه العلميّة،مازجاً التأبين بالندب والتفجّع:

مضى الكوكب الوقّاد و المرهَف الذي يصمّم في نصّ الحديث فمـا يَنبُو
... أأسلو وبحر العلم غيضت مياهـــه ومحيي رسوم العلم يحجبه الترب؟
عزيز على الإسلام أن يُودَع الثـــرى مسدّده الأهدى و عالمه النـَّـدْب
... فقد كان فيما مضى من زمانـــه به تحسن الدنيا و يلتئم الشِّـعب

وبعد أن يُفيض الشاعر في ندب شيخه وتأبينه، تجنح نغمته إلى الزهـد في هـذه الحياة الفانية، فيُبدي سخطه عليها واصفاً انخداع الناس وغفلتهم، فيقول:

فسُحْقاً لدنيا خادعتنا بمكرهـــا إذا عقدت سلْما فمقصدها حربْ
ركبنا بها السهل الذلول فقادنــا إلى كلّ ما في طيّه مـركب صعب
و نَغفُل عنها و الردى يستفـزّنا كفى واعظاً بالموت لو كان لي لُبّ[70]

ويمكن القول: إن الشاعر وُفّق إلى تحقيـق غـايتين في مرثيتـه هـذه، قصـد ذلـك أو لم يقصد. أولاهما: تصوير فجيعته بموت أستاذه، والأخرى: بيان مدى خسارة العلم والدين بفقده، ومن ثم خسارة مجتمعه وأمّته.

ومن المراثي التي خلّفتها هذه الفـترة، والـتي تـوازي إلى حـدّ مـا هـذه القصيـدة في البناء والمضمون: قصيدتان كنّا أشرنا إليهمـا، وهمـا: رائيـّة الفيلسـوف أبـي بكـر

---

(69) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.-3/405-406.

(70) ابن عبد الملك: الذيل و التكملة-م.س.-4/216-217.

ابن طفيل التي نظمها في رثاء جاره وصديقه ابن الصقر، ورائية ابن عات النفزيّ التي أبّن فيها الشيخ ابن أبي اليابس الديباجي.

فأمّا قصيدة ابن طفيل فيستهلّها بالتهويل والمبالغة، فيقول:

لأمرٍ ما تغيّرت الدهــــور ... وأظلمت الكواكب و البدور
وطال على نجيّ الهمّ ليل ... كأنّ النجم فيــــه لا يغور
لنبأة صارخ و طروق خطب ... تكاد له الجوانح تستطيـــر

على أنّه بهذا التهويل لا يستثير حزننا ، لأنّه يحملنا على الشكّ في صدق إحساسه. ولقد كان ينبغي له أن يقتصد في وصف ما حلّ بموت صاحبه. فكلّما فعل الشاعر ذلك تمكّن من استثارة حزن سامعه. ولعلّ الدكتور محمداً النويهي أن يكون مُصيباً حين حثّ الشعراء على أن يقتصدوا في وصف حزنهم، إذا رثوا. بل إنّه دعاهم إلى التزام الصدق الحرفي، و لم «يجز» لهم الصدق الفنيّ الذي يُحاسَبون على أساسه في غير هذا الغرض[71].

ومما أبّن به ابن طفيل صاحبه:قولَه منوّها بندرته وإحسانه وعلمه:

و ضنّ الدهر أن يأتي بمثــل ... له ، و الدهر ولّاد حصور
و أنّى للزمـــــان به سماح ... و أمّ الدهر مقلاة نــــدور
... لقد فقد الأيامى و اليتامى ... مكانك و المحافل و الصدور
و عُطّلت المدارس من مُفيض ... علوم الوحي ليس له نظير

(71) يقول:« إذا استجزنا الكذب في فنّ أدبيّ فلن نُجيزه في الرثاء، و إن تسامحنا مع المبالغة الشعرية في سائر الفنون فلن نسامحها فيه. فالرثاء أشدّ الفنون استلزاما للصدق. ولست أعني "الصدق الفنيّ"الذي له أن يُهمل بعض التفاصيل وأن يبدّل منها و يُعيد ترتيبها، بل أعني الصدق الحرفيّ... فالذي يريد أن يستثيرنا حقّا لزام عليه أن يكون صادقاً... فلا يدّعي دمعة واحدة أكثر مما أغدق، أو زفرة واحدة أكثر مما زفر، و لا يُضيف إلى مصابه مثقالاً واحداً لم يوجَد فيه» (ثقافة الناقد الأدبيّ-م.س.-ص:338).

وبعد أن يعود إلى ندبه، يُنهي قصيدته بالدعاء فيقول:

فلا برحت قبور الغرب يُهدَى   إليها الريّ و العذب النميرُ
ولازبها مـــع الريـــاح روح   و رُحمى ما تطاولت العصور[72]

وعلى أننّا لا نشكّ في صدق عاطفة ابن طفيل نحو صديقه وجاره، فإنّنا نلمس فيها بعض الفتور.ولعلّ ذلك من آثار البعد؛ فقد كان ابن طفيل،يوم تُـوفي ابـن الصقر بمراكش، في صحبة الخليفة أبي يعقوب بإشبيلية. على أنّ ذلـك ليس بدعـاً مـن شعر العلماء؛ وابن طفيل معدود في الفلاسفة والأطباء، لا في الأدباء الشعراء.

علـى أنّ قصيـدة ابـن عـات النفـزيّ تبـدو أصـدق إحساسـاً، وأشـدّ انفعـالاً، على الرغم مما يطبع بدايتها، كسابقتها، من مبالغة وتهويل. يقـول الشـاعر فيهـا مؤبّنـا الراحل متفجّعا عليه:

أسفا لأهل العلم غُيِّب نورهـم   تحت الصفيح فمالهم من نـــورِ
... يا شيبة تقبيلها كفّـــارة   للحُوب أذكى من شذا الكافور
ما كان أدأب ليلها و نهارهـــا   في طاعة المكتوب و المسطـــور
ما كان آثرها لأهل الفضـل في   تسميعها للنقـــل و المـــأثور
ما كان أنزهها عن الدنيا و عن   طلابـــها ترميـــهم بالـــمور

ويُنهي قصيدته، مثل ابن طفيل، بالدعاء، فيقول:

فأحلّك الرحمـــان دار نعيمـــه   و حبوره مع جدّك المحبـــور
و كساك في الفردوس حلياً فاخرا   من لؤلؤ و زبرجد و شذور[73]

وإذا كانت النماذج التي سبقت قد توازنت فيها عناصر المضمون بـين وصـف الجزع وتعداد الشمائل ومحاولة التأسّي، فإنّ مراثي أخرى لم يتحقق فيها ذلك التوازن.

---

(72) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-1/1/231-232.

(73) م.ن. -1/2/561.

الأعلم الشنتمري، فمـلأ قصيدتـه

وقد أُعجب الخليفة الموحّدي أبو يوسف يعقوب المنصور بما قال صفوان في ذلك فأحسن إليه[87].

على أنّ ما قاله صفوان في تأبين الحسين وبكاء آل البيت لم يبق منه إلا شيء قليل. من ذلك قوله داعياً إلى الحزن والبكاء:

أومض ببرق الأضلع   و اسكب غمام الأدمع
و احزن طويلاً و اجزع   فهو مكان الجزع
و انثر دماء المقلتين   تألمّا على الحسين
و ابك بدمع دون عين   إن قلّ فيض الأدمع[88]

ومن ذلك قوله في مطلع قصيدة:

يا عين سحّي و لا تشحّي   و لو بدمع بجذف عين[89]

وإذا كان ما قاله صفوان يتبدّى منه حزن صادق، فإنّنا لا نستطيع الجزم بتشيّعه. وأغلب الظنّ أنّه كان مُحبّا لآل البيت في غير تشيّع.وذلك ما كان عليه كثير غيره[90]، إذ كانوا يحبّون آل البيت، لمكانتهم في الإسلام.

ولعلّ صفوان أن يكون -في رثائه هذا- مقتدياً ببعض الشعراء العباسيّين الذين رثوا آل البيت وتفجّعوا عليهم، من أمثال دِعْبِل الخُزاعيّ وغيره. على أنّ المراثي التي نُظمت في الحسين منذ حادثة «كربلاء» كثيرة. وما كتاب ابن الأبّار البلنسيّ

---

(87) انظر: البلفيقيّ: المقتضَب -م.س.-ص:206.

(88) المقّري: نفح الطيب-م.س.-69/5.

(89) م.ن.-ص:70.

(90) كان أثر التشيّع في الشعر الأندلسيّ قليلاً. ومن الذين ظهر في شعرهم عُبادة بن ماء السماء وابن مَقّانا الأشبوني. وهما من مادحي بني حمود العلويّين. ينظر: إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين-م.س.-ص:168-169؛ ابن بسّام:الذخيرة-م.س.- 478/1/1، 793/2/2.

وقد أُعجب الخليفة الموحّدي أبو يوسف يعقوب المنصور بما قال صفوان في ذلك فأحسن إليه(87).

على أنّ ما قاله صفوان في تأبين الحسين وبكاء آل البيت لم يبق منه إلا شيء قليل. من ذلك قوله داعياً إلى الحزن والبكاء:

أومض ببرق الأضــلع   و اسكب غمام الأدمع
و احزن طويلاً و اجزع   فهو مكـــان الجزع
و انثر دماء المقـلتيـن   تألمّا عـــلى الحسين
و ابك بدمع دون عـين   إن قلّ فيض الأدمع(88)

ومن ذلك قوله في مطلع قصيدة:

يا عين سحّي و لا تشحّي   و لو بدمع بحذف عين(89)

وإذا كان ما قاله صفوان يتبدّى منه حزن صادق، فإننّا لا نستطيع الجزم بتشيّعه. وأغلب الظنّ أنه كان محبّا لآل البيت في غير تشيّع.وذلك ما كان عليه كثير غيره(90)، إذ كانوا يحبّون آل البيت، لمكانتهم في الإسلام.

ولعلّ صفوان أن يكون -في رثائه هذا- مقتدياً ببعض الشعراء العباسيّين الذين رثوا آل البيت وتفجّعوا عليهم، من أمثال دِعْبِل الخزاعيّ وغيره. على أنّ المراثي التي نُظمت في الحسين منذ حادثة «كربلاء» كثيرة. وما كتاب ابن الأبّار البلنسيّ

(87) انظر: البلفيقيّ: المقتضَب -م.س.-ص:206.

(88) المقّري: نفح الطيب-م.س.-69/5.

(89) م.ن.-ص:70.

(90) كان أثر التشيّع في الشعر الأندلسيّ قليلاً. ومن الذين ظهر في شعرهم عُبادة بن ماء السماء وابن مَقَانا الأشبوني. وهما من مادحي بني حمود العلويّين. ينظر: إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين-م.س.-ص:168-169؛ ابن بسّام:الذخيرة-م.س.- 478/1/1، 793/2/2 .

«مَعْدِن اللُّجَيْن،في مراثي الحسين»[91] إلا دليل على تلك الكثرة.

حـ- رثاء الأحبّـة:

لرثاء الحبيب أصول في الشعر العربيّ القديم. ولعلّ ما قالته بُثَيْنة في بكاء جميل[92] وما رثت به ليلى الأخيلية توبة بن الحميّر[93] من أوّل ما قيل في هذا الباب.

وممّا خلّفت هذه الفترة، من هذا اللون: ما قالته حفصة بنت الركونيّ في صاحبها أبي جعفر ابن سعيد الذي قتلـه -كما أسلفنا- منافسه في حبّها الأمير الموحّدي أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة.

ويبدو أنّ الشاعرة كانت خائفة بطشَ قاتل ابن سعيد، ولذلك لم تُفصح كثيرا في رثائها له، وإن لم تُخْفِ لوعتها لفقده. تقول في أحد نصوصها متفجّعة مؤبّنة:

و لو لم تكن نجماً لما كان ناظري ، و قد غبتَ عنه، مُظلما بعد نوره

سلام على تلك المحاسن من شَجٍ تناءت بنعماه و طيب سروره[94]

وتصف، في نصّ آخر، مكابدتها فتقول:

سلوا البارق الخفّاقَ و الليلُ ساكن أظلّ بأحبابي يذكّرني وَهْنَا

لعمري لقد أهدى لقلبيَ خفقه و أمطر عن منهلّ عارضه الجفنا[95]

وإذا قدّرنا فجيعة حفصة بابن سعيد، أمكن القول: إنها نظمت فيه رثاء كثيراً،

---

(91) انظر: ابن الأبّار : التكملة-م.س.-635/2.

(92) من قولها فيه:

سواء علينا يا جميلُ بنَ معمر إذا متَّ ، بأساءُ الحياة و لينُهَا

(ابن قُتيبة: الشعر والشّعراء - م.س.-ص 292).

(93) انظر: قدامة بن جعفر: نقد الشعر- م.س.-ص:112.

(94) ابن سعيد: المغرب-م.س.-139/2.

(95) م.ن.

ولكنها خشيت من إذاعته، فلم يصل إلى المصادر التي دوّنت شعرها الآخر. يقول محمد منتصر الريسونيّ:«ولا أرتاب في أنّ عاطفة شاعرتنا إزاء هذا الموقف المأسويّ الرهيب قد تصدّعت أيّمًا تصدّع. فجاشت بشعر رثائيّ ينمّ كل حرف فيه عن نفس معذّبة، ويتصاعد من كل كلماته بخارُ قلب محترق، تعجز قوافي الشعر وأوزانه عن استيعابها... لأنّ الفنّ الرثائيّ عموماً وليد شعور صادق... ولا سيما إذا صدر عن النساء»[96].

وإذا كان الميل إلى الغلمان بالأندلس خلّف أثره في شعر الغزل، فقد كان له بعض الأثر في شعر الرثاء. ذلك أنّنا وجدنا بعض الشعراء قد نظموا في رثاء الغلمان نصوصاً وصفوا فيها فجيعتهم بفقدهم، ونوّهوا بجمالهم. من ذلك قول أبي جعفر أحمد الكساد في رثاء موسى بن عبد الصمد«مليح إشبيلية في ذلك الأوان»:

هتف الناعي بشجو الأبدِ   إذ نعى موسى بن عبد الصمد
ما عليهم-ويحهم-لو دفنوا   في فؤادي قطعة من كبدي[97]

وقوله« يرثي غلاما جميلا كان يهواه جماعة»:

رُدّ إلى الجنّة حـــوريّها   و ارتفع الحسن من الأرضِ
و أصبح العشّاق في مأتم   بعضهم يبكي على بعض[98]

على أنّ هذا اللون ليس جديداً في الشعر الأندلسيّ. ففي المصادر نصوص منه خلّفها العصر السابق. ولعلّ أبا عبد الله ابن الجزّار أول من طرق هذا الباب. وهو أشدّ التياعا وأكثر تفصيلا، وأقل تحرّجا. يقول في رثاء محبوب له:

وقالوا:ألا تبكـــــي عليّا   و قد وارى محاسنَه الــتراب ؟

---

(96) الشعر النسويّ في الأندلس-م.س.-ص:129.
(97) ابن سعيد: المغرب-م.س.-288/1.
(98) ابن سعيد: رايات المبرّزين-م.س.-ص:20.

فقلت لهم ، و في نفسي عليه | بقايا لم يغيّرهـــا العتـــاب
نَعَاءِ إلى المكـــــارم و المعالي | فقيداً ما لغيبتـــــه إيـــاب
فما فعل اعتدالك و التثني؟ | و ما فعلت ثناياك العـــذاب؟
أظنُّ الدهر ضنَّ به عـــلينا | فنحن على الزمان إذا غِضاب

ثم يحاول التعزّي، فيقول:

و من لم يرض بالأيام حكما | و لم يصبر ، يطلْ منه انتحاب[99]

وإذا كان لهذه النصوص من دلالة اجتماعيّة، فإنّها تشير إلى أنّ هذه الظاهرة كانت شائعة بين الأندلسيّين، و لم يكن هناك من حرج في أن يصوّر الشاعر منهم تلك العاطفة الشاذّة، في رثائه، كما صوّرها في غزله.

(99) صفوان بن إدريس: زاد المسافر-م.س.-ص:90.

الفصل الرابع

الهجــاء و النقــد

الرجال»[4]. وقد تصدّى «ليُخامِر» قاضي الجماعة بقرطبة على عهده، «فأكثر هجوه وذمّه، ووصفه بالبَلَه والجهل، فندر بذكره»[5].

ومن الذين برعوا في هذا اللون في عصر ملوك الطوائف : ابن سارة الشَّنْتَرِيني الذي «أُولع بالقصار فأرسلها أمثالاً، ورشَق بها نبالاً»[6]. وكان مكثراً، رأى له ابن بسّام «عدّة مقطوعات في الهجاء، تُربي على حصى الدَّهْنَاء؛ وهو فيه صائب السهم،نافذ الحكم»[7].

وفي طليعة شعراء الهجاء في عصر المرابطين : المخزوميّ الأعمى الشريف. وهو «ذو هجاء قبيح، وذكرٌ لحرمات الأعراض مستبيح»[8]. وكان «سابقا في ديوان الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره»[9]. وصفه الحِجاريّ فقرنه بالحطيئة وبشّار[10].

ولم يكن الهجاء في الفترات المذكورة وقفا على الرجل، وإنّما كان للمرأة فيه نصيب. ومن شواعر الأندلس اللائي ساهمن في هذا اللون : ولاّدة بنت المستكفي التي هجت صاحبها ابن زيدون[11]؛ ومنهن مُهجة بنت التيّاني التي قالت في ولاّدة «ما نقص عنه ابن الرومي»، كما يقول صاحب «المُشْهب»[12].

---

(4)و(5) ابن حيّان : المقتبس،من أنباء أهل الأندلس –تحقيق محمود عليّ مكيّ –بيروت –دار الكتاب العربي –د.ط. –1973م. –ص :64.

(6) ابن بسام: الذخيرة –م.س. –835/2/2.

(7) م.ن. –ص:834.

(8) صفوان بن إدريس: زاد المسافر –م.س. –ص:117.

(9) ابن الخطيب: الإحاطة –م.س. –432/1.

(10) انظر: ابن سعيد: المغرب –م.س. –228/1.

(11) انظر: المقّري: نفح الطيب –م.س. –205/4.

(12) ابن سعيد: المغرب –م.س. –143/1.

أما في الفترة الأولى من عصر الموحّدين فيبدو من النماذج التي حفظتها المصادر ومن أقوال المؤرخين والباحثين أن الهجاء لم تتقلّص دائرته، وإن كان ما وصل منه لا يُمثّل إلا نسبة محدودة. قال الأستاذ عبد القادر محداد محقق كتاب «زاد المسافر، وغُرّة مُحيّا الأدب السافر» الذي جمع فيه صاحبه جملة من أشعار الأندلسيّين في عصر الدولة الموحّديّة: «وشعرهم شعر هجو، فهجا قوم هذا العصر بغير حساب، وتعاطوا الهجو المرّ القادح [الذي] قلّما تعاطاه قوم سواهم»[13]. وأشار ابن الأبّار البلنسيّ -كما أسلفنا- إلى كثرة شعراء الهجاء في ذلك العصر، وذكر عدداً من أسمائهم[14].

ويعود ضياع جزء من نتاج هذه الفترة في هذا الغرض -كما سبق أن ذكرنا في الحديث الذي تناولنا فيه مصادر الشعر الأندلسيّ- إلى نزعة بعض المؤلّفين في اختيار النّصوص، وموقفهم من شعر الهجاء[15]. ولقد مرّ بنا قول ابن الأبّار البلنسي في كتابه «تحفة القادم»: «وتركت، لأجل الهجاء، من لم أجد له سواه، وهم كثير»[16].

وهذا الموقف من شعر الهجاء لم يكن وقفاً على مؤلّفي الكتب، وإنما شاركهم فيه بعض الشعراء أنفسهم الذين تعفّفوا عن الانغماس في حمأة الهجاء. وربّما كان الرصافيّ البلنسيّ واحداً منهم. فقد تنزّه عن هجو السُّهَيْليّ الذي أثاره

---

(13) زاد المسافر -م.س. -المقدّمة -ص:7.

(14) انظر: البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص:206-207.

(15) يُمكن أن نذكر هنا -إضافة إلى ما سبق- موقف عبد الواحد المراكشيّ صاحب كتاب «المعجب، في تلخيص أخبار العرب». فقد وجدناه ينوّه ببعض هجاء ابن حَزْمون ويعتذر عن إيداعه كتابَه، فيقول: «...وله في هذا المعنى أحسن من هذا كثيراً، إلاّ أنّه أقذع فيه؛ فلذلك لم أُودعه هذه الأوراق، لأنّي لا أستجيز أن يُنقَل مثل هذا عنّي»(ص:216).

(16) البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص:206.

-فيما يبدو-؛ ولم يزد على أن قال متمدّحاً بطول باعه في هذا الغرض، وبتعففه في الوقت ذاته عن مجاراة السُّهَيْلِيّ:

عفا الله عنّي فإنّي امرؤ أتيت السلامة من بابها
على أنّ عندي لمن هاجني كنائن غصّت بنشّابها
ولو كنت أرمي بها مسلما لكان السّهيليّ أَولى بها[17]

وإذا كنا لم نقف إلاّ على هذا المثال من شعر هذه الفترة، فإنّنا نجد ما يتّقف معه في فترات أخرى من تاريخ الأدب الأندلسيّ، مما قد يكون دليلاً على شيوع الموقف. ففي الفترة الثانية من عصر الموحّدين نُلفي ابن الأبّار البلنسيّ يمتنع عن مهاجاه معاصره أبي الحسن علي ابن شَلْبون المعافري، فيردّ على هجائه إيّاه بقوله:

قل لابن شَلْبون مقال تنزّه: غيري يجاريك الهجاءَ فجارِ
«إنّا اقتسمنا خطّتينا بيننا فحملتُ برّة واحتملتَ فَجَار»[18]

وفي العصر الغرناطيّ نجد الأديب الأمير إسماعيل ابن الأحمر يشيد بتنزّهه عن مجاراة ابن الخطيب الذي هجا ابن عمّه سلطان غرناطة، فيقول: «...لكنّ صِلّ لسانه في الهجاء لسَع، ونجاد نطاقه في ذلك اتّسع، حتى صدمني، وعلى القول فيه أقدمني، بسبب هجوه في ابن عمّي، ملك الصقع الأندلسيّ... ثم صفحت عنه صفحة القادر، الوارد من مياه الظفر غير الصادر؛ لأنّ مثلي لا يليق به إظهار العورات، ولا يُحمَد له تتبّع العثرات، اتباعاً للشرع في تحريم الغِيْبة»[19].

وقد لفتت ندرة الهجاء، في كثير من دواوين الشعر الأندلسيّ، نظر الدكتور

---

(17) ديوان الرصافيّ البلنسيّ -م.س. -ص:50.

(18) ديوان ابن الأبّار -م.س. -ص:445. والبيت الثاني للنابغة الذبيانيّ.

(19) نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان -تحقيق محمد رضوان الداية -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -1967م. -ص:243-244.

إحسان عبّاس،فردّها -كما أسلفنا- إلى تورّع عدد من الشعراء عن الإقبال على هذا الغرض. واستبعد أن تكون تلك النّدرة عائدة إلى عجز أو قصور. ومما قال: «... لم نجد في دواوينهم هجاء، أو وجدنا قسطاً يسيراً منه. وأنا أستبعد أن يكون ذلك ناشئاً عن قصور في الطبيعة أو الملكة الفنيّة، وأرى في هذه الظاهرة دلالة على رقابة أخلاقيّة، كانت ترى في هذا اللون من الأدب شيئاً منافياً للقيم الخلُقيّة»[20].

وشعراء الهجاء في هذه الفترة كثير. منهم من لم «تجُد قريحته» في غير هذا اللون،كما يفهم من قول ابن الأبّار السابق. غير أن أرسخهم قدماً في الهجاء وأطولهم باعاً فيه شاعران. أحدهما عاش في عصر المرابطين وأدرك عهد الموحّدين، والآخر عاش في هذه الفترة وامتد به عمره فأدرك بداية الفترة الثانية من العصر الموحّديّ.

فأما الأوّل فهو «هجّاء المغرب»[21]؛ أبو بكر يحيى بن سهل اليكّيّ. قال فيه صاحب «المُسْهب»: «هذا الرجل هو ابن روميّ عصرنا، وحطيئة دهرنا؛ لا تجيد قريحته إلاّ في الهجاء ، ولا تنشّط به في غير ذلك من الأنحاء»[22]؛ وقال ابن عميرة الضبّي: «وهو خبيث الهجاء»[23]. وقد بدأ بروزه في هذا الغرض في العصر السّابق فهجا المرابطين[24] بعد أن كان قد مدحهم. أما إفراطه

(20) «هل كان الشعر في الأندلس سبباً في انحلال أخلاقها وسقوطها، أم كان لها مجرد مرآة وانعكاس ؟» -مجلة الأصالة- ع27 -م.س. -ص:191.

(21) هكذا لقّبه ابن سعيد. انظر: المغرب -م.س. -266/2.

(22) م.ن.

(23) بغية الملتمس -م.س. -ص:488.

(24) من أشهر هجائه لهم قوله :

فكـان في هجـاء أهـل فـاس. وقـد بلـغ في هجـائهم شـأواً بعيـدا في الإقـذاع. وسنقف عنـد بعض أهاجيـه في هـذه الفـترة ضمن أصنافهـا.

وأمّـا الهجّاء الآخر فهو أبـو الحسـن علـيّ ابـن حَزْمـون المرْسـيّ. وصفـه ابـن عبـد الملك فقـال: «كـان شـاعراً مُفلِقـاً... أحـد بواقـع الدهـر، بـذيء اللسـان، مُقذِع الأهاجي...بادي الشر مهيباً»[25]؛ وذكر أنّ شيخه أبا الحسـن الرّعيـني قـال لـه: «رأيتـه بدكّـان بعـض الورّاقيـن مـن مُرْسِية وأنـا لا أعرفـه، فسـألت عنـه فعرّفتـه فاستعذت بـا لله مـن شرّه و لم أتعـرّف لـه»[26]. ووصفـه ابـن سـعيد بأنّـه «صاعقـة من صواعق الهجـاء»[27]؛ وترجـم لـه صديقـه عبـد الواحـد المراكشـيّ. وممـا قـال فيـه مُنوّهـا بإبداعـه في هـذا المجـال، ذاكـراً مـا اتّصـف بـه هجـاؤه مـن فحـش وإقـذاع: «وله ...في الهجاء يدٌ لا تُطاوَل، غير أنّه يُفحش في كثير منه. فمن أحسن ما أحفـظ لـه مـن ذلـك وأسلمه مـن الفُحْش والإقـذاع أبيـات ركـب فيهـا طريقـة الحطيئـة؛ ابتـدأ بهجو نفسه ثم استطرد يهجو رجلا من أعيان قُوّاد الأندلس».ثم قال المراكشيّ -بعد أن أورد الأبيات المذكورة- معتذراً: «وله في هذا المعنى أحسن من هـذا كثيراً، إلاّ أنـه أقـذع فيـه، فلذلـك لم أُودعـه هـذه الأوراق لأنّـي لا أستجير أن يُنقَـل مثـل هـذا عنّي». ثـم ختـم حديثـه عنـه بالإشـارة إلى أثـر هجائـه، وسـيرورته في المغـرب،

=

في كـلّ مـن ربـط اللئـام دنـاءة — ولـو انّـه يعلـو علـى كيْـوانِ
...لا تطلبنّ مرابطـاً ذا عفّـة — واطلب شعاع النار في الغُدْران

(ابن سعيد : المغرب -م.س. -2/267-268).

(25) الذيل والتكملة -م.س. -5/1/240-241.

(26) م.ن. -ص:241.

(27) المغـرب -م.س. -2/214.

فقال: «ونـال ابـن حزمـون هـذا عنـد قضـاة المغـرب وعمّاله وولاتـه جاهـا وثـروة، كلّ ذلك خوفاً من لسانه وحـذراً مـن هجائـه. ولا أعلـم في جميـع بـلاد المغـرب بلـداً إلا وأهـاجي هذا الرجل تُحفَظ فيـه وتُدرَس»[28].

وقـد هجـا ابـن حزمـون بعـض قضـاة عصـره؛ ووظّـف، للهجـاء، الموشّـح إلى جانب الشكل التقليدي. وقد نقل لـه ابـن سـعيد في كتـاب «المغـرب» عـددا مـن موشحاته الهجائيّة، ولكنّ محقّق الكتاب،الدكتور شوقيّ ضيف تحـرّج -كمـا أسـلفنا- من إثباتها، وقال معتذراً: «أنشد ابن سعيد هنا موشّحات مقلوبة لابـن حزمـون،أكـثر فيها من الفحش وذكر السوءات كثرة حالت بيننا وبين إثباتها في النصّ»[29].

ويُلاحـظ المتتبع لأهـاجي هـذه الفـترة ومـا ذكرتـه المصـادر مـن مناسـباتها أنّ بواعثهـا مختلفـة: فلكـل شـاعر مـا بعثـه على القـول في هـذا الغـرض. ولعـلّ أهـمّ تلك البـواعث مايـلي:

1 - هناك شعراء كان الهجاء من طبعهم، يؤذون الناس دونما سبب، وكـأنّهم لا يجدون راحتهم إلاّ في الطعن والتجريح؛ فإن لم يجـدوا مـن يوجّهـون إليـه سـهامهم اتخذوا من أنفسهم أو من ذويهم غرضـا لتلـك السـهام. ولعـلّ أهمّهـم في هـذه الفـترة: عليّ ابـن حزمـون. وإنّ في وصـف ابـن عبـد الملـك لـه بأنـه «بـادي الشـرّ» لدليـلا علـى تمكّـن هـذه الصفـة منـه. كمـا أن في هجائـه نفسَـه دليـلا آخـر علـى ارتياحـه إلى القول في هـذا الغـرض أيـّاً ما كان مَهجـوُّه. يقــول هاجياً نفسـه:

تــأملتُ في المــرآة وجهــي فخلتــه	كوجـه عجـوز قـد أشـارت إلى اللهـوِ
كــأنّ علــى الأزرار منّــيَ عــورة	تُنادي الورى: غضوا ولا تنظروا نحـوي
فلــو كنت ممـا تُنبت الأرض لم أكـن	من الرائـق البـاهي ولا الطّيّـب الحلـو

(28) المعجب - م.س. - ص : 215-216.

(29) ابن سعيد : المغرب - م.س. - 2/216- ح:1.

وأقبـــح مـــن مـــرآي بطـــني فإنّـــه ... يُقرقـر مثـلَ الـرعد قرقـر في الجـــوّ[30]

وربّما كان ابن حزمون شبيهها بأبي بكر المخزوميّ الذي كـان «شـديد القحـة والشرّ»[31]، و«لا يسلم من هجوه أحد»[32]. ولقد أصاب بهجوه نفسه وولده[33].

2 - يبدو من أقوال بعض المؤرِّخين أن مجال إبداع بعض الشعراء كان مقتصراً علـى هـذا الغـرض، لا يجيـدون في سـواه. فالحِجـاريّ يقـول في أبـي بكـر اليكّـي: «لا تَجيد قريحته إلاّ في الهجاء، ولا تنشَط به في غير ذلك من الأنحاء»[34]، وابـن الأبّار لا يجد لعدد من الشعـراء غير ما قالـوه في الهجاء،فـلا يـورد لهـم شيئاً[35]. لذلـك اتجـه هؤلاء الشعراء إلى هذا الغرض، وإن لم تكن لهم بواعث أخرى تحملهم عليه.

3 - لم يكـن بعـض الشـعراء هجّـائين، وإنّمـا دُفعـوا إلى الهجـاء دفعـا بسـببٍ من تحدّ أو استفزاز أو اعتداء أو غير ذلك. ومن الأمثلة على هؤلاء الرصـافيُ البلنسـيّ. وإذا كان قد امتنع عن هجاء السُّهَيلي -كما أسلفنا- واكتفـى بتهديـده، فإنّـه لم يقـو على كظم غيظه حين طُعن في فنّه، فقال هاجيـاً لمنتقد إحدى قصائده:

ومنظومـــةٍ ســـبعاً وعشـــرين درّة ... تُـدار علـى الدنيـا كـؤوس رحيقهـا
عوى نحوها الكلب الأُعيمي حسـادة ... ومن ذا يَعيب الشمس عند شروقها؟
لآلـــئ تـــوم أشـــرقته بريقـــه ... وزادت ظلامـــا عينـــه ببريقهـــا

---

(30) عبد الواحد المراكشيّ: المعجب -م.س. -ص:216.

(31) ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -432/1.

(32) ابن سعيد: المغرب -م.س. -228/1.

(33) م.ن. -ص:228-229.

(34) انظر: م.ن. -266/2.

(35) البلفيقيُ: المقتضَب -م.س. -ص:206-207.

لوى العِيّ صمّاويْه عن سرّ روضها فلم يدر ما ريحانها من شقيقها
كأنّي قد أرسلتهنّ حجارة عليه فراغت أذنه عن طريقها[36]

4 - حملت بعضَ الشعراء نزعتُهم الدينية على القول في غرض الهجاء، فانتقدوا كلّ من رأوه حائداً عن الدين. فابن جُبير لم يكن من شعراء الهجاء، ولكنه أكثر من هجاء ابن رشد وغيره من المشتغلين بالفلسفة[37]، لأنّه رأى في سلوكهم مروقا من الدين وزندقة. وقد استفزّه، كذلك، ما ظهر في البقاع المقدّسة من مُحدَثات، فانتقد الوضع حاثّاً صلاح الدين الأيّوبيّ على إصلاحه[38]. ومما يدلّ على أنّ نزعته هي التي حملته على الهجاء قوله في ذمّ الفلاسفة:

قل للزّناديق عنّي قولاً هو السيف أُمضيه
أرسلت شعريَ فيكم يغزوكُمُ بقوافيه
صدعت لله فيكم بالحقّ والحقّ يُرضيه
...هيهات بُغضيَ فيكم في الله والله يدريه[39]

وقد أثار الزاهدَ ابن مُغاور سلوك الشهود بمدينة «شاطِبة»،فبعثته نزعته الدينيّة على انتقادهم، فقال يهجوهم شاكياً مستغيثاً:

إنّا إلى الله ماذا حلّ بالدين من الطِّوال اللّحى البيض العَثَانِينِ
باعوا رضى الله وابتاعوا مساخطه وغيّروا الشرع يا لله للدين
أضحت شهادتهم بالزُّور ناطقة إنّ الشّهود لأعوان الشياطين
فارحل أخي راشداًعن أرض شاطبة فما المقام بها إلاّ من الهُون[40]

---

(36) ديوان الرّصافي البلنسيّ - م.س. - ص :114.
(37) انظر : ابن عبد الملك المراكشيّ : الذيل والتكملة - م.س. - 5/2/611- 612، 6/30-33.
(38) انظر :م.ن. - 5/2/617.
(39) م.ن. - ص :612.
(40) صفوان بن إدريس : زاد المسافر - م.س. - ص :80.

وربّما كانت النزعة الدينيّة باعثاً لأبي حريز محفوظ بن مرعيّ الشّريف على هجاء«**دائبين على** الفحشاء»، إذ رأى فيما يأتونه من قبيح الفعل ما يعكس سلوك المجوس. يقول فيهم:

يا دائبين على الفحشاء ويلكم ... ألبستم شيخكم ثوبا من العارِ
الابن في داركم صهر لوالده ... والأخُ قد ينثني عن كلبه الحار
ما تحفظون أباكم في حلائله ... والكلب عِرْس لحاه ا لله من دار
أحييتمُ سنّة دان المجوس بها ... فعظّموا مثلَهم بيتا من النّار[41]

5 - كانت مُمالَأة الحكّام باعثا آخر من بواعث الهجاء. فما ورد من هجاء في محمد بن سعدابن مَرْدنيش، في مدائح الخلفاء الموحّدين[42]، كان في الغالب، ممالأة لهم. ولعلّ من أولئك الهاجين لابن مردنيش من كان يرى فيه زعيما أندلسيّا، رافضاً للسيادة الموحّدية على بلاده؛ ولا يعتبره متمردا على سلطة شرعية.

ومن أوضح الأمثلة على هذه الممالأة أن يمدح بعض الشعراء أبا جعفر بن عطيّة لّما كان وزيرا لعبد المومن، ثم يهجوه بعد نكبته، كما فعل الشاعر المغربي أبو عبد ا لله محمدابن حَبوُس إذ قال «يذمّه لما نُكب» قصيدة منها:

أندلسيّ ليس من بربرِ ... يختلس الملك من البربر
لا تُسلم البربر ما شيّدت ... بالملك القَيْسيّ من مفخر[43]

وذلك بعد أن كان قد مدحه[44].

(41) م.ن. -ص:123-124. ولعل الصواب: «لا ينثني عن كلبة الجار».

(42) انظر: ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:454،460.

(43) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:45-46. و «الملك القيسيّ» هو عبد المومن ابن عليّ. وكان هو وبنوه -كما أسلفنا - يدّعون النسبة إلى قيس عيلان.

(44) انظر:م.ن. -ص:45.

على أنّ الشماتة، بمن قلب لهم الدهر ظهر المجنّ من الحكّام، ليست جديدة في الأندلس. ويكفي أن نذكر تنويه المؤرّخ أبي مروان ابن حيّان بابن السقّاء القرطبيّ لمّا كان وزيراً لأبي الوليد ابن جَهْوَر أحد ملوك دول الطوائف، ثم الطعن فيه بعد مقتله على يد عبد الملك ابن جهور[45]- وأن نذكر نقد بعض شعراء الأندلس لملوك دول الطوائف بعد أن خلعهم المرابطون، كما فعل أبو الحسن ابن الجدّ[46]. وقد علّق الدكتور إحسان عبّاس على هذه الظاهرة في سلوك الناس فقال: «وقد جرت الأحوال المتقلّبة بالناس في ظلّ الحكومات المتعاقبة على استجداء رضى القائمين الجدد والشماتة بالذاهبين، سمة من سمات النفاق في الحياة السياسية تُومئ إلى نقصان في الشجاعة النفسيّة وإلى أزمة عميقة في الأخلاق. وأمثالها في الحديث والقديم كثيرة»[47].

6- كثيرا ما تكون العاهة باعثا على الهجاء لشعور صاحبها بالنقص. ولقد ثبت أن كثيرا من الهجّائين كانوا ذوي عاهات أو ممن يعانون نقصا في أجسامهم، أو غمزاً في أنسابهم. وعلى أنّنا لا نعرف ما كان يعانيه اليكّي وابن حزمون وغيرهما من هجّائي الفترة الأولى من عصر الموحّدين، فإنّنا نعتقد أنّ بعضهم كان ذا إحساس حادّ بما يكابده من نقص. ولقد مرت بنا الأبيات التي ندّد فيها ابن حزمون بصورته. فهل كانت تلك «الدمامة» من بواعثه على الهجاء؟

(45) قال الدكتور محمود مكّيّ معلّقا على هذا التصرّف من ابن حيان: «وقد وقع أبو مروان في... التناقض في حديثه عن أبي الحسن إبراهيم بن محمد بن يحيى المعروف بابن السقّاء...ولا يسعنا نحن أن نلتمس ...العذر لابن حيان، ولكنّنا نجد في عصره وسلوك رجاله على عهد ملوك الطوائف ما يُفسّر مسلكه هذا إن لم يبرّره أو يقم بعذره...» (المقبس -م.س. -المقدّمة -ص:49-50).

(46) له قصيدة يمدح فيها يوسف بن تاشفين وينتقد ملوك الطوائف. انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام -م.س. -242/2.

(47) تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين -م.س. -ص:149.

وإذا جاز لنا أن نستشهد بالشاعر أبي بكر المخزوميّ الشريف الذي لم يعش من هذه الفترة إلاّ سنة واحدة[48]، فإنّنا نجد أن آفة العمى كانت أهمّ باعث له على هجاء الناس.

فقد مدح ذات مرة عليّ ابن أضحى قاضي غرناطة ثم استطرد إلى هجاء غيره، «فقال له ابن أضحى: هلاّ اقتصرت على ما أنت بسبيله؛ فكم تقع في الناس! فقال: أنا أعمى وهم حُفَر، فلا أزال أقع فيها»[49]. وهذا الكلام - على منزعه الساخر - ذو دلالة على سوء ظنّه بالناس ونقمته عليهم. ولا نرى سببا لذلك السلوك غير إحساسه بنقصه؛ وإلا، فكيف نُوجّه قول الحِجاريّ: «ولا يزال يخبط الآفاق بعصاه، ويقع فيمن أطاعه أو عصاه»[50]؟

7- إذا كان الشعراء قد سخّروا بعض مدحهم للتكسّب، فإنّ ظاهرة التكسّب بالشعر لم تبق مقصورة على المدح، وإنما أصابت أغراضاً أخرى كالرثاء والهجاء[51]. فقد كان بعض الشعراء يهجون من لم يُحسن إليهم، وكان الناس يتّقون ذلك الهجو بالإحسان.

---

(48) قال العماد الإصفهانيّ: «وكانت وفاته في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة»(خريدة القصر، وجريدة العصر: قسم شعراء المغرب والأندلس -تحقيق آذرتاس آذرنوس- تنقيح وزيادة محمد المرزوقيّ ومحمد العروسيّ المطويّ والجيلاليّ بن الحاج يحيى -تونس- الدار التونسيّة للنشر -د.ط.-1971م.-255/2)؛ وروى ابن الخطيب عن أبي القاسم بن خلف أنّ المخزوميّ «كان حيّا بعد الأربعين وخمسمائة» (الإحاطة -م.س.-435/1).

(49) م.ن.

(50) ابن سعيد: المغرب -م.س.- 228/1.

(51) ينظر: درويش الجنديّ: ظاهرة التكسّب وأثرها في الشعر العربيّ ونقده- م.س.-ص:206-261.

ويبدو من أخبار ابن حزمون أنه اتّخذ من حدّة لسانه وسيلة للتكسب. ولعلّ فيما ذكره عبد الواحد المراكشيّ ما يشير إلى ذلك، إذ قال: «ونال ابن حزمون هذا عند قضاة المغرب وعمّاله وولاته جاها وثروة، كلّ ذلك خوفا من لسانه وحذراً من هجائه»[52].

8- تهاجى كثير من شعراء الأندلس، على نحو ما وقع بين شعراء المشرق كجرير والفرزدق وأضرابهما. فقد تهاجى قبل هذه الفترة أبو المخشيّ وابن هُبيرة[53]؛ كما تهاجى أبو بكر الأبيض وابن سارة الشَّنْتَريني[54]؛ وكانت بين أبي بكر المخزوميّ ونزهون بنت القلاعي مهاجاة حادّة، نزلا فيها إلى الحضيض[55]. ولعلّ أهم مهاجاة بين شعراء هذه الفترة ما كان بين ابن مرعيّ الشريف ومَرْج الكُحْل. وإذا كان ابن مرعيّ قد ركّز في هجائه على «شؤم» شعر مرج الكحل، فإنّ هذا قد تناول في هجائه للآخر «رقّة دينه» و«ضعة نسبه».

فمما قال ابن مرعي:

مالي أرى شعر مرج كحل	أشأم من ناقة البسوسِ
فإنّما شعره مغير	شنّ مغارا على النفوس[56]

ومما هجا به مرج الكحل ابن مرعيّ قوله طاعنا في دينه:

أيا عجبا ما للشريف يذمّني	ويُبغضني حتّى كأنّي مسجدُ
ولا عيب عندي غير أنّيَ مسلم	وأن اسمي اسم الهاشميّ: محمد[57]

(52) المعجب -م.س. -ص:216.
(53) انظر: ابن سعيد: المغرب -م.س.-124/2.
(54) انظر: صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:108-109.
(55) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -434/1-435.
(56) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:124.
(57) م.ن. -ص:125.

وقوله قادحا في نسبه:

أيــا ناقصـــاً يدّعـــي أنـــه كريم الجدود شريف السّلف

ألا جـــئ لنــا بــأب واحــد وضيع ونحن نحطّ الشرف(58)

ويبدو من تتبّع نصوص هذه المهاجـاة أنّ العـداوة بـين الشـاعرين قـد تمكّنـت. و لم يقف الأمر عنـد «المهـاترَة» الشـعريّة. ويكفـي دليـلا علـى ذلـك أن يُغـري مـرج الكحل من اسمه: محمد بن حميد، بابن مرعي فيقول من أبيات:

إن الـذي قربـت غـير مقــرب إن الذي شرّفت غـير مشرّف

وغدا يـرى الصلوات نافلة له ويقول بالتعطيل والتحريف(59)

وتبعا لاختلاف البواعث تنـوّع الهجـاء في هـذه الفـترة. ونحـاول -فيمـا يلـي- أن نبيّن أهمّ أنواعه مستشهدين بما تيسّر لنا الوقوف عليه من نصوص.

1 - كـان بعـض الهجـاء في هـذه الفـترة ذا طـابع سياســي. ذلــك أنّ كثــيراً من شـعراء الأندلـس سـاروا في ركـاب الحـاكم الجديـد،فـانتقدوا كثـيراً مـن المنـاوئين لـه مـن بقايـا المرابطـين، ومـن زعمـاء القبـائل العربيّـة بـالمغربين الأوسـط والأدنـى، ومـن الثـائرين بـالأندلس رفضـاً لسـيادته، ومـن المـتزعّمين لحركـات التمـرّد بـالمغرب الأقصى، وغيرهم.

وإذا كنّـا لا نكـاد نجـد شـعراً كثـيراً في انتقـاد الحكـام الموحّديـن،فمـا ذلــك إلا لأنّ حرّيّة التعبير لم تكن مُتاحَة دائما،فسكت الناقمون والمتذمّرون خوفاً من سـوء عاقبة نقدهم. وأمثال هذا الموقف في القديم كثـيرة،لاسيما في عصــر عُـرف حكّامـه بالصرامة وعدم التجاوز عمن ينقدهم ولو كان من أقاربهم(60).

(58) م.ن. - ص :125.

(59) م.ن. - ص :126. ولعل آخر كلمة في البيت الأول هي: «شريف».

(60) لم يتورّع الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور من قتل أخويه وعمّه لمّا رأى منهم ماساءه.

انظر :عبد الواحد المراكشي :المعجب - م.س. - ص :204-205.

وقد اختلط بعض هذا الهجاء بالمدح.فالشاعر يمدح الحاكم الموحّديّ ويهجو مناوئه. من ذلك انتقاد ابن مجبر لرفض أهل قفصة دعوة الموحدين وتشفّيه بعد أن أمر أبو يوسف يعقوب المنصور برجمها:

ما غرّ قفصة إلاّ أنها اجترمت فلم يكن عند أهل الحلم تثريبُ
ما بالها زار أمر الله حوزتها فلم يكن عندها أهل وترحيب؟
توهّمت أنّ أهل البغي تمنعها وقلّما حمت الشّهدَ اليعاسيب
تلك البغيّ التي خانت فحاق بها وبالزّناة بها رجم وتعذيب(61)

ومن ذلك أيضا قول ابن حربون في زعيم قبيلة «غمارة» المتمرّد على أبي يعقوب يوسف بجبل «الكواكب» بالمغرب الأقصى:

جاءوا به باب الرواق يُقاد في بُرد الهوان مقادةَ المسترذل
لله كفٌّ طوّحته بضربة رفعته عن سمة الأخسّ الأنذل(62)

ولعلّ محمد بن سعدابن مردنيش أكثر «حظّاً» من هجاء شعراء تلك الفترة. لأنّ حركته كانت بالأندلس، ولأنها دامت طويلا(63)، ولأنها -أيضاً- كانت من القوّة بحيث أصبحت مهدّدة لسيادة الموحّدين بشبه الجزيرة. وممّا انتقده الشعراء، فضلا عن رفض ابن سعد الدّخول في طاعة الموحدين، كونه تحالف مع أعداء الدّين. يقول أبو الحسن ابن عيّاش ناعياً عليه ذلك التحالف ساخراً منه:

ليس ابن سعد حلف سعد إذ غدا حلف النصارى عاضداً أحكامها(64)

وينعته ابن سيّد بالجنون فيقول :

(61) الحميريّ: كتاب الروض المعطار -م.س. -ص:479.
(62) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:327.
(63) كانت حركة بني غانية أطول زمنا منها، ولكنّها كانت ببلاد المغرب.
(64) م.ن. -ص:460.

جنّ ابن سعد بالنفاق جنونه وطغى إلى أن بات فيه الأولق[65]

وقد أصابت سهام الهجاء كذلك مساعده إبراهيم ابن هَمُشْك. ولعلّ الباعث على ذلك الهجاء ما عاناه سكّان شرق الأندلس أثناء تسلّطهما. وفي البيتين التاليين -وهما لأبي بكر اليعمريّ- ما يشير إلى عسف ابن همشك:

هَمُشْك ضمّ من حرفين من همّ ومن شكّ
فعين الدين والدنيا لإمرته أسىً تبكي[66]

وممّا يدخل في النقد السياسيّ أيضاً قول أبي العبّاس أحمد ابن شكيل مندّداً بأبي قصبة الخارجيّ، لمّا قتل «بجزولة» سنة 598 هـ. في عهد الخليفة محمد الناصر، حيث ينعته بالكذب والضلال، ويتشفّى ويسخر:

الله أطفأ ما أذكى أبو قصبه من حربه وأزال السّحر بالغلبهْ
أمر الخليفة وافاه على عجل يدعوه للحقّ حتّى ابتزّه كذبه
فمن أراد سؤالا عن قضيّته فجملة الأمر أنّ الحقّ قد غلبه
لقد شفى النفسَ أن وافى بهامته صدر القناة مكان الصدر والرقبه
لما استحرّ جماحاً في ضلالته عادت عليه لجاماً تلكم القصبه[67]

ومن النقد السياسيّ كذلك قول يحيى بن سهل اليَكّي منتقداً تصرّف ابن خيار الجَيّانيّ منذرا إيّاه سوء العاقبة، مذكّراً له بنهاية كلّ من الوزيرين أبي جعفر ابن عطية[68] وعبد السلام الكُوميّ[69].

(65) م.ن. -ص:454.
(66) البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص:130.
(67) م.ن. -ص:150.
(68) قتله عبد المؤمن واستصفى أمواله. انظر: عبد الواحد المراكشيّ: المعجب -م.س. -ص:142.
(69) أرسل إليه عبد المؤمن من قتله خنقاً. انظر: م.ن.

وكان ابن خيار عاملا للمرابطين على مدينة فاس،ثم مكّن الموحّدين منها[70]. يقول اليَكّي:

أيا ابن خيار بلغت المدى وقد يُكسَف البدر عند التّمامْ
فأين الوزير أبو جعفر؟ وأين المقرّب عبد السّلام[71]

وقد انتقد ابن جُبير الولاة على عهده، فقال ناعياً عليهم كبرهم، مُبديا سخطه على الولاية مطلقا، لما استفزّه من سلوك الولاة:

من كبرت عن قدره خطّة داخله من أجلها الكبرُ
ومن سمت همّته لم يكن لخطّة في نفسه قدر
ولاية الإنسان سكر فما دامت له دام به السُّكر
مغايظ الدنيا وأربابها ليس عليها لأمرئ صبر
دعهم مع الدهر وأحداثه حتى ترى ما يصنع الدهر[72]

ويبدو أن ابن جبير كان ناقما على ولاة عصره. ومع أن موقفاً كذلك قد يكون له سبب مباشر، فإنّ ما كان في ابن جبير من نزعة إصلاحيّة قد يكون وحده باعثاً له على ذلك. وممّا يتّصل،من وصاياه وآدابه، بهذا الأمر قوله ناصحاً منتقداً.

ولا تتواضع للولاة فإنّهم من الكبر في حال تموج بهم سكرا فقد
وإيّاك أن ترضى بتقبيل راحة فقد قيلفيها:إنّها السجدة الصغرى[73]

وإذا كان المتتبّع لشعر هذه الفترة لا يكاد يجد هجاء في الخلفاء والأمراء[74]،

---

(70) انظر: ابن الآبار: كتاب الحلّة السّيَراء -م.س. - 2/236-237.

(71) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص: 122.

(72) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. - 5/2/613.

(73) م.ن. -ص:613.

(74) نجد أبا جعفرابن سعيد يعرّض بالسيّد عثمان بن عبد المومن: انظر: المقّريّ: نفح الطيب -م.س.- 4/181.

فإنه يُلفي عدّة نصوص ينتقد فيها أصحابها المسؤولين المباشرين ،كالقاضي، وصاحب المدينة وغيرهما؛ وهم في الغالب، من الأندلسيّين. وعلى أنّ هذا النّقد ليس جديداً في الشعر الأندلسيّ إذ عرفناه -كما أشرنا في بداية هذا الفصل- عند يحيى بن حَكم الغزال الذي تصدّى بلاذع هجائه للقاضي «يُخامر» -فإنّه يدلّ على أنّ كثيراً من أولئك المسؤولين لم يكونوا في مستوى ما أُنيط بهم. ولربّما شوّهت تلك النصوص الصورة المثلى للقاضي الأندلسيّ التي حقّقها يحيى بن يحيى الليثيّ ومُنذر بن سعيد البلّوطيّ وأمثالهما ممن أفاضت المصادر في التنويه بسيرتهم.

ومن أمثلة هذا النقد ما نجده عند الزاهد ابن مُغاور إذ انبرى لصاحب مدينة اسمه «ابن بَيِّش» عندما استفزّه ما كان يجرؤ عليه من تحليل ما حرّم الله، وما كان يتلاعب به من الأحكام. فمن قوله، فيه، منتقدا جراءته على تحليل الحرام:

قال ابن بيّشِ المشهور موضعه ... قولاً يُعاب عليه آخر الأبدِ:
الخمر والزّمر والفحشاء أجمعها ... حلٌّ وبلٌّ، وتبقى خطّتي بيدي[75]

ومن قوله فيه أيضاً، في معرض سخريّة:

الحمد لله بلغنا المنى ... لا حدّ في الخمر ولا في الغنا
قد حلّل القاضي لنا ذا وذا ... وإن شكرناه أحلّ الزّنا[76]

ويسخر من تلاعبه بالأحكام التي يصدرها ثم ينقضها، فيقول متهما إيّاه:

لا تظنّوا ابن بيِّشٍ ... في قضاياه يرتشي
إنّما الشيخ هلهل ... فهو يصحو وينتشي
فترى الحكم غدوة ... وترى النّقض بالعشي[77]

(75) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:81.

(76) م.ن. -ص:81.

(77) م.ن. -ص:81.

ومع أن وصفا كهذا يصعب تصديقه لاستبعاد أن يسلك هذا السلوكَ الغريب رجل يتحكّم في مصير جماعة، فإنّ صدوره عن ابن مغاور الزاهد المعروف بالصلاح لا يترك مجالاً للشك في واقعيّته، وإن لم يكن ذلك السلوك عامّاً. ويبدو أنّ غرابة تصرّف ابن بيّش هي التي بعثت ابن مغاور على أن يُصدر هذا النقد الساخر اللاّذع غير مبال بسوء العاقبة.

على أن ابن مغاور كان في نقده ذلك معبّرا عن موقف الجماعة من هذا القاضي، و لم يكن يميّزه عنهم إلا الجرأةُ في النقد وامتلاك وسيلته. يقول -في هزؤ- واعداً المتذمّرين على سيرة ابن بيّش، بصلاح أمره:

أيّها النـاس حسبكم | اِرهبوا الله واتّقوا
لا تلوموا ابن بيّش | فهو قاضٍ مُوفَّق
عن قريب ترونه | بطنون تُصدَّق
يكسر الدَّن عَنْوة | وترى الزِّقّ يُفتَق[78]

وإذا كان ابن مغاور قد انتقد ما كان يتجرّأ عليه ابن بيّش من تحليل الحرام ونقض ما يُصدر من أحكام، من غير أن يتناول بنقده أهليّته لذلك المنصب، فإنّ ابن محفوظ قد استنكر أن يُستقضى «جاهل»، كما ساءه أن تنقلب المعايير، فقال هاجيّاً قاضي «شاطِبة» داعيا إلى عزله عن خطّة الأحكام التي نِيطت به وهو ليس منها «في صَدَد»:

هذا الفلانيّ مُستقضىً بشاطبة | وليس من خطّة الأحكام في صَدَدِ
لا غرو أن يسموَ الرّذل الخيار كما | يسمو على الماء ما يطفو من الزَّبَد
لا يرتضي خطّةً نيطت به أحدٌ | والصقر ليس بصيّاد مع الصُّرَد
ما ضرّه وهو قاض أن يُلام وأن | ليس القضاء بمحبوب إلى أحد

---

(78) م.ن.

حُطوّه عن رتبة قدّمتموه لها   من الحضيض وردّوا العَيْر للوَتِد[79]

ونختم حديثنا عن هذا الضرب من الهجاء في تلك الفترة بلون عكس نزعة عنصريّة. ذلك أنّه على الرغم من الوحدة السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة التي تحقّقت بين المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحّدين، ظلّ بعضٌ من الأندلسيّين والمغاربة ينزعون نزعة عنصريّة. ولقد مرّ بنا ذانك البيتان اللذان هجا فيهما الشاعر المغربيّ محمد ابن حَبّوس أبا جعفر ابن عطية لما نُكب، ومنهما تفوح رائحة عنصريّة قويّة، كما أشرنا -فيما سبق- إلى تلك الرسالة الشهيرة التي فاخر فيها الشَّقُنْديّ المغرب بالأندلس في أحد مجالس بني عبد المؤمن. وقد يكون من هذا اللون من الهجاء قول يحيى بن سهل اليكّي هاجياً «الزراجين» وهم من البربر.

رأيتُ آدم في نومي فقلت له: أبا البريّة، إنّ الناس قد حكموا
أنّ الزّراجين رهط منك قال إذا   حوّاء طالقة إن كان ما زعموا[80]

تلك نماذج من هجاء هذه الفترة ذي الطابع السياسيّ. وإنّ بعضها ليدلّ على أن الخوف لم يكن دائما مُلجما للشاعر الهجّاء؛ فقد يدفعه تذمّره إلى القول دونما مبالاة بسوء العاقبة. كما يدلّ بعضها على أنّ الشاعر الهاجي لم يكن دائما ذا موقف منفرد، وإنّما كان -في الغالب- مُفصحا عن استياء الجماعة التي يعيش بينها مقاسما إيّاها ما ينغّص صفو حياتها. وإذا كان عدد من الشعراء قد ساروا في ركاب الحاكم الموحّدي فانتقدوا مناوئيه، فليس ذلك دلالة قاطعة على اقتناع راسخ وولاء خالص. ولا أدلّ على ذلك من تقلّب بعضهم بتقلّب الأحوال. ولو كنّا ندرس شعر الهجاء في الفترة الثانية من عصر الموحّدين لوجدنا نصوصاً تهجو ابن تومرت وتطعن في عصمته وذلك بعد قرار المأمون الشهير. وقد كان الشعراء قبل

(79) البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص:146.

(80) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص: 120.

بهذه الصفة ما بلغه أحد نصوص هذه الفترة. فقد وصف صفوان بن إدريس التُّجيبيّ أكولاً فأبدع في تضخيم شرهه، فقال:

وصاحبٍ لي لا كانت طبائعه ... كأنّها سُحُب بالسّرط منهمزة
إذا أحسّ بمأكول تُقدّمه ... يكاد يسبق فيه حلقه بصره
كأنّ فاه عصاموسى إذا انقلبت ... وما تُقدّمه إفكٌ من السّحره[84]

ويبدو من النصّ أنّ تأذّي صفوان بعيب صاحبه هو الذي بعثه على نقده وذم تلك الصفة منه. على أنّ العيب الذي تأذّى به صفوان قد يهون أمام عيوب أخرى شكاها الشعراء من أصحابهم أو جيرانهم أو غيرهم منتقدين إياها. فالبكري يقول «في صديق كان يداجيه»:

ومُستبطنٍ حقداً وفي حركاته ... تصنُّع مظلوم يدلّ بظالم
تصدّى لإيناسي بحيلة فاتك ... ولاحظني خوفا بطَرْف مُسالم
تستّر عن كشف العداوة جاهداً ... كما كمنت في الرّوض دُهْم الأراقم[85]

وأبو القاسم محمد بن نوح ينتقد نموذجا من الناس لا خير في صداقته،

= ياليت شعري إذا أوما إلى فمه ... أحَلقه لهوات أم ميادينُ
كأنّها وخبيث الزاد يضرمها ... جهنّم قُذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنّته ... كأنّما كلّ فكّ منه طاحون
كأنّ بيت سلاح فيه مختزن ... ممّا أعدّته للرسل الفراعين
كأنّما الحمل المشويّ في يده ... ذو النون في الماء لما عضّه النّون
كأنّ في فكّه أيتام أرملة ... أو باكيات عليهنّ التّبابين
(ديوان ابن هانئ -م.س. -ص:376).

(84) البلفيقيّ: المقتضب -م.س. -ص:139.

(85) م.ن. -ص:159.

ويعدّد من عيوبه: التقلّب، والادّعاء الكاذب، والأذى، والخذلان وغيرها، فيقول:

خليـل لا يـدوم لـه خليـلُ يميـل مع الزمـان كمـا يميـلُ
سمينٌ جسمُه والعرض مُضنًى يكـثّر نفسـه وهـو القليـل
ينـال صديقَـه ويُنـال منـه وإن يُحتَج إليه فـلا يُنيـل[86]

وينتقد صفوان أناسا جاورهم فتأذّى بسلوكهم. يقول شاكيا:

إنّـا إلى الله مـن أنـاس قـد خلعـوا لبسـة الوقـار
جاورتهم فانخفضت هونـا يارب خفّض على الجوار[87]

ويستفزّ الرصافيَّ البلنسيّ ما كان يأتيـه «ابـن الخليـع» مـن إفسـاد بـين النـاس وإغراء بعضهم ببعض، فتراءى له شيطاناً ينزغ بين الناس، فقال هاجيا إيّاه:

ما أنزغ الشيخين بين الورى: إبليس، لا قدّس، وابن الخليع[88]

وتصـدّى الشـاعر الأندلسـيّ في تلـك الفـترة لأدعيـاء العلـم وغـيره، فوجّه إليهم سهام هجائه مُبيّنا حقيقتهم بين النـاس.ومـن ذلـك مـا قالـه ابـن مُطـرّف في رجل اسمه «سَهْل» مشيراً إلى قِصَر باعه في العلم، وجمعه بين الجيّد والرديء منه:

وصفـوا سـهلا فقـالوا حـاطب والليـل ليـلُ
إنّمـا العلـم الثريّـا والفتى سهل سُهَيل[89]

وقد أثار ابن حزمون ما أبداه أبو عبد الله ابـن نـوح مـن «تشـفّ» و«شماتـة» لمّا مات أبو عبد الله ابن حميد وأبو القاسم ابـن حبيـش، فاستطرد إلى هجائـه وتقريعـه -وذلك في قصيدة نظمها في تأبينهما- فقـال:

---

(86) ابن سعيد: المغرب -م.س. -308/2.

(87) المقّريّ: نفح الطيب -م.س. -191/5.

(88) ديوان الرصافيّ البلنسيّ -م.س. -ص:105.

(89) البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص:151.

تبكي الشريعة وابنُ نوح ضاحك إنّ السفيه بكلّ شيء مُولَعُ

حسْب ابنِ نوح أنّه عمَلٌ كما جاء الكتاب به الذي هو نتبع(90)

ولم يتحرّج الشاعر الأندلسيّ في ذلك العهد من أن يذهب بعيدا في ذكر السوءات والتشهير بالانحرافات، تحمله على ذلك المنزع -في الغالب- أحقاد شخصيّة. ولعلّ ما ذهب إليه الأستاذ عبد القادر محداد أن يكون صوابا،وذلك حين رأى في هذا الهجاء تعدّياً على الأخلاق، واعتبره «دلالة واضحة على دناءتهم وانهماكهم في أغرب اللذّات»(91).

ومن الأمثلة على هذا الاتجاه ما قاله ابن حجّاج الإشبيليّ الملقّب بالغيشوم في رجل اسمه «معاد» من هجاء لم يكتف فيه بالتّشهير «بعنّته»:

قالت له عِرْسه إذ جاء يَنكحها: ماذا ذهبت به من كل عنّينِ

هلاّ استعنت بميمون، فقال لها: إنّي استعنت على نفسي بميمون(92)

ويهجو ابن مرعيّ الشريف رجلاً بإتيان خادم سرية لوالده، اسمها «شجنة»، فيقول مُقرّعاً إيّاه:

بذمام شجنة يا أبا العبّاسِ تلك التي فضحتك بين الناس

الاّ خلعت لها ثيابك إنها بئس اللباس وشرّ كل لباس(93)

وأكثر شعراء الفترة أخذاً بهذا الاتجاه هو يحيى بن سهل اليكّي. فقد جرى في الإفحاش إلى مداه.وإنّ ما قاله في ذمّ أهل فاس لَيحول ما فيه من التعدّي على أخلاقهم دون الاستشهاد به. ولقد أفحش أيضاً في هجاء أحد الوزراء

---

(90) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:107.

(91) م.ن -المقدّمة -ص:7.

(92) م.ن. -ص:103.

(93) م.ن. -ص:124.

-لعلّه ابن خيار الجيّانيّ الذي انتقده في نصّ آخر، ورد في موضع سابق من هذا البحث- فقال:

ثماني خصال في الوزير وعِرْسه ... وثنتان والتحقيق بالمرء أليقُ
...[94]وتزنى فعلها مثل فعله ... فإن لاط يوما فهي لا شكّ تسحق
ويكذب أحياناً ويحلف حانثاً ... ويكفر تقليداً ويزني ويسرق
وعاشرة، والذنب فيها لأمه، ... إذا ذُكرت لم يبق للشّتم مَنطِق[95]

إن هذا النص وغيره مما قاله في أهل فاس شواهد على أنّ الهجاء كان عند اليكّي قذفا في الأعراض، وطعنا في الأخلاق، ورجماً بالغيب. وإذا كان عدد من هجّائي الأندلس قد جنى عليهم هجاؤهم[96]، فلسنا ندري ما كان ردّ فعل ذلك الوزير الذي هجاه اليكّيّ.

على أنّ اليكّي لم يكن دائما هو البادئ بالهجاء، فقد كان هجاؤه، في بعض الأحيان، دفاعا عن نفسه وانتصاراً لها. ومن الشواهد على ذلك قوله:

قالوا: هجاك ابن ميمون، فقلت لهم: ... ياليت شعري من الهاجي فأدريهِ؟
قالوا: الفقيه الذي من أرض قرطبة ... قلت : القطيم؟فقالوا كلُّهم: إيه[97]

ويقترب أبو جعفر ابن عاصم من اليكّي في هجائه لأهل فاس، وذلك في ذمّه لمدينة «شاطِبة» وأهلها حيث يقول:

شاطبة الشّرق شرّ دار ... ليس لسكّانها فلاحُ
السُّكْب من شأنهم ولكن ... أكثر مسكوبهم سُلاح

(94) كلمة قبيحة، حذفناها.
(95) م.ن. -ص:122-123.
(96) من هؤلاء: أبو المخشيّ عاصم بن زيد العِباديّ الذي سبقت الإشارة إليه.
(97) م.ن. -ص:49.

لهم به في الكنيف حفظ   وهو بأَشتاههم مُباح[98]

ومن يتتبع أشعار الزهد يقف على انتقاد أصحابها لكثير من العيوب الخلُقية والانحرافات الاجتماعية التي كانت تثير استياء الزُّهاد. فكان بعض شعر الزهد، بذلك، شعرا إصلاحيّاً، وفنّاً هادفاً.

إنّ ما سبق عرضه من نماذج هذا اللون من الهجاء لا يُعطي صورة وافية عن كلّ العيوب الخلُقية التي عرفها المجتمع الأندلسيّ في ذلك العهد. وذلك لأن الشاعر العربيّ القديم لم يكن راصدا متحريّا لعيوب مجتمعه، ثم لأنّ ما قيل في نقد تلك العيوب والتشهير بأصحابها قد ضاع كثير منه، لتعفّف المؤلّفين عن نقله، أو لغير ذلك من الأسباب.

3- من هجاء هذه الفترة ما كان ذا طابع دينيّ، كان الباعث على نظمه -كما أسلفنا- تديّن أصحابه وصلاحهم.

وأهمّ القائلين في هذا اللون: ابن جُبير الذي هجا ابن رشد وأمثاله من المشتغلين بالفلسفة، كما انتقد ما ظهر من البدع في البقاع المقدّسة. وفيما يلي بيان لكلّ نوع:

ا- هجاء الفلاسفة:

أشرنا -فيما سبق- إلى ما كان ينال المشتغلين بالفلسفة، بالأندلس، من مضايقة واضطهاد؛ واستشهدنا على تلك الظاهرة بعدّة نصوص، من بينها ما ذكره المقّري من أنّ المشتغلين بالفلسفة لم يكونوا يتظاهرون بها خوفا على نفوسهم، ومن أنّ كلّ من عُرف عنه الاهتمام بها عُدّ زنديقا، وأنّ أمره قد يصل إلى القتل.

---

(98) م.ن. -ص:88.

وإذا كان هذا هو رأي عامّة الأندلسيين في الفلاسفة، لم يكن غريبا أن يذهب أهل الزهد والورع إلى أبعد من ذلك، فيحثّوا أُولي الأمر على قطع دابرهم واستئصال شأفتهم.

وابن جبير واحد من زهّاد الأندلس ومتصوفيها في تلك الفترة[99]؛ وقد رأى في طائفة الفلاسفة خطرا على الدين، فتصدى لها بحماس قلّ نظيره. ويُمكن أن نقسّم ما ورد له في ذلك إلى قسمين: ما قاله في نقد الفلاسفة عموما، وما نظمه في هجاء ابن رشد بصفة خاصّة.

فمن نقده الفلاسفة عموما قوله واصفا خطرهم على العقيدة، ومبيّنا دهريّتهم:

قد ثبّت الغيَّ في العباد ... طائفةُ الكون والفسادِ
يلعنها الله حيث كانت ... فإنّها آفة العباد
دهريّة لا يرون رُسْلا ... ولا يُقرّون بالمعاد
يعتقدون الأمور دورا ... والناس كالزرع والحصاد[100]

ومن ذمّه إياهم منددا بسلوكهم من إباحة المحظور، واقتراف المناكر، وإتيان الصلاة في كسل...:

لأشياع الفلاسفة اعتقاد ... يرون به عن الشرع انحلالا
أباحوا كل محظور حرام ... وردّوه لأنفسهم حلالا
وما انتسبوا إلى الإسلام إلا ... لصَوْن دمائهم أن لا تُسالا
فيأتون المناكر في نشاط ... ويأتون الصلاة وهم كُسالى[101]

(99) نوّه كثير من المؤرّخين بزهد ابن جبير وورعه. من ذلك ما قاله ابن عبد الملك المراكشيّ متحدّثا عن سيرته بعد قفوله من رحلته الثانية: «سكن غرناطة ثم مالَقة ثم فاس ثم سبتة منقطعا إلى إسماع الحديث والتصوّف وترويه ما كان عنده؛ وفضله مع ذلك يزيد، وورعه يتحقّق، وأعماله الصالحة تزكو» (الذيل والتكملة -م.س. -606/2/5).

(100)،(101) م.ن. -ص:611.

وفي قطعة أخرى يعود إلى الإشارة إلى خطرهم على الدين، وبيان سلوكهم واعتقادهم، فيقول:

الدين يشكو بليّهْ ... من فرقة منطقيّهْ
لا يشهدون صلاة ... إلا لمعنى التّقيّه
ولا ترى الشرع إلا ... سياسة مدنيّه
ويُؤثرون عليه ... مذاهبا فلسفيّه[102]

ويبدو من بعض ما نظم ابن جبير في هذا الغرض أن هدفه كان ردّ هؤلاء «الضالّين» عن «غيّهم». يقول مشرا إلى الأثر الذي ينتظره من هجومه عليهم:

كم ظامئ لكلامي ... يَرويه عُجْبا فيُرويهْ
وكم غليلِ فؤاد ... بصحّة القول يَشفيه
وراكب لهواه ... عساه يوم سيَثنيه[103]

ويردّ على ما يُمكن أن يتّهموه به من أنّ موقفه من الفلسفة وأصحابها يعود إلى جهله، فيقول مشيراً إلى زهده في علمهم:

لعلكم أن تقولوا ... فإنكم أهل تمويه
من كان جاهل شيء ... فلا يزال يعاديه
وذلك العلم عندي ... لاخير فيكم ولا فيه[104]

ويشير ابن عبد الملك المراكشيّ إلى كثرة ما قال ابن جُبير في هذا الغرض[105]، مما يدلّ على بالغ اهتمامه بهذه «الظاهرة» واستعظام خطرها. ومع أنّنا لا نعرف متى نظم ابن جبير هجاءه في الفلاسفة،

(102) م.ن. -ص: 611-612.
(103) و(104) م.ن. -ص: 612.
(105) انظر : م.ن.

فإننا نستبعد أن يكون قد فعل ذلك على عهد أبي يعقوب يوسف الذي كان يولي الفلسفة اهتماما خاصًا ويقرّب إليه المشتغلين بها. وأغلب الظنّ أن ابن جبير لم يجرؤ على هذا الهجو إلابعد نكبة ابن رشد وملاحقة أصحابه، وذلك في عهد أبي يوسف يعقوب، كما أسلفنا.

وإذا كانت مواقف عامة الأندلسيّين من الفلسفة متشابهة في جلّ مراحل تاريخهم، فإننا لا نجد من شعراء الأندلس من خصّص لهجوهم من نتاجه ما خصّص ابن جبير. فقد استفزّه اعتقادهم، وأثارته آراؤهم فاتخذ من شعره سلاحاً لردّ «عاديتهم».

ومن هجاء ابن جبير لابن رشد لما نكب[106]، قوله ساخرا متشفيا، متلاعبا بالألفاظ:

---

(106) أشرنا فيما سبق إلى نكبة ابن رشد. ونودّ هنا -لمزيد من التوضيح- أن ننقل خبرها عن مصدرين موثوق بهما، هما: «المعجب» و «الذيل والتكملة»:

قال عبد الواحد المرّاكشيّ: «وفي أيامه (أي أبي يوسف يعقوب المنصور) نالت أبا الوليد... ابن رشد... محنة شديدة. وكان لها سببان: جليّ وخفيّ. فأمّا سببها الخفيّ -وهو أكبر أسبابها- فإنّ الحكيم أبا الوليد -رحمه الله- أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس... فقال في هذا الكتاب عند ذكره الزرافة:... وقد رأيتها عند ملك البربر،جاريا في ذلك على طريقة العلماء ...غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خَدَمة الملوك ومتحيّلو الكتاب من الإطراء والتقريظ...ثم إن قوما ممن يناويه من أهل قرطبة...سعوا به إلى أبي يوسف ووجدوا إلى ذلك طريقا بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التي كان يكتبها فوجدوا فيها بخطّه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدّم:فقد ظهر أن الزّهرة أحد الآلهة. فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة، فاستدعاه بعد أن جمع له الرّؤساء والأعيان من كلّ طبقة وهم بمدينة قرطبة. فلمّا حضر أبو الوليد رحمه الله قال له بعد أن نبذ إليه بالأوراق: أخطّك هذا؟ فأنكر. فقال أمير المؤمنين: لعن الله كاتب هذا الخط، وأمر الحاضرين بلعنه، ثم أمر بإخراجه على حال سيئة، وإبعاده وإبعاد من يتكلّم في شيء من هذا العلوم. وكُتبت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدّم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملة واحدة، وإحراق كتب الفلسفة كلّها...». (المعجب -م.س. -ص:223-225).

الآن أيقـــن ابـــن رشـــد   أن تواليفـــــه توالـــــف
يــا ظالـمـــاً نفسَـه تــأمّل   هل تجد اليوم من يوالـف(107)

ومنه قوله مقرّعا إياه موازنا بينه وبين جدّه في الدّين:

لم تـلزم الرشـد يـــابن رشـد   لّمـا عــلا في الزّمــان جــدّك
وكنت في الديـــن ذا ريـــاء   ما هكذا كان فيـه جـدّك(108)

ومن ذلك نصّ يعرب فيه عن فرحته بما أصاب ابن رشد واتباعه مـن التنكيـل بأمر من أبي يوسف يعقوب، يقول فيـه شـاكرا الله علـى مـا تحقّـق مـن « نـــصـر» على «فـرقة الباطل وأشياعه»:

الحمـــد لله علـــى نصــــره   لفرقـــة الحــــقّ وأشـــياعه
كان ابن رشد في مــدى غيّـه   قـد وضـع الديــن بأوضاعـه
...فالحمــد لله علي أخـــذه   وأخذ من كان من أتباعه(109)

= ونقل ابن عبد الملك المراكشي عن أبي الحجاج خبرها حيث يقول: «وأما أبو الوليد بن رشد فكـان قد نشأ بينه وبين أهل قرطبة قديما وحشة جرّتها أسباب المحاسدة ومنافسة طول المجاورة فانتدب الطـالبون لنفـي أشياء عليه في مصنَفاته تأولوا الخروج فيها عن سنن الشريعة وإيثاره لحكم الطبيعة، وحشروا منها ألفاظاً عديدةً، وفصولاً ربّما كانت غير سديدة، وجُمعت في أوراق. وقيل إن بعضها أُلفي بخطّـه. ومشى رافعوهـا إلى حضـرة مرّاكش سنة تسعين، فشغل عن الالتفات إليها والوقوف عليها ما كانت الحال بسـبيله مـن الاسـتعداد، والنظـر في مهمّات الجهاد...فلمـا كـان التلـوم مـن المنصـور بمدينة قرطبة...تجـدّدت للطـالبين آمـالهم، وقـوي تـألّبهم واسترسالهم ،فأدلوا بتلك الألقيات...فقرئت بالمجلس وتؤوّلت أغراضها ومعانيها، وقواعدها ومبانيها...فلم يكن عند احتماع الملإ إلا المدافعة عن شريعة الإسلام. ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقـاء، وأغمـد السـيف التمـاسَ جميـل الجـزاء، وأمـر طلبـة مجلسـه وفقهـاء دولتـه بـالحضور بجـامع المسـلمين، وتعريـف المـلإ بأنّـه مـرق مـن الديـن، وأنه يستوجب لعنة الضالّين. وأُضيف إليه القاضي أبو عبد الله بن إبراهيم الأُصولي في هذا الازدحام، ولُفّ معه في حريق هذا الملام، لأشياء نُقمت عليه... فنالهم [كذا] ماشاء الله من الجفـا...ثـم أُمـر أبـو الوليـد بسـكنى اليسّانة...وتفرق تلاميذ أبي الوليد أيدي سبا» (الذيل والتكملة -م.س. -25/6-26).

(107)و(108) و(109) م.ن. -ص:30.

ولم يكتف ابن جبير بهذه المقطوعات يُرسلها نبالا،راشقاً بها ابن رشد وأضرابه، وإنما نظم نصوصاً كثيرةً في الظرف الذي نُكبوا فيه، يمدح فيها أبا يوسف يعقوب، ويشكره على ما فعله بهم، ويستعيده عليهم ذامّاً إيّاهم مهوّلاً خطرهم على الدّين[110]. ونكتفي من تلك النصوص بقوله مخاطبا أبا يوسف:

أطلعكَ الله سرّ قوم شقّوا العصا بالنفاق شقّا

تفلسفوا وادّعَوا علوما صاحبها في المعاد يشقى

واحتقروا الشرع وازدروه سفاهة منهم وحمقا[111]

إن ما نظم ابن جبير في هذا الغرض لهو وثيقة تاريخية عن موقف الأندلسيين من الفلسفة، تسند ما ورد في عدّة مصادر عن هذا الموقف[112]؛ وإنّ كثرة ما نظمه ابن جبير في هذا الباب لتدلّ على أنّ هذه القضية قد أخذت من اهتمامه ما لم تأخذه من اهتمام غيره.

ب- انتقاد ما ظهر من البدع بالمدينة المنورة:

لقد هال ابنَ جبير ما شاهد من مُحدَثات بالمدينة المنوّرة، فنظم قصيدة ينتقد فيها ذلك، ويستعدي صلاح الدين على أولئك المبتدعين. ومما انتقده من هذه البدع: سبّ الصحابة الكرام، والاستهانة بأم المؤمنين، ونسبة الضلال إلى أبي بكر وعمر، وترك سنة النبي ﷺ، والاساءة إلى زائريه،وامتهان مسجده المبارَك، وصلاة شيعيّ بسنّيّ، واستباحة مهابة الروضة النبويّة، وقراءة الكتب المزوَّرة، وعرقلة المصلّين، والجمع بين الأختين، والمساواة بين الذكر والأنثى في الإرث، وغير ذلك.
يقول في جزء من هذه القصيدة:

---

(110)انظر :م.ن.ـ ص :31.

(111) م.ن.

(112)انظر ـ مثلا ـ :ابن طفيل :حيّ بن يقظان ـ م.س.ـ ص :20؛المقّريّ :نفح الطّيب ـ م.س.ـ221/1.؛ ابن أبي أُصيبعة : عيون الأنباء ـ م.س. ـ ص :516.

بـأم المؤمنـين قـد اسـتهانوا ... وللصدّيـق والفـاروق ذامـوا
عـزوا بعـد النبيّ لهـم ضـلالا ... لقد ضلّ الغـواة ومـا استقاموا
وسـنّته أضاعوهـا امتهانـا ... فمـالهم بواجبهـا اهتمـام
ومسجده المبـارك عـاد سـوقاً ... لهم فيها على اللهو ازدحام[113]

ويقول في جزء آخر:

يـرون الجمـع للأختـين حـلاً ... وتُعطَى البنـت مـا يـرث الغـلامُ
ومـا التجميـع عندهـمُ بشـرع ... لقـد تـاهوا ببـاطلهم وهـاموا
يُقيمـون الصـلاةَ وهم فـرادى ... لقد شردوا كما شرد النعام[114]

ولم يكن هؤلاء الذين أحدثوا كلّ هذه الأمور إلاّ قوما من الشيعة الروافض[115]. وكان من الطبيعي -وهو سنيّ كجمهور أهل الأندلس- أن يستنكر ما رأى، وأن يمتعض مما شاهد مما لا عهد له به في بلاده[116]. ونُعيد إلى الأذهان ما ذكره في «رحلته» موازنا بين أهل المغرب وأهل المشرق في عهده، حيث يقول: «وليتحقّق المحقّق ويعتقد صحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلاّ ببلاد المغرب، لأنّهم على جادّة واضحة لابُنيّات لها. وما سوى ذلك بهذه الجهات الشرقيّة فأهواء وبدع»[117].

---

(113) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -617/2/5.

(114) م.ن. -ص:619.

(115) يقول ابن جبير في أحد أبيات هذه القصيدة :

روافض أحدثوا بدعـا وشـادوا ... قواعدهـا فليس لهـا انهـدام

(م.ن).

(116) لم تكد الأندلس تعرف التشيّع. ينظر: إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين -م.س. -ص:168-169.

(117) ص:48.

إن ما صدر عن ابن جبير من شعر كثير في هجاء الفلاسفة واستعداء المنصور الموحّدي عليهم، وفي انتقاد ما أحدثه الروافض من أمور بمدينة الرسول، وتحريض السلطان صلاح الدين على النظر فيها، ليعكس تفاني الشاعر في الذبّ عن عقيدة السلف وتسخير فنّه لهذا الغرض، من غير أن يكون واحداً من هجّائي الأندلس المشهود لهم بطول الباع، كاليكّي وابن حزمون وغيرهما.

ولم يكن ابن جبير الشاعر الوحيد الذي قال في هذا اللون من الهجاء، وإنما لغيره من شعراء هذه الفترة ما يندرج فيه. ومن ذلك ما سبق أن أوردناه من نصوص للزاهد أبي بكر ابن مُغاور. ولعلّ نصه في هجاء الشهود بمدينة «شاطبة» الذين ندّد بهم لأنّهم «باعوا رضى الله وابتاعوا مساخطه، وغيروا الشرع...» -أفضل مثال على هذا اللون في هجائه.

4 - يقف المتتبع لأهاجي هذه الفترة على عدد من النصوص، تناولت بالذمّ جملة من العيوب الخلْقية، مُهوّلة أمرها في كثير من الأحيان. وإذا كان بعض شعراء الأندلس قد ذهب مذهب ابن الروميّ الذي برّز في هذا اللون من الهجاء[118]، فإنّ أغلبهم كان يصدر -فيما يبدو- عن طبيعة متأصّلة فيهم، وهي ميلهم إلى النّبر. ذلك أنّ المتتبّع للمصادر الأندلسيّة يقتنع بشيوع هذه الظاهرة بينهم[119].

وعلى أن في هذا الهجاء إيلاما لمن قيل فيهم واعتداء عليهم، فإنّ بعض الشعراء قد أجاد فيه. ولعلّ أفضل نموذج: قول أبي العباس ابن حَنّون في «أشتر يجري دمعه»:

أبعينيك الشتراء عين ثَرّة ... منها ترقرق دمعها المسفوحُ؟
شتِرت، فقلت: أزورق في لُجّه ... مالت بإحدى دفّتيه الريحُ؟

---

(118) من أشهر الأمثلة على ذلك ما قاله في الأحدب.

(119) يكفي أن نذكر -مثلا- نَبْزهم بعض الأدباء المكفوفين بـ «الأعمى»، كأبي العبّاس التطيليّ والشريف المخزوميّ.

وكأنّمـــا إنســـانها ملاّحهــــا قد خاف من غرق فظلّ يميح[120]

ومن هذا اللون قول ابن حجّاج الإشبيلي مضخّما عيب مهجوّه:

على «معـاد» قـرون لـو يعانيهـــا فرعون ما قال: أوقـد لي على الطينِ[121]

وقد أبدع ابن حزمون في تشنيع صورة مهجوّ له،فقال:

تميـل بشـدقيه إلى الأرض لحيـــة تظنُّ بها مـاءً يُفـرَّغ مـن دلـوِ
ثقيـل ولكـن عقلـه مثـل ريشـة تصفّقـها الأرواح في مَهْمَهٍ دوّ[122]

وقد يعمِد الشاعر إلى إبـراز المفارقـة بـين مهجـوّه وغـيره، مـن ذلـك مـا نجـده في قول ابن جبير هاجيـاً ثقيلين، متخذا المقارنة وسيلة بيــان:

لو كنتَ تبصـر منـذ يـوم قـد نـأى تَيْسـيْن ضمّهـا وظبْيـا مجـــلسُ
لعجبـت قبحـاً منهمـا وملاحـــة منه، وقلت: حظيرة أم مَكْنَس؟[123]

وكما تناول الشاعر الأندلسيّ عيـوب غـيره،نجده قـد ضـاق. أحيانـاً، بعيوبـه فانتقدها غيرَ رافق بنفسه. ولقد مرّ بنـا نموذج لعليّابن حزمـون ذهـب فيـه مذهـب الحطيئة في هجو نفســه. فقـد هالتـه صورتـه لّما تأمّلهـا في المرآة، فـرأى نفسـه خليقـا بالهجو. يقول:

إذا شئتَ أن تهجـو تـأمّل خليقـتيَ فإنّ بهـا ما قد أردت من الهجوِ[124]

وإذا كان ابن حزمون قد استقبح كل صورتـه، فـإن بعـض الشعراء قـد أنكـر ما وخَطه من شيب، فانتقده ناقضاً ما تواطأ عليـه النـاس مـن مدحـه. يقـول أبـو بكـر

---

(120) صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:93.

(121) م.ن. -ص:103.

(122) ابن سعيد: المغرب -م.س.-215/2.

(123) صفوان بن إدريس:زاد المسافر -م.س. -ص:114.

(124) ابن سعيد: المغرب -م.س. -214/2.

ابن المنخّل الشّلبي، في نغمة أسّيانة، صادعاً برأيه في الشيب بعيداً عن المكابَرة:

كنّا نرى أن المشيب جلالة　　حتى لبسناه فكان بواراً
قالوا: وقارٌ،قلت: واوأُقحمت　　ما تُبصر الحسناء إلاّ قارا[125]

ويذهب ابن الجنّان مذهب ابن المنخّل في استقباح الشيب، فلا تُثير فيه الصورة الشائعة ما تثير في غيره من استحسان، فيقول:

قالوا: المشيب نجوم والشباب دجى　　لو يحسن القبح أو يقبح الحسن[126]

وقد اكتفى بعض الشعراء في هجائهم بتشبيه أو نحوه مما يُغني عن التفصيل ويحقّق الغرض. ومن ذلك قول صفوان التُّجِيبيّ هاجياً رجلاً «كثير العيوب»:

لو انّه كان جزءَ فقه　　لما عدا«جامعَ العيوبِ»[127]

5- وقفنا على أهاجيّ تعود إلى هذه الفترة،لا تدخل في الأصناف السابقة، أهمّها ما قاله ابن مرعيّ الشريف في ذمّ شعر معاصره مرْج الكُحْل واصفا إياه بالشؤم،خاصّا بذلك مديحه. وهو وصف غريب للشعر لم يتيسّر لنا الوقوف عليه عند غير ابن مرعيّ. ولقد وجدنا، قبله، السّميسر يهجو ابن الحدّاد ذامّا أشعاره بقوله:

أشعارُه مثل فراخ الزنى　　فتّش تجد أخبث أولاد[128]

ووجدنا معاصر ابن مرعي الشاعر المغربيّ ابن حَبُّوس يذمّ الشعر مطلقاً لعدم جدواه على أصحابه[129].

---

(125) صفوان بن إدريس: زاد السافر -م.س. -ص:129.

(126) البلفيقي: المقتضب -م.س. -ص:123.

(127) م.ن. -ص:139.

(128) ابن بسّام: الذخيرة -م.س. -894/2/1.

(129) له قصيدة في ذلك،منها قوله:

ياغراب الشعر لا طر　　ت ومُلّيت الوقوعا

وإذا كان ابن مرعي لا يصف حقيقة في مدائح مرج الكحل، فلعلّه كان يقصد إلى إكسادها.

ولقد مرّ بنا نموذج من الشعر، عندما كنا نتحدّث عن بواعث الهجاء في هذه الفترة، استخدم فيه ابن مرعي المثل المشهور في الشوم. وفي القطع الأخرى يدور حول الفكرة نفسها ولكنّ حديثه متنوّع: يقول داعياً على مرج الكحل زاعماً أنّ مدحه قد جنى على المسلمين بشؤمه:

تبّت يدا مرج الكحول فإنّه	أفنى الأنام بشعره المشؤوم
قد أهلك الإسلامَ شؤمُ مديحه	هلاّ أشار بمدحه للرّوم (130)

ويقول متهكّما:

أشعار مرج الكحل فيها عبرة	تُذكي الهمومَ وتنتج الأحزانا
فإذا رمى المقدار منه بمدحة	ضرّ الأنام لينفع الوزّانا(131)

وفي مقطوعة أخرى يقول ابن مرعي «متظلّما» في سخرية:

أمَرْج الكحل لا تقرب إلينا	حوالينا مديحك لا علينا
علوم تقول فينا المدح ظلماً	وما خزنا عليك ولا اعتدينا
ولا تروي من الأشعار إلاّ:	«وكان الموت للفتيان زَيْنا»؟(132)

=

وإذا استيقظ شهم	قَبِرم زدت هجوعا
هبك لا تقنص عزّا	لِمْ تقنّصت الخضوعا؟
...ربّما اصطاد بُغاث	شِبَعا واصطدت جوعا

(صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:46).

(130) و(131) م.ن. -ص:124. وعلّق المؤلّف على كلمة «الوزّان» بقوله: «والوزّان هنا: منذر على الموتى».

(132) م.ن. -ص: 124-125.

ومن الأهاجي التي لم نُدخلها في الأصناف السابقة ما قاله بعضهم في هجو بلده كقول أبي عبد الله ابن ياسين يذمّ «شاطبة» التي عانى فيها -فيما يبدو- إغفالاً وقلّة اعتبار. يقول واصفاً ما فيها من تناقض واختلالِ قيم.

شاطبة قرية ضنينه ليس لمن أمّها مُعينهْ

تهضم الطيب اهتضاما وتأنف الدهرَ أن تُعينه

والخبث المحض تصطفيه ضدًا لما جاء المدينة[133]

تلك أهمّ الألوان التي عرفها شعر الهجاء في الفترة الأولى من عصر الموحدين، حاولنا بيانها مستشهدين بما تيسّر لنا الاطلاع عليه من النصوص الشعريّة. تلك النصوص التي توفّرت لنا كثيرا في بعض الألوان و لم تكن كذلك في ألوان أخرى، لضياع جزء ممّا قيل في تلك الألوان أو لقلّة النظم فيها. ونُحاول فيمايلي تقويم نتاج هذه الفترة في هذا الغرض، مستخلصين أهمّ سماته:

1- جُلّ هجاء هذه الفترة جاء في مقطوعات. فلا يكاد المتتبّع لنصوصه يجد قصائد طويلة، على نحو ما نجد في شعر المشرق كأهاجي جرير والفرزدق ودعْبل وابن الروميّ وغيرهم. وإذا كانت جملة من تلك المقطوعات -من غير شك- أجزاء من قصائد طويلة، فإنّه يبدو أنّ الشعراء الذين نظموا في هذا الغرض كانوا يفضّلون المقطوعة وعاء لهجائهم لأسباب فنيّة أو غيرها.

2- كثيرا ما يتداخل الهجاء مع أغراض أخرى، كالفخر والشكوى وغيرهما. فنصّ الرصافيّ البلنسيّ الذي يهجو فيه ذلك الذي انتقد قصيدة له، جمع فيه بين الهجاء والفخر.

3- حوت عدّة نصوص معاني طريفة وصورا مُبتكَرة. ويكفي أن نُعيد إلى الأذهان ما قاله ابن حَنّون في هجاء الأشتر، وما نظمه صفوان في هجاء الأكول.

(133) م.ن. - ص: 137.

4- من اتّجاهات الهجاء البارزة فيما وقفنا عليه من أهاجي هذه المرحلة: الاتجاه الساخر. ومن الأمثلة عليه ما قاله ابن مُغاور في «ابن بَيّش». وهذا الاتجاه متأصّل في هجاء الأندلسيّين، نجده عند يحيى بن حَكَم الغزال وغيره. ويبدو أنهّم رأوه أكثر إيلاما للمهجوّ من الاتجاه «الجادّ».

5- بلغ بعضهم مدى بعيداً في الإفحاش، لم يمنعه من ذلك دين ولا خلق. ولعلّ يحيى بن سهل اليَكّي أن يكون أبرز شعراء الفترة في هذا المنحى.

6- يتبيّن مما سبق أنّ هذا الغرض وجد، في هذه الفترة من البواعث ما كان كفيلا بازدهاره وتطوّره. وإذا كانت غزارة النّتاج دليلا على الازدهار، فإنّ ما عرفه هذا الفنّ من هجاء ذي طابع دينيّ وغيره دليل على التطوّر.

الفصل الخامس

الشعر الدينيّ

يلاحظ المتتبّع للشعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين غزارة الشعر الديني وتنوّعه، مما يعكس ازدهاره وتطوّره؛ كما يلاحظ أن قائليه أغلبهم من علماء الدين. وقد حرص مؤلّفو التراجم – بحكم النزعة الدينيّة لكثير منهم – على تسجيل كثير مما خلّف مترجَموهم في الزهد وغيره من ألوان الشعر الديني.

إنّ غزارة هذا النتاج في هذه الفترة، ومساهمة العديد من أدباء الأندلس وعلمائها فيه، وراءهما جملة من البواعث، لعلّ أهمها ما يلي:

1 – كانت الثقافة الدينيّة في الأندلس طاغية على غيرها؛ ويكفي أن نتتبّع تكوين الشخصيات التي أظلّها عصر الموحّدين، في كتب التراجم، لنقف على ما كان يتلقّاه الطالب الأندلسي يومئذ من ألوان هذه الثقافة. ولقد أشاد المقّري بإلمام مثقّفي الأندلس بالعلوم الدينيّة فقال: «وقراءة القرآن بالسّبع، ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة؛ ولا مذهب لهم إلاّ مذهب مالك. وخواصّهم يحفظون من سائر المذاهب... وسمة الفقيه عندهم جليّة... ويقولون للكاتب والنحويّ واللغويّ: فقيه، لأنه عندهم أرفع السمات»[1].

وكان التشبّع بهذه الثقافة سببا في تحريم كثير من العلوم كالفلسفة والتنجيم، وملاحقة المشتغلين بها، كما كان للقيم الروحيّة التي تحملها تلك الثقافة بالغ الأثر في سلوك أصحابها. وكان نتاج الأدباء منهم مرآة عاكسة لبعض ذلك الأثر.

2 – كان لسيرة الحكّام الموحّدين أثر في سلوك رعيّتهم في المغرب والأندلس. وإذا تتبّعنا سير هؤلاء الحكّام، لاحظنا أنهم كانوا نماذج للصالحين، وأنّهم حرصوا – حقّاً – على إقامة الشرع، بل إنّ منهم من بلغ في الزّهادة مدى بعيداً.

وإذا كان التنويه بصلاح الخلفاء الأوائل وزهدهم، واجتهادهم في تطبيق

---

(1) نفح الطيب - م.س. - 221/1.

الشريعة، واردا في غيرما مصدر[2]، فـإنّ أفضل مـا وقفنـا عليـه مـن ذلـك مـا ذكـره عبد الواحد المراكشي مشيدا بالأمير عبد العزيز بن يوسف واصفا اجتهـــاده في الدين، إذ يقول:«إنّه ـ ما علمت ـ صوّام قوّام، مجتهد في دينه... لا تأخذه في الحقّ لومة لائم؛ أطيب الناس لسانا بذكر الله، وأتلاهـم لكتـاب الله؛ شـهدتُه، والولايـة قـد اكتنفتـه، وأمـور الرعية قد اسـتغرقت أوقاتـه، وهـو في كـلّ ذلـك، لا يخلّ بشـيء مـن أوراده، ولا يترك وظيفة من الوظـائف التي رتّبها على نفسه مـن أخـذ العلـم، وقـراءة القـرآن، وأذكار رتّبها على أوقات الليل والنهـار»[3].

ولقد فصّل الدكتـور عبد المجيد النجّار الحديـث عـن«الصبغـة الدينيـة»للحكـام الموحّدين وعدّها أثراً من آثار داعيتهم محمد بن تومرت[4].

3 - كان موقع الأندلس وما عاشته من ظروف خـاصّة من البواعث على بروز الاتجاه الدينيّ في الشعر الأندلسي. فبُعد الأندلس عـن المشرق مهبـط الوحـي وموطـن الإسلام الأول،جعل كثيراً من أهلها في حنين متواصل إلى بقاعهم المقدّسـة. وقـد عـبّر الشعراء، منهم، عـن تلـك العواطـف الدينيـة فيمـا نظمـوا مـن مدائـح نبويـة وغيرهـا؛ كما أنّ الظروف القلقة التي عرفتها الأندلس، في أغلـب مراحـل تاريخهـا، قـد بعثـت كثيرا من الأندلسيين على التمسّك بدينهم سـبيلهم الوحيـدة إلى الخـلاص، وقـد كـان

(2) من ذلك ـ مثلا ـ وصف ابن الخطيب لأبي يوسـف يعقـوب بـالورع.(انظر:أعمـال الأعمـال ـ م.س.-269/2). ومن ذلك ما ذكره الناصري مـن أنّـه ـ أي أبا يوسـف يعقـوب ـ «كـان يعـاقب على تـرك الصلوات ويأمر بـالنداء في الأسـواق بالمبـادرة إليهـا. فمـن غفـل عنهـا أو اشـتغل بمعيشـة عُـزّر تعزيـرا بليغـا» بل إنّ المنصور قد«قتل في بعض الأحيان على شرب الخمر»(الاستقصا-م.س.-199/2).

(3)المعجـب-م.س.-ص:243. وقـد أكّـد المرّاكشـي خـبره بقولـه:«شـهدت هـذا كلّه منه بنفسـي، لا أنقله عن أحد، ولا أستند فيه إلى رواية ».

(4) انظر: المهدي بن تومرت-م.س.-ص:386-393.

في تلك الظّروف ما حمل كثيرا منهم على الزهد في الحياة والرغبة عن زائل عرضها.

4 - كثيرا ما تكون الشيخوخة باعثا على التوبة ودافعا إلى الزهد والنّسك. وإذا لم يكن شعراء هذه الفترة كلّهم من المُعمَّرين، فإنّ كثيراً منهم قد بلغ من الكبر عُتيا. وإنّنا لنلفي من شعر هذه الفترة غير ما نصّ في الإنحاء باللائمة على النّفس للتمادي في الغواية، وفي بيان أنّ ما وصل إليه صاحبه من متأخّر مراحل العمر، خليق بأن يصرفه عن اللهو ويحمله على التأمّل في المصير، ويدفعه إلى صالح العمل. وتلك قاعدة عامة تقلّ استثناءاتها.حتى انّ أحد شعراء هذه الفترة، وهو أبو الحسن ابن عيّاش، قد أنكر شذوذه عن هذه القاعدة، فقال:

عصيتُ هوى نفسي صغيرًا فعندما … رمتني الليالي بالمشيب وبالكِبَرْ

أطعت الهوى عكسَ القضيّة ليتني … خُلقت كبيرا وانتقلت إلى الصّغر[5]

وإذا جاز لنا أن نستشهد على هذا التحوّل بنموذج سابق لهذه الفترة فإنّنا نجد الشاعر ابن خفاجة قد عبّر في رسالة بعثها إلى صديق له، عمّا حمله على الزّهد، ودعاه إلى التفكير في العاقبة، فقال:«كنت منذ ليال قد أرقت، فتلدّدت أنظر في أعقاب ما مضى، من عمري فانقضى، وأتوقّى، على شفافة ما غبر منه وتبقّى. فسنح لي أن قلت:

أَلا ساجلْ دموعي يا غمامُ … وطارحني بشجوك يا حمام

فقد وفّيتها ستّين حولا … ونادتني ورائي: هل أمام؟

...

فما كان إلاّ أن صرخت عويلا، وانتحبت طويلا، حتى أيقظت من كان إلى جانبي ضجيعا، وزدت فكدت أحيل الدّمع نجيعا. وحقّ لمن شاهد تضعضع

---

(5) صفوان بن إدريس:زاد المسافر - م.س. - ص:135؛ ابن عبد الملك:الذيل والتكملة ـ م.س. ـ 28/1/5.

وقد دُوّن نتـــاجه وتداوله الناس. وتوفي سنة 604 هـ[12].

وقـد أشـاد بصلاحـه وزهـده غيرمـا واحـد مـن مترجميـه. قـــال ابـــن الأبّـــار: «كان منقطـع القرين في الـورع والزهـد والعبـادة والعزلـة... وكـان ملازمـا لمسـجده داخـل إشبيليـة»[13]؛ ووصفه ابن سعيد بـ«الفقيـه الزاهـد»، وقـال فيـه:«اشـتهر بـالزهد والانقطاع حتى كان في ذلك واحد وقته»[14]؛ ورثاه-كما مـرّ بنـا- تلميـذه أبـو بكـر ابن مهنـي اللّخمـي. فنوّه بصلاحه ونسكه، فقال:

رضي ا الله عن أخ قد تولّى   وفقـدنـــاه ما أبـرّ واتقـــى

صائم اليوم قائم الليل خـوّا   فاً إلى ربّه مطيعا محقّـا[15]

وممّن تأثروا بالمـارتـلي:تلميذه المذكـور، فقد لـزم صحبته و«اقتـدى بـه وعمـل على سنّته»[16] وبلـغ في الزّهـادة مبلغـه. نقـل أبـو الحسـن الرّعيـني قـول أحـد شيوخه في أستاذه ابن مهني:«لا أعلم أحدا من أهـل عصرنـا زهـد في الدنيـا حقيقـة زهـد أبـي بكر، فإنّه زهد عن تمكّن فيها، وظهور عند بنيها، وبعـد إقبالها عليـه، فـأعرض عنهـا، وأقبل على عبادة ربه، ورفض ما كان في يده منها»[17].

---

(12) انظر: ترجمة المـارتلي في:ابن الأبّار: التكملـة -م.س.-687/2؛ ابـن سـعيد:المغرب- م.س.- 406/1-407، والغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة-تحقيق إبراهيم الأبيـاري- القـاهرة-دار المعـارف بمصر-الطبعة الثانية-د.ت.-ص:135؛البلفيقي:المقتضب-م.س.-ص:145؛ ابن عبد المنعـم الحميري: كتـاب الروض المعطار-م.س.-ص:521.

(13) التكملة-م.س.-687/2.

(14) الغصون اليانعة-م.س.-ص:136-137.

(15) أبو الحسن الرّعيني: برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص:95.

(16)م.ن-ص:92.

(17)م.ن-ص:93.

أركانه، وتداعي بنيانه، وذهاب خلاّنه، وإدبار عمره وزمانه،أن يطرق هنالك فكرة،ويملأ جفنيه عبرة، ويردّد الأسى جمرة، حتى يذوب كمداً أو يقضي حسرة»[6].

وإذا كنّا لا ننفي أن يكون عدد من الأشعار الدينية التي خلّفتها هذه الفترة من إبداع شبّان وكهول، فإن أغلب تلك الأشعار، كان من غير شكّ من نتاج الشيوخ.

وقد عرف الشعر الديني في هذه الفترة ألوانا شتّى، من أهمها الزهد. ونحاول فيما يلي بيان هذه الألوان مستشهدين ببعض ما وصل إلينا من النصوص.

1 – الزهد:

عرف الشعر الأندلسي الزهد قبل عصر الموحدين. وكانت بواعثة مختلفة: فإذا كان بعض الشعراء قد زهد بعد أن أسرف في اللهو والمجون، فإن بعضهم قد جنح إلى النسك في صدر شبابه؛ وقد كان الزهد عند بعضهم نتيجة فلسفة فانتحاه سلوكا في حياته، كما كان نكاد الحظّ وسوء الظنّ بالناس من بواعث تزهّد البعض[7].

وأشهرالذين نظموا في هذا الغرض:ابن عبد ربّه، وابن أبي زمنين، والسّميسر، والأُقليشيّ، والعبدري، وابن الريوالي، وابن الحدّاد، والطيطل، وابن العسال[8].ولعلّ أكبر شعراء الزهد في الأندلس هو أبو إسحاق الإلْبيري الذي أبدع في هذا الفن إبداعا، ورفعه إلى منزلة الأدب الخالد. قال الدكتور إحسان عبّاس منوّها به: «وعندي أنّ الإلبيري قد وصل بشعره الزهديّ في الأدب العربي–لا في الأدب الأندلسي فحسْب–إلى قمّة، بما أضفى عليه من حرارة الوجد والانفعال والإقرار

(6) ديوان ابن خفاجة ـ م.س. ـ ص:64-65.

(7) و(8) ينظر:إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسيّ ـ عصر سيادة قرطبة ـ بيروت ـ دار الثقافة ـ الطبعة السادسة ـ 1981 م. ـ ص: 116-118؛ وعصر الطوائف والمرابطين ـ م.س. ـ ص: 130-139.

بالضعف الإنساني أمام مغريات الحياة ومكافحة الشهوة العارمة»[9].

ولم يتخلّف شعر الزهد في الفترة الأولى من عصر الموحدين. ففي مصادر شعر هذه الفترة نتاج غزير منه، ساهم في نظمه عدد من مثقّفي الأندلس.

وإذا كنّا لا نجد شعراء في منزلة أبي إسحاق الإلبيري إبداعا في شعر الزهد، وانقطاعا شبه تام له، فإنّنا نُلفي عددا من الزهّاد لا يقلّون عنه صلاحا وورعا. وإذا كان المجال لا يتّسع لتعريفهم جميعا، فلا أقلّ من الوقوف، قليلاً، عند سيرة واحد من ألمعهم في هذا الميدان، هو: المارْتُلي.

وهو أبو عمران موسى بن حسين بن عمران الزاهد؛ وهو من«مارتلة»[10]، وهي معقل مشهور على وادي«آنة»من عمل«باجة»بغرب الأندلس؛ سكن أبو عمران إشبيلية وانصرف إلى الزهد، فاشتهر بذلك حتى عُدّ فيه واحد زمانه. فزاره الملوك وتبرّكوا به وطلبوا دعاءه. فقد زاره أبو يوسف يعقوب المنصور عندما جاز إلى الأندلس برسم الجهاد. وكان المارتلي يرفض كلّ عطاء[11] مكتفيا بما كان يأتيه من ملك ورثه. بل إنّه كان يصنع الخوص ويبيعه ويتصدّق مما كان يعود عليه منه، وذلك لما كان يراه في البطالة من كراهية. وله نظم ونثر في النصائح والزهد.

(9) إحسان عباس: م.ن:عصر الطوائف والمرابطين–ص:136.

(10) تُرسَم هذه الكلمة أحياناً بالياء أي«ميرتلة»، وتكون النسبة إليها حينئذ«الميرتلي». انظر –مثلا–: البلفيقي:المقتضب–م.س.–ص:145.

(11) قال ابن عبد المنعم الحميري:«لمّا جاز منصور الموحّدين البحر إلى الجهاد عام الأرك زاره (أي المارتلي)، ثم وجّه إليه بالأموال فقال للرسول: هو أحوج في مالي منّي في ماله، قل له: هذه مائة دينار من حلال،خذها لنفقتك في هذه الغزوة؛فإنّي أرجو،إذا لم تطعم إلا الحلال،أن تُنصَر. فيقال إن المنصور قبل منها ما قاته في تلك الحركة،فلم يزل يعرف بركتها حتى نصر الله تعالى»(كتاب الروض المعطار–م.س.–ص:521).

وشعر الزهد في هذه الفترة لم يخرج عن وصف رغبة أصحابه عن نعيم هذه الدنيا الزائل، وعن تصوير صراعهم لمغريات الحياة، وعن حثّهم على تقوى الله و إتيان صالح الأعمال، وغير ذلك مما يدور عليه - في الغالب - أدب الزّهاد،ونجد نواته في القرآن والحديث وأقوال الصحابة والتابعين. ونحاول - فيما يلي - عرض ما تضمّنته أشعار الزهد التي تيسّر الوقوف عليها.

لعلّ أهم ما تناولته نصوص الزهد التي خلّفتها هذه الفترة ما يلي:

ا - تحدّث شعراء الزهد كثيرا عن حتميّة الفناء، وردّدوا فكرة المـوت الذي لا مفرّ منه، في غير ما نصّ، واستقصروا عمر الإنسان في هذه الحياة، واستقلّوا خطواته على هذه الأرض حتى تراءت الحياة - في أدبهم - أسرع زوالا من سُحب الصيف. وكان غرضهم،من الإلحاح على ذلك،حثّ النفس على أن تزهد في شيء لا يدوم،وأن تنتهز فرصة قصيرة زائلة، فتملأها بما يُجديها في أخراها.

فأبو بكر ابن ميمون يقول متحدّثا عن فناء الإنسان، رابطا بين بدايته في هذه الحياة ونهايته فيها:

أيرتجي الخلدَ من عليه ... دلائل للردى جليّهْ
أوّله مُخبر بشان ... ذاك منيّ وذي منيّه(18)

ويؤكّد أبو الوليد يونس بن عيسى المشهور بالمُرْسي حقيقة الفناء، مستدلاًّ على ذلك بزوال الرّسل، نافياً ما يعصم من ذلك الفناء، فيقول:

كلّ كمال إلى محاقِ ... وكلّ جمع إلى افتراق
...أين ثوى آدم ونوح ... والمصطفى صاحب البراق؟

---

(18) ابن الخطيب:الإحاطة - م.س.- 88/3؛ابن عبد الملك:الذيل والتكملة-م.س.- 322/6. وفيه أن ابن ميمون قال هذين البيتين عندما حضرته الوفاة،وآنسه بعض أصحابه بترجّي الشفاء من مرضه وإطالة عمره.

إن قيل إنّ السموّ يُجدي فليدم البدر في اتّساق[19]

ويستنتج أبو الحسن علي بن زيد النجّار من موت أقاربه وسواهم أنّ ما أصابهم سيصيبه عاجله أو أمهله، فيقول:

بدا ليَ أن الدّهر ليس مصرّدا كئوس الردى أو يشربَ الملوانِ
وأبصرت مابين المصارع مصرعي سريعاً رماني الدهر أو متواني[20]

ويحاول أبو عبد الله محمد بن طالب التعزّي عن مرثيّه أبي القاسم ابن نصير بما يصيب الناس كلّهم من عدم، عادلاً في ذلك بينهم. يقول مبيّنا ذلك، داعيا إلى الاعتبار بفناء السابقين:

لقد عدل الموت بين الورى فأودى بسيّدهم والمسودْ
ففيم العويل وعمّ السّلوّ؟ وما للهديل وما للنّشيد؟
وأين الغواني وأين الصريع وما شأن صَخْر وبنت الشّريد؟[21]

وكانت الشيخوخة وأماراتها كثيرا ماً تذكّر الناس بقرب نهايتهم في هذا العالم، وتؤكّد لهم حقيقة الفناء التي قد يتغافلون عنها في شبابهم. والحديث عن الكبرة وعلاماتها كالشيب وسواه، وكون ذلك منذرا بالرحيل شائع في أشعار هذه الفترة. فهذا الزاهد أبو بكر ابن مُغاور يقول «وقد كبر» مستيقناً دنوّ أجله:

قال لي يهزأ من لم يتوقّع من ملامَهْ
إذ رأى كفّيَ دَأْبا بعصاها مستهامه:
أنت - والله - صحيح سوف تبقى للقيامه
قلت:دعني من محال قد شكا الشيخ السّآمه

---

(19) صفوان بن إدريس:زاد المسافر - م.س. - ص:78.

(20) البلفيقي: المقتضب - م.س. - ص:108.

(21) م.ن - ص:149.

كيف يُرجى لي بقـــاء وجـداري بدعـامه؟[22]

ويربط أبو بكر الكتندي بين بياض شعره ودنوّ أجله فيقول:

لأمرما بكيت وهاج شوقـــي وقد سجعت على الأيك الحَمامْ
لأنّ بيـاضها كبيـاض شيبـي فمعنى سجعها:قرُب الحِمام[23]

أمّا سرعة الحياة الدنيا فقد لا نجد من بين شعراء هذه الفتـــرة مـن عبّر عنهـا أفضل مما فعل أبو محمد عبد الله بن أيّـوب الأنصاري المعروف بـابن خرّوج، مبيّنـا ما صرف الناس عن التشبث بالحقيقة، وذلك إذ يقول:

لعمرك ما الدنيا وسرعة سيرها بسكّـانهـا إلاّ طريـق مجـازِ
حقيقتهـا أنّ المقـام بغيـرهـا ولكنّهم قد أولعـوا بمجــاز[24]

ولتوضيح قِصَر العمر وبيان طول الأمل، يعقد إبراهيـم ابـن هـــرودس المقـارنة التالية لإبراز المفارقة، فيقول مؤنّبا نفسه على ما هو سادر فيه من ضلال:

أ إبـــراهيم إنّ الــموت آت وأنت من الغـوايـة في شُباتِ
رجاؤك مثل ظلّ الرمح طولاً وعمرك مثل إبهام القَطاة[25]

ويستغرب أبو جعفر ابن جرج فرحة النـاس بالأعيـاد غـير آبهيـن بمـا ينقضـي من عمرهم، فيقول-عندما«رأى الناس يموجون فرحًا» يوم عيد- في لهجة المنكر:

نُسَــرّ بالأعيـــاد يــا ويحنـا وكـــلّ عيـــد قـد تـــولّى بعامْ
والعمـــر درٌّ في نظـــام وهـــل نفـــرح أن ينفضّ دُرّ النظـــام
ما في البـــرايا عاقـــل، كلّهـــم يردى و لم يعمل حساب الفطام[26]

(22) صفوان بن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص:80-81.

(23) م.ن.-ص:95.

(24) ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.-408/3؛ الرعيني:برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص:141.

(25) البلفيقي:المقتضب-م.س.-ص:107.

(26) ابن سعيد: الغصون اليانعة-م.س.-ص:38-39.

إن حديث شعراء الزّهد في هذه الفترة عن قصر العمروسرعة انقضاء الحياة لم يكن لوصف هذه الحقيقة لذاتها، وإنّما كان ـ كما أشرنا ـ للحثّ على استغلال كل لحظة من هذه الحياة فيما يقرّب إلى الله.وقد عبّر عن هذا المعنى الجليل، في فترة سابقة، الفقيه أبو الوليد الباجي فقال:

إذا كنتُ أعلم علماً يقيناً بأنّ جميع حياتي كساعهْ

فلِمْ لا أكون ضنيناً بها وأُنفقها في صلاح وطاعه؟![27]

ب - يتردّد في أشعار الزهّاد انتقادهم للدنيا، ويتجلّى فيها سخطهم عليها. وإذا كانوا يختلفون أحيانا في وصفها، فإنّهم متّفقون على ذمّها وتشنيع صورتها. ومن الصور التي ردّدوها تشبيههم إيّاها بالبحر. يقول أبو الفضل عبد المنعم الغساني متمثلاً إيّاها بحاراً متلاطمة الأمواج كثيرة الغرقى:

ألا إنّما الدنيا بحارٌ تلاطمت فما أكثر الغرقى على الجنباتِ[28]

ويقول أبو المتوكّل السّكوني منفّراً منها، واصفاً تهافت الناس عليها:

دنيا حكت بحرَها طعماً وتهلكة ونحن فيها حباب فوق تيّارِ

...أضحى بنوها كأمثال الفراش بها وليس فيها سراج غير دينار

عَمُوا عن الحقّ والأبصار سالمة وربّ أبصارِ قوم دون إبصار[29]

ويُبدي أبو محمد عبد الله بن حسن المعروف بالبرجيّ سخطه على الدنيا لخداعها ومكرها فيقول داعياً عليها:

فسحقاً لدنيا خادعتنا بمكرها إذا عقدت سلْماً فمقصدها حربُ

ركبنا بها السهل الذّلول فقادنا إلى كلّ ما في طيّه مركب صعب[30]

---

(27) ابن فرحون:الديباج المذهب-م.س.-ص:120.

(28) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-57/1/5.

(29) الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص:195.

(30) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-217/4.

إنّ صورة الدنيا في أشعار الزهد التي خلّفتها هذه الفترة صورة قاتمة. وإذا كانت هذه الصورة تعكس بعض حقيقة الدنيا،فإنّ ما فيها من تهويل كان نتيجة سخط أولئك الواصفين. وطبيعيّ أن تُبدي عينُ السخط المساوئ. ولربّما كانت وراء ذلك التهويل الرغبة في تزهيد الناس في الدنيا وصرفهم عن مغرياتها.

على أنّ هذه الصورة ليست جديدة،فما أكثر ما تطالعنا في أدب الزهد الذي تركته الفترات السابقة[31]. بل إنّنا لنجد أصلها في القرآن والحديث.

جـ - يحثّ بعض الزهاد الناس على عيش الكفاف، ويرغّبونهم عن الغنى والترف، ويمدحون التقلّل من متاع هذه الحياة. ولعلّ شعر أبي عمران المارتلي أحسن تناولاً لهذه الفكرة.ففي مقطوعة له نجده يصف كفاف عيشه ويتمدّح بقناعته، فيقول:

سليخة وحصيرُ — لبيت مثلي - كثير
وفيه - شكراً لربّي - خبز وما[ء] نمير
وفوق جسميَ،ثوب - من الهوا[ء] - ستير
إن قلت:إنّي مقلّ؛ إنّي - إذاً - لكَفور
قَرِرْت عيناً بعيشي: فدون حالي الأمير[32]

وفي نصّ آخر يُبدي عجبه لرغبتنا في الغنى، ويحثّ على الكفاف مبيّنا ما يجنيه فضل المال على صاحبه: تعباً في جمعه، وحساباً على إنفاقه؛ يقول:

عجبا لنا! نبغي الغنى؛والفقر في نيل الغنى؛ لو صحّت الألبابُ
فيما يبلّغنا المحلّ كفاية؛ والفضل: فيه مؤنة وحساب[33]

---

(31) من ذلك-مثلا- ما نجده في شعر الأعمى التطيلي، كقوله:

على الدنيا العفاء ولست أكني فما تنفكّ تخني أو تخونُ
تهدّ بناءها وتلي بنيها بداهية تشيب لها القرون

(ديوان الأعمى التطيلي-م.س.-ص:232).

(32) و(33) ابن الأبّار: التكملة-م.س.-687/2. ولعلّ الصواب:"مؤونة"، ليستقيم الوزن.

إنّ هذه الفكرة، وإن لـــم تبسط بما فيه الكفايـــة في نصوص هـذه الفـترة، لهي من الأفكار الجوهرية في شعر الزهـد؛ ذلك أن الزهـــد ـ في اللغـة ـ مـن معانيـه القلّة[34]، والزاهد هو الذي يكتفي بالقليل.

د - يكـثر في نصـوص هــذه الفــترة اللّــوم والعتــاب، والتـأنيب والتقريــع، على اختلاف في المواقف بين لـوم النّفـس أو تأنيبهـا، وبـين عتـاب الغير أو تقريعهـم؛ وقد يسـتخدم الشـاعر أحيانـاً صيغـة الخطـاب فـلا نهتـدي إلى معرفـة الـذي يخاطبـه. على أنّ اللهجـة، في جلّ المواقف، يطبعها العنف وتسمها الحدّة. يقول أبو محمـد عبـد ا الله ابن حوط ا الله الأنصاريّ -ولعلّه يخاطب نفسه- مؤنّباً مقرّعا:

أتعلم أنّك الخطّاء قطعـــاً وأنّك بالـذي تأتـــي رهينُ
وتغتاب الورى:فعلوا وقالوا وذاك الظنّ والإثم المبيـــن[35]

ويَقرِن الشاعر أحياناً بين تقدّم العمر، وبين ما هو سـادر فيـه مـن غوايـة لتـبرز المفارقة. ومن الأمثلـــة على ذلك: قـــول أبي عبد ا الله محمد بن أميّة النّصـريّ مؤنّبـا نفسه على عدم ارعوائه عن صبابته، وهو في خريف عمره:

أيّ عذر يكون لي؟أيّ عذر لابن سبعين مولع بالصَّبابَهْ؟
وهو ماء لم تُبق منه الليـالي في إناء الحياة إلاّ صُبابه[36]

وقول ابن أمية هذا متفق مع قول ابن هـــرودس الذي مـرّ بنـا[37]، وإن اختلفـا في التصويـر. وذلـك يـدلّ على تواطؤ شعراء الزهــد في تلـك الفـترة علـى كثـير

(34) انظر: مادة"زهد" في المعاجم.

(35)النباهي: تاريخ قضاة الأندلس-م.س.-ص:112؛ الرعيني: برنـامج شيـوخ الرعيـني- م.س.- ص:57.

(36) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-135/6.

(37) انظر: ص: 225.

من الأفكار، وإن تميّز كلّ منهم بوسائل إخراجها إلى عالَم الأدب.

وقد لا نجد نصّا أكثر إسرافا في لـوم النّفس مثل نـص لأبـي عمـران المـارتلي يُنحى فيه على نفسه بالعتاب. ولو كنّا نجهل زهد أبي عمـران الذي غدا فيه مضـرب المثل، لقلنا إنّ أبا عمران كان رجلاً عاديّاً لا يختلف، في تشبّثه بالحيـاة، عـن سـواه، ولا يتميّـز عنهم في إقباله على مُتعها. يقول في هذا النص:

إلى كم أقـول ولا أفعـلُ؟ — وكـم ذا أحـوم ولا أنـزل
وأزجر عيني فـلا ترعـوي — وأنصح نفسي فـلا تَقبـلُ؟
وكم ذا تعلّـل لـي ويحهـا — بعَلّ وسوف وكـم تمطل؟
وكم ذا أؤمّل طول البقاء — وأغفُل والمـوت لا يغفل؟
وفي كل يـوم ينـادي بنـا — منادي الرحيل:ألا فارحلـوا
أمن بعد سبعين أرجو البقا — وسبع أتت بعدها تعجل؟[38]

ونختم هذه الأمثلة بنصّ لسهل بن مالك سجّلته عدة مصادر إعجاباً بجودتـه. ومـع أننـا لا نعرف مـا إذا كـان صاحبه قـد قاله في هـذه الفـترة أم بعيدهـا[39]، آثرنا أن نورده دليـلا آخر على ما كان يجنح إليه الزهـاد مـن معاتبـة النفس وتأنيبهـا على استرسالها في غوايتها. يقول سهل بن مالك من هذا النص:

نهـاركَ في بحـر السفـاهـة يسبحُ — وليلك عن يـوم الرفـاهـة يصبح
وفي لفظك الدعـوى وليس إزاءها — من العمل الزاكـي دليل مُصحّح
إذا لم تـوافـق فعلـةٌ منـك قولـةً — ففي كلّ جزء من حديثك تُفضَح

(38) ابن سعيد: الغصون اليانعة-م.س.-ص:136-137.

(39) يقول سهل بن مالك:

إذا كنت في سنّ النُّهى غير صالح — ففي أيّ سنّ بعد ذلك تَصلُح؟

فهل كان يقصد بـ"سنّ النهى" الأربعين أو نحوها ؟ إذا كان كذلك، كانت هذه القصيدة من نتاج الفترة التي ندرس شعرها، لأنّ الشاعر كان يبلغ، يوم"العِقاب"، خمسين سنة.

تنحَّ عن الغايات لست منَ اهلهـا طريق الهُوَيْنى في سلوكك أوضـح
إذا كنت في سنّ النُّهى غيرَ صالح ففي أيّ سنّ،بعد ذلك،تصلُح؟(40)

إن تردّد عتاب النّفس في شعر الزهد الذي خلّفته هذه الفتـــــرة، وإسـراف بعض الشعراء في تأنيب أنفسهم، أو سواهم، وإفراط بعضهم في المحاسبة ـ لمن الأدلّـة على ما كان يتّصف به بعضهم من ورع شديد يجعل من اللَّمَم ذنوباً عظيمـة؛ وإنّ مـا يبـالغـون في وصفه من غواية لا يعكس الحقيقة إلا بمقدار(41).

هـ - النّدم من شروط التوبة النصوح؛ وفي نصوص الزهـد الـتي وقفنـا عليهـا يتجلّـى تنـدّم بعـض أصحابهـا لذنوبهـم، وخوفهـم مـن أن يُؤخَـذوا بهـا. وقـد يجنـح بعضهـم إلى تهـويل أمرها، وتضخيم ما ينتابه من أسف، وما يعتريه من فَـرَق. يقـول ابن مهنـي واصفاً ما كان يساوره من خوف بسبب ما فرط منه:

خلّيـانـــي وعَبْـرة ليس تـرقَـا لو بكيت الـدمـاء لم أقض حقّا
لهف نفسي إن لم يكن منك عفو سيّدي سيّـدي وإلاّ سأشقـــى
إنّ تحت الثيـاب منّـيَ جسمـاً قد عصى ربّه اغتراراً وخرقا(42)

ويقول أبو محمد ابن جحّاف مستعظما ذنوبه، مبيّنا مدى خوفـه:

أقول وقد خوّفـوني القِران ومـا هو من سرّه كـائنُ

---

(40) ابن عبد الملك:الذيل والتكملة-م.س.-4/105-106؛ الرعيني: برنامج شيوخ الرعيـني-م.س.-ص:62؛ ابن الخطيب:الإحاطة-م.س.-4/279؛ ابن فرحون: الديباج المذهب-م.س.-ص:125.

(41) قد يصحّ فيهم قول الدكتور محمد رضوان الداية متحدّثا عن زهد ابن خفاجة:«ويظـلّ-عنـدي-أنّ ما يذكره الشاعر من" فسوق وعصيان"، ليس أكثر من الورع الشديد في تضخيم الذنـوب في مجـال التوبـة، وتحت ظلّ الضراعة»(ابن خفاجة-م.س.-ص:86).

(42) الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص:95.

ذنوبي أخاف فأمّا القران فإنّي من شرّه آمن[43]

إنّ استعظام الزّهاد لذنوبهم، وشدّة تندّمهم، لمن الدّلائل على انشغالهم بمصيرهم. وإذا كان الناس يتفاوتون في انشغالهم بالمصير، فإنَ هذا الانشغال قد يكون ـ عند بعض الزّهاد ـ مؤرّقاً. يقول أبو عمران الزاهد، مُبديا قلقه:

كأنْ بي وشيكاً إلى مصرعي يُساق بنعشي ولا أُمهَلُ
فيا ليت شعريَ بعد السؤال وطول المقام لما أُنقل[44]

وإذا كان أبو عمران منشغلا بما ينتظره من مصير بعد الموت، فإنّ ابن منخّل الشّلبي يتجلّى خوفه من الموت ذاته، لكونه جسراً إلى مرحلة الحساب والثواب والعقاب، يقول:

مضت لي ستّ بعد سبعين حجّة ولي حركات، بعدها، وسكونُ
فياليت شعري: أين أو كيف أو متى
يكون الذي لابدّ أن سيكون؟[45]

و - إذا كان استشعار الذنب مُقلقاً لكثير منهم، فإنّنا نجد حُسْن ظنّ بعضهم با لله متجلّياً في كثير من النصوص، إذ يُبدي أصحابها تفاؤلهم، ويُظهرون واسعَ رجائهم في عفو ا لله. والأمثلة على هذه الفكرة كثيرة. ولعلّ ذلك أن يكون نتيجة للتوجيه القرآني إلى التفاؤل، كما في قوله تعالى:"قل: ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، لا تقنطوا من رحمة ا لله؛ إن ا لله يغفر الذنوب جميعا؛ إنّه هو الغفور الرحيم"[46].

(43) ابن الأبّار:التكملة ـ م.س. ـ 56/2.

(44) ابن سعيد: الغصون اليانعة ـ م.س. ـ ص:137.

(45) ابن الأبّار: التكملة ـ م.س. ـ 496/2-497.

(46) الزمر:53.

ومن هذه الأمثلة قول أبي بحر صفوان بن إدريس التجيبي:

قالوا، وقد طال بي مدى خطئي، ولم أزل في تجرّمي ساهِي:
أَعددتَ شيئاً ترجو النجاة به ؟ فقلت: أعددت رحمة الله[47]

ومنها قول أبي بكر ابن مُغاور في قطعة«أمر أن تُكتَب على قبره إذا مات»:

أودعوني بطن الضريح وخافوا من ذنوب كلومها بأديم
قلت: لا تجزعوا عليّ فإنّي حَسَن الظنّ بالرؤوف الرحيم[48]

وقد تواطأ عدد من الشعراء على مقابلة قلّة الزاد بجود الله، فردّدوا هذه الفكرة في معارض مختلفة: فقد كتب أبو بكر مالك ابن حمير إلى أبي الأصبع العبدري:

رحلت وإنّني من غير زادِ وما قدّمت شيئا للمَعاد
ولكنّي وثقت بجود ربّي وهل يشقى المُقِلّ مع الجواد؟[49]

فقال العبدريّ في المعنى:

رحلت بغير زاد للمعادِ ولكنّي نزلت على جواد
ومن يرحلْ إلى مولى كريم فما يحتاج في سفر لزاد[50]

وممن قال في ذات المعنى أبو الحجّاج يوسف المنصفيّ، وله:

قالت لي النفس:أتاك الردى وأنت في بحر الخطايا مقيمْ
فماذا ادخرت الزاد؟قلت:اقصري
هل يُحمَل الزاد لدار الكريم[51]

---

(47) المقّري: نفح الطيب-م.س.-5/67-68.

(48) صفوان بن إدريس : زاد المسافر-م.س.-ص:81.

(49) ابن الآبّار: التكملة-م.س.-2/709؛ البلفيقي:المقتضب-م.س.-ص:117.

(50) البلفيقي: م.ن.

(51) ابن سعيد: المغرب-م.س.-2/354.

وقد يستهين بعضهم بما اقترفه، معوّلا على شفاعة النبيّ (ص). وفي هذا يقول صفوان بن إدريس:

يقولون لي، لما ركبت بطالتي ركوب فتى جمّ الغواية معتدي:
أعندك شيء ترجو الخلاص به غدا؟ فقلت: نعم، عندي شفاعة أحمد[52]

وإذا كانت فكرة الرجاء في عفو الله والثقة بتجاوزه عن الخطايا قد ترددت كثيراً في شعر الزهد الذي خلّفته هذه الفترة ، فليس ذلك دليلاً على أن الذين قالوا في هذا المعنى كانوا غارقين في بحر الذنوب، أو كانوا غير مدّخرين من صالح الأعمال زاداً. فإنّ منهم من لم يقل فيه-كما أشرنا-إلا مساجلا غيره. على أن هذا المعنى، وإن بدا طريفاً، غيرُ جديد، وممّن طرقوه من قبلُ: أبو القاسم الأبرش إذ يقول:

أيأسوني لمّا تعاظم ذنبي أَتُراهم هم الغفور الرحيمُ؟
فذروني وما تعاظم منه إنّما يغفر العظيمَ العظيم[53]

ز – يقف المتتبّع للشعر الديني في الأندلس، على هذا العهد، على عدد من النصوص في المناجاة والتوسّل والدعاء. وهي، وإن كانت ذات صلة-في الغالب- بشعر الزّهد، آثرنا أن نخصّها-من بعد- بحديث مستقلّ، وذلك لكثرتها، وتنوّع مواضيعها، وضعف صلة بعضها بغرض الزهد.

ح – تتردّد في أشعار الزهد الدعوة إلى الاتّعاظ بالموت، والحثّ على الاعتبار بفناء الماضين. قال أبو بكر ابن عذرة الأنصاريّ:

واحذر هجوم المنايا واستعدّ لها وعُدَّ نفسك إحدى هذه الرمِم[54]

وقال أخوه أبو الحكم:

ولا تغرّنّك الدنيا وزينتها فكم أبادت وكم أفنت من الأمم[55]

---

(52) ياقوت: معجم الأدباء-م.س.-14/12.

(53) ابن الآبار: التكملة-م.س.-81/1.

(54) و (55) البلفيقي: المقتضب-م.س.-ص:153.

وإذا كان الموت أكبر واعظ، وأعظم مزهّد في هذه الحياة، فإن كثيراً من الناس غافلون أو مضيّعون. يقول ابن البرّاق معبّرا عن هذا المعنى:

يشيّع بعضُنا بعضاً وتعمى عن التشييع ألحاظ المشيّعْ
وكلّ محصّل منّا حصيفٌ فإمّا غافلٌ هو أو مضيّع[56]

ط- الحث على التوبة وتقوى الله وإصلاح النفس وما إلى ذلك مما يقتضيه الاستعداد ليوم المآب، مبثوث في كثير من أشعار الزهد. وإذا كان الشعراء قد توجّهوا ببعض ذلك الحثّ إلى نفوسهم، فإنّهم قد أرادوا ببعضه غيرهم استجابة لنزعة إصلاحية قد تعود إلى التوجيه القرآني الذي كان له أثره في السلوك العامّ. ومن الأمثلة على ذلك قول أبي بكر ابن زهر المعروف بالحفيد حاثّا الناس على التوبة، وذلك بعد أن«توالى المطر في فصل الصيف، فكثر الوبأ في الناس»:

فيا أيّها الناس اتقوا الله وافزعوا إليه وإلاّ فاحذروا النقمة العظمَى
وتوبوا له واستغفروه وأخلصوا لما كان من تفريطكم،توبة عزما[57]

ومنها قوله داعيا إلى الاستعداد للآخرة، محذّرا من الركون إلى الدنيا:

فاختر لنفسك ما تنجو النجاة به وانظر لها قبل أن يفوتك النظرْ
دع فانياً والتمس ما لا فناء له إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر
لا تغرّنّك الدنيا وزخرفها عن المعاد،هناك الشأن والخبر[58]

ونظم ابن زهر الحفيد قصيدة، فيها«يصف حال الكبرة، ويستدعي بذلك إلى التأمّل والعبرة»[59]، وأرسلها إلى أبي عمران الزاهد، فذيّلها بأبيات، تحدّث فيها

(56) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-482/6.
(57) م.ن.-ص:400-401.
(58) م.ن.-ص:401.
(59) م.ن.-ص:402.

عن انتهاز العمر لصالح الأعمال، وحثّ على التوبة وتقوى ا لله. يقول:

وما في العمر فيه صـــا لـح الأعمـــال تُغتَنَـــمْ
ويستعتـبُ من زلـّـتْ به فيما مضـــى القـــدم
ويستـدركُ فيه التّـــو ب والإقـــلاع والنّـــدم
فبـالتـــوبــة والإقـــلا ع يُرجى الصّفـحُ والكرم
...وتقوى ا لله أولى ما يُـلاذُ بـه ويحتـــرم[60]

ويبيّن أبو الحكم عبد ا لله ابن غلنده وجوب إصلاح النفس مقارنـا بينـه وبـين إصلاح الجسم، فيقول :

إذا كـان إصلاحي لجسميَ واجبـــا فإصــلاح نفسي-لا محالة-أوجبُ
وإن كـان ما يَفنى،إلى النفس مُعجباً؛ فإنّ الذي يبقـى،إلى العقل،أعجب[61]

ي- إلى جـانب مـا يتجلّى في أشعار الزهـد مـن سـخط علـى الحيـاة الدنيـا، نجـد بعضهـم غـير راضـين عـن أهلهـا، مسيئين الظـنّ بالنـاس، غـير مطمئنّـين إليهـم. يقول أبو الفضل عبد المنعم الغسّاني بعد أن وصف الدنيـا بالبحار المتلاطمة:

وأكثر ما لاقيت يُغرق إلْفَــه وقلّ فتىً يُنجي من الغَمَراتِ[62]

ويُبدي ابن زهر الحفيد سخطه على النـاس لغفلتهـم عـن الهـدف مـن خلقهـم، فيقول:

وهم في غفلة ممّا له خُلقــوا مثل البهائم إلاّ أنّهم بشرُ
عَمُوا وصَمُّوا عن الأمر المراد بهم
حتىّ كأنْ مالهم سمع ولا بصر[63]

(60) م.ن.-ص:403.
(61) ابن الآبار: التكملة-م.س.-938/2.
(62) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-57/1/5.
(63) م.ن.-401/6.

إنّ تردّد هذه النغمة الساخطة في أشعار الزهد ليس دليلا على سوء سلوك بعض الناس، بقدر ما هو دليل على روح نقديّة ونزعة إصلاحيّة،لا يخلو منهما جلّ شعراء الزهد.

ذلك أهمّ ما انطوت عليه أشعار الزهد التي خلّفتها هذه الفترة؛ وهو يدلّ على أنّ زهد هذه الفترة لم يخرج عن الاتجاه المعتدل الذي يستمدّ أصوله من القرآن والسّنة وسيرة السلف الصالح. ويستطيع المتتبّع لتلك الأشعار أن يجد لكلّ فكرة وردت فيها، مرجعها من آية قرآنية، أو حديث نبوي، أو غيرهما.

2 – التصـوّف:

التصوّف مرحلة تالية للزهد، لذلك كان من الطبيعيّ أن يتأخّر ظهور شعر التصوّف عن ظهور شعر الزهد: فإذا كانت بواكير الزّهد في الشعر الأندلسيّ تعود إلى عهد الإمارة(64)، فإنّ التصوّف لم يَبرز غرضاً من أغراضه إلاّ بعد ذلك.

ولعلّ أوّل شعراء التصوّف في الأندلس هو أبو عمر أحمد بن عيسى الإلبيري الذي«عمد إلى أسلوب المناجاة الصوفيّ الخالص سالكاً سبيل أهل الطريق تأمّلاً وتشوّقاً وسُكْراً وفناء وكشفاً وحنيناً وأنيناً وارتياحا»(65).

ويُعَدّ أبو العباس ابن العريف أكبر شعراء التصوّف في الأندلس قبل عصر

---

(64) قال د. إحسان عبّاس:«أمّا شعر الزهد في الأندلس، فقد ولد في أحضان الثورة على الحكم الرّبضيّ إذ كان الأتقياء ينظمون أشعار الزهد ويتغنّون بها في الليل، ويضمّنونها التعريض به»(تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة-م.س.-ص:116).

(65)مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسيّ-م.س.-ص:65. ومن شعر أبي عمر الإلبيري في غرض التصوّف بائيته التي مطلعها:

شربت بكأس الحبّ من جوهر الحبِّ رحيقاً بكفّ العقل في روضة الحبّ

(ابن بسّام : الذخيرة - م.س. - ص:850/2/1).

الموحّدين. وقد خلّف عدّة نصوص في هذا الغرض، يدور جلّها حول الحبّ الإلهي[66].

وإذا كان شعر ابن العريف يمثّل البداية الحقيقيّة لحركة الشعر الصوفيّ بالأندلس، فإنّ شعر ابن عربي وابن سبعين والشّشتري يمثّل أوج هذه الحركة، وتقع فترتنا بين هاتين المرحلتين. فكيف كان شعر التصوّف فيها ؟

إذا كان الباحث في الشعر الديني في الأندلس في هذه الفترة يقف على فيض غزير من النصوص، فإنّه لا يُلفي إلا نزرًا قليلاً من تلك النصوص يُمكن إدخاله حقّا في إطار الشعر الصوفيّ.

ولعلّ قلّة النظم في هذا اللون راجعة إلى ما ظلّ يُصيب المتصوّفة من تغريب أو نحوه، مما كان وراءه الفقهاءُ في الغالب. ومن الأمثلة على ذلك، في هذه الفترة، إشخاصُ أبي مدين شعيب من بِجاية بأمر من الخليفة يعقوب المنصور. ذلك أنّ أبا مدين لمّا استوطن بجاية «كثر عليه الناس، وظهرت على يده كرامات، فوشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور وقال له:" أنا أخاف منه على دولتكم، فإنّ له شبها بالإمام المهدي، وأتباعُه كثيرون بكلّ بلد ". فوقع منه ذلك، فكتب لصاحب بجاية ببعثه إليه»[67].

ويقف المتتبّع لشعر التصوّف في هذه الفترة على أنّ نصوصه تتدرّج بين مرحلة لا تبعد فيها عن شعر الزهد، ومرحلة تقترب فيها من أشعار ابن عربي وابن سبعين والششتري وغيرهم ممن يطفح نتاجهم بكثير من المعاني والمصطلحات الصوفية.

---

(66) مما اشتهر له في هذا الغرض سينيته التي يقول منها:

ما زلتُ مذ سكنوا قلبي أصون لهم ... لحظي وسمعي ونطقي إذ هم أُنسِي

(ابن سعيد: المغرب-م.س.-211/2).

(67) الناصري:الاستقصا-م.س.-213/2.

فمن النصوص التي تصوّر أحد المقامات في رحلة المتصوّف قول أبي بكر يحيى ابن بقيّ المعروف بالسلاوي الواعظ«في الوحدانيّة والرجاء»:

في كلّ حـــال أنت لِي   بكلّ ما أرجو ملـــي
وحيث ما كنت أجـــد   ك سيّدي مستقبلـــي
ولست أعـــني بمكـــا   ن حـــاش لله ولـــي
قد كنتَ إذ لا موضـع   من السمـــاء الأول
ولا هـــواء صـــاعـد   ولا حضيض أسفــل
ولا شعـــاع نيّـــر   ولا ظـــلام أليـــل
كنت بـــلا أيْـن ولا   كَيْف ولا تنـــقّــل
وأنت بالمعنـــى الـذي   كنت عن الكيف علي
عليك رزق من سعـى   ومنك غـوث من بُلـي
فهـــا أنـــا مُفــوّض   مَنزلـــيَ لمنــزلــي
من كان لي فيما مضى   فيما بقِي يكون لي(68)

فصاحب هذا النص ينـاجي الله معلنا توكله عليـه. و«التوكـل»مرحلـة لابـدّ منهافي«سفر»المتصوف إلى الله. يقول أحد الباحثين في التعريف والتنويه بهـذا المقـام: «التوكّل هو الركون و التسليم إلى الله تعالى في كـل شيء، وتلـك مرتبـة لا يبلغهـا الا من كانت له القدم الراسخة في التصوُف»(69).

ومن النصوص التي تصوّر رجاء السالك في الوصول ،ورغبتـه في أن تنكشـف له الاسرار قول أبي القاسم عبد الرحيم بن إبراهيم الخزرجي المعروف بابن الفرس:

---

(68) صفوان بن إدريس: زاد المسافر-م.س.-ص:157-158.

(69) محمد قريبز: الشعر الصوفي في الأندلس في عصر المرابطين والموحدين-رسالة ماجستير-سوريا-جامعة حلب-1406هـ.-1986م.-ص:114.

عسى عطفة من جانب القدس تسمحُ — وبارقـة من جانب اللطـف تلمح
عسى ا لله يُدنيني إلى ساحة الرضـــا — فأقرعَ أبواب الغيــــوب فتُفتَـح
وما زال فضل ا لله يَغمُر ساحتــــي — ويَظهـــر لــــي من حيثما أتلمّـح
إلى الملإ الأعلى سمـوتُ بهمتــــي — كذلك شأن الشكل للشكل يَجنَح(70)

وهذا النـص أعمـق مضموناً مـن السـابق ، وأكـثر أخـذاً بـالمصطلح الصـوفيّ: فـ«قـرع أبـواب الغيـوب»و«التطـلّع إلى المـلإ الأعلى»و«جنـوح الشـكل الى الشـكل»، من الأدلة على ذلك .

ولابـن طفيـل أشـعار تمـت بصلـة إلى هـذا الغـرض ،وإن كـانت مطبوعـة بمسـحة فلسفية؛ منها قطعة يُبرز فيها المفارقة بين الروح التي هي نـور، وبـين البـدن الـذي هـو طين ، يقول فيها:

يا باكياً فرقة الأحبـاب عن شحط — هل لا بكيت فراق الروح للبدنِ
نـــور تـــردّد في طيـــن إلى أجل — فانحاز علواً وخلّى الطين للكفن
يا شدّ ما افترق من بعـد ما اعتلقـا — أظنّها هدنةً كانت على دخـــن
إن لم يكن في رضوا لله اجتماعهما — فيا لها صفقة تمّت على غبن(71)

ومن تلك الأشعار قطعة يوازن فيها بين قـوم يجول فكرهم بهم بـين المعـاني- ولعله يريد علماء الباطن أو علماء الحقيقة-، وفـــرقة وقفوا في القشور-ولعله يقصـد علماء الظاهر أو علماء الشريعة-. ويـحاول من خلال هذه الموازنـة أن يظهـر التبـاين الواسع بين الطائفتين، عائداً به إلى اختلاف الطبيعة. يقول :

ما كلّ من شمّ نـال رائحـــة — للنـــاس في ذا تبايـــنٌ عجـــبُ
قوم لهم فكرة تجـــول بهـم — بين المعـــاني أولئـــك النُّجُـــب

(70) ابن الأبّار: كتاب الحلة السيراء-م.س.-271/2.
(71) عبد الواحد المرّاكشي: المعجب-م.س-ص:174.

وفرقة في القشور قد وقفـــوا　　وليس يـــدرون لبّ مــاطلبـوا
لاغاية تنجـلي لناظـرهـــم　　منـــه ، ولاينقضـي لهـــم أرب
لايتعـــدّى امـرؤ جِبِلّتــه　　قد قسّمت في الطبيعة الرّتــب[72]

إنّ ابن طفيل لم يكن متصوفاً على نحو مـا كـان معاصره أبـو مديـن شعيب- مثلاً- ولكنّـه كـان يـرى التصـوّف مـن أعلـى المراتـب الـتي يمكـن أن يوصَـل إليهـا ؛ فبطل قصتــه«حـي بـن يقظـان » « مـافتئ... يتـأمل كوامـن نفسـه فيسـتنتج أنّ لذتـه لابـدّ أن تكـون مرتبطـة بمشـاهدة الوجـود الكـامل ،فيأخذنفسـه بأسـباب الرياضـة و المجـاهدة، و لم يـزل يسـمو بروحـه حتـى وصـل إلى أرقـى صـور التصـوّف استغراقاً وفناء في ذات ا لله»[73].

ولعلّ إحجام ابن طفيل عن نظم قصائد أكثـــر إغراقــاً في هـذا الغـرض يعـود إلى تخوّفه من فقهاء عصره.ولقد قال في مقدّمة قصّة«حي بـن يقظـان»: «أمـا أن تسـأل عمّا يراه أصحاب المشاهدة و الأذواق والحضور في طور الولاية فهذا ممّا لا يُمكن إثباته على حقيقة أمره في كتاب»[74].

على أنّ ابن طفيل ربّما يكون قد عبّر عن وجـد صـوفيّ ووصـف حبـاً سـامياً في تلك القصيدة الـتي أثبتناهـا لـه ، في الفصـل الـذي عقدنـاه للغـزل في هـذه الفـترة، مستشـهدين بهـا علىالاتجـاه العفيـف.والحـقّ أن فيهـا مايُســوّغ صرفهـا إلى غـرض التصوّف،كقوله في بدايتها ذاكرا عدة أماكن من الجزيرة العربية:

ألّمت وقد نام الرقيب وهوّمــــا　　وأسرت إلى وادي العقيق من الحمى
وراحت إلى نجد فراح منجّـــدا　　ومرّت بنعمان فأضحى منعّـــما

(72) م.ن.-ص:174 .

(73) مصطفى الشكعة: الأدب الأندلسي-م.س.-ص:698.

(74) ص:19-20.

وجرّت على ترب المحصّب ذيلها   فما زال ذاك التّرب نهبا مقسّما[75]

و كقوله واصفا تجلّي جمال«محبوبته»:

فكان تجلّيها حجاب جمالها   كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلّما

ثم قوله مصوّرا لحظة اللقاء:

جلت عن ثناياها وأومض بارق   فلم أدر مَن شقّ الدّجنّةَ منهما
و ساعدني جفن الغمام على البكا   فلم أدر دمعًا أيّنا كان أسجما[76]

فما في هذه القصيدة ،كلّه قابل للتأويل.و لعلّ تأويلها أن يكون أيسر من تأويل بعض قصائد ابن عربي في ديوانه«ترجمان الأشواق»الذي أوّله تأويلاً صوفياً عجيبا[77]، لم نقف على مثله[78].

ومن النصوص التي بناها أصحابها على التغزّل بالحجاز وأهله والشوق إليهما، ما سنذكره لابن جبير في الفصل الذي خصّصناه للحنين: ففي ذلك يصف شوقاً عارماً إلى«أهل طيبة»أو«أهل العقيق»أو الحجّاج الذين«اجتمع بهم في مكة»، ويعبّر عن شغف وهيام ،على نحو ما نُلفيه عند عمر بن الفارض وغيره ممن سلكوا ذلك المسلك أسلوباً للتعبير عن مشاعرهم. ويكفي أن نُورد هنا، مما نظمه ابن جبير في هذا اللون ،تلك الأبيات التي قالها متشوّقا إلى أهل العقيق، وهي:

سكّان وادي العقيق شوقي   إليكم في البعاد زادا
ونظرة منكم المنى لو   أهديتموها إليّ زادا

---

(75) البلفيقي: المقتضب-م.س.-ص:125.

(76)عبد الواحد المراكشي: المعجب-م.س.-ص:173.

(77) راجع-بصفة خاصّة- شرحه للقصيدة التي مطلعها :

مرضي من مريضة الأجفان   علّلاني بذكرها علّلاني

(ترجمان الأشواق-بيروت-دار بيروت للطباعة والنشر-د.ط.-1401هـ.-1981م.-ص:78-86).

(78) ما يميّز هذا الشرح أن يكون بقلم صاحب الديوان نفسه.

عهد لنـا عندكـم حميــــد   يا ليتــه بالوصــال عـادا

صادق فيكم الكرى جفوني   وبَعدكم للجفون عـادى[79]

وقد اعتبر بعض الباحثين المدائح النبوية من شعر التصوف.ونعتقد أنّ ما يدخل منها في هذا الغرض حقّا هو تلك التي«نحا فيها أصحابها منحـى الغلوّ والمبالغة في مدح الرسول الكريم،وأضفوا عليه معاني فلسفية جعلت[منه] قبّة الوجود وسرّ الحياة وروح الدنيا»[80].أما المدائح النبويـة العاديّة ومـا إليهـا مـن رسـائل شعرية إلى قـبر الرسـول، ومن قصائد في مثال النعل النبوية،وغـير ذلـك،فهـي ألـوان أخـرى مـن الشـعر الديـني. وإذا كان اللون الأول من المدائح النبوية قـد بـدأ يكـثر في الأندلـس ابتـداء مـن القـرن السابع الهجري، بحكم ازدهار التصوف، فإنّنا لم نقف على مانعتبره دليلاً على وجـوده وازدهـاره في هـذه الفـترة. ويرجـع ذلـك-فيمـا نعتقـد- إلى سـيادة الاتجـاه المعتـدل في التصوّف، إذ انّ الأندلس لم تعرف حقّا التصوف النّظري إلا مـع ابـن عربـي وابـن سبعين والششتري وغيرهم ممن أظلّهم القرن السابع.

بقي أن نشـير إلى أنّ هـذه الفـترة عرفـت متصوّفـاً كبـيرًا مـن أصـل أندلسـي، هـو:أبـو مديـن شـعيب الـذي خلّـف في غـرض التصـوّف شـعراً كثـيراً تضمـن عـدداً من معاني التصوّف ورمـوزه وإشاراته[81]. ولكنّا فضلنا أن نذهـب مذهـب ابـن حـزم

---

(79) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-615/2/5.

(80) محمد قريبيز: الشعر الصوفي في الأندلس-م.س.-ص:263.

(81) لعل من أهمّ قصائده في هذا الغرض نونيته التي يقول منها:

كذلك أرواح المحبّين يا فتى   تهزّزها الأشواق للعالـم الأسـني

أنُلزمها بالصبر وهي مشوقة   وهل يستطيع الصبرَ من شاهد المعنى؟

(ديوان القطب الرباني،العارف بالله الغوث الصمداني،الشيخ سيدي شعيب أبي مديـن بـن الحسـين الأنصـاري الأندلسيّ الإشبيليّ-جمع العربي بن مصطفى الشوار-دمشق-مطبعة الترقي-الطبعة الأولى-1357هـ-1937م.-ص:59-60).

الرّسول فينوّه بصفاته الخلقية والخلقيّة، ويعدّد أعماله ويُشيد بفضله على أمّته، وغير ذلك. فمن قوله منوّها بجمال النبي(ص):

يامن إذاجلت الغزالة نورها　　فلوجهه يُعزى جميل إياتها
من لي بحسنك كلّما اعتكرالأسى　　في النفس فاشتملت على كرباتها

ومن قوله مشيداً بمنزلة الرسول من العرب :

في الصّيد من أذوائها والقلب من　　صرحائها والشمّ من أبياتها

وقدأطنب الشاعر في بيان فضل النبّي(ص). يقول من ذلك:

أنت الذي أنقذتها من غمّة　　فرّجت فيها الصعب من أزماتها
... لولاك ماعرف السبيل إلى النهى　　وضلّت الألباب عن منجاتها
فعليك فضل خشوعها وخضوعها　　وإليك أجر صيامها وصلاتها

ثم يتخلّص ابن البرّاق الى مدح الصحابة-رضي الله عنهم-، وهو القسم الثالث من القصيدة. يقول في بداية هذا القسم متخلّصاً ، مادحاً الصحابة بصفة عامة:

يامن توضّح جمره في زمرة　　رقيت بسنّته يفاع نجاتها
أقمار ملّتنا وشُهب سمائها　　وذوو الخلال الغرّ من سرواتها

وبعد ذلك يقف عند كلّ صحابيّ من العشرة منوّها فيذكر في البداية أبا بكر الصدّيق، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علياً خاصّاً إيّاه بمدح طويل. يقول:

فسريّها صدّيقها وسنيّها　　فاروقها الوضّاح عن عزماتها
وأثيرها عثمان تالي وحيها　　ومزحزح الأزمات عن ساداتها
وعليّها في المكرمات عليّها　　ربّ اختراط النصر في غزواتها
باب العلوم وخير من جالت به　　همّاته في مُرتقى صهواتها
من حفّ بالسبطين ذروة عزّه　　فتقهقر التغييّر عن هضباتها
وأمسّها قربى الحواريّ الذي　　لحظته بالإيثار بين ولاتها

إنّ وقوف الشاعر طويلاً عند عليّ مشيداً بخصاله، معدّداً مناقبه قد يرى فيه

بعضهم دليلا على التشيّع، ولكنّنا نعتقد-بناء مانعرفه عن موقف أهل الأندلس[89]- أنّ ابن البرّاق لم يكن متشيّعاً، وإنّما كان محبّاً لآل البيت لقرابتهم من رسول ا لله(ص).

ثم ينتقل إلى مدح باقي العشرة مشيداً بأهم ما ميّز كلّ واحد منهم. يقول- مثلا-في مدح عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص:

وحريّتها العفّ ابن عوف بالحجى   ورفيعها في حلمه وأناتها
وأخو حراستها بمحتضر الوغى   سعد مبيد الذعر دون حماتها

ويعود ابن البراق إلى مدح العشرة كلّهم معدّداً بعضا من خصالهم، داعياً إلى الاقتداء بهم والتوسّل إلىا لله بحبهم، فيقول:

فئة تواصت بالسناء فأشرقت   شمس النبوّة في سنا جبهاتها
فالبشر حشو ضلوعها والفضل طيّ   برودها و المجد حلي طلاتها
شهدت لها بالجنّة الذات التي   وطئت بأخمصها ذرى غرفاتها
هي صفوة المختار فاقتف سبلها   وتوخّ أن تستنّ في مرقاتها
وتحرّ أن تلقى الإله بحبّه   وبحبّها فتُثاب عن مسعاتها
فعساك أن تمتار من بركاتها   رِفْداً به تعتدّ من طبقاتها

وخصّص ابن البراق القسم الأخير من قصيدته لوصف شوقه إلى قبر الرسول(ص) ورجاء شفاعته، والسلام عليه، فقال:

ياطيّبا ضمته مسكة طيبة   فتضوّعت دارين عن جدارتها
شوقي لتربتك المقدّسة اقتضى   دَنَفي وصدّ النفس عن خطراتها
فارحمْ بكاء مُغرّق في أبحر   من دمعه يختال في غمراتها
واشفع له في توبة يصفو بها   نفساً فتقلع عن قبيح سناتها

---

(89)ينظر: إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين-ص:167-170.

...ثم السلام عليك ياشخص الرضا   مادمت أصل رشادها لغواتها[90]

ويتبيّن من العرض السابق لهذه القصيدة أنّها قد حوت عدّة أغراض إلى جانب الغرض الأساسيّ.. على أنّ تلك الأغراض كانت تابعة له منضوية تحته: فالتنويه بالصحابة تنويه برائدهم، والحنين إلى المرابع النبوية، والتوسّل إلى الرسول وماإلى ذلك مما ورد في النص، ذو صلة بالمديح النبويّ.

وقد سمّط هذه القصيدة -كما أسلفنا- تلميذ ابن البراق: أبو الكرم جودي. وأعجب ابن عبد الملك بهذا التسميط فقال منوّها بصاحبه:

جودت يا جوديّ في من جوّدا   وجعلت إنشادَ القريض تَعبُّدا

لمّاخصصت به النبيّ محمدا   ولسوف تجني ماغرست به غدا

فنفوسنا تُجزى على علاّتها[91]

وهذا نموذج من ذلك التسميط:

ساجلْ فديتك شجوَ كلِّ مغرّدِ   وصل العويل بأنّة المتنهّد

حتى تكون بك الحمائم تقتدي   أوليس حبّك للنبيّ محمد

أضعافَ مابثّته من لوعاتها[92]

وإذاكان ابن البرّاق قد جمع في قصيدته بين مدح النبيّ وصحابته العشرة، فإن لصفوان بن إدريس التجيبي نصّاً يبعث فيه تحيّته إلى الرسول(ص) وأهله ويمدحهم، يقول فيه:

تحية الله وطيب السلام   على رسول الله خير الأنام

على الذي فتّح باب الهدى   وقال للناس: ادخلوا بسلام

(90)ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-469/6-482.

(91) م.ن.-ص: 482.

(92) م.ن.-ص:472

بدر الهدى سحب الندى والجدا | وماعسى أن يتناهى الكلام
تحية تهزأ أنفاسها | بالمسك لا أرضى بمسك الختام
تخصّه منّي ولاتنثني | عن آله الصِيد السَّراة الكرام
وقدرهم أرفع لكنّني | لم أُلف أعلى لفظة من كرام(93)

فقد جمع هذا النص بين لونين من ألوان المديح النبوي، أحدهما فرع من الآخر. ذلك أنّ مدح الشعراء لآل النبيّ كان يباعث من حبّهم له. ولقد ذكرنا، في الفصل الذي عقدناه للرثاء، إقبال صفوان بن إدريس على تأبين الحسين ورثاء آل البيت وانفراده بذلك من بين معاصريه. وليس التأبين والرثاء إلا لونًا من المدح.

وقد جمع ابن جبير، في نص واحد، بين مدح النبيّ، والإشادة بآله، والتنويه بصحابته. يقول معبراً عن حبّه لهم ،مادحاً إياهم ، باعثاً سلامه إليهم:

أحب النبيّ المصطفى وابن عمّه | عليّا وسبطيه وفاطمة الزّهرا
همُ أهل بيت أذهب الرجس عنهم | وأطلعهم أفق الهدى أنجماً زُهرا
موالاتهم فرض على كل مسلم | وحبّهم أسنى الذخائر للأخرى
وما أنا للصّحب الكرام بمُبغض | فإنّي أرى البغضاءَ في حقّهم كفرا
همُ جاهدوا في الله حقّ جهاده | وهم نصروا دين الهدى بالظّبا نصرا
عليهم سلام الله مادام ذكرهم | لدى الملإ الأعلى وأَكْرِمْ به ذكرا(94)

أما الحنين إلى المرابع النبوية فلعلّ أهمّ من قال فيه:ابن جبير. وسنتناول قصيدته الرائية الشهيرة التي قالها عندما شارف المدينة المنوّرة،كما سنقف عند تلك المقطوعة التي صوّر فيها تشوّقه أهلَ«طيبة». ومما قاله شعراء هذه الفترة في هذا اللون أبيات لابن الصقر، قالها«في وداع القبر الكريم قبر النبيّ (ص)»، وهي:

(93) ياقوت: معجم الأدباء-م.س.-11/13-12.

(94) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-616/2/5.

حسب المحبّ من الحبيب سلامُ يَقضى به يوم الـــوداع ذمـامْ
رحنا وروع البين يخرس نطقنـا ومن الدمـــوع إشارة وكــــلام
يا أرضَ يثرب لا عداك غَمـام أنت المنـــى لو تُسعف الأيــام
للقلب في تلك العراص عرامـة مضمونها كَلَف بهاوغـــرام[95]

ولأبي بكر السّلاوي الواعظ قصيدة لعلّها من تلك الرسائل الشعرية التي كـان الأندلسيون يوجهونها إلى قبر الرسول(ص) عندما لاتسمح لهم ظروفهم بشـدّ الرحـال إلى المشرق لأداء مناسـك الحـجّ والقيـام بسنّة الزيـارة. وفيهـا«يتشـوّق إلى بيـــت ا لله الحـرام، ويتألّم من تعذّر الوصول عليه إلى زيارة الرسول صلى ا لله عليه وسلم» يقـول واصفاً ما يكابده من شوق بعد أن غادره ركبُ الحجّاج قاصداً إلى الحجاز:

أودعوني حرقاً إذ ودعـوا غادروا القلبَ بها مشتعـلا
آه من جسم غدا مستوطنا وفـــؤاد قد غدا مرتحـــلا
شعبة شرقاً وأخرى مغرباً مَن لـهذين بأن يشتمـــلا

ثم يسترسل في تصوير شديد تعلّقه بالأماكن المقدّسة، ووصف نزوعـــه إليها. يقول مخاطبا الحجّاج حاثّا إياهم على حسن استغلال فرصتهم ، غابطـاً لهـم على مـا منّ ا لله به عليهم:

يارجــــالاً بين أعــلام مِنىً الثموا الأستار واسعوا رَمَلاَ
وقفــوا في عَـرَفــات وقفة تمح عن ذي زلّة ما عمـــلا
وإذا زرتم ولاحت يَثْـــربٌ فاكحلوا بالنّور منها المقَــلا
كيف أنتم سمح ا لله لكـــم ؟ كيف ودعتم هناك الرّسلا؟
كيف لم تنضج قلوب حرقاً؟ كيف لم تجر عيون هملا ؟

ثم يبلغ قمّة الوجد ،فيقول متمنّياً:

---

(95) م.ن.-230/1/1.

ليت أنّي تربــــة الوادي إذا مرّت العِيس لثمتُ الأرجلا
لو بوادي الدّوم مرّت إبلــي كنت أوطات جفوني الإبلا

ويختم قصيدتــه شــاكياً إلى الرسـول تعـذّر سـبل الوصـول إليـه، مبديـاً خشـيته من أن يموت قبل أن يزوره، فيقول:

يارسول الله شكوى رجل عــذّر الدهــرُ عليه السُّبُلا
ليس بي أفقد الأهــل ولا أفقد المــال معاً والخــــولا
إنّما بي حين يدنو أجــلي لست ألقاك وألقى الأجلا[96]

إن رسائل الأندلسيين إلى قـبر الرسـول(ص) كـان مـن وراء نشـأتها وتطوّرهـا وازدهارها: بُعدُهم عنه، وتعذّر سبل زيـارته. وليس من شك في أنّ البعـد يؤجّج نـار الشوق، كما أنّ الحواجز تُذكي جذوة الحنين . وإذا كانت تلك الرسائل قد عكسـت تعلّقــاً لانظير له بالمرابع النبويّة وما إليها من الأماكن المقدَّســة، فـإنّ بُعد تلـك المرابـع وتعذّر الوصول إلى تلك الأماكن كان لهما فضل على تطور الشعر الدّيــني في الأندلس بظهـــور هذا اللـــون من ألوان المديح النبويّ .

وإذا كـانت المصـادر المتيسّـرة لم توفّـر لنـا مـا نعتـدّ بـه مـن نصـوص لدراسـة هذا اللون في هذه الفترة ، فـإن تلـك المصـادر قـد سـجلت كثـيراً مـن نتـاج الفـترات اللاحقة، مما يسمح برصد تطوّره وتحديد خصائصه.

ومـن ألـوان المديـح النبـوي الـتي عرفتهـا هـذه الفـترة مـا قيـل في تمثـال النعـل النبويـة[97]. ومـن أمثلـة ذلـك قـول أبـي الحسـن ابـن سـعد الخير داعيـًا إلى الاحتفـاء بهذا التمثال إجلالاً لصاحبه:

---

(96) صفوان بن إدريس :زاد المسافر-م.س.-ص:158-159 .

(97) راجع ما ذكره ابن عبد الملك المراكشي عن النعل النبوية ومثالها في كتاب: الذيل والتكملة- م.س.-1/1/327-329.

يا لاحظاً تمثـالَ نعـل نبيّـه قبِّل مثـال النعـل لا متكبّـرا

والثمْ به فلطـالما عكفت به قدم النبـي مُروّحـا ومبكّـرا

أو ما ترى أنّ الشجيّ مقبّل طَلَلاً وإن لم يلْفِ فيه مُخَبّرا[98]

وإذا كنا لم نجد من نتاج هذه الفترة إلا هذا المثال. فإنّ هذا اللون قـد ازدهـر بعد ذلك إذ أقبل على النظم فيه كثـير مـن الشعراء، فأفـاضوا في وصـف مثـال النعـل النبوية، وتفنّنوا في مدحها، متبركين متوسّلين[99]. وقد سجلت مصادر الأدب الموحدي كثيراً من ذلك الشعر؛ ثمّ إن بعض المؤلّفين قد خصّوا هذا الموضوع بكتب جمعوا فيهـا ما ورد فيه من منظوم ومنثور[100].

ونستنتج مما سبق أن ألوان المديح النبويّ في هذه الفترة كـانت مـا تـزال ضيّقـة الحيّز بسبب قلّة الإقبـال على النظـم فيهـا. علـى أنّ مـا سـتعرفه مـن ازدهـار، بعد هذه الفترة، سيجعلها من أهمّ أغراض الشعر الدينيّ في الأندلس.

4- ألوان أخـرى:

عرف الشعر الدّيـني في الأندلـس في الفـترة الأولى مـن عصـر الموحّديـن ألوانـا أخرى، لعلّ من أهمها ما يلي:

ا - المناجاة والأدعية والتوسّـلات:

يلتقي المتصفّح لمصـادر شعـر هذه الفترة، فيضاً مما نظمـه الشـعراء في المناجـاة والدعـاء والتوسّـل ومـا إلى ذلـك. وعلـى صلـة بعـض هـذه النصـوص بشـعر الزّهـد

---

(98) م.ن.-289/1/5.

(99) من الذين نظموا في هذا اللون، بعد هـذه الفـترة: ابـن الأبّـار البلنسـي (انظـر: ديوانـه-م.س.-ص:456)، وأبو الحسن الرعيني(انظر:ابن عبد الملك: الذيـل والتكملـة-م.س.-330/1/1)، ومـالك بـن المرحّـل (انظر:م.ن. - ص:332)، وأم السعد بنت عصام الحِمْيَري(انظر: المقري: نفح الطيب - م.س. - 166/4).

(100) منهم أبو الربيع سليمان الكَلاعي الذي ألّـف في ذلـك"نتيجـة الحـبّ الصّميـم، وزكـاة المنثـور والمنظوم"(انظر: ابن عبد الملك:الذيل والتكملة-م.س.-86/4)، ومنهم المقّري: وله فيه" فتـح المعتـال، في مـدح النعال"، وهو مشهور.(انظر:نفح الطيب-م.س.-مقدّمة المحقّق-13/1).

والتصوّف، فضّلنا أن نفردها بهذا الحديث.

على أنّ هذه النصوص -إذا كان يجمعها توجّه أصحابها إلى ا لله بالخطاب- قد تناولت أغراضا وموضوعات شتّى من رجاء، واستغفار، واستعاذة، وتسليم أمر، وغير ذلك.

ومع تواضع القيمة الفنّية لجلّ هذه النصوص، فإنّ بعضها قد استجاده الناس فضلّوا يردّدونه. ولعلّ أفضل مثل على ذلك: أبيات أبي القاسم السّهيلي في المناجاة والتوسّل التي ما فتئت حيّة، وفيها يقول:

يا من يرى ما في الضمير ويسمعُ	أنت المعَدّ لكل ما يُتوقع
يا من يرجّى للشدائد كلّها	يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن ملكه في قولِ كُنْ	أُمنن فإنّ الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة	فبالافتقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة	فلئن رُددت فأيّ باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه	إن كان فضلك عن فقيرك يُمنَع؟
حاشا لجدك أن تُقنِّط عاصيا	والفضل أجزل والمواهب أوسع
ثم الصلاة على النبيّ وآله	خير الأنام ومن به يُستشفَع(101)

وقد استجيد قول أبي العباس ابن سيّد الإشبيلي«في معنى المناجاة»:

مولاي، إني ما أتيت جريمة	إلا وقلت تندّمي يمحوها
لولا الرجاء ونية ليَ نطتها	بكريم عفوك لم أكن آتيها(102)

وإذا كانت أبيات السّهيلي قد اشتهرت -فيما يبدو- لجودة بنائها، ولكونها تكاد تستوعب جلّ حالات المتضرّعين والمتوسّلين، فإنّ ما استجاده الناس

(101) ابن فرحون: الديباج المذهب-م.س.-ص:150-152.

(102) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-318/1/1.

في بيتي ابن سيّد هو: ما انطويا عليه من معنى طريف في غرض المناجاة. ولعلّ من نافلة القول أن نذكر أنّ ما ينظمه الشعراء من توسّلات وأدعية وما إليها قد يكون نصوصاً كاملة الشعريّة تامّة الأدبيّة، وأنّ الشاعر قد يُهيّئ بما يقول ما يحتاج إليه غيره ممّن لا يملكون وسيلته، للإفصاح عن أغراضهم.

وعلى كثرة ما قيل في هذا اللون وتنوّع أغراضه واختلاف موضوعاته، يصعب تصنيفه تصنيفاً دقيقاً لما هنالك من تداخل. ولذلك نكتفي ببعض النماذج شواهدَ على تلك الأغراض، وذلك لتعذّر الإحاطة بما تضمّنته كلّ النصوص التي وقفنا عليها.

فمن النصوص التي نُظمت في معنى الانقطاع إلى الله تعالى وتسليم الأمر إليه قول أبي عليّ الحسن ابن كسرى:

إلهيَ، أنت الله ركني وملجئي ... وما لي إلى خلق سواك ركونُ
رأيت بني الأنام عقبى سكونهم ... حراك وفي عقبى الحراك سكون
رضىً بالذي قدّرت تسليم عالم ... فإنّ الذي لابدّ منه يكون[103]

ومن تلك النصوص قول أبي العباس ابن الصّقر الأنصاريّ في التعبير عن لجوئه إلى الله حين«تجافاه الناس لفقره»:

إلهى لك الملك العظيم حقيقة ... وما للورى مهما نعت نقيرُ
تجافى بنو الدنيا مكاني فسرّني ... وما قَدْر مخلوق جَداه حقير
وقالوا:فقير، وهو عندي جلالة ... نعم،صدقوا:إنّي إليك فقير[104]

وقد يكون الركون إلى الله بعد تجربة عقيمة لم يجن صاحبها إلا الخيبة.

(103) البلفيقي:المقتضب-م.س.-ص:114؛ ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.-480/1.

(104)ابن فرحون: الديباج المذهب-م.س.-ص:50؛ ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-230/1/1.

فهذا أبو العباس بن يحيى الوزغي ينزع هذا المنزع بعد أن مدح بعض ملوك عصره.
يقول متحدّثا عن سبب تحوله مُعلنا لجوءه إلى ا لله:

ولمّا رأيت الناس طُـرّاً تكـالبوا ... و لم يسمحوا إلاّ بكذب من الوعدِ
و لم يُجْدِ مدحيهم فتيلاً وزادنـي ... عناء وحار القصد عن سنن القصد
نبذت له نَبْذاً وعذت بخـالقـي ... ويا فوزَ من قد عاذ بالصّمد الفـرد
بمن يملك الأشياء لا ربّ غيـره ... ويرضيء بإلحـاح السؤال،عن العبـد
فيا خالقي عطفاً عليّ ورحمة ... يعوذ بها من لا يعيـد ولا يبـدي[105]

ومما قيـل في الاستغفـار وطلـب التجاوز عـن الأخطـاء: مـاورد لأبـي عـامر السلمي. فقد كتب،على ظهر كتابه«دُرَر القـلائـد،وغُرَر الفوائد،في أخبار الأندلس وأمرائها وطبقات علمائها وشعرائها»الأبيات التالية، وفيهـا يدعـو ا لله أن يتجاوز عمّا صدر عنه من أخطاء في هذا الكتاب:

كتبت وإنّـي بالمنيّة مـوقـن ... وإنّ كتابي بعد موتي سيُـنسَخُ
وقد نسخت كفّي تـوالفَ جمّـة ... تعـود مع الأيّام تبلى و تنـسـخ
سأبلى و أفنـى بالتراب و إنّـهـا ... لتبقـى و إسرافيل في الصّورينفـخ
فيا ربّ عفواً عن يد خطّت الخَطَـا ... فقد يُخطئ الإنسان في ما يؤرخ[106]

ولعلّ النصوص التي قيلت في التوسّل أكثر عدداً من سواها،ولقد مرّ بنـا توسّـل أبي القاسم السهيلي بفقره إلى ا لله، في أبياتـه المشهورة. ومـن النصـوص الـتي تناقلتها المصادر قول أبي بكر ابن ميمون العبدريّ متوسّلا إلى ا لله بإيمانه حيث يقول:

توسّلـت يـاربّي بـأنّيَ مـؤمـن ... ومـا قـلت: إني سامع ومطيـعُ

(105) ابن عبد الملك-م.ن.-ص:397.
(106) م.ن. - 8/6.

أيَصلى بحرّ النار عاص مــوحِّـد وأنت كريم و الرّسول شفيع؟[107]

ويبدو من بعض النصوص أنّ الشيخوخة وما يصاحبها من ضعف وغيره من البواعث على النظم في هذا اللون ، إذا يجد أغلب الشيوخ مَلاذاً في الدعاء والتوسّل و ما إلى ذلك .

فهذا إبراهيم ابن فرقد يتوجّه إلى اللـه ، عندما بلـغ السادسة والثمانين من عمره، فيقول في أبيات متوسّلا إلى ا لله بعدم قبوله الثواب على ما كان يكتب من عقود:

...فيا سامع الأصوات رحماك أرتجي فهب لي انسكات الدمع من رقّة القلبِ
وزكّ الذي تدريه مــن شيمــة[108] تـعلّق بي المظلوم من شدّة الكرب
وزكّ مـقامي في العقود وكتبـــها لوجهك لم أقبـــل ثـواباً على كـتب
...ولا تخزني يوم الحساب وهَـوْله إذا جئتُ مذعورًا من الهول والرّعب[109]

وقد تفنّن بعضهم في هذا اللون كما فعل أبو الحسن علي الغسّاني إذ تتبعَ أسماء ا لله الحسنى متوسّلاً بها،وذلك في«منظومات وسمها" بالوسيلة لإصابة المعنى، في شرح أسماء ا لله الحسنى"ضمّن كلّ قطعة أو قصيدة منها اسماً من أسماء ا لله تعـالى... وتتبع الأسمـــاء الحسنى إلى منتهى إحصائه منهـا»[110]. ومـن أمثلة هـذه المنظومـات قولـه مضمّنا أول تلك الأسماء:"ا لله".

قل ا لله تستفتح من اسمائه الحسنـــى بأعظمها لفظاً وأعظمهـا معنـــى
هو ا لله فـادع ا لله با لله تقتـــرب لأقرب قرباً من وريدك أو أدنـــى

(107) م.ن.-ص:321-322؛ ابـن فرحـون:الديـاج المذهـب-م.س.-ص:302؛ ابـن الخطيـب: الإحاطة-م.س.-88/3.

(108) هذا الشطر ناقص. ولعله كان"وزك الذي تدريه من حسن شيمة"، أو نحو ذلك.

(109) ابن الخطيب-م.ن.-374/1-375.

(110) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-177/1/5-178.

وأمّله مضطرّا تقف عند بابه ... وقوف عزيز لا يُصَدّ ولا يُثنَى
بباب إله أوسع الخلقَ رحمةً ... فلله ما أولى لبرّ وما أحنى
وقدّم من الإخلاص ثمّ وسيلة ... تنل رتبة العلياء والمقصد الأسنى
أمولاي هل للخلق غيرك مفضل ... يُصرّح عن ذكراه في الفضل أو يثنى
ببابك مضطرَ شكا منك فقره ... لأكرم من أغنى فقيراً ومن أقنى
وللفضل والمعروف منك عوائد ... لها الحمد ما أدنى قطوفاً وما أهنا
فهبها،لك الإنعام،غُرّا خوالداً ... تفاني لها الأيامُ طُرّا ولا تَفنى[111]

إنّ النصوص التي يضمها هذا اللون قد صدرت في الغالب عن علماءِ دين. وإذا كانت ظاهرة النظم والاهتمام بالزخرف البديعيّ متجلّية في غيرِ ما نصّ، فإنّ من الحقّ القول بأنّ بعضها ينبغي أن يُعَدّ من جيّد الشعر. ولعلّ الإبداع في هذا اللون لم يكن متيسّرا لكل واحد. وربّما كان ابن عبد الملك المراكشي صادقاً عندما مهّد لمقطوعة ابن الصّقر السابقة بقوله:«ومن شعره في الطريقة الزهدية التي لا ينفذ فيها من الشعر[اء] إلا من قوِيت عارضتُة، وتوفّرت مادته، وعلمت في الإجادة رتبته»[112].

ب- يلتقي المتتبع للشعر الديني في هذه الفترة عدةَ نصوص في التنويه بعلوم الدين والحثّ على تعلّمها وما إلى ذلك، كما يقف على نصوص أخرى في تقريظ بعض الكتب الدينية والإشادة بأصحابها.

فمن النوع الأول ما قاله أبو إسحاق بن حصن الحضرمي الإشبيلي في تفضيل علم الحديث على سواه حيث يراه بحراً محيطا ويرى غيره أنهاراً صغيرة:

إذا ذُكرت بحار العلم يوما ... فقول المصطفي لا غير بحري

(111) م.ن.-ص:178.
(112) م.ن.-230/1/1.

هـو البحر المحيط وما عـداه   فأنهار صغار منه تجري[113]

ومن هذا النوع قول أبي العباس أحمد بن خليل السكوني"في ترتيب العلوم":

إنّ العلـــوم لـجمّـة وأجـلّهـــا   علـم القـران وسنّة المختـــار
فاحفظ كتاب الله واحو علومــه   فإذا انتهيت فمـل إلى الآثـــار
واعرف صحيح رواية وسقيمهـا   وتحـرّ هـدي السـادة الأبـرار
وعلى الإمام الأصبحيّ فعـــوّلـن   فهـو العليـم بموقـع الأخبـار
ولتحو من علم الكلام جــوامعا   تهديـك يـــوم تحيّـر النظّـــار
واقف الإمام الأشعريّ تسر على   غرّاء واضحة الصُّوَى للسـاري
والنحو من شـرط العلـوم فإنّــه   لغوامض الأقوال كالمسْبـــار[114]

وعلى أنّنا صنّفنا هذين النصين في نفس النّوع، فإنّ الباعث على نظم الأول هو إعجاب صاحبه بعلم الحديث، في حين أنّ النزعة التعليمية هي التي كانت من وراء نظـم الثاني.

ومن النوع الثاني قول أبي الحسن ابـن حنـين مقرظـا كتـب الإمـام أبـي حـامد الغزالي:

حبّـــر العلـــمَ إمـــــام   أحســـن الله خَـلاصـهْ
ببسيـــــط ووسيـــــط   ووجيز وخُلاصــه[115]

ولعلّ أهـم مثـال على هـذا النـوع قصيـدة لأبـي الربيـع ابـن حكـم يُثـني فيهـا

---

(113) الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص:117.

(114) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-114/1/1.

(115) م.ن.-153/1/5. وقد يدلّ هذا النصّ على أن كتاب الغزالي الـذي أُحـرق في عهـد المرابطين بفتوى من فقهاء قرطبة (انظـر: ابـن عـذاري: البيـان المغـرب-م.س.-59/4) قـد أصبـح مـن الكتـب المعتمَـدة في عهد الموحّدين.

على الإمام مسلم وينوّه بإتقانه في تصنيف صحيحه. ولئن كانت هذه القصيدة عاكسة لحقيقة كتاب الصحيح، فإنّها قد تدلّ على ما عُرف عن الأندلسيين والمغاربة من ميل إلى كتاب مسلم وتفضيله على غيره من كتب الحديث(116). يقول ابن حكم منوّها بالإمام مسلم وكتابه:

تحدّى بإتقان الرواية مسلمُ ... وأوضح في الإسناد ما هو مُبهَم

وأبدع في علم الحديث عجائباً ... أبان بها ما لم يكن قبل يُفهَم

وخرّج من مَحْض الصّحاح مُصنَّفاً ... به كلّ من يهوى الأحاديث مُغرَم

وسابقَ كل المسنِدين ففاقهم ... وأربى عليهم حين جاد وديّموا

لقد أخمد الكتبَ السّنيّة ذكرُه ... كما خمدت في طَلْعة البدر أنجم

ثم يدعو طالب العلم إلى اعتماد كتاب مسلم مصدراً للحديث، -فهو في رأيه- أجلّ الكتب قدراً بعد القرآن. يقول:

فيا طالبا للعلم دونك مُسنَداً ... صحيحاً به من علّة الوهم تَسلَمْ

فما بعد فرقان هُدينا بنوره ... أجلّ وأعلى منه قدراً وأعظم

...فلا تعتمد إلا عليه فإنّه ... على كل ديوان يُروّى مُقدَّم

ويختم ابن حكم قصيدته بالدعاء لمسلم بحسن الجزاء على ما قدم من صنيع لعلم الحديث. يقول من ذلك:

جزى الله خيراً مسلماً وأثابه ... بأكرم نزل خالداً فيه ينعم

تهدّى لعلم لم يزل فيه قُدْوة ... وما كان إلاّ للهداية يُلهَم(117)

ويمكن أن يعدّ من هذا النوع ما نظمه أبو بكر التطيلي في الدفاع عن كتاب أبي حامد الغزالي «تهافت الفلاسفة»، رادّا بذلك على ابن رشد لما انتقد في كتابه

(116) محاضرة لأحد علماء المغرب، لعلّه الشيخ عبد الله كَنّون.

(117) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-4/64-65.

«تهافت التهافت» ما ذهب إليه الغزالي. يقول التطيلي في ذلك الرّد:

كلام ابن رشد لا يَبين رشــادُه   هو الليل يُعشي الناظـرين سوادُه
ولا سيّما نقض"التهـافـت" إنّــه   تضمّن برسـاماً يعـزّ اعتقـاده
... أتي فيه بالبهت الصـريح مغـالطـا
فمـا غيّــر البحرَ الخضمّ ثـمــاده
وحـاول إخفاء الغزالـة بالسُّهـا   فأخفق مسعــاه ورُدّ اعتقـاده
...وأنت بعيد الفكر عن ترّهاته   فمعظمها رأيٌ يقلّ سَداده(118)

إنّ النصوص الـتي نُظمـت في تقريـظ الكتـب كثيرة في الشـعر الأندلسـي(119)؛ وهي-على تواضع مستواها الفـنّي ، في الغـالب- لا تخلـو مـن قيمـة. فمـن ذلـك أنهـا شواهد على ما كان سائداً مـن اتجاهـات ثقافيّـة.ومثـل ذلـك يقـال في النصـوص الـتي نوّهت ببعض العلوم وحثّت على تحصيلها.

جـ- نُلفي من بين الأشعار الدينية التي خلّفتها هذه المرحلة عدداً من النصـوص تناول فيها أصحابها قضايا فقهيـة أو دينيـة عامـة. وإذا كـانت هـذه القضايـا متنوعـة، فإن الجامع بينها استناد متناوليها إلى حجج أغلبها مُستمَدّ من الدين.

ومن الأمثلة على هذه النصوص قول أبي عمران الزاهـد محـاولا تـأكيد أسـبقية الشرع على العقل-خلافاً لما يراه بعضهم- مستدلاً على صحة مـا يذهـب إليـه بكـون التعبّد بالشرع لا بالعقل:

---

(118) ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.-417/4.

(119) من الكتب الدينيّة التي قرّظها الأندلسيّون :كتاب الإمام مالك«الموطـأ »(انظر: ابـن فرحـون: الديباج المذهَب-م.س.-ص:26)، وكتاب القضاعي«شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب من الأحاديث النبويّة»(انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-465/2/5)، وكتاب أبي عيسى رزين بن معاويـة«تجريـد الصّحاح» (انظر:م.ن.-77/4-78).

معارضة الشرع بالعقل زيغ | عليه يقيس به من فتِن
تعبّدتَ بالشرع فاحكمْ به | على العقل،إيّاك أن تفتتن
وبالشرع يفرق بين الهوى | وبين الحجى كلّ عبد فطن[120]

ومن تلك الأمثلة ما قاله ابن جبير مُقرّرا إباحة«السماع من الصوت الحسن» مستنداً في ذلك إلى عدّة حجج منها:ما جُبل عليه الإنسان والحيوان من حبّه والارتياح إليه، ومنها إجماع أهل الحجاز على إباحته، ومنها حثّ الرسول على تزيين آي الكتاب بالصوت... يقول ابن جبير من ذلك النص:

و لله في الأرواح عند ارتياحها | إلى اللحن سرّ للورى غير مُظهَرِ
وكلّ امرئ عاب السماع فإنّه | من الجهل في عشوائه غير مبصر
وأهل الحجا أهل الحجاز وكلّهم | رأوه مُباحاً عندهم غير مُنكَر
...فإنّ رسول الله قد قال: زيِّنوا | بأصواتكم آيَ الكتاب المطهَّر
...فإنّ أكُ مُغرىً بالسماع وحُسْنه | فحسبي اقتداءً بالكريم ابن جعفر[121]

إنّ هذا النصّ-فضلا عمّا يدلّ عليه من صفة الفقيه في ابن جبير، وطريقة استدلاله على«الفتوى»التي يصدرها، وجرأته في الإدلاء برايه في قضية تأرجحت بين الحظر والإباحة- شاهدٌ على توظيف الشعر، في تلك الفترة، لمناقشة قضايا فقهيّة وإصدار أحكام فيها.

ومن هذه النصوص قصيدة لأبي الحجاج بن الشيخ يفنّد فيها ما ورد في كتاب وصل إلى الأندلس من المشرق يزعم فيه صاحبه-وهو من الهند- أنّ هولاً عظيماً سيكون بعد سنة، ويدعو الناس إلى التحصّن[122]. وفي هذه القصيدة يردّ أبو الحجاج

(120) الرعيني:برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص:95.

(121) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-5/2/615-616.

(122) أورد ابن عبد الملك هذا الكتاب، وعلّق عليه، وذكر أثره في الناس. انظر:م.ن.-4/210-212.

هذا الزعم مستندا إلى أدلّة، منها:ما قرّره القرآن من أنّ علم الغيب موقوف علـى ا لله. يقول من ذلك:

أخبرتَ أن ستهبُّ الريح عاصفةً تُبيد بعض بني الدنيا وما سكنُـوا
جعلت للنجم تأثيـــراً فأنت به مُصـــدّق ولقــول ا لله مـمتـهِـن
نطقت بالكفر فاسكت فُضَّ فُوك فما تُصغي لما تدّعي من باطـــل أُذُن
...لا يعلـــم الغيبَ إلاّ ا للهُ منفردًا أمّا النبيّون لولا الوحي ما فطنوا[123]

د- كان نظم العلوم والفنون من بين ما برّز فيه الأندلسيّون؛ وقد حظيت علوم الدين بعناية خاصّة، رغبة في تسهيل تحصيلها على طلاّبها. ومـن النمـاذج الـتي خلّفهـا علماء هذه الفترة في هذا اللـون أرجـوزة لأبـي الحسـن ابـن البلنسـيّ، نظمهـا في هجـاء المصحف، سمّاهـا «المنصف» وأهداها إلى الأمـير الموحّـدي أبـي علـي الحسـن بـن عبـد المؤمن. وقد وصفهـــا ابن عبد الملك بالحُسْن ولكنّه لم ينقل منها إلا هذين البيتين:

أكملته في النصف من شعْبانَـا فظهـــر الفضـل به وبـــانـا
عام ثـلاثــة إلـــى ستّينـــا من بعدها خمس من المئينا[125]

هـ- تدخل ضمن الشعر الديني أشعار كثيرة أخرى، فضّلنا أن نُدرجهـا ضمـن أغـراض أخـرى، لكونهـا أقـوى صلـة بهـا. ومـن هـذه الأشـعار مـا قالـه ابـن جبـير في ذمّ الفلاسـفة[125]، ومـا نظمـه في نقـد مـا ظهـر في المدينـة المنـورة مــن بـدع[126].

(123) م.ن.-ص:212-213.
(124) م.ن.-403/1/5.
(125) انظر:م.ن.-610/2/5-611؛ 30/6-31.
(126) انظر:م.ن.-617/2/5-620.

ومن هذه الأشعار أيضا ما نظمه كثير من شعراء الموحّدين في مصحف عثمان[127].

تلك أهم ألوان الشعر الدينيّ التي عرفتها هذه الفترة. ويتبين من تعدّدها وكثرة النظم في جلّها: أن الشعر الديني من أوسع أبواب الشعر الأندلسيّ. وقد لا نكون مبالغين إذا قرّرنا أن الاتجاه الدينيّ في ذلك الشعر، كان من أبرز الاتجاهات.

(127) انظر: م.ن.-1/1/163-165؛ 6/387؛ ابن الآبار: التكملة-م.س.-2/606.

الفصل السادس

الوصف

يلاحظ المتتبّع للشّعر الأندلسيّ أن الوصف من أبرز فنونه. وقد سار شعراء الأندلس قبل عصر الموحّدين، على غرار شعراء المشرق في بعض وصفهم، وجاءوا في بعضه الآخر بما اختلفوا عنهم. وإنّ الباحث فيما نظموه في هذا الغرض ليعجز عن حصره، ويسلّم بأنّ الأندلسيّين قد وصفوا كلّ شيء. وإذا كانوا قد ضربوا بأوفر سهم في وصف الطبيعة، فتناولوا الرياض و الحدائق والزهور والفواكه وغيرها، ووقفوا عند مختلِف الظواهر الكونيّة من برق ورعد ورياح وسحُب وأمطار و أنهار وليل ونجوم وأبراج وقمر وشمس وسواها، وصوّروا ما حوته بلادهم من طيور وأنعام وما إليها -فإنهم قد عُنوا ،كذلك، بوصف الدُّور والقصور والبرك والحمّامات والسجون والسفن والمراكب، وما كان أهل الأندلس يستعملونه من أدوات الحرب والكتابة والطرب وغيرها؛ كما لم يَفُتْهم أن يصوّروا كثيراً من الأشخاص كالأكَلة والطُّفيليّين والبخلاء وسواهم، وأن يتناولوا بوصفهم أعضاء الإنسان فيصفوا الرؤوس والأنوف واللّحى وغيرها. وحسْبنا أن نتصفّح بعض مصادر الشعر الأندلسيّ كـ «كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» مثلاً، لنقرّر ما أشرنا إليه من غزارة شعر الوصف في الأندلس وشموله لما وقعت عليه عين الشاعر.

و لم يتراجع الوصف في الفترة الأولى من عصر الموحّدين، بل ظلّ النظم فيه وسيلة إلى إظهار البراعة في كثير من الأحيان. ويقف الباحث في نتاج هذه الفترة على عشرات من النصوص المنظومة في هذا الغرض. و لم يكن الوصف دائما عرَضا ضمن أغراض أخرى، و إنما كان مقصودا لذاته في كثير من الأحيان : خصّصوا له قصائد ومقطوعات، استقصوا فيها جوانب الموصوف، ووُفّقوا إلى تقريبه من الأذهان، وأبدعوا في تحسينه أو تقبيحه...

وعلى أنّهم تناولوا بوصفهم غيرَما موضوع، فإنّنا نكتفي بوصف الطبيعة؛ فهو أحسن نموذج لوصفهم، و أفضل مثال على ما وقع لهم من إحسان في هذا الغرض.

ظلّت طبيعة الأندلس تستقطب اهتمام الشعراء، فأعطوها من إبداعهم ما يناسب جمالها، فتناولوا بالوصف -كما فعل أسلافهم- الفصول والرياض والحدائق والزهور والفواكه، وصوّروا -مِثْلَهم- الظواهر الكونيّة التي عرفتها بلادهم، ورسموا في شعرهم صورا لبعض حيوانات الأندلس...

ومن أهمّ موصوفاتهم، في هذا المجال، مايلي :

أ- مجـــالي الطبيعـــة :

أُعجب الشاعر الأندلسيّ، في كل الأعصر، بمجالي الطبيعة، فحظيت منه بعناية خاصّة، فنقلها في لوحات شعريّة، هي من أجمل ما خلّف الشّعر الأندلسيّ.وإذاكان لجلّ شعراء الأندلس إسهام في نقل تلك المجالي إلى رحاب الأدب، فإنّ لابن خفاجة من ذلك أوفر نصيب. وما تلقيبهم إيّاه بـ «الجنّان» و«صنوبريّ الأندلس» إلا دليل على شغفه بوصف الطبيعه و تبريزه في ذلك[1].

وقد لانجد في الفترة التي يهمّنا أمرها من يوازي ابن خفاجة في تعلّقه بمجالي طبيعة بلاده و«إشباعه» إيّاها وصفاً و تصويراً، و لكنّنا نُلفي كثيراً من النصوص في وصف تلك المجالي، و تخليد ما كانت تحضنه من مجالس الأُنس.

وإذا كانت الطبيعة في فصل الربيع أفضل منها في سواه من الفصول، لم يكن غريبا أن تنال مجاليها في هذا الفصل اهتماما خاصّا. فهذا أبو الأصبع عيسى ابن محمد العَبْدَريّ المعروف بـ «ابن الواعظ» يصف الطبيعة في جميع الفصول، وينتهي إلىتفضيلها في فصل الربيع مُفيضاً في وصف مجاليها في هذا الفصل، فيقول:

---

(1) تحدّث ابن خفاجة عن إكثاره من وصف الطبيعة معلّلا تلك النزعة عنده، فقال : «إكثار هذا الرجل في شعره من وصف زهرة، و نعت شجرة، و جريه ماء، و رنّة طائر، ما هو إلا لأنّه كان جانحاً الى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها وجِبلّة؛ و إمّا لأنّ الجزيرة كانت دارَه ومنشأه وقراره... حتّى غلب عليه حبّ ذلك الأمر، فصار قوله عن كَلف، لا تكلّف» (ديوان ابن خفاجة -م.س.- ص : 290).

إن قيل: في الصيف ريحان وفاكهة فالأرض مغبرّة والجو محرور
وإن يكنْ في الخريفِ النخلُ مخترقا فالأرض مربدّة والجوّ مأثور
وإن يكن في الشتاء الغيث منسكبا فالأرض مبتلّة والجوّ مقرور
ما الدهر إلاّ الربيع المستنير إذا أتى الربيع أتاك النّورُ والنُّور
الأرض سُندسة و الجوّ لؤلؤة والنور فيروزج و الماء بلّور
من شمّ ريحَ تحيّاتِ الرياض يقلْ لا المسك مسك ولا الكافور كافور[2]

وفي الحقّ أنّ فضل الربيع على الطبيعة لا يحتاج بيانه إلى دليل. فهو الذي يبرز محاسنها، ويجلوها عروساً فاتنة. يقول ابن حامد، في هذا المعنى، واصفاً روضة حفّها نهر:

و منظر رائق أنيق أهدى إلى قلبيَ اشتياقا
أبرز منه الربيعُ خَوْداً في سُنْدُسيّ الرُّبا فراقا
قلّدها للحَيَا وِشاحا ثم ثنى نهرها نِطاقا[3]

على أنّ طبيعة الأندلس كانت خضرتها غير مقصورة على فصل الربيع، فهذا ابن سعد الخير يصفها في غير هذا الفصل، فيقول «في حفلة كناز اصطفّت بها جُمْلة غربان» فتتراءى له المنظر بُرْدة سندسية عليها ضفيرة شَعر:

ومخضّرةِ الأرجاء قد طلّها الندى وقابلها أنف الصَّبا بتنفّسِ
تبدّت بها الغربان سطراً كما بدتْ ضفيرة شَعْر فوق بُرْدة سُنْدُس[4]

فقد أبرز ابن سعد الخير هذا المنظر الذي لم نألفه، بصورة فنّية بلغت الغاية في الطرافة.

(2) البلفيقي : المقتضَب -م.س.- ص : 116-117.
(3) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س.- ص : 85.
(4) البلفيقيّ : المقتضَب -م.س.- ص : 106. و الكناز: وقت كنز التمر أو البرّ.

و كان منظر الأشجار كثيراً ما يستهوي الشاعر الأندلسيّ فيتناوله بالوصف خالعاً عليه من الصفات ما يجعله حيّا نابضاً. و لعلّ أحسن ما جادت به قريحة شاعر في ذلك ما صدر عن ابن خفاجة، قُبيل هذه الفترة،في وصف شجرة مُنوَّرة ملبسا إياها سمات امرأة شمطاء [5] . ومن الأمثلة على ذلك من شعر هذه الفترة:ما قاله صفوان ابن إدريس وصديقه ابن حامد في وصف سَرْحة تهزّها الريح، باعثَين الحياة في المنظر بجملة من ألوان البيان. فقد خطرا «بمقنت على ثمر» فقال ابن حامد:

و سَرْحة كاللواء تهفو   بعِطْفها هبّة الرياحِ

فقال صفوان :

كأنّ أعطافها سقتها   كفُّ النُّعامى كؤوس راح

فقال ابن حامد :

إذا انتحاها النسيمُ هزّتْ   أعطافها هِزّةَ السماح

فقال صفوان :

كأنّ أغصانها كرام   تقابل الضيف بارتياح[6]

و قد يربط الشعراء، في وصفهم ذلك، بين الشجر وما يعلوه من طيور مغرّدة،

---

(5) يقول من ذلك :

يا ربّ مائسة المعاطف تزدهي   من كلّ غصن خافق بوشاح
مهتزّةٍ يرتجّ من أعطافها   ما شئت من كفل يموج رداح
نفضت ذوائبها الرياح عشيّة   فتملّكتها هِزّة المرتاح
حطّ الربيع قناعها عن مفرق   شمط كما تزبدّ كأس الراح
... نضح الندى نوّارها فكأنّما   مسحت معاطفَها يمينُ سماح

(ديوان ابن خفاجة -م.س.- ص : 281-282).

(6) المقّري : نفح الطيب -م.س.- 73/5.

على نحو ما نجد في مقطوعة لأبي الحسن بن مطرّف حيث يؤلّف صورة من عنصرين أساسيّين، أحدها: الشجر، والآخر الطيور: فيقول:

و في فروع الأيْك وُرْق إذا بلّ الندى أغصانَها تَسْجَعُ
إن هزّها نفحُ نسيمِ الصَّبا شاقَك منها غَرِدٌ مُبْدع
كأنّما أيكته مِنْبَر و هْو خطيب فوقها مِصْقَع(7)

وكما كان وصف مجالي الطبيعة منفردا بنصوص قُصرت عليه، جاء أحياناً كثيرة ضِمن قصائد نُظمت في أغراض أخرى. و من النصوص التي جمعت بين وصف مجالي الطبيعة و غيره بعض قصائد الحنين و المدح. ففي رائيّة الرصافي في الحنين إلى بلنسية نجد وصف الطبيعة و التنويه بمظاهرها يحتلّ حيّزا واسعا. يقول الرصافيّ واصفا تراب بلده و نباته و ماءه و غير ذلك :

و لا مِثْل مَدْحُوّ من المسك تُرْبة تملّي الصَّبا فيها حقيبتها عِطرا
نباتٌ كأنّ الخدّ يحمل نَوْرَه تخال لُجيْنا في أعاليه أو تِبرا
و ماء كتِر صيع المجرّة جلّلتْ نواحيَه الأزهارُ فاشتبكت زُهْرا
أنيق كريعان الحياة التي خلتْ طليق كرَيّان الشباب الذي مَرّا
... بلنسيةٌ تلك الزّبرجدة التي تسيل عليها كلُّ لؤلؤة نهرا
... تراجمُ أنفاس الرياح بزهرها رُجُوما فلا شيطان يقربها ذعرا(8)

و تبعا لما حمله هذا النص من وصف وحنين، التحمت عاطفة الإعجاب بإحساس الشوق،فبلغ النص بفضل ذلك درجة من التأثير،ما كان ليبلغها لو قُصر على غرض واحد. وشبيه بهذا النص قول الرصافي أيضا في مقطّعة له بلغ بها غاية التأثير، يقول فيها :

(7) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 149.

(8) ديوان الرصافي البلنسي -م.س. -ص : 69-70.

و كم بالنّقا من روضة مرْجَحِنّة		تضمّخُ أنفاس الرياح بها نَشْرا
و من نطفة زرقاء تلعب بالصّدى		إذا ما ثنى ظلّ مُدار بها سُمْرا
و برد نسيم أنثني عند ذكره		على زَفَرات تصدع الكبد الحَرّى[9]

على أن امتزاج وصف الطبيعة بالحنين إليها ليس جديدا في الشعر الأندلسيّ فلنا في شعر ابن زيدون و شعر ابن خفاجة غيرُ ما مثال.

و من المدائح التي حوت وصف الطبيعة قصيدة لصفوان بن إدريس مدح فيها أبا عمرو ابن حسون و آله، منها قوله في وصف رياضهم بالجزيرة الخضراء :

وروضٍ راقَ منظره و إلاّ		فلِمْ خلَع الحَمامُ به العِذارا
وقام على منابره خطيباً		فحرّك للغصون به حوارا
وطارحها فأصغتْ سامعاتٍ		و هزّت من معاطفها حيارى
فإنْ مرّ النسيم به عليلاً		تكلّفتِ القيامَ له سُكارى[10]

و يُلفي المتتبّع لوصف مجالي الطبيعة الأندلسيّة، في هذه الفترة، غير ما نصّ يجمع بين الوصف و الإخوانيّة. فقد كانت الطبيعة مكانهم المفضّل: يتنزّهون بين ربوعها، و يعقدون مجالس أنسهم في رحابها. و كان الشعر وسيلتهم : ينظمونه داعين إلى التمتّع في أحضان تلك الطبيعة، كما يقولونه مسجّلين ما نعموا به من مشاهد جميلة. و إذا كانت الأمثلة على هذه الظاهرة كثيرة،فإنّنا نكتفي بنصين أحدهما «بطاقة دعوة»، والآخر «وصف حال»؛ و كلاهما للرّصافي البلنسيّ. يقول في الأول داعيا «خليلاً» له إلى نزهة وسط طبيعة جميلة :

دعاك خليل و الأصيل كأنّه		عليلٌ يقضّي مدة الرمق الباقي
إلى شطّ منساب كأنّك ماؤه		صفاءَ ضمير أو عذوبةَ أخلاق

(9) م.ن. -ص : 74-75.

(10) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 61.

ب -الأزهار:

مفاضلات و إجراء محاورات بين الأزهار مُنطقين كلّ واحدة منها بفضائلها[14].

بيد أنّنا لم نُلف من ذلك الوصف في هذه المرحلة إلا نماذج قليلة. و ذلك إن لم يدلّ على تقلّص الظاهرة، يشير إلى ضياع كثير من النصوص التي نُظمت في هذا اللّون.

و من تلك النماذج القليلة التي وصلت إلينا:قول الشواش في باكورة ورد ،جامعا في وصفه بين تصوير ما زان مجلسَهم من الورد، و بين الغزل و ذكر الخمرة :

تمّ السرورُ بوَرْدٍ زان مجلسَنا فناب عن خدّ من أهوى و نفحتِهِ
فاشرب شبيهته و انعم بمُشبِهه لعلّ زورة ذا بشرى بزورته[15]

و يدلّ هذا النص، فضلا عن تداخل الأغراض، على ظاهرة حضارية : فتزيين المجالس بالورود لا يكون إلا في المجتمعات التي رقّت مشاعرها و تهذّبت أذواقها.

و مثلما كان النّص السابق «وليد» تلك المجالس، كانت نصوص أخرى نتاج « تمارين فنّية » تدلّ على حضور البديهة وسرعة الارتجال. و من ذلك ما قاله صفوان ابن إدريس و صديقه ابن حامد. فقد ناول صفوان ابنَ حامد وردة مغلّفة فقال:

و مُحمرَّة تختال في ثوب سندس كوجنة محبوب أطلّ عِذاره

فقال صفوان مُجيزا :

كتطريف كفّ قد أحاطت بَنانها بقلب محبّ ليس يخبو أُوَاره [16]

و لم ينل ذلك الارتجال من «إصابة الوصف» و«حسن التشبيه» -كما يقول النقاد الأقدمون-،و إنما جاء كلّ من الشاعرين بصورة طريفة بعثت الحياة

---

(14) من الأمثلة على ذلك : ما قاله أبو مروان الجزيري على لسان البَهار (انظر:ابن بسّام : الذخيرة- م.س. -48/1/4)، و ما قاله على لسان البنفسج (انظر : م.ن. -49/1/4-50).

(15) البلفيقيَ : المقتضَب -م.س. -ص : 141.

(16) المقَريَ : نفح الطيب -م.س.- 72/5.

في الموصــوف. و قــد تميّزت عنـــد ابــن حــامد باســتعارته بعــضَ عناصرهــا من التغزّل بالغلمان.

و يُخيَّـل إلى المتتبّع لهــذا اللّـون مــن الوصــف أنّ تــأليف الصــورة الجديــدة كان غايتَهم الأولى. ولعلّ في النصّ التـالي مـا يؤكّـد ذلـك، ففيـه يصـف ابـن الفـرس شـقائق النعمـان و هـي تتخلّـل زرعـاً، فيطالعنـا بصـورة طريفـة حيـث يشبّه الـزرعَ، و قد أمالته الرّيح، بكتيبة مهزومة متقهقرة، و يشبّه الشقائق بالجراح التي أصابتها :

انظـــر إلى الزرع و خاماتـــــه تحكي و قـد ولّـت أمام الريــاحْ
كتيبـــةً خضــــراءَ مهزومـــــة شـقائق النعمـان فيهـا جـراح [17]

جـ- الفواكه :

فواكــه الأندلــس كثـيرة. ذكــر بعــض المصــادر الأندلسـيّة عـــددا منهـــا، و نوّه بما امتازت به على فواكه غيرها من البلدان[18].

و قد حظيت باهتمام الشـاعر الأندلسيّ منـذ عهـد مبكّـر، فـأبدع في وصفهـا. و لعلّ أفضل ما قيل قبل عصر الموحدين في هذا الباب ما صدر عن جعفـر بـن عثمـان المصحفيّ في وصف سفرجلة حيث جمع إلى الوصف الدقيق القصّ النابض بالحياة[19].

---

(17) البلفيقي : المقتضب -م.س.- ص :134.

(18) انظر -مثلا- : المقّري : نفح الطيب -م.س.- 200/1.

(19) يقول المصحفي في ذلك :

و مصفــرة تختــال في ثــوب نرجــسٍ و تعبــق عـــن مســك ذكـــيّ التنفـــس
لهــا ريــح محبــوب و قســوة قلبــه و لــون محــبّ حلّــةَ السُّـقْم مكتســي
فصفرتهــا مـــن صفرتـــي مســتعارة و أنفاســها في الطيـب أنفـاس مؤنســي
و كـان لهـا ثـوب مـن الزغـب أغـبر علـى جسـم مصفّـر مـن التـبر أملـس
فلمـا استتمّت في القضيب شبابَـــها و حاكت لهـا الأوراقُ أثـواب سنـدس=

و من الفواكه التي وصفها شعراء هذه الفترة مايلي :

- الرمّـــــان :

لابـن سـعد الخير نـصّ يصـف فيـه رُمّانـة مُفتّحـة، حيـث يُبرزهـا في صورتـين قد نجد بينهما هوّة. إحداهما : صورة امرأة جميلة ضاحكـة، و الأخـرى: صـورة ليـث فاغر لفَمٍ متضرّج بالدّم. يقول في ذلك النص :

و ساكنة من ظلال الغصـون   بخِـدْرٍ تروقـك أفنانُـهُ
تُضـاحك أترابهـا فيـه لّمـا   غـدا الجـوّ تدمـع أجفانـه
كمـا فتـح الليـثُ فـاه و قـد   تضـرّج بـالـدم أسنـانـه[20]

على أنّ الصورة الأولى و إن كـانت مُحبّبـة لا نراهـا بلغـت مـا بلغتـه الثانيـة، وإن كانت مُثيرة للخوف. فهي تدلّ على خِصْب في الخيال وإصابة في التشبيه.

و لقد وجدنا لمن سبقوا ابن سعد الخير وصفـاً للرمّانـه، و لكنّنـا لا نراهـم بلغـوا مبلغة. فأحمد بن فرج الجيّاني -مثلا- لم يزد على أن رأى الرّمّانة حُقّا تضمّن المرجـان الأحمر، و لم يَعْد أن شبّه حبوبها بلثات محبوبه، حيث قال :

و لابســةٍ صَدَفـاً أصفـراَ   أتتـك و قـد مُلئـت جوهـراَ
كأنّـك فـاتحُ حُـقّ لطيـف   تـضمّـن مرجـانـها الأحـمـرا
حبوبـاً كمثْـل لِثـات الحبيـب   رُضابـا إذا شئـت أو منظـرا[21]

= مـددتُ يـدي بـاللطف أبغي احتنـاءهـا   لأجعلهــا ريحــانتي وسْــط مجلســي
فبزّت يـدي غصبـاً لهـا ثـوبَ جسـمها   و أعريتهـا بـاللطف مــن كـل ملبـس
و لمـا تعـرّت في يـدي مـن بُرودهـا   و لم تبــق إلا فــي غلالــة نرجــس
ذكـرتُ بهـا من لا أبـوح بذكـره   فأذبلهــا فــي الكـفّ حـرّ التنفــس

(م. ن. -ص:594) .

(20) البلفيقي : المقتضَب -م.س.- ص 106.

(21) ابن الكتـاني : كتـاب التشبيهات مـن أشعار أهـل الأندلس -تحقيـق إحسان عبـاس -بيروت - دار الثقافة -د.ط.- د. ت، -ص 85.

و لعلّ السّر في « تفوّق » ابن سعد الخير يكمن في كونـه وصـف رمّانـة مفتّحـة . و هو ما بعث مخيلته على أن تجود بتلك الصورة الطريفة.

- التفّاح :

التفّـاح جميـل المنظر طيّـب الرائحـة، و لذلـك كـان « أغلـى هديّـة تقـدم في المناسبات»[22] و غيرهـا؛ و لذلـك أيضـا تناولـه عـدد مـن الشـعراء بـالوصف. و قد وقفنا على جملة من النصوص نظمها شعراء هذه الفترة في وصف هـذه الفاكهـة، ذهبوا فيها مذاهب مختلفة.

فالرصافيّ يصف تفاحة أهداها إلى محبوبه فيجمع، إلى ذلك، الغزل فيشبّه لونهـا بلون وجنة المحبوب، و يقرن نكهتها بطيب مرشفه، فيقول :

تفاحـــة أُهديـــت إليـــهِ   حمـــراءُ في لـــون وجنتيـــه
هـــمّ بتقبيلهـــا فـــزارتْ   فـــاه علـــى رغـــم مقلتيـــه
بـــالله يـــا زهـــر مِحْجَرَيْـــه   دعـــني أُسَـــلْ آسَ عارضيـــه
لِـمْ بـاكرتْ أقحـوانُ فيـه   بقـرع بـاب المنـى عليـه
لعلّـه قـد أعـار يومـا   نكهتهـا طيـب مرشـفيه
فباكرتْـه علـى حيـاء   تصـرّف أنفاسه إليـه[23]

و يصف صفوان تفّاحة في مـاء فيشبّه مـا احمرّ منهـا بـالخدّ و مـا اخضرّ منهـا بالعذار، مستمدّا صورته -كما فعل في نص سابق- من التغزّل بالغلمان. يقول :

و لم أر فيما تشتهي العين منظـراً   كتفاحـــة في بركـــة بقـــرار
يفيـض عليهـا ماؤها فكأنّهـا   بقيّة خدّ في اخضرار عِـذار[24]

---

(22) عبد الحميد عبّاسي : وصف الطبيعة في الشعر الأندلسي في القرن الرابع الهجري -م.س.- ص131.

(23) ديوان الرصافي البلنسي -م.س.- ص 132.

(24) المقّري : نفح الطيب -م.س.- 601/3.

و ليس في تشبيه الرّصافي و صفوان للتفّاح بالخدود جِدّة. فتلك صورة مستهلَكة، لم تعد مثيرة. و لكنّ صفوان قد « طوّرها » فجاءت طريفة، وذلك حين ربط بين صورة التفاحة التي رآها على الهيئة التي وصفها، وصورة خدّ الغلام المعذّر.

على أنّ صفوان لم يتدنّ في وصفه للتفاحة تدنّيَ أحمد ابن شكيل الذي لم يتحرّج من أن يقرن بين شكل التفّاحة و « سُرّة » من يهوى. يقول في نغمة ماجنة و لهجة غريزية :

تفّاحة بتّ بها ليلتي أبثّها سرّي و الشكوى
أضمّها معتنقا لاثما إذ ذكّرت سرّة من أهوى[25]

و على أنّ هذه النظرة التي نظرناها إلى نصّ ابن شكيل، و إلى صورته بخاصّة، قد تتّصل بالنقد الأخلاقيّ للأدب كما قد تبدو « متعسّفة »، فإننا نرى أنّ الانطلاق، من المبادئ الجمالية وحدها، في تقويم العمل الأدبيّ، لا يخلو من تجاوز.

– التين :

الأندلس بلد التين. و هو أنواع بحسب المناطق التي تنتجه. و قد ذكر ابن سعيد -منوّها- أصنافاً منه كالتين المالَقيّ و غيره [26].

و قد التفت بعض شعراء هذه الفترة إلى باكور التين، بصفة خاصّة، فوصفوه متفاوتين في ذلك الوصف. يقول إدريس بن إبراهيم في وصف باكورة :

و باكورةٍ سوداء مخطوطة بدتْ كمثْل غراب في ذرا الغصن أبقع
و قد رقّمت ريح النّعامي أديمها فجاءت كمثل الآبنوس المجزّع[27]

و هو وصف لم يتجاوز « السطح » إذ لم يزد الشاعر على بيان المظهر مستخدما

(25) ابن سعيد : المغرب -م.س. -305/1.

(26) انظر : المقّري : نفح الطيب -م.س. -200/1.

(27) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 153.

التشبيه وسيلة إلى التوضيح. فالدقّة في نقل المشهد غير كافية لإثارة الخيال. و التشببيه ليس إلا وسيلة بسيطة لبناء النص الوصفيّ.

على أنّ صفوان بن إدريس قد تجاوز « السطحية » التي تطالعنا في وصف أبيه. فقد وصف، مثلة، باكورةً مشخّصا إياها. فبعث،بذلك،الحياة في المشهد. و لم يكتف بالتشخيص، بجعل الباكورة تضحك و تحيّي و تلبس ثوب الحداد حين « درت أن سوف تثكل أمّها »، و إنما ربط بين لونها و حال قلبه. يقول في ذلك :

حيّتك ضاحكةً بنيّةُ أيكة   تهفو تحيتها بعطف النادي
لما درت أن سوف تثكل أمّها   لبست بحكم الفقد ثوب حداد
تنشقّ عن لمع البياض كأنها   قلبي تبسّم عن ثغور ودادي(28)

- النارنج :

كان من الطبيعيّ أن يُهتَمّ في وصف النارنج بالمظهر. و لم يخرج شعراء هذه الفترة عن ذلك، و إن كانت النصوص التي أمّدتنا بها المصادر المتيسّرة قليلة. فمن الشعراء من بهره المنظر الجميل الذي تصير إليه هذه « الفاكهة »، وحار للتطوّر الذي يُصيب لونها : إذ تغدو حمراء كالنّار، بعد أن تكون خضراء أو سوداء كالرماد. يقول صفوان، في هذا المعنى، واصفا نارنجة :

ربّ نارنجة تأمّلت منها   منظراً رائعاً و نشأً غريباَ
نشأت في القضيب و هي رماد   فغذاها الحيا فعادت لهيبا(29)

و من الشعراء مَن عَجب لجمع بعض النارنج بين اللونين الأخضر و الأحمر، فذهب يقرن بين أخضره و الزبرجد، و أحمره و النّضار، بل إنّه حاول -في تكلّف ظاهر- الربط بين اللونين المذكورين و نار موسى و اسم الخضر.

(28) البلفيقي : المقتضب -م.س.- ص 139.

(29) م.ن. -ص : 138.

فللأصمّ الشريف في نارنجة، نصفها أحمر و نصفها أخضر، مقطوعة يقول فيها:

و بنت أيكٍ دنا من لثمها قزح		فلاح منه على أرجائها أثـرُ
يبدو لعينيك منها منظر عجب :		زَبَرْجَدٌ و نضار صاغه المطر
كأنّ موسى كليم الله أقبسها		ناراً و جرّ عليها كفَّه الخَضِر(30)

و قد وجدنا لأبي ذرّ مُصعَب بن محمد بن مسعود وصفا طريفا لم يقفه على الثمرة، و إنّما عمّ به مجموعة من شجر النارنج إذ تصوّرها جيوشا من الترك و الزنج تخوض معركة، و لكنّها معركة سارّة. يقول في ذلك :

قاموا فصفّوا جيوشاً راق منظرها		تركا و زنجا على أرض من الأدمِ
فحاربوا فإذا الترك قد هُزموا		بجيش زنج حفيل غير منهزم
ثم استقلّ رجال الترك فارتجعوا		و حاربوا حرب أنجاد ذوى هِمَم
الحرب تبكي عيون الناظرين بها		و هذه الحرب تُبدي ثغر مبتسم(31)

و يظهر من النماذج السابقة أنّ شعراء الأندلس كانوا -في وصفهم للفواكه- مهتمّين قبل كلّ شيء بالمعنى الجديد والصورة الطريفة. وتلك ظاهرة نلمحها في غير ما لون من شعرهم، و لا سيما في النصوص القصيرة.

د-الظواهر الكونيّة :

لفتت الظواهر الكونيّة شعراء هذه المرحلة، كغيرهم. فتناولوا بعضاً منها بالوصف، ذاهبين في وصفهم لها، أحيانا، مذاهب مختلفة. و من موصوفاتهم في هذا الباب؛ البرق،و الرعد،و الرياح،و السحاب،و المطر،و الثلج،و الشمس، و القمر،و غيرها.

يصف ابن سعد الخير سحابة فيرى لها ذيلا تجرّه، و يشاهد لها عطفا تهزّه،

---

(30) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س.- ص 127.

(31) ابن سعيد : رايات المبرّزين -م.س. -ص : 72.

و يتراءى له البرق، من خلالها، سيوفاً تسلّها جنودٌ من الزّنج :

و سـارية سـحبت ذيلهـا　　و هـزّت علـى الأفـق أعطافهـا
تُسَـلّ الـبروق بأرجائهـا　　كمـا سلّت الزنـج أسـيافها[32]

و يرسم أبو عمرو ابن عبد ربّه صورة بديعة حين يتصوّر معركة بين الرياض و بين الجو، فيرى ما يسقط من قطرات المطر في الغدران الصافية نبالاً رمتها عن قوسها، السماء، و يرى ما يعتري صفحة النهر من تجعّدات درعا يتقي بها تلك النبال، ثم يبدو له ما يُصيب الأشجار من اهتزاز بفعل الرياح، تصديًا لهجوم السماء، و يقرّر أن هذه الحرب لم تُثر ضررا متصوّرا شقائق النعمان جرحاها و وشي الربيع مغانمها و ما سقط من الثّمر قتلاها :

بـين الريـاض و بـين الجـو مُعـتَرَك　　بيضٌ من البرق أو سمر من السّمُرِ
إن أوترت قوسَـها كفُّ السـماء رمت　　نبلا من المزن في صـاف من الغُدُر
فـاعجب لحـرب لم تُـثِر ضـررا　　نفـع المحـارب منهـا غايـة الظفـر
فَتْـخُ الشـقائق جرحاهـا و مَغْنَمُهـا　　وَشْيُ الربيع و قتلاهـا من الثّمـر
لأجـل هـذا إذا هبّـت طلائعهـا　　تدرّع النّهر و اهتزّت قنا الشجر[33]

و وصف ابن سلاّم المعافري الثّلج فذكر، بعد أن أشار إلى المفارقة بين حسنه في العيون و قُبحه في النفوس، ما كان يتراءى له فيه : فهو، في عينيه، نار من غير نور،

(32) البلفيقي : المقتضب -م.س. -ص : 106. و قد « قلب » أبو الوليد يونس القسطّلي الصورة، و ذلك في وصف جيش إذ شبّهه بسحائب، و تراءت له السيوف بوارق، و ربط بين الأصوات و الرعد، و بين الخيول و السيول، فقال:

و سحائب فيها السيوف بـوارقٌ　　و الزّجـر رعـد و الخيـول سيـول

(صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 59).

(33) البلفيقي : المقتضب -م.س. -ص : 147.

و مطر من غير ماء. ثم وصف وجه الأرض مكسوّا به، و انتهى إلى حسن تعليل بديع، استوحاه من عملية ذوبانه :

و لم أر مثل الثلج في حسن منظر … تَقَرّ به عين و تشْنعه نفسُ :
فنارٌ بلا نور يضيء له سَنا … و قَطْر بلا ماء يقلّبه اللّمس
ترى الأرض منه في مثال زجاجة … كأنّ كئوس الماء تجمعه كأس
و أصبح ثغر الأرض يفترّ ضاحكاً … فقد ذاب خوفاً أن تقبّله الشمس[34]

وإذا كانت النصوص التي قيلت في وصف السحاب و البرق و الرعد و المطر و الثلج تبدو غير كثيرة، في المصادر التي تيسّر لنا الاطّلاع عليها، فإن ما قيل من شعر هذه المرحلة في وصف الأنهار و ما إليها من غدران و بحيرات يبدو كثيراً.

و لقد حظي وصف الأنهار -بخاصّة- بفائق العناية.و تفنّن الشعراء، في ذلك، أيّما تفنّن. و لعلّ الرصافيّ البلنسيّ أن يكون أوصف معاصريه للأنهار : وصفها في حال امتلائها، و صوّرها في حال نضوبها؛ و أتى، في ذلك بالمعنى الطريف و الصورة البديعية. و لقد ظلّ بعض ما قاله، في هذا اللون، نموذجاً فريداً للمحاكاة[35]، و مثالاً متميّزاً للابداع : فلقد وصف نهر إشبيلية الأعظم فأتى بما لم يطرقه السابقون. يقول في ذلك الوصف:

و مُهدَّلِ الشطّين تحسب أنّه … متسيّل من درّة لصفائِه
فاءت عليه مع الهجيرة سَرْحة … صَدِئتْ لفيئتها صفيحة مائه
فتراه أزرق في غلالة سُمْرة … كالدراع استلقى بظلّ لوائه[36]

(34) الأبيات : الأوّلان و الرابع في : م.ن.-ص : 93، و فيه : تشنوه؛ و الأبيات الأوّلان و الثالث في: ابن عبد الملك : الذيل و التكملة -م.س.- 1/1/33-34.

(35) انظر : البلفيقي : المقتضب -م.س.- ص : 110-112.

(36) ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س.- ص : 32.

فتشبيه الماء في الصفاء باللّجين أو الدّرّ، و تمثيل صفحته و قد جعّدها النسيم بالدّرع : مما تداوله الشعراء قبل الرصافي. بَيْد أنّ تشبيهه ظِلّ السرحة التي فاءت على النهر مع الهجيرة، بصدإ اعترى صفحته، و تشبيه ذلك الظلّ، مرة أخرى، بظلّ لواءِ دراع، يُعَدُّ -فيما نعلم- له وحده. و لذلك أثارت صورته تلك إعجاب غيره من الشعراء و حاولوا تقليده.

و قد أبدع الرصافيّ مرة أخرى في وصف النهر. و ذلك حين قال في نهر « نضب ماؤه » متصوّراً إياه ذؤابةَ نجم :

فتوالت الأمحالُ تَنْقُصه ... حتى غدا كذؤابة النجمِ(37)

و لا نخال أحدا سبقه إلى هذه الصورة.

و للرصافي، في معرض مراجعته لصديقه الكتنديّ و حنينه إلى « حِمْص »، أبيات جيّدة في وصف النهر و إن ردّد فيها بعض الصور المتداوَلة في هذا الباب كتشبيه النهر بالحسام و بالمعصم و تمثيل صفاء مائه ببياض الدّر... يقول في تلك الأبيات :

هل الغيب يوماً مُفرجاً لي بابَه ... فأنظرَ منه كيف أُنسك في حِمْصِ
بأزرق سلاّلِ الحُسام و قد بدا ... يداعب في كأس تحرّك للرّقص
و ما معصمٌ ريّان دار سِواره ... على مثل ماء الدّر في بشر رَخْص
بأسمحَ منه للعيون إذا بدا ... و لا سيّما و الشمس جانحة القُرْص
خليج كخطّ الفجر تنجرّ فوقه ... ذيول عشيّات مُزخرَفة القُمْصِ(38)

على أنّ الرصافي لم يكد يزيد، في وصفه لـ « وادي العسل »، على أنه ناقع لغُلّة الصادي. فقد صرفه وصف الحنين إلى ذلك الوادي -و هو غرضه- عن الإفاضة في وصفه على نحو ما فعل في النص السابق. يقول مخاطبا ذلك الوادي :

---

(37) م.ن. -ص : 127.

(38) م.ن. -ص : 104.

كم بين شطّيْك من ريِّ لجانحة ذابتْ عليك صَدىً يا واديَ العسلِ
و ما دعاها إلى وادٍ سواك ظَمَا إلاّ تبيّـن فيهـا فتـرة الكسَـل[39]

و قد وصف ابن البرّاق أحد الأنهار، و ذلك في معرض مدحه لأحد الأعيان، فربط بين شقّ النسيم صفحته و بين « طربه » لتغريد الطيور و حلول الممدوح بجنابه. يقول ابن البراق مخاطباً ممدوحه :

أُنظر إلى الوادي الذي مذ غـرّدت أطيـاره شـقّ النسـيم ثيابـه
أتـراه أطربـه الهديـل و زاده طرباً -وحقّك -أن حللتَ جنابه[40]

و لأبي محمد عبد الله بن محمد بن عمّار البكري أبيات يصف فيها نهر إشبيلية الذي وصفه الرصافي. و فيها يشبّه صفاءه بصفاء الجوّ الذي يتراءى له فيه مرآة زرقاء صقيلة، و تبدو نجومه حَبَباً. و يذكر أثناء ذلك تغيّر لونه : فهو كالفضه بياضاً قبل طلوع الشمس، و هو مثلُ الذهب صُفرةً بعد طلوعها :

و النهر كالجوّ راق العينَ بهجتُـه تهـزّ منـه الصّبـا هِنْديّـةً قُضُبـا
تراه من فضّة حينـاً فإن طلعتْ عليه شمس الضحى أبصرتَه ذهبا
صفـا وراق فلـولا أنّـه نهَـر أضحى سماء يُرينا في الدُّجى شُهُبا
كأنّمـا الجـوُّ مرآة بـه صُقلـت زرقـاءُ تحسب فيه زُهْرها حَبَبا[41]

و لم يلتفت -فيما نعلم- أحد من شعراء الأندلس و غيرهم قبل هذه الفترة إلى ظاهرة المدّ و الجزر. و لذلك ينبغي أن يُعَدّ ما قاله أبو الحسن محمد ابن سَفَر في وصف حركة المدّ و الجزر بنهر إشبيلية[42] من قبيل الجديد المبتكر.

(39) م.ن. -ص : 119.
(40) ابن سعيد : المُغرب -م.س. - 150/2.
(41) البلفيقيّ : المقتضَب -م.س. -ص : 157.
(42) قال ابن سعيد : « و يُحتمَل أن يكون في غشيان الموج الساحلَ و رجوعه من حينه ». (رايات المبرّزين -م.س. -ص : 75).

فقد صوّر ابن سفر تلك الحركة مشخّصا ما حواه المنظر : فالخليج يشكو إلى الجزيرة، و النسيم يشقّ جيب قميص الخليج، و الخليج ينساب من شطيه طالبا ثأرَه، ثم هو يضمّ إزاره حياءً من وُرْق الحمام المتضاحكة بدوحه :

... حيث الجزيرةُ و الخليج يَحُفُّها   يشكو إليها كي تُجيبَ حوارَهْ
شقّ النسيم عليه جَيْبَ قيمصِه   فانساب من شطّيه يطلب ثاره
فتضاحكت وُرْق الحمام بدوحه   هُزْءاً فضمّ من الحياء إزاره[43]

و نجد فيما ورد لشعراء الأندلس في هذه الفترة من أوصاف للأنهار و ما إليها معاني طريفة، و صوراً بديعة، و تعليلات حسنة. انظر -مثلاً- كيف يربط بعضهم بين ما « ينسجه » النسيم للنهر من « دِرْع »، و بين اضطرام نار الشوق في أحشاء المحبّين : قال صفوان بن إدريس: «جلسنا بعضَ العشايا بالولجة خارج مُرْسِية والنسيم يهبّ على النهر، فقال أبو محمد ابن حامد:

هبّ النسيمُ و ماءُ النهر يّطردُ

فقلت على جهة المداعبة، لا الإجازة :

ونار شوقيَ في الأحشاء تتّقدُ

قال أبو محمد : ما الذي يجمع بين هذا العجز و ذاك الصدر؟ فقلت : أنا أجمع بينهما، ثم قلت :

فصاغ من مائه دِرْعاً مُفضَّضةً   و زاد قلبيَ وَقْداً للذي يجد
و إنّما شبّ أحشائي لحاجته   إذ ليس،دون لهيب،يُصنَع الزَّرَد[44]

إنّ الحديث عن الأنهار و وصف مياهها باب واسع في شعر الأندلس على ذلك العهد. و لم يقف الشعراء وصفهم على الأنهار، و إنّما تناولوا بذلك

(43) م.ن. -ص : 75.

(44) المقّري : نفح الطيب -م.س. - 73/5.

الوصفِ كذلك ما وقعت عليه عيونهم من بِرَك و بُحَيْرات، صنعتها الطبيعة أو يد الإنسان. و من نماذج ذلك الوصف ما قاله أبو الوليد يونس بن محمد القَسْطَلّي حيث يصف انصباب ماء غدير في بحيرة، فيتخيّله، و هو ينصبّ، سيفاً، و يتراءى له، و هو يدور في البحيرة، سِوَاراً :

و فوق الدوحة الغَنّا غديرٌ ... تلألأ صفحةً وصفا قَراراً
إذا ما انصبَّ أزرقَ مستطيلا ... تَدَوَّرَ في البحيرة و استدارا
يُجرِّدُه فَمُ الأنبوب صَلْتاً ... حساماً ثم يَفتله سِوارا[45]

و قد وقفنا على نصوص قليلة في وصف البحر، جاءت في معرض أغراض أخرى. و إذا كانت الأندلس شبه جزيرة كان من المتوقّع أن يُفيض شعراء الأندلس في وصف البحار التي تحيط بها. فهل قلّ حقّا ما نظموه في هذا الباب، أم ضاع ككثير من تراثهم الأدبي؟ يبدو أنّ موضوع البحر لم يكن يستهويهم إلا بمقدار[46] .

و من الأمثلة على وصف البحر في هذه المرحلة ما جاء لصفوان بن إدريس في قصيدة « يصف [فيها] ليلة ركب فيها البحر لصيد الحيتان، و كان ساكنا أوّلها ثم أفرط في الارتجاج آخرها »، حيث يقول :

و بحرٍ كالسّماء له حباب ... لها بكواكب الأفق اشتباهُ
تبدّتْ في ذرى الأمواج دُرّاً ... كمثل الزّهر تحمله رباه
...كأنّ الموج لمّا أن فرغنا ... هنالك في تَصيُّدنا ذراه
جبال زمرّد و الحوت فيها ... سبائك كاللُّجَين لمن يراه[47]

(45) ابن سعيد : المغرب -م.س. - 328/1.

(46) من الذين وصفوا البحر قبل هذه الفترة : ابن خفاجة. انظر : ديوان ابن خفاجة -م.س.- ص :137.

(47) الغرناطي : رفع الحجبُ المستورة -م.س.- 51/1.

فقد تبدّى له البحر سماء، و ظهر له حبابه كواكبَ مرّة و درراً تشبه الأزهار مرة أخرى، ثم تراءت له ذرى الموج جبالاً من الزّمرّد، عليها الحوت كسبائك الفضّة. و هي صور متتابعة أخذها من تجربته تلك الليلة.

وللرّصافي البلنسيّ من قصيدة يصف فيها إجازة الخليفة الموحّديّ البحر قوله مشبّها ذلك البحر بالعنبر لوناً و رائحة:

و اخجلةَ البحر إن لم يَحْلُ مشربه   و إن غدا عنبريّ اللون والنفس[48]

وهي صورة غريبة. على أن مبالغة الشعراء في المدح كثيراً ما أفضت بهم إلى الإغراب في الصورة و غيرها. و لنا غيرُ ما مثال في شعر أبي تمّام و أضرابه.

و لم تمدّنا، كذلك، المصادر المتيسّرة بنصوص كثيرة في وصف جبال الأندلس[49]. وهو موضوع غير جديد في الشعر الأندلسيّ[50]. فلم نقف إلاّ على نصّين من نتاج هذه المرحلة، كلاهما جاء في معرض المدح. و كلاهما فيه تشخيص للجبل.

فأما أوّلهما فهو أبيات من قصيدة لصفوان بن إدريس في مدح بني حسّون أصحاب الجزيرة الخضراء. وفيه يخلع بعض الصفات المعنويّة على الجبل: فهو لو شاء لأفسد نظام الكواكب، وهو ينكّس رأسه العالي احتقارا للنجوم... ويربط صفوان بين ذلك الوصف الذي جاء عرضا و بين المدح، الغرضِ الأصليّ للقصيدة، فيتحقّق التلاحم بينهما. يقول صفوان في تلك الأبيات :

---

(48) ديوان الرصافي البلنسي -م.س.- ص :101.

(49) في الأندلس سلاسل جبلية كثيرة منها: سلسلة الجبال السمراء (كان العرب يسمّونها:الشارات)، وسلسلة الجبال الثلجيّة (كان العرب يدعونها : شلير الثلج).

(50) أفضل ما خلّفت الفترات السابقة و أشهره : بائيّة ابن خفاجة في وصف الجبل و استنطاقه. انظر : ديوان ابن خفاجة -م.س. -ص : 216-217.

و طَـوْدٍ لـو تُزاحـم مَنْكِبَـاه نظـامَ النجـم لانتـثر انتشـارًا
سمـا فشـوّقت زُهْـرُ الـدّراري إليـه فنكّـسَ الـرأسَ احتقـارا
و قـد شمـخ الوَقـار بـه و لكـن و قـار ذويـه علّمـه الوقـارا[51]

و أما النص الآخر فهو جزء من القصيدة الرائية التي مدح فيها الرصافي الخليفة عبد المؤمن يوم مهرجان «جبل الفتح». وقد أفاض الرصافي -على عكس صفوان- في وصف الجبل، و بالغ في تشخيصه. يقول في ذلك :

لله مـا جبـل الفتحين مـن جبـل معظّم القـدر في الأجبـال مذكـور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس لـه مـن الغيـم جَيْبٌ غـيرُ مـزرور
معـبّراً بـذراه عـن ذرا ملـك مستمطر الكفّ و الأكناف ممطور
تمسي النجوم على إكليل مفرقـه في الجـوّ حائمـةً مثـل الدنانـير
و ربّمـا مسـحته مـن ذوائبهـا بكـلّ فضـل علـى فوديـه مجـرور
و أدردٍ مـن ثنايـاه بمـا أخـذتْ منـه معـاجم أعـواد الدّهـارير
محنّـك حلـب الأيّـام أشـطرها و ساقها سـوق حـادي العِير للعير
مقيّـد الخطـو جـوّال الخواطـر في عجيب أمريه مـن مـاض و منظور
قد واصل الصمت و الإطراق مفتكراً بـادي السـكينة مغفـرّ الأسـارير
كأنّـه مكمـد ممّـا تعبّـده خـوف الوعيدين مـن دكّ و تسيير
أخلقْ بـه و جبـال الأرض راجفـة أن يطمئـنّ غدا مـن كـلّ محـذور
كفـاه فضـلاً أن انتـابت مواطئـه نَعلا مليكٍ كريـم السَّعْي مشكور
مستنشئاً بهمـا ريـح الشفاعة مـن ثرى إمامٍ بأقصى الغرب مقبور[52]

فقد ذكر -من جملة وصفه لـه- شموخه، و سواد لونه، و إحاطة الغيوم بـه،

---

(51) صفوان بن إدريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 61. و فيه : « و لا كن ».
(52) ديوان الرصافي البلنسي -م.س. -ص : 92-94.

و ترصيع النجوم لتاجه. ثم تحدّث عنه مشخّصا إياه فتراءى له عجوزاً سقطت أسنانه بما عجم من أعواد الدهور؛ و هو ثابت صامت، و لكنّ فكره جوّال في ماضيه و حاضره؛ ثم هو يبدو حزينا خائفا مما ينتظر الجبال من دكّ و تسيير يوم القيامة. و في النص يربط الرصافي -كما فعل صفوان- بين الوصف و المدح، الموضوع الأساسي للقصيدة. بل إنّ هذا الوصف -على طوله- قد جاء لتعضيد المدح و تأكيد معانيه.

و وصْف الرصافي البلنسيّ للجبل يذكّرنا بوصف ابن خفاجة له : فالنّصان يتّفقان في جملة من الأوصاف، مما قد يدلّ على تأثر الرصافي بابن خفاجة. وقد أكّد وجودَ هذا التأثّر الدكتور إحسان عبّاس و بيّن جملة من أوجه الاتفاق وأوجه الاختلاف، فقال : « و قد نلمح تأثّر الرصافيّ بابن خفاجة... فكلا الشاعرين رأى في الجبل شيخاً وقوراً ناظراً في إطراق كأنّما يفكّر في أمر، و زاد الرصّافي على الصورة بأن جعله مكْمَد اللون من شدّة ترقّبه ليوم القيامة حين يصاب بالدكّ و التسيير، و أمعن الخفاجي في التشخيص فأنطق الجبل و جعله يتحدث عن ماضي الأيام و عن الفناء و عن السأم من طول العمر حتى إنّه تمنّى أن يدركه الأجل ليرتاح... »[53].

ومع تسليمنا بتأثر الرصافيّ بابن خفاجة، نرى أنّ أوجه الاختلاف بين النصّين أكثر مما ذكره الدكتور إحسان عبّاس. و من المفارقة بينهما فضلا عما ذُكر، أن يكون كل نص قد جاء في معرض خاصّ : فنصّ ابن خفاجة قد جاء في سياق الاعتبار و الشكوى، و نص الرصافي قد أتى -كما أشرنا- في معرض المدح. و من تلك المفارقة أن يتّخذ ابن خفاجة من الجبل رمزاً لنفسه : فالذي يتحدّث -في الحقيقة- هو الشاعر ذاته، و تلك أحاسيسه عندما تقدّم به العمر و مات جلّ

(53) م.ن. -المقدّمة -ص : 25.

أصدقاء شبابه و كهولته و شعر بوحدة قاتلة؛ في حين يتحدّث الرصافي عن الجبل في «حياد» و لا علاقة بين ما صوّره من « أحاسيس » الجبل، و أحاسيسه هو. ثم من تلك المفارقة كذلك أن يبدو وصف الجبل عند ابن خفاجة موضوعاً رئيسيّا، و إن اتخذ الشاعر الجبلَ رمزا، بينما يبدو ذلك الوصف في قصيدة الرصافيّ وسيلة إلى دعم الغرض الأساسيّ لها.

و من الظواهر الكونية التي وصفها شعراء المرحلة الكواكب. و هو موضوع، كذلك، قديم في الشعر الأندلسي[54]. ولشعراء هذه الفترة -وإن لم نقف لهم إلاّ على نصوص قليلة- في هذا الباب صور طريفة و معان مُبتكَرة. ويدلّ بعض ما اطّلعنا عليه من نصوصهم في ذلك على خيال مجنّح، و براعة في حسن التعليل، ذلك اللون البديعيّ الذي أشرنا، في موضع آخر من هذا البحث، إلى شغفهم به و إفراطهم في طلبه،مما أفضى بهم، أحياناً، إلى التكلّف.

يقول أبو عبد الله محمد ابن عبد ربّه واصفاً الشمس و قد قابلت القمر قبل الغروب حيث تراءى له المنظر وجهاً كلِفاً لأسد أخْيَف ناظر في جنبيه لا تطرف عينه :

كأنّما الشمس و قد قابلت بدرَ الدجى و الأفق الأهيفُ
عينا هِزَبْرٍ كَلِفٍ وجهه ينظر في عِطْفيه لا يَطرِفُ
فإن تقل : ما لونها واحد قلت : و هذا سَبُع أخيف[55]

و إذا كان الشاعر قد وُفّق إلى إصابة وصف المنظر بتوظيف ذلك التشبيه فإنّه كان متكلّفا في تعليله.

---

(54) انظر : ابن الكتاني : كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس -م.س.- ص : 19 و ما بعدها.

(55) ابن سعيد : المغرب -م.س. -427/1. و الأخيف : ما كانت إحدى عينيه زرقاء و الأخرى كحلاء.

و يصف الشاعر نفسه ما تُحدثه أشعة الشمس المتسلّلة من النوافذ، ويربط ذلك ببعض معاني المدح. « قال: دخلت على السيد أبي الربيع و هو في قبّة له، وقد دخلت عليه الشمس من كُوىً صغار في أعلاها. فلمّا رأيت ذلك المنظر أعجبني و قلت بديهاً :

لما رأته الشمس يفعل فعلها   في العالمين مقاسماً و مساهما
خافت توالي الجود يُنفِد ماله   نثرت عليه دنانراً ودراهما»[56]

على أنّ الشاعر، و إن أحسن التعليل، نراه يردّد صورة طرقها السابقون[57]، ففقدت بسبب ذلك الإثارة التي تُشترَط في الصورة الأدبية.

و قد أبدع الشاعر أبو جعفر أحمد ابن سعيد في وصف متابعة الشمس للفجر الكاذب. و قد بعث الحياة في المنظر بما وقع له من تورية لطيفة:

بدا ذنَبُ السّرحان ينبئُ أنّه   تقدّم سبقاً و الغزالة خلفه
و لم تر عيني قبلها من متابع   لمن لا يزال الدّهرَ يطلب حَتْفَه[58]

و للرصافي البلنسيّ وصف بديع للهلال بُعيد الأصيل. فقد تراءى له ضلعَ قتيل يُجرّره نسر. يقول واصفاً الإطار الذي « وقع فيه الحادث» متخلّصاً إلى وصف الهلال:

بدا الشفق البادي بُعيد أصيلِ   يجرّر بالآفاق حمر ذُيول
و في عرضه الأقصى هلال كأنما   يجرّر منه النسر ضلعَ قتيل[59]

---

(56) عبد الواحد المراكشي : المعجب -م.س. -ص : 219.

(57) نجدها عند المتنبي، مثلاً، و ذلك في قوله :

و ألقى الشّرق منها في ثيابي   دنانيرا تفرّ من البنان

(عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبّي -بيروت -دار الكتاب العربي -د.ط -1400هـ.-1980م.- 386/4).

(58) ابن سعيد : المغرب -م.س. -167/2.

(59) ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -ص : 115.

و أوحت صورة الشهب، و هي جانحة إلى الغرب، إلى أبي علي النشّار أن يقول واصفا :

و الشهب جانحة للغرب مائلة   كالطير فتّح عنه بابَه القفصُ[60]

و هي صورة نقلت كلاًّ من الحركة و اللون.

د–الحيوانات :

نلتقي في نتاج هذه المرحلة وصفاً لعددٍ من الحيوانات، و نلاحظ -أحياناً- تفنّناً في نقل صورة الموصوف مع إبراز أهمّ ما يتميّز به. فقد وصف الشعراء الخيل والإبل و الزرافات و غيرها، و تنوّع ذلك الوصف تبعا لتنوع الغرض منه، إذ جاء أحياناً وسيلة لدعم أغراض أخرى، و أتى أحياناً أخرى مقصوداً لذاته،تعبيراً عن إحساس أو إظهاراً لبراعة.

فوصْف الخيل كثيراً ما نجده ضمن قصائد المدح التي نظمها الشعراء في الخلفاء الموحّدين أو غيرهم. و هو حينئذ وسيلة لتعضيد معاني المدح. و إذا كانت الأمثلة على ذلك كثيرة، فإنّنا نذهب إلى أنّ أوصف شعراء الفترة للخيل هو أبو بكر يحيى ابن مُجْبَرَ شاعر الخلافة. نقول بذلك مع أننا لا نعتمد في هذا الحكم إلا على نصّ واحد تردّد في غير ما مصدر. و هذا النصّ هو جزء من قصيدة مدح فيها ابن مجبر الخليفة أبا يوسف يعقوب المنصور، و فيه يصف حَلْبة خيله، فيقرّب الصورة إلينا بجملة من الوان البيان، في طليعتها التشبيه، و ينتقل من الإجمال إلى التفصيل ثم من التفصيل إلى الإجمال : فالخيل كأنّها نشاوى تطلب العزف و القصف، و هي جميعا عرائس أغنتها حجولها عن الحليّ، و كلّها كالغزلان خفّةً و سرعة...ثم هي تختلف باختلاف الوانها...يقول في ذلك :

لـه حَلْبـة الخيـل العتاق كأنّها   نشاوى تهاوتْ تطلب العزفَ و القصفا

---

(60) صفوان بن إدريس : زاد المسافر –م.س. –ص : 99.

عرائس أغنتها الحجول عن الحلى	فلم تبغ خَلخالاً و لا التمست وقفا
فمن يَقق كالطِّرْس تحسب أنّه	و إن جرّدوه في مُلاءته التفّا
و أبلق أعطى الليلَ نصفَ إهابه	و غار عليه الصّبح فاحتبس النصفا
و وَرْدٍ تغشّى جلده شَفَق الدّجى	فإذ حازه دَلّى له الذيلَ و العرفا
و أشقر مجّ الراح صرفاً أديمه	و أصفر لم يمسح بها جلده صرفا
و أشهب فضّيِّ الأديم مُدَنّرٍ	عليه خطوطٌ غير مفهمةٍ حرفا
كما خطّطَ الزاهي بمهرق كاتب	فجرّ عليه ذيله و هو ما جَفّا
تهبُّ على الأعداء منها عواصف	ستنسفُ أرض المشركين بها نسفاً
ترى كلَّ طِرف كالغزال فتمتري :	أظبياً ترى تحت العجاجة أم طِرْفا
و قد كان في البيداء يَألفُ سِرْبَه	فربّته مُهْراً و هي تَحسبه خِشْفا
تناوله لفظُ الجواد لأنّه	إذا ما أردتَ الجريَ أعطاكه ضعفا[61]

و قد ربط ابن مجبر -كما يبدو من البيت التاسع- وصفه لخيل المنصور بمدحه له. فهو يريد إبراز قوّة الممدوح و شدّة بطشه بأعدائه؛ و هذه الخيل وسيلته: تهبّ عليهم كالعواصف و تنسف أرضهم، فلا تُبقي و لا تذر.

و لأبي الحسن ابن صاحب الصلاة أبيات -جاءت ضمن القصيدة التي أنشدها عبدَ المؤمن يوم مهرجان جبل الفتح- جمع فيها بين وصف خيل ممدوحه و تصوير راكبيها من جنوده. و قد أبرز في وصف تلك الخيل ما يميّز الخيول الجيدة من ضمور وسرعة عَدْو. يقول في تلك الأبيات:

و خيل تسوق الأُسْد فوق متونها	و تسبق لَمْحَ البرق و البرقُ خافق
تخيّرها التوفيقُ من كلِّ ضامرٍ	وأركبها الأبطالَ سَعْدٌ مُطابقُ
رجالٌ و لكنْ في الحروبِ ضَرَاغمٌ	وخيل و لكنْ في السباقِ شوائق[62]

(61) المقّريّ : نفح الطِّيب -م.س. -3/238-239.

(62) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص : 166.

فوصفه كوصف ابن مجبر جاء وسيلة إلى دعم الغرض الأصلي لقصيدته.

و لأبي بكر ابن المنخّل قوله من قصيدة مدح فيها عبد المؤمن في المهرجان المذكور :

أمرسلَها شعثَ النواصي سواهماً و مُصدرها شُقْراً و قد وردتْ شُهْبا

... فلو لم تُجزْها السُّفْنَ نحو عدوّها لجازت إليه البحر تقطعه وثبا(63)

و في ذلك، فضلاً عن الإشادة بقوّة خيل الخليفة و سرعتها، وصف لتبدّل لونها بين ورودها المعركة و صدورها عنها. و لعلّه معنى طريف.

و إذا كانت النصوص السابقة قد جاءت في معرض المدح وسيلةً إلى تقوية معانيه، فإنّ ما قاله أبو الحسن ابن خروف في وصف فرس قد جاء -فيما يبدو- لذات الوصف. و قد يندرج ضمن تلك « التمارين الفنّية » التي كان شعراء الأندلس، على ذلك العهد، مولَعين بها طلبا لحسن التعليل و ما إليه من ألوان بلاغية. يقول ابن خروف في ذلك النص واصفاً من ذلك الفرس سرعته و لونه :

ما راق للطَّرْف غير طِرْفٍ قَصَّرَ في العَدْو بالظّليم

ذي نُقط كالنُّجوم تبدو في جنح ليلٍ له بهيم

لا تُنْكِروا ان بدتْ عليه لا بُدَّ لِلّيلِ من نجومِ(64)

و يستخلص المتتبّع لوصف الخيل في نتاج هذه المرحلة أن الشعراء كانوا يدورون، في الأغلب الأعمّ، حول الأوصاف المطروقة و المعاني المعروفة منذ أن برز هذا الموضوع في الشعر العربي « على يد » امرئ القيس و علقمة و طفيل الغنوي و غيرهم.

(63) م.ن. -ص : 155.

(64) صفوان بن ادريس : زاد المسافر -م.س. -ص : 62.

و إذا كان وصف الخيل شائعا في الشعر الأندلسيّ و غيره من الشعر العربي، فإن وصف بعض الحيوانات -كالزرافة مثلاً- يُعَدّ نادراً. و قد خلّفت لنا هذه الفترة نصّا من هذا القبيل، قاله أبو جعفر الوقّشي، مرتجلاً، في وصف زرافة. قال ابن عبد الملك : « دخلت على أبي يعقوب المذكور (أي الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن) زرافة فعدَلتْ إلى ناحيته، فاستدعى لها بطيخا و أطعمها إياه بيده، فارتجل (أي أبو جعفر الوقشي) في ذلك :

حُشرت إليكَ غرائبُ الحيوان ... مجنوبةً من نازحِ البُلدان
وأجلُّها يدعونها بزرافة ... صَدقوا : لقد جلّت عن الوحدان
لبست من الصّفر الأنيق مُلاءة ... مرقومةَ الجنبات بالعِقيان
وكأنما قد قُسّمت في خلْقها ... فأتتكَ بين الخيل و البغْران
وكأنّ قرنَيْها إذا مثلت لنا ... قلمان قُلّم منهما الطرفان
طالت قوائمها و طال تَليلها ... حتى لقد أوفى على الجدران
وتفاوتت في سَمْكها فوَراءها ... ثلثٌ لها، و أمامها ثلثان
سجدت إليك كرامة فبوجهها ... حجم أطاف بجِرْمه العينان»[65]

و قد أبرز الوقّشي ما يتميّز به هذا الحيوان « الغريب » من لون، و قرنين، و قوائم، و غيرها. و قد وفّق إلى نقل صورة ما جذب نظرَه من هيئة هذا الحيوان الذي لم يألفه أهل المغرب و الأندلس.

و يتبيّن من النماذج السابقة -و غيرُها كثير- أنّ طبيعة الأندلس قد حظيت في هذه الفترة -كما في غيرها من تاريخ الأدب الأندلسيّ- بحيّز واسع من نتاج الشعراء في غرض الوصف، كما يتّضح أنّهم لم يكتفوا بتخصيص القصائد و المقطوعات لها، و إنّما التفتوا إليها في غيرما غرض.

---

(65) ابن عبد الملك : الذيل و التكملة -م.س. -1/1/199-200.

على أنّه ينبغي أن نُقرّر شيئاً قد يغيب عن الباحثين في هذا الموضوع، و هو أنّ النظم في هذا اللون لم يكن دائما بدافع الإعجاب، و إنّما كان كثير من النصوص -و لا سيّما المقطوعات- نتيجة لـ «تمارين فنّية»،غايتها تأليف الصورة الطريفة، أو تحقيق حُسن التعليل، أو غير ذلك من الألوان البلاغيّة.

الفصل السابع

الغربة والحنين

ظلّ الحنين-قبل عصر الموحّدين-من أبرز أغراض الشعر في الأندلس، وخلّف شعراؤه روائع تعكس حبّهم لوطنهم وتعلّقهم بأهليهم ووفاءهم لماضيهم.

ومن أقدم ما وصل إلينا من الشعر الأندلسيّ في هذا الغرض:ما قاله عبد الرحمن الداخل مصوّرا شوقه إلى أهله بالمشرق[1]. ولعلّ أمثاله من الطارئين على الأندلس أن يكونوا قد نظموا ما وصفوا فيه حنينهم إلى ما تركوا من أهل وأوطان، ولكنّه ضاع فيما ضاع من تراث الأندلس.

وقد كانت البواعث على النظم في هذا الغرض مختلفة، ومن ثم تنوّعت ألوانه. فإذا كان عدد من الشعراء قد حنّوا إلى أوطانهم وأهليهم، وتشوّقوا إلى ماضيهم، فإنّ إحساس غيرهم بالغربة في الأندلس، لظروف خاصّة، كان باعثاً لهم على الحنين إلى الشرق[2]. وقد كان الباعث الدينيّ من وراء ما قال بعضهم في الحنين إلى البقاع المقدّسة[3].

ونعتقد أن ابن زيدون وابن خفاجة أبرزُ شعراء الحنين في الأندلس قبل العصر الموحّديّ. فأما ابن زيدون فقد اضطرته ظروف سياسيّة إلى ترك قرطبة بلده. وقد وجد في غيرها كلّ مايطمح إليه طامح من المنزلة الرفيعة والنفوذ الواسع،

---

(1) انظر: المقّري:نفح الطيب-م.س.-3/38،54.

(2) من هؤلاء:ابن حزم الذي يقول من بائية له يفخر فيها بعلمه، ويشكو إغفال مواطنيه لمنزلته:

ولي نحو أكناف العراق صبابـــة ولا غَرْوَ أن يستوحش الكَلِف الصبُّ

(الحميدي:جذوة المقتبس-م.س.-ص:310).

ومنهم ابن بقي؛وكان كساد بضاعته من وراء حنينه إلى الشرق. انظر: ابن خاقان: قلائد العقيان-م.س.-ص:281.

(3) من هؤلاء ابن السيد البَطَلْيَوْسي؛ وله قصيدة ينوّه فيها بمكة، ويُبدي شوقه إلى زيارتها. انظر: م.ن.-ص:199-200.

ولكنّه ظلّ شديدَ التعلّق بقرطبة كثير الحنين إليها. وإنّ شعره،في ذلك،ليملأ حيّزاً واسعاً من ديوانه(4).

وأمّا ابن خفاجة فيعدّه بعض الباحثين" شاعر الحنين في الأدب الأندلسيّ"(5). فقد حنّ إلى وطنه الأكبر بلاد الأندلس، كما تشوّق إلى بلدته جزيرة"شُقْر". وكان حنينه في شيخوخته إلى شبابه"نزعة طاغية عنده، تملأ عليه نفسه ومشاعره، وتُطلّ في أثناء أغراض كثيرة"(6) من شعره(7).

ولم يتراجع شعر الحنين في الفترة الأولى عن عصر الموحّدين. ولقد أظلّت هذه الفترة شاعره الأكبر، لا في الأدب الأندلسيّ فحسْب، وإنّما في الأدب العربيّ القديم كلّه، وهو أبو عبد الله محمّد بن غالب الرُّصافيّ البلنسيّ.

ويقف المتتبّع لشعر الحنين في هذه الفترة على عدة ألوان منه: فإلى جانب الحنين

(4) لعلّ أجود ما نظمه ابن زيدون في الحنين إلى قرطبة: حائيّته التي قالها بمناسبة حلول عيد، وفيها يعدّد معاهد قرطبة معهداً معهداً، باثاً شوقه. ومن قوله فيها:

ألا هل إلى"الزهراء"أَوبةُ نازح تقضّى تنائيها مدامعه نَزْحَا؟

(ديوان ابن زيدون-م.س.-ص:160).

(5) محمد رضوان الداية:ابن خفاجة-م.س.-ص:74.

(6) م.ن.-ص:72.

(7) من أجود ما نظمه في نَدْب شبابه والحنين إلى ماضيه، قوله:

ولم أدر ما أبكي: أرَسْمَ شبيبة عفا، أم مَصيفاً من سُليمى ومَرْبَعا؟
وأوجع توديع الأحبّة فُرقةٌ شباب، على رغم الأحبّة، ودّعا
وماكان أشهى ذلك الليل مرْقداً وأندى محيّا ذلك الصبح مطلعا
وأقصرَ ذاك العهدَ يوماً وليلةً وأطيبَ ذاك العيشَ ظلاً ومكرَعا

(ديوان ابن خفاجة-م.س.-ص:56).

إلى الأهل والوطن، يُلفي التشوّق إلى الماضي واستعادة ذكرياته. وقد تتداخل هذه الألوان في القصيدة الواحدة. وهناك لون آخر عكس عاطفة الأندلسيّ الدينيّة، ويتمثّل فيما نُظم في الشوق إلى البقاع المقدّسة.

وإذا كان الحديث عن كل لون، على حدة، لا يتيسّر لما أشرنا إليه من تداخل، فإنّنا سنقف عند أهمّ شعراء الحنين في هذه الفترة مبرزين إسهاماتهم، محاولين بيان البواعث واستخلاص المميّزات.

وأبرز هؤلاء الشعراء وأكثرهم إسهاماً في هذا الغرض هو -كما أسلفنا- الرّصافيّ البلنسيّ. وإذا لم يصل مما قاله إلاّ رائيّته المشهورة وبعض المقطّعات، فإنّ بعض مترجميه ذكروا أنّه كان مُكثراً. قال ابن الأبّار: "وكان في قصائده كثيراً ما يذكر شوقه إلى معاهده فيأتي بما يُعجب و يُعجز"[8]. وقال ابن الخطيب: "وكان -رحمه الله- قد خرج صغيرًا من وطنه، وكان أبداً يُكثر الحنين إليه، ويقصر أكثر منظومه عليه، ومحاسنه كثيرة فيه"[9]. و لم يكن الرّصافي البلنسيّ مكثراً وحسْب، وإنّما كان مبدعاً "يأتي بما يعجب ويُعجز" على حد قول ابن الأبّار، السالف.

وإذا كانت إجادة الرّصافيّ في هذا الغرض وليدة موهبة فريدة، شهد بها كثير من مترجميه، ونتيجةَ تجربة صادقة عمّقها إحساسه المرهَف -فإنّ إكثاره من النظم في الحنين راجع ما يلي:

1- مفارقته الطويلة لوطنه. فقد ولد أبو عبد الله الرّصافي برْصافة بلنسية وبها كانت نشأته. ثمّ "خرج صغيراً" كما يقول ابن الخطيب. وليس في المصادر المتيسّرة ما يُشير إلى ما كان وراء هجرته من أسباب[10]. وقد أقام مدة في مدينة

(8) البلفيقي: المقتضَب - م.س.- ص:109.

(9) الإحاطة - م.س. - 507/2.

(10) حاول الدكتور إحسان عبّاس أن يُحدّد سبب هجرة الرصافي فقال: "من السهل أن نفترض =

غرناطة، ثم استقرّ بمدينة"مَالَقة" مشتغلاً بصناعة الرفو. وليس في المصادر المتوفّرة، أيضاً، ما يشير إلى عودته إلى بلده؛ وأغلب الظّنّ أنه لم يعد إليه أبداً. وقد يكون في وفاة بمَالَقَة ما يُؤكّد ذلك[11]. وإذا كان الرّصافي قد أنهى حياته مغترباً فلا بدّ أن يكون هناك سبب قد حال دون عودته، إذ نستغرب أن يحنّ كل ذلك الحنين إلى بلنسية ثم لا يحمله الشوق إليها. إنّما يذكره من بُعْد الشقّة حيث يقول:

وإن كان قد مدّت يد البين بيننا   من الأرض ما يهدي المجدّ به شهراً[12]

-لايمكن أن يكون سبباً؛ فما كانت المسافة بين مالقة و بلنسية حاجزاً لايُخترَق. ولعل ما ذهب إليه الدكتور إحسان عبّاس من أنّ الرّصافي لم يكن يحنّ إلى البلد من حيث هو بلد، وإنما كان حنينه إلى ماض بما يحمله من ذكريات جميلة- أن يكون أقرب إلى الصّحّة. يقول:"لم يكن الرصافي يحنّ إلى المكان من حيث هو مكان، وإنّما كان يتمثّل في بلنسية ذكرياته وماضيَه. ولو عاد إليها لما وجد شيئاً من تلك الذكريات وذلك الماضي؛ صحيح أنّ الرّصافة والجِسْر والبُحيرة والمتنزّهات كانت هناك. ولكن ليس ذلك هو المحكّ، وإنّما هي السنّ التي لم تَعُد تسمح باللهو بين تلك الربوع، وهم الأصدقاء الذين درجوا واحداً بعد آخر"[13].

= أن اضطراب الأحوال السياسيّة في بلنسية هو الذي حكم على والده بالرحيل عنها. ولكنّ هذا الفرض لا يثبت للمناقشة إذا عرفنا أنّ سائر البلاد الشرقيّة لم تكن أحسن حالاً من بلنسية في هذا الصدد؛ ويمكن أن يُقال:إن غالباً-الوالد- إنّما هاجر من بلنسية سعياً وراء الرزق بعد أن ضاقت به الحال في بلده، وهذا أمر مُحتمَل وإن لم نجد ما يؤيده في المصادر". (ديوان الرّصافي البلنسيّ-م.س.-المقدّمة-ص:11).

(11) راجع ترجمة الرّصافي في نهاية هذا البحث.

(12) م.ن.- ص:70.

(13) م.ن.-المقدّمة-ص:21.

2_ تعلّقه الشديد ببلنسية:

يُستنتج من شعر الرصافي ومن أخباره في المصادر التي ترجمت له أنّه كان شديد التعلّق ببلده، كثير الحبّ له[14]. ولقد قوّت تجربة الغربة ذلك التعلّق، وأوفت بذلك الحبّ على الغاية، فإذا هو تولّع وهُيام:

خليليّ إن أصْدُرْ إليها فإنّها هي الوطنُ المحبوب أوْكَلْته الصَّدْرا[15]

كما قوّى ذلك التعلّقَ وعمّق ذلك الحبَّ، أيضاً،ما كانت عليه بلنسية من جمال،كان مبعث فخر واعتزاز لكثير من أبنائها كالرّصافي وابن الأبّار وابن عميرة المخرومي وغيرهم. ولقد أشاد بذلك الجمال غيرُ ما واحد من المؤلّفين. قال الحجاري صاحب"المسهَب" في التنويه بطبيعة بلنسية:"مطيب الأندلس،ومطمح الأعين والأنفس؛ قد خصّها الله بأحسن مكان، وحفّها بالأنهار والجنان؛ فلا ترى إلا مياهاً تتفرّع، ولا تسمع إلاّ أطياراً تسجَع... وحيث خرجتَ من جهاتها لا تلقى إلاّ منازه ومسارح.ومن أبدعها وأشهرها الرُّصَافة..."[16]. وقال ابن سعيد واصفاً الرُّصَافة:"وبرصافة بلنسية مناظر وبساتين ومياه"[17].

(14) على أنه لم يكن بدعاً في ذلك التعلّق من كثير من مواطنيه. ويكفي أن نستشهد بواحد منهم، هو ابن شُهيد الذي عبّر عن تعلّقه بقرطبة و حبّه الشديد لها، في رسالة ردّ بها على المؤتمن ابن عامر والي بلنسية الذي كان قد استدعاه. وقد جاء فيها:"وقد كان أقلّ حقوق مولاي أن أقف ببابه، وأخيّم بفِنائه... ولكنّني ممنوع، عن إرادتي مقموع، يَملِكُني سلطان قدير، وأمير ليس كمثله أمير؛ شيء غلب صَبْر الأتقياء، واستولى على عزم الأنبياء وهو العشق... والذي أشكو منه أغرب الغرائب، وأعجب العجائب: بثّ شاغل، وبَرْح قاتل، وصبر يَغيض، لعجوز بَخْراء، سَهِكة دَرْداء، تدعى قرطبة" (ابن بسّام: الذخيرة-م.س.-207/1/1).

(15) ديوان الرّصافي البلنسي-م.س.-ص:71.

(16) ابن سعيد: المغرب - م.س. - 297/2-298.

(17) المقّري: نفح الطيب - م.س.- 181/1.

لذلك فلا عجب أن تحتلّ بلنسية حيزاً فسيحاً من إبداع الرّصافيّ، وأن يقصر -كما يقول ابن الخطيب- أكثر منظومه على الحنين إليها.

وتُعَدّ رائية الرّصافي التي أشرنا إليها أجود نص خلّفته هذه الفترة في هذا الغرض. ومن أدلّتنا على ذلك-فضلاً عن انطباعنا الخاصّ-شيئان. أولهما: أنّ جلّ المصادر التي ترجمت للرصافي أو اختارت له لم تتجاوزها؛ والآخر أنّ جودتها قد بعثت شاعراً معاصراً للرّصافي على مساجلتها موضوعاً ووزناً ورويّاً، وذلك هو أبو بحر صفوان بن إدريس التُّجيبيّ الذي مهّد لرائيّته برسالة سمّاها:"رسالة طراد الجياد في الميدان، وتنازع اللّدات والأخدان، في تقديم مُرْسية على غيرها من البلدان"[18].

وعلى أنّنا نعدّ رائيّة الرّصافي النموذج البارز لشعر الحنين في هذه الفترة، فإنّنا لم نتبيّن فيها تصميماً دقيقاً، ولا خطّة واضحة، وإنما كان التداعي العفوي هو الذي"يتحكّم" في بنائها. على أنّها حوت جلّ ما يتداوله شعر الحنين إلى الأوطان. ففيها وصف لشوق جارف، وفيها تصوير لمعاناة المغترب، وفيها استعادة لذكريات جميلة؛ وقد أخذ التنويه بجمال الوطن ومدح أهله مكاناً واسعاً منها...

يستهلّ الرّصافي قصيدته معبّراً عن حبّه الفيّاض لبلده، مشيراً إلى ما يكابد من شوق إليه.فيرى الحديث عنه مِسْكاً عَطِراً، ويخاله باردَ ماء ينقع الغلة؛ ثم يسترسل في استعادة ذكرياته ببلنسية فيذكر أنها دار نشأته ومدرج صباه وطفولته، ويُبدي بالغَ أسفه لزوال ذلك العهد وانصرام تلك الأيام. ثم يعود إلى تصوير معاناته في اغترابه، ويُنهي هذا الجزء من قصيدته بإرسال الحكمة مُقرّراً أنّ المرء يهوى مسقط رأسه حتماً، ما امتد عمره. يقول:

خليليّ ما للبِيد قد عبقت نَشْرَا؟ وما لرءوس الرَّكْب قد رنّحت سُكرا؟
هل المِسْك مفتوقاً بمَدْرَجة الصّبا أم القوم قد أجْرَوْامن بلنسية ذِكْرا؟

(18) ابن الخطيب: الإحاطة - م.س. - 354/3 ؛ المقري - م.ن.- 63/5.

خليليّ عُوجـَا بي عليهـا فإنّــه حديث كَبَرْدِ المـاء في الكَبِـد الحـرّى
قفا غيرَ مأمـورين ولْتَصْدَيا بهــا على ثقـة للغيـث فـاستسقيا القَطْـرا
بجِسْر مَعَـان والـرّصافــة إنّــه على القَطْر أن يسقي الرّصافة والجسرا
بلادي التي رِيشَتْ قُويـدِيمتي بهـا فُـريخـاً وآوتنـي قَرَارتهـا وَكْـرا
مبادئ لِـين العـيش في رَيِّـق الصِّبا أبى اللـه أن أنسى لهـا أبداً ذكـرا
لبِسنا بها ثـوب الشبـاب لباسَهـا ولكـن عـرينا مـن حُـلاَه ولم تعْـرى
أمنزلنا عصـرَ الشبيبـة مـا الـذي طوى دوننـا تلك الشبيبة والعصـرا؟
محـلّ أغـرّ العهـد لم نُبْدِ ذكـرَه على كبـد إلاّ امْتَـرى أدمعاً حَمْـرا
أكلُّ مكان كان في الأرض مَسْقِطا لرأس الفتى يهـواه ما عـاش مُضْطَـرا؟

وينطلق الرصافي، بعد ذلك، إلى وصف جمال بلده، فينوّه بما وهب الله بلنسية من ذلك، ذاكراً ترابها وماءهـا ونباتها وبيـاض لونهـا... وإذا كـان يشـترك في ذلـك التنويه مع كثير من شعراء الحنين، كابن زيدون[19] وغيره، فإنّـه -وإن جمـح بـه خيالـه، وحَسَّن له البُعد كـل"قبيح"- لم يَكْسُ سليباً ولا حلّى عُطْلاً، وإنّما وجد مكـان القـول ذا سعة فقال، وذلك على حدّ تعبير ابن زيدون مادحاً ابن جهور؛ فقد كانت بلنسـية -كما يقرر في غمرة من إعجابه واعتزازه- فردوسـاً في هـذه الأرض! يقـول في هـذا الجزء من قصيدته:

نبات كـأنّ الخـدّ يحمـل نَـوْره تخـال لُجَيْنـاً في أعاليـه أو تِبْـرَا
ومـاء كتـرصيـع المجـرّة جلّلت نـواحيَه الأزهارُ فـاشتبكت زُهـرا
... وقالوا هل الفردوس ما قد علمته؟ فقلت: وما الفردوس في الجنّة الأخرى؟
بلنسيـة تلك الـزّبـرْجَـدة التـي تسيـل عليهـا كـلّ لـؤلـؤه نهـرا

(19) انظر-مثلا- ما ورد في مخمَّسه المشهور من وصف لطبيعة قرطبة و تنويه بجمالها، في: ديوانه- م.س.-ص: 128-131.

كـأنّ عـروسـاً أبـدع اللـه حسنهـا   فصيّر من شَرْخ الشبـاب لهـا عـمـرا
... هي الدرّة البيضاء من حيث جئتها   أضـاءت ومَنْ للـدرّ أن يُشبـه البدرا

ويمزج الرصافيّ هذا الوصف مرّة باستعادة ذكرياته، ومرة أخرى بالإشارة إلى ماهو عليه من بُعْد بعيد، وكأنّ حاضره كان يستلّه استلالاً من ذلك الماضي الذي يسبح فيه بخياله؛ يقول مشبهاً ماء بلنسية:

أنيقٌ كريعان الحياة التـي خلـت   طليق كريّان الشباب الذي مَـرّا

ويقول ذاكرًا اغترابه:

وإن كان قد مَدّت يد البين بيننا   من الأرض ما يهدي المجدّ به شهرا

وفي الجزء الثالث من القصيدة يجمع الرصافيُ بين وصف معاناته في اغترابه، ومدح"مواطنيه"، فينوّه بهم تنويهاً أشبه بالتأبين. ولعلّ هذا المقطع من القصيدة هو الذي حدا بالدكتور إحسان عبّاس إلى القول بأن الرّصافي لم يكن يحنّ إلى بلنسية لذاتها، وإنّما كان شوقه إلى الماضي الذي قضاه بين أولئك"الناس".

والحقيقة أنّ النغمة الأسْيانة التي سيطرت على هذا الجزء من القصيدة جعلته أكثر تأثيراً في المتلقّي، ووصلته بفنّ الرثاء الصادق الجميل. يقول الرّصافي، من ذلك:

خليلـيّ إن أصْدُر إليهـا فإنّهـا   هي الوطن المحبوب أوْكَلْتُه الصدرَا
ولم أطوعنها الخطو هجراً لهـا، إذاً   فلا لثمت نعلي مساكنَهـا الغـرّا
ولكنّ إجلالاً لتـربتهـا التـي   تَضُمّ فتاها النّدْب أو كَهْلها الحُـرّا
أكارم عاش الدهر ما شاء فيهـمُ   فبادت لياليهم، فهل أشتكي الدهرا؟
...أناسٌ إذا لاقيتَ من شِيتَ منهمُ   تلقوك لا غثٌ الحديث ولا غَمْـرا
...ثكلتهمُ ثُكْلاً دهى العين و الحَشَا   ففجّر ذا ماءً، وسجّر ذا جمـرا
كفى حزَناً أنّي تباعـدت عنهـمُ   فلم ألق من أسْرَى مُخِفاً ولا سَـرّا
وإنّي متى أسألْ بهم كلّ راكـب   ليُظهر لي خيراً تَأبـّط لي شـرّا
أباحثه عـن صالحات عَهِدْتُهـا   هناك فيُنْبِيني بما يَقْصِم الظَّهْـرا

مُحيّا خليل غـاض مـاء حيـاتـه،   وساكن قَصْر صار مسكنُه القبرا

وبعد أن يبلغ غايته من مدحهم، أو-على الأصح- من تأبينهم، يُنهي نصّه ببيت يُحمّله ما كان يمزّقه من مفارقة بين ماضيه وحاضره، يقول فيه:

معاهدُ قد ولّت إذا ما اعتبرتـها
وجدت الذي يحلو من العيش قد مرّا[20]

وإذا كانت رائيّة الرّصافي جمعت جلّ ما تتضمّنه قصيدة الحنين إلى الوطن، فإنّ المقطوعة لم تكن لتتّسع لذلك كلّه. ولهذا نجده في المقطوعة مُوجزاً أو ملخّصاً. ففي إحدى مقطوعاته يقول مفضّلاً رُصَافة بلنسية على غيرها من البلاد، داعياً لها بالسقيا ذاكراً شوقه إليها، مشبِّهاً نفسه بالشّاعر المشرقيّ السَّرِيّ الرفّاء "لاشتراكهما في حرفة الرفو، وابتعاد كلّ منهما عن وطنه":

ولا كالرُّصافة من منـزلِ   سقته السحائب صَوْب الوَلِي
أحِنّ إليها ومَن لي بهـا؟   وأين السَّرِيُّ من المَوْصـِلِ؟[21]

وفي مقطوعة أخرى يصوّر ما كان يملأ قلبه من حبّ لوطنه، ويصف ما كان يكابده في اغترابه، فيقول:

يا صاحبيّ على النوى ولأنتمـا   أخوا هوايَ وحبّذا الأخـوانِ
خوضا إلى الوطن الحبيب جوانحي   إنّ القلوب مواطن الأوطـان
ولبثتما عنـدي طليقَيْ غُـربـة   ولفظتُما عُلَق المشوقِ العانـي
أمودّعَين و لم أحمّـل قبلـة   نعلَيكما [تُهْدى] لجِسْرِ مَعَانِ[22]

وفي مقطوعة ثالثة نجد الرّصافيَ البلنسيّ ينحو في حنينه منحى الشريف الرضيّ

(20) ديوان الرصافي البلنسي-م.س.-ص:67-73.

(21) م.ن.-ص:118.

(22) م.ن.-ص:132.

ومهيار الدَّيْلَميّ في "حجازيّاتهما" الغزلية، فيذكر "نجداً" و"غَيْنَة الجرعاء" و"النَّقا" وغيرها. وهو يرمز بذلك إلى أماكن فارقها فاستبدّ به الحنين إليها. ولعلّه كان يذهب، في ذلك مذهب سلفه ابن خفاجة الذي كان ينتحي ذلك الاتجاه، في بعض شعره[23]. ولقد نبّه، في رسالة كتبها إلى أبي العلاء ابن زُهْر، إلى مذهبه "الرمزي" ذلك، فقال: "وأمّا أسماء تلك البقاع، وما انقسمت إليه من صفة نَجْدٍ أو قَاع، فإنّما جاء بها على أنّها خيالات تُنصَب، ومثالات تُضرب، تدلّ على ما يجري مجراها، من غير أن يُصرَّح بذكراها"[24]. يقول الرصافي في تلك المقطوعة:

سقى العهد من نَجْد معاهده بما ... يغارُ عليها الدمعُ أن تَشْرب القَطْرَا

...فيا غَيْنة الجَرْعاء ما حال بيننا ... سوى الدهرِ شيءٌ فارجعي نشتكي الدهرا

تقضّتْ حياةُ العيش إلا حُشاشةً ... إذا سألتْ لقياكِ علّلتُها ذِكْرا

وكم بالنَّقا من روضة مُرْجَحِنّه ... تَضَمَّخُ أنفاسُ الرياحِ بها نَشْرا

ومن نطفة زرقاءَ تلعب بالصَّدى ... إذا ما ثَنى ظلٌّ مُدَارٌ بها سُمْرا

وبرد نسيمٍ أنْثَنِي عند ذكرهِ ... على زفرات تَصْدَع الكبدَ الحرَّى

وإنّ لبانات تَضَمَّنها الحَشا ... قليلٌ لديها أن نَضيق بها صدرا[25]

ويدلّ هذا النص وغيره على أنّ الأدب الأندلسيّ -حتى في مراحله المتأخّرة- ظلّ موصولاً بأدب المشرق، يسير في اتجاهاته، ويقتفي طرائق أعلامه.

وإذا كان الرّصافي يسلك حقّاً مسلك ابن خفاجة في احتذائه طريقة الشريف الرضيّ ومهيار الديلمي، فإن المفارقة بين الرّصافي وابن خفاجة تتمثّل في أن الأول كان

---

(23) ذكر ابن خفاجة أنه كان يحتذي، في بعض شعره، مسلك الشريف الرضيّ، وطريقة مهيار الديلميّ. انظر: ديوان ابن خفاجة-م.س.-ص: 14.

(24) م.ن.-ص: 204.

(25) ديوان الرّصافي البلنسي-م.س.-ص: 74-75.

ينتحي تلك الطريقة الرّمزية للتعبير عن تجربة حقيقيّة، بينما كان الآخر ينتحيها-فيما يبدو- لغاية فنيّـة ليس غير[26].

وإذا كان الرّصافي قد قصر حنينه على وطنه وماضيه بذلك الوطن، فإنّ ابن جبير لم يفعل ذلك. ويُمكن أن يُصنِّف ما نظمه في هذا الغرض إلى نوعين أساسيّين. أولهما: ما قاله متشوّقاً فيه إلى البقاع المقدّسة، والآخر: ما عبّر فيه عن حنينه إلى وطنه وأهله. وفيما يلي بيان لكلّ نوع وعرض لنماذج منه.

1- الحنين إلى الأماكن المقدَّسة:

الحنين إلى البقاع المقدّسة فرع بارز من فروع شعر الحنين في الأندلس، ولون واضح من ألوان شعر التصوّف هناك[27]. وإذا كان غيرَ ظاهر قبل عصر الموحّدين، إذ لم نُلْفِ منه إلا نصوصاً قليلة كتلك القصيدة قالها ابن السِّيد البَطَلْيَوْسيّ يخاطب فيها مكّة، واصفاً شوقه إليها، متلهّفاً إلى زيارتها[28]-فإنه قد بدأ يظهر ابتداءً من الفترة الأولى من هذا العصر. ويمثّل ما قاله ابن جبير بداية هذه الانطلاقة.

على أنّ مابين أيدينا من شعر ابن جبير قد لايمثّل كلّ ما نظمه في هذا اللون، إذليس ببعيد أن يكون غيرُ قليل من ذلك قد ضاع فيما ضاع من شعره.

---

(26) أثناء حديثه عن احتذائه طريقةَ بعض شعراء المشرق يأتي قوله:"ومن ذلك قولنا في غلام قد بقَل عِذاره، وإن كان مقولاً بطريق الفكاهة،و النّادر والدُّعابة". (ديوان ابن خفاجة-م.س.-ص:13).

(27) انظر: محمد قريبز: الشعر الصوفي في الأندلس-م.س.-ص:224-227.

(28) من قوله فيها:

وهل لِيَ من سُقيا حجيجكِ شَربةٌ ... ومن زَمْزَمٍ يروي بها النفسَ حائمُ؟

وهل ليَ من أجر الملبّين مَقْسَمٌ ... إذا بُذلت للنّاس فيك المقاسمُ؟

... لئن فاتني عنك الذي أنا رائم ... فإنّ هوى نفسي عليك لرائمُ

(الفتح بن خاقان: قلائد العقيان-م.س.-ص:200.).

فقد كان ابن جبير في تشوّق مستمرّ إلى زيارة البقاع المقدّسة. قال ابن عبد الملك المرّاكشي:"و لم يزل دأبه تمنّي الحجّ إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام"[29]. وقدتحقّق له ماكان يتمنّى إذ قام بـ"رحل ثلاث من الأندلس إلى المشرق،حجّ في كلّ واحدة منها"[30] وأهمّ ما خلّف ابن جبير في الحنين إلى الأماكن المقدّسة:رائيته التي قالها"وقد شارف المدينة المكرّمة"[31]. وهي شهيرة نقلهاابن عبد الملك وابن الخطيب وغيرهما كاملة، واجتزأ المقّري منها بثلاثة أبيات، ولكنّه قال منوّها بالقصيدة كلها:"وهي ثلاثة وثلاثون بيتاً من الغُرّ"[32].

ورائيّة ابن جبير تحكمها-بناءً- خطّة واضحة، وتخضع لتصميم دقيق بعيد عن التداعي العفوي. ويمكن المتتبّعَ لمقاطعها أن يستخلص جملة من الأفكار تعكس التجربة التي كان يعيشها الشاعر وهو يحقّق أمنيته ويُطفئ نار شوقه.

يبدأ ابن جبير قصيدته بوصف ما اعترى ركب الحُجّاج الذي كان فيه من فرحة غامرة عندما شارفوا المدينة المنوّرة وبدا لهم بعض معالمها، فيذكر ما غمرهم من نور ساطع، وما أنعشهم من شذاً طيّب، وما أصاب رواحلهم من نشاط. ثم يصف ما أطار قلوبَهم من حنين وشوق:

أقول وآنستُ بالليل نـــارًا لعلّ سراج الهدى قد أنــــارَا
وإلاّ فما بال أُفْـقِ الدُّجـــى كأنّ سنَا البرق فيه استطـــارَا
ونحن من الليل في حِنْدِس فما بالــــــه قد تجلّى نهارًا؟
وهذا النسيم شذا المسك قد أعير أم المسك منه استعـــارا؟
وكانت رواحلنا تشتكـــي وجاها فقد سابقتنا ابتـــدارا

(29) و (30) الذيل والتكملة-م.س.-604/2/5.

(31) م.ن.-ص:602.

(32) نفح الطيب-م.س.-487/3.

وكنّا شكونا عَناء السُّرى فعُدنا نُباري سِراع المَهـــارى
... جرى ذكر طَيْبَةَ ما بيننا فلا قلبَ في الرَّكْب إلاّ وطـارا
حنيناً إلى أحمـدَ المصطفـــى وشوقاً يَهيج الضلوعَ استعـــارا
ولاح لنـــا أحُـدٌ مُشرقـــاً بنورٍ من الشهداء استنـــــارا

وفي الجزء الثاني مـن القصيدة يصف ابن جبير زيارتهم لقبر الرّسول(ص) مركّزاً على ما التزموه من أدب لم يحل دون انفجار الدموع شوقاً وحبّاً:

ولـمّا حللنا فِناء الرّســـولِ نزلنا بأكرم خَلْق جــــوارا
وحين دنونا لفرض الســـلامِ قَصَرنا الخطى ولزِمنا الوقـــارا
فما نُرسل اللحظ إلاّ اختلاساً ولا نرفع الطرف إلاّ انكسارا
ولا نُظْهر الوَجْد إلاّ اكتتامـــا ولا نلفِظ القول إلاّ سِــرارا
سوى أننا لم نطق أعينـــــاً بأدمعها غلبتنـا انفجــــارا
وقفنـا بـروضتــه للســــلام نُعيد السلام عليه مـــرارا
ولـولا مهـابتــه في النفـــوس لثمنا الثرى والتزمنا الجـدارا

وفي المرحلة الثالثة من النصّ يخاطب ابـن جبـير الرّسـول(ص) متوسّـلاً، واصفـاً مـا تجشّـمه في الرحلـة إليـه مـن متـاعب، مدفوعـاً بشـوق جـارف وحنين عنيد.يقول:

إليـــكَ إليـــك نبيَّ الـــهدى ركبتُ البحار وجبت القفـارا
وفـارقـتُ أهلـــي ولا مِنَّـــةٌ وربّ كلام يجرّ اعتــــذارا
... دعاني إليك هوىً كامــــن أثار من الشّوق ما قد أثــارا
فناديتُ: لبيـك داعـي الهـــوى وما كنت عنك أطيق اصطبارا
ووطّنت نفسي لحكـم الهـــوى عليّ، وقلت رضِيت اختيـــارا
أخوض الدّجى و أرُوض السُّرى ولا أطعم النـوم إلاّ غِـــرَارا
ولو كنتُ لا أستطيع السبيــــلَ لطرتُ ولو لم أصادفْ مطـارا

وأجدر من نال منك الرضـــــى   محبٌ ذَراك على البعــد زارا[33].

وإذا كانت القصيدة السابقة قد حملت مشاعر ابن جبير وهو يُطلّ علـى مدينـة الرّسول(ص)، ثم يزور قبره، فإنّنا نجده، في مقطوعة أخرى، يصوّر ما انتابه من مشاعر مماثلة وهو مُقبل على بيت ا لله الحرام، فيقول:

بدت لِيَ أعلام بيت الهـــــدى   بمكة و النـــور بـادٍ عليـــه
فأحرمت شوقاً له بالهـــــوى   وأهديت قلبي هَدْيـــاً إليـــه[34]

وقد ظلّ ابن جبير متعلّقاً بالأماكن المقدَّسة التي حظـي بزيارتهـا. وكـان كثـيراً ما يستبدّ به الشـوق-وهو بالمغرب- إليها، فيستعيد ذكرياته بهـا. وقـد خلّـف عـدّة نصوص وصف فيها ما كان يكابده من حنين جارف، حملــه علـى أن يشـدّ الرحـال إلى المشرق مرتين أُخريين، ثم يُقيم هنالك إلى وفاته. ومـن تلـك النصـوص قولـه"وقـد تذكّر طَيْبة" شاكياً معاناة الشوق إلى أهلها:

يـا أهـــل طَيْبــة قلبـــــي   عـــن منهج الصبـــر جـــارا
أشكـــو إليكـــم زمانــــــاً   علـيّ بـــالبيـــــن جـــــارا
وبَعدكم لســـت أرضـــــى   مـــــن البـــريّة جـــــــارا
ودمع عينـــي عليكـــــــم   لأدمـــــع الـمُـزْن جـارى[35]

وينحو ابن جبير منحى أصحاب"الحجازيات" في بعض حنينه، فيقول، متشـوّقاً إلى سكان وادي العقيق، في أبيات ترتبط بشعر الغزل[36]:

---

(33) ابن عبد الملك :الذيل والتكملة-م.س.-602/2/5-602.

(34) المقّري :نفح الطيب-م.س.-384/2.

(35) ابن عبد الملك :الذيل والتكملة-م.س.-615/2/5.

(36) نجد كثيراً من شعراء التصوّف ينون بعض قصائدهم الصوفيّة على الحنين إلى الحجـاز والتغزّل بأهله. من ذلك قصيدة عمر بن الفارض التي مطلعها:

سائق الأظعان، يطوي البيد طـي،   مُنعمـا عـرّج على كثبـان طـي.

(ديوان ابن الفارض-بيروت-دار بيروت للطباعة والنشر-د.ط.-1399هـ.-1979م.-ص:7).

سكّانَ وادي العقيق شوقــي   إليكــمُ في البعـــاد زادا
ونظرةٌ منكـــمُ المنـــى لـو   أهديتموهـــا إلـيّ زادا
عهدٌ لنـا عندكـمْ حميـــدٌ   يا ليته بالوِصـال عـــادا
صادق فيكم الكرى جفـوني   وبَعدكم للجفون عادى[37]

ومنْ أدْخَلِ قصائده في الحنين إلى البقاع تلك قصيدة"يهنّئ [فيها] حجّاجاً اجتمع بهم في مكّة-شرّفها الله- ويتشوّق إليهم"، يبدو منها أنّ ذكريات الأيـام الـتي قضاها هنالك ما يزال يعيش أصداءها فيزداد-كلما تذكّر- أسىً وشوقاً. يصـوّر في مستهلّها حنينه فيقول مخاطباً وفود الحجّاج، بعد أن هنّأهم بما تحقّق لهم من فوز بأداء مناسكهم:

قد عرفنـا عرفـاتٍ معكـــم   فلذا بَرَّحَ الشـــوقُ بنـــا
نحن بالمغربِ نُجري ذكركمْ   فغُروبُ الدمع تجري هتنا
أنتم الأحبابُ نشكو بُعدكمْ   هل شكوتمْ بُعْدنا مِن بَعْدنا؟

ثمّ يشير إلى ما تجيش به نفسه من شوق إلى لقائهم، فيقول مترجّياً مستعطفاً:

علّنا نلقى خيالاً منكـــــمُ   علّنا بلذيذِ الذّكر وَهْناً علّنــا
لو حَنَا الدهرُ علينا لقضـى   باجتماعٍ بكمُ في المُنْحَنـــى

ويسترسل ابن جبير في وصف ما يكابده مـن تباريح الشـوق فيذكـر مـا يُثيره البرق اللائح من جهة تلك البقاع، ويصف تعلّق القلـب بهـا، ويخـاطب حـاديَ الأبـل القاصدة إليها حاثّاً إياه على حثّ السير، وما إلى ذلك ممـا نُلفيـه في كثـير مـن قصـائد التصوّف التي بناها أصحابها على الحنين إلى الحجاز وأهله. يقـول متحدّثـاً عـن الـبرق وما أثاره في نفسه:

لاح برقٌ موهناً من أرضكـــمْ   فلعمـــري ما هنـا العيش لنـــا
صَدَع الليلَ وميضاً وسَنَـــا   فـأبينـا أن نـذوق الـوَسَنَــا

(37) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-615/2/5.

ويتحدّث عن تعلّق القلب بتلك الأماكن واتخاذها سكناً له، فيقول:

وَلَكَمْ بالخَيْف من قلبٍ شــجٍ   لم يزل خوفَ النّوَى يشكو الضّنَى
ما ارتضى جانحةَ الصدرِ لــه   سَكَناً منــذُ به قــد سَكَنــا
فيناديه على شَحْطِ النّــوى   مَنْ لنــا يومــاً بقلــبٍ ملّنــا

وينتهي إلى مخاطبة حادي الإبل قائلاً له:

سرْ بنا يا حاديَ العيسِ عسى   أنْ نُلاقي يومَ جَمْـع سِرْبنــا
ما عَنى داعي النّوى لّمــا دَعَا   غير صَبّ شفّــه بَرْحُ العَنــا
شِمْ لنا البرقَ إذا هبَّ وقُــلْ   جمَعَ الله بجمــعٍ شملنــا[38]

والمتتبع لأخبار ابن جبير يقف على أنّ حجّ بيت الله الحرام وزيارة قبر النبيّ(ص) قد استبدّا باهتمامه، فقصر عليهما كثيراً من أدبه:فهو يكتب من المشرق، إلى صديق له مقالة سمّاها:"رسالة اعتبار النّاسك، في ذكر الآثار الكريمة والمناسك"[39]، ثم يدوّن رحلته لتكون دليلاً لكلّ حاجّ،ثم يقول"في غبطةِ مَن مَنَّ الله عليه بحجّ بيته وزيارة قبره-صلى الله عليه وسلم-"[40]:

هنيئاً لمن حجّ بيت الهــدى   وحــطّ عن النفس أوزارهــا
وإنّ السعــاة مضمــونــة   لمن حــلّ طَيْبــة أوزارهــا[41]

ويقول:

إذا بلــغ المرء أرض الحجــاز   فقد نــال أفضــل ما أمّلَــهْ
وإن زار قبــر نبــيّ الهــدى   فقد أكمــل الله مــا أمّ لــه[42]

(38) م.ن.-ص : 614.

(39) م.ن.-ص:604.

(40) ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.-236/2.

(41)،(42) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-604/2/5.

وكلّ هذه الآثار كان الباعث عليها ما كان يضطرم في قلبه من شوق إلى تلك الأماكن، وما كان يساوره من هيام بها[43].

إن ما نظمه ابن جبير من شعر في الحنين إلى البقاع المقدّسة كان وليد معاناة حقيقية ونتاج تجربة صادقة. وإذا غضضنا الطرف عن بعض النماذج التي قيلت قبل هذه الفترة والتي لم يتّضح فيها الحنين إلى البقاع المقدّسة كلّ الوضوح، أمكن القول: إنّ ما خلّفه ابن جبير في هذا الغرض يمثل لبناته الأولى في الشعر الأندلسيّ.

2- الحنين إلى الأهل و الوطن:

على أنّ ابن جبير الذي شُغف بتلك الأماكن وشدّ إليها الرحال غيرَ ما مرّة، وقرّر في النهاية الإقامة بها، لم يكن لينسى وطنه وأهله. وإذا كانت نصوصه في هذا اللون قليلة بالقياس إلى نصوصه في اللون السابق، فإنّها تصوّر تجربة الغربة عنده،وتدلّ، مع النصوص التي وردت له في الحنين إلى البقاع المقدّسة، على أنّه كان يعيش شِبْهَ تمزّق؛ فإذا كان في المغرب اشتاق إلى الأماكن المقدّسة بالمشرق، وإذا كان بالمشرق استبدّ به الحنين إلى أهله ووطنه بالمغرب. ولعلّ ما ورد لمعاصره ابن الفكون القُسنطينيّ

(43) عبّر عن ذلك الهُيام في أبيات قالها"عند إزماعه إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه السلام"يقول فيها:

أقول وقد دعا للخير داعٍ ... حننتُ له حنينَ المستهامِ
... فلا طافت بيَ الآمالُ إن لم ... أطُفْ ما بين زمزمَ والمقام
ولا طابت حياةٌ لي إذا لم ... أزُرْ في طَيْبَةٍ خيرَ الأنام

(صفوان بن إدريس: زاد المسافر-م.س.-ص:115.).

كما عبّر عن فرحة الوصول إلى مكّة في قصيدة مطلعها:

بلغتَ المنى وحللتَ الحَرَمْ ... وعاد شبابك بعد الهرمْ

(المقّري: نفح الطيب-م.س.-492/2).

في قصيدة يصف فيها رحلته من قسنطينة إلى مَرّاكُش، أن يكون أقرب إلى وصف حاله تلك. يقول ابن الفكون:

فها أنا قد اتّخذتُ الغرب داراً   وأُدعَى اليوم بالمَرّاكُشـــيِّ
على أنّ اشتياقي نحو زَيْـــد   كشوقي نحو عَمْرٍو بالسّـويّ
تقاسمني الهوى شرقاً وغربـــاً   فيا للمشرقيّ المغربـــيّ!
فلي قلبٌ بأرض الشرق عـانٍ   وجسمٌ حلّ بالغرب القَصِيّ"[44]

ومن أشهر ما خلّف ابن جبير في هذا اللّون مقطوعة يتحدّث فيها عمّا أثاره تذكّرُه لوطنه من أشجان، ويصف نَفاد صبره، وطولَ أرقه، وغزارةَ دمعه. يقول فيها:

غريبٌ تذكّر أوطانَـــهُ   فهيّـج بالذكر أشجانـــه
يحلّ جواه عقود العـــزاء[45]   ويعقـد بالنجـم أجفانـــه
ويُرسل للغَرْب مـن دمعـــه   غُروبـاً لتَسقـيَ سُكّانـــه[45]

ويبدو أنّ الشعور بالاغتراب كان مُلازماً له حيثما حلّ، كما كانت الأعياد وغيرها من المناسبات مثيرة لإحساسه بغربته. فعندما كان بمصر حلّ أحد الأعياد فشهد ابن جبير الصلاة مع أهل قرية"بطَنْدَتَة" فذكّره المشهد بأهله، فقال متشوّقاً:

شهدنا صلاة العيد في أرض غربة   بأحواز مصر والأحبة قد بانُوا
فقلتُ لخِلّي في النّوَى جُدْ بمدمع   فلَيْسَ لنا إلاّ المدامعَ قُرْبــان[46]

"ولما وصل بغداد تذكّر بلده"، فقال داعياً له بالسقيا،راجياً لكلّ غريب العودة إلى وطنه:

---

(44) العبدريّ: الرحلة المغربيّة-تحقيق أحمد بن حدو-قسنطينة-مطبعة البعث-د.ط.-د.ت.-ص:31. وفيه"يقاسمني".

(45) لهذا الشطر رواية أخرى، هي: يحلُّ عرى صبره بالأسى. انظر: صفوان بن ادريس: زاد المسافر-م.س.-ص:115؛ المقّري: نفح الطيب-م.س.-384/2.

(46) ابن سعيد: المغرب-م.س.-385/2.

سقى الله بابَ الطاق كلَّ غمامة وردّ إلى الأوطان كلّ غريب(47)

ولم يَقصر ابن جبير حنينه على الأحياء من أهله وغيرهم من أحبّته، وإنما حنّ إلى الأموات منهم، وتشوّق إلى زيارة قبورهم. فكما نجده يصف شوقه إلى جارية له "تركها بغرناطة"، نُلفيه يصوّر حنينه إلى زوجته التي تُوُفيت بسبتة ودُفنت بها. يقول واصفاً حنينه إلى جاريته في مقطوعة استهلها بشكوى طول اغترابه:

طولُ اغترابٍ وبرح شوق لا صبرَ - وا الله - لي عَلَيْه
إليك أشكو الذي ألاقي يا خير منْ يُشْتكى إليه
ولي بغَرناطةٍ حبيبٌ قد غَلِق الرَّهْنُ في يديه
ودّعتهُ وهْو في دَلالٍ يُظهرُ لي بعضَ ما لَدَيه
فلو ترى طَلَّ نرجسيه ينهلّ في وَرْد وجنتيه
أبصرتَ دُرّاً على عقيقٍ من دمعهِ فوق صفحتيه(49)

ولقد سبق لنا قوله في الحنين إلى زوجته في الفصل الذي عقدناه للرثاء.

وتجربة الغربة كفيلة بأن تجعل صاحبها ميّالاً إلى الحكمة يُرسلها في أقواله ناصحاً بها غيره ممن لم يذوقوا بعدُ مرارةَ الاغتراب، محذّراً إياهم معاناةَ المغترب. ونُلفي شيئاً من هذه النزعة عند ابن جبير. فعندما كان في بغداد"اقتطع غصناً نضيراً من أحد بساتينها فذوى في يده"، فقال ناصحاً محذّراً، مؤكداً عظته بصورة جميلة:

لا تَغْتَرِبْ عَنْ وطنٍ واذكر تَصاريفَ النَّوى

(47) المقّري: نفح الطيب-م.س.-492/2.

(48) م.ن.-ص:386.

(49) م.ن.-ص. ن. ؛ ابن سعيد: المغرب-م.س.-384/2، وفيه"بارتماض" في مكان "في دلال"؛ وقد قدّم"صفحتيه" على"وجنتيه".

أما تــرى الغصـــن إذا ما فارق الأصلَ ذَوَى؟!(50)

ونختم هذا العـرض بنـصّ لابـن جبـير شـبيه برائيّتـه الـتي اسـتهللنا بهـا حديثنـا عن شعره في الحنين، إذ لا فرق بينهما في جيشان الإحساس سوى أنّ الرائية صـوّرت اضطرام أشواقه وهـو يدنـو مـن مدينـة الرّسـول، وهـذا النـصّ يصـوّر استعار أشـواقه وهو يُشارف وطنه عائداً من رحلته. ذلك أنـه قـال مصـوّراً مـا اعـتراه لمـا"لاحـت لـه وهو على ظهر البحر جبالُ دَانِية من جزيرة الأندلس":

لي نحو أرضِ المنى من شَرْق أندلسٍ شوقٌ يؤلّف بين الماء و القَبَـــس
لاحت لنا من ذُرَاها الشُّمِّ شاهقــة تُدْني لزُهْر الدَّرَاري كفَّ مُلتمِس
وقد أغذّتْ بنــا في اليَمِّ جاريـــةٌ سوداءُ لاتستطيع الجري في يَبَــس
... لولا حذاريَ أن أُذكي لها لَهَباً زَجَّيْتُها برياح الشّوق من نَفَسي(51)

إنَّ ما خلّفه ابن جبير من نصوص في الحنين يُلحقه بالشعراء الأندلسيـين الـذين برّزوا في هذا الغرض، من أمثال ابن زيدون وابن خفاجة والرّصافي البلنسيّ وغيرهم. وليـس من شكّ في أنّ قصيدته:"أقولُ وآنستُ بالليل نارًا"من عيون هذا الفنّ في الشعر الأندلسيّ. ولا أدلّ على ذلك من احتفاء المؤلّفين بها، وتنويه بعضهم بجودتها.

ومن شعراء هذه الفــترة الذيـن نظمـوا في هـذا الغـرض: صفـوان بـن إدريـس. وأهمّ ما ترك فيه رائيته التي نظمها مساجلاً الرّصافي في رائيتـه السـالفة. وكـانت هـذه المســاجلة في الغـرض و العـروض و الـروي. وزاد صفـوان بـالتمهيد لقصيدتـــه- كما أسلفنا- برسالة في المفاخرة ببلدته"مُرْسِية" سمّاها:"رسالة طـراد الجيـاد في الميـدان، وتنازع اللّدات والأخدان، في تقديم مُرْسية على غيرها من البلدان"(52).

(50) المقّري: نفح الطيب-م.س.-ص:382.

(51) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-604/2/5-605.

(52) ابن الخطيب: الإحاطة-م.س.-354/3؛ المقّري: نفح الطيب-م.س.-63/5.

وإذا كنّا نجد قصيدة صفوان في غير ما مصدر، فإن المصادر المتيسّرة لم تورد شيئاً من رسالته.

ومع أنّ قصيدة صفوان نظمها بهدف المساجلة، فإنّنا نلمس فيها شعوراً فيّاضاً، تفتقر إليه عدة مساجلات. ولعلّ وراء ما طبع هذه القصيدةَ من إحساس جيّاش: ما كان يعيشه صفوان من تجربة شبيهة بتجربة الرّصافي. على أنّ قصيدة الرّصافي تبقى -عندنا- أعمق إحساساً بالاغتراب، وأصدق تعبيراً عنه. ولعلّ ما تجاوزت به قصيدةَ صفوان من شهرة أن يكون من الأدلة على ذلك.

وتدور قصيدة صفوان حول كثير من الأفكار التي دارت عليها قصيدة الرّصافي كوصف شوقه الى بلدته، والتنويه بجمالها، واستعادة ذكرياته، وذكر إخوانه، وتصوير معاناته في غربته، وشكوى حاله، وغير ذلك. بل إنّنا لنجد التشابُه بين القصيدتين في أكثر من موضع. على أنّ ممّا يفرّق بين القصيدتين جنوح صفوان إلى الفخر بنفسه، وبأدبه بخاصّة، وذلك ما لا أثر له في قصيدة الرصافيّ.

يستهلّ صفوان قصيدته معبّراً عن رجائه السُّقْيا لبلده، مازجاً ذلك بوصف معاناته، فيقول:

لعلّ رسولَ البرقِ يغتنم الأجرَا ... فينشرَ عنّي ماء عَبْرته نشرَا
معاملة أربى بها غيرَ مذنب ... فأقضيه دمعَ العين عن نقطة بحرَا
ليسقيَ من تُدْميرَ قُطْراً مُحَبّباً ... يقرّ بعين القُطْر أن تشرب القَطْرَا
ويقرضه ذَوْبَ اللُّجَيْن وإنما ... تُوفّيه عيني من مدامعها تِبْرا
وما ذاك تقصيراً بها غير أنّه ... سجيّةُ ماء البحر أن يُذويَ الزّهْرا
خليليَّ قوما فاحبسا طُرُق الصَّبا ... مخافةَ أن يَحْمى بزفرتيَ الحَرًّا
فإنّ الصَّبا ريحٌ عليَّ كريمةٌ ... بأيَّةِ ما تَسْري من الجنة الصّغرى[53]

(53)،(54) المقّري: م.ن.-ص:63.

ثم ينطلق إلى وصف جمال مُرْسِية فيُشيد بما تتحلّى به من طبيعة جميلة، وذلك على نحو قريب مما رأيناه في قصيدة الرّصافيّ. ويتتبّع صفوان معاهد مُرْسِية منوّهاً بها واحداً واحداً، مستعيداً ذكرياته ببعضها، فيذكر "الزّنقات" و"الجرف الأعلى" و"السِكّة" و"الخليج" و" الجُرفين" و"الباب الجديد" و"الرَّمْلة"، واصفاً محاسنها، مصوّراً حنينه العارم إليها. يقول من ذلك:

خليليّ، أعني أرضَ مُرْسِيةَ المُنَى ... ولولا توخّي الصدق سمّيتُها الكبرى
محلّيَ بل جوّي الذي عَبقتْ به ... نواسمُ آدابي مُعَطَّرة نَشْرَا
ووَكْري الذي منه درجتُ فليتني ... فُجعتُ بريشِ العزم كي أَلْزَمَ الوكرا

ثم يقول:

أيا زَنَقات الحُسْنِ هل فيك نظرةٌ ... من الجُرف الأعلى إلى السكّة الغرّا
فانظرَ من هذي لتلك كأنّما ... أغيّرُ إذ غازلتُها أختَها الأخرى
هي الكاعبُ الحسناءُ تُمِّم حُسْنُها ... وقدّتْ لها أوراقُها حُلَلا خُضْرا
إذا خُطبتْ أعطتْ دراهمَ زَهْرها ... وما عادةُ الحسناء أنْ تَنْقُدَ المَهْرا
وقامتْ بعُرْس الأنْسِ قَيْنَةُ أيْكِها ... أغاريدُها تسترقص الغُصْنَ النّضْرا
...وكم ليَ بالباب الجديد عشيّة ... من الأنْس ما فيه سوى أنه مَرّا
عشيّات كان الدهر غَضّاً بحسنها ... فأجلتْ سياط البرق أفراسَها شُقْرا
عليهنّ أُجري خيلَ دمعي بوجنتي ... إذا ركبتْ حُمْرًا مَيادينَها الصفرا(55)

وبعد أن يقف عند تلك المعاهد، منوّهاً بجمالها،مسترجعاً ذكرياته بها،باثاً شوقه إليها، ينتقل الى ذكر إخوانه فيتألّم لبعده عنهم. يقول مادحاً إياهم متشوّقاً إليهم:

وإخوان صِدْق لو قضيتُ حقوقَهم ... لما فارقتْ عيني وجوهَهم الزُّهْرا
ولو كنتُ أقضي حقَّ نفسي-ولم أكنْ- ... لما بتُّ أستحلي فراقَهم المُرّا

---

(55) م.ن.-ص: 64.

...أيأنسُ باللذّات قلبي ودونهم مَرامٍ يجِدّ الركبُ في طيّها شهرا؟!
...فديتهمُ بانوا و ضنّوا بكُتْبهم فلا خبَراً منهم لقِيتُ ولا خُبْرا[56]

ويواصل صفوان قصيدته بالشكوى الممزوجة بالفخر، ويختمها مُبدياً تفاؤله. يقول من ذلك:

كأنّ زماني حاسبٌ متعسّفٌ يطارحني كَسْرًا وما يُحسن الجَبْرا
فكم عارفٍ بي وهو يَحْسُد رتبتي فيمدحني سرّاً ويشتمني جهرا
...ولستُ وإن طاشتْ سِهَامي بآيِسٍ
فإنّ مع العُسْر الذي يُتّقى يُسْرا[57]

ولصفوان أشعار أخرى في الحنين. ولكنّ الرائية تبقى عندنا نموذجه الأعلى. وممّا قال في هذا الغرض ما جاء في همزيته"المشهورة بين أدباء المغرب" حيث يصوّر شوقه إلى سعادة ماضية، فيقول من ذلك:

أفْديه من أُنْسٍ تصرّم فانقضى فكأنّه قد كان في الإغفاءِ
لم يَبْق منه غيرُ ذِكْرٍ أو مُنى وكلاهما سَبَبٌ لطول عَنَاءِ[58]

وإلى جانب ما خلّف الشعراء الثلاثة-الرّصافي وابن جبير وصفوان- الذين قد يُعَدّون-بحقّ- شعراءَ الحنين في الأندلس في هذه الفترة، نجد نصوصاً أخرى لشعراءَ آخرين عبّروا فيها عن شوقهم إلى الأهل أو الوطن أو الماضي أو غير ذلك، من غير أن يكونوا من المكثرين في هذا الغرض أو من المبرّزين فيه.

ومن هذه النصوص قطعة لأبي محمد عبد الله ابن أبي رَوْح، يصف فيها حنينه إلى بلدته الجزيرة الخضراء، وكان قد"رحل عنها إلى المشرق... و لم يعد إليها".

(56) م.ن.-ص:65.
(57) م.ن.
(58) ابن الخطيب: الإحاطه -م.س.-351/3.

يقول في تلك القطعة:

أعلّل يا خضراءُ نفسيَ بالمنـــــى   وأقنع إن هبّتْ رياحك بالشّـــمّ
إذا غبتِ عن عيني يغيب منامهـــا   وكيف ينام الليّل ذو الوَجْد والهمّ
تذكّرتُ مَنْ فيها ففاضتْ مدامعي   فلله مَن فيها مِن الخال والعـــمّ
أحنّ إلى الخضراء في كلّ مَوْطِــن   حنينَ مَشُوق للعِناق و للضّـــمّ
وما ذاك إلاّ أنّ جسمي رضيعُهـــا   ولابدّ من شَوْقِ الرضيعِ إلى الأمّ[59]

ولأبي العباس ابن مضاء-"وقد اشتاق إلى قرطبة وطنه وهو ببلاد العدوة"- بيتان يقول فيهما متمنّياً عودته إلى بلده:

ياليتَ شعري ـ وليتٌ غيرُ نافعة   من الصبّابة ـ هل في العمر تنفيسُ؟
متى أُرى ناظراً في جفن قرطبــة   وقد تغيّب عن عينـــيَّ نَفّيـــس[60]

ومن أشهر النصوص وأرقّها إحساساً تلك الأبيات التي وصف فيها أبو بكر ابن زُهْر المعروف بالحفيد شوقَه-وهو بالمغرب- إلى ولدٍ له تركه بالأندلس. وقد كتب بها إلى مخدومه الخليفة أبي يعقوب"فأمر بصرفه إلى إشبيلية"، وفيها يقول:

ولي ولـــدٌ مثلُ فـرخِ القَطَـــا   صغيرٌ تخلّفتُ قلبـــي لديــــه
نأتْ عنــه داري فيـا وحشتا   لذاك الشُّخَيْص وذا ك الوُجَيه
تشوّقنـــي وتشـــوّقتـــــه   فيبكي عليّ وأبكـــي عليـــه
وقـد تَعِب الشـوقُ ما بيننـا   فمنه إليَّ ومنّـــي إليــــه[61]

إنّ الباعث على نظم هذه النصوص وما إليها يتمثّل في معاناة أصحابها قساوةَ الاغتراب. و يُخيَّل إلينا أن ذلك الاغتراب كان قَدَر كثير من الأندلسيين. وقد يكون

---

(59) البلفيقي: المقتضب-م.س.-ص:103.

(60) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-223/1/1. و"نفّيس": بلدة، لعلّها بالمغرب.

(61) م.ن.-400/6.

ما نظمه أحد شعراء هذه الفترة -وهو أبو الحَجّاج ابن أيوب- منطبقاً على حال كثير منهم. يقول، في نغمة شاكية:

أبى الله إلاّ أن أفارق منزلاً ... يطالعُني وجهُ المنى فيه سافرَا

كأنّ على الأقدار ألاّ أحلّه ... يميناً،فما أغشاه إلاّ مسافرا[62]

وإذا كان بعضهم قد فارق وطنه وأهله بمحض إرادته، إمّا طلباً لرزق أو علم،وإما التماساً لاعتبار أو نحوه-فإنّ غيره قد اضطرّته ظروف خاصّة إلى ترك وطنه، وذلك ممّا قد يجعل شعوره بالغربة أحَدّ، ومكابدتَه لها أقسى. ومن هذا الصنف أبو العباس ابن سيد الجَرّاوي الذي نالته وَحْشَة من قاضي بلدته مَالَقة"لأمور تُقُوِّلَتْ عليه اضطرّته إلى التحوّل عن مالقة إلى قرطبة"[63]. وممانظمه في اغترابه:

تداركني العيدُ في غربة ... تنكّرت فيها على من معِي

فألبستُ فيه ثيابَ الضنى ... وأفطرتُ فيه على أدمعي[64]

و من هذا الصنف أبو جعفر ابن جرج الذي اختفى لما امتُحن ابن رشد و غيره المحنةَ المشهورة في عهد يعقوب المنصور، وذلك حَذَرا من إدخاله في تلك المحنة. ومما قاله في ذلك الظرف متبرّماً شاكياً:

أفي الحقّ أن أُقصَى وما أنا مذنباً ... وأُتْرَك تجفي اللحظَ عنّي النواظرُ

غريباً عن الأوطان والأهل لا أرى ... أنيساً سوى ما تجتليه الخواطر[65]

وإذا كانت النصوص التي خلّفتها هذه الفترة في هذا الغرض يكاد أصحابها يُجمعون على رأي واحد في الاغتراب، إذ جلّهم يشكو قساوة الغربة ويفضّل وطنه

---

(62) البلفيقي:المقتضب-م.س.-ص:131.

(63) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-92/1/1.

(64) م.ن.-ص:93.

(65) م.ن.-ص:281.

على الأوطان الأخرى، فإنّنا نجد من ينصح بالاغتراب لما قد يتحقّق فيه من"مكاسب" لا تنال في الوطن. يقول أبو بكر ابن ميمون في هذا المعنى:

لاتكترث بفـراق أوطان الصِّبا   فعسى تنال بغيرهنّ سُعُـــودا
فالدرّ يُنظَم عند فقد بحـــارهِ   بجميل أجياد الحسان عقودا(66)

بقي أن نشير -ونحن نتحدّث عن الغربة والحنين- إلى أن بعضهم قد عاني في هذه الفترة اغتراباً من نوع خاصّ. فقد كان أبو العبّاس التُّدْميري يُحسّ بغربة وهو في وطنه وبين مواطنيه. وذلك"لاسيتلاء الجهل" عليهم. يقول حانّاً إلى من يشاكله،متبرّماً بحاله بين أهل بلده:

ألا ليتَ شعري هل أبيتنّ ليلةً   أخاطب فيها صافيَ الذّهْن ماجدًا
فيفهم عنّي ما أقول فطالمـــا   عرفت من الأقوام أبْلَهَ جامـــدا
كفى حَزَنـاً أنّي مُقيم ببلـــدة   أُعَدّ بها شخصاً من الناس واحـدا(67)

إنّ ما سبق عرضه يدلّ على أنّ شعر الغربة والحنين أخذ حيّزاً مُعتبَراً من الشعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين. وسيزداد هذا الحيّز اتساعاً في الفترة الثانية من ذلك العصر. وذلك عندما ستأخذ القواعد الأندلسيّة في السّقوط تباعاً في يد الأعداء، فيخرج أهلها منها ليقيموا فيما بقي للمسلمين بالأندلس، أو في بلدان المغرب وغيرها من بلاد الإسلام.وسيمثّل هذا الغرضَ حينئذ ما سيصدر عن ابن عميرة المخزوميّ وابن الأبّار البلنسيّ وحازم القرطاجنّي وأبي الحسن ابن سعيد، وغيرهم ممن عاشوا مأساة سقوط الأندلس، وتجرّعوا مرارة الاغتراب، فانعكست تجربتهم القاسية على ما أبدعوا من أدب.

---

(66) م.ن.-321/6؛ ابن فرحون: الدّيباج المذهب-م.س.-ص:302.

(67) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.- 237/1/1.

الفصل الثامن

الشكوى

عرف الشعر الأندلسيّ غرض الشكوى منذ مطلع تاريخه. ومن بواكير هذا الغرض ما قاله أبو المخشيّ عاصم بن زيد العِبادي في شكوى ما فُعل به على يد الأمير الأُمويّ هشام بن عبد الرحمن الداخل إذ قطع لسانه وسمل عينيه. وقد تنوّعت موضوعات الشكوى قبل عصر الموحّدين تبعا لاختلاف ما عاناه الذين صدرت عنهم: فقد شكا بعضهم آفة العمى، كما فعل أبو المخشيّ والأعمى التُّطِيليّ؛ وشكا آخرون آلام السجن، كالمصحفيّ والجزيريّ وابن زيدون؛ وكان كساد البضاعة باعثا لابن بقيّ والأعمى التطيلي وغيرهما على الشكوى؛ وكان ما عاناه ابن حزم من عدم اعتبار مواطنيه له من وراء شكاته...

وفي الفترة الأولى من عصر الموحّدين نُظمت نصوص كثيرة في هذا الغرض، حملت جملة من هموم أصحابها، ودلّت على أن الشاعر الأندلسيّ ربّما كان -بحكم ظروف بلاده القلقة- أرهف إحساسا من سواه،و أقلّ صبرا من غيره. وإذا كان ما تضمّنه بعض هذه النصوص لا يختلف عما نجده في غير شعر هذه الفترة، فإنّ ما تضمّنته نصوص أخرى لا نجد مثله في غيرها، وهي بذلك وثائق تاريخيّة لها قيمتها.

وموضوعات شعر الشكوى في هذه الفترة كثيرة.ومن الصعب حصرها في محاور مُعيّنة. وسنحاول-فيما يلي-الوقوف عند أهمّها مستشهدين ببعض ما توفّر من نصوص:

1- كساد شعر المدح:

أشرنا،في الفصل الذي عقدناه للمدح،إلى أن بعض الشعراء المتكسّبين بشعرهم شكَوْا كساد بضاعتهم في العصر السابق، عصر المرابطين. ومن هؤلاء: الأعمى التطيلي وابن بقيّ. وإذا كان الحكّام الموحّدون قد شجّعوا الشعراء، وأجزلوا لهم العطاء وأمروا بجمع بعض ما مدحوهم به، فإنّ بعض شعراء هذه الفترة قد شكوا حرمانهم وبؤسهم، وتأذّوا بعدم الإقبال على بضاعتهم. ولقد سبق لنا الوقوف عند

تلك المقدّمة التي مهّد بها ابن مُجبَر لقصيدة مدح بها الأمير الموحّدي عمر بن يوسف الملقب«بالرشيد». وفي تلك المقدّمة يصوّر ابن مجبر حرمانه ويشكو «كساد بضاعته»؛ كما مرّ بنا ذلك القصيد الذي خاطب به ابن حربون الرصافيّ البلنسيّ، وفيه يشكو ضياعه «وبوار»أدبه، ومنه قوله:

ما للزّمان -ألا حر ينهنهه؟- يفري أديمي بأنياب وأظفار؟
نشدته حقّ آدابي فأشعرني بأنّ ذنبي آدابي و أشعاري
...إنّي-أباحسن-قد ضعت بينكمُ وقلّ ما ضاع حرّ بين أحرار
... إذا المدائح لم يسفر لها أمل فخلّني لمناد يحي وأسفاري[1]

وهذه الشكوى تكاد تكون امتدادا لشكاة ابن بقيّ في العصر السابق[2].

وتُصوّر هذه النصوص معاناة الشعراء المتكسّبين بمدحهم. وهي معاناة لا يكاد يخلو منها عصر، على تفاوت في ذلك. وتزداد هذه المعاناة حدّة بسبب تعسّف كثير من الحُجّاب. ولهذا نجد بعض الشعراء يعبّرون عن تأذّيهم بذلك التعسّف. قال ابن حامد شاكيا تلك المعاملة :

تكدّرتُ أن ألقى تهلّل بشركم فأيأسني جهم الملاقاة حالكُ
ومن عجب مغناك جنّة قاصد وخازنها من دون رضوانَ مالك[3]

لذلك كانت هذه المعاناة من وراء تعفّف بعض الشعراء عن التكسّب بأدبهم[4].

(1) إبن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص :131.

(2) انظر: الفتح بن خاقان:قلائد العقبان-م.س.-ص :278.

(3) ابن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص :84.

(4) قال ابن الزقّاق البلنسيّ-وهو من عصر المرابطين- في الفخر بقصيدة له :

مُكرَّمة من أن يُذال مَصونُها بغلظة محجوب و عبسة حاجبِ

(ديوان ابن الزقّاق البلنسي-م.س.-ص:78) .

2- الشيخوخة و المرض و ما إليهما:

قال شعراء هذه الفترة نصوصا كثيرة يشكون فيها الشيخوخة وأماراتها، أو يُبدون تألّمهم ممّا اعتراهم من علل أو أصابهم من عاهات. وتكشف هذه النصوص عن جوانب من نفسية الشيوخ والمرضى وذوي العاهات. يقول ابن زُهر الحفيد شاكيا حال الكبرة واصفا أعراضها:

إذا ما شاخ إنسان فإنّ وجوده عدمُ
وذاك لأنه أبداً زمين ما به سقم
ويعزُب عقله عنه ولم يلمم به لمم
ونصف أصم نصف عم وليس عمى ولا صمم
وترعش كفه فيز لّ عنها السيف و القلم
وتعجز رجله عن حمـ ـله فقيامه ألم
على المِنْساة عمدته يلوذ بها و يعتصم
فلا سمع و لا بصر ولا كفّ و لا قدم
ولا عقل يعيش به كذلك يفعل الهرم[5]

وإذا كان ابن زهر قد جمع في نصه جلّ أمارات الكبرة، فإنّ غيره ركّز على بعض هذه الأمارات. وليس من شك في أنّ أهمّها تقوّس الظهر وشيب الشعر. ولهذا أكثر الشعراء شكواهما. قال أبو بكر ابن قُزْمان شاكيا تقوّس ظهره،مقارنا بين ما كان عليه في شبابه وما صار إليه في شيخوخته،موضّحا غرضه بصور جميلة :

و عهدي بالشباب و حسن قدّي حكى ألفَ ابن مُقْلَة في الكِتاب
فصرت اليوم منحنيا كأنّي أفتّش في التراب على شبابي[6]

---

(5) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.-402/6.

(6) البلفيقي:المقتضب-م.س.-ص :95-96؛ ابن الخطيب:الإحاطة-م.س.-407/2. وابن مقلة:وزير وأديب عباسي، يُضرَب المثل بحسْن خطه.

ويشكو أبو الحسن ابن لبال ما أصاب جسمه في كبرته من شيب وتقوّس. ويتفنّن في إبراز صورته منحنيا: فهو، ماشيا بدون عصا، نصفُ دائرة أو قوس بلا وتر:

لما تقوّس منّي الجسم عن كبرِ فابيضّ ما كان مسودًا من الشعرِ
جعلتُ أمشي كأنّي نصف دائرة تمشي على الأرض أو قوس بلا وتر(7)

وهو، متوكّئا على عصاه، قوسٌ ووترُها:

قوّس ظهري المشيب و الكبرُ و الدهر -يا عمرو- كلّه غِيَر
كأنّي، والعصا تدبّ معي، قوس لها و هي في يدي وتر(8)

ويبدو أنّ الشعراء لم يشكوا شيئا مثل ظهور الشيب. فقد انزعج بعضهم لذلك، وهوّل أمره، واعتبره نهاية لعهد جميل. ولعلّ أشدّ الشعراء حرارةَ شكوى: أبو بكر ابن المنخل الشِّلْبيّ حيث يقول، في لهجة أَسيانة بعيدة عن المكابرة :

إن ينقلبْ ليل الشباب نهارا فلقد أجدّ بنا المشيب عثارا
فوددت أنّ الليل أصبح حاضرا عندي وأنّ الصّبح كان ضمارا
كنّا نرى أن المشيب جلالة حتى لبِسناه فكان بوارا
قالوا: وَقار، قلت: واوأقحمت ما تبصر الحسناء إلا قارا(9)

ولابن الجنّان متحسّرا شاكيا:

ما كان أغناك يا ليل الذوائب عن نجوم ذي شيبة لو أنصف الزمن(10)

ومن يتتبّع الأشعار التي قيلت في شكوى المشيب يجد معاني طريفة. ولعلّ أطرف ما خلّفت هذه الفترة في ذلك ما تضمّنه قول أبي محمد عبد الله بن أيوب

(7) م.ن.-ص :127.

(8) م.ن.

(9) ابن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص :129.

(10) ابن الخطيب:الإحاطة-م.س.-408/3.

الأنصاريّ المعروف «بابن خروج»، حيث يشكو «معنى» خَطْب الشيب لا «حسّه».
فقد قال له بعض أترابه: «يا أستاذ، شبنا وما شبتم»، فارتجل:

وهل نافع أن أخطأ الشيب مفرقي | وقد شاب أترابي وشاب لِداتي؟
لئن كان خطب الشيب يُوجَد حسّه | بتِرْبي فمعناه يقوم بذاتي[11]

وكانت وطأة المرض وتوجّس الموت من البواعث على الشكوى. ولشعراء هذه الفترة في ذلك نصوص تعكس تجارب قاسية في مصارعة الآلام. من هذه النصوص قول أبي بكر محمد ابن ولّاد «في علة طاولته»:

ملّني العائدات والعوّاد | وجفاني الكرى فليلي سهاد
قد ألفتُ الفراش حولا عايلا | وبكِبْدي من السقام كُبَاد
إنما الداء والدواء من الله | وإن كان للطبيب اجتهاد[12]

ولأبي العبّاس ابن سيّد الإشبيليّ المعروف «باللصّ» أبيات في مرضه تنطوي على شكوى مكابدته، يقول فيها:

وقائلة -والضنى شاملي-: | علىمَ سهرت ولم ترقدِ
وقد ذاب جسمك فوق الفرا | ش حتى خفيت على العُوّد؟
فقلت: وكيف أُرى نائما | وراعي المنيّة بالمرصد؟[13]

إنّ شعراء هذه الفترة يسهمون، بهذه المقطوعات وغيرها، في باب واسع من أبواب الشعر العربيّ، كانت قصيدة المتنبّي في وصف الحمّى من بواكيره، وكانت قصائد خليل مطران وبدر شاكر السيّاب في شكوى المرض من أهمّ ما أبدع الشعراء فيه.

(11) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س.-210/4.
(12) البلفيقي: المقتضب-م.س.-ص: 79.
(13) ابن الأبّار: التكملة-م.س.-80/1؛ ابن عبد الملك: الذيل والتكملة-م.س-319/1/1.

ومما خلّفته هـذه الفـترة في شكوى العاهـة مـا جـاء في قصيدة لأبـي إسحاق إبراهيم بن محمد التُطِيليّ الأصغر، « يذكر فيها عماه ». يقول فيها :

يَثـني إلى وطء مـا يغتالـه قدمـا ... يهـوي إلى لمـس مـا يعـدو عليـه يـدا
يمشي فتحسبه يقضـي الصلاة خطاً ... إذا اسـتوى رافعـا مـن ركعـة سـجدا
تَهـوي بـه قدمـا صولجـي لعـب ... تـنزو السـلام كـرات عنهمـا بـددا
مخـالط لبـني الدنيـا مفـارقهم ... قـد غـاب عنه من الأشـياء مـا شـهدا
شمس البصيرة أعيت كوكبي بصري ... كذا سَنا النجم في شمس الضحى خمدا[14]

ويمثّل هذا النصّ حلقة في سلسلة من النصوص، صوّر فيها أصحابها وطأة العاهة وأثرها في حياتهم. من بينها ما قاله كلّ من : الأسـود بـن يعفـر النهشـلي[15]، وأبـي المخشيّ عاصم بن زيد العِبادي[16]، وأبـي العباس الأعمـى التطيلي[17]. ولعلّ نـصّ الأعمى التطيلي الأصغر أن يكون أقرب إلى نـصّ أبـي المخشيّ.فهـو-مثلـه-قـد عـالج-جامعا بين الوصف والشكوى- تجربة فقدان البصر. ولربّما يصحّ فيـه مـا رآه الدكتـور أحمد هيكل في نصّ أبي المخشيّ حيث قـال موازنـا :« ذكـر بعـض الشعراء المشارقة الأقدمين عماهم، ولكنّ ذلك لا يُعتبَر تناولا للتجربـة ولا طرقـا للموضـوع قبـل أبـي المخشي، لأنّ ذكر العمى على نحو مـا جـاء عندهـم، إنمـا هـو ذكْـر إخبـاريّ عرضـيّ

(14) البلفيقي:المقتضب-م.س.-ص :80، وأشار المحقّق إلى أنّ البيت الخامس يرويه الصفـديّ في «نَكْت الهِمْيان » هكذا :

شمس الظهيرة أعشت كوكبَي بصـري ... كذا سنا النجم في ضوء الضحى خمدا

(15) انظر: المفضّل الضّبي: المفضّليات-تحقيق أحمد محمد شاكر و عبد السلام محمد هارون-القاهرة-دار المعـارف بمصر-الطبعة الرابعة-1965م-ص:216.

(16) انظر: ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.-103/1/5.

(17) انظر:ديوان الأعمى التطيلي-م.س.-ص :49، 72.

مقتضَب، لا شيء فيه من تصوير لمحنة أو وصف لممتحَن »[18].

وإذا كان الذين ذكرناهم قد نظموا هم أنفسُهم في شكوى أَمارات الشيخوخة وآلام المرض ووطأة العاهة، فإنّ بعض معاصريهم كان يكتفي، في شكواه، بالتمثّل بما قاله غيره لانطباقه على حاله. ومن الأمثلة على ذلك أن أبا عبد الله ابن زرقون « رام ينهض يوما من مجلسه، فلم يستطع من الكبَر حتى اعتمد على من أعانه؛ فلما استوى قائما أنشد متمثّلا:

أصبحتُ عند الحسان زيفا   وغيّر الحادثات نقشي

وكنتُ أمشي ولست أعيا   فصرت أعيا ولست أمشي»[19]

3- أخلاق سيّئة و تصرّفات قبيحة.

شكا الشاعر الأندلسيّ في هذه الفترة جملة من صفات معاصرية وأخلاقهم، وعبّر عن تأذّيه بتصرّفات بعضهم. وأبدى أحيانا استياءه من السلوك العام. وإذا كان ما أصاب البعضَ من أذى باعثا على القول في هذا اللون، فإنّ النزعة الخُلُقية لدى البعض الآخر كانت من وراء ما صدر عنهم. يقول ابن قسّوم شاكيا ذهاب الصدق والوفاء، وسيادة الخداع والمذْق:

ذهب الصدق والوفاء فما تبـ   ـصر إلا خداعا و مذقا[20]

ويشكو أبو عمرو محمدابن عبد ربه الكاتب شيوع الغدر بين الناس فيقول:

وطال بعيني أن ترى غير غادر   فأَولى بعيني أن تكفّ وأَولى بي[21]

وقد مرّ بنا ما قاله صفوان بن إدريس شاكيا أناسا جاورهم فتأذّى بسلوكهم؛

---

(18) الأدب الأندلسي-م.س.-ص :91 - ح :3.

(19) ابن الأبّار:التكملة-م.س.-2/541؛ ابن فرحون:الديباج المذهب-م.س.-ص :285-286.

(20) الرعيني:برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص :95.

(21) البلفيقي:المقتضَب-م.س.-ص :147.

كما وقفنا عند نصّه الذي ضجّ فيه من صاحب له آذاه بشرهه.

وكان مما يـؤذي حقّا ويبعث على الشكوى أن تضيع قيم الأشياء بسبب الجهل وما إليه. يقول أبو الفضل عبد المنعم بن عمر المعروف بالجلياني مبديا استياءه مما ينال الحكمةَ من بخس عند الجاهل، وما يصيب الفاضلَ من هوان عند الظالم:

فأبخس شيء حكمة عند جاهل   وأهون شخص فاضل عند ظالم
فلو زُفّت الحسناء للذئب لم يكن   يرى قربَها إلا لأكل المعاصم(22)

ومما يدخل في هذا الموضوع ذلك النصّ الذي استشهدنا به في مقام آخر، وفيه يشكو الزاهد أبو بكر ابن مُغاور الشهود بمدينة «شاطبة» داعيا إلى الرحلة عنها. وقد حمله تأذّيه بما صدر عن بعضهم من شهادة زور، إلى تهويل الأمر، فجأر بشكواه إلى الله مستعينا إياه للدين:

إنّا إلى الله ماذا حلّ بالدينِ   من الطِوال اللِّحى البيض العثَانِين(23)

4- العسف:

لم تكن هذه الفترة من عصر الموحّدين مبرّأة من ظلم الحكّام وعسف القضاة وغيرهم. ولقد أشرنا في موضع سابق إلى ما فعله بعض القوّاد الموحّدين بمن رفض الدخول في طاعتهم من أهل الأندلس. وكان محمد بن مردنيش ووزيره ابن هَمُشْك متعسّفين، أصاب سكانَ شرق الأندلس منهما أذى كثير. وقد اتصف بعض قضاة هذه الفترة بالجور والاشتطاط في تطبيق الأحكام.

ولم يفت الشاعرَ الأندلسيّ أن يسجّل هذه الظاهرة شكاةً من وطأتها واستنصارا بمن يزيلها. يقول محمد بن عبد العزيز الشاطبيّ النابُلُشي مخاطبا الرشيد أبا حفص بن يوسف بن عبد المؤمن شاكيا إليه عسف قضاة بلده، مستعديا إياه عليهم:

---

(22) م.ن.-ص :143.

(23) صفوان بن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص :80.

يا سيدا ساد الأنامَ بعقله | وبعدله يوم الجزاء يُثابْ
إنّا من الفقهاء في كرب وقد | سُدّت لنا من دونكم أبواب
هذا ابن سفيان يسفّ دماءنا | وكذا ابن يعقوب فذاك عقاب
وكأنّما ابن مفوّز بمفازة | ذئب له، لتهافت، أنياب
فاغضب عليهم وارمهم بعقوبة | قبل الممات، فكلهم مرتاب[24]

ومن هذا اللون ما كتبته الشِلْبية[25] إلى الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور « تتظلّم من ولاة بلدها و صاحب خراجه » حيث يقول :

قد آن أن تبكي العيون الآبيهْ | ولقد أرى أنّ الحجارة باكيه
يا قاصد المصر الذي يُرجى به، | إن قدّر الرحمان، رفعُ كراهيه
ناد الأمير إذا وقفت ببابه: | يا راعيا إن الرعية فانيه
أرسلتها هَمَلا ولا مرعى لها | وتركتها نهْب السباع العاديه
شِلْب كلا شلب وكانت جنّة | فأعادها الطاعون نارا حاميه
حافوا وما خافوا عقوبة ربّهم | والله لا تخفى عليه خافيه[26]

وإذا كان ابن عبد العزيز والشلبية قد شكوَا وضعا عامّا، وتظلّما من عسف شامل، فإن أسماء العامريّة قد شكت إلى الخليفة عبد المؤمن ما أصاب دارها ومالها. فقد كتبت إليه رسالة «تسأله في رفع الإنزال عن دارها، والاعتقال عن مالها »، ختمتها بقصيدة، لعلّها تضمّنت شكواها، لم ينقل منها المقّري إلا ثلاثة أبيات في مدح عبد المؤمن[27].

---

(24) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س-6 393.

(25) لم تذكر المصادر المتوفّرة غير نسبتها إلى «شِلْب »، بلدتها.

(26) المقّري:نفح الطيب-م.س-294/4. وقد روى أن هذه الأبيات «أُلقيت يوم الجمعة على مصلّى المنصور، فلما قضى الصلاة وتصفّحها بحث عن القصّة فوقف على حقيقتها »(ص.ن.)

(27) انظر :م.ن.-ص: 292.

ومما يدخل في شكوى الظلم:ما قاله بعضهم أثناء محنة أبي الوليد ابن رشد وأضرابه من المهتمّين بعلوم الأوائل. فقد كان أبو جعفر ابن جرج الذهبي «أعلم أهل زمانه بالعلوم القديمة وبالتعاليم منها خصوصا... ولمّا امتُحن أبو عبد الله بن إبراهيم وأبو الوليد محمد بن أحمد ابن رشد محنتهما المشهورة... لحق أبو جعفر هذا بقاشره واختفى بها حذرا من إدخاله معهما في تلك المحنة »[28]. وفي ذلك الظرف العسير قال شاكيا متظلّما:

أفي الحق أن أُقصى وما أنا مذنبا	وأُترَك تجفي اللحظَ عنّيَ النواظر
غريبا عن الأوطان والأهل لا أرى	أنيسا سوى ما تجتليه الخواطر
ويُقصَد ظلمي ليس إلا لأنّني	أحسّ بتقصير الذي هو قاصر
فيارَبّ مبغيّ عليه فقم له	بنصر فقد أوجبت أنك ناصر
وقلّب له قلب الخليفة علّه	تنظّم أشتات له وأواصر[29]

وإذا كان النصّ يحمل شكاة من نوع خاصّ، ويتضمّن دعوة إلى حريّة الرأي، ويُدين « اضطهاد » المفكّرين،فإنّه يمثّل ضربا آخر من الوثائق الأدبيّة ذات القيمة التاريخيّة، الخاصّة بموقف الأندلسيين من الفلسفة والمشتغلين بها[30]. ذلك أنّ ما قاله ابن جُبير وغيره في ذمّ الفلاسفة والتنديد بهم يمثّل الضرب الأول من تلك الوثائق.

هذه جملة من النصوص تعكس تصرّف بعض الولاة والقضاة وغيرهم في تلك الفترة. وأغلب الظنّ أنّ نصوصا مثلها قد ضاعت لسبب من الأسباب. على أنّ هذا

---

(28) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.-280/1/1-281.

(29) م.ن.-ص :281.

(30) نعدّ من هذا الضرب ما صدر عن أبي الحسن علي ابن حودي في محنته. فقد أخذ الفلسفة عن ابن باجة « فاشتهر بذلك واتُّهم في دينه، فطُلب، ففرّ. وصار مع قطّاع طريق... ». ومما قاله،في «تشرّده» ذلك، واصفا ما كان يتنازعه من حنين إلى أحبّته ومن «إباء للضيم» : =

اللون من شعر الشكوى ليس خاصّا بهذه الفترة. فقد سجّلت مصادر الأدب الأندلسيّ عدة نصوص قيلت في فترات أخرى[31].

5- الإقامة في بلـدان:

لم يجد بعضهم راحته في بعض مدن الأندلس أو قُراها، فضاق ذرعا بالإقامة فيها، وشكا ما يعانيه مبيّنا أحيانا ما وراء معاناته من أسباب.

ويمثّل ما قاله شعراء هذه الفترة، في هذا اللون، امتدادا لما خلّفت الفترات السابقة. ذلك أن المتتبّع له يُلفي جملة من النصوص لعلّ أهمّها ما صدر عن الأعمى التطيلي شاكيا مُقامَه بإشبيلية[32].

وتختلف أحيانا بواعث تلك الشكوى، وتتفق أحيانا أخرى. ومن تلك البواعث

= فأقسم لولا البعد منكم لسرّني   ثوائي بالغابات وهي فلاةُ
فإنّ بها من رهط كعب وعامر   سراة نمتهم للعلاء سراة
أبوا أن يحلّوها بلادَ حضارة   مخافةَ ضيم و الكفاة أباة
فخطّوا بأمّ القفر دارا عزيزة   تمار على حكم القنا و تُقات

(ابن سعيد:المغرب-م.س.-2/109-110).

(31) من تلك النصوص:ما قالته حسّانة التميمية شاكية إلى الأمير الأُموي عبد الرحمان بن الحكم ظلم واليه على إلبيرة، جابر بن لبيد.انظر :المقّري:نفح الطيب-م.س.-4/168.

ومن تلك النصوص ما نظمه ابن حزمون في شكوى المجريطي عامل « مُرْسِية » إلى الخليفة الموحّدي المستنصر. انظر :ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.-5/1/243-245.

(32) ردّد تلك الشكوى في غيرما قصيدة ومقطوعة. من ذلك قوله :

ملت حِمْصَ و ملّتني فلو نطقتْ   كما نطقتُ تلاحينا على قدرِ
و سوّلت ليَ نفسي أن أفارقها   و الماء في المزن أصفى منه في الغُدُر

(ديوان الأعمى التطيلي-م.س.-ص :49).

نجد أبا عبد الله ابن عيّاش يشكو ما كان يعانيه المقيم بها من غلاء الأسعار واعتداء الإسبان، فيقول:

بلنسية بيني عن القلب سلوة ... فإنّك روض لا أحنّ لزهركِ

وكيف يحبّ المرء دارا تقسّمت ... على صارمي جوع وفتنة مشركِ؟![38]

ومما يتّصل بشكوى المدن والقرى ما قاله أبو بكر ابن أبي زمنين في الطرق الصعبة المؤدّية إلى «بَرْجَة »، وهي بلدة وَلِيَ بها القضاء. فقد «كان يُنشد، إذا ذكرها أو شاهد أحدا من أهلها» الأبيات التالية،مبرزا فيها المفارقة بين جمال تلك البلدة وصعوبة طرقها:

إذا جئتَ «برجة» مستطلعا ... فحطّ بها الرحل وانس السفرْ

ولا تبغ منها خروجا ولا ... دخولا إليها فذاك الحذر

فكلّ مكان بها جنّة ... وكلّ طريق إليها سَقَر[39]

إنّ النصوص التي مرّت بنا في شكوى الإقامة ببعض مدن الأندلس كانت البواعث على نظمها -كما أشرنا- مختلفة. ومن ثم لا تمثّل تلك النصوص موقفا للشاعر الأندلسي، في تلك الفترة، من المدينة، يتّفق أو يختلف مع موقف الشاعر العربي المعاصر -مثلا- منها[40].

---

(38) ابن إدريس: زاد المسافر-م.س.-ص:136.وقد ناقض ابنَ عياش ابنُ حريق بقوله:

بلنسية نهاية كل حسن ... حديث صحّ في شرق وغربِ

فإن قالوا: محلّ غلاء سعر ... ومسقط ديمتي طعن وضرب

فقل: هي جنّة حُفّت رباها ... بمكروهين من جوع وحرب

(م.ن.)

(39) النباهي:المرقبة العليا-م.س.-ص :14.

(40) شكا عدد من الشعراء العرب المعاصرين المدينة. ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه بدر شاكر السياب شاكيا مدينة بغداد، ومنه قوله في قصيدة مشهورة :=

6-نكاد حظّ الأفـاضل

كان أبو الطيب المتنبّي أبرز الشعراء الذين شكوا نكاد حـظّ الأفـاضل ؛ وقولـه في موقف الدهر منهم مزيج من الحكمة التي كان يُرسلها، ومن الشكوى التي لم تكـن -كما ذكر- تفارقــه:

أفاضل النـاس أغراض لذا الـزمنِ ... يخلو من الهم أخلاهم من الفطن[41]

وقد دار عدد من النصوص التي خلّفتها هــذه الفـترة حـول هـذا المعنـى. يقـول أبو محمد عبد الله ابن صاحب الصلاة شاكيا ما شاهده من مفارقـة عجيبـة بـين شـقاء ذوي الفضل وسعادة اللئام:

وعجّل شيبي :أن ذا الفضـل مُبتلـى ... بدهر: غدا ذو النقص فيـه مؤمّـلا

ومن نكد الدنيا على الحرّ: أن يرى ... بهـا الحرّ يشـقى، واللئيـم ممـوّلا

متـى ينعـم المعترّ عينـا إذا اعتفـى ... جوادا مُقلًا، أو غنيًا مبخّـلا؟![42]

وتمتزج شكوى بعضهم محاربةَ الزمان لـه بـالفخر والحكمـة، فيبـدو غـيرَ مبـال بما نالت صروف الدهر منه. يقول أبو عبد الرحمان ابن جحّاف المعافري:

لئـن كـان الزمان أراد حطّـي، ... وحـاربني بأنيـاب وظفـرِ

= وتلتــفّ حــولي دروب المدينــة :

حــبالا مـن الطـين يمضغـن قلـبي

و يعطـــين، عن جمرة فيه، طينــه ...

(ديوان بدر شاكر السياب-بيروت-دار العودة-د.ط.-1971م.-414/1).

وقد حاول الدكتور إحسان عباس أن يبيّن موقف الشاعر العربي المعاصر مـن المدينـة. انظر : اتجاهـات الشعر العربي المعاصر-م.س.-ص :111-136.

(41) عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبي-م.س.-341/4.

(42) البلفيـقي: المقتضَب-م.س.-ص :122 ؛ابن الأبّار :التكملة-م.س.-858/2.

كفـاني: أن تصـاقبني المعـالي؛ وإن عـادِيتِني يـا أم دَفْـرِ
فمـا اعتزّ اللئيـم وإن تسـامى ولا هان الكريـم بغير وَفْرِ[43]

7- ألوان أخـرى :

يجد المتصفّح لشعرالشكوى في هـذه الفـترة جملة من النصـوص يشـكو فيهـا أصحابهـا أمورا أخرى، نحاول الوقوف عند أهمها فيما يلي:

شـكا بعضهـم انحطاط شـأنهم وتدهـور حـالهم. مـن هـؤلاء أبـو عبـد الملـك ابن عبـد العزيـز أحـد ثـوّار الأندلـس في فـترة انتقالهـا مـن سلطة المرابطين إلى النفـوذ الموحدي[44]. فقد قال-« أيام خموله بـالمغرب »، بعـد أن دخـل في طاعـة الموحديـن- يشكو ما آلت إليه حاله من انحطاط بعد علوّ، ومن هـوان بعد عزّ:

أفّ لدنـــيا تقلّبـت بـي تقلّـب المسـي والغـادِ
قـد كنـت فيمـا مضى عزيـزا مسـاميَ النجـم في العلـوّ
فحـالي الآن لـو رآهــا بكـى لهـا رحمـةً عدوّي[45]

ويمثّل هذا النصّ ما صدر عن بعـض أمـراء الأندلـس وملوكهـا بعـد أن دالـت دولهم. ومن أبرزهم المعتمدابن عباد الذي صدر عنـهـ أيـام منفـاه بأغمـات-مـا رسـم صورة للعزيز الذي ذلّ[46].

وشكا بعض شعراء هذه الفترة مـا جنتـه عليـه الشـهرة. فقـد كـان أبـو جعفـر ابـن جـرج الذهـبيّ«في أول أمـره مشـتغلا بـالعلم ببلنسـية إلى أن شـهربه مكانـه، وجـلّ قـدره في الإقـراء والإفـادة، فاستدعاه المنصـور إلى الحضـرة»[47]، فقـال واصفـا

---

(43) ابن الأبـّار:م.ن.-ص:234.

(44) ترجم له ابن الأبار في :كتاب الحلّة السّيَراء-م.س.-2/218 وما بعدها.

(45) م.ن.-ص:226.

(46) انظر: ديوان المعتمدابن عباد-م.س.-ص:163-164.

(47) ابن سعيد :الغصون اليانعة-م.س.-ص:40.

معاناته في منصبه الجديد، مصوّرا ما يكابده بعض مشاهير العلماء:

كنــتُ في ركــن مـــن الأر ض علـــى مقـــدار فهمـــي
مُفـــرَدا فيـــه مُخلّـــى فارغـــا مـــن كـــلّ خصـــم
فدعـــوا بـــي ثـــم قـــالوا: عَلَـــم في كـــل عِلْـــم
عرّضونـــــي للبلايـــــا أتلقّـــى كـــلّ ســـهم
يـــا لقـــومي أتعبـــــوا في قصدهم روحي وجسمي[48]

و إذا وازنّا بين هذا النصّ ونصّ ابن الواعظ الذي سبق،وجدنا بينهما مفارقة واسعة: فهذا يشكو صاحبه ما جنته عليه شهرته و يُبدي أسفه على ما كان ينعم به من « سعادة » في ظلّ « خموله »، و ابن الواعظ يُبدي ضيقه بخموله، و يطمح إلى مثل ما تحقّق لابن جرج. و للناس في كلّ أمر مذاهب .

ومن أشعار الشكوى في هذه الفترة، نصّ لأبي جعفر أحمد ابن سعيد، قاله في الفترة التي توتّرت فيها علاقته بمخدومه السيد أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن، بسبب حفصة بنت الركونيّ التي اشتركا في حبّها . ذلك أنّ ابن سعيد، لما ذمّ الأمير لحفصة، بدأ هذا«يتوسّد له المهالك»، وأخذ هو«يتحفّظ كل التحفّظ»[49]. وقد ضجّ من تلك الحال،فقال شاكيا جفوة أبي سعيد:

مـن يشـتري مـنّي الحياة وطيبها ووزارتـي وتـأدّبي وتهذّبـي
بمحـلّ راع في ذرى ململومـة زويت عن الدنيا بأقصى مرتب
لا حكـم يـأخذه بهـا إلا لمـن يعفـو ويـرأف دائمـا بـالمذنب
فلقد سئمت من الحياة مع امرئ متغضّـب متغلّـب مـترتّب[50]

---

(48) م.ن.-ص :40-41.

(49) انظر: ابن الخطيب :الإحاطة-م.س.-1/224-225.

(50) لعلها مترقّب.

وكانت مفارقة الأصدقاء من أسباب الشكوى. وقد حملت تلك الشكوى بعض القصائد الإخوانيّة، كما نجد في الرسالة الشعريّة التالية حيث خاطب أبو الربيع سليمان الكلاعي أبا بحر صفوان التجيبي«عقب انفصاله من بلنسية عام سبعة وثمانين وخمسمائة »، فقال شاكيا ذلك الانفصال:

أيا راحلا أودى بصبري رحيلـــه ... وفلّل من عزمي وثلّـم من حدّي

أتعلمْ ما يلقى الفـــؤاد لبعدكـــم ... ألا مذ نأتيم لا يعيد ولا يبدي

...عسى الله أن يُدني السرور بقربكـم ... فيبدو بنا الشمل منتظمَ العقد[61]

ويدخل في هذا الغرض بعض ما تضمّنته نصوص نُظمت في أغراض أخرى. من ذلك ما نجده من شكوى آلام الغربة في بعض أشعار الحنين. كما في قول ابن جُبير ناصحا بلزوم الأوطان:

لا تغـــتربْ عـــن وطـــن ... واذكـر تصـاريف النـوى

أمـــا تـــرى الغصـن إذا مـا ... فـــارق الأصـــل ذوى؟[62]

ومن ذلك ما نجده من شكوى تباريح الهوى وهجر الحبيب وما إلى ذلك، في بعض أشعار الغزل، كقول ابن مُجبَر:

يـا قاسيَ القلـب ألا عطفـة ... تَثـني إليهـا رقّـة الخصـرِ

مـا بـال قلبي مثـل عينيـك لا ... يفيـق مـن هـمّ ومـن سكر

ولـو أراد الله رفقـا بـه ... لم يكحل الأجفـان بالسحر

مـلء فـؤادي زفـرة تلتظـي ... ومـلء عيـني عـبرة تجري[63]

---

(61) ابن الخطيب:الإحاطة-م.س.-298/4. وفي النص أخطاء إملائيّة واضحة، صحّحناها.

(62) المقّري:نفح الطيب-م.س.-382/2.

(63) ابن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص :56.

ومن ذلك أيضا ما تضمّنه بعض تلك النصوص التي نظمها ابن جبير في ذمّ الفلاسفة، من شكوى ما أصاب الدين منهم، كقوله في أحدها:

الديـــن يشـــكو بليّـــهْ   مـــن فرقـــة منطقيّـــه
لا يشـــهدون صـــلاة   إلا لمعنـــى التقيّـــه
ولا تـــرى الشـــرع إلا   سياســـة مدنيّـــه
ويُؤثـــرون عليـــه   مذاهبـــاً فلســـفيّه(64)

ويتبيَن مما سبق عرضه من نماذج أن شعر الشكوى قد عرف في الفترة الأولى من عصر الموحّدين جلّ الألوان نتيجة لتعدّد البواعث على النظم فيه. و قد خلّفت هذه الفترة نتاجا غزيزا يعكس إقبال الشعراء عليه، و إنْ مزَجه بعضهم بأغراض أخرى، و اكتفى بعضهم بالمقطوعات.

إنّ ما وقفنا عليه من أشعار في هذا الغرض مما خلّفته هذه الفترة وغيرها من عصور الأدب الأندلسيّ يجعلنا نقول: إن الشكوى من أهمّ أغراض الشعر الأندلسيّ؛ وإنّ إغفال هذا الغرض في جلّ الدراسات لا مبرّر له. وإذا لم تبلغ الشكوى عند الشعراء الأندلسيّين ما بلغته عند بعض شعراء المشرق كالمتنبي(65) -مثلا-، فقد كانت كثيرة، في جلّ مراحل أدبهم.

---

(64) ابن عبد الملك: الذيل و التكملة-م.س.-5/2/612.

(65) عبّر المتنبّي عن ضيقه بجنوح شعره إلى الشكوى قائلا:

ألا ليت شعري هل أقول قصيدة   فلا أشتكي فيها و لا أتعتّبُ

(عبد الرحمن البرقوقيّ: شرح ديوان المتنبّي-م.س.-1/304).

الفصل التاسع

الإخوانيات

كثر النّظم في فـنّ الإخوانيـات في الشـعر العربـيّ ابتـداء مـن العصـر العباسـيّ؛ وقد استغرقت القصيدة الإخوانيّة جـلّ أغـراض الرسـالة النثريّـة، مـن تهنئـة، وعتـاب، وشـكوى، وتعزيـة، وغيرهـا. و لم يتخلّـف الأندلسـيّون، في ذلـك، عـن المشـارقة. ومن يتصفّح مصادر الأدب الأندلسيّ يجد نماذج كثـيرة مـن شـعر الإخوانيّـات، يعـود بعضهـا إلى المراحـل الأولـى من تاريخ ذلك الأدب(1).

و لم يتراجع هذا الفنّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين. فقد سـجّلتمصـادر هذه الفترة عددا من نصوصه، يدلّ علـى ازدهـار وتطـوّر. كمـا تـدلّ تلـك النصـوص على شغف أدباء تلك الفـترة بالتّراسـل شـعراً، في المناسـبات وغيرهـا، إظهـاراً للبراعـة وإدلالا بالمقدرة. هذا فضلا عن دلالة ذلك على أنّ الشـعر صـار، في بعـض الأحيـان، ترفـا فنّيّاً، لاوسيلة للإفصاح عمّا يخالج النفوس من مشاعر.

ولعلّ أهم شعراء هذه الفترة إسهاما في هذا اللون: الرّصـافيّ البلنسـيّ وصفـوان ابن إدريس التّجيبيّ. ويعكس ذلك ما كان لهما من صـلات بعـدد مـن الشـخصيّات الأدبيّـة والعلميّة. وكانت تلك الرسائل الشعريّة وسائل اتصال في المناسبات المختلفة.

وقد تناولت إخوانيّات هذه الفترة جلّ أغراض هذا الفـنّ. وسـنحاول الوقـوف عنـد أهـمّ الموضوعـات الـتي نظـم فيهـا شـعراء هـذه الفـترة أشـعارهم الإخـوانيّة مستشهدين بنماذج منها.

---

(1) من الأمثلة على هذا الفنّ في فترة الحجابة: ما تبادله المنصور ابن أبي عامر مع وزيره عبد الملك ابن شهيـد. انظر: المقّري -نفح الطيب -م.س. -1/400-401.

ومن نماذجه في عصر ملوك الطوائف ماكان بـين المعتمـد بـن عبّـاد ووزيـره أبـي الوليـد ابـن زيـدون. انظر: الفتح بن خاقان: قلائد العقيان -م.س. -ص:7-8.

ومن النماذج العائدة إلى عصر المرابطين مانظمه ابن خفاجة معاتباً فيه الفتح بن خاقـان علـى مـاذكره عنه في ترجمته في كتاب « قلائد العقيـان» . انظر: م.ن. -ص:232-233.

أ- المدح:

يجد المتتبّع للمراجعات الإخوانيّة أنّ مدح الأصدقاء والتنويه برسائلهم من أبرز ما تضمّنته. وقد بالغ ناظمو هذه الرسائل الشعريَة في الإشادة بما ورد عليهم من كتُب أصحابهم، وغالَوْا في وصف أثر تلك الكتب في نفوسهم. ولم يكن الباعث، على ذلك الإفراط، هو الإعجابَ دائماً، وإنّما كانت المجاملة -أحياناً كثيرة- من وراء تلك الإفاضة. يقول صفوان بن إدريس في إحدى مراجعاته مادحاً كتاب صاحبه، واصفاً إعجابه به، وفرحته بوروده:

ألا سمح الزمان به كتابا ... درى بوروده أُنسي فآبا
...فلو لم أستفد شيئا سواه ... قنِعتُ بمثله عِلْقا لُبابا
إذا أحرزتُ هذا في اغترابي ... فدعني أقطع العمر اغترابا
رجمتُ بأنسه شيطان همّي ... فهل وجّهت طرساً أم شهابا؟!
رشفت به رُضاب الودّ عذباً ... يذكّرني شمائلك العذابا
...فضضت ختامه عندي كأنّي ... فتحت بفضّه للروض بابا
فكدت أبثّه في جفن عيني ... لكي أستودع الزّهر السحابا
وكنت أصونه في القلب لكن ... خشيتُ عليه أن يفنى التهابا[2]

وقد لا يكتفي الشاعر بمدح صديقه وحده، وإنّما يمتدّ مدحه إلى الذين ينتمي إليهم: فهذا أبو عبد الله الرُّصافي يقول -في جوابه عن رسالة لصديقه ابن حربون الشِّلْبي- مشيدا بأهل شِلْب[3]، منوّها بما عُرف عنهم جميعاً من النطق بالشعر عفواً من غير قصد:

---

(2) ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -352/3.

(3) شِلْب(Silves): مدينة في الجنوب الغربيّ من الأندلس،تُوجَد اليوم بالبرتغال. ينتمي إليها عدة شعراء.منهم: ابن عمّار، وابن المنخّل، وابن حربون.

وأرض شِلْب وما شلْبُ وإن ولدت غمار ناس فناس غير أغمارِ
عرف التحاور من تلقاء ألسُنهم كأنّما نشؤوا في غير أمصار
يُلقون بالقول موزونا وما قصدوا كأنّ ذلك منهم غير إضمار[4]

ويلمس الموازن بين أدب المشرق وأدب الأندلس تأثّر الأندلسيّين بالمشارقة في إكثارهم من الإطراء ومغالاتهم في التنويه في أدبهم الإخوانيّ عموماً. فما في إخوانيّات هذه الفترة من إفاضة في المدح ذو صلة برسائل ابن العميد وغيرها من إخوانيّات أدباء المشرق الذين أظلّهم العصر العبّاسيّ الثاني.

وينصبّ مدحهم أحياناً -في مراجعاتهم- على ما خاطبهم به أصحابهم من شعر، مبدين «عجزهم» أحياناً أخرى عن مساجلته. يقول الرصافيّ البلنسيّ في مراجعته أبا الحسن ابن لبال الشَّرِيشيّ مشيداً بالقصيدة الرائية التي «أتحفه بها»:

حباني على بعد المدى بتحيّة أرى غضْني رطب المهزّ بها نضرا
برائيّة لم أدر عند اجتلائها: هي الدرّ منظومًا أم الزّهر مفترّا؟
وما سرّ نوّار بممطورة الربى تبوح أُصَيْلانا به الريح أو فجرا
بأطيب منها في الأنوف وغيرها تجاذبها سرّا بنو الدهر أو جهرًا[5]

ويُشيد صفوان بن إدريس بالقصيدة التي خاطبه بها صديقه أبو عبد الله الوشقي معتذراً عن مساجلتها عروضاً ورويّاً، «بعجزة»:

لو جاء فكر ابن الحسين[6] بمثلها صحّت نبوّته لدى الشعراء
...فلذا تركت عروضها ورويّها وهجرت فيها سنّة الأدباء[7]

---

(4) ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:132.
(5) ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -ص:75-76.
(6) هو أبو الطيب المتنبّي.
(7) المقّري: نفح الطيب -م.س. -255/6.

إنّ ما ورد من مدح في إخوانيّات هذه الفترة ليدلّ -على الرغم مما يطبعه من بادي المجاملة- على ما كان يجمع بين أولئك الشعراء من صادق المودّة، ويعكس ماكانت تتّسم به مشاعرهم من رقّة، وأخلاقهم من دماثة.

ب- التشوّق:

يصف كثير من الشعراء في إخوانيّاتهم تشوّقهم إلى أصدقائهم، ويصوّرون حنينهم إلى الماضي الذي جمعهم شاكين فراقهم وبعادهم، متمنّين أن تسمح الأيام بقربهم ولقائهم. من ذلك ما يقوله الرصافي البلنسيّ معبّراً عن شوقه إلى صديقه ابن لبّال، واصفاً ما يكابده من تحرّق إلى لقائه:

أعندكمُ أنّا نبيت لبعدكم	وكلّ يد منّا على كبد حرّى
ومن عجب أنّا نهيم بقربكم	ولا زور إلاّ أن نُلمّ بكم ذكرا
نؤمّل لقياكم وكيف مطارنا	بأجنحة لا نستطيع لها نشرا
فلو آب ريعانُ الصّبا ولقاؤكم	إذاً قضت الأيام حاجتنا الكبرى
فإن لم يكن إلاّ النوى ومشيبنا	ففي أيّ شيء بعدُ نستعطف الدّهرا؟! (8)

ويصوّر صفوان بن إدريس في مراجعته لصديقه أبي عبد الله الوشْقي، حنينه إلى ما حظيا به من متعة في حضن الطبيعة الجميلة. يقول متمنّياً عودة تلك السعادة:

ياليت شعري - والزمان تنقّل	والدهر ناسخُ شدّة برخاءِ
هل نلتقي في روضة موشيّة	خفّاقة الأغصان والأفياء
وننال فيها من تألّفنا ولو	ما فيه سخنة أعْين الرّقباء (9)

ثم يواصل وصف جمال الطبيعة، ويختم حديثه عن تلك اللحظات السعيدة بقوله متأسّفا لزوالها زوال الحلم:

---

(8) ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -ص:76.

(9) المقّري: نفح الطيب -م.س. -254/6.

أفديه من أنس تصرّم فانقضى	فكأنّه قد كان في الإغفاء
لم يبق منه غير ذكر أو منى	وكلاهما سبب لطول عناء[10]

وقد يجنح بعضهم إلى الرمز في تصوير حنينه، على نحو ما نجد في القصيدة التالية التي راجع بها صفوان بن إدريس أبا الربيع سليمان بن سالم «عن أبيات مثلها»، حيث يقول:

سقى مضربَ الخيمات من علميْ نجد	أسحُّ غماميْ أدمعي والحيا الرّغدِ
...ليَ الله كم أهذي بنجد وأهلها	وما لي بها إلا التوهّم من عهد

ويوضّح رمزه فيقول:

وما بي إلى نجد نزوعٌ ولا هوى	خلا أنّهم شنّوا القوافي على نجد
وجاءوا بدعوى حسّن الشّعر زورها	فصارت لهم في مصحف الحبّ كالحمد[11]

إن بثّ الشوق إلى الأصدقاء ووصف التلهّف إلى لقائهم: أحد الأغراض البارزة لفنّ الإخوانيّات التي خلّفتها هذه الفترة[12]. ولعلّه أن يكون دليلاً على وفاء الأندلسيّ لماضيه، وهو خلُق تعكسه نصوص كثيرة تندرج في أغراض مختلفة كالرثاء، والحنين إلى الأوطان، وغيرهما.

ج- التهنئة:

استُخدم الشعر في تلك الفترة للتهنئة، فنظم الشعراء قطعا وقصائد هنّؤوا فيها أصدقاءهم ومعارفهم على ما رُزقوه من أولاد، أو ما حظُوا به من شفاء بعد مرض، أو غير ذلك. يقول الرصافي مهنّئاً بمولود:

---

(10) م.ن.

(11) م.ن. -5/66.

(12) انظر -فضلا عما سبق-: ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص: 84،86،100،105؛ ديوان الرصافي البلنسي -م.س. -ص: 43،102،103-104.

سرّاء شبَّ بها الزمان الأشيبُ وسماء مجد زيد فيها كوكب
وعلوّ منزلة تْشاد بأزهر كالنجم إلاّ أنّه لا يغرب
...ولدت بمولده المكارم والنّدى وتأهّب النادي له والموكب
بُشراك بالطفل الذي هو عندنا شبل ، وفي المعنى هزبر أغلب
فاهنأ به من طالع ذي أسعد يزهى بغُرّته الزمان ويعجب
يحلو على طرف اللسان كأنّما عسلٌ وماءٌ لفظها المستعذب(13)

ويقول أبو محمد ابن الفرس يهنّئ القاضي أبا العبّاس ابن الحلاّل بالبرء من مرض:

تجلّت همومُ وجلّت هِمَمْ وعمّ نعيمٌ وحلّت نعم
وإن صحّ قاضي القضاة اغتدى صحائحَ منّا مِراض النّسم
فما خصّ هذا الأذى جسمه ولكنّه عمّ هذي الأممْ
وأضرم حتّى ضلوع العلى وفطّر حتّى فؤاد الكرم
كأنّ النفوس له جنّة وما حلّ إلاّ بهنّ الألم
وأروى بأدمعنا أرضنا فأغنى الغمائم أن تنسجم
وإما أدقّ لنا شخصه فما انفك منه الندى ذا عظم
وما إن تساء. بلى إنّه ينافس فيك الوجود العدم(14)

وكان الشعراء أحيانا يوشّحون ما يكتبون من رسائل إخوانية بهذه الأشعار، كما فعل ابن الفرس، إذ جاء نصّه السابق «أثناء رسالة» خاطب بها ابن الحلاّل. فقد كان كثير من أدباء تلك الفترة يجمعون بين صفة الشاعر وصفة الناثر، فجاء أدبهم الإخوانيّ في كثير من الأحيان، ممثّلا لذلك «الازدواج»(15).

(13) م.ن. - ص :39-40.

(14) ابن إدريس : زاد المسافر - م.س. - ص :149-150.

(15) ليس ذلك جديدا في الأدب الأندلسيّ.ينظر :أحمد هيكل: م.س.،ص :371.

د- الشكر:

نجد شعراء هذه الفترة ينظمون في شكر أصدقائهم على ما تلقوه من هدايا أو نحوها. ومن الأمثلة على ذلك: قول ابن جبير شاكرا بعض أصحابه على موز أهداه إليه، إذ يقول داعياً له:

يا مهدي الموز تبقى   وميمه لك فاءُ
وزايه عن قريب   لمن يناويك تاء[16]

وهو غرض عرفته الإخوانيّات في الأندلس قبل هذه الفترة[17].

هـ- التودّد وتأكيد الحبّ:

يتضمّن كثير من الإخوانيات وصف ما يكنّه أصحابها لأصدقائهم إذ نجد بعضهم متودّدا،ونُلفي بعضهم مؤكّدا حبّه. وعلى أنّ بعض ذلك الوصف لا يخلو من مجاملة، فإنّنا نجد من تلك الأشعار ما ينبض بالصدق. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله صفوان بن إدريس مؤكّدا حبّه لصديقه الوزير أبي محمد ابن حامد. وابن حامد صديق حميم لصفوان الذي يصف ما كان بينهما من مودّه فيقول: «وبيني وبينه أخوّة كما أُبرمت المرائر، واستخلاص يُحمَد غبّه يوم تُبلى السرائر»[18]. وبين صفوان وابن حامد مطارحات شعريّة سنقف عندها. ومن قول صفوان مخاطبا صديقه ابن حامد:

خليلي ولا أدعو سواك بمثلها   سوى مَلق تهذي به ألسن الشعرِ
أخصّك لا أنّي ازدهيت على الورى   ولكن تخطيت التّراب إلى التّبر[19]

---

(16) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س -620/2/5.

(17) من الأمثلة على ذلك،ما قاله ابن زيدون شاكرا المعتضد ابن عباد. انظر: ديوان ابن زيدون- م.س. -ص:223.

(18) و (19) ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:82.

وللـرُّصافـيّ مؤكّدا صفاء ودّه لصديقه مهما تمادى نواه:

لك الودّ الذي لا ريب فيه ... وإن بقيت نواك على التمادي
إذا كرمت عهود المرء طبعا ... فأكرم مايكون على البعاد[20]

ولأبي حامد المذكور قصيدة يتودّد فيها إلى أبي عمرو ابن حسّون، كتب بها إليه قبل أن يلقاه، وكان صفوان قد أكّد الصلة بينهما. يقول فيها:

...وأحللته قلبي هوى ومحبّة ... ولا قرب إلاّ بالتخيّل والفكرِ
وحسْبي لقاءٌ واتّصالاً وأُلفة ... ومعرفة وصفُ الفقيه أبي بحر
...فما زال يسقيني حديثك قهوة ... ويتحف سمعي من حديثك بالدُّرّ
أليس عجيبا أنّ عيني لم تفز ... بلمح سنيً منكم وأحللتم صدري؟! [21]

و- العتاب:

قد يحدث في علاقات الأصدقاء ما يدعو إلى العتاب. ولم يكن ما بين شعراء هذه الفترة من صلات مبرّأ من ذلك. يدلّ على ذلك ما نجده من قصائد ومقطّعات في العتاب. فهذا صفوان بن إدريس ـ على دماثة خُلُقه ـ يناله عتاب أصدقائه. يقول أبو عبد الله ابن يربوع لائما إيّاه على تناسيه:

فديتك ماهذا التناسي -أبابحر- ... لقد ضاق ذرعاً عن تحمّله صبري
أأصدر عن مغنى به النور سادراً ... وأرحل ظمآنا على شاطئ البحر؟! [22]

ويكتب إليه أبو عبد الله بن إدريس المعروف بمرج الكحل عاتبا، فيقول:

وهل عند صفوانَ بنِ إدريسَ أنّني ... مقيم على عهد المودّة ماكثُ
وإن كنت قد خاطبت فصل خطابه ... فعاقت عن الودّ الخطوب الكوارث [23]

(20)ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س.-ص:62.
(21) ابن إدريس :زاد المسافر -م.س. -ص:85.
(22) م.ن. -ص:105.
(23) م.ن. -ص:70.

ويختلف العتاب الذي تضمّنته إخوانيات هذه الفترة: فإذا كان ما تلقاه صفوان رقيقاً ليناً، فإنّ ما صدر عن أبي جعفر ابن عاصم شديد عنيف، ينبئ عن غضب بلغ مداه. يقول لائماً صاحبا له اسمه «وليد» على جفائه، مؤكّداً بقاءه على ودّه:

عجبي ومجدك طيب الأعراقِ   سار كسير الشمس في الآفاق
من سوء فعلك يا وليد بصاحب   قابلته بمكاره الأخلاق
لّما أتاك مؤمّلا أنكرته   ونظرته بمؤخّر الأحداق
...فلئن عتبتك فالعتاب علامةٌ   تنبي وتشهد أنّ ودّك باق[24]

وقد لا يُتوقّف عند عتاب من أحدهم يتلوه اعتذار من الآخر، وإنما قد يقع تعاتب على نحو ما حدث بين أبي بكر ابن المرخي وأستاذه أبي العبّاس ابن سيّد المعروف «باللّص». فقد خاطب ابن المرخي أستاذه ابن سيّد «معاتبا في صغره» بقصيدة يقول في أوّلها:

سأهجر العلم لا بغضاً ولا كسلاً   حتّى يقال ارعوى عن حبّه وسلا
ولا أمرُّ ببيت فيه مسكنه   كي لا يمثّل شوقي حيثما مثلا
إذا ظمئت وكان العذب ممتنعا   فلست عن غير ذاك العذب معتزلا
إذا طردت قصيّا عن حياضكم   فإنّ نفسي مما تكره النهلا

فراجعه ابن سيّد معاتبا أيضاً، فأمسك ابن المرخي عن المحاوبة[25].

وموضوعات العتاب في إخوانيات هذه الفترة كثيرة، وإن كانت البواعث على النظم في هذا الغرض، في بعض الأحيان، ضعيفة[26]. ولكن ذلك قد يدلّ

---

(24) م.ن. -ص:89.

(25) انظر: البلفيقيّ: المقتضب -م.س. -ص:177.

(26) من الأمثلة على ذلك: أن يعاتب أبو جعفر ابن سعيد صديقا خطر على منزله فلم يدخل مخافة التثقيل. انظر: المقّريّ: نفح الطِّيب -م.س. -4/186.

على ما كان لبعضهم من شعور مُرهَف يجعله يتأذّى بكثير من تصرّفات أصدقائه، فيبعثه ذلك على عتابهم.

ز- الاعتذار:

إنّ ما نلمسه عند بعضهم من رقّة المشاعر كان من وراء بعض نصوص الاعتذار. ذلك أن من كانت به تلك الرقّة يرى في كثير من تصرّفاته ما يسوء أصدقاءه فيبادر بالاعتذار إليهم ملتمسا عفوهم.على أنّ نصوصا أخرى قد نظموها معتذرين عمّا اقترفوه حقّاً من تصرفات سيئة، وأفعال مؤذية.

ومن الأمثلة على هذا الغرض ما خاطب به ابن سيّد اللص أبا جعفر ابن سعيد معتذراً متنصلاً مما نُسب إليه:

ولا غرو أن تعفو وأنت ابن من غدا ... تعوّد عفوا عن كبار الجرائم
لكم آلَ عمار بيوت رفيعة ... تُشيَّد من كسب الثنا بدعائم
إذا نحن أذنبنا رجونا ثوابكم ... ولم نقتنع بالعفو دون المكارم
وإنّك فرع من أصول كريمة ... ولا تلد الأزهارَ غيرُ الكمائم
وإنّيَ مظلوم لزور سمعته ... وقد جئت أرجو العفو في زِيّ ظالم[27]

ولا بن سعيد المتعذَر إليه في هذا النصّ، ما يعتذر فيه إلى من دعاه إلى مجلس أنس، «بعارض قاطع»[28]. وله أيضاً قصيدة يستعفي فيها أباه لمّا «اتخذه وزيراً، واستنابه في أموره»، وفيها يعتذر برغبته في قضاء شبابه في اللهو، لا في تحمّل أعباء الوزارة[29].

---

(27) م.ن. - 194/4.

(28) م.ن. - ص: 191.

(29) م.ن. - ص: 180.

حـ- الدعوة:

يـجد المتتبّع لإخوانيّات هـذه الفـترة جملـة مـن القصـائد والمقطّعـات نُظمـت في دعـوة الأصدقـاء إلى مجالس أنس ونحوهـا. وتعكس هـذه النصـوص مـا عُـرف عـن الأندلسيّـين مـن إقبـال علـى المتـع[30]، وحـرص علـى توفـير المكـان المناسـب لهـا من طبيعة جميلة ونحوها، وذلك لتتمّ سعادتهم.

ويُخيَّلُ إلينا أن تلك القطع كانت بمثابة البطاقات المستخدَمة في عصرنا، ولكنّها تفضلها بلغتها الشعريّة التي تعكس ترفهم الأدبيّ.

ومـن أمثلـة ذلـك قـول ابـن سـعيد مسـتدعيا «أحـد أبنـاء الرؤسـاء إلى يوم اجتماع»:

تـداركنا فإنّـا في سـرور ... وما بسـواك يكتمـل السّـرورُ
أهلّـة أنسـنا بـك في تمـام ... أليس تتـمّ بالشمس البدور؟[31]

وللرصافيّ البلنسيّ أبيات يدعو فيها خليلا له إلى مشاركته نزهـة وسـط طبيعة جميلة، يقول فيها:

دعـاك خليـل والأصيـل كأنّـه ... عليـل يقضّـي مـدّة الرمـق البـاقي
إلى شطّ مناسب كأنك مـاؤه ... صفـاء ضمير أو عذوبـة أخـلاق
ومهوى جنـاح للصَّبا يمسح الرّبـى ... خفـيّ الخـوافي والقـوادم خفّـاق
وفتيـان صدق كالنجـوم تـألّفوا ... علىالنّأي مـن شتّى بـروج وآفاق...[32]

وإذا كانت كثرة هذه الرقاع المنظومة تدلّ على عادة أصبحت راسخـة،

---

(30) ربّما كان الإشبيليّون أكثر الاندلسيّين تهافتاً على المتع، وتهالكاً على اللّذات، حتى أصبح المثل «يُضرَب بهم... في الخلاعة، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة»(م.ن. -1/159).

(31) م.ن. - 186/4.

(32) ديوان الرصافي البلنسي- م.س. - ص :112-113.

وتقليد غدا متبعا[33]، فإن المتتبّع للإخوانيات في الشعر الأندلسيّ يجد أنّ ذلك غير جديد، وإنّما تعود نشأته إلى الفترات السابقة[34].

ط - الشكوى، والمؤاساة:

كثيرا ما يجأر الإنسان بشكواه إلى من يطمئن إليهم من أقاربه وأصدقائه، علّه يجد لديهم دفعاً للضرر أو مؤاساة به. ولم تخل إخوانيّات هذه الفترة من ذلك. ولعلّ أحسن مثَل على الشكوى والمؤاساة ما سبق الوقوف عنده من شكوى أبي عمر ابن حربون، ومؤاساة صديقه الرصافيّ البلنسي. فقد خاطب ابن حربون الرصافيّ في قصيدة شاكيا إليه حرمانه وكساد بضاعته، فراجعه الرصافيّ مؤاسيا مُنحيا باللاّئمة على الذين تخلّوا عن صاحبه، حاثّا إياه على القناعة والتعفّف، صيانةً لماء الوجه[35].

ومن أمثلة المؤاساة قول أبي جعفر ابن سعيد مؤاسيا أباه لما سجنه عبد المؤمن، وذلك في أبيات استهلّ بها رسالة له إليه، يقول في مطلعها:

مولاي إن يحبسك خير خليفة   فبذاك فخرك واعتلاء الشانِ[36]

---

(33) انظر: نموذجا آخر، لمرج الكحل، في: ابن إدريس -م.س. -ص:70-71.

(34) من الأمثلة على ما نُظم من تلك الرقاع في عصر المرابطين: قول أبي بكر ابن القبطرنه مستدعيا صديقا له إلى مجلس شراب:

دعاك خليلك واليوم طلّ   وعارض خدّ الثرى قد بقل
لقدرين فاحا وشمّامة   وإبريق راح ونعم المحل
ولو شاء زاد، ولكنّه   يُلام الصديق إذا ما احتفل

(ابن خاقان: قلائد العقبان -م.س. -ص:51).

(35) انظر: ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:131-132.

(36) المقّريّ: نفح الطّيب -م.س. -4/189.

ي- تناول شعراء هذه الفترة في إخوانيّاتهم موضوعات أخرى، نحاول ذكر بعضها فيما يلي:

- الإعراب عن الفرحة بلقاء الأصدقاء: ومن الأمثلة عليه ما قاله ابن حزمون عندما لقي صفوان بن إدريس[37]، وما قاله أبو عبد الله ابن عيّاش عند اجتماعه ببلديّه أبي الحسن ابن حريق[38].

- النصح والإرشاد: ويمثّله ما قاله الرصافي البلنسيّ ناصحا صديقه ابن كسرى بتقديم تحصيل العلم وتأخير نظم االشعر[39]، وما نصح به صفوانَ بن إدريس أبوه من إخفاء «محاولاته» الأولى في نظم الشعر[40].

- الطلب، وتلبيته: ومن الأمثلة عليهما ما كتبه ابن هرودس إلى ابن سعيد طالبا منه شيئا ألغز فيه، فلبّى ابن سعيد طلبه حالاً لغزه[41].

- استعارة الكتب وإعارتها: وقفنا على قصيدة للخطيب أبي الربيع يجاوب فيها أبا محمد البكريّ، أرسلها إليه مع كتاب البلاذري «فتوح البلدان» الذي طلبه منه، وفيها ينوّه بالكتاب وطالبه[42].

-تصحيح أخطاء: كتب أبو محمد البكريّ في أبياته التي وجّهها إلى الخطيب أبي الربيع طالبا كتاب البلاذري، كلمه «مضنّة» بظاء، ثمّ تذكّر ذلك بعد خروج الأبيات عنه فكتب إلى أبي الربيع ببيتين طالبا منه تصحيح الخطإ، فأجابه ببيتين مطمئنا

(37) انظر: م.ن. -ص:107-108.

(38) انظر :م.ن. -ص:136.

(39) انظر: ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -ص:78-79.

(40) انظر: ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:154.

(41) انظر: المقّريّ: نفح الطِّيب -م.س. -201/4.

(42) انظر: البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص:158.

إياه بأنّه قد فعل[43].

هذا، ويمكن أن نُدخل في هذا اللون ما كان بين شعراء هذه الفترة من إجازات واستجازات[44]، كما يمكن أن تنضوي تحته جملة من الرقاع التي تبادلها ابن سعيد وحفصة والتي أوردنا بعضا منها في الفصل المعقود لشعر الغزل.

---

(43) انظر: م.ن. -ص:158-159.

(44) انظر: ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص :87؛ البلفيقي : م.ن. -ص:155-156؛ المقّري: نفح الطيب -م.س. -197/4 وما بعدها.

الفصل العاشر

فنون أخرى

1-الفخـــــر :

عرف الفخر في الشعر الأندلسيّ، قبل عصر الموحّدين، أهم الأنواع التي عرفها صنوه في المشرق نتيجة لتنوّع البواعث على النظم فيه. وإذا كان قد ازدهر في فترة الولاة وعصر الإمارة نتيجة للظروف التي كان المجتمع الأندلسيّ يعيش فيها، فإن دائرته قد ضاقت قليلاً بعد ذلك. ثم إذا كان الفخر بالجماعة هو السائدَ في بداية الأمر، فإنّ الفخر بالنفس هو الذي غلب بعد ذلك[1].

وقد ظلّ الأمر كذلك في الفترة الأولى من عصر الموحّدين : فجلّ النماذج التي تمكّنا من جمعها تندرج في نطاق الفخر بالذات والتمدّح بفضائل النفس.

ولعلّ من البواعث على غلبة هذا النوع : ماكان يهدف إليه أصحابه من بلوغ المكانة التي يطمحون إليها. ولربّما أحسّ بعضهم بإغفالٍ أو قلّةِ اعتبار في ذلك المجتمع الذي اهتزّت فيه كثير من القِيَم بحكم ما أصاب ظروفَه من قلق. ولعلّ ما نجده في بعض النصوص من امتزاج بين الفخر والشكوى -على تباينهما- أن يكون دليلاً على مذهبنا في تعليل غلبة الفخر بالذات.

وإلى جانب ما قد كان هنالك من بواعث عامّة، نُلفي إشارات إلى بواعث خاصّة من تحدّ واستفزاز وغيرهما. وقد كان ذلك وراء جمع بعض النصوص بين الفخر والهجو، على نحو ما نجد في أبيات الرُّصافيّ البلنسيّ التي مرّت بنا في موضع آخر،

---

(1) من أفخر شعراء الأندلس قبل عصر الموحّدين الحَكَم بن هشام الملقّب بـ« الرَّبَضي». ومن أشهر ما خلّف في غرض الفخر: عينيّته التي نظمها بعد انتصاره على أهل «الرَّبَض» الذين ثاروا عليه. ومن قوله فيها :

رأبتُ صدوع الأرض بالسيف راقعًا وقِدْماً لأمتُ الشّعب مذ كنت يافعا

(أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها ـ تحقيق إسماعيل العربيّ ـ الجزائر ـ المؤسّسة الوطنيّة للكتاب ـ د.ط. ـ 1989م. ـ ص :167).

والتي فخر فيها بقصيدة له وأنحى بهجائه على منتقدها، وذلك في امتزاج عكس الشعورين اللذين كانا ينتابانه معاً : اعتزازَه بفنّه،وسخطه على الطاعن فيه.

وسنتناول بالحديث -فيمايلي- ما عرف شعر الفخر في هذه الفترة، من أنواع وما يتضمّن كل نوع من ألوان :

أوّلا -الفخر بالنفس :

يلتقي الباحث في شعر هذه الفترة عدّةَ نصوص تندرج ضمن الفخر بالنفس، ولكنّها تناولت عدّة جوانب أو موضوعات، ولذلك نصنّفها ضمن الألوان التالية :

ا- فخر عدد من الشعراء بجملة من الصفات و الأخلاق، كالشجاعة والعفّة وغيرهما. وردّدوا عددا من معاني السابقين في ذلك. ومن الأمثلة على هذا اللون ما قاله أبو مروان وليد بن إسماعيل الغافقي متمدّحا بشجاعته :

لعمر أبيك الخير إنّي لكاتب ... ولكن صدور الدارعين القراطسْ
أخطّ بخطّيّ وأشكل بالظّبا ... فيقرأه الأمّيّ والليل دامس
لئن قالت الكتّاب :إنّيَ كاتب ... فقد قالت الفرسان :إنّيَ فارس[2]

وكان انحطاط مكانة العالم باعثا لأبي بكر ابن المرخي على أن يُبدي رغبته في هجر العلم، وترفّعَه عن تحصيله صونا لنفسه ممّا صار إليه العلماء من « انتقاص ». يقول مفتخرا في لهجة ناقدة :

سأهجر العلم لا بغضا ولا كسلا ... حتّى يُقال ارعوى عن حبِّه وسلا
ولا أمرّ ببيت فيه مسكنه ... كي لا يمثّل شوقي حيثما مثلا
...قد كان عندي زعيم القوم عالمهم ... فاليوم عندي زعيم القوم من جهلا
ما إن رأيت الذي يزداد معرفة ... إلا يزيد انتقاصا كلّما كملا[3]

---

(2) البلفيقي : المقتضب ـ م.س. ـ ص : 90.

(3) م.ن.ـ ص :177.

وتقترب هذه الأبيات من تلك الأبيات المشهورة التي قالها القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني مفتخراً؛ وفيها يستنكر ما آلت إليه مكانة العلم والعلماء من تدنّ، عائداً بذلك إلى سلوك العلماء أنفسهم[4].

وإذا كان من الطبيعيّ أن تفخر المرأة بجمالها، فإنّ شاعرة الأندلس في هذه الفترة حفصة بنت الحاج الركونيّ قد ضربت في ذلك بأوفر سهم. ويكفي أن نُعيد إلى الأذهان من ذلك التمدّح قولَها مُغرية صاحبها ابن سعيد :

زائر قد أتى بجيد الغزال ... مُطلع تحته جنحه للهلال
بلحاظ من سحر بابلَ صيغت ... ورضاب يفوق بنت الدّوالي
يفضح الورد ما حوى منه خدّ ... وكذا الثغر فاضح للآلي[5]

وحفصة، بفخرها هذا، تعدّ -وإن بالغت- امتداداً لشاعرة الأندلس في القرن السابق، ولاّده بنت المستكفي : ففي شعرها -هي أيضاً- فخر بجمالها وتمدّح بحسنها[6]؛ كما تلتقي حفصة بذلك الفخر، معاصرتَها نزهون بنت القلاعي[7].

(4) من قوله فيها،مما يقترب من قول ابن المرخي :

ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي ... لأخدم من لاقيت لكن لأُخدَما
أأشقى به غرساً وأجنيه ذلّة؟ ... إذاً فاتّباع الجهل قد كان أحزما !

(5) ابن سعيد ـ المغرب ـ م.س. ـ 139/2.

(6) من ذلك قولها في تلك الأبيات التي عاتبت فيها ابن زيدون،متّهمة إيّاه بجاريتها :

وتركتَ غصناً مُثمراً بجماله ... وجنحت للغصن الذي لم يُثمرِ
ولقد علمت بأنني بدر السّما ... لكن ذُهبت، لشقوتي،بالمشتري

(ابن بسّام :الذخيرة ـ م.س. ـ 432/1/1).

(7) من قولها في الفخر بمحاسنها ما أجازت به قول أبي بكر الكُتنديّ مخاطباً أستاذها أبا بكر المخزوميّ الأعمى :

وإذا كان التشرّد والانعزال من البواعث على الشكوى لما فيهما من معاناة، فإنّ من الناس من يرى غير ذلك. بل إنّه قد يتمّدح بما يتحقّق له في تلك الحال. ومن الأمثلة على ذلك ما قاله أبو العباس ابن جرج عندما اختفى حذرا من إدخاله مع ابن رشد وأصحابه في المحنة التي أصابتهم، إذ كان يردّد «في أنسه بنفسه، وفقده في تلك الحال مُلائمه من أهل جنسه» :

إذا كان أُنس الناس بالناس لم يكن   أنيسي سوى نفسي وماهو من نفسي
أيؤنسني شيء سواها، وبعض ما   أشاهد فيها عالما الحسّ والقدس؟ (8)

وقد يأتي هذا اللون من الفخر ضمن قصائد تناولت أغراضاً أخرى. ومن ذلك ماورد في قصيدة لأبي جعفر ابن سعيد يصف فيها يوماً خرج فيه مع أصحابه إلى الصيد، وقد ختمها فاخراً على مخدومه أبي سعيد بن عبد المؤمن، حيث يقول متمدّحا بحرّيته وانطلاقه، وأنَفَنه من خدمة من يراه دونه :

وما كنت إلا طوعَ نفسي فهل أُرى   مُطيعا لمن عن شأو فخريَ قد نقصْ؟ (9)

وقد اختلط هذا اللون -كما أشرنا- كثيراً بالشكوى. ولعلّ جنوح الشاعر إلى الفخر أثناء شكواه ممّا يخفّف عنه شدّة معاناته. وقد مرّت بنا نماذج من هذا الشعر في الفصل الذي عقدناه لشعر الشكوى. ولنقتطف هنا -للتمثيل- بعض ما جاء في تلك النصوص. ففي النصّ الذي يشكو فيه ابن الواعظ

= لوكنت تبصر من تجالسه
إذ قالت لما أفحم أستاذها :

لغدوت أخرس من خلاخله
البدر يطلع من أزرّته   والغصن يمرح في غلائله
(المقّري : نفح الطيب -م.س. -298/4).

(8) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة -م.س. -281/1/1.

(9) المقّري : نفح الطيب -م.س. -ص :181.

مُقـامه ببلدتـه « أَلْش » وجدناه يفخـر بغـلاء قيمتـه فيقـول :

شروني رخيصا ليس يدرون قيمتي وقد تُشترى الأعلاق بالثمن البخسِ (10)

وفي أبيـات ابن حجـاف نقف على تعـزّيـه مفتخـرا إذ يقـول :

كفاني :أن تصاقبني المعـالي؛ وإن عـاديتِنـي يـا أمّ دَفْـرِ (11)

وقـد أبدى ابـن صـاحب الصـلاة تـرفّعـه عن دار نَبَتْ به، وإبـاءه البقـاءَ بيـن أُنـاس جفـوه، فـأعلن عـزمـه عـلى الـرحـلة صـونـاً لنفسه. يقول :

ففي الناس صحْبٌ إن جفانيَ صاحب وفي الأرض قُطْر حافـل إن نبا قطرُ

...ورحلة أهل الفضل عن أهل بلـدة شهيدٌ بنقص فيهمُ ولهـا خسـر (12)

ونختـم هـذه الشـواهد بمـا أنهى بـه أبـو إسـحاق التطيليّ تلـك القصيـدة الذي ذكر فيها عماه، حيث يقول واصفـاً حالة خاصّة عاشها : فقرطبة التي نمته وليداً أنكرته كبيراً، وإشبيلية التي نبغ فيها، جفته تعصّاً لبنيها وحسداً لجارتها :

إن تجفُ حِمْص فتجفو غير ذي رَحِم تعصّبـاً لبنيهـا فيــه، إذ مجـدا

وغاظهـا أن رأت إنجاب ضـرّتهـا ومـن رأى كـرما في نـدّه حقـدا

فإن نمتنـي وليـداً داز قــرطبـة وأنكـرتني وسنّي قـد وفى رشـدا

فعـــذرهـا أنّ أمّ الليث تُـرضعـه شِبْـلاً، وتمنـع منه دَرّهـا أسدا (13)

ويتبـيّن مـن هـذه النمـاذج وغيرهـا أن شـعراء الأندلـس في هـذه الفـترة لم يكـادوا يخرجـون في هـذا اللون مـن الفخـر عمـا ألفناه في الأشعار الـتي نُظمت قبلهـم في هـذا الغـرض.على أنّنـا لا نتهّمهـم في صـدق التجـارب الـتي عـبروا عنهـا بسبب ذلك التـوافق وحـده .

(10) البلفيقيّ : المقتضب ـ م.س. ـ ص :116.

(11) ابن الأبّـار : التكمـلة ـ م.س. ـ 834/2.

(12) البلفيقيّ : المقتضب ـ م.س. ـ ص :122.

(13) م.ن. ـ ص :80-81.

ب - فخر عدد من الشعراء بأدبهم وأشادوا بفنّهم، نتيجةً لبواعث مختلفة. فمنهم من بعثه انتقاد غيره إيّاه على ذلك الفخر،كما هو شأن الرصافي في بعض ما قال في هذا اللون؛ ومنهم من أراد ترويج « بضاعته »، كما هي حال بعض المتكسّبين بشعرهم؛ ومنهم من كان غروره من وراء اعتزازه وتمدّحه...

ويبدو أنّ الرُّصافيّ البلنسيّ أهمّ القائلين في هذا اللون. وعلى أنّه كان خليقاً بأن يعتزّ بفنّه : إذ كان شاعرَ زمانه المعترَف له بالإجادة، فإنّ هناك بواعث على ذلك الاعتزاز. ولدينا عدّة أمثلة من شعره تندرج في هذا اللون ، وإن كانت مختلفة البواعث.

ومن هذه الأمثلة:ما ورد في القصيدة التي راجع بها أبا الحسن ابن لبّال الشّريشي. وفي ذلك ينوّه بقصائده أو أبياته:فهي خيل « عِراب مُحجّلة غُرّ »، وهي « حليٌ مُحكمات تُخجل الأنجم الزّهر »، وهو -كما يقول أناس- « لو رفع قصيدة لأدرك -حتما- في الزمان بها أمراً »؛ ولكن الأهمّ من ذلك في فخره هو تمدّحه بالتعفّف عن التكسّب بشعره، واعتزازُه بكونه يملك « وسائل التخليد »[14]. ومن هنا كان فخره مستساغاً، لأنه تعبيرٌ عن موقف، وبيانٌ لمبدإ. ولقد مرّ بنا بعض هذه الأبيات في موضع آخر، ولكنّا نوردها هنا كاملة لأهميّتها في هذا الفصل، ولتتّضح الصورة جيداً. يقول الرصافيّ :

فلو لم تكن تُمسي مشارب خاطري ... كما شاءت الدنيا معكّرة كُدْرا
لأصدرتُها عنّي نتائج منجب ... عراباً، كما تدري، مُحجّلة غُرّا
على أنّني لا أرتضي الشعر خطّةً ... ولو صيّرت خضراً مسارحيَ الغبْرا
كفى ضَعَةً بالشعر أن لست جالبا ... إليّ به نفعاً ولا رافعاً ضُرّا
يقول أناس : لو رفعتَ قصيدة ... لأدركت حتما في الزمان بها أمرا

(14) ديوان الرصافي البلنسيّ - م.س. - مقدّمة المحقّق - ص :17.

ومن دون هـذا غيـرة جـاهليّة ... وإن هي لم تلزم فقـد تـلزم الحـرّا
ألـم يأتهم أنـي وأدت بحكمهـا ... بُنيّات صدري قبل أن تبرح الصّدرا؟
متى أرسلتْ أيدي الملوك هبـاتِها ... ولم يُوصلوا جاهـا ولم يُجزلوا ذخـرا
فقد ســرّني أنّي حرمت عـلاهم ... حليٌ محكمات تُخجل الأنجم الزّهرا[15]

ولقـد سبق أن وقفنا عند تلـك الأبيـات الـتي يفخـر فيهـا بقصيـدة لـه، ويهجو ذلك الذي انتقدها. ومما جاء فيها من فخره : أنها عقـد مـن سبع وعشـرين دُرّة، وأنّ كـؤوس رحيقها تُدار علـى الدنيـا، وأنّهـا شمـس مُشـرقة، وأنّ أبياتهـا لآلئ برّاقـة، وأنّهـا روض ملْؤه الريـاحين وشقـائق النُعمـان...

وللرصافيّ في خواتم بعض مدائحه تمـدّح وفخر[16]، لا يختلفان عمّا نجده في كثير مـن قصائد المديح، ولكـنّ ما قاله في النصّين السابقين -ولاسيما الأول- أهمّ ما ورد له في هذا اللون.

ويذهب صفوان بن إدريس مذهب الرصافيّ في الفخر بتنزّهه عن التكسّب بالمدح فيقول مُنكراً على نفسه إذالةَ فنّه بمدح من يراهم « كلاباً » :

ولست أذيـل بـالمدح القوافي ... ولا أرضـى بخطّتهـا اكتسـابا
أأمـدح مـن بـه أهجو مديحي؟ ... إذاً طيّبتُ بـالمسـك الكلابـا
سأخزنها عـن الأسمـاع حتّـى ... أردّ الصمـت بينهمـا حجابـا
فلست بمـادح مـا عشتُ إلا ... سيوفـا أو جيـادا أو صحابـا

وينهي القصيدة -وهي مراجعـة عن كتـاب لصـديق له- بقوله :

بعثت إليـك مـن نظمـي بـدرّ ... شققتُ عليه مـن فـكري عُبابـا
عداني الـدهر أن يلقاك شخصي ... فأغنى الشعر عن شخصي ونابـا[17]

(15) م.ن. - ص :76-77.

(16) انظر :م.ن. - ص :62.

(17) ابن الخطيب : الإحـاطة - م.س. - 353/3.

ويربط في موضع آخر، بين نبوغه وجمال طبيعة بلده فيقول:

هنالك بين الغصن والقَطْر والصَّبا   وزهر الربى ولدت آدابيَ الغرّا
إذا نظم الغصن الحيا قال خاطري   تعلّمْ نظام النثر من ههنا شعرا
وإن نثرت ريح الصَّبا زهر الربى   تعلّمت حلّ الشعر أسبكه نثرا[18]

وكان المادحون كثيراً ما ينهون -كما أشرنا- قصائدهم منوّهين بها، حتى كاد ذلك يدخل عند بعضهم في خطّة بناء المدحة. والأمثلة على ذلك كثيرة. و«مما استحسنه الناس» منها ما جاء في آخر داليّة أبي جعفر الوقّشي التي مدح فيها أبا يعقوب يوسف حاثّا إياه على الجهاد، حيث يقول:

حملتُ إليه من نظامي قلادة   يلقّبها أهل الكلام قصيدا
غدت يوم إنشاد القريض وحيدة   كما قصدت في المعلوات وحيدا[19]

ولعلَّ من أفضل ما قاله شعراء الفترة في الفخر بالأدب: قول أبي بكر ابن قزمان، وذلك لاعتماده الصورةَ وسيلةَ بيان، ولجنوحه إلى الحكمة. يقول:

يُمسك الفارس رُمْحا بيد   وأنا أمسك فيها قَصَبَهْ
فكلانا بطل في حربه   إن الأقلام رماح الكتبه[20]

إنَّ فخر الشعراء بأدبهم وتمدّحهم بفنّهم لون بارز من ألوان الفخر بالنفس في تلك الفترة. ولعلّ الباعث الأساسيّ عليه: رغبة الشاعر في أن يُعترَف له بالإجادة، تلك القضيّة التي شغلت غير ما فنّان في غير ما عصر[21].

---

(18) م.ن. - ص: 355.

(19) المقّري: نفح الطيب -م.س. -478/4.

(20) البلفيقي: المقتضب -م.س. -ص: 96؛ ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -497/2.

(21) لعلّ من الذين شغلتهم قضيّة الاعتراف لهم بالإجادة: الشاعرين البحتريّ وابن الرّوميّ. فأما الأول فكان يطلب ممن يُنشدهم شعره استحسانه (انظر: ابن رشيق: العمدة -م.س -204/1)،

جـ - نظم بعض الشعراء في هذا الغرض ما أجروه على ألسنة بعض الأشياء. من ذلك ما قاله أبو مروان وليد ابن صبرة الغافقيّ على لسان قوس:

تألّفت من عظم وعود كأنّني ... هلال وعند النزع بدر تمام
فبي تُدرَك الأشياء يوم كريهة ... إذا بعدت عن ذابل وحسام
وإن ردّ عن روح حساما وذابلا ... دِلاصٌ فما تسطيع ردَّ سهامي
كأنّ سهامي لحظُ عَفْراء في الوغى ... وكلّ كَمِيّ عُرْوة بن حزام[22]

ثانيا- الفخر بالجماعة:

يُلاحَظ أن البواعث التي تدفع إلى الفخر بالجماعة، كالعصبية وما إليها، كانت محدودة، ولذلك قلّ هذا النوع من الفخر، إذ لم نقف إلاّ على نماذج قليلة منه، يندرج جلّها في إطار الفخر بالشجاعة أو الكرم. من ذلك ما قاله أبو بكر ابن وزير «يخاطب منصور بني عبد المؤمن وقد التقى هو وأصحابه مع جماعة من الفرنج فتناصفوا، ثم كان الظّفر للمسلمين»:

ولمّا تلاقينا جرى الطعن بيننا ... فمنّا ومنهم طائحون عديدُ
وجال غرار الهند فينا وفيهم ... فمنّا ومنهم قائم وحصيد
فلا صدر إلاّ فيه صدر مُثقَّف ... وحول الوريد للحسام ورود
صبَرنا ولا كهف سوى البيض والقنا ... كلانا على حرّ الجلاد جليد
ولكن شددنا شدّةً فتبلّدوا ... ومن يتبلّد لا يزال يحيد
فولّوْا وللسّمر الطوال بهامهم ... ركوعٌ وللبيض الرقاق سجود[23]

=وأما الأخر فممّا قاله معبّرا فيه عن رغبته في تقدير إبداعه، هذا البيت:

شعري شعر إذا تأمّله الـ ... إنسان ذو الفهم والحجا عبده

(ديوان ابن الروميّ -تحقيق حسين نصّار-القاهرة -الهيئة المصريّة العامّة للكتاب -د.ط. -1974م. -743/2).

(22) البلفيقيّ: المقتضب - م.س. - ص: 91.

(23) المقّريّ: نفح الطيب - م.س. - 465/4.

وإذا كان ابن وزير يفخر بشجاعة المسلمين واستماتتهم في القتال، ويتمدّح بالنصر الذي حققوه على أعداء أقوياء، فإنّ أبا مروان وليد بن إسماعيل ابن صبرة الغافقيّ يفخر بكرم آله وبأسهم، فيقول من قطعة بدأها فاخراً بنفسه :

...من آل صبرة قِدْما قد سمعتَ بهم

شُحب إذا سئلوا أُسد إذا صالوا[24]

إن غلبة الفخر بالذات على هذا الغرض قد يعكس ما يمكن أن يكون قد أصاب المجتمع الأندلسيّ من تحوّل نحو النزعة الفرديّة، إذ لم يعد الفرد كما كان في الفترات الأولى قويّ الشعور بالانتماء إلى الجماعة، شديد التعصّب لها.

2- الاستنجاد :

كانت الظروف التي عاشتها الأندلس في المراحل الأخيرة من تاريخها من وراء نشأة شعر الاستنجاد والاستغاثة وتطوّره. فقد ذهب الأندلسيّون -عندما احدودق بهم الخطر- يستصرخون بشعرهم إخوانهم من وراء البحر. وإذا كان غرض الاستنجاد قد ازدهر في الشعر الأندلسي ابتداء من القرن السابع الهجريّ، وخلّف الشعراء فيه روائع، منها ما قاله ابن الأبّار البلنسيّ في استنجاد الحفصيّين[25]، وما نظمه ابن الخطيب في الاستغاثة بالمرينيّين[26] -فإنّ بواكير هذا الفنّ قد ظهرت في الفترة الأولى من عصر الموحّدين، بل قبلها.

ويقف المتتبّع لما نظمه شعراء هذه الفترة في الاستنجاد والاستغاثة، على ثلاثة ألوان أساسيّة: ما أرسله الأمير أبو يعقوب مستنجداً أباه علي ابن مردنيش، وما قاله بعض شعراء الأندلس مستغيثين بالخلفاء الموحّدين، ثم ما نُظم في الاستعانة بالقبائل العربيّة في عمليّة الجهاد التي كان الموحّدون يخوضونها بالأندلس.

---

(24) البلفيقيّ : المقتضب - م.س. - ص :90.

(25) انظر :ديوان ابن الأبّار - م.س. - ص :33، 119، 151، 205، 267، 395.

(26) انظر :ديوان الصَّيِّب والجَهام، والماضي والكَهام - م.س. - ص :543.

فمن اللون الأول ما نظمه أبو العباس ابن سيّد المالقيّ بأمر من الأمير أبي يعقوب يوسف والي إشبيلية على عهد أبيه، وذلك عندما ألحّت على الموحّدين فتنة ابن مردنيش. يقول ابن سيّد على لسان أبي يعقوب مستنجداً بعبد المؤمن :

إليكم أميرَ المؤمنين توجّهت — بنا الرغبات الجمّ يحثّها جهدُ
لعلّ عياناً منكمُ لعبيدكم — وقُربا لكم منهم يُدال به البعد
فقد عضّهم ناب من الكفر معضل — وكانوا بكم دهراً وأنيابه دُرْد
بكم يعصم الله العليّ جميعهم — بكم تعظم الآمال بل يكثر الرّفد
بكم يعتلي الإسلام شرقاً ومغرباً — فللّه فيها دائبا ولك الحمد[27]

إنّ هذا اللون من شعر الاستنجاد يعكس -على قلّته- ما كانت تمثّله حركة محمد ابن مردنيش من تهديد للوجود الموحّديّ بالأندلس، إذ لم يكتف ابن مردنيش بشرق الأندلس الذي بسط عليه كامل نفوذه، وإنّما أصبحت حملاته تصل إلى قلب ما صار خاضعا للموحّدين. فقد كان الباعث على أن يرسل أبو يعقوب إلى أبيه مستغيثا « أنّ إبراهيم بن هَمُشْك صهر ابن مردنيش نازل قرطبة ودمّر زرعها وقطانيها»، وقتل حافظها وشيخها[28].

ومن اللون الثاني ما ورد في قصيدة لأبي بكر ابن المنخّل الشِّلْبي قالها في مدح الخليفة أبي يعقوب بمناسبة بيعته. وقد استغلّ الشاعر هذه المناسبة لينبّه الخليفة إلى ما كانت تعانيه منطقة « شِلْب» التي ينتمي إليها، من عدوان، فقال مستغيثاً به :

ياروضةً للآملين وجنّة — تدعو بحيّ على الندى مماحها
إن الأعادي لا تزال كعهدها — تورى بشِلْبِ مَغارها وكفاحها

---

(27) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المنّ بالإمامة - م.س. - ص :128-129.

(28) انظر :م.ن. - ص :126-127.

قد غيّضت أنهارها وتحرّقت ‏ أشجارها وتكفّأت أقداحها
كلفت بها أعداؤها حتّى لقد ‏ أخذوا عليها نجدها وبطاحها
ماضرّنا أن غلّقوا ما حولها ‏ إن كان سيفك بعدها مفتاحها
وأنا الزعيم إذا أشرت بلحظة ‏ أن تستردّ عداءها وطماحها
فعلى سيوفك أن تبيد كماتها ‏ وعلى جيوشك أن تروّح ساحها[29]

ويدلّ هذا النص وأمثاله على ماكانت تتعرّض له المناطق الحدودية من غارات النصارى. ولم يكن الموحّدون -فيما يبدو- قادرين على توفير الحماية الكافية لكل تلك المناطق، لاسيما في عهد عبد المؤمن وبداية عهد يوسف. وربّما كان من أسباب ذلك العجز انشغالهم بحركة ابن مردنيش، فضلا عما كان يشغلهم في المغرب.

وإذا كان ابن المنخّل الشلبي يستغيث لمنطقة ما تزال في قبضة المسلمين، فإنّ أبا جعفر الوقّشي يستنجد الخليفة أبا يعقوب، لما صار إلى النصارى من أجزاء الأندلس حاثًا إياه على الجهاد لافتكاكها. ففي قصيدة مدح فيها أبا يعقوب يتطرّق إلى وصف حال تلك الأجزاء وصفاً مؤثراً قاصداً به إثارة حميّة الخليفة. يقول:

ألا ليت شعري هل يمدّ لـيَ المدى ‏ فأُبصر شمل المشركين طريدا
وهل بعدُ يُقضَى في النصارى بنصرة ‏ تغادرهم للمرهفات حصيدا
ويغزو أبو يعقوب شنْتَ ياقُبٍ ‏ يعيد عميد الكافرين عميدا
...ويفتكّ من أيدي الطغاة نواعما ‏ تبدّلن من نظم الحجول قيودا
وأقبلن في خشن المسوح وطالما ‏ سحبن من الوشي الرقيق برودا
وغبّر منهن التراب ترائبا ‏ وخدّد منهنّ الهجير خدودا[30]

ثم ينتهي إلى إبداء حزنه وأسفه لما حدث.

(29) م.ن. - ص: 244-245.
(30) المقّري: نفح الطيب - م.س. - 478/4.

ويعدّ هذا النص -بما تضمنه من وصف لانتهاك الحرمات، وفي مقدّمة ذلك إذلال الأعداء لنساء المسلمين -فاتحة لنصوص كثيرة، نُظمت ابتداء من القرن السابع، يبرز فيها ذلك الوصف إثارةً للحمية. وفي طليعة تلك النصوص سينيّة ابن الأبّار البلنسيّ[31] ونونيّة أبي البقاء الرُّنْدي[32]، وإن كانت الأولى في الاستنجاد والثانية في الرثاء.

ومن اللون الثالث القصيدتان اللتان نظمهما أبو بكر ابن طفيل وابن عيّاش، بأمر من الخليفة أبي يعقوب، في الاستغاثة بالقبائل العربيّة المقيمة بالمغرب الأوسط وإفريقية.

وقصيدة ابن طفيل هي أولاهما. قال ابن صاحب الصلاة ممهّداً لإيرادها، ملخّصاً أهمّ ما ورد فيها: «وفي هذه المرة استدعى [أبو يعقوب] العرب وخاطبهم بهذه القصيدة... يحرّضهم فيها إلى الجهاد، ويستدعيهم إلى الغزوة العظمى التي في نيته بأوفر الاستعداد، ويصفهم فيها بما هم فيه من الشهامة والزعامة، ويستدنيهم غاية الاستدناء، ويناديهم غاية النداء، ويستقربهم بالقربى التي تجمعهم في قيس عيلان، وأنهم السيف الماضي في نصر الدين وحمايته، وقمع المارقين، ودفع الكافرين»[33].

يبدأ ابن طفيل قصيدته داعيا القبائل العربية إلى الاستعداد لغزو الأعداء، مؤكّدا دعوته بكون تحقيق الآمال موقوف على الأبطال، فيقول:

أقيموا صدور الخيل نحو المغاربِ ... لغزو الأعادي واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكي العاديات على العدى ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تُقتنى الآمال إلاّ من القنا ... ولا تُكتب العليا بغير الكتائب

(31) انظر: ديوان ابن الأبّار البلنسي - م.س. - ص: 395-400.
(32) انظر: المقّري: نفح الطيب - م.س. - ص: 486-488.
(33) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة - م.س. - ص: 411.

ولا يبلــغ الغايــاتِ إلاّ مصمّــــم		على الهول ركّابٌ ظهورَ المصاعب
يرى غمرة الهيجاء أعــذب مشــربٍ		وإن أعرضت زرقـا جمام المشـارب
ويـأنف إلاّ مكســبا من حســامه		ويعرض عــزّا عن جميـع المكـاسب

ولـيُثير شعورهم الدينـيّ، يذكّرهــم بمـا قدّمـوه نصـراً للإسـلام وتمكينــاً لـه، فيقول من ذلك :

لكــم قبّـة للمجـد شـدّوا عمادهـا		بطاعـة أمـر الله مـن كـلّ جـانب
وقومـوا لنصـر الديـن قومـه ثـائر		وفيئـوا إلى التحقيـق فيئـة راغــب
...بكم نُصر الإسلام بدأً، فنصره		عليكم، وهـذا عـوده جدُّ واجـب

وفي التنويـه بمكـانتهم إغـراء لهـم يذكـر أنهـم حظـوا بمـا لم يحـظ بـه غـيرهم: فالنبيّ والمهدي والخليفة منهم . يقــول:

وقـــد جعـــل الله النـــبيَّ وآلـــه		ومهديّـه منكـم بـلا عيـب عـائب
وفـزتم بتخصيـص الخليفــة بعــده		ونسبته الدنيــا بزُلْفــى الأقــارب
وطائفــة المهــديّ منكــم، وإنهــا		لتحنـو عليكـم باتصـال المناســب
ومن ذا الذي يسمو ليبلغ شأوكم		إذا كنتم فـوق النجــوم الثــواقب؟

ويواصل ابن طفيل قصيدتـه جامعـا بـين الحـضّ والتنويـه والإغـراء والتحذيـر. وينهيها واعدا بحسن النتيجـة فيقــول :

وتظهـر أحــوالٌ يروق سمــاعها		فيرغب في أمثالها كلّ راغب(34)

وكانت قصيدة ابن طفيل طويلة بسبب ما فيها مــن إلحــاح، رغبـة في أن تلبّـي القبائل العربيّة دعوة أبي يعقوب. بيد «أنّ العرب تأخروا قليلا، فخاطبهم يسـتعجلهم، ويذكرلهم نيته العازمة على الجهاد ويسترحلهم»، وذلك بقصيدة أخرى نظمهــا كاتبـه

(34) م.ن.ـ ص: 411-415.

ابن عيّاش[35]. وهي دائرة على جلّ ماورد في قصيدة ابن طفيل، من تحريض على الجهاد، وتنويه بالعرب، وإغراء بما ستنجلي عنه هذه الغزوة من حسن النتائج.

يقول في مستهلّها محرّضاً :

أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وشدّوا على الأعداء شدّة صائل

...فما العزُّ إلا ظهر أجرد سابح ... تموت الصَّبا في شدّه المتواصل

وأبيض مأثور كأنّ فرنده ... على الماء محبوك وليس بسائل

ويقول في الإشادة بأهمّيّة الغزوة التي عزم عليها الخليفة أبو يعقوب :

تعالوا فقد شدّت إلى الغزو نيّة ... عواقبها مقصورة بالأوائل

هي الغزوة الغراء والموعد الذي ... تنجّز في أفق المدى المتطاول

بها تُفتح الدنيا بها تُبلَغ المنى ... بها ينصف التحقيق من كل باطل

عزمنا وأمر الله لابدّ واقعٌ ... على وقعة تودي بدين الفياصل

ويختم قصيدته مغريا إياهم بما سيحقّقونه من مكاسب إذا ساهموا في الغزوة المذكورة، فيقول :

فما همّنا إلاّ صلاح جميعكم ... وتسريحكم في ظلّ أخضر هاطل

---

(35) نسب عبد الواحد المراكشي هذه القصيدة إلى الخليفة عبد المؤمن (انظر :المعجب -م.س.- ص :160)؛ ونسبها ابن صاحب الصلاة إلى ابن عيّاش (انظر :تاريخ المنّ بالإمامة -م.س.-ص :415). وقد رجّحنا قول ابن صاحب الصلاة لأمرين. أولهما :أن ابن صاحب الصلاة كان مُقرَّبا من البلاط الموحّدي حين كتب تاريخه، بينما كتب عبد الواحد المراكشيّ كتاب « المعجب» في المشرق، وبعد مدة من هذا الحدَث؛ والأمر الآخر : أنّ الذي استدعى القبائل العربيّة هو الخليفة أبو يعقوب. انظر :ابن صاحب الصلاة :م.ن.- ص :411. هذا إلى شك بعض الباحثين في نسبة هذه القصيدة إلى عبد المؤمن. انظر :م.ن. - ح :1.

وإلى جانب الأشعار التي تندرج في الاتجاهين السابقين نُلفي نصوصاً أخرى لا تدخل ضمن ذلك التصنيف، منها -مثلا-: ما قيل في التعصّب للأندلس، وما نُظم في الصراع الإسلاميّ الإسبانيّ.

4- الحكم والنصائح :

إذا كان بعض النظريّات النقديّة الحديثة يذهب إلى أنّ الأدب بشكله لا بمضمونه، وأنّ الشاعر شاعر بما يقول لا بما يحسّ أو يفكر[50]، فإنّ المضمون الفكريّ له أهميّة في بعض النتاج الشعريّ حتى ليصحّ تصنيف الآثار الشعرية إلى نوعين: نوع يقوم على الشكل، ونوع يقوم على المضمون. ومن هذا النوع شعر الحكم والنصائح وما إليها.

والحكم والنصائح من أغراض الشعر العربيّ العريقة، برزت في شعر زهير ابن أبي سُلمى وطرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة وغيرهم من الجاهليّين؛ وفي شعر أبي العتاهية وصالح بن عبد القدّوس وأبي تمّام والمتنبّي وغيرهم من العباسيّين. ولقد كان المتنبّي شاعرَ الحكم الأكبر، لا بغزارة ما ترك من حكم منثورة في جلّ قصائده، وإنّما بعمق ما خلّف، وحرارته، وتحقّق سمات الشعرالخالد فيه.

أمّا شعراء الأندلس، فعلى الرغم مما يذهب إليه بعض الدارسين من بروزهم في هذا الغرض وتفوّقهم فيه على المشارقة[51]، فإنّ ما لدينا من نتاج لهم في ذلك قلّ منه

---

(50) يقول الناقد الفرنسيّ حان كُوهين : « فالشاعر، إنّما هو شاعر، بحكم مايقول، لابحكم ما يفكّر أو يحسّ. إنّه مبدع للألفاظ لا للأفكار؛ فكلّ عبقريّة إنّما تتجلّى في إبداع الكلام. إنّ الإحساس الخارق لا يُمكن أن يجعل من المرء شاعرا عظيما»(Structure du langage poétique -Paris-1966-p.42، نقلا عن : عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعريّ -بيروت-دار الحداثة للطباعة والنشر-الطبعة الأولى-1986م.-ص:17).

وقد سبق الجاحظ إلى القول بهذه النظريّة. انظر :م.ن - ص :16-17.

(51)ينظر :عبد العزيز عتيق :الأدب العربيّ في الأندلس -بيروت -دارالنهضة العربية- الطبعة الثانية -1396هـ. -1976م. -ص :211.

ما يرقى إلى مستوى ما ترك المشارقة. ومن أهم شعراء الأندلس الذين قالوا في الحكم والنصائح:يحيى بن حَكَم الغزال[52]، وعبد الملك الجزيري[53]، والأعمى التطيلي[54]. وقد عاش هؤلاء قبل عصر الموحّدين.

أما الفترة الأولى من ذلك العصر فقد خلّف شعراؤها جملة وافرة من الحكم والنصائح آثرنا أن نتناولها في حديث واحد، لتداخلها.

وهي في مجملها صادرة عن علماءِ دين، وهي تعكس النزعة الإصلاحيّة لأصحابها، وتُعتبَر شواهد على الاتجاه الأخلاقيّ في الشعر الأندلسيّ في تلك الفترة.

والمتتبّع لذلك النتاج يجد الحكم تتناول، في الغالب، حقائق الحياة وعلاقات الناس. ويُلفي النصائح تتّجه إلى تقويم السلوك،وتهذيب النفوس، والتنبيه على الأخطاء، وغير ذلك.

وإذا كنّا لا نجد شاعراً يُمكنه أن يقف إلى جانب كبار شعراء الحكمة في المشرق، كالمتنبّي مثلا، فإنّنا نجد من شعراء هذه الفترة من أهتمّ -بحكم نزعته الإصلاحيّة- اهتماما خاصّاً بالنصائح والحكم. فهذا ابن جُبَير نُلفيه معنيّا بها: ينظمها طوراً،ويرسلها منثورة طورًا آخر[55].

---

(52) ينظر :أحمد هيكل :الأدب الأندلسيّ - م.س. - ص :165-167؛إحسان عبّاس :تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة - م.س. - ص :166-169.

(53) له قصيدة مشهورة، قالها في سجنه، أورد فيها كثيراً من النصائح.انظر : إحسان عبّاس : م.ن.ص :101-103.

(54) انظر :ديوان الأعمى التطيليّ - م.س. - ص :52،84،110،219.

(55) أورد ابن عبد الملك وابن الخطيب جملة من حكم ابن جبير المنثورة. من ذلك قوله : « ... فربّ كلمة تُقال، تُحدث عثرة لا تُقال؛ كم كست فلتات الألسنة الحداد، مَن وراءها من ملابس الحداد ». (ابن عبد الملك :الذيل والتكملة - م.س - 608/2/5؛ ابن الخطيب :الإحاطة - م.س. - 238/2).

وقد وردت الحكم والنصائح التي أمكن الوقوف عليها في أبيات مفردة أو في مقطوعات قصيرة جدّاً. ولم نجد من شعراء هذه الفترة من نظم نصوصا طويلة في هذا الغرض، كما فعل صالح بن عبد القدّوس وأبو العتاهية وغيرهما، ولا من خصّص جزءاً طويلا من قصيدة له لذلك، على نحو ما نرى عند زهير ابن أبي سُلمى وعبد الملك بن إدريس الجزيري، وغيرهما. وقبل أن نحدّد جملة من خصائص هذا النتاج، نورد نماذج منه، فيمايلي، أمثلة على مضامينه، وبيانا لاتجاهاته.

فلعبد المنعم بن مظفّر الجلياني حكمة تنبّه إلى أنّ إكرام الفرد لنخوته وإهانته لخسّته ليسا من الأمور المطّردة، وإنما قد يقع عكس ذلك أحيانا. يقول:

قد يُكـرَم الفرد إعجابا بخِسّتـه وقد يُهان لفرْط النّخْوةِ السّبُعُ(56)

ولابن مرج الكحل حكمة استقاها مما رآه أو عاناه، يقول فيها مصوراً موقف الرزق من طالبه، وموقفه من الراغب عنه:

مَثَل الرزق الـذي تطلبـه مثل الظلّ الذي يمشي معَكْ

أنـت لا تدركـه مُتّبعـا فإذا ولّيت عنـه تبِعكْ(57)

ويتضمّن قول أبي الفضل عبد المنعم الجلياني حكمة مفادها: هوان قيمة الأشياء النفيسة عند جاهليها. يقول مؤكّدا ذلك بصورة طريفة:

فأبخس شيء حكمة عند جاهل وأهون شخص فاضل عند ظالم

فلو زُفّت الحسناء للذئب لم يكن يرى قربها إلا لأكل المعاصم(58)

ويبيّن أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الذاكوني - في أبيات حكميّة- أن ما يبلغه المرء من فضل وسؤدد لا علاقة له بلونه، فيقول مستشهداً على هذه الحقيقة:

---

(56) ابن سعيد :الغصون اليانعة - م.س. - ص :107.

(57) المقّري :نفح الطيب - م.س - 54/5.

(58) البلفيقي :المقتضب - م.س. - ص :143.

لا تشهدنّ لـغربيب ولا يَقـق حتى تشاهد فضلا غير مردود
بكلّ لون ينال الـحـرّ سؤدده مهمـا تجرّد من أخلاقه السّـود
والناس لفظ كلفظ العود مُشترك لكن يُرجّح بين العود والعـود
أما ترى المسك حُقُّ العاج يخبؤه والجِصّ مطّرح فوق القراميـد
ولم يبـال ابن عمـران بأُدْمَته حين اصطفاه كليما خيرَمعبـود[59]

وقد تناولت النصائح أموراً شتّى، لا يمكن حصرها. على أنّها تجتمع كلّها في قصدها إلى إفادة من وُجّهت إليه. فأبو بكر ابن ميمون العَبْدريّ ينصح بعدم الاكتراث بفراق الأوطان: فقد ينال المرء سعوده في أوطان أخرى:

لا تكترث بفراق أوطان الصِّبا فعسى تنال بغيرهنّ سُعـودا
فـالدرّ يَنظَم عند فقد بحاره بجميل أجياد الحسان عقودا[60]

وأبو العبّاس ابن الصقر الأنصاريّ ينصح بمصانعة الأعداء عند الاضطرار إلى استرضائهم مؤكّدا نصيحته بوصف سلوكه مع عـدوّه:

أَرضِ العـدوّ بظـاهر متصنّـع إن كنت مضطراً إلى استرضائِهِ
كم من فتى ألقى بوجه باسم وجوانحي تنقدّ من بغضائه[61]

ويمكن، من تتبعنا لما خلّفت هذه الفترة من حكم ونصائح، أن نخرج بالملاحظات التالية:

ا – من مصادر الحكم وما إليها: التجارب الكثيرة، والثقافة الواسعة، والتأملّ الطويل في حقائق الحياة وتصرّفات الناس؛ وأعمق الحكم ما كان وليد مصادر عدّة. وإذا كان من الصعب تحديد مصادر جميع الحكم التي وقفنا عليها

(59) م.ن. ـ ص :162-163.
(60) ابن فرحون :الديباج المذهب ـ م.س.ـ ص :302.
(61) م.ن.ـص :50؛ البلفيقي :المقتضب ـم.س.ـص :102؛ ابن الخطيب :الإحاطة ـم.س.ـ192/1.

من شعر هذه الفترة، فإنّنا نلمس في كثير منها وغيرها من النصائح أثر الثقافة الدينيّة بصفة خاصّة . فقد كان كثير من شعراء هذه الفترة ذوي ثقافة دينيّة إلى جانب ثقافتهم الأدبيّة،فجاء «شعرهم شعر أدباء وفقهاء تشرّبوا كثيرا من كتب الأدب والتفاسير القرآنيّة والأحاديث النبويّة، فلا يستطعون أن يقولوا شعرا دون أن يُشيروا ويلوّحوا إلى معلوماتهم الأدبيّة والدينيّة »[62]. ولعلّ هذا الأثر أن يكون أوضحَ في حكم ابن جُبير ونصائحه. وإلى جانب أثر الثقافة الدينيّة نجد أثر بعض الثقافات الأخرى. ففي قول أبي جعفر أحمد ابن جبير، والد المذكور، نلمس أثر الثقافة الفلسفيَة، وذلك حين يُشبّه النفس بالجوهر، والمال بالعَرَض، فيقول:

لا تكـثـرثْ لِعِلّـة   واصبر، وفي الله العوضْ
وإذا سلمت فـلا يكـن   لك في حطامك من غرض
فالنفس عندي جوهـر   والمال عندي كالعرض[63]

وإذا كان من شأن الثقافة أن تعمّق الحكمة، فإن الغالب على ما وقفنا عليه من نتاج هذه الفترة: البساطة والسطحية. ولعلّ ذلك عائد إلى أنّ كثيرا من القائلين في هذا الغرض لم يُوفّقوا إلى مزج ما عاشوه من تجارب بما حصّلوه من ثقافة.

ب - إذا كان الغالب على الحكم والنصائح البرودة والجفاف، والخلوّ من عنصر الإحساس، فإنّ هذه قاعدة غير مطّردة فيما وقفنا عليه من نتاج هذه الفترة. فكم نصّ ينبض بالإحساس، وينبجس منه شعور صاحبه:سخطاً، أو استياء، أو إعجابا، أو غير ذلك . ففي قول أبي الفضل الجلياني يتجلّى استياؤه لإهدار القيم، ويتبدّى سخطه على الجاهل والظالم بما فعلا، ويَقرنهما بالذنب بجامع الجهل بقِيَم الأشياء؛ وفي ذلك ما حفظ للحكمة حرارتها وأبعدها عن البرودة والجفاف؛ **وفي**

---

(62) عبد القادر محداد : زاد المسافر،لابن إدريس - المقدّمة - م.س. - ص :6-7.

(63) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة - م.س - 10/1/1.

قـول أبي بكر ابن قُزمان نلمس الإعجاب بالكرم، لما يعود به من جميل الثناء على صاحبه. وقد ساعدت الصورة الجميلة على إبراز ذلك الإحساس، وتحقيق ما يقتضيه النصّ الشعري من «مائيّة»، حتى بدا تفاوتٌ واضح بين البيت الأول والبيت الثاني. فأين قوله:

كثيرُ المال تبذله فيَفنى وقد يبقى من الذكر القليلُ

من قوله :

ومن غرست يداه ثمارَ جود ففي ظلّ الثناء له مَقيل[64]

وإلى جانب هذه النصوص، نجد نصوصا أخرى يطبعها ما ذكرناه من البرودة والجفاف. ومنها كثير من نصائح ابن جبير، كقوله:

عليك بكتمان المصائب واصطبر عليها فما أبقى الزمان شفيقا[65]

وقوله :

من الله فاسأل كلّ شيء تريده فما يملك الإنسان نفعا ولاضرّا[66]

إذ لم يستطع أن يرقى بهما عن الوعظيّة، ويرفعهما عن التعليميّة،وما إلى ذلك مما لا يقبله جيّد الشعر.

جـ - نلاحظ عندما نتتبّع شعر الحكم والنصائح في هذه الفترة تقليدا لبعض حكم المشارقة ونصائحهم. وقد يبلغ التناصّ بين النصّ الأندلسيّ والنصّ المشرقيّ درجة تتجاوز النظر إلى المعنى، والتأثّر بالمضمون . فقول أبي بكر ابن قزمان السابق يبدو مستوحىً من قول حاتم بن عبد الله الطائي :

أماويّ إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ[67]

---

(64) البلفيقي : المقتضَب - م.س. - ص : 95.

(65) ابن عبد الملك : الذيل والتكملة - م.س. - 612/2/5.

(66) م.ن. - ص :613.

(67) ديوان حاتم الطائيّ -بيروت -دار بيروت للطباعة والنشر -د.ط.-1394هـ-1974م.-ص :50.

وقول أبي الفضل الجلياني « فأبخس شيء حكمة...» لا يبتعد عن قول المتنبي :

ومن يك ذا فم مُرّ مريض   يجدْ مراً به الماءَ الزُّلالا

على أنّ من تلك الحكم والنصائح ما يبدو جديداً لم ينظر فيه أصحابه إلى «نموذج» سابق. ولعلّ قول ابن مرج الكحل، السابق، في بيان موقف الرزق من طالبه وموقفه من الراغب عنه أن يكون من هذا الصنف. ومِثْله في «الجدّة» قول عبد المنعم بن المظفر الجلياني، السابق: « قد يُكرَم الفرد إعجابا بخسّته...». على أن ما قد يعدّ جديداً حقّاً هو ما أكّد به بعض الشعراء ما قالوه من حكم ونصائح، من صور طريفة جميلة. كقول أبي بكر ابن ميمون مؤكداً نصحه بعدم الاكتراث لفراق أوطان الصِّبا:

فالدرّ يُنظَم عند فقد بحاره   بجميل أجياد الحسان عقودا[68]

وكقول أبي الفضل الجلياني مُؤكّدا هوان القيم عند جاهلها:

فلو زُفّت الحسناء للذئب لم يكن   يرى قربها إلاّ لأكل المعاصم[69]

ومثل ذلك قول ابن فتّوح الخثعميّ مؤكّداً دعوته إلى التواضع:

فخفِّضْ الفتى نفسَه رِفْعَة   له واعتبرْ برسوب الذهب[70]

ثم قول أبي الحكم ابن غَلِنْده ناصحاً بتعظيم الصغار:

وعظّم صغير القوم وابدأ بحقّه   فمن خِنْصَري كفّيك تبدأ بالعدّ[71]

د - تمتزج الحكم والنصائح في كثير من النصوص بأغراض أخرى كالشكوى والهجاء وغيرهما. ويعود ذلك إلى أن القائل كان يُرسل الحكمة أو يوجّه النصيحة

---

(68) ابن فرحون :الديباج المذهب - م.س. - ص :302.

(69) البلفيقي :المقتضب - م.س.- ص :143.

(70) ابن الخطيب :الإحاطة - م.س. - 480/3.

(71)البلفيقي :المقتضب - م.س.- ص :124.

وهـو شـاكٍ أو سـاخط، أو غـير ذلـك. فقـول أبـي القاسـم ابـن نـوح التـالي، قـد جمع بين النصح والهجاء. فهو ينصح بعدم غبْط الغنيّ ويسترسل في هجوه:

لا تغبطن كلّ موفور الغنـى ... مشـتملا ملابـس العظمـه
يلمـز لا بسـبب إلاّ بمـا ... يحويـه مـن أكياسـه المفعمـه
فا لله قد أخبر عن أمثالـه ... وقـال في آياتـه المحكمـه:
« يحسب أن ماله أخلـده ... كلاّ لينبذن في الحطمـه»[72]

وقد تكون الحكمة أو النصيحة تمهيدا لغرض آخر كالمدح والهجـاء والشكوى وغيرهما، على نحو ما نجد في نصّ ابن محفوظ الشريف، الذي مرّ بنا. فقد استهلّه ناصحا بالطُّموح وعدم القناعة بالقليل، فقال:

رِدِ المَجَرَّةَ نهـرًا إن ظمئـتَ ولا ... تقنع ببَرْض من الآمال أو ثَمَدِ
ولا تقل: ليس لي ذات أسود بها ... فإنّ هـذا قياس غير مطّـرد

ثم هجا القاضي الشاطبي[73].

هـ - يعكس بعض ما قيل في الحكم والنصائح عدداً من العيـوب الـتي كـانت متفشّية في المجتمع الأندلسيّ على ذلـك العهد. فقـول ابـن الصّقر الأنصـاريَ ناصحا بالمصانعة ليس إلا دليلاً على سيادة النفاق؛ وقول أبي عمران المارتليّ ناصحا بالابتعاد عن الشـهادة والوساطة والأمانـة، مـع مـا في هـذه الأمـور مـن منـافع اجتماعيـة، ليس إلاّ برهانا على ما أصبح يتورّط فيه صانع الخـير، ممـا بعث الشاعر على إساءة الظـنّ بالناس جميعًا؛ وهل ما حذّر منه الشعراء من صفات أخرى قبيحـة، أو نصحـوا به من خلال محمودة، إلا دليلٌ على شيوع جملة من الأخلاق الذميمة؟

و- إذا كـان شـعراء هـذه الفـترة قـد أرسلوا حكمهـم ووجهـوا نصـائحهم

(72) البلفيقي :المقتضب - م.س. - ص :176.
(73) م.ن. - ص :146.

في أبيات مفردة أو مقطّعات قصيرة، ولم يقفوا عليها قصائد كاملة أو أجزاء طويلة من قصائد، فإنّ ذلك لا نعتبره -إذا أخذنا برأي الجاحظ في صنيع صالح ابن عبد القدّوس- عيباً، بل هو على عكس ذلك.فالحكم -في رأي الجاحظ- تزيّن الأشعار إذا تفرّقت فيها[74]. والحق أن تجميع الحكم والنصائح في قصيدة واحدة يجعلها -بحكم المنزع العقلي المسيطر عليها- جافّة باردة. وحسبنا أن نقارن بين « ذات الأمثال » التي حشد فيها أبو العتاهية كثيراً من حِكَمه، وبين ما كان يُرسله المتنبّي في قصائده من حكم مفردة ، لندرك صحة قول الجاحظ.

5 ـ نظم العلوم والفنون :

يلاحظ المتتبّع للتراث الأندلسيّ أن للأندلسيين اهتماماً خاصا بنظم العلوم والفنون، حتى يُمكن الجزم بأنهم ما تركوا فرعاً من فروع المعرفة إلا جمعوا حقائقه في كلام منظوم. وذلك حتى يتيسّر على الطالب التحصيل ثم التذكّر.

ولم تخرج هذه الفترة عن غيرها من عصور الأدب الأندلسيّ. فقد خلّف علماؤها عدداً من المنظومات في جملة من العلوم، وصل إلينا بعضها، ولم تسجّل المصادر غير عناوين بعضها الآخر. وفيمايلي ذكر لبعض ما وقفنا عليه من تلك المنظومات، وعرض لنماذج منها.

ففي مجال علوم القرآن نظم -كما أسلفنا- أبو الحسن عليّ ابن البلنسيّ رجزا حسناً في هجاء المصحف سمّاه « المنصف » ، رفعه إلى الأمير الموحّدي الحسن ابن عبد المؤمن[75].

ومن المنظومات الفقهية:الأرجوزة المزدوجة التي نظمها أبو الربيع ابن حكم مضمّناً إياها مسائل «الخصال» الصغير للعبدي وأبوابه،

---

(74) ينظر :عبد العزيز عتيق :الأدب العربيّ في الأندلس - م.س.- ص :211.

(75) ابن عبد الملك :الذيل والتكملة -م.س.- 403/1/5.

وقد «شُهد له بالإجادة فيها»[76].

وفي ميدان اللغة وعلومها نذكر الرجز الذي نظمه ابن البلنسيّ في «فصيح ثعلب» ورفعه إلى الخليفة أبي يعقوب. ولم نقف إلّا على بيتين، من نهاية هذا الرجز، يقول فيهما الناظم:

فكمل المنظوم في شعبان   سنة سبع عدّ ذي بيان
من السنين بعدها ستّينا   من بعدها خمس من المئينا[77]

وقد نظم أبو عبد الله ابن القحّ « في ترتيب حروف العين وما أشبهه » المقطوعة التالية:

علقت حبيبا همت خيفة غدره   قليل كرى جفني شكا ضرّ صدّه
سبا زهوه طفلا ديانة تائب   ظلامته ذنب ثوى ربع لحده[؟]
نواظره فتّاكة بعميده   ملاحته أجرت ينابيع وجده[78]

ولمحمد بن هشام اللخمي أبيات «ضمّنها معاني " الخال " في كلام العرب على اختلافها»[79]، أوردها ابن عبد الملك المراكشيّ[80]، وأشاد بها مفضّلا إياها على غيرها، لقربها للحفظ، واقتدار منشئها على النظم[81]، وإن لم تُحط بكلّ معاني «الخال»[82].

---

(76) م.ن. ـ 64/4.

(77) م.ن. ـ 404/1/5.

(78) م.ن. ـ 673/2/5.

(79) م.ن. ـ 71/6.

(80) انظر :م.ن. ـ ص :71-72.

(81) انظر :م.ن. ـ ص :72.

(82) استدرك بعضهم على ابن هشام بعض تلك المعاني.انظر :م.ن.

ولأبي عبد الله محمد بن يوسف الغساني أبيات ذكر فيها طبقات أنساب العرب، ثم شرحها وأعطى أمثلة عليها، يقول فيها:

الشَّعْب ثُمّ قبيلة وعِمارة ... بطن وفخذ والفصيلة تابعه

فالشعب يجمع للقبائل كلّها ... ثمّ القبيلة للعمارة جامعه

والبطن تجمعه العمائر فاعلمن ... والفخذ تجمعه البطون الواسعه

والفخذ تجمع للفصائل هاكها ... جاءت على نسق لها متتابعه

فخزيمة شعب وإنّ كنانة ... لقبيلة عنها الفصائل شائعه

وقريشها تسمى العمارةَ يافتى ... وقُصَيّ بطن للأعادي قامعه

ذا هاشم فخذٌ وما عبّاسها ... إلاّ الفصيلة لا تُناط بسابعه[83]

ولعلّ أهمّ منظومة في الطب خلّفتها تلك الفترة: أرجوزة أبي بكر ابن طفيل التي نظمها «في الأمراض وعوارضها وعلاجها»[84]. وقد ساعد الحظ على وصولها إلى عصرنا، فلم يَعْدُ عليها الضياع كما عدا على كثير من المنظومات العلميّة التي ألّفها علماء الأندلس[85].

ونختم هذه القائمة بمنظومة أبي الحسن الأنصاري الجيّاني «شذور الذهب» في صناعة الكيمياء. وقد نوّه بعضهم بهذا العمل فقال: « إن لم يعلمك صناعة الذهب، علّمك صناعة الأدب »[86].

هذه جملة من المنظومات العلميّة التي خلّفها علماء هذه الفترة. وهي تعكس نزعة تعليميّة، لعلّنا لا نجد مثلها في المشرق. فكلّ عالم كان حريصا

(83) م.ن. - 348/6.

(84) ابن صاحب الصلاة :تاريخ المنّ بالإمامة - م.س - تعليق المحقّق - ص :411- ح :2.

(85) توجد نسخة من أرجوزة ابن طفيل في خزانة جامع القرويّين بفاس.انظر :م.ن.

(86) المقّريّ : نفح الطّيب - م.س. - 606/3.

على تسـهيل تحصيـل مادّتـه لطلاّبهـا. وإذا كـانت قيمـة هـذه الأعمـال فيـما تضمّنتـه من حقائق علميّـة، فـإنّ بعضهـا لايخلـو مـن قيمـة أدبيّـة. ولْنَعُـدْ إلى نـصّ ابـن القـحّ، في ترتيب حروف «العيـــن» ففيـه مـن تلـك القيمـة شـيء غـير قليـل. وإنّ مـا سبق أن أوردنـاه،مـن قـول بعضهـم في منظومـة الجيّـاني «شـذور الذهـــب» ، دليــل آخـر على أدبيّـة بعض هذه المنظومات، وشعريّة جملة مـن هذه الأعمــال.

الفصل الحادي عشر

الموشّحات و الأزجال

أشرنا، في موضع سابق من هذا البحث، إلى ما عرفته الموشّحات والأزجال في الفترة الأولى من عصر الموحّدين، من ازدهار. ونحاول في هذا الفصل بيان حال هذين الفنّين في تلك الفترة.

1- الموشّحات:

نشأ فنّ التوشيح في الأندلس في نهاية القرن الثالث الهجريّ، لأسباب اجتماعيّة وفنّيّة[1]. وإذا كان فضل الاختراع يعود إلى مقدّم بن معافى القبريّ أو محمد ابن محمود الضرير[2]، فإن هذا الفنّ قد عرف،بعد ذلك،عددا من الأعلام أسهموا في تطويره. وقد وصل إلى قمّة ازدهاره في عصر المرابطين الّذي أظلّ عددا من المبرّزين فيه. ورد في تاريخ ابن خلدون ما يلي: « ثم جاءت الحَلْبة التي كانت في دولة الملثّمين فظهرت لهم البدائع »[3].

ومن أشهر موشِّحي الأندلس قبل عصر الموحّدين :يوسف بن هارون الرماديّ[4] وعبادة بن ماء السّماء[5] ومحمد بن عبادة القزّاز وغيرهم .

---

(1) ينظر :أحمد هيكل: الأدب الأندلسيّ -م.س. -ص :147.

(2) يختلف المؤرّخون في اسم الموشّح الأوّل. فإذا كان بعضهم يذكر مقدّم بن معافى(انظر : المقّري: نفح الطيب -م.س.-5/7-6)، فإن ابن بسّام يذكر محمد بن محمود الضرير(انظر:الذخيرة -م.س.1 /1/469) .

(3) ص:1139/2.

(4) يذكر ابن بسّام مساهمته في تطوير الموشّحات، فيقول: «... فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز، يضمّن كلّ موقف يقف عليه في المركز خاصّة» (الذخيرة -م.س.-469/1/1).

(5) أشاد ابن بسام بفضله على فنّ التوشيح فقال : «وكانت صنعه التوشيح...غير مرقومة البرود، ولا منظومة العقود؛ فأقام عبادة هذا منآدها، وقوّم ميلها وسنادها؛ فكأنّها لم تُسمَع بالأندلس إلاّ منه، ولا أُخذت إلا عنه »(م.ن.-469/1/1).

ويقف الأعمى التُطيليّ ويحيى ابن بَقيّ علمين شامخين بين موشّحي الأندلس كلّهم[6].

وقد تناول الموشّحون قبل هاته الفترة، بعض أغراض القصيدة التقليديّة كالمدح والغزل وغيرهما.

وعلى أنّ الموشّحات قد ازدهرت منذ وقت مبكّر، فإنّ النّصوص الأولى منها قد ضاعت لأسباب مختلفة، منها موقف المؤلّفين من هذا الفنّ نفسه.

وقد واصلت الموشّحات ازدهارها وتطوّرها في الفترة الأولى من عصر الموحّدين.فظهر موشّحون كبار، وتنوّعت أغراض الموشّح، وصدرت فيه آراء نقديّة لها قيمتها وبدأ المؤلّفون يحتفون به في كتبهم...

فمن الموشّحين الذين أظلّتهم هاته الفترة :أبو جعفر أحمد ابن سعيد، وأبو الحسن ابن نزار، وعبد الرحيم ابن الفرس، وأبو عمرو ابن غياث، وأبو العباس أحمد ابن حَنُّون، وابن موهد الشاطبي، وابن غرلة،وأبو الحكم أحمد ابن هرودس، وأبو بكر أحمد ابن مالك، وأبو العبّاس أحمد الكساد، وأبو بكر محمد ابن زُهْر، وأبو الحسين ابن جبير، وأبو الحسن ابن حريق، وعليّ ابن حزمون، وسهل بن مالك، ومحيي الدين ابن عربيّ، وغيرهم.

بيد أنّ ما وصل إلينا من نتاجهم في هذا الفنّ لا يتجاوز، لبعضهم، الموشّحة الواحدة أو المقطع منها.

وقد أسهم كثير من هؤلاء الموشّحين في دفع عجلة تطوّر فنّ التوشيح إلى الأمام،وذلك بما أبدعوا في الأغراض التي تناولها سابقوهم، أو بما طرقوا من أغراض جديدة كانت حكرا، قبل هاته الفترة، على الشعر القريض، أو بما صدر عن بعضهم من أقوال تندرج في التنظير لهذا الفنّ ونقد نصوصه. وسنكتفي بالوقوف عند خمسة

(6) ورد في تاريخ ابن خلدون أثناء الحديث عن موشّحي الأندلس في عصر المرابطين ما يلي : «وسابق فرسان حلْبتهم :الأعمى التطيليّ، ثم يحيى بن بقيّ»(1139/2).

منهم « تركوا بصماتهم » حقاعلى هذا الفنّ، وشاركوا في تطويره، في بعض جوانبه على الأقلّ. وهؤلاء هم: ابن نزار، وابن زُهْر، وابن جُبَير،وابن حَزْمون، وابن عربيّ.

فأما ابن نزار فهو -فيما نعلم- أوّل من استخدم الموشّح لغرض الاعتذار. فقد كان ابن نزار هذا واحدا من جملة الذين تفرّقوا مُلْك الأندلس من رؤساء البلاد، لمّا دالت دولة المرابطين. ولكنّ أهل بلده «وادي آش» حسدوه وأعلنوا ولاءهم لمحمد ابن مَرْدَنِيش أمير شرق الأندلس، ورفعوا إليه ما كان يبثّه ابن نزار من أشعار، يفخر فيها بنفسه كقطعته التي يقول منها:

في أمّ رأسيَ ما يعيا الزمان به ... شرحاً فسل بعدها الأيامَ عن خَبَرِي

فأرسل إليه ابن مردنيش من حمله إليه مُقيَّدا. ثم اكتفى بعد أن استعطفه بسَجنه. فلبث في أسره مدّة صدرت عنه فيها أشعار صوّر فيها ما كان ينتابه من حنين إلى بلاده. ثم إنه «تحيّل في جارية محسنة للغناء حسنة الصوت، وضع لها موشحته التي أولها:

نازعك البدر اللياح ... بنت الدنان
فلم يدع لك اقتراح ... على الزمان

وفيها يقول:

يا هل أقول للحسود ... و العيس تُحدَى
يا لا ئمي على السراح ... كانت أماني
أخرجها ذاك السماح ... إلى العيان

وجعل يُلقيها على الجارية حتى حفظتها. وأحكمت الغناء بها. وأهداها إلى ابن مردنيش بعدما أوصاها أنّها متى استدعاها إلى الغناء وظفرت به في أطرب ساعة وأسرّها غنّته بهذه الموشّحة، وتلطّفت في شأن رغبتها في سراح قائلها، فلعلّ الله تعالى يجعل في ذلك سببا. واتّفق أن ظفرت بما أوصاها به، وأحسنت غناء الموشّحة، فطرب ابن مردنيش لسماع مدحه،وأعجبته مقاصدُ قائلها. فسألها :لمن هي؟ فقالت :

لمولاي عبدك ابن نزار، فقال: أعيدي عليّ قوله: «يالائمي على السراح» فأعادته، فداخلته عليه الرأفة والأريحيّة بما أصابه، فأمر في الحين بحلّ قيده، واستدعى به إلى موضعه في ذلك الوقت. فلمّا دخل خلع عليه وأدناه وقال له: قد أمرنا لك بالسراح على رغم الحسود، فارجع إلى بلدك مُباحاً لك أن تطلب الملك بها [كذا] وبغيرها إن قدرت. فأنت أهل لأن تملك جميع الأندلس لا وادي آش»[7].

هذه هي المناسبة التي نظم فيها أبو الحسن ابن نزار هذا الموشّح الذي لم نجد منه في المصادر المتيسّرة غير ما سبق. كذلك لم نقف فيها على موشّح آخر في الغرض الذي نظم فيه ابن نزار.

وإذا كان هذا الموشّح قد يدلّ على تلطّف ابن نزار في غرض يتطلّب لباقة خاصّة[8]، فإنّ القصّة تشير إلى جانب إنسانيّ في ابن مردنيش[9] لا يبدو في الصورة

---

(7) انظر: المقّري: نفح الطيب -م.س.-3/492/494.

(8) قلّما كان لأدب الاعتذار في الأندلس والمغرب ما يُرجَى منه. فأشعار الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي لم تؤثّر في ساحته المنصور محمد ابن أبي عامر (انظر: ابن بسّام: الذخيرة -م.س.-4/1/62-70)؛ ورسالة ابن زيدون «الجدّية» لم تُلن قلب آسره أبي الحزم ابن جهور، وبقي ابن زيدون في سجنه إلى أن تمكّن من الفرار (انظر: ابن سعيد: المغرب -م.س.-1/63-64)؛ وما قاله ابن عمّار -ومنه حائيّته الشهيرة- في استعطاف ابن عبّاد لم تكن له نتيجة، وبقي ابن عمّار في سجنه إلى أن قتله ابن عباد بيده (انظر: الفتح ابن خاقان: قلائد العِقيان -م.س.-ص:97-98)؛ ولم تكن نتيجة رسالة أبي جعفر ابن عطيّة «تالله لو أحاطت بي كلّ خطيئة...» بأحسن من نتائج ما سبق؛ ذلك أنّها لم يكن لها أيّ تأثير في عبد المؤمن بن عليّ الذي سجنه لأمر نقَمه عليه. وكانت النهاية أن أمر بقتله (انظر: ابن الخطيب: الإحاطة -م.س.-1/273-276). ومثل ما سبق كثير.

(9) انظر -أيضا- ما يرويه المقّري، بعد القصّة السابقة، ممّا دار في ذلك المجلس بين ابن مردنيش وابن نزار، من منادَمة، وما تمكّن بينهما من مطايبة، وغير ذلك.

الشائعة عنه في بعض الكتابات التاريخيّة[10].

وقد وصل لابن نزار موشّح آخر[11]، يصف فيه «ليلة وصل»، استهلّه بقوله:

إشرب علـــى نعمة المثاني ثانِ
ولا تكن في هوى الغواني وان
وقل لـــمن لام في معان عان
مـاذا من الحسـن في بــرودِ رود

وختمه قائلا:

و ليلة قد لثمت شـــاربْ شاربْ
سرّ فتى في علي المراتـــب راتب
فقلت والنجم في المغـارب غارب
يا ليـلة وصـل و السعـــود عودي[12]

وليس في مضمون هذا الموشّح شيء جديد، فالغزل والخمر من الموضوعات التي تناولها كثير من الموشّحين قبل هذه الفترة.

وأما أبو بكر محمد ابن زهر المعروف بالحفيد[13]، فهو أعظم موشّحي هذه الفترة وأشهرهم. وقد حظي بعناية المؤلّفين فترجموا له مشيدين به، وأوردوا في مؤلّفاتهم عددا من موشّحاته. وإن كان ما وصل إلينا لا يمثّل -فيما يبدو-

---

(10) انظر-بصفة خاصة- ما يذكره عنه ابن الخطيب في أعمال الأعلام -م.س. -261/2، وفي الإحاطة -م.س. -123/2-124.

(11) يُرْوَى هذا الموشّح -أيضا- لابن حزمون. على أنّه يبدو من الصيغة التي مهّد بها ابن سعيد لإيراده أنّه لابن نزار. انظر: المغرب -م.س. -147/2.

(12) م.ن.

(13) لُقّب بـ«الحفيد» للتفريق بينه وبين جدّه.

إلا جزءاًمن إبداعه في هذا المجال[14].

وتتناول موشّحات ابن زهر التي وقفنا عليها، في المصادر، الأغـراض التي كـثر النظم فيها قبل عصر الموحّدين كالغزل والمدح ووصف الخمر وتصوير محاسـن الطبيعة ومـا إليهـا مـن وصــف مجــالس الأُنــس الــتي أدار شـعراء الأندلـس حولهـا كثـيرا من نصوصهم.

وإذا كـان ابـن زهـر الحفيـد وقـف بعـض موشّــحاته علــى غــرض واحــد، فإنّ البعض الآخر قد تناول فيه أكثر من غـرض، مازجـا ذلـك -في أغلـب الحـالات- مزجا يدلّ على براعة وإتقان.

فمن الموشّحات التي وقفها على الغزل-وهو الغرض الذي أكثر من النظم فيه- تلك التي يقول في أولها :

صادنـــــي و لم يـدر ماصادا
شادن سبى الليـــث فانقادا
واستخفّ بالشمس أو كـادا
ياله قمر ضمّ بالغصــن أزراره   والحقـف زنّـاره

ويختمها بخرجة عامّية يقول فيها :

عليش حبيبي قطعـت الزيـارَة   وعينيـك سحاره[15]

ومـن الموشـحات الـتي جمـع فيهـا بـين الغـزل وذكـر الخمـر موشـحه المشـهور

---

(14) كان بعض الموشّحين مكثرا :فابن بقي-مثلا-نظم ما يُنيف علـى ثلاثـة آلاف موشـحة (انظـر : عماد الدين الإصفهانيّ: خريدة القصر -م.س.-2 /237). ولا نعتقد أنّ ابن زهر كان له مثل هذا العدد الـذي تبدو عليه المبالغة، ولكنّا نظنّ أنه كان من أغزر موشّحي فترتنا نتاجا.

(15) ابن الخطيب: جيش التوشـيح -تحقيـق هـلال نـاجي -تونـس -مطبعـة المنـار-د.ط. -1967م.- ص:210- 212.

الذي نسبه بعضهم إلى عبد الله بن المعتز[16]؛ ومطلعه :

أيّها الساقي إليك المشتكَى قد دعوناك وإن لم تسمع[17]

ومن الموشّحات التي جمعت بين أغراض ثلاثة، هي وصف الطبيعة والخمر والغزل، تلك التي يقول في مطلعها :

حسب الخليع ملجا روض على غدير و قهوة مداره أنفاسها عبير[18]

وإذا كان ابن زهر مكثرا في الغزل -كما أسلفنا- فإنّه كان مقلّا في المدح. ومن الأمثلة على ما قاله في هذا الغرض موشّحة له استهلها بمقدّمة غزليّة طويلة على عادة الموشّحين في إطالة هذه المقدّمات. يقول في أولها:

جـنت مُقل الغـزلانِ جنايا الشَّمـول
عـلى عالم الإنسـان جيلا بعد جيـل

ثم ينتقل إلى مدح الأمير الموحّديّ أبي حفص، فيقول :

يا بن الناصر المنصورْ يا بن المجد أجمعْ
أنت الأمن للمذعور ممـا يتوقّع
فكم جَذِل مسـرور يقولُ و يسمع :
أبـو حفص هُ سلطـاني الله يـحـرزولي
هُ آمَـنِيّ هُ أغنـاني هُ بلّغنِ سُـولي[19]

(16) ينظر: مصطفى عوض الكريم: فنّ التوشيح -بيروت -دار الثقافة -الطبعة الثانية -1974م.-ص:94-97، 141.

(17) انظر: ابن الخطيب: جيش التوشيح -م.س.-ص :202-204.

(18) انظر: م.ن.-ص :196-197.

(19) ابن سعيد: المغرب -م.س. - 1/ 275.

ولم يكن أبو بكر ابن زهر موشّحا كغيره فحسب، و إنّما كان ذا حاسّة مرهَفة يدرك بها الإبداع المتميّز في هذا الحقل. ومن الأدلّة على ذلك:ما صدر له من أقوال في بعض ما أبدع أساطين هذا الفنّ في الأندلس .

ومن ذلك:ما ذكره الأعلم البَطَلْيَوْسيّ من أنّه سمعه « يقول : كلّ الوشّاحين عيال على عبادة القزّاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم	شمس ضحى	غصن نقا	مسك شم
ما أتم	ما أوضحا	ما أورقا	ما أنم
لا جرم	من لمحا	قد عشقا	قد حرم »[20]

ومن ذلك ما ذكره الأعلم البطليوسيّ أيضا من أنّه سمعه كذلك « يقول : ما حسدت قطّ وشّاحا على قول إلا ابن بقي حين وقع له :

أما ترى أحمد	في مجده العالي	لا يُلحَق
أطلعه المغرب	فأرنا مثله	يا مشرق»[21]

ومن ذلك ما كان يبديه من إعجاب بموشّحة أبي بكر محمد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي المعروف «بالأبيض» التي يقول فيها :

ما للّذي شرب راح	على رياض الأقاح
لولا هضيم الوشاح	إذا انثنى في الصباح
أو في الأصيل أضحى يقول:	ما للشمول لطمت خدّي
أو للشمال هبّت فمال	غصن اعتدال ضمّه بردي[22]

وقد ظلّ إعجابه بما يقع للموشّحين من إحسان في بعض ما ينظمون حتى آخر

---

(20) المقري: نفح الطيب -م.س.-6/7.

(21) م.ن.-ص :7.

(22) ينظر: مصطفى عوض الكريم: فنّ التوشيح -م.س. -ص :132.

حياته. ذكر ابن سعيد أنّه سمع سهل بن مالك «يقول: إنّه دخل على ابن زهر، وقد أسنّ، وعليه زيّ البادية، إذ كان يسكن بحصن سبتة، فلم يعرفه. فجلس إليه حيث انتهى به المجلس. وجرت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشّحة وقع فيها:

كحل الدجى يجري	من مقلة الفجر	على الصباح
ومعصم النهر	في حلل خضر	من البطاح

فتحرّك ابن زهر، وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبر. قال: ومن تكون؟ فأخبره. فقال: ارتفع، فوالله ما عرفتك»[23].

وإذا كانت الأقوال السابقة أدلّة على ما كان يتحلّى به هذا الفنّان الكبير من إنصاف لشركائه في نفس المجال الإبداعيّ، وشهادات لهم بالبراعة والتفوّق، فإن آخر تلك الأقوال يدلّ على أن ابن زُهْر كان فنّ التوشيح متأصّلا في قريحته، متمكّنا من طبيعته، فلازمه إلى أن جفّ عوده.

على أنّ ابن زهر الذي كان يُعجَب بما يقع لغيره من إحسان في هذا الفنّ، لم يكن يغمط حقّه من ذلك الإحسان. قال ابن سعيد «وسمعت أبا الحسن سهل ابن مالك يقول: قيل لابن زهر: لو قيل لك: ما أبدع ما وقع لك في التوشيح؟ فقال: كنت أقول:

ما للمولّه	من سُكْره لا يفيق	ياله سكران
[من غير خمر	ما للكئيب المشوق	يندب الأوطان]
هل تُستعاد	أيامنا بالخليج	و ليالينا
إذ يُستفاد	من النسيم الأريج	مِسْك دارينا
و إذ يكاد	حسن المكان البهيج	أن يحيّينا
نهر أظلّه	دوح عليه أنيق	مؤنق فينان

(23) المقّري: نفح الطيب ـم.س.ـص :9.

و السماء يجري   و عائم و غريــــق   من جنى الريحان »[24]

وليس لنا -وقد عرفنا إنصاف ابن زهر واعترافه بإجادة غيره- أن نطعن في رأيه في موشّحه. ولعلّ رأي الفنّان في فنّه أن يكون أصحّ من رأي غيره فيه.

على أنّ العلماء قد كفوه تقديرَ قيمة مساهمته في فنّ التوشيح،فأجمعوا على التنويه بإجادته والإشادة بتبريزه. فهذا عبد الواحد المراكشيّ يقول، بعد أن نوّه بشعره عامة : «وأما الموشّحات فهو الإمام المقدَّم فيها، وطريقته هي الغاية القصوى التي يجري مَن بعده إليها؛ هو آخر المجيدين في صناعتها »[25]؛ وذاك ابن دِحْية تلميذ ابن زهر يشيد بأستاذه قائلا : «والذي انفرد به شيخنا، وانقادت لتحليته طباعه، وصارت النبهاء فيه من خوله وأتباعه[26]؛ الموشّحات». ثم ينوّه بالموشّحات، هذا الفنّ الذي أبدعه الأندلسيّون وبرّز فيه شيخه،فيقول: «وهي زبدة الشعر ونخبته، وخلاصة جوهره وصفوته؛ وهي من الفنون التي أغرب بها أهل المغرب على أهل المشرق، وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق »[27]. وقد اختار ابن سعيد لابن زهر عددا من الموشّحات، ووصفها بـ « الحسن ». وقال مشيرا إلى تبريزه واشتهار موشحاته: « وسابق الحَلْبة التي أدركت[28] هو أبو بكر ابن زهر. وقد شرّقت موشّحاته وغرّبت »[29] ومما قاله ابن الخطيب في التنويه بابن زهر : « وأبدع في التوشيح وأغرب

---

(24) م.ن. -وفيه « الكئيب »، وهو خطأ.

(25) المعجب-م.س.-ص :63.

(26) ينبغي أن تكون حركة العين في كلّ من «طباعه » و «أتباعه » واحدة، ليتحقّق السجع الذي أراده ابن دحية.

(27) المقري: نفح الطيب -م.س.-250/2.

(28) لم يدرك ابن سعيد ابن زهر، لأنّ الأول ولد سنة 610 هـ،والآخر توفي سنة 595هـ.وهو -فيما نظنّ- يروي قول غيره.

(29) المقّري: نفح الطيب -م.س.-9/7.

... فجاء توشيحه يرفّ رونقه، ويشفّ ألقه »[30]. وذهب ابن أبي أُصيبعة إلى أنّ موشّحات ابن زهر «من أجود ما قيل في ذلك »[31]. ومِثْل هذا التنويه نجده عند آخرين[32]. وهو دليل على منزلة متميّزة لابن زهر بين موشّحي الأندلس، لم يحظ بها إلا عدد قليل منهم، كمحمد بن عبادة القزّار والأعمى التُّطِيلي ويحيى بن بَقِيّ، وغيرهم.

ونختم حديثنا عن توشيح ابن زهر بالنادرتين التاليتين. فلعلّ فيهما ما يُفيد في جلاء صورته :

« لما قال الموشّحة المشهورة التي أولها :

صادني و لم يدر ما صادا

قال أبو بكر ابن الجد : لو سُئل عما صاد لقال : تيس بلحية حمراء .

ولما قال الموشحة التي أولها :

هات ابنة العنبِ واشربِ

إلى قوله

و فدّه بأبي ثم بي

سمعها أبوه فقال :يفدّيه بالعجوز [كذا] السوء أمّه، وأمّا أنا فلا »[33].

إنّ ابن زهر كان -بحسّه المرهَف وقدرته الفائقة- جديرا بتطوير فنّ التوشيح على نحو ما فعل يوسف بن هارون الرماديّ وعبادة بن ماء السماء و غيرهما. وإذا كنّا لم نتبيّن ما أحدثه على نحو واضح، فحسْبه ما ترك، في هذا الفنّ، من روائع، في طليعتها: خالدته« أيها الساقي إليك المشتكَى» التي شرّقت وغرّبت، ورائعته « ما للموله

(30) جيش التوشيح -م.س. -ص :196.

(31) عيون الأنباء -م.س.-ص :521.

(32) من الذين نوّهوا به من الباحثين المحدَثين :الدكتور إحسان عباس الذي وصفه بـ« الوشّاح الأصيل العارف بفنّه »(تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين -م.س -ص:242).

(33) المقّري: نفح الطيب -م.س.- 468/3.

من سكره لا يفيق »التي ظلّ أهل المغرب يستعملون مطلعها إلى عهد المقّري[34].

وأما ابن جُبَير فهو واحد ممن أسهموا في تطوير الموشّحة في هذه الفترة،وذلك بجعلها وعاء لحمل مشاعر الحزن على الأموات، وتضمينها عواطفَ الإعجاب بهم.ولقد مرّ بنا ما ذكره القاضي أبو عبد اللهابن عبد الملك المراكشيّ من أنّ ابن جبير قد جمع ما رثى به زوجه أم المجد عاتكة بنت الوزير أبي جعفر الوقّشي في جزء من ديوانه سماه « نتيجة وجد الجوانح،في تأبين القرين الصالح »، وضمّنه خمس موشّحات «جعلها قريباً من آخره »[35]. إلاّ أن هذه المراثي- ومنها الموشّحات المذكورة- ما زالت في حكم الضائع من تراث الأندلس الأدبيّ. ولو أنّ تلك الموشّحات وصلت إلينا لقدّرنا مدى مساهمة ابن جبير في تطوير فنّ التوشيح. فقد كان-فيما نعلم-أوّل من وظّف الموشّحة لغرض الرثاء.ولعل ابن حزمون أن يكون-كما سنرى- مقتدياً به وناسجاً على منواله.

وأما ابن حزمون فتتمثّل مساهمته في استخدام فنّ التوشيح لغرض الهجاء . وهو أول من فعل ذلك -فيما نعلم- . قال عبد الواحد المراكشيّ واصفا هذه المساهمة : «ولعليّ بن حزمون هذا قدم في الآداب، واتساع في أنواع الشعر؛ ركب طريقة أبي عبد الله بن حجاج البغداديّ -سامحه الله وغفر له- فأربى فيها عليه، وذلك أنّه لم يَدَع موشّحة تجري على ألسنة الناس إلا عمل في عروضها ورويّها موشّحة على الطريقة المذكورة »[36].

وقد أثبت ابن سعيد -كما أسلفنا- عددا من هذه الموشّحات في كتابه « المغرب في حلى المغرب »[37]، ولكنّ محقّق هذا الكتاب الدكتور شوقي ضيف حذفها

(34) انظر: م.ن. -250/2.

(35)الذيل والتكملة -م.س.-608/2/5.

(36) المعجب-م.س.-ص :215.

(37) تشغل هذه الموشّحات أربع صفحات من مخطوط هذا الكتاب.انظر : ج :2-ص :216-ح:1.

لما رأى فيها من « الفحش وذكر السوءات »[39].

ومما أثبته الدكتور شوقي ضيف منها قول ابن حزمون في القاضي القَسْطَلّي- وكان أخفش- :

تخونـك العينان	يا أيها القاضـي	فتظلـم
لا يعرف الأشهاد	و لا الذي يسطر	و يرسم[40]

وقوله من موشح آخر :

يا ناقصا في كمـال
نقص الـحرب الزائد في الأشباح[40]

وقد استخدم ابن حزمون-مثل ابن جبير-الموشّحة لغرض الرثاء. فقد رثى أبا الحملات قائد الأعنّة ببلنسية.-وقد قتله النصارى- بموشّح أثبته ابن سعيد في كتابه المذكور مشيدا بناظمه[41]. إلّا أنّ هذا النصّ يقع خارج حدود هذا البحث، لأنّ المقول فيه تُوفي بعد نهاية هذه الفترة.

وكان ابن حزمون-كابن زهر- من الذين صدرت عنهم أقوال ذات طابع نقديّ في فنّ التوشيح. فقد «ذكر ابن الرائس أن يحيى الخزرجيّ دخل عليه (أي على ابن حزمون) في مجلسه فأنشده موشّحة لنفسه، فقال له ابن حزمون :ما الموشّح بموشّح حتّى يكون عاريا عن التكلّف، فقال على مثل ماذا؟ فقال :على مثل قولي :

يا هاجـري	هل إلى الوصال	منك سبيـل
أو هل يُـرى	عن هواك سال	قلب العليـل »[42]

(38) م.ن.
(39) م.ن.
(40) م.ن.
(41) انظر : ج :2- ص :217-218.
(42) المقّري: نفح الطيب -م.س.-7/9-10.

وإذا كان قول ابن حزمون يدلّ على ما كان الأندلسيّون يريدونه في الموشّحة من سهولة وعفوية وبعد عن التكلّف[43]، فإنّه يدلّ أيضا على إعجاب ابن حزمون بنتاجه، في هذا الحقل.

على أنّ ابن حزمون لم يَعْد الحقيقة في تقدير فنّه. فقد كان حقّا من أعلام هذا الفنّ،لا في هذه الفترة فحسب، وإنّما في تاريخ الموشّحات الأندلسيّة. ولقد ذكر ابن سعيد أن ابن حزمون واحد ممّن اشتهروا في فنّ التوشيح بعد ابن زهر الحفيد[44]، ونوّه ببراعته في هذا الفنّ قائلا : «وله قدرة على مضايقة القوافي »[45].

على أنّ نتاج ابن حزمون في فنّ التوشيح كاد يضيع كلّه. فلم نقف، في المصادر المتيسّرة، إلا على ما أشرنا إليه. وربّما كان أفضل ما خلّف، في هذا الفنّ، موشّحه الذي رثى فيه أبا الحملات، لا لكونه وظفه لغرض جديد لم يكن الموشّح يُستخدَم له قبل هذه الفترة،ولا لكونه رثى فيه أحد شهداء الأندلس ممّا قد يُعَدّ نواة لرثاء شهداء الأمة،ولكن لكونه أظهر فيه براعة فنّية جعلت ابن سعيد يمثّل به على قدرة ابن حزمون على « مضايقة القوافي » التي تميّز بها.

وأما محيي الدين بن عربيّ فلعلّه أول من استخدم الموشّح للتعبير عن المواجد الصوفيّة. وبذلك يكون قد مهّد السبيل لأبي الحسن الشّشتري[46] وغيره ممن وظّفوا

---

(43) يقول الدكتور إحسان عباس : «...إنّ خروجها (أي الموشّحة) عن حادّة التعقيد إلى أن تُصبح كالأسلوب النثريّ أي إلى أن تصبح مستوية السياق كأنّها كلام عاديّ أمر هامّ في نظر الأندلسيّين يومئذ». (تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين -م.س.-ص :244).

(44) انظر: المقّري: نفح الطيب -م.س-9/7.

(45) المغرب -م.س. -217/2.

(46) له ديوان فيه غيرما موشّح في هذا الغرض.

هذا الفنّ، ابتداء من القرن السابع الهجريّ، لهذا الغرض. وحمّلوه رموزهم وإشاراتهم.

ولابن عربي موشّح مشهور في ذلك، يقول في مطلعه :

سرائر الأعيـــانْ   لاحت على الأكوان   للناظريـــن
و العاشق الغيران   من ذاك في بـــحران   يُبدي الأنين[47]

وعلى أنّنا لا ندري متى قال ابن عربي هذا الموشّح، فإنّنا نرجّح أنّ ذلك قد حدث قبل انتقاله من الأندلس حيث كان فنّ التوشيح مزدهرا.

ويتبيّن مما سبق أنّ الموشّحات في هذه الفترة لم تَعُد مقصورة على الأغراض التي كانت تتناولها فيما سبق،كالمدح والغزل ووصف الطبيعة والخمر، وإنّما استُخدمت لأغراض أخرى كانت -فيما نعلم- بعيدة عن مجالها،كالعتاب والرثاء والهجاء والتصوّف. وإذا كان تطوّرها في الشكل لا يبدو واضحا، فإنّ ما ذكرناه دليل على تطوّرها في الموضوع. وسيزداد ذلك التطوّر في الفترة الثانية من عصر الموحّدين حيث سيستخدمها بعضهم لأغراض أخرى كما سيفعل ابن الصبّاغ الجذاميّ الذي سيصبّ فيها ماكان يحمل للنبيّ-صلّى الله عليه وسلّم- من حبّ وإعجاب[48].

وربّما كان هذا الازدهار وهذا التطوّر من البواعث على أن يتغيّر موقف بعض المؤلّفين من هذا الفنّ فيحظى باهتمامهم، على نحو ما بيّنّاه في المبحث الذي تناولنا فيه مصادر الشعر الأندلسيّ في هذه الفترة .

على أنّ اللافت حقّا للانتباه في هذه المرحلة، فيما يتعلق بفنّ التوشيح، هو ما صدر عن بعض الموشّحين كابن زهر وابن حزمون من ملاحظات يُمكن أن تكون نواة للتنظير لهذا الفنّ ونقد نصوصه . وعلى أنّ هذه الأقوال لا تمثّل نظريّة واضحة في تقويم فنّ التوشيح، فقد حاول الدكتور إحسان عبّاس أن يستنبط منها

(47) المقّري: نفح الطيب -م.س. -181/2.

(48) ينظر : محمدزكريا عناني-م.س.-ص : 111 .

ومن غيرها بعض الحقائق المتعلقة بهذا الفن[49].

ويُستنتج ممّا سبق أنّ الموشّحات الأندلسيّة قد ازدهرت وتطوّرت في هذه الفترة. فهل نعزو هذا التطور إلى ما عزاه إليه إميليوغرسية غومس-وهو يتحدّث عن عصر المرابطين- من هبوط الذوق و «الميل [-بحكم ذلك-] إلى كلّ ما هو شعبيّ سوقيّ خال من الحشمة والتوقّر »؟[50] إنّ الازدهار النسبيّ الذي عرفه الشعر القريض في هذه الفترة لا يسمح لنا بقبول ما ذهب إليه غرسيه غومس، من غير تحفظ[51].

2- الأزجال :

نشأ الزجل-كالموشّح- في الأندلس، وذلك قبل هذه الفترة. وإذا كان أوّل مُبدِع لهذا الفنّ ما يزال مجهولا، فإنّ التاريخ قد حفظ أسماء بعض الذين أتوا من بعده كأخطل بن نمارة ويخلف بن راشد، وإن لم يصل إلينا من نتاجهم شيء يُعتَدّ به.

ويتّفق الذين تحدّثوا عن هذا الفنّ على أنّ إمام الزجّالين في جميع العصور هو أبو بكر محمد ابن قُزْمان الّذي عاش في عصر المرابطين -وهو « عصر كبار الزجّالين »[52]- ثم أدرك عصر الموحّدين.

وقد وصل إلينا -كما أسلفنا- ديوان ابن قزمان الذي جمعه بنفسه. وإذا كانت قيمة هذا الديوان تتمثّل فيما حواه من نصوص زجليّة، تناولت شواغل ابن قزمان الكبرى من مال وشراب وعشق[53]، ومثّلت نضج هذا الفنّ، فإنّها تتجلّى أيضا

---

(49) انظر: تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين -م.س.-ص :242 وما بعدها.

(50) الشعر الأندلسيّ -م.س.- ص :62.

(51) قال إميليو غرسية غومس متحدّثا عن ازدهار التوشيح في عصر المرابطين :«كانت هذه النّزعة أشبه بثورة على القوالب المتكلّفة التي كان الأرستقراطيّون المتزمّتون يلتزمونها ويحرصون عليها » (م.ن.ص.ن.).

(52) م.ن.

(53) انظر:عبد العزيز الأهوانيّ: الزجل في الأندلس -القاهرة -مطبعة الرسالة -د.ط. -1957م- ص :82 وما بعدها.

في تلك المقدّمة التي كتبها له، والتي حوت معلومات تاريخيّة لا يستغني عنها الباحث في تاريخ فنّ الزجل، كما تضمّنت جملة من الملاحظات النقديّة، هي -فيما نعلم- أول ما كتب في تقويم هذا الفنّ، ووضع « نظريّة » له.

ومن الصعب أن نميّز بين ما نظمه ابن قزمان في عصر المرابطين، وما أنشأه في عصر الموحّدين.

وفي الفترة الأولى من عصر الموحّدين عاش عدد من الزجّالين، امتدت حياة بعضهم إلى الفترة الثانية، وكان لبعضهم أثر في تطوّر فنّ الزجل . ومن أشهر هؤلاء الزجالين : أبو الحسن علي ابن جحدر[54]، وأبو العبّاس أحمد الكساد[55]. وعبد الغافر ابن رحلون المرواني[56]. و يقف أبو عبد الله أحمد بن الحاجّ المعروف بـ« مَدْغَلّيس »[57] عَلَماً شامخاً بين زجّالي هذه الفترة. ونكتفي بالوقوف عنده نموذجاً لممثلي هذا الفنّ على ذلك العهد، مبيّنين أثره في تطويره.

خلّف مدغلّيس -مثل ابن قزمان- ديواناً[58] جُمعت فيه أزجاله، كان مصدر بعض الذين تناولوا تلك الأزجال. ولكنّ هذا الديوان لم يصل كما وصل ديوان ابن قزمان. على أنّ عدداً من نصوص مدغلّيس الزجلية قد حفظه من الضياع بعضُ مصادر الأدب الأندلسيّ كـ« المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد، و«نفح الطِّيب»

---

(54) قال ابن سعيد منوّها به : «كان زجّالا مطبوعاً » (المغرب -م.س. -267/1).

(55) ذكر ابن سعيد كثرة نظمه في فنّ الزجل، واشتهاره به. انظر :م.ن: ص288.

(56) انظر: م.ن.-ص:226.

(57) ذكر ابن حجّة سبب تلقيبه بهذا اللقب، فقال:«وهذا الاسم مركب من كلمتين،أصله:"مَضَغ اللّيس".و"الليس" جمع "ليسة "وهي ليقة الدواة، وذلك لأنّه كان صغيرا بالمكتب يمضع ليقته ...» (بلوغ الأمل -م.س. -ص:101-102).

(58) انظر: م.ن.-ص :102.

للمقّري، و «العاطل الحالي» لصفيّ الدين الحِلّي، و« بلوغ الأمل» لابن حجّة الحَمَويّ، وغيرها.

وقد تناول مدغلّيس في أزجاله جملة من الأغراض التي كان الزجّالون ينظمون فيها كالغزل. والمدح، ووصف الطبيعة والخمر.

يقول في قصيدة زجلية متغزّلا :

صحبـة العنق المليح المخلخل — حتّى فك ثابت و ديني مخلخل
وعـلام بعت ديني بحبك — لو عطيت مرغوبي فك لس تسأل
فلقـد عندك حلاوى لي منوع — و جمالا طوع إلام يخذل[59]

ويقول،في زجل، واصفا الطبيعة :

ثـلاث اشيا فالبسـاتين — لس تجد في كـل موضـع
السنسيم و الخضرو الطير — شم واتنـزه وإسمـع
قم ترى النسيم يولول — والطيـور عـُلـه تـغـرّد
والثمـار تنشر جواهـر — في بسـاط مـن الـزمـرّد
وبوسط المـرج الاخضـر — سقي كالسيف المجرّد[60]

ومما ذكر فيه الخمر:قوله من زجل :

نحب هذا الشراب مـن ذاتـي
وقد نسيـت بـه جميع لذّاتي
لس نستـحـي منك يا شيباتي
كـاس يا لله نرضـع — وابيض أو اسود أو اهبطلي طلع[61]

(59) ابن سعيد: المغرب -م.س. -222/2.

(60) م.ن. -ص :220.

(61) م.ن. -ص-221.

ومما نظمه مدغلّيس في غرض المدح:قصيدة زجلية، استهلها بمقدّمة غزلية، أقام فيها مناقشة بينه وبين النسيم،ثم تخلّص إلى المدح فقال :

أي زمان بعد قل هو قد كان يجي   إنماهـــــو في قرطبة مملوك

لأبو يحـــيى سيـــــــد الأمرا   وفـــريد الزمان وزير الملوك[62]

وإذا لم يكن مدغلّيس قد أتى بجديد في الموضوعات التي تناولتها أزجاله، فإنّ نتاجه يمثّل مرحلة من تطوّر هذا الفنّ في الأندلس. ذلك أنّ الزجل، هناك، مرّ في تطوّره بأربع مراحل، هي[63] :

أ- مرحلة الأغنية الشعبيّة المجهولة المؤلّف.

ب- مرحلة االقصائدالزجليّة. وهي لون من الشعر الملحون، لا يختلف عن الشعر القريض إلا في استخدام أصحابه اللغة العامّيّة.

جـ- مرحلة « الأزجال الحرّة المطلَقة من إسار الشكل الشعريّ التقليديّ ». وتبدأ هذه المرحلة بأخطل بن نمارة وتنتهي بابن قزمان.

د- مرحلةالخلط بين الاتجاهين السابقين .وهذه هي المرحلة التي مثّلها نتاج مدغلّيس. يقول الدكتور إحسان عبّاس واصفا هذه المرحلة مُشيرا إلى مساهمة مدغلّيس: «ثم كان دور مدغلّيس عودة إلى الخلط بين الاتجاهين، فكانت القصائد الزجليّة تمشي جنباً إلى جنب مع الأزجال الحرّة المطلَقة من إسار الشكل الشعريّ التقليديّ »[64].

على أنّ المتتبّع لتطوّر هذا الفنّ قد يتساءل : هل يُعَدّ ما فعله مدغلّيس

---

(62) صفي الدين الحِلّي: العاطل الحالي.والمرخص الغالي-نقلا عن: عبد العزيز الأهوانيّ:الزجل في الأندلس -م.س. -ص:110.

(63) أخذنا هذا التحديد عن الدكتور إحسان عبّاس.انظر:تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصرالطوائف والمرابطين -م.س. -ص:257-260.

(64) م.ن.-ص :260.

-في بعض منه- انتكاسة لفنّ الزجل؟ والجواب عن ذلك قد يكون بالإثبات إذا فرضنا أنّ الزجل-كالموشّح- كان ثورة على القوالب التقليديّة للشعر العربيّ، وأنّ كلّ مرحلة ينبغي أن يزداد فيها التحرّر من تلك القوالب. ولعلّ ما قاله الدكتور عبد العزيز الأهوانيّ في تقويم مساهمة هذا الزجّال أن يكون صائبا. قال:«والجديد عنده هو استخدام القصائد الزجليّة، كما رأينا. وفي ذلك دليل على أنّ العصر الذهبيّ للزّجل قد زال بزوال ابن قُزْمان، وعلى أنّ الزجل ابتعد عن البيئة التي عاش فيها في العصر المرابطيّ، واقترب من القصيدة العربيّة »[65].

وإذا كان الدكتور عبد العزيز الأهوانيّ قد«قلّل»من شأن مدغلّيس، و«غضّ» من قيمة مساهمته في تطوير فنّ الزجل، وكأنه كان يريد منه أن يسير بهذا الفن قُدُما وأن يُضيف إلى إنجاز ابن قزمان إنجازا آخر، يُبعد هذا الفنّ عن الشعر القريض-فإن السابقين قد عدّوا مدغلّيس زجّالا كبيرا خلف ابن قزمان: فابن سعيد يذكر أن « أزجاله مطبوعة إلى نهاية »[66]؛ والمقّريّ يُشيد بما اشتهر به من الانطباع والصنعة، ويذكر بعض ما كان الأندلسيّون يرونه من خصائص فنّه، فيقول: «وكان مدغلّيس هذا مشهورا بالانطباع والصنعة في الأزجال، خليفة ابن قزمان في زمانه؛ وكان أهل الأندلس يقولون: ابن قزمان في الزجّالين بمنزلة المتنبّي في الشعراء، ومدغلّيس بمنزلة أبي تمّام،بالنظر إلى الانطباع والصناعة: فابن قزمان ملتفت إلى المعنى، ومدغلّيس ملتفت للّفظ »[67]؛ وابن خلدون يفضّله على جميع الزجّالين الذين عاصروه، فيقول -بعد أن تحدّث عن أبي بكر ابن قزمان وغيره-:«وجاءت بعدهم حَلْبة كان سابقها مدغلّيس،

---

(65) الزجل في الأندلس -م.س.-ص :111.

(66) المغرب -م.س. -214/2.

(67) نفح الطِّيب -م.س.-385/3.

وقعت له العجائب في هذه الطريقة »[68]. ويستشهد بـ « قوله في زجله المشهور » :

وزداذ دقّ ينـــــــزل   وشعـــاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضّـــــض   وتـــــرى الآخر يذهّب
والنبات يشرب و يسكر   والغصون ترقص و تطرب
وتريد تجـــي إلينـــــا   ثم تستحـــي و ترجع[69]

ويستحسن قوله في زجل له :

لاح الضيــا و النجــوم سكــارى[70]

ولمدغلّيس منزلته،أيضا،عند الذين كتبوا عن الزّجل من المشـارقة. فـابن حجّـة الحَمَويّ -وان انتقدعليه بعض الأشياء [71]- يصفه بـ « الأستاذ »[72]، ويُعجَب ببعـض ما وقع له، كقوله :

أنا راضي عن الشراب و الطعام   ثلثين يوم لي في الصلاه و الصيام[73]

وقوله في مطلع زجل :

ليس نتوب عن ذا المشربيــــه   لو نهيت في السبــت و الـحد
قد اعـــــرت آذانـــي للوم   و دفـعــت الجـلـد للـحد[74]

ومهمـا يكـن الاختـلاف في تحديـد قيمـة مسـاهمة مدغلّيـس في هـذا الفـنّ، فإنّ تاريخ الأدب الأندلسيّ لم يعرف -بعد ابن قزمان- زجّالا أشهر منه.

---

(68) م.ن. -16/7

(69) م.ن.

(70) م.ن.

(71) انظر: بلوغ الأمل -م.س. -ص:59، 81.

(72) انظر: م.ن. -ص:81.

(73) م.ن. -ص:103.

(74) م.ن. -ص:102.

الباب الثاني

خصائص الشعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين

مدخل

الاتجاهات الفنية

بقيت الأندلس تابعة أدبيًا للمشرق طوال تاريخها. وبلغ تقليد الأندلسيّين للمشارقة درجة ضاق بها بعض مؤرّخي الأدب الأندلسيّ. فهذا ابن بسّام- وهو من المتعصّبين لأندلسيّتهم- يقرّر في تذمّر بالغ وجود هذه الظاهرة، فيقول: «إن أهل هذا الأفق (يعني الأندلس) أبوا إلاّ متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قَتادة؛ حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أوطنّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لـجَثَوْا على هذا صنما، وتلَوا ذلك كتابا مُحكَما»(1).

وهكذا كان كلّ اتجاه فنّيّ يظهر في شعر المشرق ينتقل إلى الأندلس،ويتردّد صداه في شعرها. ففي فترة الولاة ومستهلّ عصر الإمارة الأُمويّة سار الشعر الأندلسيّ في الاتجاه المحافظ الذي كان سائدا في المشرق(2)، وإن ظهرت فيه سمات خاصة(3). وما إن ظهر الاتجاه المحدَث بزعامة أبي نواس وأضرابه في المشرق، حتى انتقل إلى الأندلس، وسار فيه يحيى بن حَكَم الغزال وغيره. ولما برز الاتجاه المحافظ الجديد في الشعر المشرقي(4)، لم يلبث أن صار من أهمّ اتجاهات

(1) الذخيرة-م.س.-12/1/1. وقتادة : أحد حفّاظ الحديث النبويّ.

(2) يقول ابن حزم متحدّثا عن أبي الأحرب جعونة بن الصِمّة الكِلابي، أشهر شعراء الأندلس في فترة الولاة : « و لو أُنصف لا ستُشهد بشعره، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين » (المقرى: نفح الطيب-م.س.- 177/3). و قول ابن حزم ينطبق على كثير من معاصري أبي الأحرب.

(3) حدّد منها الدكتور أحمد هيكل ثلاثا، هي : « التجديد الموضوعي » ، و« التجويد الفنّيّ » و « التركيز العاطفيّ ». انظر :الأدب الأندلسيّ-م.س.-ص : 90-95.

(4) قال إميليو غرسية غومس : «و في أثناء القرن العاشر الميلادي ظهرت حركة قصدت إلى إحياء الشعر القديم و تجديده، و نستطيع أن نسمّيها حركةَ القديم المحدث، تزعّمها أبو تمّام و البحتريّ و المعرّيّ؛ أما الذي وصل... إلى أوجها... فهو المتنبّي » (الشعر الأندلسيّ-م.س.-ص : 22-23).

الشعر في الأندلس، وسار فيه ابن هانئ وابن درّاج وغيرهما.

وإذا كان الباحثون يختلفون في تقدير مدى أثر كلّ من طريقة العرب، أي الاتجاه المحافظ، وطريقة المحدثين، أي اتجاه أبي نواس وأضرابه[5]، فإنّ المتتبّع لنتاج الفترة الأولى من عصر الموحّدين يلاحظ « تعايش » الاتجاهين، لا في شعر الفترة عموما، وإنّما في نتاج الشاعر الواحد في بعض الأحيان.

وكانت الموضوعات المتناوَلة هي التي تفرض، في الغالب، الاتجاه الفنّي الذي يسلكه الشاعر: فإذا كانت جملة من الأغراض الشعريّة، كالمدح والرثاء وما إليهما، تتطلّب من الشاعر السير على « طريقة العرب » فإنّ عددا من الأغراض الأخرى، كالخمريّات والغزل الشاذّ وما إليهما، كان يقتضي اتجاه المحدثين. قال الدكتور إحسان عبّاس متحدّثا عن غرض الرثاء في عصر الطوائف والمرابطين: « هو أوضح موضوع تجلّت فيه آثار طريقة العرب »[6]. وهي ملاحظة يُبديها كلّ متتبّع للمراثي والمدائح وما إليها من الأشعار التي خلّفتها الفترة الأولى من عصر الموحّدين.

على أنّ هناك عدّةَ عوامل جعلت الاتجاه المحافظ الجديد يزداد قوّة بمرور الزّمن. ومن هذه العوامل ما يلي:

1- كان للدراسات الأدبيّة في الأندلس أثرها في توجيه الشعراء إلى « طريقة العرب ». ذلك أنها كانت تدور، في الغالب، حول أشعار الجاهليّين والإسلاميين وما احتذاها من نتاج العباسيّين. وكان لمدرسة أبي علي القالي أثرها

(5) يرى إميليو غرسية غومس أنّ المحدَثين « لم يكن لهم عند شعراء الأندلس أثر بعيد، فيما خلا بدوات نلمحها بين الحين و الحين ». (م.ن.-ص : 24). بينما يقول الدكتور إحسان عبّاس: « و قد عاشت الطريقتان معا في الأندلس... و لكن ظلّ انحياز الشعر الأندلسيّ إلى طريقة المحدَثين أوضح و أقوى » (تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة-م.س-ص: 124).

(6) تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف و المرابطين-م.س-ص : 117.

الواضح في ذلك[7]. وقد امتدّ هذا الأثر إلى فترتنا.

2- ظلّ الأندلسيّون، حتى في عصورهم المتأخّرة، متعلّقين بالمشرق، وإلى ماضيه الأوّل بصفة خاصّة. ومن يتتبّع أشعارهم يجد أنّ حنينهم إلى الأماكن المشرقيّة لم يفتر أبدا[8]. وقد بقي الأندلسيّ دائما مُكبرا لتراث الأسلاف. وكان لهذه النظرة « التقديسيّة » أثرها في توجيه كثير من شعراء الأندلس إلى السير على « طريقة العرب ». وقد حاول الدكتور أحمد هيكل أن يعلّل سير الأندلسيّين في الاتجاه المحافظ في المراحل الأولى من تاريخ أدبهم، مقارنا بينهم وبين الأوربيّين في العصر الكلاسيّ، وبينهم وبين أدباء أمريكا اللاتينيّة بعد ذلك. ومما قال : « أما الأسلوب المحافظ الذي تناول به الشعراء الأندلسيّون تلك الموضوعات التقليدية، فله تبريره من مُثُل الأندلسيّين وقيمهم؛ ذلك أنّ العرب كانوا ينتقلون إلى أيّ إقليم جديد، وفي مخيّلاتهم عالَم مثاليّ، هو ذلك العالم الذي عاش فيه آباؤهم الأقدمون، حيث الصحراء والنُّوق، والبان والكثبان، والجآذر والآرام، إلى آخر هذه الخطوط والألوان التي تؤلّف لوحة البادية،عالم العرب المثالي الأسطوريّ.

---

(7) انظر : م.ن.-ص : 109.

(8) إذا تجاوزنا حنين الوافدين على الأندلس كعبد الرحمن الداخل لأنّه عاش طفولته و جزءا من شبابه بالمشرق، وجدنا هذا الحنين عند الأجيال التي جاءت من بعد : فهذا ابن حزم -و هو من عصرَي الفتنة و ملوك الطوائف- يتحرّق شوقاً إلى المشرق (انظر المقّريّ:نفح الطيب- م.س.- 81/1). وذاك ابن بقيّ- و هو من عصر المرابطين- يحلم بمجد أدبيّ يتحقّق له بالعراق أو الشام، فيقول:

و لي همم ستقذف بي بلادا ... نأت إمّا العراق أو الشآما
و ألحق بالأعاريب اعتلاء ... بهم، و أُجيد مدحهم اهتماما
لكي ما تحمل الركبان شعري ... بوادي الطَّلح أو وادي الخُزامي

(الفتح بن خاقان: قلائد العقيان-م.س.-ص : 281).

وكان أبناء العرب يعتقدون أن خير أدب هو ما كتب آباؤهم في عالمهم ذاك المثاليّ الأسطوريّ، وأنّ قصارى الأديب، بعد ذلك، أن يأتي بما يشبه نتاج هؤلاء الرّواد الأول. ومن هنا كانوا، في الأندلس، يستلهمون هذا العالم المثاليّ الذي يتخيّلونه عالم آبائهم و أجدادهم، كما كانوا يحاكون هذه النماذج التي جادت بها قرائح الآباء و الأجداد »[9].

وإن يكن الدكتور أحمد هيكل يتحدّث عن الشعر الأندلسيّ في فترة الولاة وبداية عصر الإمارة الأمويّة، فإنّ كلامه ينطبق إلى حد كبير على الشعر الأندلسيّ، بعد ذلك.

3- لعلّ العرب أن يكونوا أكثر الأمم خضوعا للماضي وأشدّها تعلّقا به. ويكفي أن نتتبّع شعرهم لنقف على ما يعتلج في نفوسهم من حنين إلى الماضي. وقد لا يبدو إميليو غرسية غومس مبالغا في قوله:« إنّ للأقدمين سلطانا على نفوس العرب »[10]. و لم يكن الشعب الأندلسيّ، في ذلك، بِدْعا من الشعوب العربية الأخرى. فإذا سار كثير من شعراء الأندلس على«طريقة العرب» لم يكن ذلك غريبا.

4-كان كثير من نتاج المشرق من القوة بحيث يفرض نفسه على الساحة الأدبيّة مشرقا ومغربا، فيحتذيه غيره. ومن ذلك النتاج شعر المتنبي الذي جاء صاحبه « فملأ الدنيا وشغل الناس ». ولعلّ المتنبي أن يكون قد حاز في الأندلس مكانة تفوق منزلته في المشرق علىعلوّها[11]، فتأثر به شعراء الأندلس تأثّرا واسعا[12]. وكان المتنبي- كما أسلفنا- هو الذي وصل بالاتجاه المحافظ الجديد إلى أوجه.

---

(9) الأدب الأندلسيّ-م.س.- ص :89.

(10) الشعر الأندلسيّ-م.س.- ص :.22

(11) قال الدكتور إحسان عبّاس : « إنّ مكانة المتنبّي في الأندلس لم تكن لتقلّ عنها في المشرق ».

(تاريخ الأدب الأندلسيّ:عصر الطوائف و المرابطين-م.س.- ص :110).

(12) لم يقو تأثير المتنبي في الأندلسيين إلا ابتداء من عصر ملوك الطوائف والمرابطين =

وإلى جانب المتنبّي كان لعدد من شعراء المشرق في العصر العباسيّ تأثير في شعراء الأندلس. وإذا جاز لنا أن نستشهد،على إعجاب الشعراء الأندلسيّين بشعراء المشرق ونسجهم على منوالهم، بما كان من شاعر عاش قُبيل عصر الموحّدين، فإنّنا نجد ابن خفاجة قد أُعجب ببعض شعر المشرق وسار على غراره. يقول واصفا إعجابه بذلك الشعر وذاكرا احتذاءه إياه : «...فما تصفّحتُ مثل شعر الرَّضِيّ، ومِهْيار الدَّيْلَمِيّ، وعبد المحسن الصوريّ، وما حذا حذوه وأخذ مأخذه -حتى تملّكني من تلك المحاسن الرائعة الرائقة، والألفاظ الشفّافة الشائقة، ما يناسب بُرْد الشباب رِقّة، وبَرْد الشراب رَيْقة. فما كان إلا أن ملت إليه، وأقبلت عليه، أروّقه وأروّيه، وأحاول التشبّه بواحد واحد فيه »[13]. ثمّ يورد بعد ذلك نماذج من شعره قلّد فيها بعض شعراء المشرق الذين ذكرهم،كالشريف الرضيّ ومهيار الديلمي والمتنبي[14].

وأثر ابن خفاجة جدّ واضح في بعض شعراء فترتنا. ولعلّ أكثرهم تأثّرا به وجريا على طريقته: الرُّصافي البلنسيّ الذي كان « بينه و بين الخفاجيّ غير موطن واحد من التشابه »[15].

5- قد يكون صحيحا ما ذهب إليه الدكتور إحسان عبّاس من أن رجوع

=(انظر : م.ن.-ص :109-113).أما قبل ذلك فكان تأثيره محدودا (ينظر:إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسيّ:عصر سيادة قرطبة-م.س.-ص :126). على أنّ تأثير المتنبّي في الأندلسيّين لم يكد-حتى حين قَوِي- يتجاوز الشكل إلا قليلا.ولذلك قال إميليو غرسية غومس : « إنّ الناحية التي تأثّروا بها من المتنبّي، كانت ناحية البراعة لا ناحية التفكير » (الشعر الأندلسي-م.س.- ص :25).

(13) ديوان ابن خفاجة-م.س.-ص :6.

(14) انظر : م.ن.- ص :12-18.

(15) ديوان الرصافيّ البلنسيّ-م.س.-مقدّمة المحقّق- ص :25.

الشعراء إلى طريقة العرب يمثّل جانبا من الثورة على الإغراق في الحضارة»[16]. وإن كان يقول بعد ذلك مستدركا: «فإذا لم نعدّ ذلك ثورة صريحة، عددناه تكاملا لابدّ منه من أجل خلق التعادل بين منحيين متطرّفين »[17].

وإذا صحّ ذلك فلا يُستبعد أن يكون للحكام الموحّدين أثر في ترسيخ ذلك الاتجاه، وذلك بما كان بعضهم يميل إليه من حياة الزهد، ويجنح إليه من رفض الترف.

6- قد يكون لذوق الممدوحين وغيرهم من المتلقّين أثر في توجيه الشاعر إلى مذهب فنيّ مُعيّن. ولقد وجدنا قُبيل هذه الفترة من الممدوحين من يشرط على الشاعر أن يستهلّ مدحه له بالغزل[18]. فهل كان ذوق الممدوحين وغيرهم في هذه الفترة مما يوجّه الشاعر إلى السير في الاتجاه المحافظ ؟ ليس بين أيدينا إلا إشارات قليلة لا تعطي فكرة واضحة، كقول عبد المؤمن بن عليّ لأحد مادحيه: « بمثل هذا تُمدَح الخلفاء »[19]، وكقول أبي الحسن الرعيني عن أحد شيوخه: « وكان يستضعف الشعر المحدَث... ولا يرى ذلك شيئاً »[20].

7- كان بعض الذين تزعّموا حركة التجديد في الشعر العربيّ في العصر العبّاسيّ، كأبي نواس وأضرابه، من المجّان وذوي النزعة الشعوبيّة. وإذا كان عدد من شعراء الأندلس قد ساروا في هذا الاتجاه، لا سيما في عصري بني أمية وملوك الطوائف، فإنّ عددا آخر ساروا في الاتجاه المحافظ. وقد يكون « رفضهم » السيرَ في الاتجاه المحدَث نتيجة لموقف من سلوك أصحابه؛ ثم إنّ الشعر الأندلسي

(16) و (17) تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف و المرابطين-م.س.- ص : 109.

(18) انظر : ديوان ابن خفاجة-م.س.- ص : 106.

(19) عبد الواحد المراكشيّ: المعجب- م.س.- ص : 153.

(20) برنامج شيوخ الرعيني-م.س.- ص : 98.

« كان يتنفّس في جو مُشبَع بالثقافة الدينيّة»[21]، ولم تبلغ النزعة الشعوبيّة في الأندلس ما بلغته في المشرق[22].

هذا، وقد يكون في أقوال بعض مؤرّخي الأدب الأندلسيّ ما يؤكّد ما ذهبنا إليه من سيادة الاتجاه المحافظ الجديد في فترتنا وقبلها. ومن ذلك ما قاله ابن بسّام، الذي تُوفّي في مستهلّ عصر الموحّدين،متحدّثا عن الاتجاه الفنّيّ في إحدى حواضر الشعر بالأندلس :« إن طريقة الإشبيليين الشعريّة هي طريقة البحتريّ في السلاسة والمتانة والعذوبة والرصانة »[23]. ومن ذلك أيضا قوله متحدّثا عن طريقة ابن هانئ :« ... على أن أكثر أهل وقتنا وجمهور شعراء عصرنا إليها يذهبون، وعلى قالبه وجدتهم يضربون»[24]. ولم يكن البحتري وابن هانئ إلاّ من ممثّلي الاتجاه المحافظ الجديد؛ ذلك في المشرق، وهذا في الأندلس[25].

---

(21) إحسان عباس : « هل كان في الأندلس سببا في انحلال أخلاقها... »- مجلة الأصالة- م.س.-ص : 191.

(22) عرفت الأندلس النزعة الشعوبيّة في فترتين، بصفة خاصة : فترة الإمارة، و فترة ملوك الطوائف. ففي الفترة الأولى تكتّل العرب في بعض مناطق الأندلس تحت قيادة بعض زعمائهم لمناهضة المولّدين الذين تجمّعوا حول زعيم لهم لمجابهة العرب. و كان لهذه الحركة العنصريّة أثرها في الشعر الأندلسيّ.(ينظر : أحمد هيكل:الأدب الأندلسيّ-م.س.-ص:122-123،137-140؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسيّ:عصر سيادة قرطبة-م.س.-ص:97-99).وفي الفترة الأخرى كتب ابن غرسية رسالة يرفع فيها من شأن العجم ويحط من قدر العرب فانبرى للرّدّ عليه كثير من العرب الأندلسيّين مفنّدين دعواه، داحضين مزاعمه (انظر:ابن بسّام: الذخيرة-م.س-704/2/3) .

(23) م.ن. - 4/1/2.

(24) م.ن. - 799/2/2.

(25) ينظر:غرسية غومس:الشعر الأندلسيّ-م.س.-ص:22-23؛ أحمد هيكل: الأدب الأندلسي- م.س.-ص:239.

ولكلّ من الاتجاهين الفنّيّين اللذين سار فيهما شعراء الأندلس في هذه الفترة وقبلها سمات خاصّة.

فأمّا الشعر السائر في الاتجاه المحدَث فإنّ أسلوبه « يميل إلى شيء من التفصيل، ويتّجه أحيانا إلى القصّ، وتَشيع فيه روح الدعابة والسخرية والتحرّر إذا كان الموضوع لاهياً، كما تشيع فيه روح المرارة والكآبة والتزمّت إذا كان الموضوع جادّاً. ثم هو غالبا أسلوب تُرسَم صوره من عناصر حضرية، وتحلّق أخيلته في آفاق غير آفاق البادية، وتُؤلّف لغته من ألفاظ بسيطة ... وتميل موسيقاه إلى البحور القصيرة والقوافي الرقيقة»[26].

وأمّا الشعر السائر في الاتجاه الآخر فقد حافظ أصحابه على منهج القصيدة ولغتها وموسيقاها، وعلى روحها وأخلاقيّاتها، وجدّدوا في المعاني والصور وجماليّات الأسلوب[27].

وإلى جانب الاتجاهين السابقين اللذين وفدا من المشرق وسار فيهما الشعر القريض، عرف الشعر الأندلسيّ اتجاها فنّيا آخر، انبثق من الأندلس، تمثّل في الموشّحات والأزجال. وقد حاولنا في الفصل الذي عقدناه لهذين الفنّين بيان بعض ما أصابهما من تطوّر. وقد نافس هذا الاتجاه « الشعبي » -كما أشرنا- الاتجاهين الآخرين في حلّ أغراض الشعر.

(26) أحمد هيكل: الأدب الأندلسيّ-م.س.-ص : 134.

(27) انظر : م.ن.- ص : 199.

الفصل الأول

اللغـــــة

لكلّ فنّ وسائله؛ واللّغة هي الوسيلة الأولى للعمل الأدبي، وبدونها لا يأخذ شكله مهما كان موضوعه جليلا. ولأهمّيتهما البالغة نُلفي كثيرا من النقّاد ينوّهون بقيمتهما. يقول الدكتور عزّ الدين إسماعيل : « اللغة هي الظاهرة الأولى في كلّ عمل فنّيّ يستخدم الكلمة أداة للتعبير. هي أوّل شيء يصادفنا، وهي النافذة التي من خلالها نطلّ، ومن خلالها نتنسّم، هي المفتاح الذهبّيّ الصغير الذي يفتح كل الأبواب، والجناح الناعم الذي ينقلنا إلى شتّى الآفاق »[1].

وإذا كانت اللغة بهذه الأهميّة في كلّ خطاب أدبيّ، فإنّ أهمّيتها تزداد إذا كان ذلك الخطاب شعريًا، لأنّ الشعر « استكشاف دائم لعالَم الكلمة، واستكشاف دائم للوجود عن طريق الكلمة »[2].

وعلى قول جلّ النقّاد بقيمة اللّغة في الخطاب الأدبيّ، فإنّهم يختلفون في تحديد تلك القيمة : فإذا كان بعضهم لا يرى اللغة إلا وسيلة لا تسمو إلى درجة الغاية، مهما كانت أهمّيتها، فإنّ بعضهم يرفعها إلى مستوى الغاية. وقد يذهب غيره إلى أكثر من ذلك، فيعتبرها -مع غيرها من الوسائل الفنّيَة- غاية العمل الأدبّي.

فإذا كانت لا تعدو الوسيلة البسيطة عند ميخائيل نُعيمة إذ يقول : « إنّ اللغة ليست سوى وسيلة من وسائل كثيرة اهتدت إليها البشرية للإفصاح عن أفكارها. وإن للأفكار والعواطف كيانا مستقلا ليس للّغة. فهي أوّلا واللّغة ثانيا»[3]- فإنّها عند عبّاس محمود العقّاد أعلى من ذلك. يقول معقّبا على رأي ميخائيل نعيمة السابق :« إنّ المؤلف يحسب العناية باللّفظ فضولا...

(1) الشعر العربيّ المعاصر : قضاياه و ظواهره الفنّيّة و المعنويّة -القاهرة -دار الكتاب العربيّ للطباعة و النشر-د.ط.- 1967م.-ص : 173.

(2) م.ن.-ص:174.

(3) الغربال -بيروت -دار بيروت للطباعة و النشر-الطبعة السابعة -1964م- ص : 105.

فرأيي أنّ الكتابة الأدبية فنّ، والفنّ لا يُكتفَى فيه بالإفادة، ولا يُغني فيه مجرّد الإفهام »[4]. وقد ذهب بعض النقّاد الغربيّين المعاصرين كـ «جان كوهين » (Jean Cohen) إلى اعتبار اللغة غاية أو ما يشبه ذلك إذ « الشعر في رأيه ألفاظ قبل أن يكون معاني »[5].

ولعلّ أصوب الآراء: ما ذهب إليه العقّاد، إذ يُفهَم من كلامه أنّ اللغة في الخطاب الأدبيّ ذات وظيفتين : وظيفة تبليغيّة، وأخرى جماليّة؛ هذه تتحقّق بها الإفادة، وتلك يتحقّق بها الإمتاع.

وإذا كان الشاعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموّحدين قد « عاش » تجارب لم يعشها الشاعر الأندلسّي قبله، وإذا كانت تلك التجارب الجديدة تقتضي لغة جديدة إذ « من غير المعقول في شيء، بل ربّما كان من غير المنطقيّ، أن تعبّر اللغة القديمة عن تجربة جديدة »[6]،فهل تحقّقت تلك الجدّة في لغة الشعر الذي وصف تلك التجارب الجديدة، أم انّ الشاعر لم يكد يتجاوز اللغة التقليديّة في التعبير عمّا مرّ به من تجارب جديدة؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تقتضي الوقوف عند سمات المعجم الفنّيّ لشعر تلك الفترة، ثم محاولة تحديد خصائص نسجه، بعد ذلك.

1- المعجـــم الفنّـــيّ :

النصّ الأدبيّ نسيج خيوطه الكلمات. ومجموع الكلمات التي يستخدمها أديب ما أو مجموعة من الأدباء، أو تُوظّف في أحد الفنون الأدبيّة...، يُشكّل المعجم الفنّيّ لذلك الأديب، أو لتلك المجموعة، أو لذلك الفنّ...

(4) م.ن.- المقدّمة- ص : 10.

(5) عبد الملك مرتاض : بنية الخطاب الشعريّ -م.س.-ص : 17.

(6) عز الدين إسماعيل:الشعر العربيّ المعاصر- م.س.- ص : 174.

ويُستنتَج من بعض أقوال عدد من النّقّاد القدماء والمحدَثين أنهم يرون أن للشعر معجما خاصّا، لا يستغرق كلّ مفردات اللغة. فالجاحظ يشترط أن يبتعد هذا المعجم عن الغريب الوحشيّ، كما ينأى عن العامّيّ السُّوقيّ[7]؛ و قدامة بن جعفر يتطلّب أن تكون مفردات هذا المعجم سمحة سهلةَ مخارج الحروف[8]؛ وابن رشيق يريد أن يكون كلّ لفظ من ألفاظ ذلك المعجم «كأنه حرف واحد»[9]، و«أن يجري على اللسان كما يجري الدّهان »[10]؛ ويدعو صفيّ الدين الحلّيّ إلى أن يبتعد الشاعر عن « النافر الوحشيّ » من الألفاظ، ويستخدم « المأنوس » منها[11]...

بل إنّ بعض النقّاد ليذهب إلى أن يكون لكلّ نصّ معجمه الفنيّ الخاص. يقول الدكتور عبد الملك مرتاض:« إذا لم يكن لأيّ نصّ معجمه الفنّيّ الخاصّ به، المميّز له،فلا ينبغي له أن يرقى إلى مستوى النّصّيّة وإذا لم يرق إلى مستوى هذه

---

(7) يقول : «كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا و لا ساقطا سُوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون وحشيًا » (ابن رشيق: العمدة- م.س.- 131/1).

(8) انظر: نقد الشعر-م.س.- ص : 26.

(9) و (10) العمدة-م.س.- 257/1.

(11) يقول في مقطوعة له :

إنما الحَيْزَبُون و الدَّرْدَبِيسُ ... و الطَّخَا و النُّقَاخ و العلطبيس

لغة تنفر المسامع منها ... حين تُروَى و تشمئزّ النفوس

وقبيح أن يُذكَر النافر الوحـ ... شيّ منها و يُترك المأنوس

أين قولي: هذا كثيب قديم ... و مقالي : عَقَنْقَل قُدْمُوس؟

(ديوان صفيّ الدين الحلّيّ-بيروت -دار بيروت للطباعة والنشر-د.ط.-د.ت.- ص : 624).

والحيزبون : العجوز، والدردبيس : الشيخ أو العجوز الفانية أوالداهية، والطخاء : السحاب المرتفع، والنقاخ : الماء البارد العذب الصافي، و العلطبيس : الأملس البرّاق، و العقنقل : الكثيب العظيم المتداخل الرمل، والقدموس : القديم.

النّصيّة، فقد لا ينبغي له أن يرقى إلى مستوى الأدبية»[12].

بيد أنّ نقّادا آخرين يرون غير ذلك، إذ يذهبون إلى أنّ أيّا من ألفاظ اللغة يجوز توظيفه في بناء النص[13]، إذا لم يجد المبدع ما يغني عنه في المكان الذي تطلّبه.

ومع ما لهذا الرأي من وجاهة، لأنّ فيه توسيعا على المبدع إذ تصبح اللغة كلّها معجمه، فإنّ الرأي الأول يبدو لنا أصوب، لأن العمليّة الإبداعيّة تقوم على انتقاء أفضل الوسائل الفنّية لتحقيق غايتها.

ويخرج المتتبع لمعجم الشعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين، بجملة من الملاحظات، منها ما يلي :

أ- كان الأندلسيّون يعيشون وضعا لغوّيا خاصّا : فقد كانوا يتكلّمون إلى جانب اللغة العربية الفصيحة لهجة عربيّة عاميّة عسيرة الفهم، كما كانوا يعرفون عجميّة الأندلس التي كان السكان الأصليّون يتكلّمونها[14]. وكان من المنطقيّ أن يترك هذا الوضع أثره في لغة الشعر الأندلسيّ.

وفي هذه الفترة نجد شعراء الأندلس قد التزموا اللغة الفصيحة في الشعر القريض فلا نكاد نجد أثراً لعاميّة أو عجميّة. وكلّ ما هنالك من مميّزات ينحصر في استخدامهم- كباقي الأندلسيّين- لجملة من الكلمات استخداما خاصّا، يختلف قليلا أو كثيرا عن استخدام المشارقة وغيرهم من سكان الأقاليم العربيّة الأخرى لها. ومن أمثلة ذلك ما ورد في البيت التالي لإدريس بن إبراهيم والد صفوان، حيث أراد

---

(12) ا-ي : دراسة سيميائيّة تفكيكيّة لقصيدة « أين ليلاي » لمحمد العيد-الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعيّة-د.ط.-د.ت.-ص : 72.

(13) ينظر : محمد مندور: الأدب وفنونه -القاهرة- دار نهضة مصر للطباعة والنشر-الطبعة الثانية- د.ت- ص:40.

(14) ينظر: أحمد هيكل:الأدب الأندلسي- م.س.- ص : 43-53.

بكلمة « باكورة » الثمرة المبكّرة من التين. على أنّ لفظ« الباكور » يطلق- في الأصل- على كلّ ما بكّر من الثمار[15].

وباكورة سوداء مخطوطة كمثل غراب في ذرا الغصن أبقع[16].

ومن أمثلة ذلك أيضا ما جاء في البيتين التاليين لابن البرّاق الوادي آشي، حيث قصد بكلمة « الوادي » النهرَ خاصة. في حين أنّها تُطلق -أصلا- على ما انخفض من الأرض بين جبال أو تلال[17]:

انظر إلى الوادي الذي مذ غرّدت أطياره شقّ النسيم ثيابه
أتراه أطربه الهديل وزاده كَلَفا وحقّك أن حللت جنابه[18].

وكان الأندلسيّون يُطلقون كلمة «الخطّة » على ما تُطلَق عليه اليوم كلمة « الإدارة » إذ كانوا يقولون « خطة الشرطة » و« خطة القضاء » و« خطة السوق » وغيرها، وهم يقصدون، بذلك، الإدارات المسؤولة عن تلك الشؤون[19]. وقد وجدنا هذا الإطلاق لكلمة «الخطة » في الشعر الذي خلّفته هذه الفترة، كما في قول ابن قسّوم محذّرا من تولّي منصب القضاء :

ودعْ خطة الأحكام ويلك لا تبل ولو انّ مصرا قد وليت و بغداذا[20].

على أن هذا الاستخدام الخاصّ لهذه الكلمات، لا يُخرج لغتهم في الشعر القريض عن فصاحتها. ولو جازت الموازنة بين لغة الشعر الأندلسيّ في تلك الفترة

---

(15) انظر : م.ن.-ص : 46.

(16) ابن إدريس:زاد المسافر- م.س.- ص :153.

(17) ينظر : أحمد هيكل:الأدب الأندلسي- م.س.- ص.ن.

(18) ابن سعيد، المغرب-م.س.- 150/2.

(19) ينظر : أحمد هيكل:الأدب الأندلسي- م.س.- ص.ن.

(20) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.- 252/6.

ولغة الشعر العربيّ المعاصر، وحتى غيره من الشعر العربيّ الحديث، لانتهينا إلى أن لغة الشعر الأندلسيّ كانت أفصح، وأن معجمها كان أصحّ.

وإذا كنّا نعزو هذه الفصاحة التي طبعت معجم الشعر القريض إلى تمكّنهم من اللغة الفصيحة بفضل حفظ القرآن والحديث والإلمام بالأدب القديم، فإنّ ذلك ينبغي أن يُعزَى أيضا إلى منافستهم المتواصلة لشعراء المشرق[21]. وفي مجرى تلك المنافسة كان لا بدّ من استخدام الوسائل الفنّيّة نفسها، ومنها المعجم الفصيح.

و لم يخرجوا عن هذه القاعدة فيما نظموا من مُوشّحات إذا استثنينا بعض الخرجات. ذلك أنّ الموشّح - عدا الخرجة- تكون لغته فصيحة، لا أثر للعامّيّة فيها. فإذا دخلها بعض العامّيّة عُدّ ذلك عيباً، وسُمّي الموشّح « مُزنّما ». والزنيم- في اللغة- هو « الدّعيّ، وهو : الملحق بقوم»[22]. ولهذا العيب، لم يورد ابن سَناء الملك الموشّح المعروف بـ « العروس » في كتابه « دار الطّراز في عمل الموشحات»[23].

ولقد تتبّعنا عددا من موشحات ابن زهر الحفيد وابن سعيد وابن نزار وغيرها من موشّحات هذه الفترة، فلم نُلف فيها أثرًا للعامّيّة، و لم نقف فيها إلاّ على الصحيح الفصيح، على نحو ما نرى في هذا البيت من موشح لابن زهر الحفيد :

---

(21) يقول الدكتور أحمد هيكل متحدّثا عن تلك المنافسة، ذاكرا سببها و أثرها : « كان الأندلسيّون يُحسّون بنوع من التخلّف عن المشارقة، و يحاولون دائما أن يعوّضوا ذلك بتأكيد تفوّقهم، برغم بعدهم، و سبقهم برغم غربتهم. ومن هنا نراهم... يتعصّبون للغة تعصّبا... » (الأدب الأندلسيّ-م.س.-ص : 57).

(22) المعجم الوسيط-مادة « زنم ».

(23) و قال معلّلاً : « و هو موشّح ملحون، و اللحن لا يجوز استعماله في شيء من ألفاظ الموشّح إلا الخرجة خاصة » (ص : 35).

يا صاحبي نداء مغتبط بصاحب

لله ما ألقاه من فقد الحبائب

قلب أحاط به الجوى من كلّ جانب

أي قلب هائم لا يستريح إلى اللواحي[24]

على أنّنا نلاحظ ما يَشيع لدى الموشِّحين من تسكين كثير من الكلمات، ممّا يجعل بعض لغة الموشّح -لا سيما الذي خرج عن أوزان الخليل- قريبا من العاميّة. والسبب في تلك الظاهرة هو أن الموشّح كان يُنظَم -غالبا- للغناء، فكان المبدع يراعي هذه الغاية فيستبيح بعض التصرّف الذي هو أقرب إلى ركوب ضرائر الشعر المعروفة[25]، ولكن دون أن ينال ذلك التصرّف من فصاحة لغة الموشّح. ولعلّ ذلك التصرّف أن يكون أقرب إلى ما يُعمَد إليه في بعض الشعر القريض من تقييد القوافي. والأمثلة عليه كثيرة، في الشعر الأندلسي وغيره[26]. ولقد لفتت ظاهرة اقتراب لغة الموشح من العاميّة نظر الدكتور إحسان عبّاس فقال معلّلا واصفا: « ... إنّ الموشّح هو أوّل ثورة حقّقها الشعر العربيّ في إيثار الإيقاع الخفيف الذي يُقرّب الشقّة بين الشعر والنثر، فأضعف من أجل ذلك العلاقات الإعرابيّة كثيرا. ذلك أنّنا نقول حقّا إنّ الموشّح مُعرَب، ولكنّ الإسكان بالوقف في التجزئات القصيرة واختيار الألفاظ التي لا تظهر حركات الإعراب في أواخرها أمران يجعلان العلاقات الإعرابية ضعيفة، ويُحيلان الموشّح إلى مستوى قريب من مستوى الكلام الدارج»[27].

---

(24) ابن الخطيب: جيش التوشيح-م.س.-ص : 205.

(25) يذكر الدكتور إحسان عبّاس أنّ الموشِّحين «يتسمّحون » في تعبيرات لا يتسمّح فيها الشعراء. انظر: ديوان الأعمى التطيليّ-م.س.- المقدّمة-ص :ذ.

(26) من أشهر القصائد المقيَّدة القافية في الشعر الأندلسيّ ؛ ضادية ابن زيدون التي وجّهها إلى منافسه ابن عبدوس. انظر : ديوان ابن زيدون-م.س.-ص:582-589.

(27) تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف و المرابطين-م.س.-ص : 244.

على أنّ قول الدكتور إحسان عبّاس هذا لا ينطبق على الموشحات الشعرية التي لا تكاد لغتها تختلف عن لغة الشعر القريض. وأبرز مثل عليها من هذه الفترة موشّح ابن زهر، « أيها السّاقي إليك المشتكى » ،الذي سبقت الإشارة إليه.

وإذا كان استخدام العاميّة مَعيبا فيما عدا الخرجة من الموشّح، فإنّ اللّحن مُستحسَن في الخرجة، حتى إنّ ابن سَناء المُلْك يرى أنّ « الشرط فيها أن تكون... قُزْمانية من قِبل اللّحن،... من ألفاظ العامّة و لغات الداصة»[28]، بل إنه ليذهب إلى أن الخرجة « إن كانت مُعرَبة الألفاظ،منسوجة على منوال ما تقدّمها من الأبيات والأقفال،خرج الموشَح من أن يكون موشّحا»[29]، وإن كان يستثني حالات قليلة تأتي فيها الخرجة مُعرَبة[30].

وكما يُستحسَن أن تكون الخرجة عاميّة اللغة، قد تأتي « عجميّة اللفظ»[31]. ويشترط ابن سناء الملك أن يكون لفظها حينئذ « سفسافا نفطيّا، ورماديا زُطيّاً»[32].

ويجد المتتبع لموشّحات هذه الفترة أنّ خرجاتها تتنوع بين المعربة والعاميّة

---

(28) دار الطراز-م.س.-ص : 40. و « قزمانية »:نسبة إلى ابن قزمان ، إمام الزجّالين في الأندلس، والداصة : جمع « دائص » و هو: اللصّ.

(29) م.ن.

(30) منها أن يكون الموشَح « موشَح مدح و ذِكر الممدوح في الخرجة »، و منها أن تكون الخرجة «غزلة جدًا، هزّازة سحّارة خلاّبة، بينها و بين الصبّابة قرابة ». انظر : م.ن.-ص : 40-41.

وإن كان الدكتور إحسان عباس يرى « أن ابن سناء الملك قد نسي... قاعدة كبرى،هي التناسب بين الموشّحة و طبيعة المقام العامّ» (تاريخ الأدب الأندلسي:عصر الطوائف و المرابطين-م.س.-ص : 237).

(31) ابن سناء الملك-دار الطراز-م.س.-ص : 43.

(32) م.ن. و «نفطي» :نسبة إلى النفط، أي مُحرق، و « زُطي»:نسبة إلى الزّط، و هم جيل من الهند. و كلام زُطي : منحطّ. انظر : م.ن.- فهرس المفردات، للمحقّق.

والعجميّة. فمن المعربة خرجة موشّح لأبي الحكم أحمد ابن هرودس نظمه في مدح أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن والي غرناطة، يقول فيها (مع الدّور الممهّد لها) :

لله يوم أغَرّ زاهــــرْ

قد حلّ بالأندلوس آمــر

قالوا و قد وافت البشائر

بالملك السيّد السعيد أبــي سعيــد[33]

وقد تحقّق فيها ما ذكره ابن سناء الملك -كما أشرنا- من كونها في موشّح مدح، ومن ذكر اسم الممدوح فيها.

ومن المعرَبة كذلك خرجة موشّح لابن زُهْر الحفيد. وهي بيتان شعريّان لشاعر سابق، ضمّنهما ابن زهر موشّحه، حيث يقول (مع التمهيد لهما) :

بعــدك مـانمت و لا ألـفــت الاّ السهــرا

في ليـلة طـالت بـلا صبـح و لا ضـوء يُرى

فقلـــت و البدر على حين مـن الـليـل سَرى:

ياليل طل أولا تطلْ لا بدّلي أن أسهركْ لو بات عندي قمري ما بتّ أرعى قمركْ[34]

وفي هذه الحالة يجوز أيضا أن تكون الخرجة معربة[35].

ومن الخرجات العامّيّة أو التي جاء بعض كلماتها ملحونا : خرجة موشّح لابن زُهْر الحفيد كذلك، يقول فيها :

من اراد أن يدري ايش خبري عشق هو اي قلب يحتملو[36]

---

(33) ابن سعيد: المغرب-م.س.-216/2.

(34) ابن الخطيب: جيش التوشيح-م.س.-ص : 210.

(35) انظر : ابن سناء الملك:دار الطراز- م.س.- ص : 45.

(36) الصفدي: توشيع التوشيح-تحقيق ألبير حبيب مطلق- بيروت-دار الثقافة-الطبعة الأولى-1966م.- ص : 59.

ومن الخرجات العجمية أو -على الأصح- التي جاء بعض ألفاظها من تلك اللهجة اللاتينية التي كانت منتشرة قبل الفتح الإسلاميّ، وظلّت حيّة، يعرفها جلّ سكان الاندلس[37]، من تلك الخرجات[38]: خرجة موشّح لأبي بكر أحمد بن مالك السّرَقُسْطيّ،يقول فيها (مع التمهيد لها) :

... فكم تصرخ بالشدو غواني الملاح

يا مم اسْد نعي للجنه التسمرى بدرى السر جعفر عسى شز[39]

وإذا كان من الباحثين من يرى في وجود الألفاظ العامّيّة أو الأعجمية في خرجة بعض الموشحات، دليلا على أصل هذا الفن[40]، فإنّ منهم كذلك من حاول تعليل إيثار الخرجة العامّيّة أو الأعجميّة على المعرَبة فرأى في ذلك ما يحقّق غاية فنّيّة[41].

على أنّ المتتبّع لموشّحات هذه الفترة يلاحظ ندرة الخرجات الأعجميّة. فهل يدلّ ذلك على العدول عن هذا النوع لتقلّص دائرة تلك اللهجة، أو لغير ذلك من الأسباب؟ إن ذهاب كثير من نتاج الموشِّحين الذين أظلّهم هذا العصر

---

(37) حتّى انّ ابن حزم استغرب أن تكون قبيلة « بَلِي » العربيّة التي كانت تُقيم شمال قرطبة، لا تعرف عجميّة الأندلس، فقال :« وهم... لا يُحسنون الكلام باللطينيّة، لكن بالعربيّة فقط، نساؤهم ورجالهم »(جمهرة أنساب العرب-تحقيق عبد السلام هارون-القاهرة-دار المعارف-1962م . -ص:443).

(38) كُتبت هذه الخرجات بحروف عربيّة، فوقع فيها تحريف كثير. و قد اجتهد بعض الباحثين الإسبان- وفي طليعتهم إميليو غرسية غومس- في « تحقيقها » و بيان معانيها. ينظر : مصطفى عوض الكريم: الموشّحات والأزجال-م.س.-ص:15-16؛ إحسان عباس:تاريخ الأدب الأندلسيّ:عصر الطوائف و المرابطين-م.س.-ص : 242- ح : 1.

(39) ابن الخطيب:جيش التوشيح-م.س.-ص222.ولم نهتد إلى معاني الألفاظ الأعجميّة.

(40) ينظر : مصطفى عوض الكريم: فنّ التوشيح-م.س.-ص:109؛إحسان عباس:تاريخ الأدب الأندلسيّ:عصر الطوائف و المرابطين-م.س.-ص : 222.

(41) يقول الدكتور إحسان عباس معلّلا إيثار الخرجة العاميّة أو الأعجميّة:«إنّ الموشّحة كاللحن=

يحول دون إصدار حكم جازم. كذلك يلاحظ المتتبّع أن ما ذكره ابن سناء الملك من « شروط » في الخرجة لم يكن يتحقّق دائما. فابن سناء الملك بنى « تنظيره » لفنّ التوشيح على ما توفّر له من نماذج، أغلبها من عصر ملوك الطوائف والمرابطين. وليس من شكّ في أن جلّ ما قاله وشاحو هذه الفترة -وهي التي ألّف فيها ابن سناء الملك كتابه«دار الطراز »- لم يتيسّر له الاطلاع عليه[42]. ثمّ إنّ الفن -أيّ فنّ- في تطوّر مستمرّ، لا تحدّ من انطلاقه القيود التي يضعها المنظّرون له؛ وفنّ الموشحات- وهو ثورة على القوالب المحافظة- أحرى بذلك.

وإذا كانت العاميّة محظورة في الشعر القريض وفيما عدا الخرجة من الموشح، فإنّ النصّ الزجليّ يُشترَط فيه اللّحن، ويُستقبَح فيه الإعراب[43]. حتّى إنّ ابن قزمان، أعظم زجّالي الأندلس وأوّل منظّر لهذا الفنّ،نجده يتمدّح بتعرية أزجاله

=الموسيقي تجيء فيه دلالة على الختام كمطّ اللحن وما أشبه. وهذه الدلالة تتكوّن من مظهر واحد أو مظهرين في التوشيح. وأحد المظهرين هو التمهيد للخاتمة بقال وقلت وغنّى وغنّيت وأضراب هذه الألفاظ؛ وثاني المظهرين هو إيراد الخاتمة بلغة مخالفة لصلب الموشحة. وقد يكفي التمهيد وحده لرسم حركة الختام، ولكنّ التغيير في اللهجة أو اللغة يؤكّد هذا الختام على نحو أشدّ وأقوى، كما أنّه يزيد الموقف عذوبة وظرفا. ولذلك كان إعطاء الخرجة لونا فارقا يمايز سائر لون الموشّحة مما يؤكد الحركة الختامية ويُحدث في النفس وقعا عميقا. وفي هذا معنى زائد على مناسبة المقام، وهو إشعار السامع باستدارة الموشّحة واكتمالها. وقد تؤدّي الخرجة الأعجمية أو العاميّة معنى التناسب من وجه آخر : فإنّ كونها صدى للتمهيد المبدوء بأنشد أو أنشدت أو غنّى أو غنّيت يقتضي أن تكون مما يغنّى حقّاً في البيئة الشعبية »(م.ن.-ص : 238).

(42) أورد ابن سناء الملك بعض موشحات ابن زهر(انظر:دار الطراز-م.س.-ص : 60، 100)، ولكنّه لم ينسبها إليه، بل إنّه لم يذكره في كتابه ولا ذكر غيره من موشّحي الأندلس في عصر الموحّدين.

(43) يقول ابن حجّة متحدّثا عن وجوب اللّحن في لغة الزجل : «وهذا الذي أجمع عليه علماء فنّ الزجل، وهو أصحّ الأقوال، وأقرب الأحوال؛ وإلاّ فما الفرق بين الزجل والموشّح؟ هذا مُعرب، و هذا ملحون؛ ولحن الزجل إعرابه »(بلوغ الأمل-م.س.-ص : 61).

من الإعراب، فيقول في خطبة ديوانه :

وجرّدت فنّي مـن الإعـرابْ كما يجـرّد السيف مـن القِـراب

فمن دخل علي من هذا البـاب فقد أخطا ومـا أصـاب[44]

كما نجده ينتقد الزجّالين الأندلسيّين الذين سبقوه، علـى ميلهـم إلى الإعـراب، وهو عنده « أقبح ما يكون في الزجَل، وأثقل من إقبال الأجل»[45].

ويلاحظ المتتبّع لأزجال مَدْغَلّيس وغيره مـن زجّـالي هـذه الفـترة أنّ أصحابهـا قد حاولوا فعلاً تجريدها من الإعراب، تستوي في ذلـك«الأزجـال الحـرّة المطلقـة مـن إسار الشكل الشعريّ التقليديّ»، والقصائد الزّجلية الـتي يُسـمّيها ابـن سـعيد- مفرّقـا بينهـا وبـين الأخـرى- « الشـعر الملحـون»[46]. ولقـد مـرّت بنـا نمـاذج مـن النّوعـين في الفصل الذي عقدناه للموشّحات والأزجال.

على أنّ ابن حجّة يذهب إلى أن أزجال مَدْغلّيـس وغـيره لم تُجـرَّد تجريـداً تامّـاً من الإعراب[47]. ولعلّه أخطأ مثل صفـيّ الديـن الحلّـيّ الـذي ذهـب « يقيس كـلام الأندلسيّين على كلام المشارقة في عصره، أو يقيسه على اللغـة الفصحـى... ولم يتنبّـه إلى أنّه إنّما ينظر في لهجة جديدة مستقلّة، وأنّ الأصـل الـذي يجـب أن يُؤسّس عليـه بحثه هو استخراج قواعد عامّة لتلك اللهجة، لا نسبة الزيادة والنقص إلى الألفاظ فيها، قياساً على اللغة الفصحى أو على ما في بعض اللهجات العامّيّة بالمشرق»[48].

وقـد كـان عـدد مـن شـعراء الأندلـس في تلـك الفـترة ينظمـون في أكـثر

---

(44) م.ن.-ص : 59.

(45) ديوان ابن قزمان-تحقيق ف. كورينطي -مدريد- المعهد الإسباني العربيّ للثقافة-د.ط.- 1980م -ص : 2.

(46) انظر: المغرب-م.س.-222/2.

(47) انظر : بلوغ الأمل -م.س.-ص: 59.

(48) إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف والمرابطين -م.س. -ص : 253.

من فنّ: فقد كان غيرُما واحد منهم موشّحا وزجّالاً إلى جانب مشاركته في القريض[49]. ولكنهم كانوا يوظّفون -ما استطاعوا[50]- لكلّ معجمه الخاصّ. على أنّ هذا إذا كان ممكنا -بدليل كثرة الأمثلة عليه في تلك الفترة وغيرها- فإنّ من الغريب حقّاً ما يُروى عن بعضهم من أنّه كان يُملي قصيدة وموشّحا وزجلاً في ذات الوقت[51]، ولكلٍّ منها معجمُه.

ب- تحقّق في معجم الشعر القريض في هذه الفترة -عدا استثناءات قليلة- ما يشترطه عدد من النقّاد من أن تكون مُفردَات معجم الشعر مأنوسة، غير غريبة نافرة، ولا سوقية مبتذلة. ولعلّ ذلك أن يكون أكثر تحقّقا في شعر الرصافيّ البلنسيّ وأبي بكر ابن مُجْبَر وأبي بحر صفوان بن إدريس وغيرهم ممّن ترفّع معجمهم عن ساقط اللفظ، وتحاشى الغريب. فلو تتبّعنا ديوان الرصافيّ -مثلا- لما استوقفتنا لفظة واحدة يصعب فهمها على المثقّف الأدبيّ الذي نعدّه مقياسا في تحديد غريب اللغة ومأنوسها، ولما وجدنا أيضا لفظة يمكن نعتها بالسّوقية والابتذال. فهل كان الرّصافيّ وأمثاله يجنحون إلى هذا المعجم « الأوسط » -إذا صحّ النعت- عن عفويّة واعتباط؟ أم كانوا يفعلون ذلك متقيّدين « بشروط » النقاد؟ ليس في أقوال المترجمين ولا في حديث الشعراء عن إبداعهم ما يساعد على الجواب.

وإذا كانت هذه هي السمةَ الغالبة على معجم الشعر القريض في تلك الفترة،

---

(49) كان ابن زُهر الحفيد وابن سعيد و ابن حَزْمون يجمعون في نظمهم بين الموشّح والقريض، وكان مدغلّيس ينظم في الفنون الثلاثة. وغير هؤلاء كثير.

(50) يقول الدكتور إحسان عبّاس متحدّثا عمّن كان من الشعراء يجمع بين الشعر القريض والموشّح:«... حتى ليخطر لنا أن نتساءل: كيف يستطيع الواحد من هؤلاء أن يفصل هذا الفصل بين ميدانين»، ثم يقول:«والحقّ أنّنا عند التدقيق نجد ظلالا متداخلة متشابكة...» (ديوان الأعمى التطيلي -م.س. -المقدّمة -ص: ذ).

(51) انظر: الرعيني: برنامج شيوخ الرعيني -م.س. -ص: 191.

فإنّ هناك قصائد جنح أصحابها إلى استخدام الغريب، كما أن هناك قصائد أومقطّعات نزل أصحابها بمعجمها إلى دركة المبتذَل الساقط وما إليه من بذيء ونحوه.

فمن النصوص التي حوت عدداً من الألفاظ الغريبة : القصيدة الزّائية التي رفعها ابن حزمون إلى الخليفة المستنصر مادحاً إياه ومتظلّما من المجريطي عامل المستنصر على مُرْسِية. وهي، وإن كانت تقع بُعيد هذه الفترة، من أحسن الأمثلة على ظاهرة الغريب في بعض شعر ذلك العصر. ولعلّ لابن حزمون وغيره ما يشبهها في هذه الظاهرة ممّا يدخل حقّاً في فترتنا، ويجوز ضرب المثل به.

على أنّ ما دفع ابن حزمون- الذي لا نجده يجنح إلى استخدام الغريب فيما وقفنا عليه من أشعاره الأخرى- إلى استعمال كثير من غريب اللغة في هذه القصيدة : شيئان. أولهما : بناؤه قصيدتَه على قافية صعبة: فالألفاظ المأنوسة المنتهية بحرف الزاي قليلة، الأمر الذي اضطرّه إلى البحث عن الكلمات المختومة بذلك الحرف، ولو كانت ممّا لا تتداوله الألسن؛ والآخر: استهلاله قصيدتَه بمقدّمة ذهب فيها مذهب الأوائل من حيث وصف الناقة التي تُقلّ إلى الممدوح، وتصوير الرحلة إليه،وما إلى ذلك مما يتطلّب معجماً شبيهاً بمعجم السابقين، في غرابة كثير من مفرداته. يقول ابن حزمون من مقدّمة تلك القصيدة :

فعزّيتُ نفسي واقتعدتُ شِمِلّة ترى خلفَها كُومَ المهارَى جوامزا
كأنّ لها من جاهِد الشدِّ ناخساً يُهيّجُها عند الفتورِ و هامزا
و ما رمْتُ مرقالَ الودائقِ و السُّرى أُقطّعُ غيطانَ الفلا و الأماعزا[52]

ويقول شاكيا ما أصابه من ظلم المجريطي :

أداروا عليه من سِمام اعتدائهمْ أباريقَ ممّا يتّقَى و قَواقِزا
و شَقّوا عليه ظالمين أديمَهُ كأنْ قد أصابوه عن الحقّ ناشزا

---

(52) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س.- 243/1/5.

...فهمّوا و لولا ما وقى الله غيّبوا حشاشة نفسي و استباحوا الجرامزا[53]

ففي الأبيات السابقة جملة من الكلمات، تتراوح بين الغرابة وقلّة التداول، وهي : «شملّة» و«كُوم» و«جوامز» و«رمت» و«مرقال» و«الودائق» و«غيطان» و«الأماعز» و«سمام» و«قواقز» و«الجرامز»[54].

ومن الأشعار التي نزل معجمها عن تلك المرتبة الوسطى التي يشترطها النقّاد في معجم الشعر، ما نجده لابن جبير مثلاً، حيث لا تختلف لغته عن لغة الحديث النثريّ البسيط، كقوله، مهاجما الفلاسفة، مما سبق الاستشهاد به في غرض آخر :

قل للزناديق عنّي	قولاً هو السيف أُمضيه
أرسلت شعريَ فيكم	يغزوكمْ بقوافيه
صدعت لله فيه	بالحقّ و الحق يُرضيه
كم ظامئ لكلامي	يَرويه عُجْبا فيُرويه
و كم غليلِ فؤاد	بصحّة القول يَشفيه
و راكب لهواه	عساه يوما سيَثنيه
لعلّكم أن تقولوا	فإنّكم أهل تمويه :
من كان جاهل شيء	فلا يزال يعاديه
هيهات بُغضي فيكم	في الله و الله يدريه
وذلك العلم عندي	لا خير فيكم و لا فيه[55]

(53) م.ن.-ص : 245.

(54) شملّة : سريعة خفيفة؛ كُوم : جمع «كوماء»، وهي الناقة العظيمةالسّنام؛ حوامز : واثبة؛ رمت : تركت؛ مرقال : سريعة؛ الودائق : جمع «وديقة»،وهي : حرّ مُنتصَف النهار؛ غيطان : جمع «غوط» وهو : المنخفض الواسع من الأرض؛ الأماعز : جمع «أمعز»، وهو: الأرض الحزنة الغليظة ذات الحجارة؛ وسمام : جمع غير متداول لـ «سمّ»؛ الجرامز : جمع «حرموز»، وهو : البيت الصغير.

(55) م.ن.- 612/2/5.

فما كانت لغة الشعر بهذه البساطة وهذا التدنّي، وإن زعم ابن جبير أنه يقول شعراً.

وإذا كان القاضي ابن الملك وغيره ممن احتفوا بمثل هذا الشعر قد صدروا في ذلك عن استحسانهم لموضوعه ومقصد صاحبه، فإنّ المؤلّف الذي يصدر في اختياره عن مبادئ فنّية لا يهمل الجوانب الشكليّة في العمل الأدبيّ، إن لم يؤثرها باهتمامه. وإنّ هذا الاختلاف بين مؤلّفي الكتب ليجعلنا نقول مع الدكتور عبد العزيز الأهوانيّ متحدّثا عن أحد أدباء تلك الفترة: «ولعلّها (أي النصوص التي اختيرت له) تمثّل أذواق ناقليها، أكثر من تمثيلها لذوقه هو»[56].

ولم يتحرّج بعض شعراء هذه الفترة من استخدام ألفاظ بذيئة ومفردات فاحشة، في بعض نصوصهم الهجائية وغيرها. وقد نقل بعض المؤلّفين تلك النصوص في كتبهم من غير ما تحرّج. على أنّ هذه الظاهرة ليست جديدة في الشعر الأندلسيّ: ففي الفترات السابقة أمثلة كثيرة على وجودها[57].

ومن شعراء هذه الفترة الذين وجدناهم يفعلون ذلك في بعض نصوصهم: يحيى اليَكّي، وحفصة الركونيّة، ونزهون بنت القلاعي. ولعلّ اليكّي أن يكون أكثرهم استخداما لبذيء اللفظ وفاحش الكلام. ولقد مرّ بنا نموذج له في هجاء أحد الوزراء[58]، فيه ما يدلّ على هذه الظاهرة في أهاجيه. وحسبنا -بعد ذلك- أن نحيل -في حاشية الصفحة- إلى بعض المصادر

---

(56) الزجل في الأندلس -م.س.-ص: 111.

(57) كما في شعر مُهْجة بنت التَيّاني (انظر: ابن سعيد: المغرب -م.س. -1/143)، والأبيض (انظر: صفوان بن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص:109-112)، والمخزوميّ الشريف (انظر: م.ن. -ص: 117-118).

(58) انظر: م.ن. -ص: 122-123.

التي حوت بعض تلك النصوص[59].

ولم يختلف الجزء الفصيح من الموشح كثيرا عن الشعر القريض من حيث بعدُ المعجم عن الوحشيّ النافر، وتحاشيه السُّوقيّ المبتذَل. ذلك أنّ مفردات معجمه جاءت -في الغالب- مأنوسة. على أنّنا -عند المقارنة الدقيقة بين لغة الموشّح الشعريّ ولغة غيره- نجد لغة الأول أبعد عن السُّوقيّة وأنأى عن الابتذال، بينما نجد لغة الآخر أقربَ إلى العاميّة وأدنى من الحديث الدارج. وحسبنا أن نوازن بين معجم ابن زهر الحفيد في موشّحه الشعري المشهور «أيها الساقي إليك المشتكى»، ومعجمه في موشّح آخر له خرج فيه عن الأوزان الخليلية.

يقول من الأول:

غصن بان مال من حيث التوى
بات من يهواه من خوف النوى
قلقَ الأحشاء مهضوم القوى

كلما فكّر في البين بكى ماله يبكي لما لم يقع؟![60]

ويقول من الثاني:

قلب قريح وفي الفؤاد كلوم أبدا تدمى
ويا مشيح إلى متى تستديم جسدي سقما
ويا نصوح أهدى إليك الملوم أذنا صمّا
أطلتَ عذله وما أراك تطيق ردّه عن شان
وأيّ نكر أن يلام مشوق عذره قد بان[61]

---

(59) انظر: المقّري: نفح الطيب -م.س.- 175/4؛ صفوان بن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص: 88:122؛ ابن سعيد، المغرب- 267/2-270...

(60) ابن الخطيب: جيش التوشيح- م.س. -ص: 202-203.

(61) م.ن.-ص: 207.

ولم يجد، كذلك، بعض الوشّاحين حرجا في استخدام الألفاظ البذيئة في بعض موشحاتهم. ومن الأمثلة على ذلك ما فعله ابن حزمون -كما أشرنا سابقا- من مجاراة أبي عبد الله بن حجّاج البغداديّ، إذ أنشأ ابن حزمون جملة من الموشّحات عارض بها الموشحات المشهورة بالأندلس في العروض والرويّ، مكثرا فيها من «الفحش و ذكر السوءات» إلى درجة أن تحرجّ محقّق مصدرها من إثباتها.

أما الخرجات فما كان منها مُعرَبا لم يختلف -فيما ذكرنا- عن باقي الموشّح، وما كان منها عاميّا لم يتحقّق فيه دائما ما اشترطه ابن سناء الملك في الخرجة من« أن تكون حجّاجيّة من قِبَل السّخف... من ألفاظ العامّة و لغات الداصة»[62].

فأين الخرجات التالية من هذه الشروط؟

يقول ابن زهر الحفيد في خرجة موشحه « صادني و لم يدر ما صادا »

عليش حبيبي قطعت الزياره   وعينيك سحّاره[63]

ويقول في موشحه الذي مدح فيه الأمير الموحّديّ أباحفص :

أبو حفص هُ سلطاني   ا لله يحرزو لي

هُ آمنّي هُ أغناني   هُ بلّغنِ سولي[64]

ويقول أبو جعفر ابن سعيد في خرجة موشّحة له :

با لله قل يا رسولي   لش يغبْ بدري[65]

فهل أخّل بعض موشّحي هذه الفترة بما كان يلتزمه سابقوهم من لغة سخيفة ساقطة؟ أم أنّ ابن سناء الملك لم يستقص -وهو ينظّر لفنّ التوشيح-

---

(62) دار الطراز-م.س.-ص : 40.

(63) ابن الخطيب: جيش التوشيح-م.س.-ص : 212.

(64) ابن سعيد- المغرب-م.س.-275/2.

(65) م.ن.-ص : 104.

الموشحات الأندلسية،ومنها المعاصرة له[66]، استقصاء كافيا؟ إننا نميل -كما أسلفنا- إلى أنّ تنظيره قد بناه- بحكم بُعده عن الأندلس- على أمثلة قليلة.

وأمّا لغة الأزجال التي خلّفتها هذه الفترة -وفي طليعتها ما نظم مَدْغَلّيس- فمن الصعب أن نحدّد فيها الغريب النّافر، والقريب المأنوس، والساقط المبتذل؛ لأنّ من الصعب، أيضا، تحديد تلك المستويات في عاميّة الأندلس، بناء على ما تبقّى منها. بل لعلّ تلك العاميّة لم تعرف إلا مستوى واحدا، هو الذي تمثّله لغة النصوص الزجلية التي وصلت إلينا، وإن كنّا نلاحظ أنّ معجم الأزجال التي نُظمت في أغراض جادّة، كالمدح وما إليه، يختلف عن معجم الأزجال التي قيلت في أغراض لاهية. فإذا كان الأوّل أقرب إلى اللغة الفصيحة و« أصعب » فهما على من لا يعرفها، فإنّ الثاني كان « في متناول » الجميع. وفيما مرّبنا من نماذج لمدغلّيس ما قد نُلفي فيه ذلك التفاوت.

جـ- بيّنّا -فيما سبق- أن الشعر القريض في الأندلس، في هذه الفترة، قد عرف تعايش الاتجاهين الفنّيّين الوافدين من الشرق : طريقةِ العرب، ومذهب المحدَثين؛ كما بيّنا أن اتجاه المحدثين بدأ يتقلّص لفائدة الاتجاه المحافظ، لعوامل ذكرناها هناك.

ومن سمات الشعر الذي سار على طريقة العرب:جزالة معجمه. قال الدكتور إحسان عبّاس:«يقوم مذهب العرب من حيث مبناه على قاعدتين هامّتين، تتّصلان بموسيقاه العامّة وهما:الجزالة و شدّة التدفّق»[67]. وقد غدت تلك الجزالة عند بعضهم«مقياس»الجودة أيّا ما كان الغرض الذي ينظم فيه الشاعر،وأيّا ما كان الموضوع الذي يطرقه،حتى إن ابن خفاجة قال- قُبيل هذه الفترة-منتقداً ذلك المذهب ومبيّناً خَطَله :« وإن جميع الكلام... مستهدف لمطعن طاعن، إمّا بوجه صحيح

---

(66) ومنها موشّحات هذه الفترة.

(67) تاريخ الأدب الأندلسيّ:عصر الطوائف و المرابطين-م.س.-ص : 108.

يُعقَل ويُقبَل، وإما لخبث سريرة، وضعف بصيرة، وخطوة في الإدراك قصيرة. ولوجود هذين القسمين الأخيرين، أو وجود أحدهما في أحد أهل هذا العصر، بذلك المصر، ما بلغنا أنّه لا يرى لأحد من حاكة الشّعر في حال من أحواله، وقول من أقواله، إلاّ أن يتجزّل، مدح أو تغزّل، وجدّ أو هزل. ويستهجن في باب الغزل تلك الطريقة الأنيقة، ويستبرد تلك الألفاظ المرهَفة الرقيقة»[68]. ثم يورد ابن خفاجة نصوصا له يؤيّد بها ما يذهب إليه من ضرورة اختلاف المعجم بين الجزالة والرقّة تبعا للأغراض.

ويلاحظ المتتبّع للشعر الأندلسيّ في تلك الفترة تنوّع معجمه: ففي المدح والفخر وما إليهما من أغراض يسودها طابع الجدّ، يجنح ذلك المعجم -في الغالب- إلى اللفظ الجزل والمفردة الفخمة؛ وفي الغزل والحنين وما إليهما ترقّ اللغة وتسلس الكلمات. فإذا تتبّعنا النصوص التالية ألفينا جزالة واضحة وقوّة ظاهرة:

يقول أبو جعفر ابن سعيد مادحاً الخليفة عبد المؤمن عندما جاز إلى الأندلس جوازه المشهور:

أطلّ على أهل الجزيرة سعدها   وصدّقها من ذلك الخبر الخُبْرُ
فما «طارق» إلاّ لذلك مُطرق   و«لابن نُصير» لم يكن ذلك النصر
هما مهّداها كي تحلّ بأفقها   كما حلّ عند التّمّ بالهالة البدر[69]

ويقول الرصافيّ البلنسيّ مفتخراً بتعففه عن التكسّب بشعره:

على أنّني لا أرتضي الشعر خطّة   ولو صيّرت خضرا مسارحيَ الغبرا
كفى ضعةً بالشعر أن لست جالباً   إليّ به نفعا ولا رافعا ضرّا
يقول أناسٌ: لو رفعتَ قصيدة   لأدركت حتما في الزمان بها أمرا

---

(68) ديوان ابن خفاجة-م.س.-ص: 11-12.

(69) الحلل الموشية-م.س.-ص: 156.

ومـــن دون هــــذا غــيرة جاهليّـــة   وإن هـــي لم تــلزم فقــد تــلزم الحـــرّا
ألــم يأتهـــم أنّـي وأدت بحـكمـــها   بنيّات صدري من قبل أن تبرح الصدرا[70] ؟

ويقــول ابـــن طفيـــل، علـــى لســـان الخليفـــة أبـــي يعقـــوب يوســـف، في دعــوة القبــائل العربيــة المقيمــة بـــالمغرب الأوســـط، إلى المســـاهمة في عمليّــة الجهاد بالأندلس :

أقيمـوا صـدور الخيـل نحو المغـاربِ   لغـزو الأعـادي و اقتنـاء الرغـــائب
وأنْ كُوا المذاكي العاديات على العدى فقد عرضت للحرب جـرد السلاهب
فـلا تُجتنَــى الآمال إلاّ من القنـا   ولا تُكتَـب العليـا بغـير الكتـائب
ولا يبلــغ الغايـــاتِ إلاّ مصمّـــم   علـى الهـول ركّـابٌ ظهـورَ المصـاعب
... لكم قبّة للمجد شُدّوا عمـادهـا   بطاعة أمـر الله من كـلّ جانـــب[71]

وإذا قرأنا النماذج التالية أحسسنا برقّة لغتها،وشعرنا بسلاسة معجمها :

تقول حفصة الركونيّة مخاطبة ابن سعيد :

أزوركَ أم تــزور فـــإنّ قلـــبي   إلى مـــا ملتـــمُ أبـــداً يـــميلُ
... فثغـري مـورد عَـذْب زُلال   وفـــرع ذؤابـــتي ظـــلّ ظليـــل
فعجّـلْ بالجـــواب فـما جميـل   أناتك عن«بُثينة» يا«جميــل»[72]

ويقول ابن زهر الحفيد مصوّرا شوقه إلى ولده، وشوقَ ولده إليه :

ولي ولــد مثــل فــرخ القَطَــاة   صغـــير تخلّيـــت قلـــبي لديـــه
أحـــنّ إليـــه فيـــا وحشـــتي   لـذاك الشُّخيص و ذاك الوُجيـه
تشــــوّقني و تشـــــوّقته   فيبكـي علـــيّ وأبكـــي عليـه

(70) ديوان الرصافي البلنسيّ-م.س.-ص : 76.

(71) ابن صاحب الصلاة:تاريخ المنّ بالإمامة- م.س.-ص : 411-412.

(72) ابن سعيد: المغرب-م.س.-166/2.

وقد تَعب الشوق ما بيننا فمنه إليّ ومنّي إليه[73]

ويقول ابن عيّاش شاكياً الإقامة ببلنسية :

بَلَنْسية بيني عن القلب سلوة فإنّك روض لا أحنّ لزهركِ
وكيف يُحبُّ المرءُ داراً تقسّمت على صارمي جوع وفتنة مشرك؟[74]

على أنّنا نلاحظ، حين نستقصي نتاج تلك الفترة، أنّ الجزالة كانت هي الغالبةَ. فقد كان عدد من الشعراء يجنحون إلى استخدام اللفظ الجزل حتى في المواطن التي تتطلّب الرقّة وتقتضي السلاسة. ويُمكن تعليل ذلك بخضوعهم لذوق أمثال ذلك « الناقد » الذي تحدّث عنه ابن خفاجة، أو بإمعانهم في السير على طريقة العرب. ومن الأمثلة على غَلَبة الجزالة حتى في غير محلّها:ما نجده في مقدّمة قصيدة ابن البرّاق الوادي آشيّ في مدح الرسول وصحابته التي سبق الحديث عنها. ففيها يقول :

بالهَضْبِ هَضْبِ زرودَ أو تَلعاتها شاقتك هاتفة على نغماتها
مصدورة تفتنّ في ترجيعها فيبينُ نَفْثُ السحر في نَفَثاتها
إن راقها رأدُ الضحى أو راعها جنح الدّجى سِيّانِ في ذكراتها
هذا يمتّعها و ذاك يشوقها فالموت في يَقَظاتها و سِناتها
و لو التعلّلْ بالكَرى ينتابها نضحت بزوْر الطّيف بَرْحَ شَكاتها
لكنّ بين جفونها و منامها حرباً تُثير النّهْبَ في كَرّاتها
و لئن نطقتَ لها به فتقوّل مَن للرياح بملتقى هَبّاتها[75]

ولعلّ ما طبع لغتها من جزالة غير مناسبة هو الذي جعل

---

(73) صفوان بن إدريس:زاد المسافر- م.س.-ص : 71-72.

(74) م.ن.-ص : 136.

(75) ابن عبد الملك:الذيل والتكملة-م.س.- 6/469-470.

ابن الخطيب -وهو ذو حسّ نقديّ مُرهَف[76]- ينتقدها واصفا إياها بأنّها « ثقيلة الرّوح»[77].

على أنّنا لم نُلْفِ في نصوص هذه الفترة -على الرغم ممّا يطبع جلّها من جزالة وقوّة- ما نجده في بعض شعر ابن هانئ -الذي ظلّ تأثيره في شعراء الأندلس الذين أتوا من بعده- من « جلبة لفظيّة »، لفتت كثيراً من النقّاد، فعابوها عليه[78].

وإذا كان معجم الشعر القريض قد جمع -كما بيّنّا- بين الجزالة والرقّة تبعا لتنوّع الأغراض واختلاف المواضيع، مع ميل واضح إلى الجزالة ونزوع نحو الفخامة، فإنّ المطلوب في الموشَّحات -عند متذوّقيها ونقّادها- أن تكون رقيقة اللغة سلسة الكلمات، أيّاً ما كانت أغراضها و مواضيعها. قال الدكتور مصطفى عوض الكريم : «ولا شكّ أنّ بساطة التعبير و رشاقة الكلمات من الأسس التي قامت عليها الموشّحات الأولى»[79].

ولقد توفّر ذلك حقّاً في كثير من موشّحات هذه الفترة: ففي الجزء التالي من الموشّح السالف لابن زهر رقّة وسلاسة، وعذوبة ورشاقة :

ما للمولّه	من سُكره لا يفيق	يا له سكرانْ
من غير خمر	ما للكئيب المشوق	يندب الأوطان
هل تُستعاد	أيامنا بالخليج	و ليالينا
إذ يُستفاد	من النسيم الأريجْ	مسكُ دارينا
و إذ يكاد	حسن المكان البهيجْ	أن يحيّينا

(76) انظر-مثلا- ما يصف به شعر الرصافيَ البلنسيّ في : الإحاطة-م.س.-506/2.

(77) م.ن.-ص:490.

(78) انظر : ابن رشيق :العمدة-م.س.-125/1.

(79) الموشحات والأزجال-القاهرة-دار المعارف بمصر-د.ط.-1965م-ص : 15.

نهــــر أظلّــــه دوح عليــــه أنيــــق مؤنــــق فينــــان
و المـاء يجـــري و عـائـم و غـريــــق من جَنَى الريحّان[80]

وفي هــذا البيــت مــن موشّــح ابــن نــزار الســابق بعــد عــن الجزالــة ونأي عن الفخامة :

اشرب على نغمة المثانــي ثــان
ولا تكــن في هــوى الغوانــي وان
وقــل لمــن رام في معـــان عــان
مــاذا مــن الحسـن في بــرود رود[81].

ولعلّ الموضوعات التي كـانت الموشّحات تتناولها، كـالغزل ووصـف الطبيعة ومـا إليهمـا، هـي الـتي طبعـت لغتهـا بالرقـة والسلاسـة، ولعـلّ تلـك السلاسـة هـي الـتي أشـار إليهـا ابـن حزمـون في قولـه السـالف : « مـا الموشّـح بموشّـح حتى يكون عاريا عن التكلّف» [82].

على أنّ هذه الرقّة التي كانت ماتزال تطبع لغة الموشّحات حتّى فترتنا ستحلّ محلّها جزالة في بعض مـا نظـم الوشّـاحون الذيـن أتـوا مـن بعـد، كـابن الخطيـب وغيره. وقـد أشـار إلى ذلـك التحـوّل الدكتـور مصطفـى عـوض الكريـم حـين قـال : « و لكنّ المتأخرين منهم(أي الوشّاحين) أكـثروا مـن استعمال الألفـاظ و الـتراكيب الكلاسيكيّة... وكلّما زادت حَذْلَقة الوشّاح، زاد نصيبه من التكلّف»[83].

أما الأزجـال فقـد بـدأت الجزالـة تطبـع لغتهـا علـى يـد مَدْغَلّيس وأضرابـه،

---

(80) المقرّي:نفح الطيب-م.س.- 9/7.
(81) ابن سعيد:المغرب-م.س.-147/2.
(82) المقّري:نفح الطيب-م.س.-ص : 9.
(83) الموشّحات والأزجال-م.س.-ص : 15.

وتبتعد عما كانت تتّسم به، على عهد ابن قزمان وبعض سابقيه، من سلاسة ورقّة[84]. ولقد مرّبنا ما ذكره المقّري من بعض خصائص فنّ مدغلّيس : كالصنعة والالتفات إلى اللفظ، كما تحدّثنا عما فعله مدغلّيس من إدنائه النصّ الزجليّ من القصيدة العربيّة.

د- يذهب النقّاد إلى أن الشاعر يتجاوز، حين يستخدم مفردات اللغة، معانيَها المعجمية ودلالاتها القاموسيّة، فتصبح تلك المفردات في نصّه ذات ظلال، توحي بما كان ينتابه من أحاسيس وتومئ إلى ما كان يخالجه من مشاعر. فهل تحقّق ذلك في لغة الشعر الأندلسيّ في هذه الفترة؟

إنّ توظيف مفردات اللغة هذا التوظيف ليس في مُتناوَل كلّ خائض في بحر الشعر. ولذلك كان من الطبيعيّ أن نجد تفاوتاً بين شعراء هذه الفترة: فإذا كانت مفرداتُ معجم بعضهم قد تحقّق فيها ذلك فغدت موحية بمشاعر أصحابها رامزة إلى أحاسيسهم،فإنّ مفردات معجم غيرهم كانت دون ذلك، إذ لم يكادوا يتجاوزون بها دلالاتها القاموسيّة، فجاءت تقريرية مباشرة، خالية من « ماء الشعر ».

فالغالب على لغة الشعراء المطبوعين من أمثال الرّصافيَ البلنسيّ اتسامها بتلك الخاصّيّة، والشائع في لغة شعر الفقهاء ومن إليهم المباشَرة والتقرير والقصور عن الإيحاء.على أنه من الإنصاف أن نُقرّر أن الشاعر الواحد قد نجد لديه تفاوتاً واضحاً بين نصّ وآخر : فبينما تسمو لغته في بعض نصوصه إلى الدرجة التي ذكرنا، فنراها موحية رامزة، تنحطّ في نصّ آخر إلى دركة اللغة النثرية الباهتة. ولعلّ أفضل من نُلفي لديه هذا التفاوت من شعرائنا : ابن جبير.

وإذا كان تفاوت الشعراء في حُسن توظيف مفردات اللغة، راجعا إلى تفاوت في القريحة -وهو أمر مُسلّم به- فإنّ ما نجده بين نصّ وآخر، من ذلك التفاوت،

(84) يصف ابنُ قزمان الشيخ أخطل بن نمارةبـ «سلاسة الطبع». انظر : ديوان ابن قزمان-م.س.- ص:2.

قد يعود إلى طبيعة الموضوع. فإذا كانت الموضوعات الذاتيّة -مثلا- تستدعي اللغة الإيحائيّة، فإنّ موضوعات أخرى قد لا تقتضي ذلك، إن لم تكن تأباه بحكم طبيعتها. ومن ثمّ لا يتجاوز « الناظمون » فيها المعانيَ المعجميّة للّغة.

ونحسب أنّ أبرع شعراء الفترة توظيفا لمفردات اللغة، وأحسنَهم استغلالاً لطاقاتها الإيحائية هو الرصافي البلنسيّ. ولعلّ ابن الخطيب أن يكون قد أدرك ذلك في شعره، فقال واصفا مُنوّها : « وشعره لا نهاية فوقه رونقاً ومائيّة... وتمكّنَ ألفاظ، وتأصُّلَ معنى»[85].

وحسبنا أن نستشهد على ذلك التوظيف البارع عند الرصافي للمفردات، وذلك الاستغلال الجيّد لما فيها من طاقات إيحائيّة بالمقطع التالي، وهو من رائيته الشهيرة في الحنين إلى وطنه، حيث يقول :

خليليّ إن أصدر إليها فإنّها   هي الوطن المحبوب أوكلته الصدرا
ولم أطو عنها الخطو هجرًا لها، إذا   فلا لثمت نعلي مساكنها الغرا
ولكنّ إجلالاً لتربتها التي   تضمّ فتاها النّدْب أو كهلها الحرّا
... ثكلتهمْ ثكلا دهى العين والحشا   ففجّر ذا ماء، وسجّر ذا جمرا[86]

فكلمة«المحبوب»توحي بالتعلّق الشديد بالوطن، والحنين العارم إليه؛ وكلمة«أوكلته» توحي بوقف الشاعر حبّه على وطنه، وقَصْره عليه؛ وكلمة«لثمت» توحي بالحبّ الشديد، كما قد توحي بالتقديس؛ ولفظة « الغرّاء » توحي بالجمال والإشراق ولقد سبق له، في أحد أبيات هذه القصيدة، أن شبّه بلنسية بـ «الدّرّة البيضاء»؛ وكلمة« تضمّ » توحي بالحُنوّ والعطف والحنان، فيتصور المتلقّي تربة بلنسية حانية على موتاها، حادبة عليهم؛ و« ثكلتهم » توحي بقسوة الفقد

(85) الإحاطة-م.س.-2/506.

(86) ديوان الرصافي البلنسي-م.س.-ص : 71-72.

ومرارة الفراق، إذ الثُّكل -في الأصل- فقد الأبناء، وهو من أقسى ما يصيب الوالدين من خطوب، حتى إنه شاع الدعاء: « ثكلتك أمّك ! »، ومنه المثل: «ثكلتك أمّك، أيّ جرد ترقع؟!»[87]؛ وفي ألفاظ الشطر الثاني من البيت الأخير ما يوحي بمعاناة الشاعر في غربته: فعبارة«فجرّ ماء» توحي بغزارة ما يذرف من دموع على الذين ذكرهم من أبناء بلنسية، وعبارة«سجّر جمراً» توحي باضطرام مشاعره واحتدام لواعجه.

ومثل هذا الايحاء لمفردات معجمه، نُلفيه في غيرِ ما نصّ من نصوصه.

ولقد مرّ بنا في الفصل الذي عقدناه للحنين، نصّ للرصافي وظّف فيه بعض الأسماء توظيفا رمزيّا على نحو ما كان يفعله -أحيانا- ابن خفاجة.

وإذا كان استخدام بعض مفردات اللغة استخداماً رمزيّاً مما يشيع في شعر التصوّف خاصّة، فإنّ المتتبّع لشعر هذه الفترة لا يجد إلاّ نماذج قليلة، جنح فيها أصحابها إلى الرمز. ولقد ذكرنا في الفصل الذي خصّصناه للشعر الدينيّ أنّ ما يُمكن اعتباره شعراً صوفيّاً،من نتاج تلك الفترة، قليل جدّا.

ومن النماذج القليلة الّتي وُظّف فيها بعض الأسماء توظيفاً رمزيّاً نصّ ابن جبير التالي:

سكّانَ وادي العقيق شوقي ... إليكمُ في البعاد زادا
و نظرة منكم المنى لو ... أهديتموها إليّ زادا
عهدٌ لنا عندكم حميد ... يا ليته بالوصال عادا
صادق فيه الكرى جفوني ... و بعدكم للجفون عادى[88]

فغزله فيه صوفي، و«وادي العقيق» رمز إلى البقاع المقدّسة التي كان ابن جبير يتحرّق شوقا إليها، ويُعاني تباريح الغرام بها.

---

(87) يُضرب لطالب شيء لا ينتفع به.

(88) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.- 615/2/5.

وإذا كان غزل أبي بكر ابن طُفيل في نصه السابق : «أَلمّت وقد نام المشيح وهوّما»[89] غزلا صوفيّاً، كانت المرأة التي يتحدّث عنها رمزاً للحضرة الإلهيّة، كما كانت المصطلَحات الغزليّة التي وردت في النصّ إشارات إلى معان صوفية، وذلك على نحو ما نجد في ديوان ابن عربي « ترجمان الأشواق » الذي شرحه بنفسه شرحا صوفيا، مؤوّلا ما فيه من تعابير غزليّة[90].

على أن استخدام الرمز لم يكن وقفا على الشعر الصوفيّ. ففي نصّ أوردنا بعضه في الفصل الذي عقدناه للإخوانيّات، نجد صفوان بن إدريس يُوظّف كلمة « نجد »وغيرها رموزاً إلى أماكن يُحبّها، وأناس يهواهم. فيقول :

سقى مضرب الخيمات من عَلَمَيْ نَجْـدِ   أسحُّ غمامَي أدمعي و الحيا الرغد
... ليَ الله كم أهذي بنجد وأهلها   وما لي بها إلاّ التوهّم من عهد

---

(89) عبد الواحد المراكشي:المعجب- م.س.-ص : 172-173.

(90) أورد ابن عربي في مقدّمة ذلك الشرح الذي سمّاه«ذخائر الأعلاق، في شرح ترجمان الأشواق » قصيدةيدعو فيها قارئ ديوانه إلى أن يصرف الخاطر عن الظاهر ويطلب الباطن. يقول في هذه القصيدة :

كلّما أذكره من طلل   أو ربوع أو مغان كلّما
... أو أنادي بحُداة يمّموا   بانة الحاجر أو وُرْق الحِمى
... أو طريق أو عقيق أو نَقا   أو جبال أو تلال أو رِما
أو خليل أو رحيل أو ربى   أو رياض أو غياض أو حمى
أو نساء كاعبات نُهّد   طالعات كشموس أو دُمى
كلما أذكره مما جرى   ذكره أو مثله أن تفهما
منه أسرار و أنوار جلت   أو علت جاء بها ربّ السما
... صفة قدسية علوية   أعلمت أنّ لصدقي قدما
فاصرف الخاطرَ عن ظاهرها   و اطلب الباطن حتى تعلما

ثم يوضّح الرمز على نحو ما يفعل بعضهم[91]، فيقول :

وما بي إلى نجد نزوع و لا هوًى خلا أنهم شنوّا القوافي على نجدِ
وجاءوا بدعوى حسّن الشعر زورها فصارت لهم في مصحف الحبّ كالحمد[92]

هـ- إذا كان شعراء الأندلس في هذه الفترة قد اطّلعوا على كثير من التراث الأدبيّ السابق من مشرقيّ وأندلسيّ، وحفظوا أجزاء صالحة منه، كما ينصّ على ذلك مترجموهم، وكما يتجلّى من خلال نتاجهم، فإنّهم قد تشرّبوا أيضا كثيرا من الآثار الدينيّة كالقرآن والحديث وما إليهما من تفاسير ومُصنّفات فقهيّة وغيرها.وقد كان لذلك أثره في مُعجَمهم الشعري، لا في النصوص التي عالجت مواضيع دينيّة كالمدائح النبويّة وأشعار الزهد والتصوّف وغيرها فحسب، وإنما في غيرها. وقد لفتت هذه الظاهرة انتباه الأستاذ عبد القادر محداد محقّق«زاد المسافر»، فقال :« ... إن أكثر الشعراء هم من الكتّاب والقضاة وذوي المناصب الدينيّة...وشعرهم شعر أدباء وفقهاء تشرّبوا كثيراً من كتب الأدب والتفاسير القرآنية

= (ترجمان الأشواق-م.س.-ص : 10-11).

وقد حاول د.زكي نجيب محمود أن يُوضّح «طريقة الرمز عند ابن عربي » في الديوان المذكور. انظر : الكتاب التذكاريّ : محيي الدين بن عربيّ-القاهرة-دار الكتاب العربيّ للطباعة والنشر-د.ط.-1389هـ.-1969م-ص : 67-104.

(91) كشهاب الدين السّهروردي حيث يقول في خاتمة حائيّته المشهورة :

قم يا نديم إلى المدام و هاتها فبحانها قد دارت الأقداحُ
من كَرْم إكرام بدنّ ديانة لا خمرة قد داسها الفلاّح

(السهروردي المقتول-إعداد وتحقيق يوسف إيبس-بيروت-درا الحمراء للطباعة والنشر-الطبعة الأولى- 1990م-ص : 78).

(92) المقّري:نفح الطيب-م.س.-66/5.

والأحاديث النبويّة، فلا يستطيعون أن يقولوا شعراً دون أن يشيروا و يلوّحوا إلى معلوماتهم الأدبيّة و الدينيَة»[93].

على أنّ تأثّر معجم الشعر الأندلسيّ في هذه الفترة بلغة الكتب الدينية يختلف من شاعر إل آخر، تبعا لاختلاف تشرّبهم للثقافة الدينيّة. فابن جُبير -مثلا- من أكثرهم إلماما بهذه الثقافة. ولذلك نجد معجمه الشعّري واضح التأثّر بالمعجم الدينيّ، لاسيما في المواضيع المتّصلة بالدّين، كحنينه إلى البقاع المقدّسة، وانتقاده لابن رشد وغيره من المشتغلين بالفلسفة، وغير ذلك. ففي المقطوعة التالية - وهي في هجاء الفلاسفة- نلاحظ هذه الظاهرة جلية :

لأشياع الفلاسفة اعتقاد　　يرون به عن الشرع انحلالا

أباحوا كلّ محظور حرام　　وردّوه لأنفسهم حلالا

وما انتسبوا إلى الإسلام إلاّ　　لصون دمائهم أن لا تسالا

فيأتون المناكر في نشاط　　ويأتون الصلاة وهم كُسالى[94]

فالمفردات التالية: «اعتقاد» و«الشرع» و«أباحوا» و«محظور» و«حرام» و«حلال» و«الإسلام» و«المناكر» و«الصلاة»، كلّها من المعجم الدينيّ.

ومن الأمثلة على تأثّر معجم الشعر الأندلسي بعامّة في هذه الفترة باللغة الدينيّة: ما نلاحظه في الأبيات التالية لأبي إسحاق الزوالي؛ وهي في وصف ما فعل المنصور الموحّدي بمدينة «قفْصة» لمّا رفضت الدخول في طاعته :

سائل بقفْصة هل كان الشقّي لها　　بعلاً فكانت له حمّالةَ الحطبِ

تبّت يدا كافر بالله ألهبها　　فكان كالكافر الأشقى أبي لَهَب

لمّا زنت و هي تحت الأمر مُحصَنة　　رجمتموها اتباعَ الشرع بالحَصَب[95]

(93) ابن إدريس:زاد المسافر-م.س.- المقدّمة-ص : 6-7.

(94) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة- م.س.-611/2/5.

(95) ابن إدريس-زاد المسافر-م.س.-ص : 135.

ففيها من المعجم القرآني عدد من الكلمات والعبارات من ذلك : «حمّالة الحطب» و«تبّت يدا» و«كافر با لله»و«الأشقى» و«زنت» و«محصنة» و«رجم» و«الشرع» و«الحصب»، وغيرها.

وإلى جانب الأثر الواضح للّغة الدينية في معجم شعر هذه الفترة، نُلفي الشعراء يستخدمون في بعض نصوصهم عدداً من مُصطلَحات العلوم الأخرى كالفلسفة وغيرها ففي نص ابن جبير التالي نجد بعضاً من تلك المصطلحات :

لقد ثبّت الغيّ في العبادِ طائفةُ الكون و الفساد
... دهريّة لا يرون رسلا و لا يُقرّون بالمعاد[96]

فلفظتا « الكون » و« الفساد » من مصطلحات الفلاسفة.

كما نجد ابن جبير كذلك يستخدم بعض المصطلحات العلميّة في النص التالي :

تغيّر إخوان هذا الزمان و كلّ صديق عراه الخللْ
و كانوا قديما على صحّة فقد داخلتهم حروف العِلل
قضيتُ التعجّب من أمرهم فصرت أطالع باب البدل[97]

فـ «الصحّة» و«حروف العلة» و«التعجّب» و«البدل» من مصطلحات علماء الصرف والنحو.

2– النسج :

إذا كان المعجم الفنّيّ يمثّل الخيوط التي يستخدمها الشاعر، فإن النّص يمثّل النسيج الذي تشكّل تلك الخيوط لُحمته وسَداه؛ وإذا كانت مفردات اللغة ملكاً مشاعاً للجميع. فإنّ التفاوت بين النصوص راجع إلى تفاوت الشعراء في حسن اختيار المفردات وإجادة توظيفها. ومن ثمّ كانت عمليّة النسج على جانب كبير من الأهمية،

(96) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.-611/2/5.

(97) المقري:نفح الطيب-م.س.-491/2.

إن لم نقل : إنّ نجاح العملية الإبداعيّة متوقّف عليهـا. ولقـد أدرك ذلـك بعـض نقّادنـا الأقدمـين فأشـاروا إليـه. فالجـاحظ يُعرّف الشعر بأنّـه «ضَـرْب مـن النسـج»[98]، وابن رشيق يرى أن قيمة اللفظ لا تبدو إلاّ إذا دخل في تركيب، فيقول:«ألا تـرى أنّ الدرّ -وهو أخو اللفظ و نسيبه...- إذا كان منثورا لم يُؤمَن عليه، ولم يُنتفَع به. فـإذا نُظم كـان أَصْـوَنَ لـه مـن الابتـذال، وأظهـر لحسنه مـع كـثرة الاستعمال. وكذلـك اللفـظ»[99]. وقـد أكّـد ذلـك نقّادنـا المحدَثـون فذهبـوا إلى أن الإبـداع الأدبـيّ ليـس في الألفاظ ذاتها، وإنّما في إجادة توظيفها. يقول الدكتور محمّد مندور : «إنّ العـبرة ليست بمفردات اللغة، بل بجُمَلها وتراكيبها، وطرائق العبـير فيهـا؛ واللفـظ العـاديّ قـد يكتسب قوّة شاعريّة بارزة إذا أُدخل في جملة أو تركيب شعريّ أو صورة بيانيّة»[100]. ويذهب مذهبه الدكتور عبد الملك مرتـاض فيقـول:« لعلّنـا أن لا نكـون مفتقريـن إلى أن نقـرّر مـا قـرّره النـاس، ألـفَ مـرة ومـرة، مـن أنّ اللغـة شـفرة ميّتـة مطروحـة في المعاجم... حتى يغشاها الأديب المتميّز المثقَل بالإحساس الكريم أو الباحث القديـر المثقل بالمعرفة المعمَّقة، فينفض عنها ما ران عليها من غبار الزمن، وينفخ فيها من روحه ما لم يكن فيها، أو كان فيها ثمّ تُنوسي، فينبهر الملتقّي لهذه البراعة في النسج؛ مـع أنّـه هو نفسه كان يعرف تلك المادّة التي نسج بها، أو منهـا، الشـاعر ذلـك الكـلام البليـغ والنسج اللغويّ الكريم»[101].

وقـد عُـني النقـاد والبلاغيّـون بهـذا الجـانب عنـايتهم بغـيره،فحـاولوا بيـان

---

(98) كتاب الحيوان-تحقيق عبد السلام محمد هارون-بيروت-دار الكتاب العربيّ-الطبعة الثالثة-1388هـ-1969م-132/3.

(99) العمدة-م.س.- 19/1.

(100) الأدب وفنونه-م.س.-ص : 40.

(101) ا-ي : دراسة سيميائيّة تفكيكيّة لقصيدة « أين لَيْلاي » لمحمّد العيد-م.س.-ص : 59-60.

خصائص النسج الجيّد، كما حاولوا تحديد عيوب التراكيب الرديئة كضعف التأليف والمعاظلة والتعقيد وغيرها.

ونحاول فيما يلي إجمال خصائص النسج في الشعر الأندلسيّ، في تلك الفترة، مع اعترافنا بما يندّ عن كل تعميم :

أ- حظي النحو والصّرف باهتمام خاصّ لدى الأندلسيّين. وقد كان النحو - خاصة-«في نهاية من علوّ الطبقة... وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه... وكلّ عالم في أيّ علم لا يكون متمكّناً من علم النحو، بحيث لا تخفى عليه الدقائق، فليس عندهم بمستحقّ للتمييز، ولا سالم من الازدراء»[102].

ولم يكن الشعراء الأندلسيون بِدْعاً من غيرهم من مُثقّفي الأندلس في التمكّن من علم النحو. ويلاحظ المتتبع لنتاج هذه الفترة عموماً، ما يطبع نسجه من سلامةِ التركيب، ومن التطبيق الصارم لقواعد اللغة.

على أنّنا نُلفي في الشعر القريض، من حين إلى آخر، بعض « الهفوات » أو « التجوّزات »، كما في قول صفوان بن إدريس :

قالوا وقد طال بي مدى خطئي ... ولم أزل في تجرّمي ساهي[103]

إذ من حقّ كلمة « ساهي » أن تكون منصوبة لأنّها خبر « زال ».

وكما في قول حفصة الرّكونيّة :

فما خلتْ هذا الأفقَ أبدى نجومه ... لأمر سوى كيما تكون لنا رَصَد[104]

إذ من حقّ كلمة « رصد » أن تجيء منصوبة لكونها خبر «كان ».

(102) المقّريّ:نفح الطيب-م.س.- 221/1.

(103) م.ن.- 67/5.

(104) م.ن.- 218/3.

على أن مثل هذا نجده عند عدد من كبار الشعراء المشارقة كأبي تمام[105] والمتنبي[106] وغيرهما. ولعلّ ذلك في الأندلس، أن يكون من أثر التوشيح في الشعر القريض إذ المعروف عن الموشّحين تساهلهم في القواعد، لا سيما في الموشّحات التي خرج إيقاعها عن أوزان الخليل.

وإذا كان الغالب على الشعر القريض التزام القواعد وقلّة التساهل فيها، فإن الموشِّحين -كما أشرنا- قد أباحوا لأنفسهم ما لم يركبه شعراء القريض، وذلك في سبيل تحقيق الغاية الفنيَّة التي نشأ من أجلها فنّ التوشيح، فجاءت « العلاقات الإعرابية ضعيفة»[107] نتيجة ذلك. فإذا لاحظنا الجزء التالي من الموشّح الشهير لابن زهر «ما للمُولّة من سُكْره لا يفيق»، تبيّن لنا كيف أن حرص الموشِّح على تسكين نهاية الوحدات كان سبباً في إضعاف تلك العلاقات :

هل تُستعادْ أيّامنا بالخليجْ و ليالينا
إذ يُستفادْ من النسيم الأريجْ مِسْكَ دَارِينا
و إذ يكادْ حسن المكان البهيجْ أن يُحَيِّينا؟[108]

على أنّ الموشِّحين لم يُبيحوا لأنفسهم، من التساهل في القواعد، في كل ما نظموا. فالموشحات الشعرية لا تكاد تختلف، في سلامة التركيب وصحّة النسج وقوّة العلاقات الإعرابية، عن الشعر القريض. وحسبنا أن نوازن بين التركيب

---

(105) انظر : الآمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري-تحقيق السيد أحمد صقر-القاهرة - دار المعارف بمصر-د.ت.-1961م- ج:1-ص : 15 وما بعدها .

(106) انظر : الجرجاني:الوَساطة بين المتنبيّ وخصومه-تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاويّ-القاهرة-مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ- الطبعة الرابعة-1966م-ص : 4 وما بعدها.

(107) إحسان عبّاس:تاريخ الأدب الأندلسي:عصر الطوائف والمرابطين-م.س.-ص : 244.

(108) المقّري:نفح الطيب-م.س.- 7/9.

في المثال السابق، وتركيب موشّح ابن زهر الآخر « أيها الساقي إليك المشتكى » لتتجلّى المفارقة، ويتّضح مستوى كلّ تركيب.

أما الأزجال والخرجات العامّيّة للموشحات فلا يمكن أن يُتحدَّث عن صحّة نسجها وسلامة تراكيبها إلاّ بالنسبة إلى عامّيّة الأندلس. على أنّ ذلك ليس متيسّراً بحكم جهلنا لجملة من قواعد تلك العامّيّة، إذ انّ ما وصل إلينا من نصوص قيلت فيها لا يكفي للإلمام بتلك القواعد. ثمّ إن الخطّ الذي كُتبت به تلك النصوص لم يَفِ بنقل حقيقتها على الوجه الأكمل، لأنّه لم يُوضَع لها(109).

ب- امتازت أساليب الشعر العربيّ في الأعصر الأولى بإحكام النسج وجودة السبك. ثم بدأت تلك الأساليب تضعف وتطبعها الهلهلة ابتداء من القرن السادس تقريبا، وهو القرن الذي تقع فيه فترتنا.

وإذا تتبّعنا نتاج هذه الفترة تجلّى لنا في أساليبه مستويان. فبينما نجد أساليب عدد من النصوص في مستوى أساليب الأشعار الأولى إحكامَ نسج وجودة سبك، نُلفي أساليب نصوص أخرى تتدرّج نحو الضعف وتسم بعضَها الهلهلة. ولتبيّن ذينك المستويين نورد المثالين التاليين، للموازنة :

يقول ابن طفيل في جزء من غزليّته السابقة :

فقالت و قد رقّ الحديث و أبصرت قرائن أحوال أذَعْنَ المكتّما :
نشدتك لا يذهبْ بك الشوق مذهبا يهوّن صعباً أو يرخّص مأثما
فأمسكتُ لا مستغنيا عن نوالها ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما(110)

(109) لفت ذلك انتباهَ الدكتور إبراهيم أنيس فقال : « الحقّ أنّ دراسة النصوص التي رُويت مكتوبة لا منطوقة من الأزجال القديمة أمر ليس باليسير، بل هو شاقّ عسير يستلزم بحثا مستقلاً ونظراً خاصّاً »(موسيقى الشعر-بيروت-دار القلم-د.ط.-د.ت.-ص : 259).

(110) عبد الواحد المراكشي:المعجب-م.س.-ص : 173.

ويقول ابن جبير « في الولاة وأحوالهم » :

من كبرت عن قدره خطّة داخله من أجلها الكبرُ
ومن سمت همّته لم يكن لخطّة في نفسه قدر
ولاية الإنسان سكر فما دامت له دام به السكر
مغايظ الدنيا وأربابها ليس عليها لامرئ صبر
دعهم مع الدهر وأحداثه حتّى ترى ما يصنع الدهر[111]

فأسلوب ابن طفيل أحكم نسجاً وأجود سبكاً من أسلوب ابن جبير الذي لا يكاد يختلف عن أساليب بعض الشعراء الذين أظلّهم عصر الضعف، وإن كانت لابن جبير نصوص أخرى قَوِي فيها أسلوبُه، وسَلِم من الضعف نسيجُه.

ج- لم نقف فيما تيسّر لنا الاطلاع عليه من شعر هذه الفترة على ما عاب به النقّاد بعض التراكيب من ضعف التأليف، وتنافر الحروف أو المعاظلة، والتعقيد اللفظي، وغيرها.

ولعلّ الحديث عن بعض هذه العيوب لا يكتمل إلا إذا تناولنا قضيّة تتّصل بالمبنى كما تتعلّق بالمعنى، وهي قضيّة الغموض التي لم يخل منها الخطاب النقديّ في القديم والحديث[112].

على أن ا لغموض إذا كان عند ا لقدماء ومن حذا حذوهم من المحدثين من العيوب ا لتي ينبغي أن يتخلّص منها الشعر، والأدب بعامّة، فإنّه لم يعد كذلك

---

(111) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.-ص :173.

(112) قال ابن خلدون:« ولا يكون الشعر سهلا إلاّ إذا كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الذّهن». ثم ذكر أن شيوخه كانوا يعيبون شعرابن خفاجة «لكثرة معانيه وازدحامها في البيت ا لواحد» (كتاب العبر-م.س.-1107/2). وانتقد طه حسين أسلوب مصطفى صادق الرا فعي لغموضه. انظر : حديث الأربعاء-القاهرة-دار المعارف بمصر -الطبعة العاشرة-1967 م.-121/3 .

في بعض الشعر الحديث والمعاصر : فالغموض، في الشعر الرمزيّ، سمة من سماته؛ وهو في الشعر الحرّ إحدى «مزاياه »[113].

وحين نتتبّع نتاج الفترة الأولى من عصر الموحّدين لا نلفي فيه غموضاً. وإذا كان البحتريّ قد أشار إلى واحدة من أهّم خصائص الخطاب الشعريّ حين قال :«والشعر لمح تكفي إشارته»، فإنّ ما يطبع بعض النتاج الشعريّ من وضوح قد ينال من « شعريّته ».

وإذا كان استخدام الرمز يؤدّي أحيانا إلى الغموض حتى ان بعض الشعراء يوضّحون- كما أسلفنا- رموزهم و يبيّنون مقصودهم، فإن ما خلّفته هذه الفترة من نصوص جنح فيها أصحابها إلى طريقة الرمز، قلّما تحتاج رموزها إلى توضيح. وذلك لشيوع تلك الرموز شيوعاً، فلم يصبح ما يراد بها خافيا على متأدّب. ولقد مرّ بنا ما أشار إليه صفوان بن إدريس من «تهافت » الشعراء على توظيف كلمة «نجد » وما إليها رموزاً يقصدون بها سواها[114]. ولعلّ ما قاله ابن خفاجة -قبل هذه الفترة- موضّحاً طريقته الرمزية، أن يكون من قبيل نافلة القول. وبخاصّة إذا كان يتوجه بذلك « التوضيح » إلى شخصية لها صلة بالأدب كأبي العلاء ابن زُهر[115].

د- كان الأندلسيّون يواكبون المشارقة- كما أسلفنا- في كلّ ظاهرة أدبيّة. فما ان انتشر البديع في المشرق على يد مسلم بن الوليد وأبي تمام وأضرابهما، حتى حظي بعناية شعراء الأندلس، وغدا عندهم من مقاييس جودة النص الأدبي.

(113) حتى انّ ظاهرة الغموض في الشعر المعاصر أصبحت تحظى بعناية الباحثين، فتُخصّص لها الدراسات المعمّقة.

(114) انظر : المقّري:نفح الطيب-م.س.- 66/5.

(115) انظر : ديوان ابن خفاجة-م.س.-ص : 204.

وقد تزايد الاهتمام بالبديع في الشعر الأندلسيّ بمرور الزمن. وفي الفترة الأولى من عصر الموحّدين يُلفي المتصفّح للنصوص الشعرية أدلّة كثيرة على أن شعراء هذه الفترة قد جرف بعضَهم تيارُ البديع. وقبل أن نُصدر حكماً على مبلغ عنايتهم به، نُورد أمثلة على بعض ما استخدموا من ألوانه.

فمن الأمثلة على التجنيس ما نجده فيما يلي :

- يقول ابن جبير في وصف القلم :

قلـمٌ به الإقليـم أصبح في حمـى   بشباته صرف الحوادث يُصرَفُ[116]

وفيه تجنيس بين « قلم » و« الإقليم »، وبين « صرف » و« يصرف ».

- ويقول متشوّقا إلى حجّاج لقيهم بالبقاع المقدسة :

نحن بالمغرب نجري ذكركـم   فغروب الدّمع تجري هتنـا[117]

وفيه تجنيس بين « المغرب » و« غروب ».

- ويقول ابن مُجبَر في مدح الرشيد الموحّدي، ممهّداً بشكوى فاقته :

و وجهُ العذر في الأسفار بادٍ   فلا احتاج فيه إلى سفورِ
... و إن أَصْفِرْ ليشرب قال : مهلا   أصِفْر الجوف يشرَب بالصّفير
أحسّ بوشق أَبْعِرة رآها   فأقبل يرتعي بَعْر البعير
... فقال ليَ الذميم إليك عنّي   فليس الشّعر يُقبَل في الشعير
... أترجو فِطْر أهل الصوم عندي؟   لقد أصبحتَ ذا رأي فطير
... أراك شممْتَ رائحة الأماني   لذلك شِمْت بارقةَ السرور
... يمل الدهر من يَأْس و بَأْس   و ليس يملّ من خَيْر و خِير
... جناحي قُصّ بالأزمات لكن   بوَفْرك سوف يصبح ذا وُفور

(116) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.- 610/2/5.

(117) م.ن.-ص : 614.

ولـو قـد رِشّـته طـار انتهاضـاً   فمـا هـو بـالمَهيض و لا الكسـير
إذا عبّـرتْ عـن تلـك السجايـا   فـقد عبّـرتْ عـن نَشْر العبيـر[118]

وفيه تجنيس بين«الأسفار» و«سفور»، وبين«صفر» و«الصّفير»، وبين «بعـر» و«البعير»، وبين «الشّعر» و«الشّعير»، وبين «فطر» و«فطير»، وبين «شممت» و«شمت»، وبين «يأس» و«بأس»، وبين «خَيْر» و«خير»، وبين «وَفْر» و « وُفور »، وبين «انتهاض» و«مهيض»، وبين «عبّر» و«العبير».

ومن الأمثلة على « ردّ العجز على الصّدر » ما يلي:

- يقول أبو بكر ابن مَلِك متغزّلا :

يـقـول مـن أبـصره راكـعـا   كلّ المنى في سجدة الراكع[119]

- ويقول أبو رجال ابن غلبون في قطعة كتب بها إلى صفوان يصف فيها قطعة شعر له :

أتـاحت الفـوزَ بالأمـاني   وبـتُّ منهـا لـدى أمـانِ
... و سـرّني أنّ في زمـاني   أضحـت بـه نـدرة الزمـان
في سـبع اقبلـن أو ثمـان   أفديـكِ مـن سـبع او ثمـان
... و إن رَمت بي النوى عُماناً   تكـن لي زاداً إلى عُمـان
وفـي ضَمـان الليالـي منـها   ما قـد تعالى عـن الضمـان[120]

- ويقول أبو بكر ابن مسعدة في إحدى إخوانيّاته :

و أنسى ابن الرّقاع و أمّ سلمى   فمـا لـي لا أضمّنه الرّقاعـا[121]

---

(118) صفوان بن إدريس:زاد المسافر- م.س.-ص : 52-53.

(119) م.ن.-ص : 75.

(120) م.ن.-ص : 74.

(121) البلفيقي:المقتضب- م.س.-ص : 140.

- ويقول مرج الكحل متشوّقا إلى مدينة « شَرِيش » :

أبـت نفسـي هوىً إلاّ شريشاً ... ويا بُعْد الجزيـرة مـن شـريشِ![122]

ومن الأمثلة على « حسن التعليل » ما يلـي :

- يقول أبو جعفر ابن عاصم متغزّلا :

وعـــارضٍ خــــدّ تأمّلتُــــه ... فألفيتـــــه صنـــــع نظّــــاره

تعشّقـه الطّـرْف مـن حُسْنــــه ... فـأهـداه مـن هُـدب أشـفـاره[123]

- ويقول أبو عمرو ابن عبد ربّه واصفا نزول مطر :

بـين الريــاض و بــين الجــوّ مُعــترك ... بيضٌ مـن الـبرق أو سمر مـن الســمر

إن أوترت قوسَها كفُّ السّماء رمت ... نبـلا مـن المـزن في صـاف مـن الغُــدر

فاعجبْ لحرب سِجال لم تـثر ضـرراً ... نفـعُ المحــارب منهـــا غايـــة الظّفــر

فتـحُ الشــقائق جرحاهــا و مغنمهــا ... وشْــيُ الربيــع و قتلاهــا مـــن الثّمـــر

لأجـل هـذا إذا هبّت طلائـعـهـــا ... تدرَّعَ النهر و اهتزّت قنـا الشجــر[124]

- ويقول صفوان بن إدريس في باكورة تين سوداء :

حيّتــكَ ضاحكـــةً بُنيّـــةُ أيكــــة ... تهفـــو تحيتهـــا بعطــــف النّــــادي

لّما درت أن ســوفَ تثكـــل أمّهـــا ... لبست بحكم الفقد ثـوب حـداد[125]

- ويقول أبو الحسن ابن سعد الخير يصف دولاباً :

لله دولاب يفيـــض بسلســـــل ... في روضـــة قـــد أينعـــت أفنانـــا

قد طارحته بها الحمائم شجوها ... فيجيبـهـا ويرجّــع الألحـانــــا

---

(122) صفوان ابن إدريس:زاد المسافر- م.س.-ص : 70.

(123) م.ن.-ص : 89.

(124) البلفيقي:المقتضب- م.س.-ص : 147.

(125) م.ن.-ص : 139.

فكأنّه دَنِف يدور بمعهد | يبكي ويسأل فيه عمّن بانا
ضاقت مجاري طرفه عن دمعه | فتفتّحت أضلاعه أجفانا [126]

ومن الأمثلة على لزوم ما لا يلزم ما يلي :

- يقول ابن جبير متشوقا إلى أهل المدينة المنوّرة :

يا أهل « طيبة » قلبي | عن منهج الصبر جارا
أشكو إليكم زمانا | عليّ بالبين جارا
وبعدكم لست أرضى | من البريّة جارا
ودمع عيني عليكم | لأدمع المزن جارى [127]

-ويقول أبو الحجاج ابن أيوّب :

أبى ا لله إلاّ أن أفارق منزلا | يطالعني وجه المنى فيه سافرا
كأنّ على الأقدار ألاّ أحلّه | يمينا فما أغشاه إلاّ مسافرا [128]

-ويقول أبو الفضل الجليانيّ :

عجباً من أحبابنا و انقيادي | طوعَهم إن شَفَوا وإن أمرضوني
ما رضاهم إلاّ لسخط سواهم | في هواهم وحبّذا إن رضوني [129]

- ويقول أبو عليّ ابن كسرى :

إلهيَ أنت ا لله ركني و ملجئي | ومالي إلى خلق سواك ركونُ
رأيت بني الأيّام عقبي سكونهم | حراك ومن بعد الحراك سكون
رضى بالذي قدّرت تسليم عالم | فإنّ الذي لا بدّ منه يكون [130]

---

(126) م.ن.-ص : 139.

(127) ابن عبد الملك:الذيل التكملة-م.س.- 615/2/5.

(128) البلفيقي:المقتضب-م.س.-ص :131.

(129) م.ن.-ص : 143.

(130) م.ن.-ص : 144.

ويخرج المتتبع لألوان البديع في شعر هذه الفترة بالملاحظات التالية :

- إن اهتمام الشعراء بألوان البديع كان متفاوتاً : فبينما نجد بعضهم يهتمّ بها اهتماماً ملحوظاً في كثير من نصوصه، كابن جبير وابن مجبر وغيرهما، نجد بعضهم الآخر لا يكاد يلتفت إليها، كالرصافي البلنسيّ وغيره.

- لم يكن إقبال المهتمّين بالبديع واحداً على جميع ألوانه : فبينما نجد ألواناً قد حظيت « بتهافت » الشعراء عليها، كحُسْن التعليل مثلا، نجد ألوانا قليلةَ الورود.

- إذا كان التوفيق قد صاحب بعضهم فلم يبد أيّ تكلّف فيما استخدموا من ألوان البديع، فإنّ التكلّف باد عند غيرهم. ومن الأمثلة على ذلك التكلّف ما نجده في قول أبي عمرو بن رضا :

ولّما التقينا نسيت النّسيب ... فقالت نَسيبٌ نَسِي بي نسيبًا
و حقّقتُ أنّيَ مُغْرىً بها ... فقالت : غريب غرِي بي غريبا
كَنَيتُ عن محبّ بغير اسمه ... فقالت : منيب مني بي منيبا (131)

وإذا كانت عدّة نماذج تروق السامع- على تكلّف أصحابها- كقول ابن أيوب الأنصاري :

لعمرك ما الدنيا و سرعة سيرها ... بسكّانها إلاّ طريق مجاز
حقيقتها أنّ المُقام بغيرها ... ولكنّهم قد أولعوا بمجاز (132)

- فإنّ نماذج أخرى يضيق السامع بتكلّفها كنصّ ابن رضا السابق، الذي تلاعب صاحبه بألفاظه تلاعباً أبعده عن الشعر، هذا الفنّ الذي يُمدَح فيه الطبع ويُذَمّ التكلّف.

- شُغف الأندلسيون كثيرا بحُسْن التعليل. ولعلّهم كانوا يرونه معياراً للبراعة. ويبدو من النماذج العديدة التي حوت هذا المحسّن أن المقطوعة الوصفيّة

---

(131) م.ن.-ص : 132.

(132) الرعيني:برنامج شيوخ الرعيني-م.س.-ص :141؛ ابن الخطيب:الإحاطة-م.س.-408/3.

كانت أنسب من سواها لتلك « التمارين الفنّية ».

وإذا كانوا قد وُفّقوا في نماذج كثيرة كقول صفوان في وصف باكورة التّين، وقول ابن سعد الخير في وصف الدّولاب، فإنّهم قد أخفقوا في نماذج أخرى، فجاء تعليلهم بعيداً عن الحسن، مطبوعاً بالتكلّف، على نحو ما نلمس في قول أبي بكر الكُتُنْدي :

لأمرٍ ما بكيت و هاج شوقي   و قد سجعت على الأيك الحَمامُ
لأنّ بياضها كبياض شيبي   فمعنى سجْعها: قرب الحِمام[133]

- إنّ ما ذكره بعض الباحثين من عناية شعراء الأندلس بزخرف البديع[134]، لا نراه منطبقاً على شعر هذه الفترة إلا بمقدار. ولعلّ قولهم أن يكون منطبقاً على الفترات التالية. ففيها- حقّاً- اهتمام بالبديع، يصل إلى درجة المبالغة في كثير من الأحيان[135].و لعلّنا لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا : إنّ جلّ شعراء هذه الفترة كانوا بين مقتصد وغير مهتمّ. ولعلّ جوانب فنيّة أخرى- كتصيّد الصورة الطريفة، والبحث عن المعنى الجديد،وغير ذلك- قد شغلت بعضهم عن الاهتمام بالبديع. وربّما لا نبالغ إذا ذهبنا إلى أن شعراء الأندلس في هذه الفترة كانوا أقلّ عناية به من معاصريهم في المشرق.

- إنّ مقارنة سريعة بين النصوص الشعريّة والنصوص النثريّة التي خلّفتها

---

(133) صفوان بن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص : 95.

(134) ينظر : إميليو غرسية غومس:الشعر الأندلسيّ-م.س.-ص :5؛صلاح خالص:إشبيلية في القرن الخامس الهجريّ-م.س.-ص:87.

(135) كما في أشعار ابن الأبّار و ابن الخطيب وابن خاتمة وغيرهم. ولقد شُغف ابن خاتمة بالتورية شغفا،حتى انّ أحد تلاميذه جمع ما وقع لأستاذه في كتاب. انظر : ابن الأحمر: أعلام المغرب و الأندلس في القرن الثامن-تحقيق محمد رضوان الداية-بيروت-مؤسّسة الرسالة-الطبعة الثانية-1407هـ-1987م-تعليق المحقّق-ص : 175-ح.

هذه الفترة، تسمح بالقول : إنّ الشعراء كانوا أقلّ اهتماما بالبديع من الكتّاب. فإذا كنّا نجد غيرَ ما نص شعريّ خالياً من المحسنات البديعية، فإنّنا قلّما نُلفي نصّاً نثريّاً غير حافل بها[136]. فقد كان الأديب نفسه يهتمّ بالغ الاهتمام بالبديع فيما يدبّجه من نصوص نثريّة، ثمّ هو لا يلتفت إلى البديع إلا لماماً فيما ينظم من أشعار. فصفوان بن إدريس -مثلا- كان يلتزم السجع وما إليه من محسّنات فيما كان يكتبه من رسائل وغيرها من نصوص نثرية[137]، ثم هو لا يكاد يهتمّ بالتنميق فيما ينظم من قصائد و مقطوعات شعريّة. ولعلّهم كانوا يرون أنّ النصّ الشعريّ قد « يستغني » عن البديع، بصوره ووزنه وقافيته وغير ذلك، أمّا النصّ النثريّ فلا « غنى له » عن السجع وما إليه من محسنات. وقد يؤكّد هذا التزامُهم السجعَ حتى في الكتابات العلميّة، كما فعل ابن صاحب الصلاة في كتابه « تاريخ المنّ بالإمامة».

---

(136) من النصوص النثرية التي لم يُهتَمّ فيها بالتنميق : « رحلة ابن جبير».

(137) من الأمثلة على اهتمامه بالبديع ما نجده في رسالة له خاطب بها الأمير الموحّديّ عبد الرحمان ابن يوسف بن عبد المؤمن. انظر : المقّريّ:نفح الطيب-م.س.-1/170-175.

الفصل الثاني

الصـــــورة

أصبح من المسلّم به، لدى النقّاد، أنّ الخطاب الأدبيّ[1] يتطلّب الصورة وسيلةً للتعبير، وذلك لأنّ الأسلوب المباشر، التقريريّ، لا يقوى على تصوير ما في نفس الأديب-والشاعر بخاصّة- من أحاسيس، ولا على تقريب ما ينتابه من انفعالات.

وإذا كانت الصورة بهذه الأهمّيّة، كان من المنطقيّ أن تأخذ مكانا واسعا في الخطاب النقديّ الحديث. ذلك «أن النقد الحديث يعتبر عنصر التصوير من أهمّ العناصر التي يكتسب بها العمل الشعريّ [بل الأدبيّ] صفته الفنّيّة. فبقدر توفّره على الصورة الرائعة بقدر ما يكون قريبا من الفنون الجميلة»[2].

وإذا كان عدد من نقّادنا المحدَثين أصبحوا يُولُون الصورة عناية، فإنّ من الحقّ أن نشير إلى أنّ الغرب قد سبقنا إلى البحث فيها والتنظير لها. فقد «أكثر النقّاد الغربيّون حولها الحديث، وساقوا التعريفات المتشابهة طورا، والمتعارضة طورا آخر»[3]. «وقد اتّفقت [تلك التعريفات] في سياقها العام على أن الصورة ليست تشبيها،

(1) نقول ذلك مستندين إلى ما أصبح بعض النقّاد يميلون إليه من إزالة الحدود بين الشعر والنثر، غير مهتمين إلا بما في النص من أدبيّة.يقول الدكتور عبد الملك مرتاض :« أصبحت [الهوّة بين الشعر والنثر الفنيّ] ضيّقة جدًا...حتى انّ بعض النظريّات النقديّة الحديثة تحاول، في بعض مفاهيمها الجديدة، إزالة الحواجز بين الصناعتين»(النص الأدبيّ : من أين؟ وإلى أين؟-الجزائر- ديوان المطبوعات الجامعيّة-د.ط.-1983م-ص :26). ويقول في موضع آخر : « ... أنّنا،في بعض ما نكتب في الأعوام الأخيرة، نحاول إزالة الحدود بين الشعر والنثر، ونعاملهما معاملة تتمثّل في ملاحظتهما في حدّ أنفسهما : فإمّا أن يكونا، كلاهما، أدبا أو لا يكوناه. وعلى ضوء ما فيهما من هذه الأدبيّة ، تتحدّد صفة التعامل معهما »(ا-ي : دراسة سيميائيّة تفكيكيّة لقصيدة « أين ليلاي »لمحمد العيد-م.س.-ص :7).

(2) محمد ناصر: الشعر الجزائريّ الحديث: اتجاهاته وخصائصه الفنّيّة-بيروت-دار الغرب الإسلاميّ-الطبعة الأولى-1985م.-ص :422.

(3) عبد الملك مرتاض :بنية الخطاب الشعري-م.س.-ص :70.

وما ينبغي لها، وإنما هي شيء يجنح نحو تقريب حقيقتين متباعدتين... »[4].

على أنّ ما ذكرناه من اهتمام النقّاد المحدَثين، غربيّين وعربا، بالصورة لا يعني أنّ خطابنا النقديّ القديم قد خلا من الحديث عنها. ذلك أنّ من يتتبّع كتابات نقّادنا القدماء يجد، هنا وهناك، إشارات إلى أهمّيّة الصورة في الخطاب الشعريّ.

ولعلّ الجاحظ أن يكون أوّل الذين أشاروا إلى كون الصورة أحد مقوّمات الشعر الأساسيّة، وذلك عندما ذكر، في تعريفه له، أنّه « جنس من التّصوير »[5].

وكان من الطبيعيّ ألاّ يتجاهل عبد القاهر الجرجانيّ دور التصوير في عمليّة الإبداع الشعريّ. يقول: «...فالاحتفال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم، والتخييلات التي تهزّ الممدوحين وتحركهم، وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكّلها الحذّاق بالتخطيط والنقش، أو بالنحت والنقر. فكما أنّ تلك تُعجب وتخلب، وتروق وتونق، وتَدخل النفس، من مشاهدتها، حالة غريبة لم تكن قبل رؤيتها، ويغشاها ضرب من الفتنة لا يُنكَر مكانُه، ولا يخفى شأنه،...كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور »[6].

على أنّه إذا كانت الصورة بتلك الأهمّيّة في الشعر، فإنّ الشعراء، في العصرين الجاهليّ والإسلاميّ، كانوا يميلون -في أسلوبهم- إلى التقرير والمباشرة. فلمّا جاء العصر العباسيّ أصبحوا -لعوامل شتّى- يجنحون إلى التصوير البيانيّ الدائم. ولعلّ مسلم بن الوليد أن يكون أوّل الذين أكثروا من استخدام الصورة وسيلةً للتعبير الشعريّ. قال الدكتور نجيب محمد البهبيتيّ متحدّثا عن ظاهرة التصوير عند مسلم:

---

(4) م.ن.

(5) كتاب الحيوان-م.س.-132/3.

(6) أسرار البلاغة-تصحيح محمد رشيد رضا-القاهرة-مكتبة ومطبعة محمد عليّ صبيح وأولاده-الطبعة السادسة-1379هـ.-1959م.-ص :275.

« يبثُ الحياة في الجماد... والنكبات عنده تُصبح بنات الدهر، والفرار طائر يطير بالناس،... والليل معتكف على رجل... »[7]. وقال الدكتور عبد الكريم الأشتر مشيرا إلى هذه الظاهرة في أسلوب مسلم: «ولكنّ الجديد في التعبير: ترك التقرير في التعبير عن المشاعر والأفكار إلى التصوير البيانيّ الدائم... وقد كان الشعر العربيّ عرف التصوير قبل مسلم... ولكنّ الإغراق فيه... جديد، لم يعرفه الناس قبل مسلم وأصحابه »[8].

وقد بالغ شعراء الأندلس في توظيف الصورة وسيلةً للتعبير إلى درجة أن غدا شعرهم « مُترَعا بالأخيلة »[9]. ولعلّ ما أقدم عليه ابن الكتّاني من جمع « التشبيهات من أشعار أهل الأندلس » في كتاب، في عهد مبكّر من تاريخ أدبهم، أن يكون دليلا على جِدّهم في طلب الصورة منذ ذلك العهد. وقد علّق على ذلك الدكتور إحسان عبّاس فقال: « إنّ المؤلّف قد حاول أن يعرض المجالات التي اتّصلت بها ملَكة التصوير عند الأندلسيّين... وانّه قد أطلعنا، من خلال هذه المختارات، على مبلغ ما بذله الشعر الأندلسيّ من عناية بالصورة في دور مبكّر من تاريخه، حتى أصبح طلب الصورة فيه غاية كبرى بل أصبح بعد زمن أكبر غاية »[10].

وإذا كان شعراء الأندلس متفاوتين في العناية بالصورة، فإنّ من أكثرهم اهتمامابها،قبل الفترة الأولى من عصر الموحدين،أبا إسحاق بن خفاجة وابن الزقاق البلنسيّ. فأمّا الأوّل فقد ازدحمت الصور في كلّ بيت من شعره إلى درجة أن عاب ذلك بعضهم[11]. وأما الآخر فقد أجهد نفسه في تصيّد الصور الطريفة، فأثار ذلك

---

(7) تاريخ الشعر العربيّ حتى آخر القرن الثالث الهجريّ-بيروت-دار الفكر-د.ط.-د.ت-ص:468.

(8) نصوص مختارة من الأدب العباسيّ-بيروت-دار الفكر-الطبعة الثانية-1969م.-ص:186.

(9) إميليو غرسية غومس:الشعر الأندلسيّ-م.س.-ص :26 .

(10) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس-م.س.-المقدّمة-ص :16.

(11) ينظر: محمد رضوان الداية:ابن خفاجة-م.س.-ص :106.

المنزع إعجاب الناس في عصره، و «حبّب الشاعرَ إلى النقّاد على مرّ العصور في الشرق والغرب »[12].

ويمكن المتتبّعَ لهذا الجانب في نتاج شعراء الفترة الأولى من عصر الموحّدين أن يستخلص جملة من النتائج، لعلّ أهمّها ما يلي :

ا- إذا كان النقّاد والمنظّرون للشعر يذهبون إلى أن الصورة مقوّم أساسيّ للخطاب الشعريّ، فإنّ رأيهم لا ينطبق تمام الانطباق إلا على الشعر الذي يقوم على المضمون العاطفيّ. و ذلك لأنّ المشاعر قد لا يقوى الأسلوب المباشر على حملها. أمّا الشعر الذي يقوم على المضمون الفكريّ فقد يكفي فيه الأسلوب التقريريّ المباشر.

و لم يخرج شعر هذه الفترة عن ذلك. فلو تتبّعنا النصوص ذات المضامين العاطفيّة لوجدنا أصحابها قد وظّفوا -غالبا- الصورة وسيلةً لجلاء مشاعرهم، لأنّ الأسلوب المباشر لم يستنفد ما كان يعتلج في نفوسهم من أحاسيس. والأمثلة على ذلك أكثر من تُحصى : فصفوان بن إدريس التجيبيّ لم يجد غير الصورة وسيلةً يُجلّي به إحساسه تجاه « صاحب » له أكول، فقال :

وصاحبٍ لي لا كانت طبائعه	كأنّها سُحْب بالسرط منهمرَهْ
إذا أحسّ بمأكول تُقدِّمه	يكاد يسبق فيه حلقه بصره
كأنّ فاه عصا موسى إذا انقلبت	و ما تُقدّمه إفك من السحره[13]

(12) ديوان ابن الزقّاق البلنسيّ-م.س.-مقدّمة المحقّقة-ص :56. وابن الزقّاق واحد ممن فاخر بهم أبو الوليد الشَّقُنْدِيُ، في رسالته المشهورة، شعراءَ المغرب، فقال منوّها به، مركّزا على هذا الجانب عنده : « و هل منكم شاعر رأى الناس قد ضجّوا من تشبيه الثغر بالأقاح، و تشبيه الزهر بالنجوم، و تشبيه الخدود بالشقائق؛ فتلطّف لذلك في أن يأتي به في منزع يصيّر خَلَقه في الأسماع جديدا ، و كليله حديدا؛ فأغرب أحسن إغراب ، و أعرب عن فهمه بحسن تخيّله أنبل إعراب » (المقّري:نفح الطيب-م .س-199/3).

(13) البلفيقي:المقتضَب-م.س.-ص:139 .

ولم يجد ابن جبير أفضل من الصورة وسيلة لتصوير حاله في اغترابه، فقال متحدثا عن الغريب :

يحلّ عرى صبره بالأسى ويعقِد بالنجم أجفانه[14]

ومثله الرصافيّ البلنسيّ حيث يقول واصفا ما كان يعانيه من بعده عن مواطنيه :

ثكلتهم ثكلا دهى العين و الحشا ففجّر ذا ماء و سجّر ذا جمرا[15]

وقد كانت الصورة أفضل وسيلة لجلاء ما انتاب ابن مرعيّ من سخط على الذي استقضاه أهل شاطِبة وهو غير أهل لخطّة الأحكام . يقول ابن مرعيّ :

لا غرو أن يسموَ الرذل الخيار كما يسمو على الماء ما يطفو من الزبد

... حُطّوه عن رتبة قدّمتموه لها من الحضيض و ردّوا العَيْر للوتد[16]

ومن الثابت أن بين الإحساس و الخيال علاقة من حيث انّ الإحساس كلّما كان حادًا أثار الخيال فجاد بالصور التي تجلو ذلك الإحساس، وتقربه إلى المتلقّين.

وإذا تتبّعنا النصوص ذات المضامين الفكريّة ألفينا جنوح أساليبها-غالبا- إلى التقرير والمباشرة، على نحو ما نجد في تلك الأبيات التي مرّت بنا، والتي ذكر فيها أبوعبد الله محمد بن يوسف الغسّانيّ طبقات أنساب العرب ثم شرحها وأعطى أمثلة عليها.

وقد يستخدم الشعراء في هذه النصوص بعض الصور ولكنّها وسائل لتوضيح فكرة، أو لحمل المتلقّي على الاقتناع برأي، أو لغير ذلك من الأهداف، وذلك على نحو ما نجد في قول أبي الفضل الجليانيّ موضّحا هوان القيم عند جاهلها :

---

(14) ابن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص:115.

(15) ديوان الرصافيّ البلنسيّ-م.س.-ص:72.

(16) البلفيقيّ:المقتضب-م.س.-ص:146.

فأبخس شـيء حكمة عند جاهل وأهون شخص فاضل عند ظالم

فلو زُفّت الحسناء للذئب لم يكن يرى قربها إلا لأكل المعاصم(17)

وفي قول أبي بكر ابن ميمون العَبْدَريّ ناصحا بعدم الاكتراث بفراق الوطن، محاولا إقناع منصوحه :

لا تكترث بفراق أوطان الصِّبا فعسى تنال بغيرهنّ سعودَا

فالدُّرّ يُنظَم عند فقد بحاره بجميل أجياد الحسان عقودا(18)

ب- إذا كانت الصورة -كما أسلفنا- من أهمّ مقوّمات الخطاب الشعريّ، فإنّ ما نلاحظه من«نثرية» في جملة من أشعار هذه الفترة كبعض نصوص ابن جبير- مثلا-يعود شيء منه إلى عدم بروز هذا المقوّم. ولعلّ ذلك راجع إلى بعض ما يلي :

- سوء فهم طبيعة الشعر :

إذا كان عدد من النقّاد القدماء قد أدركوا أهمّيّة الصورة في الخطاب الشعريّ، فإنّ الشعر ظلّ عند جلّ الناس، شعراءَ و نقادا، كلاما موزونا مقفّى دالاّ على معنى . ومن شأن هذا الفهم أن يؤثّر تأثيرا سلبيا، فلا يُعطي الشاعر عنصرَ التصوير ما هو خليق به من أهمّيّة. ولعلّ عددا من شعراء هذه الفترة أن يكونوا قد فهموا الشعر على هذا النحو، فكان لفهمهم أثره في نتاجهم ضعفاً في التصوير.

- سوء فهم وظيفة الشعر :

يختلف الناظمون في فهم وظيفة الشعر. فهناك من يراه وسيلة تبليغ ليس إلاّ. فعلماء الدين ومَن إليهم قد استخدموا الشعر وسيلة لإيصال بعض أفكارهم إلى الناس،غير مهتمين -في الغالب- بعنصر التصوير. فجاء شعرهم بسبب ذلك،

---

(17) م.ن-ص:143.

(18) ابن فرحون:الديباج المذهب-م.س.-ص :302.

أقرب إلى النظم التعليميّ من الشعر الحقيقـيّ.

- ضيــق الخيـــال :

نحسّ حين قراءتنا لبعض أشعار هذه الفـترة ضيقا في خيـال أصحابهـا. ومن المسلَّم به أنّ التصوير في الشعر مرتبط بملكة الخيال.

جـ- مرّ بنا أن ابن الزقّاق البلنسي كان يُجهد نفسه في تأليف صور طريفة تنال إعجاب المتلقّين. وقد سار كثير من شعراء هذه الفترة علـى غـرار ابـن الزقّـاق فجـدّوا في تأليف صور جديـدة تـدلّ علـى براعتهـم وحـدّة ذكـائهم وسعة خيـالهم. ويكفـي أن نتأمّل الأبيات التالية، حيث رسم الرصافيّ البلنسيّ صورة لنهر إشبيلية لندرك ذلك:

و مهـدّل الشـطين تحسـب أنّـه ... متسـيّل مـن درة لصفائـهِ
فاءت عليه مـع الهجيرة سـرحة ... صدئـت لفيئتهـا صفيحـة مائـه
فـتراه أزرق في غلالــة سمــرة ... كالدّارع استلقى بظلّ لوائه[19]

على أنّه مهما بالغنا في تقدير قيمة الصورة في الخطاب الشعريّ، تظـلّ وسيلة يوضّح الشاعر بها فكرة أو يجلو إحساسا أو غير ذلك، فإذا أصبح طلب الصورة غايـة لذاتها، يكدّ الشاعر ذهنه فيه، خرج العمـل الفـنّيّ إلى التكلّـف، وغـدا طلـب الصـورة شبيها بطلب الجناس وما إليه مـن محسّـنات لفظيّـة ومعنويّـة، ممـا جنـى التهـافت عليـه على الأدب العربيّ في عصور الضعف، فغدا كثير منه أشكالا بلا مضـامين، وأجسـادا بلا أرواح.

على أنّه من الإنصاف أن نذكر أن شعراء الأندلس في هذه الفترة قد وقـع لهـم من الصور الفنّيّة ما أثار إعجاب معاصريهم ومن أتـوا بعدهـم، وغـدا مثـالا للاحتـذاء والتقليـد. ومـن الأمثلـة علـى ذلـك مـا وقـع للرصـافيّ البلنسـيّ في أبياتـه السـابقة. فقد « كثر التولّع بهذه الأبيات عام أحـد وأربعين و ستّمائة »[20] أي بعـد أكـثر مـن

(19) ديوان الرصافي البلنسي-م.س.-ص32.

(20) البلفيقي:المقتضب-م.س.-ص :110.

ستّين عاما من وفاة الرصافيّ، فنظم في محاكاتها فكرةً وصورة غيرُ ما واحد، منهم ابن الأبّار البلنسيّ نفسه[21].

ومن تلك الأمثلة ما وقع لأبي الحسين محمد ابن سَفَر في أبيات صوّر فيها ظاهرة المدّ والجزر بوادي إشبيلية، يقول فيها محقّقا ما ينبغي أن يتوفّر في الصورة من كشف ومفاجأة:

...حيث الجزيرة و الخليج يحفّها   يشكو إليها كي تجيب حواره
شقّ النسيم عليه جيب قميصه   فانساب من شطّيه يطلب ثاره
فتضاحكت وَرَق الحمام بدوحه   هزءا فضمّ من الحياء إزاره[22]

فقد نوّه بإبداعه غيرُ ما واحد. قال ابن الأبّار «وأبدع فيما اخترع»[23]، وذهب عليّ ابن سعيد إلى أن هذه الأبيات «من أعجب ما قيل في مدّ النهر وجزره»[24].

د- إذا كان عدد من الشعراء قد جدّوا -كما أسلفنا- في طلب الصورة الطريفة محاولين بذلك تلبية أذواق المتلقّين[25]، فأصابوا أحيانا وأخفقوا أحيانا أخرى، فإنّ آخرين قد اكتفوا - لنضوب في الخيال أو لغير ذلك من الأسباب- بتقليد سابقيهم، فحوى نتاجهم صورا مستهلَكة ، أذهب الاستخدام المتواصل لها ما كان بها من ماء شعريّ يوم جادت بها قريحة المبدع الأول.

---

(21) انظر :-م.ن.-ص :111-112.

(22) ابن سعيد : رايات المبرّزين-م.س.-ص :75.

(23) البلفيقي:المقتضَب-م.س.-ص :154.

(24) ابن سعيد:رايات المبرّزين-م.س.-ص:75.

(25) انظر ما أوردناه من رسالة الشقنديّ حيث يذكر ما بعث ابن الزقّاق البلنسيّ على طلب الصورة الجديدة .

وإذا تجاوزنا ما ظلّ بعضهم يجترّه من صور القدماء،كتشبيه الكريم بالسحاب، والشجاع بالأسد، وغير ذلك من صور جزئية، على نحو ما نرى في قول أبي مروان ابن صبره مفتخرا بكرم أهله و إقدامهم :

...من آل صبرة قِدْما قد سمعت بهم   سُحب إذا سُئلوا، أُسد إذا صالوا[26]

- إذا تجاوزنا ذلك، وجدنا آخرين يردّدون صورا كلّية، قد تكون متأخّرة بالنسبة إلى النوع السابق، مع محاولة بعضهم التطوير فيها. ومن الأمثلة على ذلك ما فعله أبوعمرو محمد ابن عبد ربّه في الأبيات التالية :

بين الرياض و بين الجوّ معترك   بيض من البرق أو سمر من السمر

إن أوترت قوسها كفّ السماء رمت   نبلا من المزن في صاف من الغدر

فاعجب لحرب سجال لم تُثر ضررا   نفع المحارب فيها غاية الظفر

فتخ الشقائق جرحاها و مغنمها   وشي الربيع و قتلاها من الثمر

لأجل هذا إذا هبّت طلائعها   تدرّع النهر واهتزّت قنا الشجر[27]

فهو يردّد صورة قديمة[28]، ولكنّه حاول التجديد فيها . قال عبد الواحد المراكشيّ ذاكرا تهافت الشعراء على هذه الصورة، ومشيرا إلى تجديد ابن عبد ربه:«أنشدته-رحمه الله- يوما، ونحن في قبة على شاطئ نهر، وقد أخذ المطر في الانسكاب، بيتين أحفظهما... فاستحسنهما وقال لي : ذكّرتني هذا المعنى.

---

(26) البلفيقي:المقتضَب-م.س.-ص:90.

(27) م.ن.-ص :147.

(28) قال شاعر سابق :

حاكت يمين الريح مُحْكَمة   في نهر واضح الأسارير

فكلّما ضعفت به حَلَقا   قام لها القَطْر بالمسامير

(المراكشيّ:المعجب-م.س.ص :217) .

وأنشدني فيه لنفسه أبياتا ما سمعت بمثلها. هذا على إكثار الناس في هذا المعنى وتواردهم عليه حتى صار أخلق من الليل والنهار من كثرة تكراره على الأسماع »[29].

ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما نجده في النصوص التي تناولت وصف المعذّرين من الغلمان، مما أوردنا بعضه في الفصل الذي عقدناه للغزل.

هـ- إذا كان شعراء الأندلس في هذه الفترة قد اعتمدوا-في الغالب- على الصور الجزئيّة،كالتشبيه والاستعارة وغيرهما، فإننّا نُلفي في نتاجهم جملة من الصور الكلّيّة تؤلّف الواحدةَ منها عدّةُ عناصر. على أنّ تلك الصور الكلّيّة قلّما سلمت من«التمزّق» ونحوه.

ومن الأمثلة على هذا الضرب من الصور ما ورد للرصافيّ البلنسيّ في وصف غلام معذّر، حيث يقول :

أقوى محلّ من شبابك آهل ... فأقمت أندب منه رسما عافيا
مثل العذار هناك نُؤْيا داثرا ... واسودّت الخِيلان فيه أثافيا[30]

ومن الأمثلة على هذا الضرب أيضا ما ورد في الأبيات التالية حيث يصوّر ابن سعد الخير دولابا :

لله دولاب يفيض بسلسل ... في روضة قد أينعت أفنانا
قد طارحته بها الحمائم شجوها ... فيجيبها و يرجّع الألحانا
فكأنّه دَنِف يدور بمعهد ... يبكي و يسأل فيه عمّن بانا
ضاقت مجاري طرفه عن دمعه ... فتفتّحت أضلاعه أجفانا[31]

ويكثر توفّر هذا النوع من الصور في المقطوعات التي كان الشعراء يتوخّون

(29) م.ن.
(30) ديوان الرصافي البلنسيّ-م.س.-ص :133.
(31) البلفيقي:المقتضَب-م.س.-ص:106.

فيها حسن التعليل، على نحو ما نرى في مقطوعة ابن عبد ربه و مقطوعة ابن سعد الخير السابقتين.

ولعلّنا لا نعدو الحقيقة إذا قرّرنا أنّ عنصر التصوير أبرز في المقطوعات منه في القصائد. ونحسب أنّ المقطوعة -بحكم قِصَرها- أكثر مناسبة لتأليف الصورة، من القصيدة الطويلة[32]. ذلك أنّ القصيدة « يرهق » طولها الشاعر إذا أراد بناءها على الصورة. وإذا كان ذلك ممكنا في بعض مقاطعها، فإنّ من الصعب تحقيقه فيها كلّها.

و- كان شعر ابن خفاجة -كما أسلفنا- مزدحما بالصور، فعابه شيوخ ابن خلدون لما أدّى إليه ذلك الازدحام -أحيانا- من غموض[33]. على أنّ ما كان شيوخ ابن خلدون يرونه عيبا قد نراه، نحن، مزيّة. فالشعر -عند المحدَثين- ما ترك صاحبه التقرير والمباشرة إلى التصوير الدائم.

وفي هذه الفترة نلتقي عددا من النصوص ينحو فيها أصحابها منحى ابن خفاجة، وإن لم يصلوا إلى مرتبته تكثيفا للصور وإتقانا للتأليف. ومن الأمثلة على ذلك ما نجده في كثير من مقطوعات الرصافيّ البلنسيّ، كقوله في وصف عشيّة قضاها مع رفاق له في بستان لصديق لهم، اسمه موسى بن رزق :

وعشيّة لبست رداء شحوبها ... والجوّ بالغيم الرقيق مقنّعُ
بلغت بنا أمد السرور تألّفا ... والليل نحو فراقنا يتطلّع
فابلل بها رمق الغبوق فقد أتى ... من دون قرص الشمس ما يتوقّع

(32) يقول الدكتور إحسان عبّاس متحدّثا عن مذهب بعض شعراء الأندلس كابن الزقّاق والرصافيّ وغيرهما :« وكان هذا المذهب -منذ عهد ملوك الطوائف بالأندلس- قد أخذ يُقيم خطّا واضحا بين المقطوعة و القصيدة. أمّا المقطوعة فإنّها، لتقارب أجزائها، تقوم على طلب الصور ... و أما القصيدة فإنّها بناء مكتمل ... يُدرج فيه [الشاعر] الصور بين الحين و الحين » (ديوان الرصافي البلنسيّ-المقدّمة-م.س.-ص :22).

(33) انظر :ابن خلدون: كتاب العبر-م.س.-1107/2.

سقطت و لم تملك يمينك ردّهـــا   فوددت يا موسى لو انك يُوشَع[34]

ففي هذه المقطوعة عدد من الصور يذكّرنـا بمـا نجده في نصـوص كثيرة لابـن خفاجة، صوّر فيها مجالي الطبيعة في بلدته جزيرة « شُقْر »[35].

على أنّ ابـن خفاجـة ربّمـا كـان أكـثر تشـخيصا لموصوفاته لاعتمـاده كثـيرا على الاستعارات. ولقد لمح تلك الظاهرةَ عنده كثير مـن النقّـاد. قـال الدكتـور محمـد رضوان الداية متحدّثا عن صنعة ابن خفاجة الشـعريّة:«و يـبرز عنصـر " التشـخيص" بشـكل صـارخ، ولا يكـاد الشـاعر يغفـل عنـه أو يهمله في مطوّلاتـه أو مقطوعاتـه. فالطبيعة تتحرّك، والجماد يتكلّـم، والأشـياء عنـده شـخوص ترتفـع كثـيرا إلى مراتـب الإنسان »[36].

ومن الأمثلة على هذه الظاهرة أيضا ما نُلفيـه في الأبيـات التاليـة حيـث يصـف ابن سفر طبيعة « المريّة » بلدته :

وادي المريّـة لا عدمتــك إنّـــي   ليهزّنـــي مــــرآك هزّمهنّـــد
يـا مـن أنادمـه بجنّتـــه اغتنـــم   فيهـا نعيمـا لم يكـــن بمخلّـد
واشرب على شدو الحمام فإنّه   أشهى إليّ من الغريض[37] ومَعْبَد
أتـراه أطربـه الخليـج و قـد رأى   تصفيقه تحت الغصـون الميّـد؟
و كـأنّهن رواقـص مـــن فوقـــه   وبهـا مـن الأزهـار شـبه مقلّـد
ألقـت على صفحاتـه أكمامهـا   فرفعنهـا عـن لؤلـؤ متبــــدّد

---

(34) ديوان الرصافيّ البلنسيّ-م.س.-ص:106.

(35) من نصوص ابن خفاجة التي تزدحم فيها الصور: قصيدته التي يستهلّها بقوله :

و كمامة حدر الصباح قناعهــا   عن صفحة تنـدى مـن الأزهـارِ

انظر: ديوان ابن خفاجة-م.س.-ص:336.

(36) ابن خفاجة-م.س.-ص:107.

(37) كتبت: « الفريد »، و هو خطأ. و«الغريض»: مغنّ مشهور، و كذا « معبد » .

نهـر يدرّجـه النسيـم كلأمـة   من فضّة أو منصـل أو مـبرد[38]

إن ازدحام الصور في النصّ الشعريّ قد يكون دليلا علـى سـعة خيـال صاحبـه لاسيما إذا كانت تلك الصور من قبيل الاستعارة. ولذلـك كـانت الاسـتعارة ممدوحـة من لدن النقاد. وهي عندهم أفضل من التشبيه، وذلك لما تحقّقه من أهـداف كتجسـيد المعنويّات وتشخيص المادّيّات وغير ذلك، ثم لما تدلّ عليه « من الصنعة الفنّيّـة العميقـة المتأنّية »[39] بالقياس إلى التشبيه.

ز- يُشترَط في الصورة الفنّيّة -حتى تكـون ناجحـة- أن تجسّـد حقّـا إحسـاس صاحبها وأن يكون هناك -إذا صحّ القول- تفاعل واندماج، بحيث ان الشاعر لا يقف من موصوفه موقف المصوّر الفوتوغرافي، في حياد وجمود.

فإلى أي مدى تحقّق ذلك في صور شعراء هذه الفترة؟

إنّ مقارنة بين نصّين من نتاج هذه الفترة ونصّ من نتاج الفترة السابقة قد تحدّد بعض ذلـك المـدى، وإن كـانت الأمثلـة القليلـة لا تسـمح بـإصدار أيّ حكـم. وهـذه النصوص الثلاثة كلّها في موضوع واحد، هو وصف الجبل. فقـد وصـف ابـن خفاجـة الجبل قُبيـل هـذه الفـترة في قصيـدة تُغنينـا شـهرتها عـن إيرادهـا، ثـم وصفـه الرصـافيّ البلنسيّ، في رائيته التي مدح بها الخليفة عبدالمؤمن بجبل الفتح، فقال :

من شامخ الأنف في سـحنائه طلـس   له من الغيب جيب غـير مـزرورِ
... تُمسي النجوم على إكليل مفرقـه   في الجـو حائمـة مثـل الدنانـير
وربمـا مسـحته مـن ذوائبهـا   بكلّ فضـل علـى فوديـه مجـرور
وأَذْرد مـن ثنايـاه بمـا أخـذت   منه معـاجم أعـواد الدهـارير

(38) ابن سعيد :رايات المبرّزين-م.س,-ص:75.

(39) يوسف خُليَف:الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي-القاهرة-دار المعارف-الطبعةالثانية-د.ت.-ص:294.

مُحنَّـك حلــب الأيّــام أشـــطرها		وساقها سوق حادي العِير للعِير
مُقيَّـد الخطـو جـوّال الخواطــر في		عجيب أمريه من ماض ومنظور
قد واصل الصمت والإطراق مفتكرا		بادي السكينة مغفرّ الأسارير
كأنّـه مُكمَد ممّـا تعبّـــــده		خوف الوعيدين من دكّ و تسيير[40]

ثم يتحدّث عن اطمئنانه يوم رجفة الجبال، وعن شفاعة الإمام المهديّ له[41].

ثم وصف الجبلَ صفوان بن إدريس، وذلك في معرض قصيدة مدح، فقال:

وطـودٍ لــو تزاحـم منكبـاه		نظـامَ النجـم لانتـثر انتشـارا
سما فتشوّفت زُهْـر الـدراري		إليـه فنكّـس الـرأس احتقـارا
وقـد شمـخ الوقـار بـه ولكـن		وقـار ذويـه علّمـه الوقـارا[42]

وإذا تأملنا النصّين السابقين وجدنا أنّ صاحبيهما -ولاسيما الرصافي- قد ألفّ كلّ منهما صورة فنيّة شخّصت الجبل، ورفعته إلى مرتبة الإنسان. إلاّ أننا إذا قارنّا هذين النصّين بنصّ ابن خفاجة المشار إليه، وجدنا أنّ الرصافيّ وصفوان قد وقفا من الموصوف موقف المصوّر الفوتوغرافي، و لم يكادا يتجاوزانه. أما نصّ ابن خفاجة فقد تحقّق في الصورة التي يتضمّنها ما أشرنا إليه من تفاعل واندماج، إذ انّ ابن خفاجة قد أسقط على الجبل ما كان يُحسّ به من مشاعر السأم من الحياة والغربة في هذا الوجود بعد أن عُمّر طويلا ومات جلّ أصدقاء شبابه وكهولته. وقد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا : إن ابن خفاجة قد تجاوز الصورة العادية إلى الرمز. وذلك ما لم نقف على كثير مثله في نتاج فترتنا.

جـ- إذا كانت الصورة الفنيّة في الأصل من تشكيل شاعر واحد، يجمع

---

(40) ديوان الرصافي البلنسي-م.س.-ص92-93.

(41) م.ن-ص:93-94.

(42) صفوان بن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص :61.

عناصرها ويؤلّف بين أجزائها فقد يشترك شاعران في تأليف صورة واحدة، فتأتي متآزرةَ العناصر، غيرَ مختلّة ولا ممزّقة. ومن الأمثلة على ذلك ما صدر عن صفوان ابن إدريس وصديقه ابن حامد، إذ مرّا بسرحة تهزها الريح، فقال ابن حامد :

وسرحة كاللواء تهفو بعطفها هبّة الرياح

فقال صفوان : كأنّ أعطافها سقتها كفّ النُّعامى كؤوس راح

فقال ابن حامد : إذا انتحاها النسيم هزّت أعطافها هِزّة السماح

فقال صفوان : كأنّ أغصانها كرام تُقابل الضيف بارتياح[43]

فقد تحقّقت وحدة النصّ، وتآزرت عناصر الصورة حتى لنخال القائل واحدا[44].

ط- سبق أن أشرنا إلى أنّ طريقة العرب كانت ما تزال موجودة، يجري عليها بعض الشعراء،لاسيما في الأغراض التقليديّة كالمدح والرثاء وما إليهما. ومن سمات هذه الطريقة الاقتصاد في التصوير، والجنوح إلى التقرير. وقد ظهر شيء من ذلك في بعض قصائد المدح والرثاء وغيرها، على نحو ما نلاحظ في هذه الأبيات من القصيدة التي يمدح فيها ابن جبير صلاح الدين الأيوبي :

ثأرتَ لدين الهدى في العدا فآثرك الله من ثائرِ

وقُمت بنصر إله الورى فسمّاك بالملك الناصر

وجاهدت مجتهدا صابرا فلله درّك من صابر[45]

ففي هذه الأبيات ميل واضح إلى التقرير، وجنوح بارز إلى المباشَرة، وذلك على غرار ما نجد في نتاج الشعراء الذين ساروا على مذهب الأوائل.

---

(43) المقّري:نفح الطّيب-م.س.-73/5.

(44) لصفوان مع بعض أصدقائه نماذج أخرى. انظر : م.ن.-ص :72-73.

(45) ابن عبد الملك:الذيل و التكملة-م.س.-599/2/5.

ي- يستقي الشعراء صورهم الفنّيّة من مصادر مختلفة، منها البيئة التي يعيشون فيها، والثقافة التي حصّلوها. وإذا حاولنا البحث عن مصادر الصورة في نتاج هذه الفترة وجدنا أنّ الشعراء كانوا يأخذون بعض صورهم من بيئتهم الطبيعيّة وغيرها، كما كانوا يأخذون بعضها مما حصّلوه من ثقافات : أدبيّة ودينيّة وتاريخيّة وغيرها.

فأمّا البيئة فكانت المصدرَ الأول الذي استقَوْا منه صورهم. على أنّهم ليسوا بِدْعا في ذلك. فقد كان شعراء العصرين الجاهليّ والإسلاميّ يستقون صورهم من بيئتهم البدويّة؛ وقد تأثر شعراء العصر العباسيّ ببيئتهم المتحضّرة فظهر ذلك في صورهم. وإذا كان الأندلسيّون قد اجترّوا كثيرا من صور المشارقة، فقد كان لبيئتهم أثر في عملية التصوير عندهم، فظلّت طبيعة بلادهم مَعينا ثرّا لاستقاء الصور. ولم يخرج شعراء هذه الفترة عن غيرهم من شعراء الأندلس، إذ كانت الطبيعة الأندلسيّة- في الغالب-« صندوقَ أصباغهم ». ومن الأدلّة على ذلك قول الرصافيّ يصف نائما وقد تحبّب العرق على خدّه:

و مهفهف كالغصن إلاّ أنّه — سلب التثنّيَ النوم عن أجفانه
أضحى ينام وقد تحبّب خدّه — عرقا، فقلت: الورد رُشّ بمائه[46]

ومن تلك الأدلّة قول الرصافي كذلك واصفا « صبيّا يتباكى ويجعل من ريقه على خدّيه يحكي بذلك الدموع » :

عذيري من جذلان يُبدي كآبة — وأضلعه مما يحاوله صفرُ
أُميلد ميّاس إذا قاده الصبا — إلى ملح الإدلال أيّده السحر
يبلّ مآقي زهرتيه بريقه — ويحكي البكا عمدا كما ابتسم الزهر
أيوهم أنّ الدمع بلّ جفونه؟ — وهل عُصرت يوما من النرجس الخمر؟[47]

(46) ديوان الرصافي البلنسيّ-م.س.-ص :33.

(47) م.ن.-ص :79-80.

ففي النص الأول نجد الشاعر -وهو يبني صورته- يذكر «الغصن» و «الورد»؛ وفي النص الثاني نُلفيه -لذات الغرض- يعبّر بالألفاظ: «أُميلد» و «ميّاس» و «الصبا» و «زهرتيه» و «النرجس». وكلّها مأخوذ من الطبيعة الأندلسيّة.

ونختم هذه الأمثلة بقول أبي الوليد القَسْطَلّي من قطعة يصف فيها جيشا مستخدما عناصر من الطبيعة لتأليف صورته:

وسحائب فيها السيوق بوارق   والزجر رعد والخيول سيول(48)

وأما الثقافة فقد تفاوت استغلال شعراء هذه الفترة لها في بناء صورهم، بين النجاح والإخفاق، وذلك تبعا لتفاوت القرائح.

ومن ألوان الثقافة التي وظّفوها لبناء صورهم ما وعت ذاكرتهم من تراث أدبيّ. ومن الأمثلة على ذلك ما نقف عليه في البيتين السابقين اللذين وصف فيهما الرصافي البلنسيّ غلاما معذّرا(49). فقد ألّف فيهما صورته مما وعته ذاكرته من مقدّمات القصائد الجاهليّة: فـ «المحلّ المقوي»، و «الرسم العافي»، و «النؤي الداثر»، و «الأثافي السوداء»، كلّها مُستمَدّ من وصف الأطلال.

وقد انتزع ابن سعد الخير، كذلك، صورته في المقطوعة التي وصف فيها الدولاب(50) من المقدّمات الطللية: فالدوران بمعهد الأحبة، وبكاؤهم، وسؤال المنزل عنهم، كلّها مُنتزَع من تلك المقدّمات.

ونجد ابن خروف يوظّف معلوماته اللغويّة في تأليف صورته فيشبّه غلاما بعد أن عذّر بأحد كتب اللغة، فيقول:

وكان غريب الحسن قبل عذاره   فلما التحى صار «الغريب المصنَّفا»(51)

(48) ابن إدريس: زاد المسافر-م.س.-ص: 59.

(49) انظر: ص: 476.

(50) انظر: ص.ن.

(51) ابن سعيد: المغرب-م.س.-1/137.

من خراب ودمار. يقول الزوالي منتزعا بعض صورته من سورة «المسد» وغيرها

الإيقاع مقوّم أساسي من مقوّمات الخطاب الشعري،وعنصر ضروري من عناصره.وإذا كانت تعاريف الشعر القديمة قد أغفلت بعض مقوماته،كالصورة مثلا، فإنّها لم تترك الإيقاع أبدا. فالشعر عند الجاحظ متوقّف على « إقامة الوزن » وغيره من العناصر[1]؛ وهو عند قُدامة بن جعفر « قول موزون مُقفّى ... »[2]؛ وبنيته عند ابن رشيق من أربعة أشياء منها « الوزن » و« القافية»[3] ...

وإذا كان بعض النظريّات النقديّة المعاصرة يحاول هدم الحواجز بين الشعر والنثر مهتمّا بأدبية النّص قبل كل شيء، فإنّه يراعي عنصر الإيقاع مقوّماً أساسيا للخطاب الشعريّ، بل الخطاب الأدبيّ بوجه عام.

على أنّه مهما اجتُهد في القول بإيقاع النثر، يظلّ الإيقاع شبه موقوف على الشعر. يقول د.عبد الملك مرتاض:« ... بيد أنّنا، مع ذلك، نؤثر أن يظلّ الإيقاع، في أيّ شكل من أشكاله، إحدى الخصائص الخِطابيّة الأولى للشعر»[4].

وقد حظي الإيقاع-بحكم قيمته في الخطاب الشعري-بعناية الباحثين قديما وحديثا. فالقدماء لم يكتفوا بوضع عِلْمي العَروض والقوافي، وتتبّع الزّحافات والعِلل، وحصر الضرائر وغير ذلك، وإنّما ذهب بعضهم إلى تصنيف الإيقاعات حسَب المضامين الشعريّة.فلكلّ عاطفة أو مجموعة من العواطف ما يناسبها من تلك الإيقاعات [5].

---

(1) انظر : الحيوان -م.س.-3 /131-132.

(2) نقد الشعر -م.س.-ص :15.

(3) العمدة -م.س.-1 /119.

(4) بنية الخطاب الشعريّ-م.س.-ص :9.

(5) ينظر-مثلا-:حازم القرطاجنّي: منهاج البلغاء،و سراج الأدباء -تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة- بيروت - دار الغرب الإسلاميّ- الطبعة الثانية-1981م.-ص :265 و ما بعدها.

أما المحدَثون فلهم في موسيقى الشعر غيرُ ما بحث[6]. بل إنّ المنظّرين للشعر الجديد قد حظي منهم الإيقاع بعناية خاصّة : فهذه نازك الملائكة تخصّص في كتابها « قضايا الشعر المعاصر » بابا تبسط فيه الحديث عن التشكيل الموسيقيّ للقصيدة الجديدة [7]. ومثلها في العناية بهذا الجانب د.عزّ الدين إسماعيل[8]، ود.محمد النويهي[9]، وغيرهما.

وقد سار الشعر الأندلسيّ قبل عصر الموحّدين-إذا استثنينا الموشّحات والأزجال التي سنتناول بالحديث إيقاعها من بعد- على غرار الشعر المشرقيّ من حيث خصائصه الإيقاعيّة.فقد سادت فيه القصيدة العموديّة ذات الشطرين الموحدة القافية. ولم يكن من خروج على ذلك النظام إلاّ على نحو ما حدث في المشرق من تخميس وتشطير ولزوم وغير ذلك. حتى انّ الباحث ليَعجب من محافظة الأندلسيّين على الإيقاع الموروث في الشعر التقليديّ وهم الذين جدّدوا في الإيقاع فيما نظموا من موشّحات، خرج بعضها عن تفعيلات الخليل خروجا تامّا[10]. وقد يزداد ذلك العجب عندما يُلفَى الأديب نفسه شاعرا محافظا غاية المحافظة على الإيقاع التقليديّ، وموشّحا قد ينظم من الموشحات ما لا صلة له البتّة بأوزان الخليل[11].

---

(6) من ذلك-مثلا- كتاب الدكتور إبراهيم أنيس «موسيقى الشعر»، وكتاب الدكتور محمد شكري عيّاد « موسيقى الشعر العربي ».

(7) انظر:قضايا الشعر المعاصر-بغداد- مكتبة النهضة- الطبعة الثانية-1965- ص :51-114.

(8) انظر : الشعر العربيّ المعاصر : قضاياه وظواهره الفنّيّة والمعنويّة-م.س.- ص :43-123.

(9) ينظر : إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر- م.س.- ص :376.

(10) انظر: ابن سناء الملك: دار الطراز- م.س.- ص : 46-47.

(11) قد يكون في الأعمى التطيلي أفضل مَثل.

أما الشعر الأندلسيّ في الفترة الأولى من عصر الموحّدين فسنحاول بيان خصائص إيقاعه فيمايلي. على أنّ ضياع دواوين عدد من شعراء هذه الفترة، وعدم جمع شعر الآخرين في دواوين لا يسمحان بإجراء إحصاء شامل يمكّننا من استخلاص نتائج دقيقة تساعد على تحديد خصائص التشكيل الموسيقيّ للنتاج الشعريّ الذي خلفه شعراء هذه الفترة. ولذلك سنحاول إجراء هذا الإحصاء في أشعار أربعة من أعلام الشعر في ذلك العصر توفّر لنا من نتاجهم قدر نراه صالحا للدراسة. وهؤلاء الشعراء هم : الرّصافي البلنسيّ، وابن جُبَير، وصفوان بن إدريس، وابن مُجْبَر[12]. كما سنعتمد -في استخلاص النتائج- على بعض مصادر الشعر الأندلسيّ في هذه الفترة كـ « زاد المسافر » و« المقتضَب من كتاب تحفة القادم »، وغيرهما.

وحتى يتيسّر استخلاص خصائص التشكيل الموسيقي للشعر القريض الذي خلفته هذه الفترة نبدأ بحثنابالأوزان، ثم نأتي إلى القوافي :

1- الأوزان :

نظم الشعراء الأربعة الذين ذكرناهم ما تيسّر لنا الوقوف عليه من شعرهم على الأوزان التالية :

البحور	الرصافي	ابن جبير	صفوان	ابن مجبر	المجموع
الطويل	(*)177:21	57 :12	87 :7	27 :5	**348 :45**
المديد		3 :1		9 :2	**12 :3**
البسيط	182:16	22 :4	5½ :2	45 :7	**254½ :29**
مُخلّع البسيط		32 :9	17½ :7		**49½ :16**

(12) اعتمدنا على ديوان الرصافي البلنسيّ الذي جمعه -كما أسلفنا- الدكتور إحسان عباس؛ وجمعنا من المصادر المتيسّرة 66 نصّا لابن جبير، و 40 لصفوان، و28 لابن مجبر.

(*) العدد الأول للنصوص، والعدد الثاني للأبيات.

الوافـــــــر	76:8	76:4	64:3	43:3	**259:18**
الكـــــــامل	215:20	32:6	87½ :10	16:3	**350½ :39**
الرمـــــــل	35:2	18:2		7:2	**27:6**
مجزوء الرمـل		2:1			**2:1**
الرجـــــــز	2:1				**2:1**
مجزوء الرجـز			4:1		**4:1**
الســـــريع	1:1	27:8	16:5	12:3	**56:17**
المنســــرح			5:2		**5:2**
الخفيــــــف	22:6	7:3	8:3	1:1	**38:13**
المجتـــــــثّ		22:5			**22:5**
المتقـــــارب	12:4	116:11		4:2	**132:17**

ونستخلص من الجدول السابق ومن المصادر المشار إليها مايلي :

١- أكثر شعراء هذه الفترة النظم على بحور، وقلّ نظمهـم علـى بحـور أخـرى، و لم يكادوا ينظمون على غيرها شيئا.

فهل لذلك ما يبرره ؟

يختلف الباحثون، في موسيقى الشعر، في علاقـة وزن النـص الشـعريّ بعاطفـة صاحبـه، فـيرى بعضهـم أنّ بـين الـوزن والعاطفـة صلـة قويـّة، بحيـث انّ كـلّ عاطفـة ستدعي ما يناسبها من الأوزان[13]؛ ويذهب آخرون إلى أنّه لا علاقة للوزن بالعاطفـة،

(13) لعلّ حازما القَرطاجنّي أن يكون أشهر الذين ذهبوا هذا المذهب. يقول: « ولَمّا كـانت أغـراض الشعر شتى، وكان منها ما يُقصَد به الجدّ والرصانة، وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنهـا مـا يقصـد بـه البهـاء والتفخيم، ومـا يقصـد بـه الصَّغار والتحقير، وجب أن تُحاكَى تلـك المقـاصد بمـا يناسـبها مـن الأوزان... » (منهاج البلغاء- م.س.- ص :266).

وأنّ للشاعر أن يختار ما يشاء من الأوزان ليعبر عمّا يشاء من العواطف[14].

وإذا قارنا بين الرأيين بَدَا لنا أنّ ما يذهب إليه الفريق الأول أصحّ، لأنّ تباين العواطف يقتضي -افتراضا- تباين الأوزان، إذ الشكل -أصلا- تابع للمضمون.

غير أنّ المتتبّع للشعر العربيّ لا يجد من الشواهد ما يكفي للتدليل على صحّة هذه النظريّة. بل إنّه ليجد أنّ الوزن نفسه قد تُصَبّ فيه عواطف متباينة، ويُوظّف لحمل مضامين مختلفة، متناقضة في بعض الأحيان.

لذلك نؤثر التحفّظ، فلا نتبنّى ما يراه القائلون بعلاقة الوزن بالعاطفة إلاّ بمقدار. ولعلّ ذلك أن يجنّبنا التمحّل الذي يطبع بعض الدراسات التي تناولت هذا الموضوع.

ونحسب أنّ هناك بحورا تمكّنت من ملَكات الشعراء بحكم شيوعها،فأصبحت تنقاد لهم-حين يريدون أن ينظموا- أكثر من غيرها. ولهذا كثر توظيفها. هذا فضلا عمّا قد يتوفر فيها من مزايا موسيقيّة يفتقر إليها غيرها. يقول الدكتور إبراهيم أنس : « هناك... أوزان للشعر كثيرة الشيوع، مألوفة محبوبة، يطرقها كل الشعراء، وينسجون عليها معظم أشعارهم» [15].

ب-أكثر شعراء هذه الفترة النظم على الطويل والكامل والبسيط والوافر. وهذه هي الأبحر التي كثر النظم عليها في القديم. ومن يتتبع عيون الشعر العربيّ في الأعصر الأولى، يجد جلّها منظوما على هذه الأبحر الأربعة، فتِسْع من المعلقات العشر -مثلا- منظومة عليها.

---

(14) من الذين يذهبون هذا المذهب الدكتور محمد اليعلاوي الذي يرى أنّ « كلّ الأوزان العربيّة... صالحة لكلّ الأغراض » (ابن هانئ -م.س.- ص :311-312).

(15) موسيقى الشعر -م.س.- ص : 206.

وإذا كان صحيحا ما يذهب إليه بعض النقاد من أن للوزن علاقة بالعاطفة، فإنّ هذه البحور تتسع -بفضل ما تقوم عليه من تفعيلات كثيرة طويلة- للأغراض الجادّة كالمدح والرثاء وما إليهما، ممّا يكثر في الشعر العربيّ القديم. قال الدكتور عزّ الدين إسماعيل معلّلا ملاءمة الأوزان الطويلة لغرض الرثاء: «إنّ الشعراء حين يعبّرون عن حالات الحزن يعبّرون عنها في الأوزان الطويلة... فابن الروميّ -مثلا- حين رثى ولده محمداً، إنما عبّر عن حزنه عليه في هذا الوزن الطويل...»[16].

وهذه الظاهرة في شعر هذه الفترة قد تكون دليلا آخر على رسوخ طريقة العرب. فقد كان السائرون من شعراء الأندلس في الاتجاه المحافظ يؤثرون «من الموسيقى الشعريّة الذوق القديم في حبّ الأوزان الطوال ذات النغم الوقور»[17].

جـ- احتلّ بحر الطويل المرتبة الأولى في شعر هذه الفترة. وإذا كان الجدول السابق لم يُظهر كثيرا تقدّمه على البحور الأخرى، فإنّ فهارس الأوزان في مصادر شعر هذه المرحلة يتجلّى فيها ذلك التقدّم.

وهذا البحر ظلّ أثيرا عند الشعراء القدماء، فنظموا عليه ما لم ينظموه على أيّ بحر آخر. حتى انّ الدكتور ابراهيم أنيس صنّفه -وحده- في المرتبة الأولى من أربع مراتب صنّف فيها بحور الشعر العربيّ من حيث الشيوع[18]، وقال منوّها بمنزلته في القديم: «ليس بين بحور الشعر العربيّ ما يضارع البحر الطويل في نسبة شيوعه. فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر العربيّ القديم من هذا الوزن»[19].

وقد سار شعراء الأندلس في هذه المرحلة كغيرهم في توظيف هذا الوزن

(16) التفسير النفسيّ للأدب -بيروت- دار العودة و دار الثقافة-د.ط.-د.ت.- ص : 80.

(17) أحمد هيكل:الأدب الأندلسي- م.س.- ص : 199.

(18) انظر :موسيقى الشعر-م.س.- ص : 69 و ما بعدها.

(19) م.ن.- ص : 69.

لمهمّات القصائد. فلو رجعنا إلى ما نظموه من مدائح في عبد المؤمن وأبنائه لألفينا أنّ جلها جاء من هذا البحر. وقد نظم عليه الرصافيّ البلنسيّ أروع قصائده: رائيّته في الحنين إلى وطنه. وغير ذلك كثير.

إنّ إقبال شعراء هذه الفترة وغيرهم من الشعراء السابقين على الطويل يعود -من غير شك- إلى عدة عوامل. لعلّ أهمها استقراره في الأذواق، ومميّزاته الموسيقية[20]، ومناسبته للموضوعات الجليلة[21].

على أنّه يحقّ التساؤل: لِم هبط الطويل عن تلك المنزلة في العصر الحديث؟

إنّ تعليل الدكتور ابراهيم أنيس تخلّف الطويل في العصر الحديث قد لا يكون جوابا مُقنعا عن هذا السؤال. يقول: «أمّا الطويل فيظهر أنه لم يعد يناسب العصر الحديث كوزن من أوزان الشعر. ولهذا هبطت نسبة شيوعه هبوطا ملحوظا في الشعر الحديث» [22]. ولعلّ قلة النظم فيه، في هذا العصر، عائدة إلى ما يمكن أن يكونوا قد وجدوا فيه من « صعوبة » لم تواجههم في بحور أخرى.

د- كثر استخدام بحر الكامل. فقد احتلّ في الجدول السابق مرتبة توازي مرتبة بحر الطويل من حيث عدد الأبيات. على أنّ الشعراء الأربعة يتفاوتون في الإقبال عليه. فالرصافيّ وصفوان أكثر من ابن جبير وابن مجبر نظماً عليه. ولقد احتلّ عند الرصافي المرتبة الأولى من حيث عدد الأبيات، واحتلّها عند صفوان مطلقا. بيد أننّا نستنتج من فهارس الأوزان في مصادر شعر هذه الفترة أنه كان أقلّ شيوعا من الطويل.

---

(20) يقول حازم القرطاجنّي: «فالعروض الطويل تجد فيه أبداً بهاء وقوة» (منهاج البلغاء-م.س.- ص: 269).

(21) يقول الدكتور عبد الملك مرتاض متحدّثا عن هذا البحر: « يمثّل هذا الإيقاع الشموخ والفحولة والرصانة في الشعر العربيّ... كما أنهم لا يكادون يعالجون في ميقعته إلاّ الموضوعات النبيلة أو المفترض كذلك أمرها » (ا-ي...-م.س.-ص: 41-43).

(22) م.س.- ص: 229.

على أنّ هذا البحر أصبح، في العصر الحديث، أكثر البحور شيوعا وأخذ المرتبة التي كانت للطويل قديما. ويمكن تعليل ذلك بتغير الذوق. كما يمكن تعليله بما يكون المحدثون قد وجدوا في هذا البحر من وضوح الموسيقى وسهولة النظم. « إنّ البحر الكامل في عصرنا الحديث قد أصبح معبود الشعراء... فإذا وصف القدماء الرجز بأنه مطية الشعراء، يمكننا الآن ونحن مطمئنّون أن نصف الكامل بأنّه مطيّة شعرائنا المحدثين»[23].

هـ- تأتي بعد الأبحر السابقة أبحر أخرى نظم عليها الشعراء الأربعة وغيرهم من شعراء هذه الفترة ولكنّهم لم يكثروا. وهذه الأبحر هي : المتقارب، والسريع، والخفيف، والرمل. غير أنّنا نلاحظ ما يلي :

- اختلف إقبال الشعراء على هذه الأبحر.فإذا كان ابن جبير يُقبل على المتقارب إلى درجة أنه احتل المرتبة الأولى في شعره من حيث عدد الأبيات،وأخذ المرتبة الثانية من حيث عدد النصوص، كما استخدم السريع أكثر من الرصافي وصفوان وابن مجبر،فإنّ الرصافي نجده يوظّف الخفيف أكثر من غيره فينظم فيه عدّة نصوص.

- نظم الشعراء الأربعة سبعة عشر نصًّا على السريع. وهذا يدلّ على أن هذا البحر قد حظي ببعض العناية لدى شعراء هذه الفترة في الأندلس. وهو الذي ظلّ الإقبال عليه قليلا في القديم والحديث على الرغم من عراقته. يقول د.إبراهيم أنس : « هذا بحر من أقدم بحور الشعر العربيّ. غير أنّ ما زوي منه في الشعر القديم قليل»[24]. ثم يذكر ما آل إليه أمره في العصر الحديث ويتنبّأ بزواله معلّلا ذلك فيقول:« إنّ السّريع قد قلّت نسبة شيوعه في شعرنا العصريّ، وأصبح شعراؤنا ينفرون منه ومن موسيقاه. والحق أنّنا حين نُنشد شعرا

(23) م.ن.-ص : 228-229.

(24) م.ن.-ص : 101.

من هذا البحر نشعر باضطراب في الموسيقى لا تستريح إليه الآذان إلاّ بعد مران طويل...وأغلب الظّنّ أنّ هذا البحر سينقرض مع الزمن» [25].

- يبدو من خلال هذا الجدول أنّ الخفيف لم يحظ لدى الشعراء الأربعة وغيرهم بالعناية التي حظي بها لدى القدماء والمحدثين إلى درجة أنْ وضعه الدكتور إبراهيم أنيس في مرتبة الكامل والبسيط والوافر[26].

- حظي بحر الرمل باهتمام الموشّحين، فنظمت عليه موشحات مشهورة منها : موشحة ابن زهر «أيها الساقي اليك المشتكَى » وغيرها، ولكنّ الإقبال عليه في الشعر القريض كان قليلا، لدى شعراء هذه الفترة وغيرهم. على أنّ المحدَثين قد أصبح عندهم واحدا من البحور المهمّة[27]. ولعلّهم أن يكونوا وجدوا فيه ما وجدوا في الكامل من وضوح الإيقاع وسهولة النظم. ولعلّ قلة الإقبال عليه قديما، تعود إلى طبيعة ذوق السابقين الذين كانوا يؤثرون«الأوزان الطوال ذات النغم الوقور» [28].

و- قلّ نظم شعراء هذه الفترة على بعض البحور كالمنسرح، والمجتثّ، والمديد، والرجز.

فلم نقف من بحر المنسرح إلا على شيء قليل، منه النصّان اللذان أشار إليها الجدول السابق، وهما لصفوان. ومنه نصّ لابن حريق[29] وآخر للسّلمي[30]. ولم يختلف شعراء هذه الفترة عن غيرهم من الشعراء العرب في موقفهم من هذا البحر

(25) م.ن.-ص : 102.

(26) انظر : م.ن.-ص : 73 و ما بعدها.

(27) انظر : م.ن.-ص : 101-102.

(28) أحمد هيكل : الأدب الأندلسيّ-م.س.-ص :199.

(29) انظر : ابن إدريس :زاد المسافر-م.س.-ص :67.

(30) انظر : م.ن.-ص :78.

قديما وحديثاً. ذلك أنّ المحدَثين«لم يستريحوا إليه، وإلى موسيقاه... ولعلّ الذين حاولوه منهم إنّما أعجبوا بقصائد معيّنة قالها القدماء من هذا الوزن فنسجوا على منوالها... أمّا القدماء فقد نظموا منه على قلة أيضاً» [31]. ويعلّل الدكتور إبراهيم أنيس قلّة النظم في هذا البحر بما يجد الناظم فيه من عَنَت ومشقّة،وبُعد موسيقاه عن الانسجام[32].

كذلك لم نر إقبالا على بحر المجتثّ. فلم ينظم فيه من الشعراء الأربعة إلا ابن جبير الذي وجدنا له -كما يتّضح من الجدول- خمسة نصوص. و لم نقف لغيرهم من شعراء هذه الفترة إلا على شيء قليل، نظموه فيه[33]. وهم بذلك لا يختلفون عن غيرهم من الشعراء العرب القدماء الذين كان إقبالهم على هذا البحر قليلا[34]. وإن كان المحدثون قد اهتمّوا به فأكثروا من النظم عليه[35].

وكان بحر المديد مثل البحرين السابقين قلّةً في شعر هذه الفترة. فلم نقف منه عند الشعراء الأربعة إلا على ثلاثة نصوص. وليس لغيرهم من معاصريهم ولا لسواهم من شعراء الأندلس[36] ما يدلّ على بعض الاهتمام به. وهم في ذلك كغيرهم من شعراء المشرق قديما. يقول الدكتور ابراهيم أنيس متحدّثاً عن قلة النظم في هذا البحر، مبديا تعجّبه من هجر الشعراء له: «هذا بحر اعترف أهل العروض بقلّة المنظوم منه، وعلّلوا هذا في بعض كتبهم بأنّ فيه ثقلا !! ولا أدري ماذا عنوا بالثقل ونحن نشعر بانسجام في موسيقاه» [37]. ثم يُبدي رأياً له وجاهته في هذا البحر الذي يُمكن أن يكون صورة من صور

---

(31) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر-م.س.-ص :106-107.

(32) انظر : م.ن.

(33) انظر: ابن إدريس : زاد المسافر-م.س.-فهرس القوافي.

(34) و (35) ينظر:إبراهيم أنيس :موسيقى الشعر-م.س.-ص :127.

(36) انظر- مثلا- فهارس القوافي في «المقتضَب من كتاب تحفة القادم »و «نفح الطِّيب ».

(37) إبراهيم أنيس :موسيقى الشعر- م.س.-ص : 111.

بحر الرمل هجرها الشعراء لسبب من الأسباب. يقول: «وفي الحق أنّ البحر يستحق دراسة خاصّة في ضوء بحر الرمل، فربما أمكن نسبة ما نُظم منه إلى بحر الرمل مع شرح ما فيه من تغير أو تحول جعله يباين الرمل في تفاعيله. فإذا أمكن هذا لم نحتج إلى بحر نسمّيه المديد، وإنّما هو الرمل في صورة أخرى»[38]. على أنّنا قد نعجب حين نجد محمدا العيد آل خليفة يُقبل على هذا البحر إقبالا لم يُقبله عليه أحد من القدماء ولا من المحدثين. يقول د.عبد الملك مرتاض متحدثاً عن الإيقاعات التي طغت على شعر محمد العيد : « وأول الإيقاعات وأكثرها جريانا في شعره إيقاع :"فاعلاتن - فاعلن- فاعلات". حيث بلغت القصائد التي تركض في ميقعته في هذه المجموعة،إحدى وعشرين قصيدة» [39].

وليس بين أيدينا مما نظم في بحر الرجز إلاّ نصوص قليلة. فهل من أسبابٍ وراء قلّة الإقبال عليه؟

يختلف الشعراء والنقّاد في قيمة الرجز. فمنهم من يراه دون البحور الأخرى شأناً، لا يركبه إلاّ العاجز من الشعراء[40] ، حتى ان أبا العلاء المعرّيّ في« رسالة الغفران »، لم يُنزل الرجّاز منزلة غيرهم من الشعراء، وإنّما تخيّل لهم جنة حقيرة تناسب-في رأيه- قيمة نظمهم[41]؛ ومن الشعراء والنقاد من يراه بحرا كغيره من البحور، يتفاوت الناظمون فيه تبعا لتفاوت قرائحهم. يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:« و لم أقرأ للرجّاز رجزًا سَلِسا يلتحق بالشعر الفنّيّ مثل هذه الملحَمة[42]،

---

(38) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر-م.س.-ص : 111.

(39) ا-ي ... -م.س.-ص :36.

(40) حتى شاع تلقيبه بـ« حمار الشعراء ».

(41) انظر:رسالة الغفران-تحقيق عائشة عبد الرحمن-القاهرة-دار المعارف بمصر-الطبعة الخامسة-1969م-ص 374 و ما بعدها.

(42) يقصد ملحمة رجزيّة تاريخية نظمها حين كان منفيًا بقرية « آفلو » أثناء الحرب العالميّة الثانية.

إلا لابن الخطيب في"نظم الدول"، ولشوقي في"دول العرب وعظماء الإسلام"، ولبعض الشناقطة. وكأنّ الرجز موقوف على نظم المتون العلميّة وهي مُقيَدة بالاصطلاح العلميّ. لذلك كان باردًا بعيدا عن الفنّ، خاليا من الإشراق والروعة ... وأنا أعتبره بحرًا كبقيّة بحور الشعر العربيّ، يرتفع فيه أقوام وينخفض آخرون. ولمهيار الدَّيلَميّ قصائد كثيرة من مسلسلاته من وزن هذا البحر، ولم يقعد بها عن الإجادة أنها من الرجز» [43].

ويبدو من تتبّع نتاج هذه الفترة أنّ نظرة الشعراء إلى الرجز لم تتغيّر. فقد ظلّ يُستخدم في بعض المنظومات العلميّة، على نحو ما رأينا في المبحَث الذي تناولنا فيه الشعر التعليميّ. أما فيما عدا ذلك فلم نلاحظ إقبالا عليه. وممّا ورد منه، فضلا عما أشار إليه الجدول السابق، تلك القصيدة التي نظمها أبو بكر السلاويّ الواعظ في « الوحدانيّة والرجاء »،والتي مرّت بنا في المبحَث الذي خصصنا به شعر التصوّف. ومن ذلك أبيات لأبي القاسم بن إدريس خال صفوان[44].

وفي الحقّ أنّ مقارنة بين ما نُظم عليه وما نُظم على غيره تُشعرنا بتدنّي مستواه الفنّيّ بالقياس إلى جلّ الأوزان الأخرى. ولعلّ هذا هو الذي صرف الشعراء عنه، لا سهولة النظم فيه.

ز- لم نجد فيما وقفنا عليه من نتاج الشعراء الأربعة أثراً للأبحر الباقية أي الهزج،والمتدارك (الخبب)، والمضارع، والمقتضب.

فأمّا الهزج فهو أحد البحور القصيرة، يختلط بمجزوء الوافر.وموسيقاه جيّدة، قد يكون دليلا على جودتها إقبالُ بعض الشعراء المحدثين عليه في بعض فنون الشعر[45].

---

(43) « أنا » -مجلة الثقافة-الجزائر-وزارة الثقافة-ع : 87 - مايو- يونيو 1985م-ص :34.

(44) انظر : ابن إدريس:زاد المسافر-م.س.-ص 156-157.

(45) ينظر : إبراهيم أنيس:موسيقى الشعر-م.س.-ص 126.

فلِم ظلّ قليلا في الشعر الأندلسيّ[46] وغيره من الشعر العربيّ القديم[47]؟

قد يكون قِصَره وراء تلك القلّة. فقد كانت نسبة الأوزان القصيرة قليلة جداً في الشعر العربيّ القديم، إذ الذوق السائد كان يتطلّب طوال الأوزان.

وأما الخبب فيبدو أقلّ حظّا من الهزج. فلم نقف إلا على عدد قليل من النصوص المنظومة فيه[48]. ولعلّ خلوّ كتاب « نفح الطِّيب ».على سعته و شموله - من النصوص المنظومة في هذا البحر، خلا نصّين[49] ، دليل على قلّة النظم فيه بالأندلس. على أنّ هذه الظاهرة عامّة في الشعر العربيّ القديم. « وأوّل ما يمكن أن يسترعي الانتباهَ أنّ أمثلة هذا البحر وشواهده تكاد تكون متّحدة في كلّ كتب العروض. وهي عبارة عن أبيات منعزلة غير منسوبة لأصحابها، تبدو عليها الصنعة والتكلّف. فإذا نحن بحثنا في كتب الأدب ودواوين الشعراء عن أمثلة أخرى لا نكاد نظفر بشيء»[50].

وبحر الخبب من البحور الصافية، وقيمته الموسيقية لا تخفى. فما السبب في هجر الشعراء السابقين له هجرا يكاد يكون تاما ؟

قد يكون صحيحا ما ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس حيث يقول:« وجدوه أليق بالأدب الشعبيّ لكثرة ما فيه من مقاطع ساكنة»[51].

---

(46) انظر فهارس القوافي في «زاد المسافر »و « تحفة القادم »و « نفح الطيب » و غيرها.

(47) ينظر : إبراهيم أنيس:موسيقى الشعر-م.س.-ص 123.

(48) منها سينيّة ابن حَزْمون في مدح المنصور الموحّديّ التي سبق الحديث عنها في الفصل الذي عقدناه للمدح.

(49) انظر : 92/2، 392/6 .

(50) إبراهيم أنيس :موسيقى الشعر- م.س.-ص :115-116.

(51) م.ن.-ص :118.

على أنّ هناك من أدرك، في تلك الفترة، قيمة هذا البحر وأُعجب بإيقاعه : فقد كان الخليفة الموحّدي أبو يوسف يعقوب المنصور يحبّ هذا البحر ويقترحه على الشعراء.فلمّا أنشده ابن حزمون، عقب انتصار «الأرك» سينيّته « حَيَّتْكَ معطرة النفس »، أعجبته كثيرا، وحظيت باستحسان من كان معه. قال عبد الواحد المراكشيّ مسجّلا الحادث : «فممّن أنشد في ذلك اليوم صديق لي من أهل مُرْسِية اسمه عليّ بن حزمون، أنشده قصيدة في عروض يُسمّى الخبب كان يقترحه على الشعراء، فوقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان»[52]. وإن كان المراكشي يرى بحرها غير مألوف. يقول بعد أن أوردها : « أوردتها على تواليها، وإن كان فيها طول لغرابة عروضها وجودة أكثر أبياتها»[53].

وقد حثّ بعضهم الشاعر ابن حريق على أن ينظم في هذا البحر، فقال :

خذ في الأشعار على الخببِ فقصورك عنه من العجب
هذا وبنو الآداب قضوا لك بالعلياء من الرتب[54]

فنظم ابن حريق قصيدة من هذا البحر نوّه بها ابن الأبّار قائلا : « ... ولا أحسن إشارة، ولا أبين عبارة لمن أراد الكلام على هذه العروض من قول شيخنا أبي الحسن علي بن محمد ابن حريق في قصيدة فريدة»[55].

وأمّا المضارع و المقتضب فلا أثر لهما البتّة في شعر هذه الفترة،

(52) المعجب-م.س.-ص : 213.
(53) م.ن.-ص : 215.
(54) البلفيقيّ :المقتضَب-م.س.-ص :99.
(55) م.ن.-ص :98.

مثلما هو شأنهما في غيرها[56].

ح- استخدم شعراء هذه الفترة أوزان الشعر تامّة أو مجزوءة، غير أن نسبة المجزوءة قليلة. فلا أثر للجَزْء في ديوان الرصافيّ ولا فيما جمعناه من أشعار مُجَبّر. ونسبة الجزء قليلة فيما جمعناه من أشعار ابن جُبير وصفوان. ومثل ذلك نقوله في مختارات صفوان في « زاد المسافر »، ومختارات ابن الأبّار في « كتاب تحفة القادم »، وفي غيرهما من مصادرِ شعر هذه الفترة.

ومن البحور التي وجدناهم يستخدمونها مجزوءةً : الرمل، والكامل، والرجز، والخفيف. وقد حظي مجزوء البسيط المسمّى«بالمخلّع » بإقبال نسبيّ من لدن شعراء هذه الفترة وغيرهم من شعراء الأندلس، مع أنّ غيرهم قد نظموا فيه « على قلّة في جميع العصور»[57]. ففي الجدول السابق نلاحظ اهتماما به من لدن كلٍّ من ابن جبير وصفوان، إذ نظم الأول عليه تسعة نصوص ونظم الثاني سبعة. ومثل ذلك الاهتمام بمخلّع البسيط يبدو من تتبّعنا لمصادر شعر هذه الفترة.

2-القوافي :

بنى الشعراء الأربعة ما توفّر لنا من شعرهم على الحروف التالية رويّاتٍ للقوافي:

الرويّ	الرصافي	ابن جبير	صفوان	ابن مجبر	المجموع
الهمزة	10:4 (*)	4:2	46:1		**60:7**
الباء	102:11	1:1	48:3	35:5	**186:20**
التاء		2:1	23:2		**25:3**

(56) أهمل إبراهيم أنيس هذين البحرين لأنّه لم يجد لهما « شواهد صحيحة النسبة في الأشعار العربية القديمة » (موسيقى الشعر-م.س.-ص :69).

(57) م.ن.-ص :132.

(*) العدد الأوّل للنصوص، و العدد الثاني للأبيات.

الثاء	4:1				**4:1**
الحاء	15:5	4:2	2:1	2:1	**23:9**
الدال	134:5	25:7	48½ :7	11:4	**218:23**
الراء	205:16	139:13	77:15	64:7	**487:51**
السين	12:4	15:3			**27:7**
الصاد	17:1				**17:1**
العين	20:6	16:5	4:2		**40:13**
الفاء	9:2	11:3	3:1	17:2	**40:8**
القاف	53:5	15:4	4:1		**72:10**
الكاف		5:2	5:1		**10:3**
اللام	28:8	26:9	3:1	12:3	**69:21**
الميم	50:5	82:3	6:1	15:3	**153:12**
النون	40:3	19:3	2:1	3:2	**64:9**
الهاء	6:1	25:6	21:3	2:1	**54:11**
الواو		2:1			**2:1**
الياء	7:2	4:1			**11:3**

ونستنتج من الإحصاء السابق ومن فهارس القوافي في مصادر شعر هذه الفترة ما يلي :

ا- أكثر الشعراء استخدام بعض الحروف، وقلّ إقبالهم على حروف أخرى، و لم يكادوا يوظّفون نوعا ثالثا.

فهل من وراء هذا التفاوت مبرّر؟

يحاول بعض الباحثين أن يربطوا بين قافية القصيدة وعاطفة صاحبها، فيذهبون إلى أنّ الشعراء يختارون لقوافيهم الحروف المناسبة لمشاعرهم. وهم يرون أنّ مضمون

النصّ هو الذي يستدعي حرف الرويّ الملائم له. ويرى آخرون أنه لا علاقة بين قافية النصّ وعاطفة صاحبه، وأنّ الشاعر يختار ما يشاء من الحروف ليعبّر عمّا يختلج في نفسه من عواطف(58).

وإذا كان الرأي الأوّل يبدو أصوب، فإنّ المتتبّع للشعر العربيّ لا يجد من الشواهد ما ينهض دليلا على صحّته. فالحرف نفسه تُبنَى عليه قصائد قد تتباين عواطفَ وتختلف مضامين.

لذلك نتردّد في قبول هذا الرأي، مثلما فعلنا في قبول الرأي القائل بعلاقة الوزن بالعاطفة.

ولعلّ من الصواب القول:بأنّ هناك حروفا شائعة في أواخر الكلمات، فضلاً عن قيمتها الموسيقيّة. ولذلك نجد الشعراء يُكثرون من توظيفها في قوافي قصائدهم في مختلِف المضامين. وطبيعيّ أن يجنحوا إليها تفاديا للعناء الذي يجده الشاعر إذا ما بنى قصيدته على غيرها؛وبأنّ هناك حروفا أقلّ شيوعا في أواخر الكلمات من الصنف السابق ولعلّها أقل قيمة موسيقية، ولذلك يقلّ استخدامها في القافية بالقياس إلى ذلك الصنف؛ وبأنّ هناك حروفا تقلّ الكلمات التي تنتهي بها، ولذلك يهجرها الشعراء أو يندر-على الأقلّ- استخدامهم لها.

ب- احتلّ حرف الراء المرتبة الأولى من حيث الشيوع، عند كلّ واحد من الشعراء الأربعة. وهذا الحرف يحتلّ هذه المرتبةَ في كثير من دواوين الشعر العربيّ القديم(59). وعندما نتتبع النصوص التي نظمها الشعراء الأربعة وغيرهم نجد كثيرا

(58) من الذين يذهبون المذهب الأوّل:سليمان البستاني، و من الذين يذهبون المذهب الآخر:أبو العلاء المعرّيّ. ينظر : محمد البعلاويّ:ابن هانئ- م.س.-ص :310.

(59) احتلّ حرف الراء المرتبة الأولى في دواوين:عمر أبي ربيعة،و الفرزدق،و أبي فراس. ينظر : عبد الملك مرتاض: ا.ي...-م.س.- ص : 50.

من طوالها رائيات. فللرصافي -مثلا- واحدة من اثنين وستين بيتاً، وأخرى عدتها ثمانية وأربعون.

جـ- تأتي بعد حرف الراء مجموعة من الأحرف بُنيت عليها نصوص كثيرة، وهذه الأحرف هي : الدال، والباء، واللام، والميم. وهي التي تستبدّ بالمراتب الأولى، وتتداولها القوافي في الشعر العربي القديم. فلو أخذنا المعلّقات العشر -مثلا- لوجدنا تسعا منها قد بُنيت على هذه الأحرف.

د- تأتي، بعد هذه الأحرف، مجموعة أخرى أقلّ منها شيوعا في شعر الشعراء الأربعة وشعر غيرهم، وهي : العين، والهاء، والقاف، والنون، والحاء، والفاء، والهمزة، والسين. على أنّ الشعراء يختلفون في إقبالهم عليها. فإذا كنّا نجد الرصافيّ يُقبل على العين والحاء والقاف بعض الإقبال فإنّنا نجد ابن جُبير يُقبل على العين والهاء. ولعلّ ذلك الاختلاف أن يعود، في بعضه، إلى اختلاف الأذواق، فكل شاعر تستهويه أجراس قد لا يهواها غيره.

هـ- قلّ استخدام الشعراء لبعض الحروف، فلم يبنوا عليها أيّ نصّ، وهي حروف لا تطمئنّ إليها الآذان، فضلا عن قلّة ورودها في أواخر الكلمات. وهذه الحروف هي : الجيم، والخاء، والذال، والزاي، والشين، والضاد، والطاء، والظاء، والغين. وهذه الحروف يقلّ استخدام الشعراء لها في جميع العصور. ويكفي أن نتتبّع فهارس القوافي في المصادر لنقف على ضآلة نسبتها، أحيانا، وانعدامها أحيانا أخرى[60].

ز- يكثر في الموشّحات تقييد القوافي. إلاّ أن هذه الظاهرة لم تترك أثرها في الشعر القريض. ذلك أنّ نسبة القوافي المقيّدة ضئيلة جدًّا. ونحسب أنّ ذلك عائد إلى أنّ الشعراء كانوا -فيما ينظمون من شعر قريض- يُمعنون في المحافظة،

---

(60) انظر : ابن إدريس: زاد المسافر -م.س.- فهرس القوافي.

فضلا عن استقرار الأنغام المطلَقة في أذواقهم. و لم نقف على ما يدلّ على رأي لهم في القوافي المقيَّدة، على نحو ما نجد عند بعض النقّاد المحدَثين(61).

ح- إذا تجاوزنا المسمّطات والمزدوجات وما إليها مما هو معروف قبل هذه الفترة، لم نجد ما يدلّ على أنّ بعض شعراء هذه المرحلة حاول الخروج عن وحدة القافية، وذلك خلا نموذجاً واحداً، هو تلك المقطوعة التي نظمها صفوان في تأبين الحسين بن علي، إذ بناها على العين وخرج في بعض الأشطر إلى النون. يقول فيها :

أومضْ ببرق الأضلع — و اسكب غمام الأدمع
واحزن طويلا و اجزع — فهو مكان الجزع
وانشر دماء المقلتينْ — تألّماً على الحسين
وابك بدمع دون عين — إن قلّ فيض الأدمع(62)

ط- تصريع المطالع تقليد فنّي راسخ، قلّما تخلّى عنه الشعراء، لا سيما في القصائد. ولأهمّيّته في موسيقى النصّ أشاد به الشعراء والنقّاد(63).

وإذا تتبّعنا مطالع النصوص التي خلّفتها هذه الفترة وجدنا أنّ الشعراء لم يكادوا يتركون التصريع في القصائد الطويلة. ويكفي أن نلاحظ مطالع المدائح التي نظمها الشعراء الأربعة وغيرهم لنقف على التزامهم هذا التقليدَ، وسيرهم فيه

(61) ينظر : طه حسين:حديث الأربعاء- م.س. - 199/3.
(62) المقّريّ:نفح الطيب- م.س. - 69/5.
(63) قال أبو تمام :

وتقفو إلى الجدوى بجدوى وإنّما — يروقك بيت الشعر حين يُصرَّعُ

(ابن رشيق : العمدة-م.س. - 176/1).
و قال حازم القرطاجنيّ : «... فإنّ للتصريع في أوائل القصائد طلاوة و موقعاً من النفس، لا ستدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء إليها، و لمناسبة تحصل لها بازدواج صيغتي العروض و الضرب و تماثل مقطعها لا تحصل لها دون ذلك » (منهاج البلغاء-م.س.-ص :283).

على نهج السابقين. ولعلّ خلوّ بعض القصائد منه عائد إلى ذهاب مطالعها.

على أنّ الشعراء لم يكونوا يلزمون أنفسهم هذا التقليد في المقطوعات، ولذا خلا من التصريع كثير منها.

ي- حظيت آثار أبي العلاء المعرّيّ باهتمام الأندلسيّين، وكان للزومياته أثرها في شعرهم. بل إنّ ذلك الأثر قد امتدّ إلى نثرهم(64). ويكفي أن نذكر أنّ ابن خفاجة لزم ما لا يلزم في بعض شعره(65). على أنّ ظاهرة « اللّزوم » ظلت قبل هذه الفترة-فيما يبدو- قليلة.

و عندما نتتبع ما خلّفه شعراء هذه المرحلة نلفي عدداً من النصوص ألزم الشعراء فيها أنفسهم ما لا يَلزم. على أنّنا لم نجد منهم من خلّف ديواناً كاملاً من هذا اللّون على نحو ما فعل المعرّيّ.

ويبدو ابن جبير مهتمّاً باللزوم أكثر من سواه. ولقد أوردنا نموذجا له عندما كنّا نتحدّث عن ظاهرة التنميق البديعيّ في شعر هذه الفترة. وممّا قاله أيضاً لازما فيه ما لا يلزم :

قد ظهرت في عصرنا فرقة ظهورها شؤم على العصْرِ
لا تقتدي في الدين إلاّ بما سنّ ابن سينا وأبو نَصْر(66)

ومنه :

لي صديق خسرت فيه ودادي حين صارت سلامتي منه ربحاً
حسَنُ القول سيّئ الفعل كالجزّ ار سمّى وأتبع القولَ ذبحاً(67)

(64) من الأمثلة على ذلك:«المقامات اللزوميّة » لأبي الطاهر محمد التميمي السَّرَقُسْطيّ. ينظر : إحسان عبّاس: تاريخ الأدب الأندلسيّ:عصر الطوائف و المرابطين-م.س.-ص : 317.

(65) انظر : ديوان ابن خفاجة-م.س.-ص : 82.

(66) المقّري: نفح الطيب-م.س.- 385/3 .

(67) م.ن.-ص : 488-489 .

ومهما يكن للّزوم من أثر في الموسيقى، فإنّ النماذج التي وقفنا عليها لشعراء هذه الفترة يطبع جلّها التكلّف، « وهو ما يُفسد جمال الشعر ويذهب بأثره في النفوس و القلوب» (68).

ويتبيّن ممّا سبق أنّ ما خلّفته هذه الفترة من الشعر القريض ظلّ محافظا، فلم يخرج أصحابه عن أوزان الشعر العربيّ القديم و قوافيه.

وإذا كان شعراء الأندلس بعامّة قد ساروا في الاتجاه المحافظ من حيث التشكيل الموسيقيّ للشعر القريض، فإنّ تجديدهم في الإيقاع قد تجلّى فيما نظموا من موشّحات وأزجال.

فهل لموشحات هذه الفترة وأزجالها ما يميّزها، في هذا المجال، عن غيرها من نتاج الأندلسيّين في هذين الفنّين، أم سارت في ذلك على غرار ما سبقها؟

نحاول أن نبيّن ذلك فيما يلي :

1- الموشحات :

كان ابن سناء الملك أوّل من حاول -فيما نعلم- دراسة الموشّحات دراسة فنّيّة. وكان من المنطقيّ أن يحظى إيقاعها بعناية خاصة، إذ الموشحات -قبل كل شيء- ثورة على الشكل الموسيقيّ للقصيدة العربيّة. وقد حصر ابن سناء الملك أوزان الموشّحات في عدة أقسام. يقول مبيّنا ذلك:«والموشحات تنقسم قسمين : الأول ما جاء على أوزان أشعار العرب، والثاني ما لا وزن له فيها ولا إلمام له بها. والذي على أوزان الأشعار ينقسم قسمين : أحدهما ما لا يتخلّل أقفالَه وأبياته كلمة تخرج به تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعريّ... والقسم الآخر ما تخلّلت اقفالَه وأبياته كلمة أو حركة ملتزمة، كسرةً كانت أو ضمّة أو فتحة، تُخرجه عن أن يكون شعرا صرفا وقريضا محضا... والقسم الثاني من الموشحات

(68) إبراهيم أنيس: موسيقى الشعر- م.س.-ص :304.

هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب. وهذا القسم منها هو الكثير، والجمّ الغفير، والعدد الذي لا ينحصر،والشارد الذي لا ينضبط... والموشّحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين : قسم أقفاله وزنُ أبياته... وقسم أقفاله مخالفة لأوزان أبياته... والموشّحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين : قسم لأبياته وزن يُدركه السمع ويعرفه الذوق كما تُعرَف أوزان الأشعار...، وقسم مضطرب الوزن، مهلهَل النسج،مفكّك النظم... وما كان من هذا النمط فما يُعلَم صالحه من فاسده وسالمه من مكسوره إلا بميزان التلحين... والموشّحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين : قسم يستقلّ التلحين به ولا يفتقر إلى ما يُعينه عليه وهو أكثرها، وقسم لا يحتمله التلحين ولا يمشي به إلاّبأن يتوكّأ على لفظة لا معنى لها تكون دِعامة للتلحين وعُكّازا للمغنيّ»[69].

وإذا كان إحصاء ابن سناء الملك دقيقا وشاملا لكل ما وصل إلى عهده من نتاج في هذا الفنّ أمكن القول-مع الدكتور مصطفى عوض الكريم-:« إن الموشّحات تنقسم من حيث الوزنْ إلى خمسة أقسام: القسم الأول ما كان على وزن شعريّ، والثاني ما أخرجته عن الوزن الخليلّي حركة أو كلمة، والثالث ما اشترك فيه أكثر من وزن واحد، والرابع ما له وزن من غير الأوزان الخليلية يُدركه السمع عند قراءته، والخامس ما ليس لهوزن يدركه السمع عند قراءته ولا يوزَن إلا بالتلحين، وذلك بمدّ حرف وقصر آخر وإدغام حرف في حرف وغير ذلك من فنون التلحين»[70].

وإذا تتبعنا الموشّحات التي خلّفتها هذه الفترة وجدناها تندرج في الأقسام السابقة مما قد يدلّ على أنّ موشِّحي هذه الفترة- وإن طوّروا هذا الفنّ في الموضوع، فوظّفوه لأغراض جديدة ،كالاعتذار والرثاء والتصوّف والهجاء،

(69) دار الطراز-م.س.- ص : 44-50.

(70) فنّ التوشيح-م.س.- ص : 69.

على نحو ما مر بنا في الفصل الذي عقدناه للموشّحات والأزجال- لمْ يتجاوزوا التشكيل الموسيقيّ المألوف للموشّحات.

فمن الموشّحات التي جاءت على أحد الأوزان التقليديّة:الموشح المشهور «أيها الساقي إليك المشتكى» [71]. فقد نظمه ابن زُهر الحفيد على بحر الرمل. فكلّ قفل فيه يتكوّن من شطرين من أشطر هذا البحر تامّا، كما في قوله :

جذب الزقّ إليه واتكا وسقاني أربعا في أربع

وكل دور يتألّف من ثلاثة أشطر من البحر نفسه تامّا أيضا ،كما في قوله :

غصن بان مال من حيث استوى

بات من يهواه من خوف النوى

قلقَ الأحشاء مهضوم القوى

ومن هذا القسم موشح آخر لابن زهر[72] نظمه على بحر المجتثّ حيث جعل كلّ قفل فيه متألّفا من شطرين من هذا البحر، وكلّ دور متكونا من ثلاثة، على نحو ما فعل في الموشّح السابق. يقول في المطلع، أي القفل الأول :

حيّ الوجوة الملاحا وحيّ نُجْلَ العيون

ويقول في أحد الأدوار :

هل في الهوى من جناح

أو في نديم وراح

رام النّصوح صلاحي

وإذا كان ابن سناء الملك يستقبح هذا القسم من الموشحات فإنّه يستثني ما اختلفت فيه قوافي الأقفال عن الأدوار، يقول : « وما كان من الموشّحات على هذا

---

(71) انظر : ابن الخطيب: جيش التوشيح-م.س.-ص : 202-204 .

(72) انظر : م.ن.-ص : 200-201.

النسج فهو المرذول المخذول، وهو بالمخمّسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء، ومن أراد أن يتشبّه بما لا يعرف، ويتشيّع بما لا يملك، اللهم إلا إن كانت قوافي قفله مختلفة فإنّه يخرج باختلاف قوافي الأقفال عن المخمّسات» [73].

على أنّنا قد نفضّل هذا القسم على غيره ولا سيّما إذا نُظم على الأعاريض المألوفة، « لأنّ أذواقنا تعودت الأوزان الشعريّة» [74]. ولعلّ ذلك أن يكون شبيها بتفضيل بعضنا الشعرَ العموديّ على الشعر الحرّ الذي ما زالت آذاننا لم تتعوّد إيقاعه.

على أنّه ينبغي ألاّ ننسى اقتران الموشّح بالتّلحين. فقد يتغيّر الحكم بتفضيل هذا القسم على ذلك إذا توفرّ عنصر التلحين للموشح. ولقد قال د. إحسان عبّاس مشيرا إلى أهمّيّة هذا العنصر في الحكم على الموشحات، وهو يقصد الايقاع بصفة خاصة : « والحقّ أنّ اقتران الموشّح بالتلحين يجعل الحكم عليه من طريق القراءة حكما ناقصا» [75].

ومن الموشحات التي أخرجتها عن الوزن الخليلي حركة أو كلمة : موشّح ابن نزار المنسوب إلى ابن حزمون. فقد نظمه على مُخلّع البسيط [76]، ولكنه أخرجه عنه بكلمة. يقول في البيت الأول منه :

اشرب على نغمة المثاني ثانِ
ولا تكن في هوى الغواني وان
وقل لمن لام في معان عان

---

(73) دار الطراز-م.س.-ص : 44.

(74) و (75) ديوان الأعمى التطيلي-م.س.- مقدمة المحقق-ص :خ .

(76) هو مشتق من مجزوء البسيط، اخترعه المولّدون ولم يكن معروفا قبل العصر العباسيّ.

ينظر : إبراهيم أنيس:موسيقى الشعر-م.س.-ص : 121.

ماذا من الحسن في بـــرودِ رودِ[77]

فالدّور يتكون من ثلاثة أشطر من هذا البحر، ولكنّ الموشّح أخرج كـلّ شـطر عنه بكلمة. والكلمات الـتي خـرج بهـا هـذا الـدور عـن مخلّـع البسـيط هـي: «ثَـان» و«وان» و«عَان».

والقفل يتكوّن من شطر واحد من البحر نفسه،ولكنّه خرج عنه بكلمة«رود».

وقد يدلّ ما كان الموشِّحون يعمِدون إليه من إخـراج موشّحاتهم عـن الأوزان الخليليّة بكلمة ونحوها، على رغبتهم في إبعـاد إيقاعهـا عـن إيقـاع القصيـدة التقليديّـة. ولعلّهـم كـانوا يضيقـون بالرتابـة الـتي كـانوا يجدونهـا في القصـائد التقليديّـة وما يقترب منها من موشّحات شعريّة. فإذا كان الموشّـح ثـورة على الـوزن التقليـديّ، فلتصلْ هذه الثورة إلى مداها![78].

ولقـد وصلـت تلـك الثـورة حقّـا إلى حـدّ بعيـد في الأقسـام الثلاثـة الأخـرى، ولا سيّما الأخيرين منهـا.حتى انّ ابن سناء الملك عجز عـن وضـع عـروض لمـا خـرج عن أوزان العرب. قال متحدّثا عـن محاولتـه، واصفـا مـا أعجـزه :«أردت أن أُقيـم لهـا عروضـا يكـون دفـترا لحسـابها، وميزانـا لأوتادهـا، فعـزّ ذلـك وأعـوز، لخروجهـا عن الحصر، و انفلاتها من الكفّ»[79].

ويَلفـت انتبـاهَ المتتبّع لأوزان الموشّحات الـتي خلّفتهـا هـذه الفـترة أن كثـيرا من الموشّحين حـافظوا على تفـاعيل البحـور الخليليـة، ولكنهـم تصرّفـوا كمـا شـاءوا حتى خرجوا أحيانا إلى ما يكاد يبتعـد عـن الأوزان الخليليّـة لـو لا النغمـة الـتي ظلـت

---

(77) ابن سعيد: المغرب–م.س.– 147/2.

(78) قال إميليوغرسيةَ غومس : «كـانت هـذه النزعـة أشبه بثورة على القوالب المتكلّفـة الـتي كـان الأرستقراطيّون المتزمّتون يلتزمونها و يحرصون عليها» (الشعر الأندلسيّ–م.س.–ص : 62).

(79) دار الطراز–م.س.–ص : 47.

في كثير من الأحيان الرابطَ الوحيد في مجال الإيقاع. ومن الأمثلة على ذلك التصرّف ما نجده في الموشّح التالي حيث يقول ابن زهر :

حسب الخليع ملجا روضٌ على غدير وقهوة مداره أنفاسها عبير

صفراء بنت دنِّ بالنور تطّلعْ

ينشقّ كل دجن عنها و ينصدع

إبريقها يغنّي والكأس يستمع[80]

فالقفل يتكوّن من أربعة أغصان، كلّ واحد منها تفعيلتان هما :«مستفعلن» و«فعولن»؛ والدور يتكوّن من ثلاثة أسماط، كلّ واحد منها مركّب من فقرتين، أولاهما : تفعيلتان هما : « مستفعلن » و« فعولن » والأخرى : تفعيلتان أيضا، ولكن الثانية مختلفة، وهما : « مستفعلن » و« فاعلن ».

وقد تصرّف ابن حزمون في تفعيلات مُخلّع البسيط في موشّحه الذي يقول فيه :

يا هاجري هل إلى الوصال منك سبيل

أو هل يُرى عن هواك سال قلب العليل[81]

فالغصن الأول تفعيلته هي « مستفعلن »، والغصن الثاني تفعيلتان هما :« فاعلن » و« فعولن » والغصنان معا يكوّنان أحد أشطر مخلّع البسيط. والغصن الثالث تفعيلة هي : «مستفعلان» (« مستفعلن » مذيلة).

ولولا العدد الذي كانوا يلتزمونه في الأجزاء المتناظرة لكان تحرّرهم شبيها بتحرّر أصحاب شعر التفعيلة من الشعراء المعاصرين.

(80) ابن الخطيب: جيش التوشيح-م.س.-ص : 196.

(81) المقريّ: نفح الطيب-م.س- 10/7.

وإذا كان الموشّحون -كما بيّناّ- قد انطلقوا من قيود الشكل التقليديّ فجدّدوا في الأوزان حيث تصرّفوا في البحور الخليلية في بعض موشحاتهم، و«اخترعوا» بحورا أخرى أو خرجوا عن كل وزن، في بعض آخر،حتى ان ابن سناء الملك المنظّر الأول لفن التوشيح -فيما نعلم- عجز عن حصر أوزان الموشحات ووضع عروض لها.فإن الأمر لم يكن كذلك في مجال القوافي. ذلك أنهّم وإن نوّعوا فيها قد قيّدوا أنفسهم تقييدا يهون أمامه التزام القافية على نحوما في القصيدة التقليديّة. فالتزام عدد من القوافي الداخلية في كثير من الموشّحات على نحو يفوق التشريع الذي نجده عند بعض الشعراء المتأخّرين، يجعل عمليّة نظم الموشّح غير بسيطة، إن لم تبلغ التكلّف.

إن للقافية -من غير شك- أثرها في تقوية الموسيقى، أحد عناصر الإيقاع الشعري. ولكنّ ما نُلفيه في بعض الموشّحات من «تضمين»[82] مبالغ فيه يدلّ على عنت لا داعي إليه ما دامت المتعة الفنيّة تتحقّق بما هو أقرب إلى العفويّة والطبع.

ويستنج المتتبّع لتاريخ فنّ التوشيح بالأندلس أنّ الموشحات الأولى كانت خالية من التضمين، وكان الموشّحون حينئذ يكتفون -في تجديدهم في مجال القافية-بالتزام قافية واحدة في جميع الأقفال التي كانت بسيطة قليلة الأجزاء، وبالتحرّر من التزام القافية الواحدة في الأدوار، وذلك ببناء أسماط كل دور على قافية خاصّة. وهذه الصورة البسيطة لتقفية الموشّح هي التي مثّلتها موشحّات الروّاد كالقبريّ وابن عبد ربه وما نُسج على منوالها.وهذه الصورة هي التي أشار إليها ابن بسّام بقوله متحدّثا عن القبريّ: «يأخذ اللفظ العاميّ والعجميّ، ويضع عليه الموشّحة

---

(82) التضمين في الاصطلاح هو تعليق بيت على بيت يليه. وليس هذا هو الذي أراده ابن بسام الذي تابعناه هنا. وإنما أراد بذلك تقسيمَ أقفال الموشّح وأدواره إلى أجزاء كثيرة مُقفّاة على نحو خاصّ. ينظر: مصطفى عوض الكريم: فنّ التوشيح -م.س. -ص :124-125.

دون تضمين فيها ولاأغصان »[83].ثم جاءت مرحلة أكثر فيها الموشحون من التضمين. ولكنهم اقتصروا من ذلك على الأقفال. وتمثل هذه المرحلة موشحات الرمادي ومن ذهب مذهبه. وقد ذكر ابن بسّام ما أحدثه الرماديّ فقال : « ...فكان أول من أكثر فيها التضمين في المراكيز، يضمّن كلّ موقف يقف عليه في المركز خاصّة »[84]. وهذا العمل وإن عدّد النغمات في أقفال الموشّح عقّد العمليّة ومال بها إلى التكلّف. ثم أتت مرحلة ثالثة لم يكتف فيها الموشِّحون بالتضمين في الأقفال، وإنما تفنّنوا في تجزئة الأدوار وتقفية الأجزاء المتماثلة منها. وتبدأ هذه المرحلة بموشّحات عبادة بن ماء السماء الذي « اعتمد مواضع الوقف في الأغصان (أي الأدوار) فيضمّنها، كما اعتمد الرماديّ مواضع الوقف في المركز (أي القفل)»[85]. فزادت العملية،بسبب ذلك،تعقّدا وتكلّفا.

ويبدومن النماذج التي حُفظت لنا من الموشّحات الأندلسية التي نُظمت في الفترة الأولى من عصر الموحّدين أنّ الموشِّحين كانوا يجمعون، في نظمهم، بين الشكلين : الشكلِ « البسيط » الذي سبق موشّحات الرماديّ، والشكل « المعقّد » الذي ظهرت بواكيره على يد الرماديّ ووصل إلى غايته على يد عبادة ابن ماء السماء.

فمن الأمثلة على الشكل البسيط الموشّح التالي، وهو لابن زهر :

حيّ الوجوه الملاحا وحيّ سود العيونِ

هل في الهوى من جُناح

وفي نديـــــم وراح

رام النصـوح صلاحـي

وكيف أرجو صلاحا بين الهوى والمجـون؟ !

---

(83)و(84)و(85) ابن بسام : الذخيرة -م.س. -469/1/1.

يـــا غائبـــا لا يغيـــبْ

أنـــت البعيـــد القريـــب

كـــم تشتكيـك القلـــوب

أثخنتهنّ جراحـــــا واسأل سهام الجفون

أبكـــى عيـونَ البواكـــي

تذكـــار أخـــت الســـماك

حتـــى حمـــام الأراك

بكـــى بشجو وناحـــا على فـــروع الغصون

ألقـــى إليهـــا زمامَـــهْ

صـــبّ يـــداوي غرامـــه

ولايطيـــــق الملامـــــه

غدا بشوق وناحـــا ما بين سبي الظنـــون

يـــا راحـــلا لم يـــودّعْ

رحلـــت بـــالأنس أجمـــع

والعجـــز يُعطـــي ويمنـــع

مَرّوا وأخفوا الرواحـــا عنّي وما ودّعوني(٨٦)

ففي هذا الموشّح نلاحظ مايلي :

١- يتكـــوّن كـــل قفـــل مـــن غصنـــين.وقـــد الـــتزم الموشِّـــح قافيـــةواحدة في الأغصان الأولى من جميع الأقفال ، والتـــزم قافيـــة أخرى في الأغصان الثانـــية ٠

(86) الصفدي: توشيع التوشيح -م.س.-ص :101-103.

ب- يتكوّن كلّ دور من ثلاثـة أسمـاط مفـرَدة (يتـألف كـل واحـد مـن فقـرة واحدة). وقد التزم الموشّح قافية خاصّة لأسماط كل دور.

وشبيه بهذا الموشح في التقفية كثير من موشّحات هذه الفـترة لاسيّما الشعريّة التي بناها أصحابها على وزن أحد البحور الخليليّة كالرمل والكـامل والمجتـث وغيرهـا. ومن الأمثلة على ذلك الموشّح المشهور « أيها السـاقي إليـك المشـتكى » الـذي ذهـب فيه ابن زُهْر مذهبه في موشّحه السابق.

وتتفـاوت نمـاذج الشـكل الآخـر تعقّـدا تبعـا لتفـاوت التضمـين فيهـا : فإذا كان بعضها أقرب إلى الشكل السابق، فإنّ بعضها الآخر قد غـدا -بسبب كثرة التضمين فيه- « شكلاً من أشكال الفُسَيفِساء » (87).

وحتى يتحقّق للموشّح ذلك، كان عليه أن يُجهد نفسـه. ولقـد أشـار الدكتـور إحسان عبّاس إلى الجهد الذي كان يُبذَل في نظم مثل تلك الموشّحات، فقـال متحدّثـا عن أحد الموشّحين (لعلّه ابـن حزمـون في موشّحته الـتي رثـى فيهـا أبـا الحمـلات) : « ...فحـين نـرى وشّـاحا قـد وُفّـق في الرثـاء، رغـم ذلـك، فقـد كلّفتـه المحاولـة جهداً كبيرا » (88). وإذا كان ابن حزمون يبذل كل ذلـك الجهـد مع مـا كـان لـه مـن « قدرة على مضايقة القوافي » (89)، فإنّ موشّحين آخرين كـانت عمليّـة نظـم الموشّح على ذلك النحو تكلّفهم جهدا أكبر.

ومن الأمثلة على هذا الشكل الموشّح التالي، وهـو لأبـي بكـر أحمـد بـن مـالك السرقسطي :

---

(87) إحسان عبّاس : تاريخ الأدب الأندلسي : عصر الطوائف والمرابطين -م.س. -ص :245.

(88) م.ن. -ص :249.

(89) ابن سعيد : المغرب -م.س.-217/2

قـم حثّهـا مدامـه والروض مشقوق الكمام نشـره الأعطـر
كأنّـه مسك الختـام شـابه عنـبر

بـاكر إلى الرحيـق فقـد دنـا الصَّبـاح
مـع شـادن أنيـق تصبـو لـه الصّبـاح
من خصـره الدقيـق قـد علـق الـرداح

مهمـا أقـام قامـه وهزّهـا هزّ الحسـام في نقـا المـئزر
يكـاد من لين القـوام قـدّه يهصـر

بـدر بـلا محـاق تصبـو لـه البـدور
فالحسـن ذو ائتـلاق في خـده ينـير
والزهـر ذو شـقاق قـد زانـه الفتـور

قـد نمقتـه لامـه زادت غرامـا للغـرام كـلّ مـن أبصـر
يحميهـا رشـق السهـام مـن رشـا أحـور
...(90)

ففي هذا الموشّح نلاحظ مايلي :

ا- يتألف كل قفل من خمسة أغصان، ويتّفق كل غصن في القافية مع الأغصان التي تماثله في الأقفال الأخري.

ب- تتألف الأدوار من ثلاثة أسماط. وقد قسّم الموشح كـلّ سمـط إلى فقرتـين. وبنى الفقـرات الأولى مـن كـل دور على قافيـة خاصّة، وبنـى الأخـرى علـى قافيـة. ويختلف كلّ دور في قوافيه عن الأدوار الأخرى.

(90) ابن الخطيب : جيش التوشيح -م.س.-ص :215-216.

ومن نماذج هذا الشكل كذلك موشح لابن زهر أكثر فيه من التضمين في الأقفال والأدوار حتى انّه ليصحّ فيه قول الدكتور إحسان عبّاس السابق حيث شبّه أمثاله من الموشحات بأشكال الفسيفساء. ونكتفي منه بهذا البيت :

قلب قريح	وفي الفؤاد كُلوم	أبدا تَدْمى
ويامُشيح	إلى متى تستديم	جسدي سقما
ويا نَصوح	أهدى إليك الملوم	أذنا صمّا
أطلت عذله	وما أراك تُطيق	ردّه عن شان
وأي نكر	أن يلام مشوق	عذره قد بان؟[91]

وإذا كان الشكل تابعا -مبدئيًا- للمضمون، فهل هناك علاقة بين موضوع الموشّح وما كان يعمِد إليه الوشّاح من الإكثار من التضمين وتعديد النغمات بتعديد القوافي؟ إن تتبّعنا للموشّحات المتيسّرة من نتاج تلك الفترة يجعلنا نذهب إلى أنّه لا علاقة بين الأمرين، وأنّ الظاهرة نتيجة للمبالغة في التفنّن، وإن كان ذلك التفنّن في غير محلّه، أحيانا. يقول الدكتور إحسان عبّاس : « ولكن قد يكون من الجرأة البالغة أن يعتمد الوشّاح تلك الجزئيّات الفسيفسائية لموضوع كالرثاء... وقد كان عبادة القزّاز، بهذا المعنى، من أجرإ الوشّاحين... »[92].

2- الأزجال :

أشرنا، في الفصل الذي عقدناه للموشّحات و الأزجال، إلى المراحل التي مرّ بها الزجل الأندلسيّ. وخلاصة ذلك أنّ الأزجال كانت في بداية الأمر مثل القصائد التقليدية: تُنظم في أوزانها الخليليّة. ثمّ تطوّرت على يد ابن نمارة وابن قزمان وغيرهما، فتحرّرت من الشكل التقليدي، وصارت -من حيث الأوزان- مثل الموشّحات.

---

(91) م.ن. -ص :207.

(92) تاريخ الأدب الأندلسيّ: عصر الطوائف و المرابطين -ص :249.

ثم أصبحت، في مرحلة ثالثة، تجمع بين الشكلين السابقين : بعضها يقتفي أثر القصيدة التقليديّة، وبعضها الآخر ينحو منحى الموشّح.

ومن يتتبّع نتاج الفترة الأولى من عصر الموحّدين يجد أن الزجّالين كانوا ينظمون تارة على شكل، وطوراً على شكل آخر : فأزجال مدغلّيس -وهي أفضل ما يمثّل تلك الفترة- يتوزّعها الشكلان : فبعضها مثل القصيدة التقليدية من حيث القيام على أبيات ذات شطرين، ومن حيث انتظامها في أحد أوزان الخليل؛ وبعضها مثل الموشّح من حيث الأجزاء التي يُبنى عليها، كالأقفال والأدوار وغيرها، ومن حيث التصرّف في الوزن الخليليّ حينا والخروج عنه أحيانا.

فمن الشكل الأول زجله الذي يقول منه :

صحبة العنق المليح المخلخل حبّي فك ثابت وديني مخلخل
وعلام بعت ديني بحبك لو عطيت مرغوبي فك لس تسال[93]

فهذا الزجل لا يختلف عن القصيدة التقليديّة إلا في اللغة، ولذلك وجدنا ابن سعيد يسمّيه « الشعرَ الملحون »[94]. أما في غير ذلك فهو مثلها : قياماً على أبيات ذات شطرين، وانتظاما في أحد البحور الخليلية، هو الرمل[95].

---

(93) ابن سعيد : المغرب -م.س.- 222/2.

(94) انظر : م.ن.

(95) وقد جاء تامّا، وأتى ضربه وعروضه محذوفين. وقد تبنّينا في تقطيع الأبيات ما ذهب إليه كورينطي من أنّ « الإيقاع فيها (أي الأزجال) لا يقوم على تناوب المقاطع الممدودة والمقصورة الذي هو قوام الشعر العربيّ الفصيح، بل على تسلسل مقاطع منبورة و غير منبورة لمّا كانت الأندلسيّة قد استبدلت المدّ بالنبرة » (ديوان ابن قزمان : نصّاً ولغة وعروضا -م.س.-المقدّمة-ص :ب).

و فضلا عن مدّ حرف وقصر آخر يجد من يتصدّى لتقطيع أبيات الأزجال نفسه مضطرّا إلى أكثر من ذلك، كإدغام حرف في حرف، مثلا. ولقد أشار ابن سناء الملك إلى هذه الظاهرة في بعض الموشّحات. =

ومن الشكل الثاني: زجل مدغلّيس التالي :

ثـلاث اشـيا فالبسـاتينْ / لـس تجـد في كـل موضـعْ
النسيم والخضر والطـير / شـم واتـنزه واسـمع
قم ترى النسيم يولـول / و الطيور عـُ لـه تغـرّدْ
والثمـار تنـثر جواهـر / في بساط مـن الزمـرّد
وبوسط المرج الاخضر / سقي كالسيف المجرّد
شـبهت بالسـيف لمـا / شـفت الغديـر مـدرع
ورذاذا دق يـنزل / و شعاع الشمس يضـربْ
فـترى الواحـد يفضّـض / وتـرى الآخـر يذهـب
والنبات يشرب ويسكر / والغصون ترقص وتطرب
وتريـد تجـي إلينـا / ثـم تسـتحي وترجـع

...(96).

فهذا الزجل نُظم على شكل الموشّح، وقد بناه مدغلّيس على أحد البحور الخليلية، هو الرمل كذلك، و لم يتصرّف فيه إلا بالجزء. وقد اتفقت في ذلك الأقفال والأدوار حتى انّه لولا تنوّع القافية لعددنا هذا الزّجل من الشّكل السابق.

وإذا كان الزجّالون قد قلّدوا الموشّحين في بعض أزجالهم، فإنّنا لم نجد مادة كافية للقول بأنّ الأزجال قد استغرقت جميع أوزان الموشّحات التي أشرنا إليها.

أما تقفية الأزجال فلا تكاد، في الشّكل الأول، تختلف عن تقفية القصائد

= ومما قال : «... وما كان من هذا النّمط فما يُعلَم صالحه من فاسده وسالمه من مكسوره إلا بميزان التلحين؛ فإنّ منه ما يشهد الذوق بزحافه بل بكَسْره فيجبُر التلحين كسره و يَشفي سقمه و يردّه صحيحا ما به قَلَبة، وساكنا لا تضطرب فيه كلمة » (دار الطراز -م.س.-ص :50).

(96) ابن سعيد : المغرب -م.س.- 2/220-221.

التقليديّة : فنصّ مدغلّيس السابق «صحبة العنق المليح... » لأبياته قافية واحدة. بل إن الزجاّل قد صرّع المطلع على نحوما كان يُفعل -غالبا- في القصائد التقليديّة.

وفيما يخصّ الشّكل الثاني فإننّا نلاحظ أن بعض الأزجال لا تختلف، في التقفية، عن الموشّحات، على نحو مانجد في الزجل التالي لمدغلّيس :

قد بنت نتخلع   ونحزم للعذول ان صدع

نحب ذا الشراب من ذاتي
وقد نسيت به جميع لذّاتي
لس نستحي منك يا شيباتي

كاس يا لله نرضع   وابيض أو اسود أو اهبط لي طلع

يجي على كاس لس نغلق عين
ونشرب صافي اثنين واثنين
لأنّ نخشى يجي صحب الدين

ويقول لي اقلع   وانا من الدنيا عد لم نشبع[97]

ففي هذا الزّجل تتفق، في القافية، جميع الأغصان المتماثلة من الأقفال؛ ولأسماط كلّ دور قافيتها.

بينما نجد البعض الآخر من الأزجال لم تُقفَّ أجزاؤه الداخليّة لا في الأقفال ولا في الأدوار، واكتُفي فيه بتقفية الأجزاء الأخرى. ومن الأمثلة على ذلك زجل مدغليس السابق «ثلاث اشيا فالبساتين». وفي هذا النّوع يبدو التأثر واضحا بالقصيدة التقليدية التي تُترك فيها الأشطار الأولى من الأبيات مرسَلة.

ويلاحظ المتتبّع للأزجال -ومنها أزجال هذه الفترة- أن الزّجالين لم يكونوا يحرصون على التضمين حرص بعض الموشّحين عليه، ولذلك لم تتعدّد النغمات في الأزجال و لم يتحقّق فيها ذلك الشكل الفسيفسائيّ الذي تحقّق في كثير من الموشّحات.

(97) م.ن. - ص : 221 .

الفصل الرابع

بنية القصيدة

إذا كان من الطبيعيّ أن تختلف خطّة بناء القصيدة تبعا لاختلاف الأغراض التي تتناولها والمواضيع التي تطرقها، فإن المتتبّع لقصائد الشعرالأندلسيّ في الفترة الأولىمن عصر الموحّدين لايكاد يتبيّن فيها تصميما دقيقا وخطّة محكمة.

ففي المراثي لانجد إلا قليلا من الشعراء يسيرون حسَب الخطة المنطقية في بناء المرثية من الاستهلال بالندب ثم التخلّص إلى التأبين ثم الختم بالعزاء، وإنما نجد خلطا بين هذه العناصر. بل إننا لنجد بعضهم يستهلّ مرثيته بما حقُّه التأخير، كأن يبدأها بعنصر العزاء مؤخّرا الندب والتأبين، فيختلّ بذلك لديه ما يقتضيه هذا الغرض من تدرّج طبيعيّ. ولقد مرّت بنا أمثلة على ذلك، في الفصل الذي عقدناه للرثاء.

وفي قصائد الحنين لا تظهر خطّة واضحة. فقصيدة الرصافي الرائيّة - وهي أعلى نموذج خلّفته تلك الفترة- تتناول أفكاراً شتّى لا <<يحكمها>> إلاّ التداعي العفويّ. والقصيدة الوحيدة التي يمكن أن نلمح فيها تدرّجا هي قصيدة ابن جُبَير «أقول وآنستُ بالليل نارا». فقد بدأها -كما بيّنا- بوصف ما غمرهم من فرح عندما شارفوا المدينة، ثم انتقل إلى وصف زيارتهم لقبر الرسول ﷺ وختمها بمخاطبة الرسول متوسّلا إليه.

ولا نكاد نتبيّن في القصائد الدينيّة كذلك تصميما دقيقاً، سار عليه الشعراء في بنائها. ولعلّ القصيدة الوحيدة التي تخضع لتصميم واضح هي: قصيدة ابن البرّاق في مدح الرسولﷺ. ولقد حاولنا بيان ذلك التصميم في المبحث الذي خصصنا به المديح النبويّ في تلك المرحلة[1].

على أنه ينبغي أن نستثني من قصائد هذه الفترة قصائد المدح. فما هي الخطة التي سار عليها شعراء تلك المرحلة في بناء مدائحهم؟ وماهي مظاهر المحافظة

---

(1) انظر: ص: 244.

وملامح التطوّر والتجديد؟

للمدحة في الشعر العربيّ القديم تصميم خاصّ ومنهج معيّن. ويبدو أنّ خطّة بناء المدحة ظهرت مع ميلاد فنّ المدح. ثم تقرّرت، وظلّت سائدة، فلم تنل منها محاولاتُ الخروج التي أرادها بعض الشعراء. وقد قدّم ابن قُتَيبة بيان هذه الخطّة فقال: «سمعت بعض أهل الأدب يذكر أنّ مُقصِّد القصيدة، إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمَن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الرّبع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها... ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدّة الوجد وألم الفراق وفَرْط الصّبابة والشوق ليُميل نحوه القلوب ويَصْرِف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه... فإذا علم أنّه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقّب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النَّصَب والسهر وسُرى الليل وحرّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنّه قد أوجب على صاحبه حقّ الرجاء وذمامة التأميل، وقرّر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وهزّه للسماح، وفضّله على الأشباه، وصغّر في قدره الجزيل. فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدّل بين هذه الأقسام»[(2)].

فهل خرج شعراء المدح في الأندلس في هذا العهد عن هذه الخطّة؟ وإلى أي حدّ كان خروجهم -إن كانوا قد خرجوا- عنها؟

إنّ المتتبّع لقصائد المدح التي نُظمت في هذا العصر يقف على ما يلي:

1 - بنى كثير من الشعراء قصائدهم على موضوع المدح وحده، فلم يتوسّلوا إليه بأيّة مقدّمة. وإنّ كثرة القصائد التي نحت هذا النحو لتدلّ على سيادة هذا الاتجاه في بناء المدحة. على أنّ هذا ليس جديدا ولا يُعَدّ تطويرا. فما أكثر الشعراء، الذين نحَوْا هذا المنحى قبل هذا العصر في المشرق والأندلس، فخلّصوا

(2) الشعر والشعراء - م.س. - ص :31.

قصائدهم مما يُثقلها من مقدّمات. ولنا المثل في كثير من مدائح المتنبّي وغيره.

ومن القصائد التي بُنيت على المديح وحده قصيدة أبي بكر ابن المنخّل الشِّلْبي التي أنشدها عبدَ المؤمن مهنّئا إيّاه مادحا له يوم جلوسه للتهنئة في قصور "جبل الفتح"، وهي تتألّف من خمسين بيتاً مطلعها:

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا   فإنّ نسيم النّصر بالفتح قد هبّا[3]

وكان الرصافي البلنسي كثيرا ما يستغني عن المقدّمة ويقصر قصيدته على المدح. ومن أمثلة ذلك عنده داليّته في مدح أبي جعفر الوقّشي وزير ابن هَمُشْك التي مطلعها:

لمحلّك التّرفيع والتّعظيمُ   ولوجهك التّقديس والتّكريم[4]

وكذلك كان ابن حربون. فما أورده له ابن صاحب الصلاة في «تاريخ المنّ بالإمامة» مقصور جلّه على المديح.

على أنّ بعض الشعراء كانوا -وإن قصروا قصائدهم على المدح- يستهلّون بحكمة مناسبة أو ما إليها مما يقرب من أن يكون تمهيداً. ولعلّهم كانوا، في ذلك، متأثّرين بأبي الطيّب المتنبّي الذي كان يؤثر ذلك الاستهلال على سواه[5]. ومن أمثلة ذلك: ما استهلّ به الرصافيّ قصيدة مدح بها السيّد أبا سعيد عثمان ابن عبد المؤمن، حيث يقول:

من عاند الحق لم يعضده برهانُ   وللهدى حجّة تعلو وسلطان

(3) ابن صاحب الصلاة ـ تاريخ المنّ بالإمامة ـ م.س.ـ ص :151.

(4) ديوان الرصافيّ البلنسيّ ـ م.س. ـ ص :120.

(5) من أمثلة ذلك عنده: ما افتتح به ميميّته الشهيرة حيث قال :

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ   وتأتي على قَدْر الكرام المكارم

وتعظُم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

مـا يُظهـر الله مـن آياتـه فعلـي أتمّ حـال، وصنـع الله إتقـان
من لم ير الشمس لم يحصل لناظره بين النهـار وبين الليـل فرقـان(6)

ومن أمثلته أيضا ما استهلّ به ابن سيّد الإشبيليّ المعروف باللصّ قصيدة مدح فيها عبد المؤمن، حيث قال:

صعّد بفكرك بعدها أو صوّبِ مـادون أمـر الله مـن مُـترقّب
الشمس تحجب في الطلوع وبعده وإذا تطلّع نورُهـا لم تحجب(7)

ويمكن أن نعدّ من ذلك ما بدأ به الرصافي رائيّته التي مدح بها عبد المؤمن بجبل طارق. فتمهيده لها يبدو فريداً، وبينه وبين موضوع القصيدة ترابط عضويّ قلّ أن تحقّق في قصائد المدح.

2 ـ استهل بعض الشعراء مدائحهم بمقدّمات جرَوْا في بعضها على سنن الأقدمين وتحقّق في ذلك شيء مما أشار إليه ابن قتيبة في بيانه السابق.

فقد استهل بعضهم قصيدة المدح بالغزل وحده، فلم يصف وداعه لأهله، ولا صوّر رحلته إلى الممدوح، ولا تحدّث عن راحلته مما هو وارد في مقدّمات كثير من المدائح القديمة. وفي هذا الاتجاه أخذ بشيء من طريقة الأقدمين، وتخلّ عن شيء منها. ومن هذا الصنف ما استهلّ به ابن مُجبَر قصيدته المشهورة التي نظمها في مدح الخليفة يعقوب المنصور، حيث يقول:

أتـــراه يــترك الغـــزلا وعليـه شـبّ واكتهـلا؟
كلف بـالغيد،مـا التمسـت نفسـه السّلوان مـذ عقـلا
غـير راض عـن سجيّـة مـن ذاق طعـم الحـبّ ثـم سـلا
قـد سـكنتم في جوارحنـا فحمدنـا ذلـك الـنّزلا

(6) ديوان الرصافي البلنسي -م.س. -ص:127.

(7) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة -م.س. -ص:168.

...عطّلتـني الغيد مـن جَلَـدي   وأنـا حلّيتهـا الغـزلا[8]

وقد نجد هذه المقدّمة الغزليّة مطبوعة بصبغة البداوة ، فيصف الشاعر مواطن المحبوبة، وهي مواطن حجازيّة أو نجديّة أو ما إليها. وينساق لذاكرته فينحو في غزله منحى أسلافه من شعراء شبه الجزيرة. وإذا كان في ذلك مبتعدا عن الأندلس بلده، فإننا لا نستطيع أن ننفي عنه سمة المحافظة والاتّباع. ومن نماذج هذه المقدّمة ما بدأ به الرصافي البلنسي إحدى مدائحه حيث يقول:

ألأجـرع تحتلّـه هنـدُ   ينـدى النّسيم ويـأرج الرّنـد
ويطيـب واديـه بموردهـا   حتّـى ادّعـى في مائـه الـورد
نعـم الخليـط نضحـت جـانحتي   بحديثـه لـو يـبرد الوجـد
...وخيـامهـم أيـام مضربهـا   سقط اللّوى وكثيبه الفـرد[9]

وقد عدل بعض الشعراء عن استهلال قصائدهم بالغزل واكتفوا بوصف الرحلة إلى الممدوح. وهم بذلك آخذون ببعض ما ورد في كلام ابن قتيبة، السابق. ومن نماذج ذلك:هذه المقدّمة التي مهّد بها ابن حربون لمدح أبي حفص عمر بن عبد المؤمن:

حثّوا المطيّ فقد قضت أوطارَها   واحدوا إلى باب الأمير قطارها
وإن اشتكت أَيْنا فلا ترنـوا لهـا   حتّـى تحـدّث عنـده أخبارهـا
لا تعذروهـا أو تحـلَّ فنـاءه   فـإذا حللتم فـاقبلوا أعذارهـا
واسـتوصلوا إعمالهـا وكلالهـا   فـالنّفع في أن تشتكي أضرارهـا
حتّى تـزوروا كعبـة الفضـل التي   قـد أحسنت بركاتها زوارهـا

(8) صفوان بن إدريس : زاد المسافر - م.س. - ص :55-56.

(9) ديوان الرصافيّ البلنسيّ - م.س. - ص :58-59.

فـإذا استلمتم بالسـلامة ركنها ... فارموا بأخفاف المطيّ جِمارهـا[10]

ولابن حربون نموذج آخر من هـذه المقدمـة[11]، وإن كـان في ذلـك لا يصـف رحلته هو نفسـه إلى الممدوح كمـا هو شـأن المادحيـن، وإنّمـا يصـف رحلـة ممدوحـه السيد أبي حفص إلى الخليفة أبي يعقوب.

ولعلّ أفضل نموذج لوصف رحلة الشاعر مقدّمـةً للمديـح مـا نُلفيـه في قصيـدة لابن حزمون، وهو من أبرز ممثّلي هـذه المرحلـة، ولكنّـه قـال هـذه القصيـدة بُعيدهـا. ولا ندري إن كان له مثلها ممّا يدخل في عصرنا ويحقّ الاستشهاد به. وقـد وفـد بهـذه القصيدة على الخليفة المستنصر[12] مادحا. و لم يكتف في مقدّمتهـا بوصـف رحلتـه إليـه وإنّما ذكر فيها أيضا وداع أهله مما يؤكّد محافظته واتّباعه. يقول في هذه المقدّمة:

إليـك إمـام الحـقّ جبـت المفـاوزا ... وخلّفـت خلفـي صبيـة وعجـائزا
يرجّـين سـيب الله ثـمّ حنـانكم ... إمـام الهـدى حتّـى يمـتن عزائـزا
لعمري لقد ودّعت منهـنّ مُكرَهـا ... جـآذر في أكنانهـا وبراغـزا
يقلـن وقـد قبّلـن رأسـي بواكيـا ... وقرّبـن منّـي حلقـة ومهـامزا:
إلى أين تمضي؟ قلت: للملك الذي ... يفيـد صـلات جمّـة وجوائـزا
لمسـتنصر بـالله يـردع ظالمـاً ... وينصـر مظلومـاً ويُحيـي جنـائزا
فعزّيـت نفسـي واقتعـدت شِـمِلّة ... تـرى خلفهـا كـوم المهـارى جوامـزا
كأنّ لها مـن جـاهد الشـدّ ناخسـاً ... يهيّجهـا عنـد الفتـور وهـامزا
وما رمت مرقال الودائق والسُّرى ... أقطّـع غيطـان الفـلا والأمـاعزا
إلى أن بـدا نـور الهـدى متألّقاً ... كما شِمت مفتوقاً من الصّبح بارزا[13]

---

(10) ابن صاحب الصلاة :تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:265.

(11) انظر : م.ن. -ص:287.

(12) حكم من سنة 610 هـ . إلى سنة 620 هـ.

(13) ابن عبد الملك المرّاكشي : الذيل والتكملة -م.س.-242/1/5-243.

وقد وقفنا على مقدمة فريدة من نوعها ولكنها، هي أيضاً. تقع بُعيد عصرنا ولم نُلف لها مثيلاً، من قبل ولا من بعد. وقد مهّد بها الشاعر الأندلسيّ محمد ابن هارون الغسّانيّ المالَقيّ لقصيدة وفد بها على المأمون الموحّدي[14] مادحاً. وقد خصّص هذه المقدّمة لوصف النعل المتّخَذة من الحلفاء "وهي التي يسمّيها أهل الأندلس ومن صابقهم بالبُلْغة"[15] فقال:

ركِبتُ إلى لقياك كلّ مطية	مبرّأة أن تعرف الأب و النّسلا
إذا نسبوها فالتنوفة أمّها	ووالدها ماء الغمام إذا انهلاّ
وما علمت يوماً غذاء وإنما	أعار لها الأعضاء صانعها فَتْلا
وقد ضمرتْ حتى اغتدت من نسوعها	فلو عرضت للشمس ما أسقطت ظلاّ
وما في قَراها قدر مقعد راكب	ولكنّها ساوت مساحتها الرّجلا
لتبليغها المضطرَّ تُدعى ببلغة	وإن قستَ بالتّشبيه شبّهتها نعلا

ويحسن التخلّص إلى مدح الخليفة المأمون، فيقول:

سأشكرها جهدي وأثني بفضلها	فقد بلّغتني خير مَن وطئ الرّملا
مليكا كأنّ الشمس فوق جبينه	وليث الشّرى في درعه حاميا شبلا[16]

والحقّ أن هذه المقدّمة قد جمعت بين المحافظة والتجديد. فهي محافظة من حيث انّها حقّقت الهدف الذي كانت من أجله مقدّمة المدحة تحفل بما من شأنه أن يوجب الحقوق ويهزّ الممدوح للسماح؛ وفيها تجديد من حيث انّ أحدا لم يصف البلغة قبل ابن هارون تمهيدا لمدحه.

على أنّ من شعرائنا من حاول الإبداع والتجديد داخل إطار الاتّباع والتقليد.

(14) حكم بين سنتي 624 هـ . و 629 هـ.

(15) م.ن. - 451/6.

(16) م.ن.

ويمكن أن نستشهد على ذلك بمثال رائع حقّا، يتّصل بمقدمة القصيدة، نفسها؛ حاول صاحبه فيه التجديد دون أن ينفلت تماما من التقليد والاتّباع. ويتعلّق الأمر بمقدّمة القصيدة التائيّة التي قالها دِعبِل بن علي الخزاعيّ في آل البيت. فقد استهلّها بوصف الأطلال ومساءلتها، ولكنّ الأطلال التي يتحدّث عنها ليست إلاّ منازل آل البيت التي خلت من أهلها. فكانت هذه المقدّمة جزءا قويّ الاتصال بباقي القصيدة، وكان التخلّص طبيعيا حسنا. بل لم تكن هناك حاجة إلى أن يتلطّف الشاعر من أجل أن يُحسن التخلّص. يقول في هذه المقدمة:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصاتِ
لآل رسول الله، بالخَيْفِ من مِنىً وبالرُّكن والتّعريف والجَمَرات
ديار عليّ والحسين وجعفر وحمزة والسّجّاد ذي الثفنات
...ديار عفاها جَوْر كلّ مُنابِذ ولم تَعْفُ بالأيّام والسّنوات
قفا نسأل الدار التي خفّ أهلها: متى عهدها بالصّوم والصّلوات؟
وأين الأُلى شطّت بهم غربة النّوى أفانين في الآفاق مفترقات؟

ثم ينطلق إلى مدح آل البيت والدفاع عنهم ووصف مأساتهم، فيقول متخلّصا:

همُ أهل ميراث النبيّ إذا اعتزوا وهم خير قادات وخير حماة[17]

وقد ذهب ابن مجبر في استهلال إحدى مدائحه مذهبا حمله عليه سوء حاله، فخصّص مقدّمتها لشكوى فاقته، ووَصْف استجدائه. وقد أطال فبلغت هذه المقدّمة سبعة عشر بيتاً. يقول فيها:

سأستجدي صغيراً من كبير وأرغب في حصاة من ثبير

(17) ديوان دعبل بن علي الخزاعيّ - جمع وتحقيق محمد يوسف نجم -بيروت -دار الثقافة -د.ط.- 1962م .-ص: 36-37.

وأقنـع بـالقليل الـنزر ممّـن   يجود وليس يقنع بالكثير
ألا إنّ النفـوس إذا أحبّـت   أدلّت في الخطير وفي الحقير
ومن يرجـو الملوك لكـلّ أمـر   فلا يـذر الحقير من الأمور
ووجه العـذر في الأسـفار بـاد   فـلا أحتـاج فيه إلى سفور

ثم يقول:

ورمت أخادع الكيّال فيما   لديه، فقال لي نـزرا بـزور
وأنشـده مـن المرويّ طـورا   وطورا من بنيّات الضمير
وأذكر للفرزدق ألف بيت   **وأكثر في الرواية عن جرير**
فقال لي الذّميم: إليك عنّي   **فليس الشعر يُقبَل في الشعير**
فلا تخبر عن الأمم المواضي   **فإنك قد سقطت على الخبير**
أترجو فطر أهل الصّوم عندي؟   **لقد أصبحت ذا رأي فطير**[18]

وليس ابن مجبر أوّل من قدّم لمدحته بالشكوى، ففي المدائح الأندلسيّة التي سبقت عدّة أمثلة من ذلك. ولقد مرّت بنا أبيات الأعمى التُطِيليّ التي صوّر فيها محنة الشعراء المتكسّبين على عهده، والتي جاءت ضمن مقدّمة إحدى مدائحه.

ولعلّ أوّل من فعل ذلك في تاريخ المدحة بالأندلس، هو الشاعر أبو المخشيّ عاصم بن زيد العِبادي، وإن لم يَشْك في مقدّمته فاقة ولا كسادَ بضاعة، وإنّما شكا عاهته. فقد سمل عينيه الأميرُ هشام بن عبد الرحمن الداخل لتعريضه به. ثم وفد الشاعر على أبيه بقصيدة مدْح استهلّها بتصوير محنته وشكوى مأساته ووصف رحلته إلى ممدوحه[19].

3 ـ إذا كان كثير من شعراء ذلك العصر يُنهون قصائد المدح دون خاتمة،

(18) صفوان بن إدريس :زاد المسافر -م.س.-ص :52.

(19) ينظر :أحمد هيكل : الأدب الأندلسيّ -م.س. -ص :102-103.

فإنّ آخرين كانوا يحرصون على إنهاء قصائدهم بخاتمة مناسبة. وتختلف خواتم المدائح حتّى عند الشاعر الواحد. ويكفي أن نتتبّع مدائح الرصافي البلنسيّ لنقف على ذلك الاختلاف. فهو إذ يختم إحداها بالدعاء لممدوحه فيقول:

صحبتك خالدة الحياة، وكلّ ما ... يجتاز بابك جنّة ونعيمُ
في ظلّ عزّ دائم وكرامة ... وفناء دارك بالوفود زحيم
من كلّ ذي تاج تعلّة قصده ... مرآك والإلمام والتّسليم[20]

- نجده يُنهي غيرها بمدح شعره فيقول:

أعربتُ عن مكنون سؤدده ... ما تُعجم الورقاء إذ تشدُو
سُوَراً من الأمداح مُحكَمة ... من آيهنّ الشّكر والحمد[21]

ولعل ختم قصيدة المدح بافتخار الشاعر بأدبه أن يكون أكثر شيوعا من سواه. ومن أمثلته عند ابن حربون قولُه في نهاية قصيدة مدح بها الخليفة أبا يعقوب:

ودونكموها من ثنائي فريدةً ... عليها من النظم البديع فرائدُ
تلاقى عليها من لسانيَ شاكر ... ومن نِعَم المولى المعظّم شاهد
وفي خلدي إن كان في العمر مهلة ... عجائب يفنى الدهر وهي خوالد !
قصائد أنّى سِرْت يوما فإنّها ... إلى ابن أمير المؤمنين قواصد[22]

ويُستنتَج مما سبق أنّ قصيدة المدح في الشعر الأندلسيّ في المرحلة الأولى من عصر الموحدين لم تُلتَزم في بنائها خطّة واحدة، وأنّ ما عرفه بعض المدائح من تجديد في البناء كان في إطار المحافظة والتقليد.

(20) ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -ص :124.

(21) م.ن. -ص :62.

(22) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المنّ بالإمامة -م.س. -ص:250.

ونختم هذا المبحث بظاهرة لها علاقة ببنية القصيدة، وهي: أنّ القصائد الأندلسيّة في هذه الفترة تقوم -في الأغلب الأعمّ- على وحدة البيت أو المقطع، شأنها في ذلك شأن جلّ القصائد العربيّة القديمة.

على أنّ ذلك لم يكن يُخلّ بها فنيّا في نظر بعض النقّاد القدماء الذين كانوا يفضّلون قيام القصيدة على وحدة البيت. يقول ابن رشيق: «ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيّا بعضه على بعض؛ وأنا أستحسن أن يكون كلّ بيت قائما بنفسه، لا يحتاج إلى ما قبله، ولا إلى مابعده. وما سوى ذلك فهو عندي تقصير»[23].

وعلى هذا، قد يكون من الشَّطَط أن نحاول البحث عن «الوحدة العضويّة» في قصائد المرحلة، تلك الوحدة التي دعا إلى تحقيقها بعض النقّاد المحدَثين[24]، مشترطين بناءَ القصيدة بناء هندسيّا، مشبّهين إيّاها بكائن حيّ.

(23) العمدة -م.س. -261/1.

(24) كعبّاس محمود العقاد(انظر :محمد مندور :النقد والنقّاد المعاصرون ـ القاهرة ـ مطبعة نهضة مصر ـ د.ط. ـ د.ت ـ ص :113)،وميخائيل نُعيمة(انظر :الغربال ـ م.س. ـ ص :154).

خاتمة

وبعد، فقد حاولنا في هذا البحث مقاربة ما عرفه الشعر الأندلسيّ، في الفترة الأولى من العصر الموحّديّ، من فنون، وما طبعه من سمات. وفيما يلي استخلاص لأهمّ ما انتهينا إليه في هذه المقاربة.

1- ازدهر الشعر الأندلسيّ في الفترة المذكورة لعدة عوامل، منها : ما حظيت به الحركة الشعريّة من تشجيع الحكّام وغيرهم، ومنها ماتمتّعت به البلاد من استقرار سياسيّ ونموّ اقتصاديّ.

وأظلّت تلك الفترة أعلاما بارزين في تاريخ الشعر الأندلسيّ، من أهمّهم : الشاعر الرّصافي ،والوشّاح ابن زُهْر، والزجّال مَدْغَلّيس. وخلّفت نتاجاً غزيرًا في غير ما فنّ، حظي جلّه بالجمع والتدوين، وإن كان بعضه ما يزال في حكم الضائع من تراث الأندلس.

2- نظم الشعراء في جلّ الفنون، وعالجوا أكثر من موضوع.على أنّ ما وصل إلينا من نتاجهم يتفاوت غزارة، كما يتباين قيمة.

فأمّا الغزل فقلّ منهم من لم يُسهم فيه. وهو -حسبما توفّر لنا من نصوصه- ثلاثة أنواع. أولها : فنيّ صرف، مهّد به بعضهم لقصائد المدح على نحو ما كان يفعل السابقون. وتدلّ قلّته على تقلّص تلك الظاهرة. وثاني تلك الأنواع : نحا فيه أصحابه منحى العِفّة، جارين بذلك في اتجاه عرفه الغزل في الأندلس قبل هذه الفترة. والثالث : تجاوز فيه الشعراء كلّ حدود، فتحدّثوا عن تهتّكهم ومجونهم، ووصفوا مغامراتهم. ومن هذا النوع لون قيل في الغلمان، كان صدى لانحراف خُلقي أحياناً، ونتيجة لرغبة في إظهار البراعة الفنّية أحياناً أخرى.

وأمّا المدح فلقي من التشجيع ما لم يحظ به في العصر السابق. وعلى أنّ التكسّب كان هو الباعثَ الأساسيّ، فإنّ مدائح كثيرة بعثت على نظمها دوافع دينيّة أو وطنيّة أو غيرها. وإذا كان الشعراء قلّدوا السابقين في كثير من معانيهم،

وردّدوا كثيرا من صورهم، فإنّ ممّا يميّز بعض مدائح هذه الفترة ما حوته من معان عقائديّة تتّصل بمذهب الموحّدين، وما تضمّنته من إشارات تاريخيّة تربطها بعصرها.

ولم يتخلّف الرثاء عمّا عرفته المراحل الأخرى. ومن أبرز ألوانه: رثاء الزوجات، ورثاء النفس، ورثاء الشيوخ. فإذا كنّا نجد الشاعر الأندلسيّ في الأعصر الأخرى يرثي زوجته في القصيدة والقصيدتين، فإنّ أحد شعراء هذه الفترة -وهو ابن جُبير- نظم في رثاء زوجته مجموعة من القصائد والموشّحات جمعها في جزء من ديوانه؛ وبالغ شعراء هذه المرحلة في رثاء النفس حتى قال ابن الأبّار: «وللناس فيما يكتبون على القبور كثير مُستجاد»[1]؛ ونظم الشعراء غيرَ ما نصّ في تأبين شيوخهم، وإن لم يبلغوا ما بلغه شعراء أندلسيّون آخرون في هذا اللون. وتنوّع نتاج المرحلة بين العاطفيّ والعقليّ، وحوى كثير منه العناصر الأساسية لهذا الغرض، من: ندب، وتأبين، وعزاء.

ولم تتقلّص دائرة الهجاء. ولعلّها أن تكون اتّسعت. وإن كانت النزعة الخلقيّة لجلّ المؤلّفين حالت دون الاحتفاء بأشعار الهجاء، فلم يصل منها إلاّ قليل. وتنوّع الهجاء تبعاً لتنوّع البواعث. فمنه ذو الطابع السياسيّ، ومنه ذو المنحى الاجتماعيّ؛ وصدر بعضه عن نزعة دينيّة، وكانت وراء بعضه دوافعُ شخصيّة... وقد سيطر عليه الاتجاه الساخر، وغلب على جلّه الإقذاع. على أنّ بعضه تضمّن معانيَ طريفة وصورا بديعة.

ومن الطبيعيّ أن يكثر الشعر الدينيّ لما توفّر من بواعث كالثقافة الدينيّة، وسلوك الحكّام، وظروف البلاد. ومن ألوانه: الزهد والتصوّف والمديح النبويّ. فأمّا أشعار الزهد فدارت، في الغالب، حول المعاني المألوفة كالتنفير من الدنيا، والترغيب في الآخرة، والدعوة إلى العمل الصالح. وهي تعكس الاتجاه المعتدل الذي

(1) البلفيقي: المقتضَب -م.س. -ص: 68.

غلب على زهد الأندلسيّين. وأمّا التصوّف فلا نجد إلا قليلاً من الشعر يدخل -حقّا- في إطاره. على أنّ ذلك يُعَدّ تمهيداً لما ستخلّفه المراحل التالية. وأما المديح النبويّ فما زال قليلاً. وعرفت هذه الفترة بعض أنواعه كالمديح العاديّ، والحنين إلى المرابع النبويّة، والتبرّك بالأثر النبويّ، ومدح آل البيت.

ويقف الباحث في نتاج ذلك العهد على فيض لا ينضب من شعر الوصف. فقد تناول الشعراء بوصفهم كثيراً مما وقعت عليه عيونهم، وأجادوا في استقصاء جوانب الموصوف، ووُفّقوا إلى تقريب صورته من الأذهان، وأبدعوا في تحسينه أو تقبيحه... على أنّ طبيعة الأندلس حظِيت بأوفر سهم، فنقلها الشعراء في لوحات، هي من أجمل ما خلّف ذلك العهد.

ويتّسم ما نُظم في الغربة والحنين بالتركيز العاطفيّ. وشاعره الأكبر هو الرصافيّ البلنسيّ الذي أتى فيه بـ « ما يُعجب ويُعجز »[1]. وإذا كانت هذه الفترة عرفت ازدهار الألوان المألوفة كالحنين إلى الأهل والوطن، والنّزوع إلى الماضي، فإنّها شهدت بروز التشوّق إلى الأماكن المقدّسة.

واتّسع نطاق الشكوى. فشكا الشعراء: كساد البضاعة، ووطأة الشيخوخة، وآلام المرض، ومأساة العمى، وتصرّفات بعض الناس، وعَسْف الحكام، ونكاد الحظ، وغيرها. وإذا كان هذا الشعر يحمل جملة من هموم الأندلسيّين، فإنّه يعكس جانبا من نفسيّتهم.

وشُغف الشعراء بالتراسل، فكثرت، لذلك، الأشعار الإخوانيّة التي تعكس، من جملة ما تعكس، ترفاً فنيّا بدأ استفحاله في الأندلس قبل ذلك. ودارت تلك الأشعار حول: بثّ الشوق، والشكر، والتهنئة، والتودّد، والعتاب، والاعتذار، والشكوى، والمؤاساة، وغيرها.

(1) م.ن. - ص: 109.

ولم ينظم الشعراء كثيرا في غرض الفخر. وأهمّ ما وقفنا عليه يندرج في نطاق التمدّح بالنفس والتنويه بالذات.

ومن أهمّ ألوان شعر الاستنجاد: ما وُجّه على لسان الخليفة الموحّديّ إلى القبائل العربيّة المقيمة بشرق بلاد المغرب لحثّها على المساهمة في الجهاد بالأندلس.

ويندرج الشعر السياسيّ ضمن اتجاهين. أحدهما يدعم السلطة الحاكمة، والآخر يعارضها. على أنّ ما يجري في الاتجاه الأول أغزر مادّة، ولكنّه أقلّ صدقاً.

وخلّفت الفترة جملة من الحكم والنصائح، تدور، في الغالب، حول حقائق الحياة، وعلاقات الناس بعضهم ببعض. وهي تعكس الاتجاه الأخلاقيّ الذي سار فيه كثير من الشعر الأندلسيّ.

ولم تخرج هذه الفترة عن غيرها من فترات الشعر الأندلسيّ من حيث الاهتمام بنظم العلوم والفنون. فقد ترك العلماء عدداً من المنظومات، توفّرت في بعضها -فضلا عن قيمتها العلميّة- سمات الشعر الجيّد.

وإلى جانب الشعر القريض نشطت الموشّحات والأزجال. وتُعَدّ هذه الفترة امتدادا لعصرها الذهبيّ.

فأما الموشّحات فاتسع نطاقها فوُظّفت لأغراض كانت وقفاً على الشعر القريض، كالاعتذار، والرثاء، والهجاء، والتصوّف.

وأمّا الأزجال فعرفت مرحلة جديدة من مراحل تطوّرها. إذ أصبح الناظمون فيها يجمعون بين القصائد الزجليّة، والأزجال المتحرّرة من قيود الشكل التقليديّ.

3- جرى بعض شعر هذه المرحلة على « طريقة العرب »، وسار بعضه الآخر على « مذهب المحدَثين ».

ووظّف الشعراء الوسائل الفنّيّة توظيفا جيّدا، في الغالب :

فقد اختلفت لغتهم تبعا لاختلاف الفنون،وتباينت بسبب تباين الموضوعات، وتفاوتت نتيجة لتفاوت القرائح؛ وتأثّرت بثقافتهم الدينيّة وغيرها، وأصابها ما نال لغةَ الشعر في الأندلس وغيرها.

واستخدموا الصورة وسيلةً للتعبير في كثيرمن الأحيان. واستقَوْا صورهم، في الغالب، من بيئتهم أو ثقافتهم. وإذا كانوا متفاوتين في مدى جِدّهم في طلب الصورة، وفي غرضهم من توظيفها، فإنّ منهم من وقع له منها ما أثار إعجاب الناس في عصره وبعد عصره.

وظلّ التشكيل الموسيقي، إلى حدّ ما، جامداً؛ تستوي في ذلك القصائد التقليديّة والموشّحات والأزجال.

وأخيراً، فإذا كانت هذه المقاربة حاولت جلاء صورة الشعر الأندلسيّ في إحدى مراحل تاريخه، فقد أظهر لنا البحث أنّ جوانب كثيرة أخرى ما برحت في حاجة إلى عناية الباحثين : كالتنقيب عمّا لا يزال، من ذلك الشعر، في حكم الضائع من أدب الأندلس وتحقيقه ونشره؛ وكتخصيص دراسات لشخصيّات كانت ذات أثر في الحركة الشعريّة في ذلك العهد، وما فتئ بعضها مغمورا؛ وكإفراد بعض الفنون ببحوث مُعمّقة تجلو سماتها وتكشف ملامح تطوّرها؛ وكتسليط الضوء على بعض الظواهر الفنّيّة ، كالإفراط في توظيف الصورة حتّى غدت غاية كبرى.

ملحـــق

تراجم أربعة من أعلام الشعر الأندلسيّ
في الفترة الأولى من عصر الموحّدين

1- الرُّصافيُّ البلنسيّ:

هو أبو عبد الله محمد بن غالب، المعروف بالرُّصافيُّ نسبة إلى بلدته "رُصافة بلنسية"[1]، وبالرّفّاء نسبة إلى صناعة الرفْو التي كان يزاولها.

وإذا صحّ ما ذكر عبد الواحد المرّاكشيّ من أنّ الرصافي « لم تكمل له عشرون سنة»[2] يوم أنشد عبدَ المؤمن قصيدته الرائية «لو جئت نار الهدى...»، أي سنة 556هـ.، فإنّه -أي الرصافي- كان من مواليد سنة 536 أوبعدها بقليل.

وإنْ كان الدكتور إحسان عبّاس يُبدي شكّه فيما ذكره المراكشيّ فيقول: «وإذا صدّقنا المراكشيّ في تحديده لسنّ الرصافيُ يوم مدح عبد المؤمن تبيّن لنا أنّ الشاعر اغتُبط وهو في السادسة والثلاثين من عمره... وهو أمر لم يقل به أحد ممّن ترجموا له -أعني وفاته وهو في منتصف العمر- ولو صحّ لكان لافتاً للنّظر مستوقفا للتعليق»[3].

وقد خرج الرصافي وهو صغير من بلده، فأقام بغرناطة مدّة، ثمّ استقرّ بمالَقة إلى وفاته. ولكنّه ظلّ شديد التعلّق ببلنسية، كثير الحنين إليها. قال ابن الأبّار: « وخرج صغيرًا من وطنه، فكان يُكثر الحنين إليه، ويقصُر أكثر منظومه عليه»[4]؛ وقال أيضاً: «وكان في قصائده كثيرا مايذكر شوقه إلى معاهده[5]»؛ وقال ابن الخطيب: «وكان، رحمه الله، قد خرج صغيراً من وطنه، فكان أبداً يُكثر

(1) عرّف ابن سعيد رصافة بلنسية بقوله: « وهي بساتين بخارجها» (رايات المبرّزين -م.س.- ص: 84)؛ ووصفها قائلا: « وبرصافة بلنسية مناظر وبساتين ومياه» (المقّريّ: نفح الطيب -م.س.- 181/1).

(2) المعجب -م.س. -ص: 157.

(3) ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -المقدّمة -ص:14.

(4) ابن الأبّار: التكملة -م.س. -520/2.

(5) البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص: 109.

الحنين إليه، ويقصر أكثر منظومه عليه»[6].

وإذا كانت المصادر لم تذكر ماوراء هجرته من أسباب، فالدكتور إحسان عبّاس قد رجّح -كما أسلفنا- أن يكون ضيق الحال بوالده في بلده، سببا لتلك الهجرة[7].

وقد أوردت المصادر التي ترجمت للرصافي جملة من أخباره، تُضاف إلى نتاجه الأدبيّ لمعرفة جوانب من شخصيته.

فمن تلك الأخبار أنّ أستاذه لمـّا سمع قوله، وهو -حسَبما قيل- أول ما نظم من شعر:

غار بي الغرب إذ رآني مجتمع الشمل بالحبيبِ
فأرسل الماء عن فراق وأرسل الريح عن رقيب

« استنبله، وقال له: إنّك ستكون شاعر زمانك»[8].

ويبدو من بعض الأخبار أنَ الرصافي كان يميل في شبيبته إلى بعض اللهو، ثم نزع، بعد ذلك، إلى الزهد وترك المجون. ذكر المقّريَ أنَ الرصافيُ اجتمع، وكان «قد أظهر الزّهد و ترك الخلاعة»، مع بعض أصدقائه في أحد متنزّهات غرناطة فنعموا بذلك اليوم، ثمّ إن أصدقاءه ما زالوا به «إلى أن شرب لمّاَ غلب عليه الطرب». فقال أحدهم، وهو الكُتندي:

غلبناك عمّا رمتَه يا ابن غالبِ براح وريحان وشدو وكاعب

وقال آخر، وهو أبو جعفر ابن سعيد:

بدا زهده مثل الخضاب فلم يزل به ناصلا حتّى بدا زهدَ كاذب[9]

(6) ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -507/2.

(7) انظر: ديوان الرصافيَ البلنسيّ -م.س. -المقدّمة -ص: 11.

(8) انظر: المقّريَ -نفح الطيب -م.س. -161/4.

(9) انظر: م.ن. -513/3-515.

ويجمع مترجمو الرصافي على أنه تنزّه عن التكسّب بشعره مكتفيا بما كانت تعود به عليه صناعة الرّفو. قال ابن الأبّار: «واقتصر على التعيّش من صناعته»[10]، وقال أيضاً: «لم يبتذل نفسه في خدمة، ولا تصدّى لانتجاع بقافية»[11]؛ وقال عبد الواحد المراكشيّ: «وكان رحمه الله عفيف الطعمة، نزيه النفس، لا يحبّ أن يشتهر بالشعر»[12].

على أنّ ذلك السلوك لم يلتزمه إلاّ بعد تجربة ربّما كانت قصيرة. يقول ابن الأبّار: «وقد سكن غرناطة وقتا وامتدح واليها حينئذ، ثمّ رفض تلك الغلَق، ورضي بالقناعة مالاً»[13]؛ ويقول ابن عبد الملك مستثنيا تلك المدة من ذلك السلوك: «... خلا وقت سكناه بغرناطة، فإنّه امتدح واليها حينئذ. ثمّ نزع عن ذلك، راضيا بالخمول حالا، والقناعة مالاً»[14]. ووالي غرناطة الذي ذُكر في النّصين السابقين هومحمد بن عبد الملك ابن سعيد، قريب أبي جعفر ابن سعيد الشاعر المشهور. ومدح الرصافي -متكسّبا أو غير متكسب- غير محمد ابن سعيد، أبا جعفر الوقّشيّ وزير ابن هَمَشْك[15]، وعبد المؤمن بن عليّ، وقد مرّت بنا رائيّته الشهيرة فيه.

وقد أشاد مترجمو الرصافيّ بحسن سيرته وحميد سلوكه: فابن الأبّار يصفه بالعفاف والانقباض وعلوّ الهمّة[16]؛ وابن الزبير ينوّه بعفّته وسكونه ووقاره

(10) البلفيقيّ: المقتضب -م.س. -ص: 109.

(11) ابن الأبّار: التكملة -م.س. -520/2.

(12)المعجب -م.س. -ص: 159.

(13)التكملة -م.س. -ص.ن.

(14)ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -506/2.

(15) قال ابن الأبّار متحدثا عن أبي جعفر الوقّشي: «ومدحه أبو عبد الله الرصافيّ بما ثبت في ديوانه، وأعرب عن جلالة شأنه» (كتاب الحلّة السيراء -م.س. -264/2).

(16) انظر: التكملة -م.س. -520/2.

وسَمته وعقله[17]؛ وابن عبد الملك يذكر أنّه كان «ديّناً، وقوراً، عفيفاً، ...عـالِيَ الهمـة، حسن الخَلْق والخُلق والسّمت، تامّ العقل»[18]. وينقـل ابـن الخطيـب عـن أبي الحسـن شاكر ابن الفخّار المالَقي -وكان خبيرا بـأحوال الرصـافيّ- قولـه: «مـا رأيـت عُمـري رجلاً أحسن سمتا وأطول صمتا من أبي عبد الله الرصـافي»[19]؛ ويـروي ابـن الخطيـب كذلـك عــن أبي عمـرو بـن سـالم ماكـان يُثير إعجاب النـاس بالرصــافيُ ويبعثهــم على تقديـره. قـال أبـو عمـرو هـذا: «كـان [الرصـافي] صاحبـا لأبـي ولقيتــه غــيرَ ما مرة، وكان له موضع يخرج إليـه في فصل العصير، فكنت أجتاز عليه مع أبـي فـأَلثِم يده، فربّما قبّل رأسي ودعـا لي. وكـان أبـي يسـله [كـذا] الدعـاء فيخجـل، ويقـول: أنا-والله -أصغر من ذلك». ثم قال أبو عمرو: «وكـان بإزائـه أبـو جعفـر البلنسـيّ. وكـان متوقّـد الخـاطر. فربّمـا تكلّـم مـع أحـد التجّـار، فكـان منــه هفــوة، فيقــول له جلساؤه: شتّان بينك وبين أبي عبيد الله [كذا] في العقـل والصمـت. فربّمـا طـالبه بأشياء ليحاوبه عليها، فما يزيـد على التبسّم. فلمّـا كان أحد الأيام جاء البلنسيّ ليفتح دكّانه فتعمّد إلقاء الغَلَق من يده، ووقع على رأس أبي عبد الله، وهـو مقبــل علـى شـغله، فســال دمـــه. فمـا زاد علـى أن قـام ومسـح الـدّم، ثـمّ ربـــط رأســـه، وعاد إلى شغله. فلمّا رأى ذلك منه أبو جعفر ترامى عليه، وجعل يُقبّل يديه، ويقول: والله ما سمعت بـرجـل أصبر منك ولا أعقل»[20].

وقد أكسبه هذا السلوك المثالي -فضلا عن إعجاب الناس بـه وتقديرهـم لـه- عـدداً من الأصدقاء منهم الأديب الوزير أبو جعفر أحمدابن سعيد.

---

(17) انظـر: ابن الخطيب: الإحــاطة -م.س. -506/2.

(18) انظر: م.ن.

(19) م.ن

(20) م.ن. -ص: 506-507.

على أنّ ما كان يتحلّى به الرصافيّ من حِلْم فائق وتسامح فريد -كما يدلّ على ذلك ماروواه أبو عمرو بن سالم- لم يكن ليحول دون التصدّي لمن يجرؤ على أن يطعن عليه في عرض أو فنّ. ولقد مرّ بنا -في الفصل الذي عقدناه للهجاء- ما قاله مهدداً فيه أبا القاسم السّهيْليّ، وما نظمه هاجيا فيه منتقداً لاحدى قصائده، ناعتاً إيّاه بـ «الكلب الأعيمى»، واصفا نقده لقصيدته بـ «العُواء». وليس ذلك غريبا ممّن كان يرى أنّ به «غيرة جاهليّة»[21] تحمله على مثل ذلك التصدّي.

على أنّ ما رسمه المترجمون من صورة مُثلى، ربّما خدَشه ما ورد في «نفح الطيب» من أنّ الرصافيّ كان «يميل في شبيبته لبعض فتيان الطلبة. وأجمع الطلبة على أن يصنعوا نزهة بالوادي الكبير بمالَقة، فركبوا زورقا للمسير إلى الوادي. فوافق أن اجتمع في الزورق شمْل الرصافي بمحبوبه. ثم إنّ الريح الغربيَّة عصفت وهاج البحر ونزل المطر، فنزلوا من الزورق وافترق شمل الرصافي من محبوبه، فارتجل:

غـــار ...البيتين المذكورين»[22].

وقد يؤكد هذا الخبرَ ما قاله الرصافيّ في الغزل الشاذّ ممّا سبق الوقوف عنده في الفصل المعقود للغزل، كما قد يؤكّده ما ذكر بعض مترجميه من أنّه «تُوفّي صَرُورة لم يتزّوج قط»[23]. وإن كان الدكتور إحسان عبّاس قد ذهب -كما أسلفنا- إلى أنّ الرصافي لم يكن، في ذلك الغزل، مُعبّرا عن واقع، وإنما كان ينظمه لغاية فنّيّة.

ومهما تكن الحقيقة فإنّ الأندلسيين، في تلك الفترة، لم يكونوا يرون -فيما يبدو- في الميل إلى الغلمان والتغزّل بهم ما يطعن في السلوك. وقد تكون مساهمة بعض الشخصيّات الدينيّة في الغزل الشاذّ دليلا على ذلك[24].

(21) ديوان الرصافي البلنسيّ -م.س. -ص:77.

(22) المقّريّ: 161/4.

(23) ابن الأبّار: التكملة -م.س. -520/2.

(24) انظر مثالا على ذلك في: ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:48.

وكانت وفاة الرصافي يوم الثلاثاء التاسع عشر من رمضان سنة 572هـ.، بمالقة. وظلّ قبره مشهوراً بها[25].

وأهم نتاج الرصافيّ الأدبيّ[26] شعره الذي جمعه -فيما يبدو- بنفسه. وقد أقبل الناس على سماعه منه وروايته. قال ابن الأبّار: «وشعره مدوّن بأيدي الناس، متنافَس فيه. وقد حُمل عنه وسُمع منه». ثم ذكر من رواته أبا علي كسرى المالقي، وأبا الحسين ابن جبير الزاهد[27]. وقال عبد الواحد المراكشيّ: «وقد رويت شعره عن جماعة ممّن لقيه»[28].

غير أن ذلك الديوان قد ضاع، فقام الدكتور إحسان عبّاس -كما سبق أن ذكرنا- بجمع ما وصل من شعر الرصافيّ وتحقيقه ونشره. وإذا صحّ اتهام أبي الحسن ابن حريق للرصافيّ بالإقلال[29] يكون ما ضاع من ذلك الشعر قليلاً، لا يُغيّر كثيرا مما يُصدَر عليه من أحكام.

وقد تناول الرصافيّ في شعره جملة من الأغراض، منها: المدح، والرثاء، والحنين، والوصف، والغزل، والإخوانيات.

فقد مدح الخليفة عبد المؤمن، ومحمد ابن سعيد، وأبا جعفر الوقّشي، وأبا سعيد بن عبد المؤمن، وغيرهم. ولعلّ أجود ما خلّف، في هذا الغرض، رائيّته التي أنشدها عبدَ المؤمن بجبل الفتح.

---

(25) انظر: ابن الأبّار: التكملة -م.س. -520/2؛ ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -515/2.

(26) وصفه المراكشيّ «بالكاتب» (المعجب -م.س. -ص: 154)، ولكنّا لم نقف، من «نثره»، إلاّ على جزء من مقامة يصف فيها القلم. انظر: ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -514/2-515.

(27) انظر: التكملة -م.س. -520/2.

(28) المعجب -م.س. -ص:157.

(29) انظر: ابن الأبّار: التكملة -م.س. -ص.ن؛ ولم يوافق ابن الأبّار شيخه ابن حريق على ما عاب به الرصافيّ من إقلال. انظر: ص.ن.

ومن أشهر مراثيه قصيدته في الأديب أبي محمد المالَقيّ. وله عدّة نصوص فيمن اسمه «يوسف».

ومن أهم ما خلّف في غرض الحنين رائيّته المشهورة في التشوّق إلى بلنسية.

وقد وصف الرصافي أشخاصا كثيرين وأشياء عديدة. فقد وصف الرّفّاء، والصّفّار، والنّجّار، والمغنيّ، والحائك، والمحارب،وغيرهم. كما وصف الدّولاب، والحمّام، والقلم، وغيرها. ووصف من الطبيعة النّهر، والجبل، وغيرهما[30].

وتنوّع غزل الرصافيّ بين الطبيعيّ و الشّاذّ. فمن الطبيعيّ ما مهّد به لبعض مدائحه؛ ومن الشّاذ ما سبقت الإشارة إليه من جمعه فيه بين وصف غلمان يزاولون حرفاً والتغزل بهم.

ودارت إخوانيّاته حول مدح الأصدقاء، وتهنئتهم، ومؤاساتهم، والحنين إليهم، وغير ذلك. ومن أهمّها ما نظمه مراجعاً به ابن لبّال الشَّريشي، وما وجّهه إلى ابن حربون الشّلبي مؤاسيًا إياه، وما إلى ذلك ممّا وقفنا عنده في حديثنا عن الإخوانيات في تلك الفترة.

هذه أهمّ الأغراض التي تناولها الرصافي في شعره. وما قاله فيها متفاوت كمًّا وجودة، وذلك تبعًا لعوامل مختلفة. وقد لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا: إنّ الرصافي كان شاعر الحنين والوصف في تلك المرحلة من تاريخ الشعر الأندلسيّ.

وقد لمح القدماء في شعره خصائص، فذكروا بعضها فيما كتبوه عنه. وهذه جملة من تلك الأقوال:

ا- قال عبد الواحد المراكشيّ: «وهو مُجيدي شعراء عصره لا سيما في المقاطيع كالخمسة الأبيات فما دونها»[31].

---

(30) انظر: فهرس الموضوعات الشعريّة في: ديوان الرصافيّ البلنسيّ -م.س. -ص:135-136.

(31) المعجب -م.س. -ص:157.

ب- وقال ابن الأبّار: «وكـان مـن الرقّـة وسلاسـة الطبـع وتنقيـح القريـض، على طريقة متّحدة»[32].

جـ- وقال ابن سـعيد: «أملى عليّ والـدي في شـأنه: ...قـال: وكـان عمّـي أبو جعفر ابن سعيد يقول عنه: هـو ابـن رومـيّ الأندلـس لما رآه مـن حسـن اختراعـه وتوليده، كمعناه في الحائك، ومعناه في النّجار، وذكره للأصيل»[33].

د- وقال ابن عبد الملك المراكشيّ: «كان شاعراً مُجيدا، رقيـق الغـزل، سَلِس الطبع، بارع التشبيهات، بديع الاستعارات، نبيل المقاصد والأغراض»[34].

هـ- وقال لسان الديـن ابـن الخطيـب: «وشـعره لا نهايـة فوقـه رونقـا ومائيّـة، وحلاوة وطلاوة، ورقّة ديباجة، وتمكّن ألفاظ، وتأصّل معنى»[35].

ويضاف إلى هذه الأقـوال مـا سبق أن أوردنـاه لابـن الأبّـار مـن أنّ الـرصافي كـان يقصُر أكثر منظومـه علـى الحنـين إلى وطنـه، ومـن أنّـه كـان يـأتي في ذلـك «بما يُعجب ويُعجز»، ومن أنّ ابن حريق كان يَعيبه بالإقلال...

وربمـا كـان الدكتـور إحسـان عبّـاس أول مـن حـاول مـن المحدَثـين الاقـتراب من خصائص شعر الرصافيّ. وقد ذهب إلى أنّه يلتقي، في بعض تلـك الخصـائص،ثلاثـة شعراء أندلسيين عاشوا في عصر المرابطين، وهـم:ابـن خفاجـة وابـن الزقّـاق والأعمـى التطيلي[36].

وإذا استثنينا ما اتهم به أبـو الحسـن ابـن حريـق الرصـافيّ مـن أنّـه كـان مُقـلاّ،

(32) التكمـلة -م.س. -520/2.

(33) المغـرب -م.س. -342/2-343.

(34) ابن الخطيب: الإحـاطـة -م.س. -506/2.

(35) م.ن. -ص:507.

(36) انظر: ديوان الرصـافيّ -م.س. -المقدمـة -ص:21-26.

الغايةَ في الرونق والمائيّة، والحلاوة والطلاوة، ورقّة الديباجة،وتمكّن الألفاظ، وتأصّل المعنى، وكثرة المحاسن فيما نظمه في الحنين إلى وطنه.

وقد أصبح مدح الرصافي «وساما» لمن قلّده اياه، كما غدا رثاؤه شهادة لمن نظمه فيه. قال أبو العبّاس المقّريّ متحدّثا عن محمد بن عبد الملك ابن سعيد: «وحَسْبُه من الفخر مدحُ أديب الأندلس وشاعرها أبي عبد الله الرصافي له»[47]؛ وقال ابن سعيد: «وحسْبك أنّ الرصافيّ شاعر زمانه يقول في رثائه...»[48]. ثم يذكر مطلع داليّة الرصافي في تأبين الأديب أبي محمد بن العباس الجذامي المالَقي؛ ويذكر ابن الأبّار في ترجمة أبي جعفر الوقّشيّ وزير ابن همشك أن الرصافي قد «مدحه... بما ثبت في ديوانه، وأعرب عن جلالة شأنه»[49].

وقد أصبحت عدّة نصوص للرصافيّ مثار الإعجاب ومبعث الاستحسان كرائيّته في الحنين، ووصفه للغلام الحائك وللغلام النجّار[50]، ووصفه لمغنٍّ[51]، وتصويره للنهر، وغيرها. ولقد كان إبداع الرصافي في بعض تلك النصوص باعثًا على تقليده فيها: فرائيته في الحنين قد ساجلها أبو بحر صفوان بن إدريس التُّجيبي غرضا ورويًّا[52]؛ وأبياته في النهر «كثر التولّع...[بها] عام أحد وأربعين وستمائة»، فنظم غيرُ ما واحد في موضوعها[53].

---

(47) م.ن. -336/2.

(48) المغرب -م.س. -426/1.

(49) كتاب الحلّة السّيَراء -م.س. -246/2

(50) انظر: ابن سعيد: رايات المبرّزين -م.س. -ص:85.

(51) انظر: المقّريّ : نفح الطيب -م.س. -138/4.

(52) انظر: م.ن. -63/5.

(53) انظر: البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص: 110-112.

2- ابن مُجْبَر

يُنسب أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر إلى فِهْر[1]. وهو من «بلّش» (Velez Malaga) القريبة من «مالَقة» بجنوب الأندلس[2]. وإذا صحّ ما ذكره المقّريّ من أنّ عمره كان يوم وفاته ثلاثًا وخمسين سنة[3]، فإنّ مولده كان في حدود سنة 535 هـ، أي في عصر المرابطين.

وقد اتصل في بداية الأمر بمحمد ابن مردنيش الثائر على الموحّدين بشرق الأندلس؛ «وله فيه أمداح»[4].

ثم اتصل بالحكّام الموحّدين، فمدح، منهم، أبا يعقوب يوسف[5]، ثم رثاه لّما مات[6]، ثم مدح يعقوب المنصور الذي أعلى منزلته، بقصائد كثيرة، سجّل فيها كثيراً من أحداث عصره[7]. ولعلّه أن يكون قد حلّ عند المنصور محلّ الشاعر المغربيّ أبي العبّاس الجرّاويّ عند سلفه. ولابن مجبر، كذلك، في الأمير أبي حفص عمر ابن يوسف الملقّب بالرشيد، والي شرق الأندلس، بعض المدائح[8]. وذلك قبل

---

(1) انظر: المقّريّ: نفح الطيب -م.س. -237/3.

(2) انظر: ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:51. ونسبه الحِمْيَريّ إلى «شقورة» انظر: كتاب الروض المعطار -م.س. -ص:349.

(3) انظر: نفح الطيب -م.س. -240/3.

(4) م.ن. -238/3.

(5) انظر: م.ن.

(6) انظر: م.ن. -380/4.

(7) انظر: م.ن. -238/3-239؛ الحميري: كتاب الروض المعطار -م.س. -ص: 201، 242، 243، 479.

(8) انظر: ابن إدريس : م.س. ـ ص: 50-53.

أن يأمر أخوه يعقوب المنصور بقتله سنة 582 هـ.، كما أسلفنا.

ومن أخبار ابن مجبر أنه أنشد أبا يعقوب يوسف مهنّئًا إياه بفتح:

إنّ خير الفتوح ما جاء عفوا   مثل ما يخطب الخطيب ارتجالا

فانتقده أبو العبّاس الجراويّ الذي كان حاضرا، متّهما إياه باهتدام بيت وضّاح اليمن:

خير شراب ماكان عفوًا   كأنّه خطبة ارتجالِ

فقال يعقوب المنصور الذي كان وزيرا لأبيه: «إن كان اهتدمه فقد استحقّه لنقله إياه من معنى خسيس إلى معنى شريف». ففرح أبوه بجوابه، وأثار ذلك الجواب إعجاب الحاضرين[9].

وروى المقّري عن الشريف الغرناطيّ عن ابن عيّاش كاتب المنصور الموحّدي أنه قال: «كانت لأبي بكر بن مجبر وفادة على المنصور في كلّ سنة، فصادف في إحدى وفاداته فراغَه من إحداث المقصورة التي كان أحدثها بجامعه المتّصل بقصره في حضرة مرّاكش. وكانت قد وُضعت على حركات هندسيّة تُرفَع بها لخروجه، وتُخفَض لدخوله. وكان جميع من بباب المنصور من الشعراء والأدباء قد نظموا أشعاراً أنشدوه إياها في ذلك، فلم يزيدوا على شكره وتجزيته الخير فيما جدّد من معالم الدين وآثاره. ولم يكن فيهم من تصدّى لوصف الحال،حتّى قام أبو بكر بن مجبر فأنشد قصيدته التي أولها " أعلمتني ألقي عصا التسيار" واستمر فيها حتّى ألمَ بذكر المقصورة فقال في وصفها: "طوراً تكون -الخ " فطرب المنصور لسماعها وارتاح لاختراعها»[10].

ومن أخبار ابن مجبر أنه قال في ولدٍ لأبي الحسن ابن القطّان ثلاثة أبيات هي:

---

(9) انظر: المقّري: نفح الطيب -م.س. -3/238.

(10) م.ن.-ص 240.

جاء وفي يساره قوس وفي اليمنى قدح
كأنّه شمس بدت وحولها قوس قزح
يا لائمي في حبّه ما كلّ من لام نصح

فقال ابن عيّاش: «هذه أبيات لأندلسيّ استوطن المشرق، في تُركيّ». فادّعى ابن مجبر مُقسما أنّه ارتجلها[11].

وإذا كان ذلك بعيدا عن أن يدخل في «توارد الخواطر»، فإنّ في القصة التالية ما يدخل فيه. فقد ذكر صفوان بن إدريس أنّ أحد الطلبة بمرّاكش سأله أن يقول في معنى بيتين في الغزل للجرّاوي عرضهما عليه، فقال صفوان ثلاثة أبيات آخرها:

أعملتُ زجري فقلت ربّتما قرّب خدّ المشوق من خدّه

فقال له ذلك الطالب: إنه قبل اجتماعه به، قد عرض ذينك البيتين على ابن مجبر وسأله السؤال نفسه، فقال ابن مجبر أربعة أبيات، ختمها بقوله:

وقد تفاءلت على فعله أنّي أرى خدّي على خدّه

فتعجب صفوان من توارد خاطريهما على معنى هذا البيت[12].

وروي أن ابن مجبر حضر ذات يوم مع عدوّ له جاحد لفضله فتحدّاه ذلك الجاحد بأن يصف زجاجة خمر سوداء كانت أمامهما، فارتجل ابن مجبر ثلاثة أبيات في وصفها[13].

ويبدو من بعض أشعار ابن مجبر أنه عانى أحياناً بعض الفاقة والحرمان. ولدينا ثلاثة نصوص قد تكون أدلّة على ذلك. أولها «قطعة يعتب بها»، قائلاً:

---

(11) انظر: م.ن - 4/161-162.

(12) انظر: م.ن. ص. 88.

(13) انظر: م.ن. - 3/206.

وقائلـــة تقـــول وقـــد رأتـــني ... أقاسي الجدب في المرعى الخصيـبِ
أما عطـف الفقيـه وأنـت تشكو ... لـه شـكوى العليـل إلى الطبيـب؟
وقـــد مـــرّ الثنـــاء بمعطفيـــة ... كمـا مرّ النسيم علـى القضيـب
فقلـت: علـيّ شكر وامتـــداح ... وليس عليّ تقليـبُ القلـــوب[14]

وثاني هذه النصوص تلك المقدمة الطويلة التي استهل بها قصيدة له في مدح الرشيد أبي حفص عمر، وفيها يشكو الفقر والحرمان[15]. وقد مرّ بنا بعضها في موضع آخر من هذا البحث.

وثالث تلك النصوص كتب به إلى الخليفة الموحّدي مسجديًا،وذلك عندما ولد له ابن؛ وفيه يقول:

وُلد العبـد الـذي إنعامكم ... طينـة أنشـئ منهـا جسـدُهْ
وهو دون اسـم لعلمي أنّه ... لا يسـمّي العبدَ إلاّ سيده[16]

على أنّ تلك الحال لم تك -فيما يبدو- ملازمة. ولعلّه قد شكا الحرمان قبل أن تتوثّق صلته بالمنصور، لأننا نستبعد أن يعيش شاعر الخليفة في بؤس وحرمان. فقد أصبح ابن مجبر مقرّبًا من المنصور حقّـًا، وكان المنصور يفضّله على جميع الشعراء. ومن الأدلة على تقدير المنصور له ما رواه المقّري من أنّ المنصور مرّ «أيّام إمرته بأوْنَبة من أرض شِلْب، فوقف على قبر الحافظ أبي محمد بن حزم، وقال: عجبًا لهذا الموضع، يخرج منه مثل هذا العالم! ثم قال: كلّ العلماء عيال على ابن حزم. ثم رفع رأسه وقال: كما أنّ الشعراء عيال عليك يا أبا بكر، يخاطب ابن مجبر»[17].

---

(14) ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:54.
(15) انظر: م.ن. -ص:52.
(16) المقّري: نفح الطيب -م.س. -240/3.
(17) م.ن. -ص:238.

ومن الأدلّة، كذلك، على ذلك التقدير: أمر المنصور -كما أسلفنا- بجمع ما مدحه به ابن مجبر في ديوان خاصّ.

ويبدو من بعض قصائد ابن مجبر إخلاصه للمنصور، وولاؤه لدولته، ومواكبة انتصاراته بالتسجيل. ولقد مرّ بنا ما قاله ابن مجبر واصفا فيه إيقاع المنصور بمدينة «قفْصة» لمـّا رفضت طاعته. ومن النصوص التي سجلت تلك الأحداث: قولُه شامتًا «لمـّا صُلب الجزيري [الثائر على المنصور]، ومن أُخذ من أصحابه بحضرة إشبيلية، وعاينهم قد رُفعوا في خُشُبهم»:

رَكْبٌ إلى نار الجحيم مسيرُهم ... ورِكابهم لا يستطيع مسيرَا
الحيّ منهم لا يُرَى مستوطنا ... والميت منهم لا يُرَى مقبورا
ما يزيد الأرضَ طيبا أنّها ... لفظت عداتَك أبطناً وظهورا[18]

وإذا كنّا نجهل أساتذة ابن مجبر، فإنّنا نعرف أنّ العالم النحويّ الشهير أبا علي الشّلوبين من الذين رَوَوا عنه[19].

وكانت وفاة ابن مجبر بمراكش ليلة عيد الأضحى سنة 588 هـ[20].

وأبو بكر ابن مجبر من الشعراء المكثرين. قال المقّري: «وشعره كثير، يشتمل على أكثر من تسعة آلاف وأربعمائة بيت»[21]. وقد جُمع هذا الشّعر في «سفرين ضخمين»، رآهما ابن عميرة الضبّيّ[22]. إلاّ أنّهما مازالا في حكم الضائع من شعر الأندلس.

---

(18) الضبّيّ: بُغية الملتمِس -م.س. -ص:494 . وفيه «الحنى»، و«غداتك» (بغين مُعجَمة).

(19) انظر: المقّريّ: نفح الطّيب -م.س. -ص:240.

(20) م.ن. -الضبّيّ: بغية الملتمس -م.س. -ص:493.

(21) نفح الطيب -م.س. -ص:238.

(22) انظر: بغية الملتمس -م.س. -ص:494.

على أن شعر ابن مجبر لم يضع كلّه، فقد حفظت عدة مصادر شيئاً من ذلك الشعر. وأكثر تلك المصادر رواية لشعر ابن مجبر:«نفح الطيب» للمقّري، و«زاد المسافر» لصفوان،و«الروض المعطار» للحميري.

ويتناول ما بقي من شعره أغراضا شتّى، منها: المدح، والرثاء، والغزل، والوصف، والهجاء، والشكوى، وغير ذلك.

فقد مدح أبا يعقوب يوسف وابنيه يعقوب المنصور وعمر الرشيد، كما مدح ابن مَرْدَنيش وغيره.

فأمّا ما مدح به أبا يعقوب فلم نقف إلا على بيت واحد منه، هو ذلك البيت الذي انتقده فيه الجرّاوي ذاكراً أنّ ابن مجبر اهتدم بيت وضّاح اليمن. وهو -كما سلف- مطلع لقصيدة في تهنئة أبي يعقوب بفَتْح.

وأمّا ما مدح به أبا يوسف، فقد وجدنا شيئًا منه، وإن لم نقف على أيّة قصيدة كاملة. ومن مدائحه التي وصل إلينا منها بعض الأبيات: القصيدة التي نظمها بمناسبة إيقاع المنصور بمدينة «قفْصة»[23]، وتلك التي قالها في فتح «الحمة»[24]، ثم تلك التي أنشدها المنصورَ بمناسبة إحداث المقصورة[25].

وأما ما مدح به ابنُ مجبر الرشيد، فقد أورد منه ابن إدريس نصّين[26]، أحدهما في تهنئة الرشيد ببرئه من مرض.

ولم يصل من مراثي ابن مجبر إلاّ مطلع القصيدة التي نظمها في الخليفة

(23) انظر: الحِمْيَريّ: كتاب الروض المعطار -م.س. -ص:479.

(24) انظر: م.ن. -ص:201، 215.

(25) انظر: المقّري: نفح الطيب -م.س. -239/3.

(26) انظر: زاد المسافر -م.س. -ص:51، 52 .

أبي يعقوب، وبيتان قالهما في رثاء أحد الأبطال، اسمه سعيد بن عيسى[27].

ويتنوّع ما وقفنا عليه من غزل ابن مجبر بين الطبيعي[28] والشاذ[29]. وكان بعضه مقدّمات لقصائد مدح[30].

ومن نصوص الوصف تلك الأبيات التي وصف فيها المقصورة، وتلك المقطّعة التي صوّر فيها زجاجة سوداء فيها خمر، وتلك القصيدة التي وصف فيه خيلاً لأبي يوسف يعقوب المنصور[31]، ومن تلك النصوص أيضا ما ورد في بعض المدائح من وصف لمعارك المنصور وتصوير لما فعله بأعدائه وما إلى ذلك.

ويدخل في الهجاء ما نظمه في ذمّ الحريص[32]، وما قاله في انتقاد مناوئي ممدوحه، كتلك الأبيات التي وصف فيها الجزيريّ وأصحابه وهم مصلبون.

واقتصرت أشعاره في الشكوى، على كساد بضاعته، وحرمانه. ولم يخل شعر ابن مجبر من الحكم[33] والمواعظ[34] وغيرها[35].

إنّ ما وقفنا عليه من أشعار لابن مجبر يدلّ على أنه طرق جلّ أغراض الشعر

---

(27) انظر: م.ن. -ص:54.

(28) انظر: م.ن. -ص:55.

(29) انظر: م.ن. -ص:56.

(30) انظر: م.ن. -ص:55-56.

(31) انظر: المقّري: نفح الطيب -م.س. -3/238-239.

(32) انظر: ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:55.

(33) انظر: م.ن. -ص:57 ؛ المقّري: نفح الطيب -م.س. -4/336.

(34) انظر: ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص: 55.

(35) من ذلك قصيدة قالها «عند استنقاذ الضاري المظفّر من الأسر». انظر: م.ن. -ص:56-57.

المعروفة على عهده. وكان المدح أهمّ تلك الأغراض لتعويله عليه وسيلةً للكسب، ولكون ابن مجبر -في عهد المنصور خاصة- الشاعر الرسميّ[36] الذي ينبغي أن يواكب بشعره أحداث الدولة التي قرّبته إليها.

ولا يخرج شعر ابن مجبر في سماته من جزالةِ لغة، ومتانةِ سبك، واقتصاد في التصوير، ورصانةِ إيقاع، وغير ذلك، عن الشعر الأندلسيّ المحافظ على ذلك العهد، في ظواهره الفنّية.

وإذا تجاوزنا قيمته الفنّيّة إلى غيرها فإنّه -لا سيما نصوص المدح- ذو أهمية تاريخيّة، وذلك بما سجّل من أحداث تلك الفترة. ولربّما كان أصدق تعبيرًا عن عهد المنصور من شعر أبي العبّاس الجرّاويّ وابن حَبّوس وغيرهما من شعراء الخلافة الموحّديّة. ذلك أنّ شعر ابن مجبر الذي بين أيدينا نجد فيه اعتدالا في الحديث عن عقيدة الموحّدين. وهو أمر يعكس ما كان عليه المنصور من قلّة التحمّس لتلك العقيدة، على عكس جدّه عبد المؤمن الذي جدّ في نشرها وتنشئة الشباب عليها.

ويتبيّن مما وصل من شعر ابن مجبر، ومن أخباره، ثم من أقوال المؤرخين فيه، أنّه من فحول شعراء الفترة الأولى من عصر الموحّدين.

وإذا تجاوزنا ما عابه عليه أبو العبّاس الجرّاوي من اهتدام بيت وضّاح، وذلك «لحسادة وجدها»[37] الجرّاوي لأنه رأى فيه منافسًا قويًّا على «منصب شاعر الدولة»، وتجاوزنا كذلك ما اتّهمه به الكاتب ابن عيّاش من انتحال تلك الأبيات الغزليّة التي أنشدها في ابن أبي الحسن ابن القطان، إذا تجاوزنا ذلك فإننا نجد كثيرا من التنويه بشاعريّته، والاشادة بعبقريّته.

---

(36) وصفه الحميري بأنه «شاعر دولة بني عبد المومن» (كتاب الروض المعطار -م.س. -ص:349).

(37) المقّري: نفح الطيب -م.س. -338/3.

فممدوحه المنصور يردّ عنه انتقاد الجرّاوي بأنه خليق بمعنى بيت وضّاح، لسموّه به؛ وهو يرى أنّ الشعراء عيال على ابن مجبر؛ وهو يطرب لسماع ما قال الشاعر في مقصورته ويُعجَب باختراعه؛ وهو يأمر بأن يُجمَع ما مدحه به في ديوان.

و **أبو** الوليد الشَّقُنْديّ يفاخر به -في رسالته الشهيرة- شعراء المغرب فيقول: «وهل منكم من حضر مع عدوّ له جاحد لما فعله معه من الخير، وأمامهما زجاجة سوداء، فيها خمر، فقال له الحسود المذكور: إن كنت شاعرا فقل في هذه، فقال ارتجالاً، وهو ابن مجبر...»[38].

وابن عميرة الضبّي يقول منوها بشاعريّة ابن مجبر: «أديب شاعر، متقدّم في طريقة الشعر؛ برع فيها وفاق أهل زمانه»[39].

والحميري يصفه بـ«الشاعر المُفلِق المُجيد»[40].

والمقّري يشيد بتقدّمه، وقوة عارضته، وسلامة طبعه، فيقول: «كان في وقته شاعر المغرب؛ ويشهد له بقوّة عارضته وسلامة طبعه قصائده التي صارت مثالاً، وبعدت على قربها منالا»[41]؛ ويصفه في موضع آخر بـ«الشاعر الكبير الشهير»[42].

هذا، وإذا كان ابن مجبر لم يشتهر في عصرنا اشتهار بعض معاصريه كالرصافيّ البلنسيّ وغيره، فإنّ ذلك راجع -في بعضه- إلى ضياع جلّ إبداعه، ثم إلى أنّ أغلب نتاجه كان في غرض المدح؛ والمدح لا يصمد كثير منه للزمن.

---

(38) م.ن. -ص:206.

(39) بغية الملتمس -م.س. -ص:493

(40) كتاب الروض المعطار -م.س. -ص:349.

(41) نفح الطيب -م.س. -ص:232.

(42) م.ن. - 336/4.

3- صفوان بن إدريس

أبو بحر[1] صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس، عربيّ الأصل من «تُجِيب»[2]. وهو من بيت أنجب عدّة شخصيّات علميّة وأدبيّة، ترجم لبعضها في كتابه «زاد المسافر»[3].

وصفوان من أهل «مُرْسِية»[4]. ولد سنة 561هـ. أو التي قبلها[5]. وأخذ العلم عن عدد من علماء عصره. منهم أبوه، وخاله القاضي أبو القاسم بن إدريس وأبو بكر ابن مغاور، وأبو رجال ابن غَلْبون، وأبو العبّاس ابن مضاء، وأبو القاسم ابن حبيش، وابن حوط الله، وأبو الوليد ابن رشد، وغيرهم[6].

وقد توفّرت لصفوان نشأة تَرِفة[7]، وحظي من أبيه بحبّ شديد وتوجيه سليم. ذكر صفوان أنّه فارق أباه ذات مرّة وهو صغير، فقال أبوه واصفاً شوقه إليه مصوّراً معاناته لفراقه:

لقد ضقت ذرعًا من فراق أبي بحرِ ... وقُلّب قلبي، للبعاد، على الجمر
وحُمّل ما لا يستطيع احتماله ... وحبُّ أبي بحر يزيد ولا يُكري
يحرّك شجوَ النفس ذكرى سكونه ... وأنسي به بين الترائب والنحر
وكان جميلُ الصبر أليقَ بالفتى ... ولا درّ درّي إن تحمّلت بالصبر

---

(1) أو «أبو البحر»، والأولى أكثر شيوعا في المصادر.

(2) نسبه إليها أكثر من مصدر. انظر -مثلا-: ابن الآبار: التكملة -م.س. -768/2؛ ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -349/3.

(3) انظر: ص:152-157.

(4)و(5) انظر: ابن الآبار: التكملة -م.س. -ص.ن.

(6) انظر: ابن الخطيب -الإحاطة -م.س. -ص.ن

(7) انظر: م.ن.

فتبًّا لهـذا الدهـر مـاذا يريــد من فراقك لا قرّتْ بـه أعـينُ الدهـر[8]

وتحدّث صفوان عـن توجيـه أبيـه لـه لّما بـدأ يحـاول قـرض الشـعر، فقـال: «ولما بدأت أفرزم، وأخذت أعوّل على التأدب وأعزم، وقع على بعض بطائقي فرآهـا مهلهلة الإلحام والإسداء، مثبّجة العبارة والأداء، فوقّع عليـها:

شـعرك عنـدي يـا أبـا بحـرٍ يحتـاج للخـبء وللسـتر
فاجمعه في صـدرك إن طعتـي كميّـت يُجعَـل في القـبر[9]

ومـن أخبـار صفـوان مـا ذكرتـه عـدّة مـن المصـادر الـتي ترجمـت لـه، عـن رحلتـه إلى مرّاكُـش، واتصاله بيعقوب المنصور، ورؤيـاه، وتأبينـه للحسـين ابـن علي ﷺ ومدحـه لآل البيـت، ومـا إلى ذلـك. روى المقّري عـن ابـن الخطيـب في «الإحاطة»، ملخصـا، فقال: «ورحل إلى مراكش في جهاز بنت بلغت التزويج، وقصد دار الإمارة مادحا، فما تيسّر له شيء من أمله، ففكّـر في خيبـة قصـده، وقـال: لـو كنـت أمّلـت الله سبحانه ومدحـت نبيّـه ﷺ، وآل بيتـه الطـاهرين لبلغـت أملـي، بمحمود عملي. ثم استغفر الله تعالى من اعتماده في توجهـه الأول، وعلم أن ليس على غير الثاني مُعوَّل. فلم يك إلاّ أن صرف نحو هذا المقصـد همّتـه، وأمضـى فيـه عزمتـه، وإذا به قد وُجّه إليه فأُدخل على الخليفة فسأله عن مقصده، فأخبره مفصحًا به، فأنفذه وزاده عليـه. وأخـبره أنّ ذلـك لرؤيـا رسـول الله ﷺ في النـوم يـأمر بقضـاء حاجتـه. فـانفصل مُوفَّـى الأغــراض، واسـتمرّ في مـدح أهـل البيـت، عليهـم السـلام، حتّى اشتهر بذلك»[10].

(8) ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:153-154.

(9) م.ن. -ص:154.

(10) نفح الطيب -م.س. -5/68-69.

وقال ابن الأبّار معلّقا على بيتين[11] لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم المعروف بالغزال، وبالحماسي، في رؤيا صفوان: «ظاهر هذا يقتضي أن أبا بحر رآها؛ والذي صحّ: أنّ المنصور رأى أباه في النوم يقول له: ببابك رجل يعرف بابن إدريس فاقض حاجته -أو ما هذا معناه- فلمّا أصبح -وذلك في الثامن عشر لذي الحجة عام تسعين وخمسائه- أخبر بالرؤيا. فوجّه فيه قاضي الجماعة أبو القاسم بن بقي والكاتب أبو الفضل بن محشوة، وسألاه عن مطالبه، فقُضيت، وزُوّد أربعمائة دينار»[12].

وروى ابن الأبّار أنّ أبا المطرّف ابن عميرة المخزومي «ذكر...أنّ إنسانا حدّثه: أن المنصور رأى رسول اللهﷺ، وأن أبا بحر كان عنده ظهيراً، ولولا هذا ما شفع فيه رسول اللهﷺ »[13]. ثم قال ابن الأبّار: إنهم «ذكروا أن المنصور لما سمع مدح أبي بحر ورثاءه للحسين، أراد الإحسان إليه، وتسبّب بالرؤيا لئلاّ يكثر عليه الشعراء»[14]. ثم ذكر ابن الأبار أن محمد بن إدريس، المعروف بابن مرج الكحل، ادعى «آية ذلك، لتوافق اسمي أبويهما» فخاطبه صفوان رادّا دعواه[15].

ومهما تكن الحقيقة فإنّ المنصور قد أكرم صفوان إكرامًا بالغًا. ولعلّه بقي يصله بأعطياته «فأغناه عن الخلق من يومئذ»، كما قال ابن سعيد[16].

---

(11) هما:

له الله ما أهداه في كل مشكل	لمعنى وكلّ القوم في دُجْية عميُ
فما هو إلا بالبلاغة مُرسَل	وآيته الرؤيا إذا انقطع الوحي

(البلفيقي:المقتضب -م.س. -ص:205).

(12) م.ن.

(13) م.ن.

(14) م.ن. -ص:206.

(15) انظر: م.ن.

(16) المغرب -م.س. -261/2.

وكان صفوان بن إدريس متحلّيا بجملة من الصفات الحسنة والأخلاق الرفيعة. وصفه ابن الخطيب فقال: «كان مُمتّعا من الظرف ريّان من الأدب، حافظا سريع البديهة...، على تصاون وعفاف، جميلا سريّا»[17]؛ وذكر ابن الأبّار أنّ صفوان كان «مفوّها بليغا... وكان من الفضل والدين بمكان»[18]؛ ووصفه ياقوت الحموي بأنّه كان «سريع الخاطر... [و] أحد أفاضل الأدباء المعاصرين بالأندلس»[19].

وقد كسب صفوان بفضل ذلك صداقة عدد من الشخصيات المرموقة في عهده، تبادل معهم مجموعة من الرسائل الإخوانية.

ولعلّ أقواهم صلة به وأقربهم مودّة إليه الوزير الكاتب أبو محمد ابن حامد. وفيه يقول صفوان مادحا، واصفاً ما كان بينهما من وطيد الصلة: «ما عسى أن أقول فيه، واسمه يحسبه ويكفيه؛ أبو محمد وما أدراك، انفرد بالسؤدد فأمن الاشتراك، وبيني وبينه أخوّة كما أُبرمت المرائر، واستخلاص يُحمَد غبّه يوم تبلى السرائر، فإن قلت الحقّ فنفسي حابيتُ بالثناء، وإليّ صرفتُ وجه الاعتناء؛ وأخاف أن أُلزَم الملام، ويقرئني مادح نفسه السلام»[20].

وقد تحدّث صفوان عن بعض ما جمعهما من متنزّهات ومجالس، وأورد بعض ما كان يدور فيها من مطارَحات شعريّة[21]. وقد سبق أن استشهدنا، في الفصل الذي عقدناه للإخوانيّات في تلك الفترة، ببعض ما وجّهه صفوان إلى ابن حامد منوّها به واصفاً حبّه له.

---

(17) المقّـريّ: نفح الطيب - م.س. - 5/62.

(18) ابن الأبّار: التكملة - م.س. - 2/768.

(19) مُعجَم الأدباء - م.س. - 12/10-11.

(20) ابن إدريس: زاد المسافر - م.س. - ص:40.

(21) انظر: المقّريّ: نفح الطيب - م.س. - 5/72-73.

ومن أصدقاء صفوان: ابن مرج الكُحْل. تحدّث صفوان عنْ الصداقة التي جمعت بينهما، فقال: «اجتمعت مع ابن مرج الكُحْل يوما فاشتكى إليّ ما يجده لفراقي، وأطال عتب الزمان في إشآمه وإعراقي، فقلت: إذا تفرّقنا والنفوس مجتمعة فما يضرّ أنّ الجسوم للرحيل مُزمعة، ثم قلت:

أنت مع العين والفؤادِ دنوتَ أو كنت ذا بعاد

فقال، وهو من بارع الإجازة،:

وأنت في القلب في السّويدا وأنت في العين في السواد»[22]

وقد أورد المقّري بعض مادار بين صفوان وابن مرج الكحل من رسائل إخوانيّة[23].

ومن أصدقاء صفوان كذلك: أبو الربيع بن سالم الكلاعي[24]، وأبو الحسن ابن الفضل[25]، وأبو عبد الله ابن يربوع[26]، وأبو بكر البلنسيّ[27]، وغيرهم.

ومن الّذين رَوَوْا عن صفوان بن إدريس: أبو إسحاق اليابري، وأبو الربيع بن سالم، وأبو عبد الله بن أبي البقاء، وغيرهم[28].

وروى ابن أبي البقاء المذكور أن صفوان حضر ليلة بمُرْسِية مع جماعة من الطلبة

---

(22) م.ن. -ص:62.

(23) انظر: م.ن. -ص:57-59.

(24) راجع قصيدة كتبها إلى صفوان مُبديا فيها حنينه إليه «عقب انفصاله من مرسية» ، في: م.ن. 475/4-476.

(25) راجع قصيدة يخاطب فيها صفوان، في: ابن سعيد ؛ المغرب -287/2-288.

(26) «طلب من صفوان شيئا من شعره فمطله»، فكتب إليه معاتبا. انظر: م.ن. -ص:390.

(27) كتب إلى صفوان بيتين مستجيزا، فأجازهما. انظر: المقّري ؛ نفح الطيب -م.س.- 270/3-271.

(28) انظر: ابن عبد الملك المراكشي ؛ الذيل والتكملة -م.س. -140/4.

ووجوه الناس، وكان من بينهم طالب بلنسيّ،فعرضوا عليه أن يُنشدهم فأنشد قصيدة لابن أبي البقاء، «فقال أبو بحر: ما تملّون من كلام مهيار! فقال له: البلنسيّ: ولابدّ هذا كلام مهيار! فقال: هذا نفسه، وهذا منزعه». فأخبره بأنها لابن أبي البقاء، «فخزي أبو بحر ووجم»[29].

وتوفّي صفوان بن إدريس مُعتبَطا ليلة يوم الاثنين السادس عشر من شوال سنة 598هـ. وثكله أبوه، وهو الذي تولّى الصلاة عليه. ودُفن غربيّ مُرْسِية بإزاء مسجد «الجرف»[30].

وكان لفقده أثر في نفوس محبّيه. ولقد مرّ بنا ما قاله أبو الربيع الكلاعي في رثائه. ومنه قوله مشيراً إلى اعتباطه، ومنوّها بآثاره:

فإنّ قصّر المقدار عمرك إنّ في ... نفائسِ ما خلّدت عُمرا إلى عمرِ[31]

كما مرّت بنا الأبيات التي ارتجلها ابن حريق لما وقف على قبره[32].

ولقد خلّف صفوان -كما أشار أبو الربيع- عدّة نفائس؛ فقد ترك من الآثار الأدبية والعلمية مايلي:

ا- «زاد المسافر»:وهو أشهر مؤلَفاته. وقد وصل إلينا فحقّقه ونشره الأستاذ عبد القادر محداد. و«زاد المسافر» مجموعة من المختارات الشعرية لمعاصري صفوان، يتخلّلها أحيانا بعض الملاحظات النقدية. قال المؤلّف ممهّدا لهذه المجموعة: «فهذه جملة علقتها من أشعار المولّدين ممن أدركته بعُمري، أو لحقه أهل عصري. ولم أتوخّ

(29) انظر: البلفيقيّ -المقتضَب -م.س. -ص:165.

(30) انظر: ابن الآبار: التكملة -م.س. -768/2؛ المقّريّ: نفح الطيب -م.س. -69/5؛ البلفيقي: المقتضب -م.س. -ص:135.

(31) البلفيقي: م.ن. -ص:191.

(32) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -276/1/5.

بـالتقديم فيهـم ولا التأخـير، إشـعارا بمزيّـة أو تنقّـص تعصّـب، بـل ذكرتهـم حسبما يُسِّـر لي»[33]. و«زاد المسافر» ذيل على كتـاب أبـي عمـرو ابـن الإمـام «سمط الجُمان، وسقط المرجان». قال المقّري متحدّثا عن كتـاب ابـن الإمـام: «وذيّل عليه -وإن كان ذيـلا قصيرا- أبو بحر صفوان بن إدريس المرْسي بكتاب "زاد المسافر"، ذكر فيه جماعة ممن أدرك المائة السابعة»[34]. وقـد عـارض ابـن الأبّار كتـاب «زاد المسـافر» بكتابـه «تحفـة القـادم»[35]. ويعـد كتـاب «زاد المسـافر» من أهم مصادر الشعر الأندلسيّ في القرن السادس الهجريّ. وقـد سبق أن أوردنـا ما قالـه محقّقـه منوّهـا بقيمتـه.

ب- «عُجالـة المحتفـز، وبداهـة المسـتوفز». كـذا ذكـره ابـن الأبّـار في «التكملـة»[36]. وذكـره في «تحفـة القـادم»[37] على النحـو التـالي: «بداهـة المتحفّـز وعُجالة المستوفز». إلاّ أنّ شهرته باسم «العُجالة» ترجّح الصيغة الأولى. وقـد أخـرج صفوان هـذا الكتاب في مجلّدين جمع فيهما «رسائله وأشعاره وما خُوطب بـه وراجـع عنه»[38]. ووصف ابن الخطيب هذا المؤلَّفَ فقال: «كتاب " العُجالة " سفران يتضمنـان من نظمه ونثره أدبًا لا كفاء له»[39].

---

(33) ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:43.

(34) نفح الطيب -م.س. -183/3.

(35) سمّى ابن الأبّار كتـابه كذلك، لتتحقّق التوريـة. قال: «ولما عـارضت به "زاد المسـافر"، سمّيتـه "تحفـة القـادم"» (البلفيقي: المقتضَب -م.س. -ص:52).

(36) انظر: 768/2.

(37) انظر: البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص:135.

(38) م.ن.

(39) المقّريّ: نفح الطيب -م.س. -62/5.

جـ- كتاب «الرحلة»[40]. وقد روى فيه -فيما يبدو- أخبار رحلته إلى مراكش.

د- تأليف في أدباء الأندلس. ولعلّه أن يكون على شاكله «الذخيرة» أو «القلائد» أو «المطمح»، أو غيرها. إلاّ أنّ صفوان لم يُكمله. ويبدو أنّه كتاب قيّم. قال ابن الأبّار: «من أصحابنا من عثر على بعضه فحدّث بكثرة ما حشر فيه من الفوائد»[41].

هـ- ذكر ياقوت أنّ لصفوان «ديوان شعر»[42]، ونقل المقّريّ عن ابن سعيد قوله متحدّثا عن صفوان: «وديوان شعره مشهور بالمغرب»[43].

إلاّ أنّ ابن الأبّار وهو أقرب عهدا من صفوان لم يذكر له ديوانا لا في «التكملة» ولا في «تحفة القادم». وأغلب الظنّ أنّ صفوان لم يجمع شعره في مؤلّف آخر غير كتابه «العُجالة»، وأنّ ابن سعيد لم يكن يقصد غير هذا الكتاب. ومن الأدلّة على أنّ هذا الكتاب قد حوى كلّ شعر صفوان وقوعه في سفرين. ومن تلك الأدلّة أيضا قول ابن الأبّار متحدّثًا عن هذا الكتاب: «يشتمل على رسائله وأشعاره»[44] أي كلّ أشعاره، وقوله أيضاً: «وجمع (أي صفوان) -فيما صدر عنه- كتابًا سمّاه: "عجالة المحتفز، وبداهة المستوفز"»[45]. وعلى ترجيحنا أن يكون المقصود هو كتاب العجالة، لايُستبعَد أن يكون صفوان قد خصّ شعره بديوان اقتداء بسابقيه

(40) انظر: م.ن.؛ ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س.-140/4.

(41) البلفيقي: المقتضَب -م.س -ص:135.

(42) انظر: معجم الأدباء -م.س. -11/12.

(43) نفح الطيب -م.س. -69/5.

(44) البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص:135.

(45) التكملة - م .س. -768/2.

من شعراء الأندلس. وقد يجعل هذا مُحتمَلا ما عرف عن صفوان من كثرة النظم[46]، وماكان عليه من الاهتمام بالتأليف إذ صنّف في حياته القصيرة الكتب المذكورة.

على أنّ آثار صفوان ليس منها بين أيدينا إلاّ كتابه «زاد المسافر» وبعض النصوص الشعريّة والنثرية.

وقد أجمع مترجمو صفوان على أنّه كان كاتبا وشاعرا: فهو -عند ابن الأبّار- «ممن جمع تجويد الشعر إلى تحبير النثر»[47]، أو «ممن جُمع له التقدّم في النظم والنثر»[48]؛ وهو -عند ابن الخطيب- «ممن تساوى حظّه في النظم والنثر على تباين الناس في ذلك»[49]. على أنّ ما يهمنا -هنا- هو ما ترك في مجال المنظوم.

إنّ ما وصل إلينا من شعر صفوان الذي شبهه المقّريّ بالرّمل والقَطْر كثرة، قليل. ومن أهم أغراضه مايلي:

أ- الغزل: ومن أشهر نصوصه تائيّته «ياحُسْنه والحسن بعض صفاته». وقد جمع غزل صفوان بين الطبيعيّ والشّاذ؛ وفي بعضه تمدّح بالعفّة، كما أسلفنا.

ب- الإخوانيّات: وهي كثيرة بحُكْم تعدّد صلاته بشخصيّات عصره. وقد وصل منها ثلاث قصائد طويلة: أولاها: همزيّته المشهورة بين أدباء المغرب، وقد راجع بها صديقه أبا عبد الله الوشقي[50]؛ والثانية بائية أجاب بها عن كتاب لمن كنيته «أبو موسى»[51] ؛ والثالثة وجّهها، مراجعاً، إلى صديقه أبي الربيع سليمان

---

(46) قال المقّريّ: «وشعره الرمل والقَطْر كثرة» (نفح الطيب -م.س. -67/5).

(47)البلفيقيّ: المقتضَب -م.س. -ص:135.

(48) التكملة -م.س. -768/2.

(49) المقّريّ: نفح الطيب -م.س. -62/5.

(50) انظر: ابن الخطيب، الإحاطة -م.س. -350/3-351.

(51) انظر: م.ن. ص:351-353.

ابن سالم الكلاعي[52]. ودارت إخوانيّات صفوان حول مدح الأصدقاء، وبثّ الشوق إليهم، واستعادة الذكريات، وغير ذلك.

جـ- الحنين: وقد ترك فيه رائيّته التي عارض بها رائيّة الرصافيّ البلنسيّ. وهي في وصف شوقه إلى بلده. وقد مهّد لها -كما مرّ بنا- برسالته التي سمّاها: «رسالة طراد الجياد في الميدان، وتنازع اللِّدات والأَخْدان، في تقديم مُرْسِية على غيرها من البلدان»[53].

د- الوصف: ومنه وصف: النّارنجة، والباكورة، والأكول، وغير ذلك.

هـ- الشعر الدينيّ: نظم صفوان في الزهد، ومدح الرسولﷺ، والإشادة بأهله،وتأبين الحسين بن عليّ رضي الله عنه، وغير ذلك.

وقد وقع الاستشهاد بعدد من نصوص صفوان في الفصول السابقة.

ومن سمات شعر صفوان -فضلا عن الغزارة التي أشار إليها المقّريّ- وإن لم نجد ما يؤكّدها: الإكثار من النظم في الإخوانيّات، والإجادة في بعض الغزليّات، والانفراد بتأبين الحسين، والخلوّ من المدح التكسّبيّ، وغيرها. وهو في الجملة متراوح بين التوسّط والجودة.

أما نثر صفوان فقد عالج فيه جملة من الفنون[54].

---

(52) انظر: المقّريّ: نفح الطيب -م.س. -5/66-67.

(53) انظر: م.ن. -ص:63.

(54) وقفنا لصفوان -فضلا عما ورد له من نثر في كتابه «زاد المسافر»- على رسالة له شهيرة كتبها إلى الأمير عبد الرحمن بن يوسف بن عبد المومن ، وفيها يُقيم مجادلة بين مدن الأندلس (انظر: المقّريّ :نفح الطيب -م.س.-1/170-175)؛ كما وجدنا بعض رسائله الإخوانيّة،ومنها واحدة إلى ابن مرج الكحل (انظر: م.ن. -5/58-59)، وأخرى إلى القاضي أبي القاسم ابن بقيّ (انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. 4/140 وما بعدها). وقد أورد له المقّري خطبة نكاح (انظر: نفح الطيب -م.س. -5/59-61)...=

ويتبين مما سبق أن صفوان من أبرز الكتاب والشعراء في النصف الثاني من القرن السادس الهجريّ. تُضاف إلى ذلك مشاركته في النقد الأدبيّ. وإذا استثنينا قصّته مع الطالب البلنسيّ التي سبق إيرادها، فإنّ جميع المصادر التي تيسّر الاطلاع عليها تنوّه بنبوغه وتشهد بعلوّ منزلته. فابن الأبّار يقول فيه: «وكان من جلّة الأدباء البلغاء ومهرة الكتّاب الشعراء: ناقدا مدركا... وله رسائل بديّة، وقصائد جليلة»[55]؛ وابن الخطيب يذكر -كما أسلفنا- أنّ صفوان كان «ريّان من الأدب»، وأنّ كتابه «العُجالة» قد تضمن «من نظمه ونثره أدباً لا كفاء له»؛ و ابن سعيد يُشيد بنباهته فيقول: «هو أنبه الأندلس في عصره»[56]؛ والمقّري يصفه بـ «الأديب الشهير»[57]، وينعت شعره -كما ذكرنا- بالكثرة؛ وأبو الربيع بن سالم يذكر -في رثائه إياه- «مُصاب القوافي» به، وينوّه بالنفائس التي خلّدها[58] ...

وقد عرف بعض معاصريه قيمة شعره فرغبوا في «اقتنائه».فهذا أبو عبد الله محمد ابن يربوع الشاطبي يطلب منه شيئا من شعره فيمطله، فيكتب إليه معاتبا[59].

وإذا كان الذين كتبوا عنه قد نوّهوا بأدبه جُمْلةً فإنّنا نجد منهم من استحسن نصوصاً مُعيّنة من ذلك الأدب.فالمقّري يستحسن قول صفوان في شكوى جيرانه وذمّهم:

إنّا إلى الله من أُناس　　　قد خلعوا لبسة الوقارِ

= ولا يختلف نثر صفوان عن نثر معاصريه . ففيه إطناب ، واهتمام بالزخرف البديعيّ.

(55) التكملة -م.س. -768/2.

(56) المغرب -م.س. -260/2.

(57) نفح الطيب -م.س. -475/4.

(58) البلفيقي: المقتضَب -م.س. -ص:191.

(59) انظر: ابن سعيد: المغرب -م.س. -393/2.

جـاورتهم فانخفضت هونـا   يارب خفّض على الجوار[60]

وهو -أي المقّري- يستحضر في رحلته، بيـت صفـوان الـذي يقـول فيـه حانّـا إلى ماضيه:

أين أيّامنـــا اللّواتـــي تقضّت   إذ زجرنا للوصل أَيْمَن طيرِ[61]

والناس يستحسنون أبياته الغزلية «ياحُسْنه والحسن بعض صفاته» فـ «يُغنّى بها في الآفاق»[62].

وأدباء المغرب تشـتهر بينهـم -كمـا أشـرنا- همزيّتـه الـتي راجـع بهـا الوشقي...

وإذا كان صفوان مدينـا بشـهرته لهـاتين القصيدتـين، فإنّـه مديـن أيضًـا بذلـك لما انفرد به من تأبين الحسين، ثم هو مدين كذلك لكتابه «زاد المسافر» الذي مـا فتـئ مصدرا قيّما من مصادر الشعر الأندلسيّ في القرن السادس الهجريّ.

(60) المقّـري: نفح الطيب -م.س. -191/5.

(61) م.ن. -94/1.

(62) ابن سعيد: المغرب -م.س. -261/2. وقـد اكتفـى في كتابـه «رايـات المبرّزين» بإيراد تسـعة أبيات من هذه القصيدة نموذجاً لصفوان. انظر: ص:79.

4- ابن جُبَير

ينتسب أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَير إلى «كِنانة». كان الداخل إلى الأندلس هو جدّه عبد السلام بن جُبَير، وكان دخوله في طالعة بلج بن بشر، سنة ثلاث وعشرين ومائة. ومن مشاهير أسلاف مترجَمنا، بالأندلس، جدّه أبو عمران ابن عبد الرحمن بن أبي تليد الشاطبي[1].

وقد وُلد ابن جبير في بلنسية سنة 539هـ.وقيل: في شاطِبة في السنة التي بعدها[2].

وابن جبير من أهل بلنسية، ولكنّ أباه نزل بشاطبة ثم انتقل إلى غرناطة[3]. وكانت نشأة ابن جبير وتكوينه في هاتين المدينتين. وقد حصّل جملة من علوم عصره، أخذها عن عدد من علماء الأندلس. وقد ذكر مترجموه أنواع العلوم التي أخذها، وأسماء الشيوخ الذين جلس إليهم[4]، والمنزلة التي بلغها بفضل ما حصّله. ويهمنا من ذلك تكوينه الأدبي ونبوغه في ذلك المجال. فعن ذلك يقول ابن الأبّار: «وعُني بالآداب فبلغ منها الغاية، وتقدّم في صياغة القريض وصناعة الكتابة، ونال بهما دنيا عريضة»[5].

وقد بدأ ابن جبير حياته العمليّة كاتباً عن بعض بني عبد المؤمن، إذ كتب عن السيد أبي سعيد عثمان صاحب غرناطة كما كتب عن غيره، ونظم فيهم أمداحاً

---

(1) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -5/2/595-596.

(2)انظر: م.ن.-ص:621؛ ابن الأبار: التكملة -م.س.-2/599؛ ابن الخطيب: الإحاطة -م.س.-2/239.

(3) انظر: ابن الأبّار -م.ن -ص:598.

(4)انظر: م.ن.؛ ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س.-ص:596-597؛ ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -ص:232-233.

(5) التكملة -م.س. -2/598.

كثيرة[6]. وقد حدثت له مع أبي سعيد قصّة كانت وراء نزوعه عن تلك الوظيفة وتوجّهه إلى المشرق في رحلته الأولى. روى هذه القصة المقّري فقال:«كتب في أول أمره عن السيد أبي سعيد...، فاستدعاه لأن يكتب عنه كتابا وهو على شرابه، فمدّ يده إليه بكأس، فأظهر الانقباض وقال: يا سيدي، ما شربتها قطّ؛ فقال: والله لتشربنّ منها سبعاً. فلمّا رأى العزيمة شرب سبع أكؤس، فملأ له السيّد الكأس من دنانير سبع مرّات، وصبّ ذلك في حجره، فحمله إلى منزله وأضمر أن يجعل كفّارة شربه، الحجّ بتلك الدنانير؛ ثم رغب إلى السيّد، وأعلمه أنّه حلف بأيمان لا خروج له عنها أن يحجّ في تلك السنة، فأسعفه؛ وباع ملكا له تزوّد به، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البِرّ» [7].

ولابن جبير ثلاث رِحَل من الأندلس إلى المشرق، حجّ في كلّ واحدة منها. ولكل رحلة باعث خاص.

فأما الأولى فباعثها ما سبق ذكره من إرغام أبي سعيد إيّاه على شرب الخمر. وقد فصل عن غرناطة لهذه الرحلة لثمان خلون من شوّال سنة 578هـ. صحبة أبي جعفر بن حسّان، وحجّ سنة تسع وسبعين، ثم عاد إلى غرناطة التي وصل إليها لثمان بقِين من مُحرَّم إحدى وثمانين. وفي هذه الرحلة زار عدّة من بلدان المشرق، ولقي جماعة من الشخصيات العلمية والدينيّة. وهذه الرحلة هي التي سجّل أحداثها في مؤلّفه المشهور الذي سنعود إليه في حديثنا عن آثاره.

وأمّا رحلته الثانية فبعثه عليها ما سمعه من خبر فتح صلاح الدّين الأيّوبي لبيت المقدس؛ وقد امتدّت هذه الرحلة من رجب ثلاث وثمانين إلى شعبان سبع وثمانين. وقد جمع فيها «بين زيارة الخليل عليه السلام وزيارة المصطفىﷺ وزيارة

(6) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -ص:607.

(7)نفح الطيب - م.س. - 2/385-386.

المساجد الثلاثة»[8].

وبعد هذه الرحلة «سكن غرناطة ثم مالقة ثم فاس ثم سبتة منقطعا إلى إسماع الحديث والتصوّف وترويه ماكان عنده، وفضله مع ذلك يزيد وورعه يتحقّق وأعماله الصالحة تزكو»[9].

وأما الرحلة الثالثة فكان الباعث عليها -فيما يبدو- ما انتابه من حزن لوفاة زوجه[10]. قال ابن عبد الملك: «وكانت رحلته الثالثة من " سبتة " بعد وفاة زوجه الفاضلة عاتكة المدعوّة بأمّ المجد...وكانت وفاتها يوم السبت -رحمها الله- لعشر خلون من شعبان أحد وستمائة»[11].

ولم يعد ابن جبير إلى الأندلس، وإنما «جاور بحرم الله الشريف طويلا وبيت المقدس، ثم تحوّل إلى مصر والإسكندريّة، فأقام بها يحدّث ويؤخذ عنه إلى أن لحق بربّه»[12].

وقد أخذ عن ابن جبير، في المغرب والمشرق، عدد من طلاّب العلم، منهم: أبو الحسن الشّاريّ[13]وغيره[14].

وكان ابن جبير محمود السيرة، كريم الخلق؛ نوّه بذلك مترجموه، ونقل بعضهم

(8) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -605/2/5.

(9) م.ن. -ص:606.

(10) قال ابن جبير متحدّثا عن زوجه: «...فوافق تجهيز الحياة تجهيز الممات، وليلة القبر تُنسي ليلة العرس؛ فيالها من لوعة وحرقة، ولكل اجتماع من خليلين فرقة »(م.ن.).

(11) و(12) م.ن.

(13) الرّعيني: برنامج شيوخ الرعيني -م.س. -ص:67.

(14) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س.-606/2/5-607؛ ابن الخطيب: الإحاطة -م.س.-233/2-234.

شواهد على ذلك من أخباره. ذكر ابن عبد الملك أنّه كان «سَنِيّا فاضلا، نزيه الهِمّة، سَرِيّ النفس، كريم الأخلاق»[15]؛ وذكر ابن الأبّار انصرافه إلى الزهد بعد أن بلغ بكتابته ما بلغ، فقال: «ونال بها (أي صناعة الكتابة) دنيا عريضة،ثم رفضها وزهد فيها»[16]؛ وروى المقّريّ عن صاحب «الملتمس» أنّ ابن جبير «كان من أهل المروءات، عاشقا في قضاء الحوائج، والسعي في حقوق الاخوان،والمبادرة لإيناس الغرباء»[17].

وقد قال ابن جبيرفي ذلك:

يحسب الناس بأنّي متعب | في الشفاعات وتكليف الورَى
والذي يُتعبهم من ذاك لي | راحة في غيرها لن أفكِرا
وبودّي لو أقضّي العمر في | خدمة الطلاب حتّى في الكرى[18]

ونقل المقّري عن صاحب «الملتمس» قصة وقعت له مع ابن جبير تنهض دليلا على ذلك السلوك. فقد قال -أي صاحب «الملتمس»-: «ومن أغرب ما يُحكَى أنّي كنتُ أحرص الناس على أن أصاهر قاضي غرناطة أبا محمد عبد المنعم ابن الفرس، فجعلته -يعني ابن جبير- الواسطة حتّى تيسّر ذلك، فلم يُوفّق الله ما بيني وبين الزوجة، فجئته وشكوت له ذلك. فقال: أنا ماكان القصد لي في اجتماعكما، ولكن سعيت جَهْدي في غرضك، وها أنا أسعى أيضاً في افتراقكما، إذ هو من غرضك؛ وخرج في الحين ففصَل القضيّة، ولم أرَ في وجهه أوّلا ولا آخراً عنواناً لا متنانٍ ولا تصعيب»[19]. ثم روى صاحب «الملتمس»، بعد ذلك،

(15) م.ن. -ص:607.

(16) التكملة -م.س.-598/2.

(17) نفح الطيب -م.س.-2 /488.

(18) م.ن.

(19) م.ن. - 295/3.

كيف حاول ابن جبير أن يعوّضه مما خسر من مال في تلك القضية[20].

وكانت وفاة ابن جبير بالإسكندريّة ليلة الأربعاء التاسع والعشرين لشعبان سنة أربع عشرة وستمائة[21].

ولابن جبير عدّة آثار أدبيّة نثرية وشعرية.

وتتمثّل آثاره الشعرية[22] -وهي التي تهمنا في هذا البحث- في ديوان شعره. وقد تحدّث بعض مترجمي ابن جبير عن هذا الديوان. قال ابن الأبّار: «وحُمل عنه شعره في الزهد وغيره؛ وهو كثير مُدوَّن»[23]. ووصف ابن عبد الملك -كما أشرنا سابقا- هذا الديوان فقال: «ونظمه فائق؛ وقفت منه على مُجلَّد متوسّط يكون قدر ديوان أبي تمّام حبيبِ بن أوْس جمع أبي بكر الصّولي أو نحو ذلك؛ ومنه جزء سمّاه:

---

(20) انظر: م.ن. -ص:295-296.

(21)انظر: ابن عبدالملك: الذيل والتكملة -م.س.-ص:621؛ ابن الأبّار: التكملة -م.س.- ص599؛ ابن الخطيب: الإحاطة -م.س.-ص239؛ المقرّي: نفح الطيب -م.س.-2/489.

(22) أما آثاره النثرية فمنها ما يلي:

ا- كتاب رحلة:سجّل فيه ما شاهد في رحلته الأولى.نوّه به ابن عبد الملك فقال: «وهو كتاب ممتع مؤنس مثير كوامن النفوس إلى الوفادة على تلك المعالم المكرّمة والمشاهد المعظّمة». ثم ذكر ماكان يقوله أبو الحسن الشاريّ من أنّ هذه الرحلة ليست من تصنيف ابن جبير «وإنّما قيّد معاني ما تضمّنته، فتولّى ترتيبها ونضدها بعض الآخذين عنه بناء على ما تلقّاه منه» (م.ن. -5/2/597-598).

ب - رسالة اعتبار الناسك، في ذكر الآثار الكريمة والمناسك. وقد كتب بها -وهو بفاس-إلى وليّه أبي الحسن بن مقصير، وذلك عند عودته إلى المشرق. انظر: م.ن. -ص:604.

جـ - مجموعة من الحكم. وصفها ابن عبد الملك بالاستجادة. انظر: م.ن. -ص:608.

د - رسائل لم نقف على شيء منها. انظر: م.ن.

(23) التكملة -م.س. -2/599.

" نتيجة وَجْد الجوانح، في تأبين القرين الصالح"، أودعه قطعاً وقصائد في مراثي زوجه أمّ المجد المذكورة بعد وفاتها والتوجّع لها أيّام حياتها تزيد بيوته على ثلاثمائة، سوى موشّحات خمس جعلها قريبا من آخره؛ ومنه جزء سمّاه: "نظم الجمان، في التشكّي من إخوان الزمان "يشتمل على أزيد من مائتي بيت في قطع»[24].

ويبدو من كلام ابن عبد الملك هنا أنّ ابن جبير هو الذي اضطلع بجمع شعره، والدليل على ذلك إطلاقه أسماء اختارها على أجزاء ديوانه. غير أنّنا نجد ابن عبد الملك نفسه يذكر، في موضع آخر، أنّ أبا عبد الله ابن عفيون -وكان معاصرا لابن جبير[25]- قد «جمع شعر ابن جبير في صباه»[26]. فإذا صحّ هذا تكون عملية جمع شعر ابن جبير قد تمّت مرتين: أولاهما بعناية ابن عفيون، وقد تناولت بواكير ذلك الشعر؛ والأخرى بفعل المؤلّف نفسه، وقد كانت متأخّرة،والدليل على ذلك تناولها مراثي ابن جبير التي نظمها في زوجه التي توفيت -كما أسلفنا- سنة 601هـ.

بيد أن ديوان ابن جبير ما يزال في حكم الضائع من مصادر شعر الأندلس. على أنّ ابن عبد الملك والمقّري وابن الخطيب وغيرهم قد سجّلوا في مؤلّفاتهم جملة وافرة من القصائد والمقطّعات، وإن كانت لا تمثل من ذلك الشعر الذي وصفه ابن الأبار بالكثرة[27] إلا جزءاً.

وعلى أنّنا استشهدنا بعدد من أشعار ابن جبير في الفصول السابقة، فإنّنا نودّ هنا أن نحدّد أهم أغراضه، ملخّصين القول فيها.

نظم ابن جبير في جلّ الأغراض التي تناولها معاصروه. وأهم ذلك مايلي:

---

(24) الذيل والتكملة -م.س. -ص:608.

(25) ولد سنة 518 هـ.، وتوفيّ بعد سنة 584هـ. انظر: م.ن. -141/6.

(26) م.ن. -ص:140.

(27) انظر: التكملة -م.س. -599/2.

ا- المدح: مدح ابن جبير بعض الشخصيّات المرموقة في عصره. فقد مدح الخليفة يعقوب المنصور بمناسبة محنة ابن رشد وغيره من المشتغلين بالفلسفة، وفي تلك المدائح يشكر المنصور ويستعديه على الفلاسفة[28]؛ ومدح صلاح الدّين الأيّوبي منوّها بانتصاره على الصليبيين[29]؛ وله في غير المنصور من بني عبد المؤمن «أمداح كثيرة»[30] لم نعثر عليها في المصادر التي ترجمت له.

ب- الرثاء: خلّف ابن جبير في رثاء زوجته -كما أشرنا- عدّة قصائد وموشحات ضمّها جزءٌ من ديوانه سمّاه: «نتيجة وجد الجوانح، في تأبين القرين الصالح».

جـ- الحنين: نظم ابن جبير في الحنين إلى الأماكن المقدّسة. ومن أهم ما ترك في ذلك: رائيته التي قالها عندما شارف المدينة[31]، كما نظم في الحنين إلى أهله ووطنه[32].

د- الهجاء: أهم ما ترك في هذا الغرض ما قاله في هجاء ابن رشد وغيره من المشتغلين بالفلسفة[33].

هـ- الزهد: كان ابن جبير زاهدا حقّا؛ وقد صوّر بعض شعره هذه النزعة عنده.

---

(28) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -31/6.

(29) انظر: م.ن. -598/2/5-601.

(30) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -607/2/5.

(31) انظر: م.ن. -ص:602-603؛ ابن الخطيب: الإحاطة -م.س. -235/2-236.

(32) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. 604/2/5؛ ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:115؛ المقّري: نفح الطيب -م.س -384/2-385.

(33) انظر: ابن عبد الملك : م.ن -ص: 611/2/5-612 - 30/6.

و- النصائح: نظم ابن جبير جملة من النصائح والإرشادات، تبدو فيها نزعته الخُلقية ورغبته في إصلاح المجتمع[34].

ز- الوصف: من أهمّ نصوصه في هذا الغرض ما قاله في وصف القلم[35].

ح- الإخوانيات: «جرت بينه وبين طائفة كبيرة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته وإجادته»[36]. ولكنّا لم نُلْفِ من تلك المخاطبات إلاّ شيئا قليلا، منه ماخاطب به الزاهدَ أبا عمران المارتُليّ[37]، ومنه ما وجّهه إلى صديق أهدى إليه موزا[38].

ط- الشكوى: شكا ابن جبير معاناته في غربته[39]، كما شكا ما أصاب الدين من فِرقة الفلاسفة[40].

ي- الغزل: لابن جبير مشاركة محدودة في الغزل[41].

ومن سمات شعر ابن جبير بروز الاتجاه الديني، والجنوح إلى النثريّة، والتميّز بطَرْق موضوعات قلّ طرقها قبله كهجاء الفلاسفة، والاهتمام بالبديع، والجمع بين طوال الأوزان وقصارها.

ومهما قيل في مدح شعر ابن جبير، فإنّه يبدو لنا متفاوتا تفاوتا واضحا: فبينما

(34)انظر: المقَّري: نفح الطيب -م.س. -485/2؛ ابن الخطيب: الإحاطة -م.س -237/2.

(35) انظر: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. 610/2/5.

(36) م.ن. -ص: 607/2/5.

(37) انظر: المقَّري: نفح الطيب -م.س. -487/2-488.

(38) انظر: م.ن. -ص:384.

(39) انظر: ابن سعيد: المغرب -م.س. -384/2-385.

(40) انظر: المقَّري: نفح الطيب -م.س. -385/2.

(41) انظر: ابن إدريس: زاد المسافر -م.س. -ص:114.

نجد له نصوصا جمعت مقومات الشعر الجيّد من فكرة وإحساس وصورة وغيرها، كرائيّته في الحنين إلى البقاع المقدّسة، مثلا- نجد له نصوصا أخرى هي أقرب إلى النثر منها إلى الشعر. ومن هذه النصوص بعض ما قاله في النصائح والإرشادات.

وأيّاما كان التفاوت فإنّ ابن جبير واحد من أبرز شعراء الفترة التي تناولنا نتاجها بالبحث. وتبدو منزلته من خلال «الشهادات» التي وقفنا عليها في المصادر التي ترجمت له. قال ابن عبد الملك: «وكان أديبا بارعا كاتبا بليغا شاعرا مجيدا... ونظمه فائق»[42]، ثم قال: «وأغراضه في أشعاره مستحسَنة، ولولاخوف الإملال والخروج بها إلى غير ما له قصدنا لاستكثرنا منها»[43]، وقال ابن الخطيب: «وأغراضه جليلة، ومحاسنة ضخمة»[44]؛ ووصف رائيته التي نظمها «وقد شارف المدينة المكرّمة طيبة» بالشهرة[45]؛ وقال المقّريّ: «وعُني بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقدّم في صناعة القريض»[46]، ونوّه بقصيدته المذكورة فقال: «وهي ثلاثون بيتاً من الغُرّ»[47].

(42) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة -م.س. -5/2/607-608.

(43) م.ن. -ص:620.

(44) الإحاطة -م.س. -2/231.

(45) انظر: م.ن. -ص:335.

(46) المقّري: نفح الطيب -م.س. -2/382.

(47) م.ن. -ص:487.

المصادر والمراجع

أوّلا : **باللغـــة العربيّـــة :**

أ ـ الكتب :

- الآمـديّ، أبو القاسم حسن بن بشر : الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتـريّ ـ تحقيـق السيد أحمد صقر ـ القاهرة ـ دار المعارف بمصر -د.ط. -1380 هـ. -1961 م.

-ابن الأبّـار، أبو عبد الله محمد القضاعيّ البلنسيّ : التكملة، لكتاب الصلـة -تصحيـح عزّت العطّار الحسينيّ-القاهرة -مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة -د.ط. -1375 هـ. - 1956 م.

- المؤلّف نفسه :ديوان ابن الأبّار -تحقيق عبد السلام الهرّاس -تونس -الدار التونسـيّة للنشر -د.ط. -1405 هـ.-1985 م.

- ابن أبي أُصيبعة، أبو العبّـاس :عيون الأنباء،في طبقات الأطباء -تحقيـق نـزار رضـا- بيروت -مكتبة الحياة -د.ط. -1965 م.

- ابن الأثير، أبو الحسن : الكامل في التـاريخ -بـيروت -دار الفكـر العربـيّ -الطبعـة الثانيـة -1967 م.

- ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل بـن يوسـف الغرنـاطيّ : نثير الجُمـان، في شعر مـن نظمني وإيّاه الزمـان -حقّقـه ونشـره محمـد رضـوان الدايـة بعنـوان : « أعـلام المغـرب والأندلس في القرن الثامن » -بيروت -مؤسّسة الرسالة -الطبعة الثانية -1407 هـ. - 1987 م.

- المؤلّف نفسه : نثير فرائـد الجمـان، في نظـم فحـول الزمـان -تحقيـق محمـد رضـوان الداية-بيروت -دار الثقافة -د.ط. -1967 م.

- ابن إدريس، أبو بحر صفوان التُجيبيّ : زاد المسافر، وغُرّة مُحيّا الأدب السافر -تحقيـق عبدالقادر محداد -بيروت -دار الرائد العربيّ -د.ط. -1970 م.

- ابن بسّام، أبو الحسن علـيّ الشّـنْترَيني : الذخـيرة، في محاسـن أهـل الجزيـرة -تحقيـق إحسان عبّاس -ليبيا -تونس -الدار العربيّة للكتاب -د.ط. -1975 م.

- ابن بَشْكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك : كتاب الصِّلة في تاريخ أئمّة الأندلس وعلمائهم ومحدّثيهم وفقهائهم -تحقيق السيد عزّت العطّار الحسينيّ- القاهرة-مكتب نشر الثقافة الإسلاميّة -د.ط. -1374 هـ. -1955 م.

- ابن تاويت، محمد ومحمد الصادق عفيفيّ : الأدب المغربيّ -بيروت -دارالكتاب اللبنانيّ -الطبعة الثانية -1969 م.

- ابن تومرت، محمد (مهديّ الموحّدين) : أعزّ ما يُطلَب -تحقيق عمّار طالبيّ- الجزائر-المؤسّسة الوطنيّة للكتاب -د.ط. -1985 م.

- ابن جُبَير، أبو الحسين محمد بن أحمد الكِناني : رحلة ابن جبير -الجزائر -موفم للنشر -د.ط. -د.ت.

- ابن الجَهْم، أبو الحسن عليّ : ديوان عليّ بن الجهم -تحقيق خليل مردم بك - بيروت-لجنة التراث العربيّ -الطبعة الثانية -د.ت.

- ابن حجّة، تقيّ الدين أبو بكر الحَمَويّ : بلوغ الأمل، في فنّ الزجل -تحقيق رضا محسن القريشيّ -دمشق -منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ -د.ط.-1974 م.

- ابن حزم، أبو محمد عليّ بن أحمد بن سعيد الأندلسيّ : جمهرة أنساب العرب - تحقيق عبد السلام هارون -القاهرة -دار المعارف بمصر -د.ط. -1962 م.

- المؤلّف نفسه : طوق الحمامة في الأُلْفة والأُلاّف -تحقيق حسن كامل الصيرفيّ - القاهرة -مطبعة حجازي -د.ط. -1950 م.

- ابن حمديس، أبو محمد عبد الجبار الصقلّيّ : ديوان ابن حمديس -تحقيق إحسان عبّاس -بيروت -دار صادر -د.ط. -1960 م.

- ابن حيّان، أبو مروان خلف بن حسين القرطبيّ : المقتبس،من أنباء أهل الأندلس - تحقيق محمود عليّ مكّيّ -بيروت -دار الكتاب العربيّ -د.ط. -1973 م.

- ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد : قلائد العِقْيان، في محاسن الأعيان -د.ط. - 1384هـ.

- ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح : ديوان ابن خفاجة -تحقيق السيّد مصطفى غازي -الإسكندريّة -منشأة المعارف -د.ط. -1960 م.
- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد السلمانيّ : الإحاطة، في أخبار غرناطة-تحقيق محمد عبد الله عنان-القاهرة-مكتبة الخانجيّ -الطبعة الأولى - 1394هـ. -1974م.
- المؤلّف نفسه :أعمال الأعلام، في من بُويع قبل الاحتلام،من ملوك الإسلام -الجزء الثاني -حقّقه ونشره ليفي بروفنسال بعنوان : « تاريخ إسبانيا الإسلاميّة » -بيروت - دار المكشوف -الطبعة الثانية -1956م.؛ الجزء الثالث -تحقيق أحمد مختار العباديّ ومحمد إبراهيم الكتّانيّ -الدار البيضاء -1964 م.
- المؤلّف نفسه : جيش التوشيح -تحقيق هلال ناجي -تونس -مطبعة المنار-د.ط. - 1967م.
- المؤلّف نفسه : ديوان الصيِّب والجَهام، والماضي والكَهام -تحقيق محمد الشريف قاهر -الجزائر -الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع -الطبعة الأولى -1971 م.
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن :كتاب العِبَر،وديوان المبتدإ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر -بيروت -دار الكتاب اللبنانيّ -د.ط. -1960 م.
- ابن رشد، أبو الوليد محمد -فَصْل المقال، وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال -الجزائر -الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -د.ط. -1982 م.
- ابن رشيق، أبو عليّ الحسن القيروانيّ :العُمْدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده -تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد -بيروت -دار الجيل -الطبعة الرابعة -1972م.
-ابن الروميّ،أبو العباس عليّ بن العباس بن جريج : ديوان ابن الروميّ -تحقيق حسين نصّار -القاهرة -الهيئة المصريّة العامة للكتاب -د.ط. -1974م.
- ابن الزقّاق، أبو الحسن عليّ بن عطيّة البَلَنْسيّ : ديوان ابن الزقّاق البلنسيّ -تحقيق عفيفة محمود ديرانيّ -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -د.ت.

- ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزوميّ : ديوان ابـن زيـدون ورسـائله - تحقيق عليّ عبد العظيم -القاهرة -مكتبة نهضة مصر -د.ط. -1957 م.

- ابن سعيد، أبو الحسن عليّ بن موسى : رايات المبرّزين، وغايـات المميّزين -تحقيـق إميلو غرسية غومس -نشر معهد دون خوان ببلنسية -مدريد -د.ط. -1942م.

-المؤلّف نفسـه : الغصـون اليانعـة، في محاسـن شـعراء المائـة السـابعة -تحقيـق إبراهيـم الأبياريّ -القاهرة -دار المعارف بمصر -الطبعة الثانية -د.ت.

- المؤلّف نفسه : الـمُغرب، في حلى الـمَغرب -تحقيق شـوقي ضيـف -القـاهرة -دار المعـارف بمصر -الطبعة الثانية -1964 م.

- ابن سَناء الملك، أبو القاسم هبة الله بن جعفـر : دار الطِّـراز في عمـل الموشّـحات - تحقيق جودت الركابيّ -دمشق -دار الفكر -الطبعة الثالثة -1980 م.

- ابن سهل، إبراهيم : ديوان ابـن سـهل الأندلسـيّ -بـيروت -دار صـادر -د.ط. - 1387هـ. -1967 م.

- ابن شُهَيد، أبو عامر أحمد بن عبد الملك : ديوان ابن شهيد الأندلسيّ - جمع وتحقيـق شارل بِيلا -بيروت -دار المكشوف -الطبعة الأولى -1963 م.

- ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك بن محمـد البـاجيّ : تـاريخ المـنّ بالإمامـة على المستضعَفين، بأن جعلهم الله أئمّة وجعلهم الوارثين -السِّفْر الثـاني -تحقيـق عبد الـهادي التازيّ -بيروت -دار الأندلس -الطبعة الأولى -1383 هـ. -1964 م.

- ابن طُفَيل، أبو بكر محمد بن عبد الملك : حيّ بن يقظان -بـيروت -دار المشـرق - الطبعة الثانية -1968 م.

- ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمـد الأنصـاريّ الأَوْسـيّ المرّاكُشـيّ : كتـاب الذيــل والتكلمة،لكتابَي الموصول و الصلة -السفر الأول -تحقيق محمدبن شريفة؛ بقيـة السفر الرابـع، والسـفران الخـامس والسـادس -تحقيـق إحسـان عبّـاس -بـيروت -دار الثقافة -د.ط. -1965 -1973م.

ابن عذاري المراكشيّ : البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب -الجزء الرابع -تحقيق إحسان عبّاس -بيروت -دارالثقافة -د.ط. -1967 م.

- ابن عربيّ،محيي الدين الحاتميّ : ترجمان الأشواق -بيروت -دار بيروت للطباعة والنشر -1401 هـ. -1981 م.

- ابن الفارض،أبو حفص عمر : ديوان ابن الفارض -بيروت -دار بيروت للطباعة والنشر -د.ط. -1399 هـ. -1979 م.

- ابن فرحون،برهان الدين إبراهيم بن علي المدنيّ :الديباج المذْهَب، في معرفة أعيان المذْهَب -القاهرة -مطبعة السعادة -الطبعة الأولى -1329 هـ.

- ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزديّ : تاريخ علماء الأندلس -تحقيق إبراهيم الأبياريّ -بيروت -دار الكتاب اللبنانيّ -الطبعة الأولى -1403 هـ. -1983م.

-ابن قُتَيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم : الشعر والشعراء -بيروت -دار إحياء العلوم -الطبعة الثالثة -1407 هـ. -1987 م.

- ابن الكتّانيّ،أبو عبد الله محمد الطبيب : كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس- تحقيق إحسان عبّاس -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -د.ت.

- ابن هانئ، أبو القاسم محمد الأزديّ : ديوان ابن هانئ -نشر كرم البستانيّ -بيروت-دار بيروت للطباعة والنشر -د.ط. -1400 هـ. -1980 م.

- أبو خليل، شوقي -المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام : الأَرك، بقيادة يعقوب المنصور الموحدي؛العِقاب،بقيادة أبي عبد الله محمد الناصر -دمشق -دار الفكر -د.ط. -1405هـ. -1985 م.

- أبو مدين، شُعيب بن الحسين الأنصاريّ : ديوان القطب الربّانيّ، العارف بالله الغوث الصمدانيّ، سيدي شعيب أبي مدين بن الحسين الأنصاريّ الأندلسيّ الإشبيليّ-جمع وترتيب العربيّ بن مصطفى الشوار -دمشق -مطبعة الترقّي -الطبعة الأولى -1357هـ. -1937 م.

-أحمد،مصطفى أبو ضيف : أثر العرب في تاريخ المغرب خلال عصرَي المُوَحّدين وبني مَرِين -الإسكندريّة -مؤسّسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع -الطبعة الأولى-1983م.

- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها، رحمهم الله، والحروب الواقعة بها - حقّقه ونشره، مع « تاريخ افتتاح الأندلس » لابن القُوطيّة، إسماعيل العربيّ -الجزائر - المؤسّسة الوطنيّة للكتاب -د.ط. -1989 م.

- إسماعيل، عزّ الدين : التفسير النفسيّ للأدب -بيروت -دار العودة، ودار الثقافة - د.ط. -د.ت.

- المؤلّف نفسه : الشعر العربيّ المعاصر : قضاياه وظواهره الفنّيّة والمعنويّة -القاهرة - دار الكتاب العربيّ للطباعة والنشر -د.ط. -1967 م.

- أشباخ، يوسف :تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين -ترجمة محمد عبد الله عنان -نشر المعهد الخليفيّ بتطوان -القاهرة -لجنة التأليف والترجمة والنشر -د.ط.- 1360هـ. -1941م.

- الأشتر، عبد الكريم : نصوص مختارة من الأدب العباسيّ -بيروت -دار الفكر - الطبعة الثانية -1969 م.

- الإصفهانيّ، أبو عبد الله عماد الدين محمد الكاتب : خريدة القصر، وجريدة العصر : قسم شعراء المغرب والأندلس -تحقيق : آذرتاش آذرنوش -تنقيح وزيادة : محمد المرزوقيّ ومحمد العروسيّ المطويّ والجيلاليّ بن الحاج يحيى -تونس -الدار التونسيّة للنشر -الطبعة الأولى -1971 م.

- الأعرجيّ، محمد حسين : مقالات في الشعر العربيّ المعاصر -نيقوسيا -دار وهران للدراسات والنشر -د.ط. -1985م.

- الأعمى التُّطِيليّ، أبو العبّاس أحمد بن عبد الله بن هريرة : ديوان الأعمى التطيليّ ومجموعة من موشّحاته -تحقيق إحسان عبّاس -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -1963م.

- الإِلْبِيريّ، أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود التُجِيبيّ : ديوان أبي إسحاق الإلبيريّ الأندلسيّ -تحقيق محمد رضوان الداية -بيروت -مؤسّسة الرسالة -الطبعة الأولى - 1396هـ. -1976م.

- أنيس، إبراهيم : موسيقى الشعر -بيروت -دار القلم -د.ط. -د.ت.

- الأهوانيّ، عبد العزيز : الزجل في الأندلس -القاهرة -مطبعة الرسالة -د.ط. - 1957م.

- الباقلاّنيّ، أبو بكر محمد بن الطيّب : إعجاز القرآن -تحقيق السيّد أحمد صقر - القاهرة -دار المعارف بمصر -د.ط. -د.ت.

- الأوسيّ، حكمة عليّ : الأدب الأندلسيّ في عصر الموحّدين -القاهرة -مكتبة الخانجي -د.ط. -د.ت.

- البرقوقيّ، عبد الرحمن : شرح ديوان المتنبّي -بيروت -دار الكتاب العربيّ -د.ط. - 1400هـ. -1980 م.

- بروكلمان، كارل : تاريخ الشعوب الإسلاميّة -ترجمة أمين نبية فارس، ومنير البعلبكيّ -بيروت -دار القلم -الطبعة الرابعة -1963 م.

- بِل، ألفرِد : الفرق الإسلاميّة في الشمال الإفريقيّ -ترجمة عبد الرحمن بدويّ - بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -الطبعة الثانية -1981 م.

- البلفيقيّ، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم : المقتضَب من كتاب تحفة القادم- تحقيق إبراهيم الأبياريّ -بيروت -دار الكتاب اللبنانيّ -الطبعة الثانية - 1403هـ. -1983م.

- البهبيتيّ، نجيب محمد : تاريخ الشعر العربيّ حتى آخر القرن الثالث الهجريّ - بيروت -دار الفكر -د.ط. -د.ت.

- البيذق، أبو بكر بن عليّ الصنهاجيّ : كتاب أخبار المهديّ بن تومرت -تحقيق عبد الحميد حاجيات -الجزائر -المؤسّسة الوطنيّة للكتاب -الطبعة الثانية -1986 م.

- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر : كتاب الحيوان -تحقيق عبد السلام محمد هارون -بيروت -دار الكتاب العربيّ -الطبعة الثالثة -1388هـ. -1969 م.

- جبّور،جبرائيل : ابن عبد ربّه وعِقْده -بيروت -دار الآفاق الجديدة -الطبعة الثانية -1979م.

- الجرجانيّ،عبد القاهر :أسرار البلاغة -تصحيح محمد رشيد رضا -القاهرة -مكتبة ومطبعة محمد عليّ صبيح وأولاده -الطبعة السادسة -1379 هـ. -1959 م.

- الجرجانيّ، عليّ بن عبد العزيز : الوَساطة بين المتنبّي وخصومه -تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ومحمد عليّ البجاويّ -القاهرة -مطبعة مصطفى البابي الحلبيّ -الطبعة الرابعة -1966م.

- الجنديّ، درويش :ظاهرة التكسّب وأثرها في الشعر العربيّ ونقده -القاهرة -مطبعة نهضة مصر -د.ط. -1970م.

- حسين، طه : حديث الأربعاء -القاهرة -دار المعارف بمصر -الطبعة العاشرة -1967م .

- الحِلّيّ، صفيّ الدين : ديوان صفيّ الدين الحِلّيّ -بيروت -دار بيروت للطباعة والنشر -د.ط. -د.ت.

- الحميديّ، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتّوح الأزديّ : جذوة المقتبس، في ذكر ولاة الأندلس -القاهرة -الدار المصريّة للتأليف والترجمة -د.ط. -1966 م.

- الحِمْيَريّ، محمد بن عبد المنعم : كتاب الروض المعطار، في خبر الأقطار -تحقيق إحسان عبّاس -بيروت -دار القلم -د.ط. -1975 م.

- خالص،صلاح : إشبيلية في القرن الخامس الهجريّ -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -1965م.

- الخزُاعيّ،دِعْبِل بن عليّ : ديوان دعبل بن عليّ الخزاعيّ -جمع وتحقيق محمد يوسف نجم -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -1962 م.

- خُلَيف، يوسف : الشّعراء الصعاليك في العصر الجاهليّ -القاهرة -دار المعارف بمصر -الطبعة الثانية -د.ت.

- الداية، محمد رضوان : ابن خفاجة -دمشق -المكتب الإسلاميّ -الطبعة الأولى -1972م.

- الرُّصافيّ البلنسيّ، أبو عبد الله محمد بن غالب : ديوان الرصافيّ البلنسيّ -جمع وتحقيق إحسان عبّاس -بيروت -دار الشروق -الطبعة الثانية -1403 هـ. -1983 م.

- الرُّعَيْنيّ، أبو الحسن عليّ بن محمد الإشبيليّ :برنامج شيوخ الرعينيّ -تحقيق إبراهيم شبوح -دمشق -وزارة الثقافة -د.ط. -1381 هـ. -1962 م.

- الركابيّ، جودت : في الأدب الأندلسيّ -القاهرة -دار المعارف بمصر -الطبعة الثالثة -1970م.

- الريسونيّ، محمد منتصر : الشعر النسويّ في الأندلس -بيروت -دار مكتبة الحياة -د.ط. -د.ت.

- الزركشيّ، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم : تاريخ الدولتين الموحّديّة والحفصيّة -تحقيق محمد ماضور -تونس -المكتبة العتيقة -الطبعة الثانية -1966 م.

- سالم،السيد عبد العزيز : قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس -بيروت -دار النهضة العربيّة -د.ط. -1971 م.

- سلطانيّ، الجيلاليّ : اتجاهات الشعر في عصر المرابطين بالمغرب والأندلس -رسالة ماجستير -جامعة دمشق -1407 هـ. -1987 م.

- السُّهرَوَرديّ، شهاب الدين يحيى : السهرورديّ المقتول -مجموعة من نصوصه أعدّها وحقّقها يوسف إيبس -بيروت -دار الحمراء للطباعة والنشر -الطبعة الأولى -1990 م.

- السيّاب، بدر شاكر : ديوان بدر شاكر السيّاب -بيروت -دار العودة -د.ط. -1971م.

- الشّشتريّ، أبو الحسن عليّ بن عبد الله النميريّ اللّوشيّ -ديوان أبي الحسن الشّشتريّ -تحقيق علي سامي النشار -الإسكندريّة -منشأة المعارف -الطبعة الأولى - 1960م.
- شعيرة، محمد عبد الهادي : المرابطون : تاريخهم السياسيّ -القاهرة -مكتبة القاهرة الجديدة -الطبعة الأولى -1969 م.
- الشكعة، مصطفى : الأدب الأندلسيّ : موضوعاته وفنونه -بيروت -دار العلم للملايين -الطبعة الرابعة -1979م.
- الصفديّ، صلاح الدين خليل بن أيبك : توشيع التوشيح -تحقيق ألبير حبيب مطلق - بيروت -دار الثقافة -الطبعة الأولى -1966 م.
- الضبّيّ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة : بغية الملتمس، في تاريخ رجال أهل الأندلس -نشر كوديرا -مجريط -روخس -1884م.
- الضبّي، المفضّل بن محمد بن يعلى : المفضّليّات -تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون -القاهرة -دار المعارف بمصر -الطبعة الرابعة -1965 م.
- الطائيّ، أبو سفّانة حاتم : ديوان حاتم الطائيّ -بيروت -دار بيروت للطباعة والنشر - د.ط. -1394هـ. 1974 م.
- عبّاس، إحسان : اتجاهات الشعر العربيّ المعاصر -سلسلة عالم المعرفة -الكويت - المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب -1398 هـ. -1978 م.
- المؤلّف نفسه : تاريخ الأدب الأندلسيّ : عصر سيادة قرطبة -بيروت -دار الثقافة - الطبعة السادسة -1981م.
- المؤلّف نفسه : تاريخ الأدب الأندلسيّ : عصر الطوائف والمرابطين -بيروت -دار الثقافة -الطبعة الرابعة -1974 م.
- عبّاسيّ، عبد الحميد : وصف الطبيعة في الشعر الأندلسيّ في القرن الرابع الهجريّ - رسالة ماجستير -جامعة دمشق -1986 -1987 م.

- العبدريّ، محمد بن محمد بن عليّ بن أحمد بن مسعود : الرحلة المغربيّة -تحقيق أحمد ابن جدّو -نشر كلّية الآداب الجزائريّة -قسنطينة -مطبعة البعث -د.ط. -د.ت.
- عتيق، عبد العزيز : الأدب العربيّ في الأندلس -بيروت -دار النهضة العربيّة - الطبعة الثانية -1396 هـ. -1976 م.
- عنان، محمد عبد الله : عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس -القاهرة - لجنة التأليف والترجمة والنشر -الطبعة الأولى -1964 م.
- عناني، محمد زكريا : ديوان الموشّحات الأندلسيّة : مُستدرَك يتضمّن نصوصا تُنشَر لأول مرّة -الإسكندريّة -دار المعرفة الجامعيّة -الطبعة الثانية -1986م.
- غَرْسِية غومس، إميليو : الشعر الأندلسيّ : بحث في تطوّره وخصائصه -ترجمة حسين مؤنس -القاهرة -دار النهضة العربيّة -الطبعة الثالثة -1969 م.
- الغرناطيّ، أبو القاسم محمد بن أحمد : رفع الحُجُب المستورة، في محاسن المقصورة - مصر -مطبعة السعادة -د.ط. -1344هـ.
- فرّوخ، عمر : تاريخ الفكر العربيّ إلى أيّام ابن خلدون -بيروت -دار العلم للملايين -الطبعة الثانية -1966م.
- قُدامة بن جعفر، أبو الفرج : نقد الشعر -تحقيق كمال مصطفى -مصر -مكتبة الخانجي -بغداد -مكتبة المثنى -د.ط. -1963م.
- القرطاجنّيّ، أبو الحسن حازم الأنصاريّ : ديوان حازم القرطاجنّيّ -تحقيق عثمان الكعّاك -بيروت -دار الثقافة -د.ط. -1964 م.
- المؤلّف نفسه : منهاج البلغاء، وسراج الأدباء -تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة - بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -الطبعة الثانية -1981 م.
- قريبيز، محمد :الشعر الصوفيّ في الأندلس في عصر المرابطين والموحّدين -رسالة ماجستير -جامعة حلب -1406 هـ. -1986 م.

- كتاب الحلل الموْشيّة، في ذكر الأخبار المرّاكُشية -لمؤلّف أندلسيّ من أهل القرن الثامن الهجريّ -تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة -الدار البيضاء -دار الرشاد الحديثة -الطبعة الأولى -1399هـ. -1979م.

- الكرميّ، حسن سعيد : قول على قول -بيروت -دار لبنان -د.ط. -1972م.

- الكريم، مصطفى عوض : فنّ التوشيح -بيروت -دار الثقافة -الطبعة الثانية -1974م.

- المؤلّف نفسه : الموشّحات والأزجال -سلسلة فنون الأدب العربيّ -القاهرة -دار المعارف بمصر -د.ط. -1965م.

- كَنُّون،عبد الله :عبد الواحد المرّاكشيّ -سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب -بيروت -مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانيّ للطباعة والنشر -د.ط. -د.ت.

- المؤلّف نفسه : النبوغ المغربيّ، في الأدب العربيّ -بيروت -دار الكتاب العربيّ -الطبعة الثانية -1961 م.

- كُورينطي، ف.: ديوان ابن قُزْمان : نصّاً ولغة وعروضا -مدريد -المعهد الإسبانيّ العربيّ للثقافة -د.ط. -1980م.

- لي تُورنُو، رُوجي : حركة الموحّدين في المغرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر- ترجمة أمين الطيّبيّ -ليبيا -تونس -الدار العربيّة للكتاب -د.ط. -1982 م.

- مؤنس، حسين : رحلة الأندلس -القاهرة -الشركة العربيّة للطباعة والنشر -الطبعة الأولى -1963م.

- مجموع رسائل موحّديّة، من إنشاء كتاب الدولة المؤمنيّة -إصدار إ. لافي بروفانصال -الرباط -المطبعة الاقتصاديّة -د.ط. -1941م.

- محيي الدين بن عربيّ في الذكرى المائويّة الثامنة لميلاده -الكتاب التذكاريّ -إشراف وتقديم إبراهيم مدكور -القاهرة -دار الكتاب العربيّ للطباعة والنشر -1389هـ. -1969م.

- المراكشيّ، محيي الدين أبو محمد عبد الواحد بن عليّ التميميّ : المعجب، في تلخيص أخبار المغرب -تحقيق ر. دوزي -ليدن -إ.ج. بريل -د.ط. -1981 م.

- مرتاض، عبد الملك : ا - ى : دراسة سيميائيّة تفكيكيّة لقصيدة « أين ليْلاي » لمحمد العيد -الجزائر -ديوان المطبوعات الجامعيّة -د.ط. -1992م.

- المؤلّف نفسه : بنية الخطاب الشعريّ : دراسة تشريحيّة لقصيدة « أشجان يمنيّة »- بيروت : دار الحداثة للطباعة والنشر -الطبعة الأولى -1986م.

- المؤلّف نفسه : النص الأدبيّ : من أين؟ وإلى أين؟ -الجزائر -ديوان المطبوعات الجامعيّة -د.ط. -1983م.

- المطويّ، محمد العروسيّ : السلطنة الحفصيّة : تاريخها السياسيّ، ودورها في المغرب الإسلاميّ -بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -د.ط. -1406 هـ. -1986م.

- المعتمد، أبو القاسم محمد ابن عباد : ديوان المعتمد ابن عباد -تحقيق رضا حبيب السويسيّ -تونس -الدار التونسيّة للنشر -د.ط. -1965م.

- المقّريّ، شهاب الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد التلمسانيّ : نفح الطِّيب، من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب -تحقيق إحسان عبّاس - بيروت -دارصادر -د.ط. -1968م.

- الملائكة ، نازك : قضايا الشعر المعاصر -بغداد -مكتبة النهضة -الطبعة الثانية - 1965م.

- مندور، محمد : الأدب وفنونه -القاهرة -دار نهضة مصر للطباعة والنشر -الطبعة الثانية -د.ت.

- المؤلّف نفسه : النّقد والنقّاد المعاصرون -القاهرة -مطبعة نهضة مصر -د.ط. - د.ت.

- المنوني، محمد : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين -تطوان -معهد مولاي الحسن -د.ط. -1369هـ. -1950م.

- موسى، عزالدين أحمد : النشاط الاقتصاديّ في المغرب الإسلاميّ خلال القرن السادس الهجريّ -بيروت -دار الشروق -الطبعة الأولى -1403هـ. -1983م.
- ناصر، محمد : الشعر الجزائريّ الحديث : اتّجاهاته وخصائصه الفنيّة -بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -الطبعة الأولى -1985م.
- الناصريّ، أبو العباس أحمد السلاويّ : الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى - تحقيق ولدي المؤلّف : جعفر ومحمد -الدار البيضاء -دار الكتاب -د.ط. -1954م.
- النباهيّ، أبو الحسن بن عبد الله المالقيّ : المَرْقَبة العليا، فيمن يستحق القضاء والفُتْيا- نشره ليفي بروفنسال بعنوان : « تاريخ قضاة الأندلس » -بيروت -المكتب التجاريّ للطباعة والنشر والتوزيع -د.ط. -د.ت.
- النجّار، عبد المجيد : المهديّ بن تومرت : حياته وآراؤه وثورته الفكريّة والاجتماعيّة بالمغرب -بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -الطبعة الأولى -1403هـ. -1983م.
- نُعيمة، ميخائيل : الغربال -بيروت -دار بيروت للطباعة والنشر -الطبعة السابعة -1964م.
- النويهيّ، محمد : ثقافة الناقد الأدبيّ -بيروت -دار الفكر -الطبعة الثانية -1969م.
- هيكل، أحمد : الأدب الأندلسيّ من الفتح إلى سقوط الخلافة -القاهرة -دار المعارف بمصر -الطبعة السادسة -1971م.
- ياقوت،شهاب الدين :معجم الأدباء -نشر أحمد فريد رفاعي -مصر -مطبعة دار المأمون -الطبعة الأخيرة [؟] -د.ت.
- اليعلاويّ،محمد : ابن هانئ المغربيّ الأندلسيّ، شاعر الدولة الفاطميّة -بيروت -دار الغرب الإسلاميّ -د.ط. -1405هـ. -1985م.

ب ـ **الدوريّـــات** :

- الأصالة (مجلّة) -الجزائر -وزارة التعليم الأصليّ والشؤون الدينيّة -السنة الرابعة - العدد : 27 -رمضان -شوال 1395 هـ. -سبتمبر -أكتوبر 1975م.

- الثقافة(مجلّة) -الجزائر -وزارة الإعلام والثقافة -السنة الرابعة -العدد :20 -ربيع الأول -ربيع الثاني 1394هـ. -أبريل -مايو 1974م ؛ العدد : 22 -رجب -شعبان 1394هـ. -أوت -سبتمبر 1974م.
- الثقافة (مجلّة) -الجزائر -وزارة الثقافة والسياحة -السنة الخامسة عشرة - العدد :87 -شعبان -رمضان 1405هـ. -مايو -يونيو 1985م.

ثانيا : **بغير العربيّة** :

- Benachenhou , A . : La dynastie almoravide et son art - Alger - Imprimerie E.P.A.
- Bourouiba, Rachid : Abd Al - Mu'min, Flambeau des Almohades - Alger - S.N.E.D. - 2e édition - 1982.
- Julien , Charles André : Histoire de l'Afrique du Nord - Paris - Payot - 2e édition - 1966.
- Khalis, Salah : La vie littéraire à Séville au 11e siècle - Alger - S.N.E.D.
- Lévi - Provençal, E. : Islam d'Occident : Etude d'histoire médiévale - Paris - Maisonneuve - 1948.

فهرس الموضوعات